الدكتور محمد سعد الدين العريس

زاهية قدورة

الرائدة

في فكرها وثقافتها ونهجها التربوي



دار النهضة العربية

زاهيــة قــدوره

الــرائــدة

في فكرها وثقافتها ونـهجها التربوي

الدكتور محمد سعد الدين العريس





دار النهضة العربية

رقم الكتاب: 19165

اسم الكتاب: زاهية قدورة الرائدة في فكرها وثقافتها ونهجها التربوي

المؤلف: د. محمد سعد الدين العريس

الموضوع: تاريخ

رقم الطبعة: الاولى

سنة الطبع: 2012م. 1433هـ

القياس: 17 × 24

عدد الصفحات: 447

منشورات: دار النهضة العربية
بيروت - لبنان

الزيدانية - بناية كريدية - الطابق الثاني

تلفون: 736093 / 743167 / 743166 - 1 - 961 +

فاكس: 736071 / 735295 - 1 - 961 +

ص ب: 0749 - 11 رياض الصلح

بيروت 072060 11 - لبنان

بريد الكتروني: e-mail: darnahda@gmail.com

ISBN 978-614-402- 479-9

إهـــــداء

إلى كل من أحب الدكتورة زاهية قدوره، وتأثر بفكرها ومبادئها،

إلى الذين أخلصوا لها في حياتها وغيابها،

إلى الذين عارضوها في نهجها وحياتها.

أقدم هذا القبس الذي أنار الطريق في عتمة الظلمة الفكرية للكثيرين من بعدها.

محمد العريس

تقديم

لهذا الكتاب أهمية خاصة عندي، لما للدكتورة زاهية قدوره من مكانة في نفسي، ولما لمحمد العريس، من مرتبة في تقديري.

أما الدكتورة زاهية قدوره رحمها الله، فهي سيدة عاشت بحركة وديناميكية دائمة، ناشطة تأبى الراحة والهدوء، وتسعى لمد يد العون لمن يقصدها، وقد تبحث عن صاحب حاجة لتقدم له المعونة والمساعدة.

وعندما نطرق باب أنشطتها نذكرها مؤسسة لاتحاد الجامعيات اللبنانيات عام ١٩٥٣، وإثراءها المكتبة العربية والإسلامية بمجموعة من الكتب منها: عائشة أم المؤمنين، والشعوبية وأثرها السياسي والاجتماعي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، وتاريخ العرب الحديث، وتاريخ شبه الجزيرة العربية، وغيرها. وأذكر تلك الدماثة الخلقية التي تمتعت بها وهي أستاذتي عندما أهدت إليّ بعض مؤلفاتها، معتذرة أنها لن تستطيع تقديمها كلها لنفادها.

وعندما تدخل بيتها تلفت نظرك مكتبة يتوفر فيها عدد من الكتب، والتي هي عبارة عن مصادر ومراجع قيمة، وتضم كذلك مجموعة من الصحف والمجلات الفكرية.

ونذكرها في عمادة كلية الآداب في الجامعة اللبنانية ١٩٧١ – ١٩٧٧ م، حيث تركت بصماتها في كثير من أمور الكلية، وعالجت قضايا تربوية وإدارية، وكان لها دور في الإشراف على الرسائل والأطروحات.

ولقد سبق للدكتور محمد العريس في الحديث والكتابة عن الدكتورة زاهية قدوره، صحافيون، وطلاب جامعيون. ونذكر هنا ما نشرته جريدة اللواء اللبنانية عام ١٩٨٧ م، حيث تابعت فيها بعض مراحل حياتها، كذلك ما كتبته نجلاء أبو عز الدين.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو جزء من عمل، أراد من خلاله الدكتور محمد العريس إظهار آراء الدكتورة زاهية قدوره، هذه الشخصية اللبنانية والعربية، الوطنية والقومية والتربوية والأكاديمية، وكذلك أفكارها وثقافتها، والقفزة العلمية التي أحدثتها في مجالات متعددة.

أما متى عرفْتُ الدكتورة زاهية قدوره؟ فكان ذلك أولاً، من كونها كانت صديقة لشقيقتي المرحومة الدكتورة فائزة سعد الدين، وعرفتها أيضاً كوني أحد طلابها في كلية

الآداب في الجامعة اللبنانية عندما كنت أعد لدبلوم الدراسات العليا في التاريخ، وكان ذلك عام ١٩٦٧م، وكانت لي معها أيضاً لقاءات متعددة خصوصاً في مجال العمل لإعداد أطروحة الدكتوراه.

كل ما ذكرت ولم أذكر، يدفع الإنسان لأن يسعى لاكتشاف شخصيتها ومقوماتها، والتي هي نتاج تربية أسرية، وممارسات ثقافية وسياسية واجتماعية.

أما الباحث الدكتور محمد العريس الذي طرق باب الحديث والكتابة عن الدكتورة زاهية قدوره، فقد تعرفت عليه أثناء تدريسي في الفرع الأول لكلية التربية في الجامعة اللبنانية، وكان رئيساً لقسم شؤون الأساتذة والموظفين فيها.

لقد عرفت فيه الإنسان بكل ما في الكلمة من معنى، والراغب في التعلم، وهي سمة أساسية من سمات المشتغلين بالبحث العلمي، والمحب للآخرين. وهو أيضاً ودود، ومعطاء بلا حدود، وكان قريباً من الدكتورة زاهية، يسألها ويستوضحها بعض القضايا التي كانت تصادفه، خصوصاً عندما وافتها المنية، وعمله هذا كان تكريماً لزاهية قدوره في حياتها. لأننا في كثير من الأحيان نكرم الأشخاص بعد مماتهم، مع أن التكريم كم يكون جميلاً في حياة الإنسان لما فيه من تأثير معنوي على المُكَرَّم. وكم كنا نتمنى لو طال عمرها وحضرت عند صدور هذا الكتاب، لكنها إرادة الله وأجلها قد أتى، فعليها الرحمة، وليسكنها فسيح جناته.

شكراً لك يا دكتور محمد، باسم محبي الدكتورة زاهية قدوره، ومحبي العلم والمعرفة في الوقت نفسه، وأريد أن أقول لك أنك حصلت على الدكتوراه وتعلم أن الكثيرين يفهمون الدكتوراه على أنها نهاية الطريق، وأن حاملها أصبح عالماً. بينما هي بداية طريق يمكن أن يسلكه العالم، حيث يتابع منهجه البحثي العلمي ليصير عالماً بحق. فاللقب العلمي لا يكتفى به، ولا يجوز العودة إلى الأمية العلمية، بل السير في طريق القراءة والتفكير والمناقشة والتعلم، والنقد البناء، حتى يبلور الباحث شخصيته، ويصبح مدرسة علمية، يستفيد منها طلابه، وزملاؤه، والقراء.

وفقك الله، وجعل هذا الكتاب باكورة إنتاجك، الذي نتمنى أن يزداد ويثري المكتبة العربية، حيث لديك خميرة العطاء الجيد. والله ولي التوفيق.

بيروت في ١٥/ ٣/ ٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور محمد منير سعد الدين

تصدير

لا أريد من هذه الكلمات، تنزيه نفسي وتفنيد مقاصدي؛ عن المطمح الذي دفعني لهذا المؤلف. إنما أبغي؛ توضيح بعض النقاط، وتبرير أسباب؛ أعتبرها جوهرية في وضعه.

إن وضع تاريخ السِّير وتدوين مسيرة حياة الكثيرين على مختلف مشاربهم واتجاهاتهم، متعددة في عالمنا العربي، وفي العوالم الأخرى.

وليس من الضروري أن كل من كتب سيرة، وأرخ لمسيرة، أن يكون صادقاً وموضوعياً في عمله، ولكن من المفترض أن يكون باحثاً ومقمشاً في مختلف الجوانب العامة والخاصة: الاجتماعية والفكرية، للشخصية التي يكتب عن سيرتها، ويدون مسيرة حياتها.

إن تاريخ تدوين السير الشخصية وكتابة المراحل المتعددة لمسيرات القادة، والمفكرين والمبدعين من رجال دين ودنيا، حفلت بمجلدات كثيرة، وكتب عديدة، أراد واضعوها أن يظهروا حياة الشخصيات التي أعجبوا بمسيرات حياتهم من غير أن يكون فيها؛ ما يستحق عناء الكتابة والتدوين.

إلى جانب ذلك هناك سير ومسيرات دونت في الكتب، وظهرت في مؤلفات مختلفة؛ من دون أن يتمكن واضعوها من الإحاطة بالمراحل التي حفلت بها حيوات الشخصيات الموضوعة عنهم.

وتعود أسباب ذلك، إلى كون هؤلاء وأولئك، لم يكونوا على دراية كافية بعملية كتابة السير، وتدوين تاريخ مسيرات كبار الشخصيات، أو صغارها على حد سواء، أو لأنهم لم يعرفوا كيفية إبراز النقاط المهمة، عند تدوين سير شخصياتهم، أكان أصحابها ذوي مراكز عالية ومهمة، أو من الذين يحتلون منصاب ومراكز من الدرجة الثانية في المجتمع، إنما لها تأثير مهم بين أركانه.

فمن المفضل لمن ينهض بعملية التدوين، أن يكون لديه إطلاع واسع على الجوانب الأساسية والمفاصل البارزة، لحياة الشخصية التي يكتب سيرتها ويدون مسيرتها. وأن يتحلى في الوقت نفسه، بالصدق والموضوعية، والأمانة الفكرية والأدبية، مبتعداً عن المبالغة، طارداً للأفكار والكلمات، التي يكون فيها تأليه وتعظيم وتقديس.

وعليه أن يبسط الأفكار الرئيسية، والمراحل النضالية، والمحطات التاريخية في حياة صاحب الشخصية، كما وردت ببساطتها وبأهميتها في الوقت نفسه. وكذلك الأمر بأمانتها وبحقيقة تصويره للأفكار الأساسية لصاحبها ومبادئه، العامة والخاصة.

وإذا روعيت هذه النقاط العامة واعتمدت المعايير العلمية، يمكن لعمله أن

يحالف الصواب، كما يمكن لمؤلفه الذيوع والانتشار، بفضل تسليط الضوء على حياة شخصية مهمة، ولكنها غير معروفة عند الناس. أو لحياة أحد المغمورين من غير أن يكون مشهوراً بين العامة.

أقول هذا، ولا أدعي أنني كاتب سيرة، كما لا أزعم أنني مؤرخ لمسيرة الدكتورة زاهية قدوره (١٩٢٠ – ٢٠٠٢) العميدة السابقة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية (١٩٧١ – ١٩٧٧) في الجامعة اللبنانية. وصاحبة العديد من الأبحاث والدراسات، وخمسة كتب تناولت فيها كثيراً من الأفكار التاريخية والسياسية والاجتماعية، فضلاً عن تصديها للإشكاليات التربوية والأكاديمية.

الكاتب، أي كاتب، لا يمكن له أن يكون منصفاً وصادقاً مع نفسه، قبل أن يكون مع الشخصية التي ينير سيرة حياتها، إذا ادعى لنفسه الفضل. وذلك لأن أي مؤلف لا يمكن له أيضاً أن يكون منصفاً، إذا أفصح عن غرامه وولعه بمن يكتب عنه.

عندما عقدت العزم على دراسة شخصية الدكتورة زاهية قدوره، في بداية التسعينات. أعترف بأنني لم أكن على دراية كافية، أو إطلاع واسع على المبادىء العامة والأفكار الرئيسة، التي يجب أن تتوافر في أي بحث أكاديمي، بالرغم من التفوق الذي تم أحرازه في مرحلة الدراسات العليا، من ناحية الأبحاث التي وضعت آنذاك، وتطبيقاتها التي درسناها على إيدي أساتذة كبار في الجامعة، كانت الدكتورة قدوره في مقدمتهم.

ومع الأيام، وبعد الإطلاع على الكتب العديدة، التي تناولت كيفية وضع بحث جامعي أكاديمي. تمهيداً لعملية الكتابة عن سيرة الدكتورة زاهية قدوره، وبنتيجة الاتصال الدائم بأساتذة أفاضل، الذين نكن لهم فضل الاعتراف بالجميل، بسبب ما كانوا يزودوننا به من توجيهات وتعليمات، فضلاً عن نصائح وتوجيهات، ذللت النقاط العسيرة، وسهلت سلوك الخطوات الأولى، للإنطلاق في هذا العمل، الذي استنفد جهد عقد من الزمن استغرقه البحث. ساهمت هذه النقاط جميعها في تبسيط الأفكار، وتوضيح الصورة الحقيقية للدكتورة زاهية قدوره، المؤرخة والباحثة، وصاحبة الخبرة التعليمية والمكانة الأكاديمية، التي كان لها فيها بصمات كثيرة ومتعددة. سواء من خلال مبادئها العامة والخاصة، أو لأفكارها وأبحاثها ومؤلفاتها، الأكاديمية والجامعية، التي تركت فيها بصمات واضحة على مسيرة الجامعة اللبنانية.

بوشر العمل في أول الأمر بتباطوء رهيب، وخوف كبير، بسبب عدم المعرفة الكافية آنذاك بالدكتورة، التي كانت ما تزال في قمة عطائها، وفي ذروة الكتابة والتأليف، تربوياً وأكاديمياً، ووضع الأبحاث التاريخية، فضلاً عن أنشطتها الثقافية والسياسية والاجتماعية، التي كان لها وقتذاك؛ أبحاث حولها كثيرة، وكلمات فيها متعددة.

وبالرغم من أن هذا العمل أعتبر من الجرأة والمغامرة في آن، إلا أنه كان فيه ما يشجع على الخوض في تشعب نقاطه المبعثرة بقوة في مفاصل حياتها. خاصة وأنها لم تكن قد فكرت في تلك الفترة، في وضع مذكرات حياتها، التي كانت مشروعاً. ولم تبدأ بتنفيذها إلا بعد سنوات من مباشرة العمل في دراسة مسيرة حياتها والبحث بين ثنايا أفكارها.

عندما دخلت إلى مكتبتها في أول أيامي ببدء العمل، شعرت كمن يدخل إلى عوالم الكبار وعقولهم الحافلة بالطروحات، التي لا حصر لها ولا عد، وبالعناوين والمواضيع التي شغلت حيزاً مهماً من اهتماماتها وأفكارها، التي ترجمت بعضاً منها في كتبها وأبحاثها ودراساتها.

وقد تبين لي خلال السنوات التالية التي عملت فيها تفتيشاً وتقميشاً، بحثاً وتعريباً لهذا الأرشيف الوافر والغني، أنه ثري بشكل لا يوصف بالوثائق والمستندات، بالإضافة إلى الأبحاث والرسائل، التي كانت مادة دسمة، ساهمت في إثراء مادة البحث، وأغنت المؤلف بلقيات مهمة، كان لها أبلغ الأثر في توضيح جوانب كثيرة من تلك المسيرة، كما أضاءت منارات وأفكاراً متعددة لصاحبتها.

وتجدر الإشارة إلى أنني آثرت في بداية هذا العمل أن أتعرف إلى حياة الدكتورة قدوره سواء في مصر، التي أمضت فيها للدراسة فترة مهمة من حياتها ومن بعدها الأكاديمية؛ التعليمية التي صرفتها في عمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية، وثالثاً دورها كناشطة سياسية في مجال العمل القومي العربي والدعوة إليه.

بمعنى آخر، لم أدخل إلى شعاب حياتها الشخصية والإنسانية، بالرغم من العلاقة الوثيقة، الإنسانية والروحية التي نسجتها معها، وبسببها كانت الدكتورة تطلعني على كل دقائق حياتها وتفاصيل مسيرتها الطويلة. وحرصت أشد الحرص على احترام هذه الخصوصية، بكل ما فيها من أسرار وبكل ما لها من علاقات، أسرية أو شخصية، لبنانية وعربية، متشعبة ومتفرقة.

وقد توافر أمامي من خلال هذا الاتصال الدائم بها، وشبه اليومي، الاطلاع على دقائق حياتها، السعيدة منها والمزعجة، المحببة إلى قلبها أو تلك التي شكلت لها في حياتها نقاطاً سوداء، وخاصة التي أثرت فيها وبقيت في ذاكرتها حتى اليوم الأخير من حياتها. وكان في مقدمتها المعاناة النفسية التي سببتها لها الحرب اللبنانية، وخوفها الدائم على ضياع فلسطين، وعدم تحقيق حلم الوحدة العربية، التي بقيت مطمحها الأسمى حتى الرمق الأخير. ومن علامات الازعاج والتأسف الشديدين التي كثيراً ما كانت تتبرم منها نفسيتها، وتبدي حيالها قرفها وتظهر إشمئزازها منها، الممارسات السياسية والمماحكات الشخصانية لأدعياء

السلطة وسالبي المراكز المهمة، من ذوي النفوذ والمتكبرين عن الخدمة العامة.

خدمة الناس كانت عندها سجية نشأت عليها منذ صغرها، بحيث كانت تعتبرها عادة، بل سمة، بل إحدى مقومات وجود عائلة قدورة في المجتمع البيروتي. كما كانت تقول عنها إنها عادة جيدة، ولدت مع جدها واستمرت مع والدها ووالدتها وعمتها إبتهاج. وتوارثها شقيقاها أديب ولبيب، وكذلك شقيقتها وديعة قدورة خرطبيل المناضلة اللبنانية، التي اشتهرت بعملها من أجل القضية الفلسطينية ومساعدة المشردين من أبناء النكبة، ومشردي الحرب المستمرة على الفلسطينيين حتى الآن.

ورثت زاهية قدوره خدمة الناس وتلبية مطالبهم وتحقيق أحلامهم، كمعظم أفراد عائلتها. وكان لها في ذلك بصمات واضحة وخدمات كثيرة، سواء في القاهرة؛ عندما كانت زعيمة لرابطة الطلبة اللبنانيين فيها، أو في كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ عندما عملت على إرسال عدد كبير من طلابها للحصول على شهادة الدكتوراه في الخارج، وتعيينهم أساتذة للتدريس في الجامعة اللبنانية بعد العودة وحصولهم على شهادة الدكتوراه.

إلى جانب خدماتها الكثيرة للناس العاديين، سواء كانوا من طالبي الوظائف والخدمات العامة، أو من أولئك الأشخاص المعدمين من الفقراء والمتسولين، الذين كانوا يطرقون باب منزلها، منذ الصباح الباكر وحتى الساعات المتأخرة من المساء. حيث كانوا يتوافدون، أو يأتون طلباً لمعونة أو تأميناً لخدمة، أو للقيام بواسطة للتعيين في وظيفة، أو حتى للترقية من منصب إلى منصب أعلى في الوظائف والمراكز التي كان يشغلها طالب الترقية.

زاهية قدوره الإنسانة تستحق أن يكتب عنها أكثر من كتاب، ويوضع عن حياتها وأفكارها، وخدماتها أكثر من مؤلف.

مهما كتب عن زاهية قدوره، فهي بلا شك من طينة الكبار بتواضعهم، والعظام بتسامحهم. يجب أن تبقى زاهية قدورة في ذاكرة الأجيال،لأنها من أفضل من عمل على تربية الأجيال.

زاهية قدوره رائدة جيل ومعلمة أجيال.

زاهية قدوره كم أتمنى أن أكون قد قمت نيابة عن بعض من أبناء جيلي، بالقليل القليل، مما لك علينا من أفضال يا معلمتنا ومربيتنا ورائدتنا.

مدخل

كانت الدكتورة زاهية قدوره صاحبة شخصية تربوية وأدبية، ثقافية واجتماعية، رفدت المكتبة التاريخية بمؤلفات عملت على بنائها وتعزيزها، بما وضعته من لَبِناتٍ في مداميكها، مما أوجد الحاجة إلى البحث والتقصي والدرس؛ لاستنباط الجوانب المتعددة التي حفلت بها حياتها، واستحضار الآراء والأفكار التي طرحتها في ثنايا مؤلفاتها، وما حضنته محاضراتها ومقالاتها.

إن دراسة آراء وأفكار أي شخصية، تحتاج إلى جهد كبير، وعمل متواصل، ومصادر ومراجع متعددة، للتمكن من الإحاطة بجوانبها كافة؛ بغية الخروج بالحكم السديد والرأي الأسدّ.

ومسيرة الدكتورة زاهية قدوره من خلال أفكارها التربوية والتعليمية، فضلاً عن طروحاتها الثقافية والسياسية والاجتماعية، لم تكن دراسة سهلة في متناول اليد؛ بسبب وفرة المادة في أرشيفها، وكثرة الدراسات والأبحاث، وكذلك المؤلفات التي وضعتها.

ومن هنا كانت صعوبة الإحاطة بمنحاها التربوي والسياسي والاجتماعي، والخروج بالمبادىء التي كانت تسير وفقها وتستهدي بضوئها، ليأتي المؤلف متصفاً بالعلمية والموضوعية، لإظهار ما قدمت من فوائد جُلَل للتاريخ وللبحث العلمي، ومن توجهات وآراء غرستها في طلابها. ومن ثم العمل على إبراز المعاني الإنسانية والقيم الثقافية والحضارية التي طرحتها.

أما عن الحوافز التي شجعت للقيام بهذا العمل، فهي الثمار اليانعة المتلألئة في الشجرة الزاهية الموجودة على أغصانها، والبذور الذكية التي نثرتها على التربة الثقافية والعلمية والتربوية، التي حبتها بالعناية والرعاية، وسقتها من فيض أفكارها، وغذتها من روع أحلامها.

مما لا شك فيه، أن تعيين الدكتورة زاهية قدوره في عمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية، في العام ١٩٧١، قد احدث ثورة تربوية واجتماعية، نسائية وفكرية، فضلاً عن الأكاديمية والجامعية، بعد أن كان هذا المنصب حكراً على الذكور.

والتاريخ سوف يثبت قيمة النقلة النوعية والعلمية التي حدثت في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة اللبنانية، نتيجة ترؤسها من قبل إحدى السيدات التي قلبت المفاهيم والمقاييس والمعايير السائدة آنذاك رأساً على عقب، حيث أوجدت علاقات

متميزة بين الطالب والأستاذ، وبين الأستاذ والإدارة...

من هنا نشأ الاهتمام بمكانتها الأكاديمية والعلمية، فضلاً عن الثقافية والتاريخية، وكذلك السياسية والاجتماعية، التي لم تؤهلها لأن تكون فقط، أستاذة جامعية، ومربية اجتماعية لأجيال كثيرة من الطلاب، وزميلة تربوية لعدد لا باس به من الأساتذة. بل من خلال كونها مفكرة وبحاثة ومناضلة قومية، تحسست مشاكل وطنها، عندما نهضت تحاور وتناقش وتبحث عن السبل الكفيلة لتحقيق عزة بلادها ومنعتها.

إن موضوعاً كهذا فيه الكثير من الصعوبات، كونه متشعب الاتجاهات، كالذي ذكر، استحق عملاً متواصلا لتسليط الضوء على جميع نقاطه، وتوضيح الخلفيات التربوية الاجتماعية والسياسية لحياة الدكتورة زاهية قدوره ونضالها، ومن ثم التوقف عند البيئة الاجتماعية، التي حتمت على ابنة العائلة البيروتية العريقة والميسورة في آن، أن تبتعد عن حياة الترف والبذخ، وتنصرف إلى طلب العلم، لتحصل بنتيجته على أعلى الدرجات فيه، لتقوم بعد ذلك على ممارسة ما تعلمته على طلابها، ومواجهة كثير من المشاكل والصعاب، في سبيل نشر القيم والمبادىء التي حصلتها، وراحت تبثها بين مريديها وطلابها. لتنتهي مكللة بالنجاح والتألق، خصوصاً في فترة ترؤسها عمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية. في وقت كانت فيه البلاد والجامعة تواجهان اندلاع شرارة الحرب الأهلية اللبنانية في العام ١٩٧٥.

وتجدر الإشارة إلى أن غاية هذا العمل، التعرف على الأفكار والطروحات والمبادىء، التي طبعت حياة الدكتورة زاهية قدوره، وكذلك العناوين والآراء التي قامت من لدن إمرأة انتهجت حرفة التربية والتعليم نهجاً لها في حياتها، حيث قادتها هذه الحرفة إلى المسؤولية الأكاديمية، التي نحت بها صوب ممارسة سياسة تربوبة واجتماعية، صقلتها بالعلم والخبرة والمعرفة. بالإضافة إلى ذلك، إن مسؤوليتها الأكاديمية لم تمنعها من وضع عدد من المؤلفات التاريخية، إلى جانب العديد من الأبحاث والمحاضرات والكلمات والمؤلفات، التي تضمنت أفكارها وتوجيهاتها.

مقدمة

عاشت زاهية قدوره حياة عائلية راقية، ضمن بيئة ارستقراطية مترفة، إلا أنه قابلتها من ناحية ثانية، حياة عملية متعبة ومرهقة. أقلقت أحلامها، وعكرت صفو هدوئِها لفترة طويلة من الوقت، بسبب ما تعرضت له وصادفته من مشاكسات في دار المعلمين العليا (الجامعة اللبنانية فيما بعد) عندما دخلت إليها لتعليم التاريخ عام ١٩٥١.

وقفت أمام هذه المشاكل بقوة وعناد، وتمكنت من التغلب عليها في معظم الأحيان، وبخاصة عندما طلب منها رئيس الدار تعليم التاريخ باللغة الفرنسية، فرفضت هذا الطلب بكل شمم وكبرياء، كما تصدت في هذه الفترة لبعض الأشخاص الذين اعترضوا على طروحاتها التربوية والتاريخية في دار المعلمين العليا، لأنها كانت ترى أهمية تدريس تاريخ العرب والمسلمين، في حين أراد هؤلاء أن تدرس التاريخ الأوروبي وباللغة الفرنسية، وبأفكار تربوية مخالفة لنهجها وتوجهاتها العربية المسلمة، وأصرت وبكل عناد على الأفكار التي كانت ترى فيها فوائد جمة للتاريخ وللبحث التاريخي، راحت تبثها بين طلابها.

واكتسبت من خلال المعارك التي خاضتها في دار المعلمين معاني إنسانية وقيماً تربوية وحضارية وسياسية، عملت على طرحها لفترة طويلة من الوقت بين طلابها. وفي هذه الفترة، شهدت الساحة العربية بعض التحولات والتبدلات، التي كان لها تأثيرها على فكرها وطروحاتها. من هذه التحولات ثورة الضباط الاحرار في مصر عام ١٩٥٢، ثم العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، والثورة الشعبية في لبنان عام ١٩٥٨، وحرب السادس من حزيران عام١٩٦٧، وحرب تشرين عام ١٩٧٣، وأخيراً الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥ - ١٩٩٠. وما تخل جميع هذه الفترات والسنوات من أحداث وحروب، أبرزها اجتياح إسرائيل للبنان عام١٩٨٢. حيث بقيت الدكتورة قدوره رغم كل هذه الحروب والأزمات، صامدة في بيروت، تحت القصف والحصار، لم تغادر العاصمة التي أحبت وبلدها الذي عشقته، على الرغم من كل الطلبات والنصائح، التي كانت تطالب إليها مغادرة بيروت بصورة مؤقتة، حرصاً على حياتها.

هذا، ولا ننسى حرب فلسطين عام ١٩٤٨، والعوامل النفسية التي انتابتها حيالها، ورافقتها حتى الرمق الأخير من حياتها. حيث عملت للقضية الفلسطينية فترة طويلة من حياتها لدعمها والدفاع عنها، سواء عن طريق المؤتمرات والندوات

والمحاضرات، او من خلال الأبحاث والدراسات عن القضية الفلسطينية، التي وضعت حول مخاطرها على العرب والمسلمين من خلال الكتابات المختلفة، التي طالبت فيها بدعم القضية الفلسطينية بكل الوسائل.

من عاش حياة مثل حياة الدكتورة زاهية قدوره، لا يمكن له أن يعرف الراحة والهدوء؛ لكثرة الأنشطة التي مارستها، فكانت في حركة دؤوبة من أجل تحقيق العدالة والمساواة لكل المظلومين والمضطهدين، فضلاً عن مد يد المساعدة لكل إنسان محتاج.

ومن المحطات البارزة في حياة زاهية قدورة إنشاء اتحاد الجامعيات اللبنانيات، الذي ترأسته منذ سنة ١٩٥٣، وحتى وفاتها في تشرين الأول من العام ٢٠٠٢. بالإضافة إلى عضويتها في الاتحاد النسائي اللبناني، ولجنة صندوق الزكاة، وغيرها من الأنشطة الاجتماعية الأخرى. والتي اتخذت من منابر هذه المنتديات امكنة لتبث منها الأفكار والشعارات التي طرحتها حول المرأة، والعناية التي أولتها إياها في أبحاثها ودراساتها. من أهمها الدراسة التي وضعتها عن السيدة عائشة أم المؤمنين. وغيرها من الأبحاث والمقالات والدراسات والبحوث التربوية والعلمية، التي تناولت فيها جوانب مهمة من حياة المرأة.

ضمت مكتبة زاهية قدوره أرشيفاً وافراً وعدداً غير قليل من الكتب القيمة والمصادر المختلفة، التي أغنت ثقافتها بالمصادر المختلفة؛ قديمها وجديدها. بالإضافة إلى الجرائد اليومية، والمجلات التربوية والفكرية والثقافية التي أفرد لها العديد من هذه الدوريات، الصفحات الطوال للكتابة، ونشر الكلمات والمقالات المختلفة.

وعثر في هذه المكتبة الغنية على عدد من كتب المفكرين والمؤلفين والمنظرين الذين تأثرت بهم، وعلى كثير من المؤلفات التربوية والعلمية والأدبية التي أثرت معارفها وثقافتها، أمثال ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) والسيد محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٢) والشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) وغيرهم من دعاة النهضة الحديثة، فضلاً عن جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨- ١٨٩٧) ورفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) والدكتور طه حسين (٨٨٩ – ١٩٧٣) والكاتب القومي العربي ساطع الحصري (١٨٨٣ – ١٩٦٨) والرئيس جمال عبد الناصر (١٩١٨ - ١٩٧٠) والدكتور جبور عبد النور(١٩١٣- ١٩٩١) والدكتور نبيه أمين فارس (١٩٠٦ - ١٩٦٨) والدكتور أنيس المقدسي

(١٨٨٥ - ١٩٧٧) والدكتور قسطنطين زريق (١٩٠٩ - ٢٠٠٠). وكان في هذه المكتبة كذلك، كتب لعدد من المفكرين الأجانب الذين تأثرت بهم زاهية قدوره، أمثال: أوغست كونت AUGUSTE COMTE (١٧٩٨ – ١٨٥٧) ودافيد هيوم DAVID HUME (١٧١١-١٧٧٦) وبرترند راسلBERTRAND RUSSELL (١٨٧٢ – ١٩٧٠) وغيرهم. فضلاً عن مؤلفات زوجها الدكتور محمد عبد السلام كفافي (توفي في عام ١٩٧٣) حيث ظهر لنا الأثر الفكري والثقافي الذي عكسته هذه الكنوز المعرفية والعلمية والفلسفية، في حياتها التربوية والثقافية والفكرية.

من العوامل التي ساعدت في جلاء الصورة الحقيقية لهذه المسيرة، وفرة المصادر التي تمت العودة إليها مباشرة؛ واعتبارها على التماس مباشر بآرائها وأفكارها وطروحاتها، من جوانبها التربوية والفكرية والثقافية والسياسية. إضافة إلى عدد لا بأس به من الوثائق والمخطوطات الشخصية، وكذلك البيانات والتقارير والمقالات والأبحاث والمحاضرات والكلمات، ثم الدوريات والنشرات التي أتت على ذكر تفاصيل متعلقة بأفكارها ومسيرتها ونضالها المتعدد الجوانب، وخصوصاً التربوي والاجتماعي والثقافي والسياسي.

من الأهمية بمكان، الإشارة الى أنه لم يكن بالإمكان إغفال كمية الأوراق المخطوطة بخط يدها. لأنها لم تكن تهمل أي ورقة أو مساحة بيضاء تقع تحت يدها من دون أن تخط عليها كلمة أو عبارة أو فكرة أو منظومة، لها علاقة متينة أو صلة وثيقة بأفكارها وتطلعاتها. وقد ظهر بعد الإطلاع على كميات وفيرة منها، الكثير من الأمور المتعلقة بأفكارها ومؤلفاتها وثقافتها.

وكان من الخطأ الكبير الاستعانة بوثائق ودراسات ومواقف معينة، من دون أخرى. بل كان هناك حرص، على تتبع جميع المصادر والوثائق والتنقيب عنها والبحث حولها، أنى توافرت، ومتى سنحت الفرصة بالعثور على إحداها. حيث كان يتم إخضاعها للدراسة والتحليل، لمعرفة أهميتها ومكانتها في حياة زاهية قدوره.

الغاية الأساسية من هذا العمل، توخي اظهار الكثير من آراء هذه الشخصية اللبنانية والعربية، الوطنية والقومية، التربوية والآكاديمية، وكذلك أفكارها وثقافتها. والإشارة إلى القفزة العلمية والجامعية التي أحدثتها، سواء في أسلوبها أو في ممارساتها.

فضلاً عن ملامسة الجوانب العلمية والاجتماعية، وإنارة اللمسات الإنسانية التي كانت تتمتع بها.

توزعت محطات سيرتها على عدد من الفصول وخاتمة. تضمنت التعريف بجذور آل قدوره التاريخية، والبيئة الاجتماعية التي عاشت فيها وأثرت في حياتها. ثم السيرة الذاتية لزاهية قدوره، منذ الولادة حتى الفترة التي سبقت وفاتها بوقت من الزمن. وتم التطرق إلى العناوين البارزة والنقاط المهمة في الكتب التي وضعتها، وفي البحوث والدراسات التربوية والثقافية. وكذلك الأمر تم التطرق إلى مواقفها وممارساتها السياسية، في المرحلة التي تلت قيام العدوان الإسرائيلي على بيروت، في صيف العام ١٩٨٢. وتأثير تداعياته على كتاباتها ومؤلفاتها وبحوثها الأخرى. وأخيراً خصص الفصل الأخير للتعرف على المسار الاجتماعي في حياتها، وخصوصاً فيما يتعلق بالنظرة التي كانت ترمق بها المرأة، والدور الذي كانت تحثها على القيام به.

وفي النهاية لا بد من توجيه الشكر الكبير إلى روح الدكتورة زاهية قدوره نفسها، التي كانت قد فتحت بيتها منذ أول يوم عقدنا فيه العزم للتعرف على سيرة حياتها، مما افسح لنا حرية واسعة للتحرك في مفاصل تلك المسيرة ومحطاتها المختلفة، علماً وتأريخاً، فكراً وأدباً. ولم تبخل بأي معلومة أو سؤال يتعلق بحياتها، ولم تحجب أي مخطوطة، أو بحث أو وثيقة من الممكن أن تفيد العمل.

الفصل الأول

نشأة آل قدوره

١ ـ الجذور التاريخية لآل قدوره

تقول زاهية قدوره: «إن عائلة قدوره تتحدر من قبيلة عربية». وتحدث مصطفى مراد الدباغ عنهم، فرأى أنهم ينتمون إلى قبيلة الشريدة التي تنسب إلى بني مخزوم[١] وهي من أوائل القبائل العربية. وبنتيجة حركة الهجرة والترحال التي صاحبت حياة القبائل العربية، تبين أن بعضاً من آل قدوره وصلوا إلى بلاد المغرب والأندلس، واستقر آخرون منهم في الجزائر، من أعمال المغرب العربي، حيث كان لهم فيها شأن يذكر، كما أن قسماً آخر منهم غادرها إلى بلاد الشام في عداد الجنود المقاتلين تحت لواء العباسيين حيث استقروا في لبنان وسوريا وفلسطين[٢].

جاء في معجم أعلام الجزائر: «أن آل قدوره يعودون بأصولهم إلى الجزائر. ويرجع نسبهم إلى أحمد بن سعيد بن إبراهيم قدوره، الذي كان يعتبر من كبار فقهاء المالكية، وكان لها اشتغال بالسياسة من أهل مدينة الجزائر. تولى إفتاء المالكية فيها. حكم عليه الداي محمد بكداش بالإعدام سنة ١٧٠٦م وسجنه لمدة سنة لتعاطيه السياسة». وقال صاحب تحفة الزائر: «ولما تولى محمد بكداش مكان الداي مصطفى وقبض على الأخوين العالمين أحمد والسيد هلال، ولدي العلامة المؤلف الشهير الشيخ سعيد قدوره، وكان الأول مفتيا للمالكية والثاني قاضياً لهم، فقتلهما في مجلسهما خنقاً»[٣].

أما أصل الكلمة قدوره فهي تعني القادر الذي يقدر أن يدير أموره. وقال البعض قدوره تعني الاحترام والتقدير[٤]. جاء في لسان العرب: في باب المقدار، فعرفه بأنه من القوة، وقدر عليه يقدر ويقدر وقدر قدرة وقدارة وقدورة وقدوراً، وقدر على الشيء قدرة أي ملكه، فهو قادر وقدير[٥].

٢ ـ سكنهم في باطن بيروت.

عرف عن آل قدوره، أنهم أول ما سكنوا في بيروت، في منطقة سوق الطويلة، التي دمرت خلال الأحداث اللبنانية، كما أن قسماً منهم اتخذ سكناً له بالقرب من القشلة

أو السراي، وقسماً ثالثاً تملك في سوق اياس وآخرون في رأس بيروت، وكان منهم مصطفى والد زاهية قدورة، الذي ابتاع منزلاً في شارع بلس BLESS[٦] القريب من الكلية السورية الإنجيلية، أو الجامعة الأميركية اليوم. وبذلك فقد أشتهر آل قدوره بسكنهم في منطقة عالسُور، ثم راحوا يتكاثرون منها في باطن بيروت القديمة[٧] نظراً لوجود البيت الكبير في داخلها. وهناك من يقول إنهم تواجدوا أيضاً في سوق البزركان بالقرب من آل قريطم، الذين كانوا يسكنون في تلك المنطقة[٨].

يعتبر أديب الجد الكبيرمن أوائل آل قدوره الذين سكنوا في بيروت القديمة وداخل السور، بعد أن شيد فيها بناءً ضخماً نسبة إلى أبنية ذلك الوقت، التي كانت تعتبر عادية ومتواضعة. وقد أعتبر هذا البناء معلماً من معالم المنطقة ومحطة ترشد التائه. وجاء استعماله لغرضين اثنين، للسكن والأعمال على حد سواء، حتى باتت المنطقة تعرف آنذاك بسور قدوره، بحيث أصبح السور وآل قدوره مترادفين في المنطقة. بخاصة بعد أن شكل بناء آل قدوره داخل السور في أيام العثمانيين وفي فترة الانتداب أول مجمع طبي في بيروت. إذ وجدت فيه: صيدلية قدوره، وعيادة الدكتور حليم قدوره، وعيادة الدكتور نادر قدوره، ثم صيدلية حماده فيما بعد. وعلى مسافة قريبة كان يقع أيضاً مختبر للدكتور رئيف أبي اللمع والد الأمير فاروق أبي اللمع. وبالقرب منه كانت توجد صيدلية الجميّل، التي أَنشأها آنذاك والد بيار الجميل رئيس حزب الكتائب الذي ما لبث أن استلم صيدلية والده فيما بعد. كما كانت توجد في المنطقة عيادة للدكتور عمر زهدي، وهو طبيب تركي اشتهر بمعالجة مرض العيون. وأخيراً كانت توجد أيضاً عيادة الدكتور ربيز وابنه نقولا ربيز فيما بعد[٩].

٣- عملهم في التجارة

اشتهرت معظم العائلات البيروتية القديمة بممارسة التجارة والعمل فيها، ومنهم آل قدوره، وبخاصة الجد أديب، ثم الأبناء والأحفاد من بعده، الذين اتخذوها مهنة لهم، فبرزوا فيها وباتوا من التجار الناجحين، وعلى الخصوص في تجارة الأقمشة والأزر (جمع إزار)، وبسبب هذا النجاح تمكنوا من إقامة علاقات تجارية مع شركة بليك الإنكليزية التي كانت ملكاً لأجداد الشاعر الإنجليزي بليك BLAKE [١٠] فنشأت بينهما المصالح المشتركة، وتم تبادل الخدمات، وإقامة العلاقات التجارية والشخصية والعائلية؛ بين الأسرتين اللبنانية والإنجليزية[١١].

عندما سكن الجد الأكبر أديب في منطقة عالسُور[١٢] أقام سكناً له على مساحة شاسعة من الأرض، مما كان دليلا على المكانة الاجتماعية المرموقة التي كان يحتلها آل قدوره في ذلك الوقت، والتي ترددت بين جنباتها – كما قيل - البيئة الإسلامية المتجددة والمتطورة، التي كانت تسير على هدى العقل المنفتح.

هذه البيئة المجتمعية والتقاليد المتوارثة التي كانت تسير على هديها بعض العائلات من البيارتة في القرن التاسع عشر، جعلت من المجتمع البيروتي مزيجاً من العائلات والأقوام، التي وفدت إليه على موجات متتابعة قادمة إما من الدولة التركية أو من جوارها الأوروبية، فتألف من أفراد المقاتلين والمحاربين الذين وفدوا إلى الشرق مع الجيوش، أو الذين وفدوا إليه في هجرات متتالية. وقد تفاعلت هذه الأقوام والجماعات والأفراد مع بعضها البعض عبر الحقب التاريخية المختلفة، وتكوّن من مجموعها العائلات والجماعات اللبنانية والبيروتية التي سادها التشابه في العادات والتقاليد، وخصوصاً بالنسبة للعائلات البيروتية، التي انفردت عن غيرها في شعائرها وممارساتها الدينية. فقد ذكر أن المسلمات والمسيحيات كن لا يخرجن إلا محجبات، أما الذكور منهم فقد امتازوا بثيابهم الموحدة، ومنها مثلا السروال العثماني أي الشروال في العامية، وكذلك القمباز، والصدرية الكشمير واللاستيك أي الجزمة، واعتبرت هذه الملابس وقفا على الأغنياء من أبناء المدن، الذين تمايزوا أيضا بارتداء الطربوش على الرأس[١٣].

أما المثقفون وأبناء بعض الطوائف الأخرى، فقد امتازوا بألبسة أخذوا معظمها واقتبسوها عن ثياب الإفرنج، مما ميزهم عن طبقة الأغنياء والميسورين[١٤] .

وبالنسبة إلى العادات والتقاليد فهناك كثير من الحكايات التي تروى في هذا المجال، ومن ذلك، ما يحدثنا به بعض الرواة عن تقاليد المسلمين من أبناء بيروت في أعيادهم، حيث شاعت بينهم عادة زيارة الموتى بمناسبة الأعياد الدينية، ثم القيام بزيارات متبادلة للمعايدة أيضا، وترداد عبارة : كل عام وأنتم بخير. كما درجت في تلك المناسبات أيضا، عادة تقديم الحلوى للزوار، فضلاً على أداء صلاة العيد في المسجد مجتمعين وبحضور مفتي بيروت .

كانت رتابة الحياة في بيروت في ذلك الحين تقليدية، فالاحتفالات بالأعياد الإسلامية والمسيحية كانت تتم بشكل واسع وبمشاركة سكانها مجتمعين، وخاصة في أعياد المولد النبوي الشريف والفصح واثنين الراهب. من ناحية ثانية حافظ البيارتة؛

في هذه الفترة وحتى مرحلة متقدمة، على عاداتهم وتقاليدهم التي ورثوها من العهود المتأخرة، كلبس الطربوش الذي كان يميزهم عن الرعايا الأجانب. وقد ظلت هذه العادة متبعة، حتى الفترة التي بدأت فيها صناعة الطربوش بالإندثار في بيروت، كغيرها من المهن والحرف التراثية، التي بدأت بالزوال، هي الأخرى.

أما السمات المميزة للعادات والتقاليد البيروتية فقد ظهرت في أنشطة الحياة المختلفة، في الممارسات الاقتصادية وما يرافقها من حركات بيع وشراء، وبين الحرفيين والصناع والتجار، وتبدو جلية ايضاً في الأماكن التي يكثر فيها تواجد الناس في الجوامع والتجمعات المدنية والعسكرية، وفي العديد من المناسبات المختلفة.

أما على الصعيد السياسي، فقد كان يتنازع بيروت في القرن التاسع عشر، تياران سياسيان كبيران: الأول هو التيار السياسي العربي، الذي كان يدعو إلى الانفصال عن الدولة العثمانية والتفلت من سياستها الجائرة، وإنشاء دولة عربية إسلامية يكون على رأسها خليفة مسلم، وذلك من تأثير نشوء القومية العربية. في حين كان التيار الثاني يدعو إلى الولاء للدولة العثمانية وليس لسياسة هذه الإمبراطورية التي لم تعد أعمالها وتصرفاتها تطاق.

انطلقت الألسن والأفواه من عقالها لتقول على لسان بعض المجاهدين الذين انضووا في حركات سرية للعمل ضد الدولة العثمانية، أنها لن تقبل بغير الهلال العثماني ظلا لها، وأنها مستعدة للتضحية بكل غال ونفيس في سبيل نصرة هذا الهدف. وأردف المجاهدون القول بلسان جميع العرب مسلمين ومسيحيين، أنهم غير مستعدين للتخلي والتنازل عن دولتهم المجيدة، وكان كل همهم أن يعيشوا في دولة عثمانية تطبق العدالة والمساواة والمشاركة الأمينة في الحكم والإدارة.

هذا هو التيار الذي كانت تؤمن به عائلة قدوره، بحيث أنها كانت عائلة إسلامية التوجه، أكثر منها عروبية الانتماء.

أشارت زاهية موضحة هذا الأمر، فقالت: "في الواقع أساء كثير من المؤرخين الكتابة عن الدولة العثمانية التي كانت دولة عظيمة، وصلت لأسوار فيينا مرتين، وأرعبت أوروبا، حتى تنادى ملوكها إلى التحالف، فكانت أوروبا ضدها، وانبثقت عن ذلك المسألة الشرقية لوضع حد لتمدد الدولة العثمانية وللتمدد الإسلامي.. وفعلا بدأ العبث بهذه الدولة في الداخل والخارج".

وتابعت القول: "وهنا أريد أن أركز على جانب العبث من الداخل، خاصة

وأنه منذ مدة نشر تقرير لبعض المسلمين الأصوليين ذكروا فيه أن سبب انحطاط الدولة العثمانية كان الاستعمار الخارجي فقط. لا! أنا اذكر العبث الداخلي، الذي كانت له مساهمة كبرى في هذه الانحطاط. ذلك أن هناك ألف عنصر من الأوروبيين اليهود اعتنقوا الإسلام وتغلغلوا في بلاط العثمانيين ليفسدوهم ويفسدوا الدولة، وقد فعلوا."

وأضافت القول: "إنما الحقيقة أن الدولة العثمانية في عزها كانت قادرة، وكانت دولة عادلة طبقت القواعد الإسلامية، إنما عندما شاخت وضعفت أو أضعفوها، أدخلوا عناصر فيها لإفسادها وأفسدوها".

وأنهت قدوره كلامها عن موقف أسرتها المؤيد للدولة العثمانية في محاولة، لتبرير هذا التأييد، قائلة: "والحكم لا يكون فقط في تلك المرحلة الأخيرة من عمر الدولة العثمانية، الحق أن هناك ميزة لتلك الدولة عندما كانت في إطار واحد، هو الإطار الإسلامي، الذي يترفع عن العصبيات والمذهبية الطائفية، ومن هنا، أني آمنت بهذه الميزة وأيدتها".

كان آل قدوره من المؤيدين للدولة العثمانية ذات الصبغة الإسلامية، وهذا الموقف لم يكن انتقاصاً من العرب والعروبيين، بقدر ما كان انتماء إسلاميا محضاً. وبحكم كونهم إسلاميين أولا وعرباً ثانياً، وبسبب احتلالهم مكانة إجتماعية مرموقة؛ فقد إمتازوا عن سواهم بالمجاهرة بنصرة الدين الإسلامي، بالرغم من عدم تخليهم عن أصولهم العربية، على أساس أن معاني العروبة والقومية؛ لم تكن قد اتخذت الجدلية التي بدأ بتداولها منذ مطلع القرن التاسع عشر وما قبل.

هذه النظرة التي تعامل بها آل قدوره مع الدولة العثمانية، لم تكن تختلف عن طريقة تعاطيهم مع الانتداب الفرنسي، وإن كان بشيء من التفاضل والتمايز بين هذه وتلك. خاصة أن الدولة العثمانية لم تكن دولة غازية أو معتدية، أو أنها فرضت انتدابها بالقهر والعدوان، بالرغم من بعض ممارسات الجور والظلم التي قامت بها.

إن نظرة آل قدوره إلى الانتداب الفرنسي لم تكن تخرج عن نظرة مجموع اللبنانيين الذين قاوموه بطريقة تختلف عن غيرهم. فتوقعهم المسبق للأمور دفعهم لمقاومة الانتداب من الداخل، وذلك عبر الانخراط في صفوفه والتقرب من مراكز المسؤولين عنه لمعرفة جميع تحركاتهم وكشف معظم خططهم. غير أن اللبنانيين لم يفهموا هذه السياسة إلا في وقت متأخر، بعد أن نجح الانتداب في ترسيخ الشقاق بين اللبنانيين، مما سهل عقد إتفاقية سايكس – بيكو التي أراد منها الانتداب تقسيم البلاد

العربية للحيلولة دون توحدها وتجمعها.

٤- أديب قدورة الجد طبيباً

ارتبط آل قدوره بعلاقات تجارية وعائلية مع عائلة بليك الإنجليزية التي اشتهرت بتجارة الأقمشة، التي لمع منها الشاعر بليك، كما لمع من آل قدوره الجد الكبير أديب قدوره، ابن الجد الأكبر مصطفى قدوره. عمل أديب في بداية حياته مع والده في التجارة والبيع والشراء. تزوج من سيدة من آل القوتلي، اشتهرت بتقواها وورعها، ورزق منها بولدين هما مصطفى وحليم وابنة ثالثة أسمها فريدة. ثم ترك اديب العمل في التجارة التي كانت تؤمن له حياة عائلية جيدة، واتجه إلى دراسة الطب. لانه كان يرى بأن القرن القادم سوف يشهد تقدماً علمياً كبيراً، ستكون فيه مكانة مهمة للعلماء افضل من التجارة، فظهر عنده ميل لأن يصبح عالماً متبحراً في العلوم، وخاصة الطب؛ بدلاً من أن يكون صاحب تجارة مزدهرة.

٥ - الفتوى التاريخية

عارض وجهاء المسلمين في بيروت رغبة اديب قدوره، لأنهم كانوا يرون في الكلية الإنجيلية - الجامعة الأميركية في بيروت فيما بعد – نية تبشيرية مسيحية، لأنهم يخشون أن تأخذه إلى تعاليمها التبشيرية، وهو ابن العائلة البيروتية المسلمة. ولما فشل المسلمون من منعه عن تحقيق مأربه، عرضوا الأمر على مفتي بيروت آنذاك الشيخ محمد الحوت، وكان من الرجال الخيرين والمميزين ببعد نظرهم وحصافة رأيهم. فقام بإستدعاء أديب قدوره للإستفسار منه عن رغبته، وجد لديه تديناً شديداً وتمسكاً قوياً بدينه وإيماناً عنيداً على تنفيذ فكرة طلب العلم. فقال له المفتي عندئذ: «ما عليك، اذهب وافعل ما شئت ديننا دين علم ويحث عليه ويأمر بطلبه ولو في الصين»[١٥].

ثم أستدعى المفتي الحوت مسلمي بيروت ووجهاءهم فطمأنهم وقال لهم: «يا أبنائي لقد استمعت إلى شكواكم. وإن حرصكم على ذواتكم وعلى الإسلام لأمر مشكور، وان محبتكم لتفرح. ولكني أذكركم بالقول المشهور: اطلبوا العلم ولو في الصين ولأن الصين ليست على دين الإسلام. لذلك لم يخش على طلاب العلم فيها أن يتركوا الإسلام ويعتنقوا دين الصين. فما بالكم والمسيحيون من أهل الكتاب. وثانيا: الصين أبعد من الكلية السورية الإنجيلية التي تلاصق بيوت سكان رأس بيروت. فلماذا تخافون على الطلاب المسلمين فيها ولا تخافون على ذواتكم وانتم تحتكون بالبروتستانت، فهل

حولوكم عن دينكم؟ كنت والله حسبتكم قادمين لتشكروا أديب قدوره الذي يتحمل تكاليف تعليمه ليصبح طبيبا مسلما، ولأنه يفتح أمامكم طريق القدوة والأسوة. فهلموا إلى أعمالكم يرحمكم الله، ومن يقدر منكم على الاقتداء بأديب فليفعل، أو ادعوا له أن ينجح وأن يتوفق!! والسلام عليكم»[١٦].

٦ - أديب قدوره الجد: الطبيب - السياسي

التحق أديب بالكلية السورية الإنجيلية، بفرع الطب سنة ١٨٧٦م، وتخرج منها سنة ١٨٨١، فكان أول طبيب مسلم يتخرج منها، في بلاد الشام كلها. فأصبح طبيباً ومارس المهنة بعد نجاحه في امتحان الكولوكيوم COLLOQUIUM الذي أجراه في إسطنبول[١٧].

اشترى اديب قطعة ارض في منطقة عالسُور في بيروت القديمة، تجاه ساحة رياض الصلح المشهورة، أقام فيها مبنى سكنياً لعائلته، وعيادة له لمزاولة مهنة الطب. فصارت له شهرة كبيرة نتيجة خدماته الإنسانية وكفاءته المهنية، وذاع صيته في مختلف الأرجاء وأصبح مقصداً للمرضى في لبنان والخارج[١٨].

ولما وصلت شهرته إلى مدينة عكا الفلسطينية[١٩] إستدعي إليها، لمعالجة شيخها الكبير الشاذلي الأكبر صاحب وشيخ الطريقة الشاذلية[٢٠] ذهب أديب قدوره إلى عكا بواسطة الشختورة، حيث كانت الوسيلة الأسرع آنذاك بسبب عدم وجود البواخر. وكان من نتيجة هذه الزيارة العلاجية؛ أن قامت صداقة قوية بين آل قدوره من جهة وآل اليشرطي من جهة ثانية، امتدت إلى الأباء والأبناء، وخاصة الصداقة التي قامت بين السيدة فاطمة اليشرطية ابنة الشيخ الشاذلي ووريثته لطريقته الدينية الصوفية، وبين كل من السيدة خانم الحسامي والدة زاهية قدوره، وعمتها ابتهاج قدوره، واستمرت مع زاهية نفسها، حيث كانت بينهما سلسلة من المراسلات والإتصالات إمتدت لفترة طويلة من الوقت[٢١].

ينسب المؤرخون إلى الطبيب أديب قدوره قيامه بأعمال إنسانية مختلفة، سواء في مهنته أو كلما استدعت النخوة منه القيام بالواجب، ويقال إنه لم يكن يرد طلبا لمحتاج من دون أي مقابل في أحيان كثيرة. وساهم في نشاطات اجتماعية وعلمية وطبية عدة. وعينه مدحت باشا طبيباً للمكتب السلطاني العالي للتعليم الثانوي، كما حرصت جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية المنشأة حديثاً في بيروت، على أن يكون طبيبها الخاص.

هذه الشهرة الكبيرة والخدمات الإنسانية التي قام بها حدت بالسلطة العثمانية على تعيينه عضواً في مجلس المعارف لولاية بيروت، الذي كان يتألف منه ومن فضيلتلو الشيخ إبراهيم أفندي الأحدب، وعزتلو حسن أفندي بيهم، ومكرمتلو الشيخ احمد أفندي عباس، ورفعتلو عبد الله أفندي رضوان، ويوسف عرفان، وخليل سركيس، وإبراهيم اليازجي، وسليم جلخ، وبيجو الموسوي[٢٢].

كان اديب مولعاً بأهله ومخلصاً لأصدقائه، ويقدر مكانة الأساتذة الذين درس عليهم واستفاد من خبرتهم. فقام بتكريم أستاذه كرنيلوس فان ديك، الذي منح وساماً مذهباً تقديراً لكفاءته وإخلاصه في عمله.

ظل الدكتور أديب قدوره مثابراً على عمله الإنساني، مسعفاً للإنسان في شتى أحواله المرضية والاجتماعية، وسياسياً مرموقاً عز نظيره في تلك الأيام. قائماً بواجباته العائلية إلى أن وافته المنية في العام ١٩٠٦[٢٣].

٧ – زواج أديب قدوره وأولاده:

تزوج أديب قدوره قبل وفاته مرة ثانية من امرأة سورية هي شفيقة الأبش[٢٤] التي أنجبت له أربعة أولاد : ابتهاج، بهيج، نادر ونادرة. فشبوا جميعهم على خطى والدهم في طلب العلوم المختلفة، التي برزوا في شتى دروبها.

أ ـ **نادرة أديب قدوره** ماتت في ريعان شبابها إثر مرض عضال .

ب ـ **بهيج أديب قدوره**، التحق بالجامعة الأميركية في بيروت وتخصص في الكيمياء، وبعد زواجه انتقل مع عائلته إلى العراق، حيث كان مقر عمله وسكنه.

ت ـ **حليم قدوره**، التحق بجامعة القديس يوسف، وتابع دراسته في باريس وعاد منها طبيباً في الجراحة العامة وافتتح عيادة له في منطقة عالسُور[٢٥] وكان كوالده، إذ جمع بين العمل الإنساني والعمل السياسي، ولكن السياسة شدته إليها بعد إتفاقية سايكس ـ بيكو SAYKAS _ PICOT [٢٦] التي فرضت على البلاد العربية. تزعمت بيروت لواء المعارضة لهذه الاتفاقية ؛ والدعوة إلى إسقاطها، حيث قام المسلمون البيارتة بعقد الندوات والمؤتمرات للمطالبة بإلغائها والاتحاد مع سوريا، وقد عرفت هذه بمؤتمرات الساحل والأقضية الأربعة[٢٧].

انتخب حليم قدوره نائباً عن بيروت لأول مرة في سنة ١٩٢٥ زمن رئاسة حبيب باشا السعد. ثم انتخب مرة ثانية من سنة ١٩٢٩ إلى ١٩٣٢، وانتخب معه كل من عبد الله

اسحق ومحمد فاخوري وجورج ثابت وبترو طراد. ثم ترشح لانتخابات الفترة ١٩٣٤ - ١٩٣٧ ولكنه انسحب منها في آخر لحظة لمصلحة خير الدين الأحدب.

من مواقفه المعارضة للاحتلال الفرنسي أن دعا اللبنانيين وخصوصاً المسلمين منهم، على الدخول في الوظائف العامة لما يشكل ذلك بالنسبة إليه من حس وطني ورغبة في المشاركة في إدارة البلاد من قبل أبنائها. ولكن دعواته لم يستجب إليها إلا القلة، فأطلق صرخته المعروفة: «... أصبحنا في الوقت الحاضر أقلية في الوظائف العامة، وأصبحنا في وظائف ثانوية، فالمدراء العامّون في عهد الاحتلال لم يكونوا إلا كتاباً ومحررين على أيام فرنسا»[٢٨].

كما كان له موقف من الإحصاءات التي جرت في العام ١٩٣٢ لتعداد النفوس آنذاك. وقد أدرك ببعد نظره أن عمليات الإحصاء سوف تجري على أساس العدد، وليس الإحصاء على أساس علمي لمعرفة تعداد السكان ونوعيتهم وأصنافهم، ولهذا دعا المسلمين إلى الإقبال على هذا العمل، ولكنهم لبوا نداءه متأخرين.

عرف حليم قدوره بأنه صاحب شخصية قوية، أمينٌ لرسالتها الإنسانية الصادقة. كان يفيض بالحيوية والنشاط، مما أهله لمنصب سر طبيب في أيام العثمانيين، وهو يوازي منصب نقيب الأطباء اليوم. توفي حليم قدوره في سنة ١٩٤٦بعد أن ترك وراءه أثاراً لا تنسى.

ث ـ **نادر أديب قدوره**: دخل الجامعة الأميركية في بيروت لدراسة الطب ثم سافر إلى باريس وألمانيا حيث تخصص في أشعة إكس RAYON-X وأشعة رونتجن وRAYON-ROTENGEN، فكان مع أحد المصريين من أوائل الخريجين الاختصاصيين في هذا الفرع في بلاد المشرق العربي، حيث انصرف إلى معالجة المرضى والمحتاجين. تميزت حياته بالهدوء نظراً لصفاء شخصيته، وتوفي وهو ما يزال عازباً.

ج ـ **ابتهاج أديب قدوره**: اشتهرت بزعامتها السياسية إلى جانب زعامتها النسائية. وكانت أول مسلمة تتخرج من مدرسة الأميركان في سنة ١٩٠٩. اعتبرت رائدة في العمل النسائي، وقد صرفت جهودها بالعمل في توعية المرأة على أهميتها في الميدان الاجتماعي. عملت على تأسيس عدة جمعيات واتحادات نسائية وحررت المقالات، وكانت خطيبة مجلية في كثير من المناسبات، مما اكسبها الزعامة النسائية والسياسية

في لبنان والوطن العربي. ثم أصبحت رئيسة لعدة جمعيات نسائية في لبنان، ورئيسة للاتحاد النسائي اللبناني، ومن ثم الاتحاد النسائي العربي في مصر[٢٩] .

كانت ابتهاج قدوره صاحبة علم وعمل، تحلت بالخلق والتربية والثقافة المميزة، مما أهلها لان تقود معركة تثقيف المرأة اللبنانية والعربية للوصول بها إلى نيل جميع حقوقها .

ولدت في بيروت سنة ١٨٩٣ وشبت في بيت مفعم بالثقافة والعلم وفن السياسة. فكان من الطبيعي أن تنهل من معينها الأول وتأخذ من محيطها وبيئتها الشيء الكثير. طرقت باب العلم والثقافة، فأخذتها آفاق المعرفة إلى مجالها الرحب، وإلى منبعها الخصب، لتصبح فيما بعد ذات ملكة خلقية وفكرية. فدانت لها لغات ثلاث هي العربية والفرنسية والإنجليزية في وقت عز فيه ذلك على الكثيرات من أمثالها.

سارت ابتهاج قدوره منذ أن خطت خطواتها الأولى في الحياة الاجتماعية نحو الدفاع عن حقوق المرأة، بعد أن رأت وعايشت ما كانت تتخبط فيه المرأة آنذاك من جهل وتعسف الرجل بحقوقها أيا كان شكل هذا الرجل، سواء أكان أبا، أخا، أم زوجا. كما جعلت من أولى نقاط برنامجها دفع المرأة إلى التقدم ومحاربة مراتب التخلف التي كانت ترتع فيها وتجعلها تسيطر عليها، كما عملت على تحريضها للثورة على التقاليد البالية التي كانت تتحكم فيها وتحثها على الانطلاق وصولا للتحرر والتقدم بخطى ثابتة نحو إثبات أحقيتها في مطالبها وأهليتها لتثبيت ذاتها، وبأنها ليست عنصرا ضعيفا في مجتمعها الذي لا يستقيم، حسب رأيها، دون مشاركة المرأة فيه مشاركة فعالة ومساوية للرجل .

تخلت عن بهارج الحياة التي توافرت أمامها، ورأت أن مشاكل المرأة في مجتمعها ومصاعب وطنها تستحق منها الاهتمام الأول في حياتها. ركزت جهودها على قضايا المرأة لدفعها للتقدم بعلمها وثقافتها، وسخرت شخصيتها في سبيل العمل الإنساني والاجتماعي. كانت غايتها الوصول بها إلى نيل حقوقها المدنية والسياسية، وكانت تعرف أن دون ذلك عقبات كثيرة. لذلك كافحت معها، بالقول حيناً والعمل حيناً آخر، مستغلة الصحافة وكل وسيلة وجدت أمامها. وعملت على تنظيم المؤتمرات الجماهيرية النسائية، وإقامة المحاضرات والندوات، لتسمع صوتها؛ وتصل كلمتها إلى كل امرأة، تعمل على تقدمها وتطورها.

كانت إبتهاج قدوره مقدامة في أقوالها، جريئة في أعمالها، لا تستهاب سلطة

الرجل ولا تخشى مقاومته لها في جسارتها ودعواتها. اتصفت بالمجابهة وعدم التخلي أو التراجع إلى الوراء لإنتزاع حقوق المرأة المختلفة[٣٠] .

كانت في مواقفها السياسية والقومية لا تقل جرأة وصلابة عن مواقفها النسائية التحررية. ومثلما عرفت بقيادتها لمسيرة المرأة التحررية والنهضوية، فقد اتصفت أيضاً بنصرة جميع قضايا أمتها القومية، من خلال دعواتها الى الوحدة وطلب التحرر من الاستعمار ومقاومة أعداء الأمة العربية الذين يحتلون أراضيها بالقوة والغدر.

كان لها ضوءٌ مشعٌّ في كل مفصل مهم، كما كان لها كلمة مدوية في كل نشاط، ومطالب محقة في كل مناسبة. كانت حياتها سلسلة من العمل والنشاط المتواصل، الذي لم يكن يعرف الهوان ولا فتور الهمة من أجل الوصول إلى انتصار الأمة وتحقيق قضاياها العادلة. مثالاً على ذلك، ترؤسها لمسيرة نسائية ضخمة، ضمت رجالاً أيضا، على اثر اعتقال رجال الدولة اللبنانية غداة إعلان استقلال لبنان في سنة ١٩٤٣ من قبل سلطات الانتداب الفرنسي[٣١].

عاشت ابتهاج قدوره حياتها الاجتماعية والنسائية والسياسية، تؤلف الجمعيات العديدة لجمع شمل المرأة اللبنانية خاصة والمرأة العربية عامة. فأنشأت مع نخبة من زميلاتها العاملات معها في الحقل النسائي: المجلس النسائي اللبناني، الذي انضم فيما بعد إلى الاتحاد النسائي العربي، وفازت برئاسته بالتزكية سنة ١٩٤٩ بعد وفاة رئيسته السابقة الزعيمة المصرية هدى شعراوي، وظلت رئيسة له مدة ثلاثة عشر عاماً .

جاء في كتاب «بحثاً عن الأمل والوطن»، أنها كانت أول من رفع بتاريخ ٢٦ أيار (مايو) سنة ١٩٤٨، باسم الاتحاد النسائي العربي اللبناني، احتجاجاً شديد اللهجة إلى الحكومة البريطانية، بواسطة سفيرها في بيروت، استنكاراً للممارسات التي يقوم بها الجنود البريطانيون في فلسطين، والتي أصبحت الأرض الفلسطينية العربية ميدانا للفتنة وإراقة الدماء، بدلاً من أن تكون ميداناً للأمن والسلام.

من مواقفها السياسية المشهودة، استقبال لجنة كينغ – كراين الأميركية لتقصي الحقائق، التي جاءت بتاريخ ٨ تموز (يوليو) سنة ١٩١٩،، إلى بلاد الشام للتعرف على رغبة أبنائها في الحكم الذي يرغبون تطبيقه في بلادهم، بعد إنفصالهم عن حكم الدولة العثمانية. قرأت السيدة ابتهاج قدوره أمام اللجنة؛ وبالنيابة عن زميلاتها عنبرة سلام، وأمينة حمزة، وليلى وعادلة بيهم، مذكرة باللغة الإنكليزية عنوانها:«تمنيات

المرأة العربية». طالبت فيها ببرنامج دمشق الذي تضمن: «طلب الاستقلال التام لسوريا بحدودها الطبيعية، ورفض أي حماية أو وصاية، ومنع الهجرة الصهيونية إلى فلسطين». كما جاء فيها المطالبة بحق سوريا في فرص التنمية والتطوير، لتحتل مكانتها بين أمم العالم[٣٢].

أعجبت اللجنة الأميركية بذكاء الرائدة قدوره وبطلاقة لسانها والتكلم باللغة الإنكليزية كواحدة من أبنائها. فضلا على حججها التي أوردتها وجرأتها ومعرفتها بالواقع والمواقع السياسية التي كانت سائدة في معظم الدول العربية آنذاك.

وبعد وفاتها في سنة ١٩٦٧، عرفت مسيرة المرأة العربية ركوداً ظاهراً، إلا أن زميلاتها ومساعداتها اللواتي حملن اللواء من بعدها، وخاصة زاهية قدوره عرفن كيف يسرن على خطاها، وانتهاج هدي أفكارها، إذ استطعن بعد لأي من الزمن تحقيق عدد من الإنجازات التي سعت لتحقيقها[٣٣].

٨ – مكانة آل قدوره الاجتماعية في القرن التاسع عشر

عندما استعرضنا نشأة آل قدوره، تعرفنا إليهم واحداً واحداً، حيث حصلوا جميعهم الدرجات العلمية العالية، وتبوأوا المراكز الاجتماعية والمناصب السياسية. وتكلمنا عن تجمعهم في مسكن واحد مكونٍ من عدة طبقات في منطقة السّور في باطن بيروت، والذي تحول بعد فترة إلى معلم سياسي ومحطة ثقافية واجتماعية، كان يستقبل البيارتة في المناسبات الدينية والاجتماعية والسياسية المختلفة؛ لمشاهدة الأحداث الكبيرة التي كانت تحدث تحت شرفاته، لأنه كان مشرفاً على مدخل السراي القريبة منه.

وقد تحدثت زاهية قدوره عن هذا المعلم وعن الصور التي كانت ما زالت عالقة في ذاكرتها في معرض وصفها للأحداث التي حضرت بعضاً منها. فذكرت أن جدتها شفيقة الأبش كانت تحدثهم عن تلك المناسبات. أنه في أيام حدوثها كانت تصحو باكراً وتصدر التعليمات إلى الخدم بتحضير الكراسي وإعداد الأراجيل وتهيئة أطباق الضيافة، فيمكثون طوال النهار في مشاهدة الاحتفالات الحاصلة[٣٤].

شكل هذا البناء مجتمعا قائما بذاته، إذ تواجدت فيه صيدليتان وعيادتان لاستقبال المرضى، كما وجد فيه مختبر للتحاليل الطبية، وغير ذلك من الوحدات الصحية والطبية الأخرى. وقد حافظت الأجيال التالية من آل قدوره على سمات أسلافهم، فبات معظمهم إما طبيباً أو جراحاً أو صيدلانياً، فيما خلا قلة منهم انصرفت إلى بعض المهن الأخرى،

وخاصة إدارة الأعمال. وكان منهم مصطفى قدوره (والد زاهية) وشقيقاها أديب ولبيب، إلى تجارة الدواء. مما امن لهم مكانة اقتصادية جعلتهم ينعمون بوفرة مادية جيدة، مقارنة مع بعض العائلات البيروتية في ذلك الوقت.

هذا الوضع الاقتصادي الوفير مكن عائلتها من اتخاذ منزلٍ ثانٍ لها في فصل الصيف في عاليه أو في جديتا المنطقة المشرفة على حدود محافظة البقاع، حيث تعرفوا في تلك الصيفيات على بعض العائلات، كآل قيقانو البقاعيين؛ التي أقامت مع آل قدورة صداقة امتدت من الكبار إلى الصغار، الذين تعرفوا من خلالها على الحياة القروية وعلى حياة الريف الطبيعية، فشاهدوا الحواكير ولعبوا في كروم العنب وأكلو التين، وحملوا الجرار لتعبئتها من العين كما يفعل الفلاحون، وشربوا الحليب وأكلوا البيض الطازج من ألقن وخبز المرقوق من الصاج. وارتبط مصطفى قدوره والد زاهية بصداقات أخرى مع أسر بقاعية عديدة، كآل قزعون والدوماني, والفرنيني وثابت[٣٥] .

كان منزل آل قدوره في عاليه مجتمعاً مشتركاً ايضاً لهم، بسبب كبر مساحته. وقد عرفت هذه الدار شهرة واسعة بين أهالي المنطقة والقرى المجاورة، بسبب الخدمات التي كان يقدمها آل قدوره إليهم. تلك صور من بيئة زاهية قدوره، ظهر فيها الوضع المادي والاجتماعي وتمايزه على عدد من العائلات البيروتية الأخرى.

وظهر من هذه الصور اللوحة التي تشكلت منها الخلفية المجتمعية لزاهية قدوره. فرغم الغنى العلمي والثقافي والأدبي والخدماتي الذي كانت تقدمه عائلتها، إلا أنها لم تفقد فطرتها الطبيعية، في الطيبة والإخلاص والمودة. فطرة البراءة والصدق والصراحة. وتلك مميزات حملتها من أسرتها. إضافة إلى أنها كانت تمتاز عنهم بطيبة قلب متناهية، تقارب حدود الرقة في الإحساس والشعور المرهف.

بعد هذا الوضع الاجتماعي الذي كانت عليه عائلة زاهية قدوره، لا بد من التوقف عند الوضع السياسي لهذه العائلة. انما لا بد قبل ذلك من التعرف على الحالة السياسية، التي كانت سائدة في أوائل القرن التاسع عشر، لمعرفة الممارسات السياسية، التي مارسها آل قدوره، ومكنتهم من الدخول في المجال السياسي من بابه العريض.

٩ – في بيروت، زمن إتفاقية سايكس - بيكو

كانت مدينة بطرسبرغ مسرحاً لعقد اتفاقية سايكس – بيكو – SYKES PICOT، التي وُقّعت في شهر أيار(مايو) ١٩١٦؛ بين وزير الخارجية الروسي

سازونوف SAZONOV والخبير البريطاني في الشؤون الشرقية مارك سايكس MARK SYKES والقنصل الفرنسي العام السابق في بيروت ف، جورج بيكو F.G.PICOT ، وتم فيها اقتسام ممتلكات الإمبراطورية العثمانية بين فرنسا وبريطانيا. ومن الجدير بالملاحظة أن الإتفاقية لم تطبق إلا على الولايات العربية فقط. وقد نصت على أن تقام في فلسطين إدارة دولية، وأن يكون الجزء الساحلي الواقع إلى الشمال حتى خط ممتد على محاذاة دمشق وحمص وحلب منطقة نفوذ فرنسي. ويكون العراق من نصيب بريطانية، في حين تنشأ دولة عربية مستقلة أو اتحاد عربي في الأراضي السورية الداخلية الواقعة ضمن هاتين المنطقتين وفي ولاية الموصل(٣٧).

وكان من نتيجتها تقسيم الشرق إلى عدة دويلات، وقيام حركة معارضة قوية ضدها، تمثلت بالدعوة إلى عقد المؤتمرات السياسية؛ لبحث انعكاساتها السلبية. فانعقد مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة بين سنتي ١٩٣٦ – ١٩٣٧(٣٨)، وقد سبقت انعقاده بعض المواقف التاريخية، ونتجت عنه تحركات مناهضة ؟ كما ظهر من خلاله عدد من التيارات السياسية.

تعرض تاريخ لبنان المعاصر لعدد من التيارات السياسية المتناقضة، التي حفلت باتجاهات سياسية عديدة(٣٩) خاصة بعيد انعقاد آخر مؤتمر توحيدي في لبنان، وهو مؤتمر الساحل سنة ١٩١٨. إذ أن المشاكل القومية المطروحة لم تجد صداها الواسع عند الفئات اللبنانية على مختلف اتجاهاتها، لذلك شهدت الفترة تراجعاً ملموساً من المسلمين المطالبين بالوحدة، شرط عدم قيام مجتمع تعددي يتحالف مع القوى الأجنبية. من هنا برزت إلى العلن «مواقف سياسية ووطنية على أساس لبناني صميم» .

إلا أن ظهور هذه المواقف المتراجعة من المسلمين، الذين تنازلوا عن الجزء الأسفل من هويتهم؛ الذي يحمل عبارة: حاملها هو لبناني. وبالرغم من موافقتهم على حذف الجزء الأعلى من الهوية، وعليه عبارة: دولة لبنان الكبير. فقد كان لهذه المواقف أبلغ الأثر في نفوس مسلمي مناطق الساحل كبيروت وصيدا وصور وطرابلس، الذين رأوا أنه يجب الاعتراف بلبنان الكبير، شرط إحقاق العدل والمساواة بينهم وبين المسيحيين.

فسر الوحدويون اللبنانيون هذا الأمر، بأن السوريين عندما اعترفوا بلبنان

وسوريا كدولتين منفصلتين، إنما كان هذا تخلياً منهم عن الشرذمة. خاصة وأن اندفاع المسلمين اللبنانيين تجاه طلب الوحدة كان أسرع بكثير من اندفاع السوريين أنفسهم. مرد ذلك إلى الأوضاع اللبنانية وإلى التقسيمات الديموغرافية والطائفية والسياسية، وسياسة الانتداب نفسها. إذ أن تقسيمات لبنان، كانت تختلف عن تقسيمات سوريا، بالرغم من أن المطالبة بالوحدة لم تكن لتلغي فكرة الاستقلال.

وقامت في عهد الدولة العثمانية فئات من اللبنانيين، مكونة من المسلمين والمسيحيين الوحدويين، وهم من التيارات السياسية التي كانت تنادي بالقومية العربية، والانفصال عن الحكومة المركزية العثمانية. رفعت هذه الجماعات المطالب الوحدوية والقومية؛ ليثبتوا أن المناداة بالفكر القومي العربي، يجب أن يترافق وضرورة التخلي عن الوحدة القائمة على قاعدة الفكر الديني.

أمام هذا التجاذب الوحدوي من جهة، والانفصالي من جهة ثانية، كانت فكرة قيام الوحدة القومية نشطة، بقوة في لبنان، وإن لم تظهر جلية إلى العلن فإن مرد ذلك إلى حدة الصراعات الطائفية، التي كانت مستعرة بسبب سيطرة سياسة الانتداب الفرنسي على الحياة السياسية(٤٠).

وبالرغم من ذلك، فقد نشطت الدعوة لفكرة القومية، وكان من نتيجتها قيام أربع تجمعات قومية في لبنان، ضمت عناصر من مختلف الطوائف اللبنانية. وهي: حركة النادي الأهلي، حزب الاستقلال الجمهوري، حركة الكتاب الأحمر، وحزب النادي القومي(٤١) .

بعد إتفاقية سايكس - بيكو ضربت بيروت عاصفة سياسية، زاد في أوارها مجيء القوات الفرنسية إلى لبنان وفرض احتلالها للأراضي اللبنانية بما عرف بعهد الانتداب ليكون لفرنسا حرية الحركة وفرض السيطرة السياسية في شؤون لبنان الداخلية والخارجية. مما فرض قيام حركات وتكتلات سياسية معارضة، قام بها المسلمون، وساندتهم فيها مجموعة من المسيحيين، فاستغلت فرنسا هذا الوضع، وعملت على إذكاء نار الفتنة والطائفية بين المسلمين والمسيحيين، حيث أعطت المسيحيين امتيازات كثيرة لم يحظ بمثلها المسلمون.

دفعت هذه السياسة العائلات البيروتية المسلمة، للوقوف ضد سياسة الانتداب الفرنسي في لبنان، ومقاومتها بشتى الوسائل والأساليب. وقد شذت عائلة زاهية قدوره عن

هذا الأمر، لأنها عرفت من خلال تجاربها السياسية، ونفاذ بصيرتها الواسعة وقراءة المستقبل الآتي، أنه من الضروري أن يتعاون اللبنانيون مع الفرنسيين، وليس محاربتهم. إذ أنه بعد الانتخابات الأولى التي جرت في عهد الانتداب الفرنسي، ظهرت فكرة إحصاء عدد الأشخاص (النفوس)، المقيمين على الأراضي اللبنانية، وقد امتنع المسلمون عن المشاركة في تلك العملية، بالرغم من الجهد الكبير الذي قام به الدكتور حليم قدوره (عم زاهية) لدفع المسلمين ودفعهم للمشاركة في إحصاء النفوس آنذاك. وأشار عليهم في حال مقاطعة الانتخابات؛ فإنهم سوف يصبحون مهملين ومنسيين، ومطالبهم غير مستجابة، ومستقبلهم ذو أفق مسدود. ما دعاه إلى ذلك؛ أنه كنائب في البرلمان، كان يعي الأمور جيداً، وبحكم مهنته؛ فقد كان على صلة دائمة بمختلف الطبقات المرتبطة بالفرنسيين أو من المتعاملين معهم، الذين كانوا يزودونه بكل خططهم ونواياهم. فكان يعمل بدوره على تنبيه اللبنانيين لهذه الأمور. وبعدما اقتنع المسلمون بصواب نظرته، أقبلوا على عملية إحصاء النفوس، إنما في وقت متأخر؛ مما تسبب في إلحاق الغبن بهم[٤٢].

كما حاول الدكتور حليم قدوره أن يظهر للمسلمين البيارتة فائدة تعلم اللغة الفرنسية، خاصة وأن العصر، عصر علم ومعرفة، وكيف يمكن للمرء أن يعرف عدوه إذا لم يتقن لغته الأصلية؟[٤٣] ففي رفض المقاطعة وفي تعلم اللغة الفرنسية تكون المقاومة أجدى وانفع عن طريق استلام أعلى المناصب الإدارية والوظيفية عند المنتدب في سبيل خدمة البلد وأهله.

وجدت هذه التعاليم والنصائح أذاناً صاغية عند قلة من أهل بيروت، وتجاهلتها شريحة كبيرة منهم ولم تعمل بها، لأنهم كانوا يرون أن التعاون مع الفرنسيين، سيفسر على أنه اعتراف بدولة لبنان الكبير التي أقاموها عام ١٩٢٠[٤٤]. وكان من نتيجة ذلك أن تسلمت جماعة كبيرة من المسيحيين المناصب الكبرى والمهمة في دولة لبنان الانتداب[٤٥].

أصاب هذا الأمر المسلمين بالغبن والحرمان وأبعدهم عن الوظائف المهمة في الدولة، لأنهم كانوا متمسكين بفكرة الوحدة السورية. ولما عادوا عنه وقبلوا بالمشاركة في الحكم، كانت معظم الوظائف في الدولة قد شغلها المسيحيون، وهذا الأمر هو ما سبق ونبه اليه حليم قدوره، حيث عين أهل بيروت بعد ذلك في وظائف ثانوية غير ذي قيمة، بينما اصبح الكتاب والمحررون الذين تم تعيينهم في عهد الانتداب الفرنسي،

مدراء عامين اليوم.

والأغرب من ذلك أن أتهم حليم قدوره بسبب السياسة التي انتهجها بأنه كان منحازاً إلى الجانب الفرنسي؛ ومن المؤيدين له ضد سياسة أهل بيروت. إلا أنه بعد دراسة متمعنة لفكره وترقبه البعيد لواقع الأمور، نجد أن قدوره كان يريد أن يتعرف إلى عدوه ليتمكن من محاربته، كما كان ينبه ليتسلم المسلمون البيارتة أهم الوظائف في بلاده، بدلاً من أن يعين عليها أجنبي أو لبناني متعاون مع الانتداب. كان يريد أن يرى أهل بيروت بعد عدة سنوات في مراكز المدراء العامين، بدلاً من سواهم. ولكن نصائحه ذهبت سدى، وما توقعه بالأمس القريب، بات حقيقة ظاهرة اليوم.

وهكذا كان عدد من آل قدوره الذين مارسوا العمل السياسي، بعيدين عن اكتساب المغانم الشخصية. ومارسوا السياسة عن اقتناع، لأنهم من أهل بيروت الضاربة جذورهم في سورها الخالد، فلم يكذبوا أو يهادنوا، بل كانوا يشرحون الأمور بكل وضوح، ويصورون الواقع كما هو على حقيقته المجردة.

كانوا صريحين، جريئين، لا يخافون لومة لائم، وقفوا بحزم وصلابة بوجه المنتدب الفرنسي، ومن خلاله حاربوا التيارات الطائفية ونبهوا إلى مخاطرها، وبالرغم من أنهم لم يستطيعوا القضاء عليها، إلا أنه لهم فضل المحاولة. بعكس رجال السياسة الذين أتوا من بعدهم، حيث شجعوا التيارات الطائفية، في سبيل مصالحهم السياسية الخاصة[٤٦].

في هذا الجو ولدت زاهية قدوره، وفي وسط هذه البيئة البيروتية العريقة نمت وترعرعت، وتعلمت من عائلتها الصدق والصراحة والإخلاص، مع الذات ومع الغير، ومن هذه السياسة الواضحة والصافية تحددت ملامح شخصيتها السياسية، فمارست السياسة كما الأدب والثقافة والأدب الاجتماعي إلى جانب التعليم الأكاديمي، بشخصية عربية، إسلامية، تصونها العروبة، وتحدوها قوميتها العربية إلى تحقيق الوحدة العربية الشاملة.

١٠ ـ الوضع الاجتماعي في بيروت في النصف الأول من القرن العشرين

بعد استعراض هذه اللمحات السياسية، والمواقف الجريئة لبعض من أبناء بيروت، الذين مارسوا فن السياسة بكل تعفف وكبرياء. لا بد من التطرق إلى الوضع الاجتماعي الذي كان سائداً في بيروت في النصف الأول من القرن العشرين لمعرفة صورة بيروت الاجتماعية آنذاك.

فقد كانت السمة البارزة لحياة بيروت الاجتماعية في هذه الفترة، هي سيطرة الروابط الأسرية على معظم العائلات البيروتية، التي كانت تشكل المجتمع البيروتي في ذلك الوقت. فضلاً عن روابط الصداقة التي كانت تسبغ صورها الإنسانية على مختلف العائلات الدينية التي كانت تعيش في كنف بيروت في ذلك الزمن، وخاصة العائلات والأسر الإسلامية والمسيحية التي كانت بمعظمها من السُنّة وطائفة الروم الأرثوذكس. وقد عرفت هذه العائلات بصداقاتها المتينة التي قاربت حد المصاهرة والمزاوجة والتآخي في أحيان كثيرة.

أما بالنسبة إلى الوضع الجغرافي – الاجتماعي الذي كانت تحياه، فقد رأينا صوراً كثيرة منه من خلال كتابات الرحالة والمؤرخين والباحثين الذين وفدوا إلى بيروت، إضافة إلى الكتّاب المحدثين الذين كتبوا عن سورها الشهير، الذي شبهه بعض أبنائها المتعصبين بسور الصين العظيم، نظراً لعراقته وإحاطته بمدينتهم التي كان يعمل على حراستها وعلى سلامة أهلها المتواجدين في داخله. كان السور يحيط بالمنطقة القديمة من بيروت، وقد أزيل في أيام رئيس الوزراء سامي الصلح، مع درج قديم شهير أزيل هو الآخر، لإفساح المجال لشق طريق حديثة لمرور السيارات التي بدأت بالتوافد إلى بيروت، التي راحت تعمل على منافسة عربات الحنطور، التي استخدمت في تنقل العائلات الميسورة أو في نزهاتها إلى حرج بيروت.

في بداية العقد الثالث من القرن العشرين، وتحديدا في أواخر العام ١٩٢٩ لم تكن بناية الأباء اللعازاريين الشهيرة قد تم بناؤها بعد، بل كان يوجد مكانها عدد من الحوانيت البسيطة، وفي المقابل كانت كنيسة مار جرجس التابعة للطائفة المارونية قديمة التواجد في تلك المنطقة، وكذلك الأمر كان يوجد بالقرب منها وتحيطها الأسواق القديمة الشهيرة[٤٧].

كما كان يوجد هولٌ كبيرٌ، وهو عبارة عن مساحة كبيرة من الأرض كان يشغلها سوق كبير، بني في أيام الدولة العثمانية لبيع مختلف أنواع الخضار والفاكهة في دكاكين عديدة، توزعت على مساحته الكبيرة. وأقيم في الجهة المقابلة له سبيلاً لمياه الشرب[٤٨].

في هذا الوقت أيضاً لم يكن قد شيد مبنى العسيلي الذي أقيمت فيه سينما كابيتول الشهيرة. أما شارع المعرض أو ذاك المؤدي إلى مبنى البرلمان فقد تميز ببساطته في

بادئ الأمر. وفي غربي ساحة رياض الصلح شيدت السراي الكبيرة من قبل الأمير فخر الدين المعني، حسبما ذكر الرحالة العربي النابلسي. وقد أخذ الأمير قسماً منها ليكون سكناً له، وألحق بها أقساما أخرى لعساكره وجنوده وعتادهم، فضلا على أماكن لمبيت الحيوانات والأحصنة.

في الجهة الثانية من بيروت القديمة، والتي عرفت بضاحيتها الشرقية قديماً، وتحديداً منطقة ساحة الشهداء الشهيرة بصخبها وضجيجها في العصر الحديث، لم تبلغ رونقها الذي عرفت به، إلا بعد هذه الفترة بقليل. وقد اشتهرت بمبانيها المتعددة والجميلة، وحديقتها الرائعة، ودعيت ببستان فخر الدين. وكان يوجد فيها مبنى السراي الصغير الذي شغلته المؤسسات الحكومية المحلية في فترة من فترات ازدهارها[٤٩].

وأنشئت خارج السّور القديم مناطق عرفت شهرة كبيرة فيما بعد، مثل رأس النبع، البسطة، الجميزة، القنطاري وحي سرسق. شكلت هذه المناطق الامتداد الطبيعي للتوسع العمراني الذي شهدته بيروت الحديثة ابتداء من العام ١٩٣٠ تقريبا. وأقيمت في الأحياء البعيدة عن السور، شوارع جديدة، منها شارع فردان، وشارع الجامعة الأميركية (بلس)، وغيرهما من المناطق والشوارع التي انتشرت في خارج السور، واعطت لبيروت هويتها العمرانية والمدنية فيما بعد.

١١ – عائلة زاهية قدوره

أ- **مصطفى بن أديب بن مصطفى قدوره** هو والد زاهية قدوره. ورث عن أبيه وأخذ عن أشقائه الرغبة في طلب العلم، فأرسله والده إلى معهد الطب الفرنسي، ليلتحق بكلية الصيدلة لمدة أربع سنوات، أنهى تخصصه في استنبول عام ١٨٩٩، في فرع الصيدلة. فكان أول صيدلي مسلم يحمل هذه الشهادة في لبنان آنذاك[٥٠].

بعد حصوله على شهادة الصيدلة استلم صيدلية والده، في منطقة عالسُور، وقد شهدت بسبب موقعها من السراي الحكومي اهم الأحداث التي كانت تحصل في ذلك الوقت، كما كانت ملتقى لتجمع عدد من الشخصيات السياسية، التي كانت تجمعها صداقة متينة مع مصطفى قدوره، إذا كان يقضي فيها معظم وقته ليلاً ونهاراً، لتأمين الخدمات الدوائية للبنان والدول العربية.

عرف مصطفى قدوره بابتعاده عن العمل في الحقل السياسي، إلا أنه في الوقت ذاته كان وجيهاً بيروتياً معروفاً، كريم النفس، سميّ السيد. وقف العمل في صيدليته على

إعطاء الناس معظم الأدوية الأساسية من دون أي مقابل، مما لم يفعله أحد من قبله و لا من بعده خاصة ابنه النقيب أديب قدوره الذي قال في أحد الأيام، أنه لا يستطيع أن يفعل الآن ما كان يفعله والده في السابق.

من الأعمال المأثورة عن مصطفى قدوره انه كان يرسل عمال صيدليته مرتين في الأسبوع إلى مستوصف حاووز الساعاتية ليعملوا على تركيب الأدوية التي كانت توزع مجانا على المحتاجين[٥١].

في جعبة زاهية قدوره الكثير من الصور عن سيرة والدها، كانت تروي بعضها بكثير من الطرافة وذكرت بعضها الآخر في مخطوطة مذكراتها، ومنها واحدة عن هنري فرعون صديق والدها اللذين جمعتهما هواية سباق الخيل، حيث كان يساعده بالعمل في الصيدلية، خاصة وان هنري كان قد درس الطب لمدة سنتين.

وفي أحد الأيام كان فرعون يقف متبرعا بالعمل في الصيدلية دخل رجل ليعالج إصبعه المجروح، فاهتم به وعاين الجرح ثم طهره وربطه بالضمادات المناسبة، ويبدو أن الرجل قد تألم أثناء ذلك فصرخ في وجه هذا الصيدلي المزعوم، فهب مصطفى قدوره على صوت الرجل، فقال له بشيء من النكتة: ألا تعرف من ذا الذي ربط لك إصبعك؟انه هنري بك فرعون[٥٢].

في عام ١٩٣٥ لم يعد منزل آل قدوره عالسُور يتسع للجميع بعد أن كبر الأبناء والأولاد، فانتقل مصطفى قدوره بأفراد عائلته وسكن في منزل في شارع بلس بالقرب من الجامعة الأميركية. اشترى بيتاً مشيداً على الطراز القديم، مغطى سقفه بالقرميد الأحمر، وكان بلاطه من الرخام. كان ملكاً لعائلة من آل الزبوني، وكان مؤلفاً من ثلاثة طوابق، يسكن في الطابق العلوي منه سالوميان الحاكم الفرنسي، فسكن مصطفى مع عائلته في الطابق الثاني، وكان الطابق الأرضي مخصصاً للمؤن والخدم. وفي هذا المنزل توفي مصطفى قدوره.

كان والد زاهية قدوره مثال الأب اللبناني العطوف والحنون والسموح، حنانه على أولاده كان كبيراً جداً. إذ كان يتفقدهم في أثناء نومهم، ويتلمس جباههم واحداً تلو الآخر، متنقلاً بين غرف نومهم. وفي الليالي الباردة كان يجمعهم حوله مرتدياً عباءته المعروفة، ويشوي لهم الكستناء. كان كثير الولع بأبنائه مدللاً إياهم على طريقته الخاصة، مظهراً سروره من وجود البنات في عائلته اكثر من الشباب، مما كان مجالاً

لتفاخره على أخيه حليم الذي رزق صبياناً اكثر من البنات. فكان يقول له: « بناتي أحلى من صبيانك وسيصبحن اشطر منهم» إيماناً منه بالمساواة بين الصبي والبنت في العلم والمعاملة، وربما يكون في هذه الناحية متأثراً بأفكار شقيقته من أمه ابتهاج قدوره .

لم يكن كرمه وطيب خلقه وحنانه، مقصوراً على أفراد عائلته فقط، بل كان مع كل الناس الذين عرفهم واختلط بهم وأحس بحاجتهم إلى حنانه، ذلك أنه لم يصد بابه عن طالب حاجة، فالمزية عنده أنه كان كريم اليد والنفس قبل كرم اللسان، ساعد الكثيرين مادياً ومعنوياً. يفعل المستحيل لمساعدة إنسان إذا ما طلب منه ذلك، ومساعداته وإعاناته كانتا بغير حدود. لذلك اعتبرت وفاته خسارة كبيرة لجميع الذين ساعدهم قبل خسارة أهله له، بكاه الكثيرون وعلت على وجوه البيارته علامات الحزن الشديد لفقدانهم عزيزاً وغالياً يوم مماته .

اشتهر مصطفى قدوره بنزعته الإنسانية، التي كانت تمثل عنده اهتمامه بمشاكل الناس العاديين أكثر من عنايته بمشاكل أسرته الخاصة، كان يعتمد على زوجته في المساعدة على تولي أمور العائلة العادية. إذ كانت خانم الحسامي مختلفة عن نساء ذلك العصر في كثير من الأمور، بما عرف عن شخصيتها وثقافتها وحبها للعلم والعلماء، دون أن تفقد قدراً من اهتمامها بعائلتها؛ وتأمين كل متطلباتها اليومية. كانت تساعدها بالاعتناء بأولادها إمرأتان واحدة لشؤون المنزل والثانية لتلبية طلبات البنات .

ب ـ خانم كامل الحسامي

خانم كامل الحسامي (الست أم أديب) والدة زاهية قدوره، ابنة كامل الحسامي من عائلات بيروت العريقة. درست في مدرسة الآباء العازاريين وتخرجت منها بدرجة علمية مميزة. عرف عنها ذكاؤها وشغفها بالعلم وإتقان الغة الفرنسية. وعندما تزوجت من مصطفى قدوره وجدت نفسها في وسط عائلة علمية وطبية، مما زاد في اندفاعها نحو التثقيف العلمي والطبي. وعن طريق زوجها، درست وتعرفت إلى بعض من أمور الصيدلة والدواء.

فباتت تشبه بطالبة الطب، وكانت مرجعاً طبياً لمعظم مشاكل العائلة الصحية. فكان يستشيرها القاصي والداني، وكانت تشارك مع عدد من الأطباء، عندما كانوا يجتمعون لتشخيص مرض أحد أفراد العائلة أو الأهل أو الأصحاب[٥٣]. يعود ذلك إلى تشجيع زوجها لها، الذي أغنى معارفها وثقافتها الطبية والعلمية، بواسطة المجلات

العلمية والطبية الصادرة في ذلك الحين، التي كان يزودها بها وتحتوي على كل ما كان يستجد في هذا الميدان.

ولهذه الغاية خصص لها زوجها غرفة في المنزل لتمارس فيها تركيب الأدوية، التي كانت تقوم بها. كانت تهوى العزف على البيانو والعود. وتميل إلى التاريخ الذي كانت تحفظ بعضاً من مراحله المهمة، ويقال أنها هي التي وجهت ابنتها زاهية للتخصص بالتاريخ العربي الإسلامي"(٥٤).

ومن العوامل التي أغنت شخصيتها وأثرت في ثقافتها وعاداتها الاجتماعية؛ اختلاطها الدائم مع ابتهاج قدوره ومرافقتها لها في العديد من المناسبات، بحكم تواجدهما في مسكن واحد. ومن مظاهر ذلك أيضاً أنهما كانتا تقرءان القرآن سوية، وأحياناً في المصحف نفسه، كما كانتا تتناقشان في تفاسير بعض السور والآيات والأسباب الموجبة لنزولها(٥٥).

هذا الزخم العلمي الدافق، والنفس التواقة إلى طلب العلم أينما وجد، ووجودها وسط عائلة مكونة من العلماء والمثقفين، إضافة إلى شغفها الثقافي، كان دافعاً لها لتكوين مكتبة خاصة بها، حوت معظم الكتب المهمة والنادرة الوجود، ومنها مثلاً: كتاب تاريخ ابن خلدون، الوزراء والكتّاب للجهشاوي، على هامش السيرة لطه حسين، مجلة المقتطف، كتاب تاريخ بيروت لصالح بن يحي، مجلة الأزهر التابعة لأزهر مصر، وهي بعنوان: نور الإسلام، مجلة الوحدة الإسلامية التي كان يصدرها السيد جمال الدين الأفغاني، كتاب الإسلام والعلم، كتاب ترجمة معاني القرآن الكريم لمؤلفه محمد فريد وجدي، كتاب الجواهر الغوالي من رسائل الإمام هبة الإسلام الغزالي.

انتقلت هذه الكتب بمعظمها إلى مكتبة زاهية بعد وفاة والدتها. ووجد بينها كتاب نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب، وكتاب سيرة الخلفاء الراشدين، أبي بكر، عمر، عثمان وعلي.

لم تقتصر ثقافة خانم الحسامي على الأمور الدينية والإسلامية، لأنها اتجهت بفكرها إلى الدين المسيحي لفهمه ودراسته، فاطلعت على إنجيل برنابا المترجم إلى اللغة العربية عن اللغة الإنكليزية. كما أن ثقافتها لم يكن هدفها المطالعة وقراءة الكتب الثقافية والمجلات الدينية لذاتها. بل كانت الغاية منها؛ تعميق فهمها في قرارة نفسها لمعاني الدين الإسلامي. وتوسيعاً لهذا الهدف، لجأت إلى مراسلة مفتي الديار المصرية آنذاك تستوضحه

وتستفهم منه في كثير من الموضوعات والشروحات والفتاوي والتفسيرات، وقد فقدت هذه المراسلات جميعها.

جعلت من منزلها ملتقى للكثيرات من سيدات بيروت اللواتي كانت تجمعهنّ في بيتها مرة في الشهر، وخاصة عندما كانت تدعو العالم الدمشقي عبد القادر المغربي، المشهور بشروحاته لآيات القرآن الكريم وسوره، وتفسير المسائل الدينية.

لم تمنع كل هذه الاهتمامات خانم الحسامي من العناية بأولادها بنفسها، فبذلت جهدها لتأمين راحتهم، والسهر على حسن سير دراستهم وتعليمهم. وفضلها في هذه الناحية؛ كبير. ذلك أنه إذا كان مصطفى قدوره قد شجع أولاده على العلم، فإن خانم الحسامي وبطريقتها الفريدة والمميزة، التي اتبعتها في التعامل معهم، حببت إليهم طلب العلم والنجاح في الدراسة.

لم تمنعها مسؤولياتها العائلية من مزاولة الأنشطة المختلفة، فأولت الناحية الاجتماعية أهمية كبيرة، وعملت على تأليف جمعية لآل الحسامي، ضمت إليها جميع حسامي لبنان وسوريا، رجالاً ونساءً، واتصلت بآل الحسامي من الأصل المصري. كما عملت على إصدار مجلة آل الحسامي، التي صدر منها عددان وتوقفت بعد وفاتها، كما توقفت أيضا نشاطات الرابطة وجمعية آل الحسامي بعد رحيلها.

كان يرى كل من عرفها أنها كانت امرأة مميزة، فيها من حنان الأمومة، وحصافة الرأي، والتفكير العلمي والثقافي، والعمل الاجتماعي، أشياء عديدة، زرعتها جميعها في نفوس أولادها.

توزع عملها على نواح إجتماعية أخرى، منها العمل على رعاية شؤون المسجونين وتوفير أفضل المعاملات الإنسانية في أثناء تواجدهم في السجن.

كما اهتمت بالصناعة الوطنية وعملت على تشجيعها، وساهمت مع إبتهاج قدوره، بالعمل على تطوير الصناعات المحلية ودعم المنسوجات الوطنية، وتشجيع أولادها على ارتداء منتجاتها واستعمالها في حياتهم اليومية. وقد أهّلها هذا الأمر للحصول على ميدالية الصناعات السورية سنة ١٩٢٩(٥٦).

انخرطت (الست أم أديب) في العمل السياسي، ودعمت بأفكارها وعملها واتصالاتها البعيدة عن الأضواء كثيراً من المواقف الوطنية والقومية. إنطلقت شهرتها السياسية من بيروت غداة إعلان استقلال لبنان، والزج برجال الدولة في بشامون من

قبل سلطات الانتداب الفرنسي، فحرك هذا العمل الثورة على الاحتلال ورجاله وأدواته. فدعت إلى قيام تظاهرة ضخمة أنطلقت من منزلها عام ١٩٤٣، تطالب بالاستقلال. ثم توسعت المظاهرة بعد أن انضم إليها عدد من شيوخ المسلمين ومثلهم من رجال الدين المسيحي، الذين كان يتقدمهم الشيخ أحمد حمود والشاعر محمد يوسف حمود والقس بولس الخوري. وانضم إليها أيضاً النائب أديب الفرزلي والقاضي رفيق البراج وغيرهما الكثير، من رجال السياسة ووجهاء بيروت وعامتها، الذين طافوا على دور العبادة الاسلامية والمسيحية، وهم يطالبون بالاستقلال وبتحرير الزعماء المعتقلين في بشامون.

ت - أديب مصطفى قدوره (النقيب)

ولد أديب بن مصطفى قدوره في سنة ١٩١٧، وكانت ولادته فرحة كبيرة للعائلة، غمره والده بعطفه وحنانه وراح يدلله كثيرا، وعقد عليه الآمال الكبار والتمنيات، بأن يصبح شخصاً مهماً في المستقبل. درس أديب في الجامعة الأميركية في بيروت وتخرج منها صيدلانياً عام ١٩٣٨، واستلم صيدلية والده في منطقة السُور، تجاه ساحة السمك، مكملاً رسالة والده وجده. وكما كان والده فقد عمل اديب على تقديم بعض العقاقير والأدوية مجاناً، كالأسبيرين والسبيرتو والشاش والقطن لمن كان لا يستطيع دفع ثمنها.

عمل أديب على تنظيم العمل في الصيدلية، فأوجد نظام الدوام لعدة فرق فيها، حتى باتت الصيدلية تفتح ليلا ونهارا بشكل متواصل. كان من مؤسسي مهنة الصيدلة. وإليه يعود الفضل في إنشاء نقابة الصيادلة في لبنان وصندوق تقاعد الصيدلي، فانتخب نقيباً لصيادلة لبنان لثلاث دورات متتالية، كما ساهم في تأسيس اتحاد الصيادلة العرب الذي عقد مؤتمره الأول في بيروت بدعوة من أديب قدوره [٥٧].

تزوج أديب من نهلة العطار ابنة أخت الرئيس شكري القوتلي ورزق منها بولدين وإبنتين. وبعد تقاعده من المهنة، وبعد أن أقعده المرض، انصرف إلى الكتابة. فألف كتاباً سماه: « حقائق ومواقف»، أعتبر بمثابة سيرة ذاتية، تكلم فيه عن أيامه وأعماله وجهاده وحزبيته. في أواخر عمره؛ أسس مع جماعة من رفاقه مؤسسة الرعاية الشعبية. التي خصصها للمساعدة الاجتماعية والإنسانية[٥٨].

ث - لبيب مصطفى قدوره

اشتهر لبيب بن مصطفى قدوره بصورته الجميلة وطلته البهية. امتاز بكرمه

وجرأته وعرف نصيراً قوياً للحق والعدالة. كان يعتز بوطنيته كثيراً، ويعتبر نفسه قومياً عربياً. خاض في سبيل الدفاع عن عروبته وقوميته مواجهات مختلفة مع عدد كبير من الأشخاص الذين كان يرى فيهم خطراً على مبادئه وأفكاره[٥٩].

درس لبيب في الجامعة الأميركية وتخرج منها يحمل شهادة في إدارة الأعمال. تزوج من وفيقة عزيز ميقاتي، ورزق منها بولدين أحدهما الآن طبيب مشهور والأخر رجل أعمال، كما رزق بفتاتين توفيتا في ريعان الشباب. وهو السبب الذي كان وراء مرضه وتدهور حالته الصحية، إلى أن وافته المنية، في خريف العام ١٩٩٨ .

ج - أديبة، وديعة، ورفيقة مصطفى قدوره

حرص مصطفى قدوره على إدخال بناته إلى أفضل المدارس، ومنها مدرسة الأميركان، ولما تخرجن منها انتقلن إلى الجونيور كولدج، كلية بيروت الجامعية، فيما بعد. غير أن الثلاث لم يتمكن من إكمال طريق الدراسة، بسبب الزواج.

تزوجت أديبة من الدكتور جودت قزعون، وهو من العائلات السنية العريقة في البقاع، وعن طريقه كان زواج وديعة من الدكتور أديب خرطبيل، وهو في الوقت نفسه ابن الحاج خليل خرطبيل من كبار رجال مدينة طبريا في فلسطين وأكثرهم ثراء. انتقلت وديعة إلى فلسطين للسكن هناك مع زوجها، وهو الأمر الذي أتاح لها أن تلعب دوراً مهماً في ثورة سنة ١٩٤٦ – ١٩٤٧، مما جعل منها صديقة مقربة من الثوار والمناضلين الفلسطينيين، وجعلت من بيتها مستوصفاً للجرحى والمصابين في حرب العام ١٩٤٧ .

وعندما عادت إلى بيروت بفعل التهجير الإسرائيلي للفلسطينيين، بقيت جذوة الحماس متقدة في نفسها أكثر من السابق، مما دفعها للنضال من اجل القضية. فأسست بيت إسعاد الطفولة في منطقة سوق الغرب، وكان يضم أطفالاً فلسطينيين ولبنانيين على حد سواء. كما أنشأت الاتحاد النسائي الفلسطيني الذي تقاسمت النضال من خلاله للقضية مع عمتها إبتهاج قدوره وهدى شعراوي، وكانت قد رزقت بثلاثة صبيان وأبنة واحدة. توفيت وديعة في العام ٢٠٠٧.

أما الأخت الثالثة فهي رفيقة التي تزوجت من عبد الفتاح ميقاتي، ابن عزيز ميقاتي من أغنياء فلسطين بالرغم من كونه لبنانياً، ولكن التجارة آنذاك لم يكن لها جنسية معينة، وأجداد عبد الفتاح ميقاتي كانوا من باشاوات فلسطين. رزقت رفيقة بثلاث بنات، وتوفيت في العام ٢٠٠٢[٦٠].

هوامش الفصل الأول

١- يراجع الدباغ، مصطفى مراد: القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين. ص ٢٣٣ .

٢- يراجع قدوره، زاهية: رحلة العمر. ص ١٥.

٣- يراجع نويهض، عادل : معجم أعلام الجزائر، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر. ص٢٥٩

٤- مقابلة مع نقولا زيادة في الإدارة المركزية للجامعة اللبنانية بتاريخ ٢٣/ ٥/ ١٩٩٣ (أذن بالإشارة إليه).

٥- يراجع ابن منظور: لسان العرب، مج٥ . ص ٧٦، مادة (قدر).

٦- هوارد بلس ولد عام ١٨٦٠ في سوق الغرب بجبل لبنان، ونشأ في الولايات المتحدة، تولى رئاسة الكلية السورية الإنجيلية يراجع، خالدي، مصطفى وفروخ، عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية. ص٩٩ - ١٠٠

٧- كانت بيروت في سنة ١٨٣١م عندما افتتحها إبراهيم باشا المصري، لا يزيد طولها عن ٥٥٠م وعرضها عن ٣٥٠م. يسيجها سور قديم سببت له العوامل الطبيعية بعض التداعيات حتى لتخاله على وشك السقوط نظرا لقدمه. يقول البعض أن زمنه يعود إلى أيام الكنعانيين والحثيين، الذين كانت لديهم عادة إقامة وإنشاء الأسوار المنيعة حول مدنهم، بدليل سماكة جدرانه وارتفاعها. وقال آخرون أن أحمد باشا الجزار هو من عني بإقامته وهندسته في أواخر القرن الثامن عشر ليتحصن بداخله ويستقوي على ولي نعمته وسيده الأمير يوسف الشهابي. كان لسور بيروت، أو كما يطلق عليه عامة البيارتة السُور، كان له سبعة أو ثمانية أبواب، كما كانت تعلوه بعض الأبراج للمراقبة. هدم في عهد إبراهيم باشا المصري بعد أن ازداد عدد سكان بيروت، وتوسعهم إلى خارجه، في المنازل التي أقاموها في الضواحي التي باتت جزءا من المدينة نفسها. يراجع، رستم، أسد: آراء وأبحاث. ص٥٥. وحلاق، حسان: التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت العثمانية في القرن التاسع عشر. ص١٣. وضاهر، مسعود: بيروت وجبل لبنان على مشارف القرن العشرين. ص ٦٢ . والولي، الشيخ طه: بيروت في التاريخ والحضارة والعمران . ص ٢٥.

٨- نقلا عن صورة لمخطوطة قديمة وردت فيها هذه المعلومات، موجودة في أرشيف زاهية قدوره، يراجع حلاق، حسان: بيروت المحروسة في العهد العثماني. ص ٢٥١- ٢٥٢.

٩- للمزيد من المعلومات، تراجع: جريدة اللواء. بيروت. في ١٢ /٢/ ١٩٨٧ .

١٠- هو الشاعر الإنكليزي وليم بليك، شاعر ورسام بريطاني، ولد في لندن عام ١٧٥٧، وتوفي عام ١٨٢٧. أشتهر بقصائده الغنائية والانتقادية. وهو يعتبر واحداً من أهم ممثلي الجيل الرومانطيقي الأول .

١١- ذكريات زاهية قدوره في برنامج صدى السنين. إذاعة صوت الوطن . بيروت ١٩٩٢.

١٢- وهي تلفظ الآن بحرف الصـاد، كأن يقال الصور أو عالصور أو عصور، ذلك أن من عادة البيارتة أن يحولوا السين صاداً. يراجع حلاق، حسان: محاضرتان عن رضا الصلح في دار الندوة في بيروت بتاريخ ٢٩/٤/ ١٩٩٣ وبتاريخ ١٤/١٢/ ١٩٩٣. لمزيد من المعلومات يراجع: Porter, Harvey: History of Chehab El Dinne, Said; Geographie Humanité de Beyrouth P٢٢ وحلاق، حسان: التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية في القرن التاسع عشر. ص١٧ - ١٨.

١٣- يراجع قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة) . ص ١ و٢.

١٤- الحكيم، يوسف: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان. ص ٢٣١ – ٢٣٣ .

١٥- مصداقا للحديث الشريف الذي يقول : «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» و «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

١٦- يراجع قدوره، أديب: حقائق ومواقف. ص ١٦.

١٧- ينظر كتيب المركز الإسلامي في عائشة بكار في تكريم زاهية قدوره عام ١٩٩٢.

١٨- تنظر مجلة أوراق لبنانية. السنة الأولى. الجزء العاشر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٥ ص ٤٦٧
.

١٩- عكا: مدينة كبيرة من ثغور الشام، في فلسطين اليوم. يراجع: الحموي، ياقوت: معجم البلدان. مج ٤. ص١٤١. الحميري: الروض المعطار. ص ٤١٠.

٢٠- **الطريقة الشاذلية:**

تعتبر من أمهات الطرق الصوفية، وهي تجمع بين العلم والعمل والهمة والحال. وتعرف بطريقة البرهان ، وعرف عن أهلها واتباعها بحثهم واشتغالهم بالعلوم والمعارف. هذا وقد عملت هذه الطريقة على العلمين : الظاهر والباطن وقد قرنت هذه الطريقـة بصفات الكمال، شريعة وحقيقة، حيث استوت واستقرت في نقطة الاعتدال وظفرت بهداية الله [فاطمة اليشرطية الحسنية: رحلة إلى الحق. ص١٣٤]. وعرفت بطريقة الشكر التي كانت عليها قلوب الأنبياء والأصفياء من الصحابة وغيرهم، وهي عبادة اللـه تعالى، على إخلاص العبودية، والبراءة من جميع الخطوط، من الاعتراف بالعجز والتقصير، مدارها على الشكر والفرح بالله من أول وهلة،وفي حين البداية، وليس فيها عظيم مشقة، وصاحبها يصوم ويفطر،ويقوم وينام ويقارب نساءه، ويأتي بسائر وظائف الشرع الشريف، لان مبناها على الشرع والسنة، وترك المعاصي، وفعل الواجبات، واتباع السنن المأثورة وكثرة الذكر من الحضور [المرجع السابق ص ١٣٤ - ١٣٥]. تنسب الطريقة الشاذلية إلى الشيخ الإمام علي أبي الحسن الشاذلي من قرية ثماره في أفريقيا بالقرب من مدينة سبته في المغرب الأقصى. وقد تلقى الشيخ أبو الحسن الطريقة الشاذلية وورث القطبانية الكبرى والصديقية العظمى وهي من المراتب الدينية المتقدمة جدا حسب عرفهم وتعاليمهم التي أخذوها عن الشيخ الإمام أبي عبد الله عبد السلام بن مشيش وهو بدوره تلقاها عن شيوخ الصوفية والشاذلية المشهورين في بلاد المغرب وأقطابها الكبار. وبعد أن اخذ الشيخ الإمام علي أبو الحسن الطريقة، أمره شيخه أن يدخل إلى بلدة تسمى شاذلة بالقرب من مدينة تونس، فكان فيها مبدأ ظهوره، واليها تنسب السياحات والمنازلات [نجا، الشيخ مصطفى بن محي الدين، الشاذلي اليشرطي: كشف الأسرار لتنوير الأفكار ص ١٧]. ثم انتقل إلى تونس ومنها إلى بلاد المشرق. وحج حجات كثيرة وتوفي في الطريق عند عودته من إحدى حجاته بعد أن ترك الكثير من الخُلّص من أوفيائه وتلاميذه [فاطمة اليشرطية الحسنية: رحلة إلى الحق ص ١٣٨]. هذا ويعتبر بعض علماء الدين من أصحاب الصوفية أن أشياخ الطريقة الشاذلية أئمة في الفقه، أئمة في الحديث والتفسير والعلوم الظاهرة [فاطمة اليشرطية الحسنية، المرجع نفسه ص ١٨٢-١٨٣] ويسمونهم بالأقطاب، وينتهي نسبهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو من سيد الأولين والآخرين نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم

[المرجع نفسه ١٨٤ ،١٨٣، و١٨٧] ويراجع أيضاً: [الشيخ مصطفى بن محي الدين نجا الشاذلي اليشرطي : كشف الأسرار في تنوير الأفكار ص٦]. أما أتباع الطريقة الشاذلية، والمنتسبون إليهم، فانهم منتشرون في بقاع الأرض، وقل أن نجد مدينة أو قرية أو قبيلة، في الأقطار التي دخلها الإسلام تخلو من زاوية أو جماعة من المنتسبين إليها.ولهذه الطريقة ثلاثة مراكز مهمة في بلاد المغرب، وهي: القيروان، مراكش وطرابلس الغرب. تعرف في القيروان بالشاذلية، وفي مراكش بالدرقاوية نسبة إلى الشيخ أبي احمد العربي الدرقاوي، وتسمى في طرابلس الغرب بالطريقة المدنية، نسبة إلى القطب الشيخ أبي عبد الله محمد بن حمزة ظافر المدني[. المرجع السابق ص ١٦٩ ، ١٧٠] . أما الشيخ الكبير فهو، كما وصفته ابنته فاطمة اليشرطية بقولها : القطب الرباني، والقوت الأكبر، إمامنا الأعظم والوارث المحمدي الذاتي المعظم، سيدنا ومولانا الشيخ علي نور الدين اليشرطي الحسيني نسبا وأصلا، الشاذلي طريقة ومشربا، التونسي المغربي مولدا ومنشأ قدس الله سره، الذي ولد في مدينة بنذرت من أعمال تونس الغرب في شمالي أفريقيا، وقد انحدر من أرومة عريقة في الحياة والحسب، يرتفع نسبها إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم [فاطمة اليشرطية الحسنية: مسيرتي في طريق الحق ص٩٩]. وقد ظهرت عليه ملامح الإيمان والهداية والإرشاد منذ حداثة سنه، إلى أن هبط عليه الوحي الرباني في "رحلته المباركة إلى الله مرشدا وداعيا إلى الله العلي القدير حيث طاف الأمصار والبلدان إلى أن حط به الترحال في مدينة عكا حيث اصبح شيخها الأكبر وداعيتها العظيم ورجلها الصوفي الأول. هذا وكما أسلفنا سابقا، فقد انتشر أتباع الشيخ الشاذلي الكبير في معظم الأقطار التي دخلها الإسلام من أفريقيا إلى آسيا إلى الشرق الأوسط. وبعد وفاته حمل أولاده إرثه الكبير وأولهم الشيخ أحمد اليشرطي إلا أن أبرزهم وأشهرهم كانت السيدة فاطمة اليشرطية التي وضعت بعض الكتب حول هذه الطريقة. وكان من أتباعه المشهورين أيضاً الشيخ "مصطفى أبو ريشة" مفتي البقاع اللبناني سابقاً حيث وضع كتابا سماه النفحات القدسية العلية بشرح الوظيفة الشاذلية اليشرطية. وقد تناول فيه أيضا شرح الوظيفة اليشرطية الشاذلية وورها، غير أننا لم نتمكن من الحصول عليه لندرة وجوده بين العامة وفي المكتبات. ومن الاتباع المشهورين للطريقة الشاذلية أبو الهدى باشا أحد رؤساء الوزارة الأردن السابقين على ما ورد في مخطوطة مذكرات زاهية قدوره.

٢١- تنظر الرسالة الموجهة من الدكتورة زاهية قدوره إلى السيدة فاطمة اليشرطية عام ١٩٥٥.

٢٢- تنظر جريدة ثمرات الفنون، السنة ١٥. العدد ٧٣٥ الصادر في بيروت بتاريخ ٢٧/ ٥/ ١٨٨٩. ص ١. ومجلة أوراق لبنانية. السنة الأولى. الجزء الثاني عشر الصادرة في بيروت في شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٥. ص ٥٥٧ ـ ٥٥٩ .

٢٣- ينظر النشرة الصادرة عن الجامعة الأميركية في بيروت. وقد تحدثت عن كلية الطب، وجاء الحديث فيها عن حليم قدوره.

٢٤- الأبش : اسم كردي الأصل، كانوا من زعماء الأكراد أيام العثمانيين، وفي أيامهم كانت هذه العائلة ملاجأ لكل الأكراد في المنطقة.

٢٥- تنظر جريدة ثمرات الفنون. العدد١٤٥٧الصادر في بيروت بتاريخ ٢٣/ ١ /١٩٠٢ ص٤

٢٦- في الفترة الواقعة بين السنتين ١٩١٥ و ١٩١٦ كانت الاتصالات نشطة بين ممثل الحكومة البريطانية

في مصر السير هنري. مكماهون، وبين الشريف حسين لانضمامه إلى جانبهم في الحرب ضد فرنسا، مقابل تنصيبه ملكا على العرب. وفي نفس الوقت كانت المفاوضات قائمة بين جورج بيكو المندوب الفرنسي والسير مارك سايكس المندوب الإنكليزي، من اجل ترتيب الاتفاقية التي عرفت باسمهما، والتي لم تظهر إلى العلن إلا في عام ١٩١٧، والتي كان محورها تقسيم بلاد المشرق العربي مناطق نفوذ بين كل من فرنسا وبريطانيا. وقد تقاسمت هاتان الدولتان دول المشرق العربي فيما بينهما، بحيث استولت فرنسا على المناطق الممتدة من عكا جنوبا إلى مرسين شمالا بما فيها لبنان وبلاد العلويين وإسكندرونة وقيليقيا وأرمينيا، بينما استولت بريطانيا على البلدان الممتدة من العراق حتى حدود خليج فارس. السودا، يوسف : تاريخ لبنان الحضاري. ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

٢٧- للمزيد حول هذا الموضوع، يراجع : حلاق، حسان : مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة.

٢٨- علامات فارقة في حياتي: ذكريات زاهية قدوره في إذاعة صوت لبنان. بيروت ١٩٩٢.
ومجلة تاريخ العرب والعالم. العدد ١٥ الصادر في شهر كانون الثاني (ديسمبر) عام ١٩٨٠: سعد الدين فائزة: السيدة إبتهاج قدوره رائدة النهضة النسائية في القرن العشرين.

٢٩- المرجع نفسه

٣٠- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٥/ ٨/ ١٩٩٢ (أذن بالإشارة إليه) .

٣١- يراجع نويهض، ناديا الجردي: نساء من بلادي. ص ٢٠٩ .ومجلة الأفكار. العدد ٦٠٦ الصادرة في بيروت بتاريخ ٢١ /٣/ ١٩٩٤. ص ٣٠ .

٣٢- يراجع خرطبيل، وديعة قدوره: بحثا عن الأمل والوطن. ص ٢٨.

٣٣- يراجع قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة) . ص ١٤ .

٣٤- المرجع نفسه.

٣٥- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٢٢/ ١٠/ ١٩٩٢ (أذن بالإشارة إليه) .
ويراجع خرطبيل، وديعة قدوره : بحثاً عن الأمل والوطن . ص٣٩ ـ ٤٠.

٣٦- كما ذهبت إليه وديعة قدوره خرطبيل في كتابها: بحثا عن الأمل والوطن. ص٢٤- ٢٥

٣٧- يراجع بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية. ص ٧٤٥ ـ ٧٤٦. والسودا، يوسف تاريخ لبنان الحضاري. ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

٣٨- كما ذهب إليه حسان حلاق في كتابه مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة من الصفحة ١١ إلى الصفحة ١٦ .

٣٩- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٧/ ١٠ /١٩٩٢ (أذن بالإشارة إليه) .

٤٠- لمزيد من التفصيل يراجع حلاق، حسان: التيارات السياسية في لبنان١٩٤٣-١٩٥٢، ص٦.

٤١- يراجع حوراني، البرت: الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩ . ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥ .

٤٢- قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة). ص ١٢ .

٤٣- وهو صدى لمبدأ معروف: " تعلم لغة عدوك تأمن شره ". أو لقول صفي الدين الحلي: [من الطويل]

بقدر لغات المرء يكثر نفعه   فتلك له عند الملمات أعوان

٤٤- حلاق، حسان: التيارات السياسية في لبنان. ص ٧.

٤٥- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٨ /٩/ ١٩٩٢ (أذن بالإشارة إليه) .

٤٦- للمزيد حول هذا الموضوع، يراجع حلاق، حسان: التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية في القرن التاسع عشر. سجلات المحكمة الشرعية في بيروت. ص ١٣-٢٣ .

٤٧- يعددها البعض بتسع عشرة سوقاً، أهمها ثلاث أسواق، هي: الأساكفة، البزركان والحدادين. يراجع حلاق، حسان: المرجع السابق. ص٢٣. وقال آخرون أنها كانت بحدود الثلاثين سوقاً، من بينها سوقين للحدادين قديمة وجديدة، وسوق البازركان. أما سوق الأساكفة فقد عرفت بسوق الصرامي، أي الأحذية. يراجع: الولي، طه: بيروت في التاريخ والحضارة والعمران. ص ١٥٠-١٥٤ .

٤٨- عرف بالسبيل الحميدي نسبة إلى السلطان عبد الحميد الثاني، وقد تم استخدامه عام ١٩٠٠ . يراجع حلاق، حسان: بيروت المحروسة في العهد العثماني . ص ١٣٣- ١١٤ .

٤٩- شيدت هذه السراي في عهد السلطان عبد الحميد، وهي بالطبع غير السراي القديمة التي شيدها الأتراك وتم ترميمها في عهد الرئيس رفيق الحريري. شغلت السراي الصغيرة مركز الولاية التي كانت تضم مختلف المؤسسات الحكومية المحلية، ابتداء من مركز رئيس البلدية وحتى غرفة أصغر جندرمي. أديرت منها الأعمال الرسمية لولاية بيروت الممتدة من اللاذقية حتى بئر السبع. من أيامها المجيدة إعلان ولادة الاستقلال عام ١٩٤٣وانهاء الانتداب من على درجها الشهير بعد أن أفرج عن رجال الاستقلال من قلعة راشيا. هدمت السراي الصغيرة في العام ١٩٥٠ بأمر من الرئيس رياض الصلح للعمل على توسيع ساحة الشهداء وتحسين المناطق المجاورة لها تجارياً. يراجع الولي، طه: المرجع السابق. ص١٠١ .

٥٠- يراجع حلاق، حسان: صفحات مشرقة من تاريخ بيروت المحروسة (محاضرة). بيروت في ١٥/ ١/ ١٩٩٣ . وينظر أيضا كتيب كلية الإمام الأوزاعي، الصادر عام ١٩٨٣، بمناسبة تكريم زاهية قدوره مع غيرها من الرواد .

٥١- مخابرة هاتفية مع هنري فرعون في أوتيل الكارلتون حيث كان سكنه في آخر فترة من حياته، وكانت المخابرة بتاريخ ٥ /٥/ ١٩٩٣ (أذن بالإشارة إليه) .

٥٢- نقلا عن مخطوطة مذكرات زاهية قدوره . ص ١٦ .

٥٣- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٢٤ /٩/ ١٩٩٢ (أذن بالإشارة إليه) .

٥٤- ذكريات زاهية قدوره في برنامج صدى السنين.إذاعة صوت الوطن .بيروت ١٩٩٢ .

٥٥- يراجع قدوره،زاهية : مذكرات (مخطوطة) . ص ١٨ .

٥٦- كانت هذه الميدالية من مجموعة مقتنيات زاهية قدوره التي ورثتها عن والدتها، وكانت معروضة في صدارة صالونها الأنيق بالقرب من صور والدها ووالدتها وعمتها إبتهاج قدوره.

٥٧- يراجع قدوره، أديب: حقائق ومواقف . ص ٥١ ـ ٥٢ .

يراجع قبرصي، عبد الله: مقالة عن أديب قدوره. مجلة صباح الخير. العدد ٧٣٨. بيروت في ١٦ /٦/ ١٩٩٠ . ص٥١-٥٢ .

٥٨- المرجع نفسه.

٥٩- يراجع خرطبيل ، وديعة قدوره : بحثا عن الأمل والوطن . ص ٢٩٩ .

٦٠- يراجع قدوره، زاهية : مذكرات (مخطوطة) . ص ٢٣-٢٥ .

الفصل الثاني

الولادة والنشأة

١ـ زاهية مصطفى قدوره: تأصيل وتعريف

ولدت زاهية قدوره في العقد الثاني من القرن التاسع عشر، في حدود العام ١٩٢٠ في المنزل الذي شيده جدها أديب قدوره في منطقة عالسُور[1] في باطن بيروت.

جاء في مخطوطة مذكراتها، عن ظروف ولادتها، تعبير عن جدلية العلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل، في قالب وجداني، عبرت فيها عن أحاسيسها الفلسفية المبكرة. فقالت: « لم يحدثني أحد عن مكان ولادتي وظروفها، كيف استقبلني أبي وأمي وأهلي؟ وهل كان لولادتي سمة مميزة، هل كانت السنوات الأولى من عمري تحمل في طياتها علامات فارقة ؟ خلقت وولدت، جئت إلى هذه الدنيا كما يجيء جميع الناس: نربو، ونتكلم، نمشي ونلعب، وسط عيون الأهل التي تراقب وتترقب، تتحسس وتحلم وتتساءل عن الغد. نمشي خطى الحياة، نحمل في قلوبنا الأحلام والذكريات.. بالأحلام نطوي الأيام إلى الغد، نحقق بالعمل والأمل طموحاتنا في الحياة. وبالذكريات نقلب الصفحات المطويات الماضيات، نستلهم العبر والأمثولات، وربما، نسترجع لحظات الزمان والمكان.. فنعيشها من جديد بحلوها ومرها، وتمر مشاهد حياتنا أمام أعيننا فتضيء ذكريات عزيزة، تعجز الأيام عن إطفاء وهجها أو تبريد لهيبها» [2].

إنها وجدانيات من أرتبط بالحياة ولم يدر لأي سبب جاء، وتساؤلات عن الحاضر والمستقبل، وأمل بحياة حرة، عزيزة، كريمة. إنها الفلسفة التي نشأت عليها زاهية قدوره، فلسفة الكون والوجود والحياة، بكل ما فيها من أسرار وتعقيدات ومصاعب الحياة، مرتبطة جميعها برقة الإحساس ورهافة الشعور، وبالاستعداد لكل ما تقدمه الحياة، من حلاوة الأيام ومرارتها، إنها الشوفنية التي تغلف نفسيتها .

عرفت باسم زهيه أولاً نسبة لجدتها[3]. وفي فترة لاحقة عرفت باسم زاهية. في السادسة من عمرها دخلت إلى مدرسة الأميركان أو كلية البنات الأميركية التي كانت قائمة بالقرب من بوابة يعقوب[4]، أو ما كان يعرف بدرج الأميركان، على مقربة من سكن آل قدوره في منطقة عالسُور. وكانت أخواتها الإناث قد سبقتها إليها. كانت تضم

معظم بنات العائلات البيروتية والإسلامية في ذلك الحين، خاصة بعد أن زالت فكرة منع دخول بنات المسلمين إلى المدارس التبشيرية منذ أيام الجد أديب قدوره.

وكان لابتهاج قدوره الفضل في حث العائلات البيروتية المسلمة على إدخال بناتها إلى مدارس الإرساليات، وتشجيعهن على ذلك، بعد أن رأت أن بنات عصرها كن يقلدنها في كل خطوة كانت تقوم بها. ومنذ ذلك الوقت، درجت عادة دخول البنات إلى هذه المدارس، إذ ضمت كلية البنات الأميركية آنذاك؛ معظم بنات أسر البيارتة، كبنات أياس وبيهم والداعوق والبربير، وغيرهن.

وكانت حفلات افتتاح مطلع السنة في كلية البنات، وحفلات التخرج من المناسبات المهمة التي كانت تلتقي فيها العائلات البيروتية، وفتياتها في أول إطلالاتهن الاجتماعية.

ولدت زاهية قدوره في بيروت، وبها نشأت. كانت عزيزة على قلبها، كما كانت تردد دائماً. ولما غادرتها للدراسة في مصر، كانت تعلم في قرارة نفسها أن مغادرة بيروت، ستكون لفترة قصيرة جداً، لتعود بعدها إلى عروس المتوسط، التي كانت تريدها ان تكون في عرس دائم.

عرفت بجرأتها منذ الصغر، إذ أنها لم تكن تستطيع أن تغض بصرها عن إرتكاب أي خطأ من أي كان. ولم تكن تدع مجالاً لاقترافه، من دون أي عقاب لمن يقوم بالعمل الخاطيء[٥].

امتازت في سنها المبكرة بالشعور الوطني النابع من جرأتها على كره الوجود الأجنبي، وعرفت بإحساسها القومي. وكانت تشعر بأنه يجب عليها أن تفعل شيئاً للدفاع عن وطنها، وإعلاء شعار القومية العربية الذي أتخذته شعاراً لها وهدفاً منذ حداثة سنها.

نتجت هذه الأحاسيس الوطنية والغايات القومية، من الدروس التي كانت تتلقاها من معلمة فرنسية في مدرسة الأميركان. وعندما كانت تحدثهن عن جان دارك البطلة الوطنية الفرنسية، وتستفيض في التفسير والشرح عدة مرات، كانت صور البطولة والجهاد والنضال تتدافع في مخيلة الطالبة اللبنانية، التي تحمست كثيراً لواقع بلدها المحتل من قبل الانتداب، ونهضت في إحدى المحاضرات، وقالت للمعلمة الفرنسية: أنها هي - أي زاهية - ستكون جان دارك لبنان، وسوف تحرره من الفرنسيين المحتلين[٦]. أوغر هذا الكلام صدر هذه الفرنسية ضدها، وضمرت لها بعد أن اعتبرت ذلك إهانة لها ولبلادها، وقررت أن تشكوها لعمتها إبتهاج قدوره.

كان الأساتذة في مدرسة الأميركان يزرعون في عقول الطلاب الإعجاب بأميركا، ويدفعونهم لحبها، بتصويرها أنها من أحسن الدول المؤيدة للحرية والديموقراطية. وكذلك كان الحال نفسه في مدارس الإرساليات الفرنسية، التي كان أساتذتها الفرنسيون يصورون فرنسا في عقولهم أنها أمهم الحنون التي يجب أن يتبعوها ويطيعوها ويحترموها.

غير أن زاهية بما بدا عليها في سنها المبكرة من شعور بالوطنية كبير، وإحساس قومي عميق، قل وجودهما عند أترابها اللواتي في مثل سنها. رسما لها علامات مهمة في طريق مستقبلها. هذا التفجر الوطني والقومي المبكران جعلاها تثور على معلمتها الأجنبية التي كتبت على لوح صفها عبارة **U.S.A.** وترجمتها العربية: الولايات المتحدة الأميركية، فانتفضت زاهية عن كرسيها واتجهت نحو اللوح ذاته، وكتبت عبارة **U.S.A** وترجمتها العربية: الولايات المتحدة العربية! إنه الحلم الذي يراودها منذ صغرها.

٢ ـ تطور شخصية زاهية قدوره

مع تقادم الأيام، بدأ أساتذة الكلية يلاحظون تناقضاً واضحاً في علاماتها. أحيانا كانت تحصل على تسعين درجة من مائة في الهندسة والجبر، وأحيان أخرى، كانت لا تتعدى علاماتها العشرة من مائة. فكانو يقولون لها: «يا زاهية لو تدرسين جيدا لكنت تحصلين على معدل علامات جيدة» . وعندما جدت في الدراسة، تمكنت من حفظ كتاب الهندسة ونظرياته غيباً، كما استطاعت أن تحل جميع التمارين الموجودة فيه، مما أهلها للحصول على علامات جيدة في جميع المواد.

قالت عن تلك المفارقة: «... كنت متفوقة في اللغة الإنكليزية وتشجيع معلماتي الأميركيات أوجد لدي الرغبة على التحدي، وإثبات مقدرتي على التفوق عندما أريد، فحفظت كتاب الهندسة غيباً، غير أن ميلي للغة الإنكليزية كان يدفعني إلى أن أطالع فيها بنهم وحب كبيرين، حيث كنت أحب الشعر الإنكليزي وأجد فيه متعة كبيرة، فقد قرأت لكثير من الشعراء الإنكليز، أذكر منهم الآن وليم كوبر وكبلينغ وشكسبير، حتى صارت لي طواعية لغوية قوية جداً، مما دفع بصديقات أخواتي، اللواتي كن أكبر مني سناً، أن أكتب لهن مواضيع الإنشاء باللغة الإنكليزية. وهو الأمر الذي شجعني على التخصص في اللغة الإنكليزية. ولكن القدر كان يرسم لي اتجاهاً آخر»[٧].

ولما كانت تتقن اللغة الإنكليزية بشكل جيد، فقد رشحتها المدرسة إلى الاشتراك بالمسابقة التي نظمتها لطلابها في بيروت وصيدا وطرابلس، باللغة الإنجليزية. وقد حلت زاهية قدوره بالمرتبة الأولى.

وفي هذه الفترة باتت تملك شخصية الفتاة الهادئة الرصينة والوديعة، حيث انصرفت إلى الدرس والتحصيل العلمي ومطالعة كل ما كان يقع تحت يديها، خاصة باللغة الإنكليزية، مما أهلها لأن تمتلك شخصية مهمة، في هذه المرحلة من مسيرة حياتها العلمية والأدبية.

٣- تأثير خانم الحسامي في حياة زاهية قدوره

في العام ١٩٣٥ انتقل مصطفى قدوره بعائلته من منطقة عالسّور إلى منطقة رأس بيروت، تجاه الجامعة الأميركية، عندما استأجر منزلاً في شارع المكحول بالشارع الخلفي لشارع بلس، كان ملكاً لشخص من آل زبوني. وفي هذا العام وفي المنزل الجديد، توفي مصطفى قدورة، الذي كان له تأثير كبير على أفراد عائلته وأهله وأصدقائه. وبوفاته افتقدت بيروت واحداً من أبنائها المخلصين، العاملين فيها للبر والإحسان(٨).

واجهت خانم الحسامي (الست أم أديب) هذا الموقف الأليم بشخصية قوية، وحصافة في الرأي، وذكاء وقاد، مما ساعدها على مواجهة أعباء الحياة، وتوجيه أولادها لبناء مستقبلهم بحماس شديد للعلم. وقد تحملت خانم الحسامي هذه المسؤولية بكل جدارة نتيجة الخبرة التي اكتسبتها في حياة زوجها مصطفى، الذي أخذت عنه الأمثولات والحكم المتعددة، وتعلمت منه التغلب على مشاكل الحياة بحكمة وموضوعية. فصممت على متابعة حياتها ورعاية مسيرة أبنائها العلمية والدراسية، وإعطائهم كل العناية والتوجيه لمستقبل حياتهم.

٤- زاهية قدوره في مدرسة الجونيور كولدج

1937 (JUNIOR COLLEGE)

عندما افتتحت مدرسة الجونيور كولدج **Junior College** في منطقة رأس بيروت، إنتسبت إليها شقيقتا زاهية أديبة ووديعة اللتان كانتا قد أنهيتا دراستهما في مدرسة الأميركان، ثم دخلت إليها بنات الأسر البيروتية الأخرى. وانتسبت إليها زاهية عام ١٩٣٧. حيث عرفت شخصيتها في هذه الفترة؛ بنضوجها وتطور أفكارها. وظهر

ذلك من خلال الاهتمام الجدي بالدراسة، مع الإصرار على تحقيق طموحاتها، لأنها صممت في قرارة نفسها، أن تكون لها شخصية مهمة في المجتمع.

تخرجت زاهية من مدرسة الأميركان سنة ١٩٣٧، وتابعت دراستها في الجونيور كولدج لمدة سنتين. وفي العام ١٩٣٩ تخرجت منها بعد نيل شهادة السوفومور SOPHOMORE(٩).

أما التطور في شخصيتها، فقد ظهر بهدوئها ورزانتها في هذه الآونة من حياتها. ذلك أنه بعد التخرج من الجونيور كولدج بدا الاتزان واضحاً في تصرفاتها، وران النضج على أفعالها، والمسؤولية في كل ما كانت تقوم به. وأصبحت تقدّر المواقف الطارئة ومواجهة ما كان يعترضها بكل مسؤولية. وهو الأمر الذي لقي كل التقدير من أهلها وأصحابها.

وقد ساهم هذا التغيير في شخصيتها، إلى أنها أصبحت تميل إلى الجدية والصرامة، وذكرت في أحد الأيام إلى أن الفضل في ذلك، يعود إلى مدير الجونيور كولدج آنذاك وليم ستولس (WILIAM STOLS) الذي عرف كيف يتصرف مع صاحبة هذه الشخصية ويبدل ملامحها وتصرفاتها، من خلال محاوراته العديدة معها، من غير التعرض أو الإعتراض على الكثير من أعمالها المناصرة للقضايا العربية. إذ أنه لم يبد أيّ معارضة أو ممانعة تجاه تلك النشاطات التي كانت تقوم داخل حرم الكلية، بل كان يتصرف معها بكل لباقة وديموقراطية وانفتاح(١٠).

وكان لها رأي مميز في معنى الصداقة؛ عندما أشارت إلى أنه لم يكن متاحاً لها في صغرها أن تختار أصدقاءها وصديقاتها بحكم الطبيعة الصبيانية المرافقة لتلك المرحلة، أو بسبب التواجد في أمكنة محددة، كالمدرسة أو القرابة العائلية. فإنه من حقها وحدها أن تختار أصدقاءها وصديقاتها في مرحلة الصّبا والشباب.

إرتبطت بصداقة طويلة مع جميلة خوري منذ أيام الدراسة إلى أن غيّب الموت جميلة التي حزنت عليها زاهية حزناً شديداً. ومن صديقاتها أيضاً: هيفاء وأميمة العظم، نسرين أديب، سيرين الحسيني، عبلة خوري، أنيسة دبوس، سرية الخجا، فاطمة العسكري، عائدة الجندي وفاطمة الحسيني.. وغيرهن.

أما أصدقاء مرحلة الدراسة الثانوية، فكان منهم: عادل جراح، حنا الحوراني، أديب نصور، نجم الدين الرفاعي، صالح الهبل، راتب الحسامي وغيرهم.

تحدثت زاهية عن هذه الأيديولوجية، فقالت: " أنها كانت جميلة جدا وحلوة،

بعيدة عن الأنانيات الذاتية والمصالح الشخصية، كانت علاقاتها قائمة على الصداقة الصافية، تتمثل الصداقة في أجمل معانيها وأرفع رموزها. ومن تلك الذكريات، أنه في كل يوم، بعد انتهاء الدراسة، كنا نقوم بالسير مع ثلة من الشباب والصبايا سيراً على الأقدام باتجاه منازل بعضنا بعضاً، حيث كنا في أثناء سيرنا نطرح موضوعاً من المواضيع، أو التعليق على عنوان ما، أو نقطة معينة ليكون ذلك رفيق دربنا أثناء سيرنا إلى منازلنا ""[١١].

تخرجت من مدرسة الجونيور كولدج بعد أن حازت على شهادة سوفومور في العام ١٩٣٩، ثم راحت تتهيأ للدخول إلى الجامعة الأميركية في بيروت، لمتابعة مرحلة الدراسات العليا، والتخصص في دراسة اللغة الإنكليزية بقواعدها وآدابها. ولكن أمنيتها كانت شيئا، وتخصصها كان شيئا آخر[١٢].

٥- زاهية قدوره تتعلم اللغة العربية

عندما كانت خانم الحسامي تتابع حياة إبنتها زاهية في دراستها اليومية، لاحظت عندها تقصيراً واضحاً في اللغة العربية وقواعدها، وفي الصرف والنحو. ولتلافي هذه المشكلة، أحضرت لها الشيخ عبد الرحمن سلام[١٣]، شيخ المؤدبين ومعلم الفقهاء، ليعطيها أصول اللغة العربية وقواعدها.

وقد استطاعت زاهية بفضل تعاليم هذا العالم اللغوي، أن تمتلك ناصية مهمة من نواصي اللغة العربية. فاتقنت قواعدها، وحفظت مفرداتها، وملكت زمامها. فصارت جملها فيها سلسة، وتعبيراتها بليغة، من غير شوائب ولا عيوب أو أغلاط في الصرف والنحو. فاكتسبت أسلوباً متميزاً، وإجادة تامة لها، فتمكنت منها تعبيراً وكتابة، وهو ما ظهر أثره في سائر أعمالها وكتاباتها، ومجمل مؤلفاتها الأخرى.

٦ – الانتساب إلى الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٣٩

يلعب القدر دوراً كبيراً في حياة الفرد، وفي اختيار نمط حياته، ومن هنا لا يمكن إغفال السؤال المحاط بحيرة كبيرة، وهو: لو كانت زاهية قدوره، سلكت في اتجاهها العلمي طريق التخصص في اللغة الإنجليزية، كما كانت تتمنى! هل كانت وصلت إلى المكانة التي وصلتها؟ وهل كانت من كبار أساتذة اللغة الإنكليزية؟ وبالتالي لم تتوصل إلى المكانة القومية والعربية والإسلامية، ومن ثم اللبنانية التي تربعت فوقها؟

أم أنها لو ذهبت إلى أميركا لمتابعة التخصص العلمي فيها! هل كانت ستعود إلى بلدها للقيام بكل ما قامت به؟

أسئلة تبقى بلا أجوبة لأنها في عالم الغيب. بخاصة أنها هي نفسها لم تكن تدري في قرارة نفسها أن القدر كان بانتظارها لتكون مدرّسة وعميدة ورائدة من رواد النهضة القومية والعربية؟ بقيت كل هذه الأسئلة والاستفسارات بدون جواب، لأنه لا يستطيع أي كان الإجابة على أي منها.

وقد أشارت زاهية قدوره في جلسة معها إلى هذا لأمر، عندما قالت: "إن لأمي الفضل الأول والأخير في ولوجي باب التخصص التاريخي. وبالرغم من أنني عندما كنت في المرحلة التحضيرية لدخول الجامعة كان مقرراً علي في البرنامج بعض المواد التاريخية عن تاريخ العرب، حيث كانت تعطيه لنا نجلاء أبو عز الدين، حاملة الدكتوراه من أميركا، وصاحبة شخصية قاسية وجدية، لأنها كانت تدفعنا للدرس الكثير، مما كان له مردود إيجابي في حياتنا الدراسية، وقد استفدت منها كثيراً، وغيرت نوعاً ما في أسلوب حياتي. وعندما أتذكرها الآن لا أجد الكلمة المناسبة لأنصفها بها، ذلك لأنها لم تنصف من قبل الدولة ولم تقدرها حق قدرها، ولكنها وجدت ذلك من قبل الحكومة العراقية التي عملت في مدارسها ومنحتها كل دعم وتأييد، فشكرا لها ""[١٤].

وبالنسبة إلى دور خانم الحسامي في تغيير مسار زاهية الدراسي، فيعود إلى أن الوالدة كانت ترافق ابنتها في أثناء دراستها يومياً، وكانت تسهر معها الليالي. وفي هذه الأوقات لاحظت أم أديب، أن ابنتها زاهية لديها ميل شديد لمادة التاريخ عندما يكون عليها فرض او عمل او اي دراسة. لذلك راحت ام اديب تشجع زاهية وتحثها على دراسة تاريخ العرب، وتشجعها على التمعن فيه، بقولها: « يا ابنتي، ادرسي تاريخ العرب، تخصصي بتاريخ العرب...» وعندما كانت زاهية تتذكر ذلك، تقول: « أن الفضل الأول في ما وصلت إليه إنما يعود إلى والدتي» .

عندما دخلت زاهية قدوره إلى الجامعة الأميركية كانت نفسيتها وشخصيتها غير ما كانت عليه عند دخولها الجونيور كولدج، فقد نمت ونضجت كثيراً، وأصبحت تحاور وتناقش وتجادل في سبيل الإقناع والاقتناع. وفي هذه المرحلة صارت تلك الشخصية مهيأة للتفاعل والانفعال، ومستعدة لتقبل المعطيات الجديدة، وحاضرة لاستقبال موضوعات وأفكار لم تصادفها من قبل، كذلك الأمر فإن جو الجامعة كان

يختلف اختلافاً كبيراً عن جو الجونيور كولدج[١٥].

وبالرغم من الاجواء الديموقراطية التي كانت سائدة فيها، فقد كانت عرضة لمختلف التيارات والتحركات. غير أن زاهية قدوره انصرفت إلى الجو الدراسي الجاد، فيما خلى المشاركة ببعض المظاهرات للتعبير عن رأي ما. في الجامعة الأميركية تتلمذت زاهية على أيدي أساتذة كبار، أمثال: قسطنطين زريق الذي تأثرت به كثيراً، وطنياً وقومياً. وأسد رستم، الذي كان يدرسهم مصطلح التاريخ. إضافة إلى جبرائيل جبور، المميز بإعطاء مادة الأدب العربي، وبنفحاته الشعرية الغزلية المقتطفة من غزليات عمر بن أبي ربيعه[١٦].

وكان من أساتذتها أيضاً، صبحي المحمصاني الذي كان يدرسهم مادة القانون العثماني، حيث كان يضفي عليها من روحه الكبيرة وثقافته العريضة؛ وعلمه الواسع ما يجعلها محببة إلى قلوب الطلاب. وذكرت من الأساتذة الذين كانت مقربة منهم، فريد نجار أستاذ مقرر علم الاجتماع، الذي كان لديه حساسية مميزة تجاه الطلاب الذين كانوا يقومون بالغش في الامتحانات، لذلك ذكرت زاهية، انه كان يجبر الطلاب على القسم بعدم الغش قبل أي امتحان، ثم يتركهم لضميرهم[١٧].

كانت الجامعة الأميركية في بيروت تحتوي على مكتبة تحتوي كثيراً من المصادر والمراجع، فضلاً عن مئات الكتب الإسلامية المتخصصة. وكانت زاهية تتردد عليها باستمرار، إما للدراسة أو لمطالعة بعض الكتب، حيث كانت تلتقي بأنيس المقدسي صاحب عدد من المؤلفات المشهورة(٩٨)، ونبيه فارس، اللذين كانا من أكبر المؤمنين بالعروبة. فأعجبت بمواقفهما القومية والعربية، فكانت تحرص على مقابلتهما والحوار معهما باستمرار. وكان يتردد على مكتبة الجامعة الأميركية كذلك، كل من راتب الحسامي، صبحي الهبل، عبد العزيز علوني (عراقي)، ومحمود الحوت (فلسطيني) وسواهم، الذين كانت لهم مكانة مميزة في بلادهم، والذين صاروا من أصدقاء زاهية بعد ذلك.

٧ ـ أصدقاء الدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت

إذا كانت زاهية قدوره قد اختارت أصدقاءها في مرحلة سابقة من نوعيات معينة، إلا أن واقع الأمر أختلف معها في الجامعة، نظراً لاتساع الجو وكثرة الطلاب الذين كان عليها أن تعيش بينهم. ولما كانت الجامعة تضم طلاباً من جنسيات مختلفة.

فقد زاملت بعضهم، وصادقت بعضهم الآخر، خاصة الطلاب الذين كانوا يسيرون معها في الخط نفسه الذي انتهجته منذ مطلع حياتها.

ففي السنتين اللتين قضتهما في الجامعة الأميركية، كانت هذه الفترة تضج بالأحداث اللبنانية والعربية، وتميزت ببزوغ الفكرة العربية التي تحمست لها ورأت فيها بعضاً من الآمال التي كانت تصبو إليها. شاركها في الحماس للفكرة العربية عدد كبير من طلاب الجامعة الأميركية آنذاك. فشكل ذلك قاسماً مشتركاً جمعها معهم، ومع كل من هبة مخزومي ابنة حسن بك مخزومي زوجة المحافظ السابق غالب الترك. وكذلك أنيسة دبوس التي تزوجت من شخص فلسطيني من آل الفاهوم، وأتخذت من صفد سكناً[٢٠].

ومن صديقاتها المقربات اللواتي رافقنها منذ أيام الدراسة في الجونيور كولدج جميلة خوري[٢١] وهي لبنانية الأصل، فلسطينية المولد، وكذلك كانت شقيقتها لوريس. ومنهن: أيضا ليلى طنوس التي اغرم بها الشاعر سعيد عقل[٢٢] أثناء تردده على الجامعة الأميركية في ذلك الوقت. ومنهن أيضاً فاطمة العسكري وسرية الخجا ونسرين أديب وحجة الأيوبي وسلوى روضة شقير، التي اشتهرت فيما بعد بفن النحت والرسم. وروز زريق شقيقة أستاذها قسطنطين زريق، وسيرين الحسيني وأميمة العظم .

أما زملاؤها من الشباب فكان منهم: أحمد غنمي، الذي تولى لفترة من الزمن رئاسة جمعية العروة الوثقى التي دخلتها فيما بعد. كما كانت لها زمالات مع عدد كبير من الطلبة السوريين أمثال: صالح الهبل وزياد نصور الذي كان عروبياً وقومياً عربياً، وأحمد عليوان الذي وصل إلى منصب سفير.

إضافة إلى هؤلاء الشباب الذين رافقوها في الجامعة وزاملوها، كان هناك آخرون، منهم: محمد البعلبكي وخليل عيتاني والكاتب حنا حوراني، ثم صالح برقان الأردني الأصل. ومن أصدقائها المميزين نذكر إسماعيل الفاروقي الخارج من أسرة فلسطينية عريقة، بعد تخرجه من الجامعة الأميركية ذهب إلى أميركا ليكمل تخصصه. وكان منهم كذلك: الشاعر فخري البارودي مؤلف نشيد بلاد العرب أوطاني.

٨ ـ زاهية قدوره تتخرج من الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٤٣

تابعت زاهية قدوره دراستها في الجامعة الأميركية في بيروت، بالرغم من الأجواء السياسية الملبدة، وفي خضم من المعارك السياسية، القومية والوطنية، التي كانت في قمة غليانها، من دون أن يترك ذلك تأثيره عليها، أو يؤخر مجرى دراستها

وتفوقها. تخرجت من الجامعة الأميركية في بيروت في سنة ١٩٤٣ حائزة على شهادة بي - أي (B .A)[٢٣]. أي بكالوريوس في الفنون والآداب اختصاص تاريخ، بعد أن أعدت رسالة بعنوان: المرأة الإسلامية في العصر العباسي الأول ١٧٢ - ٢٣٤هـ/ ٧٤٩ - ٨٤٧م[٢٤].

بعد التخرج من الجامعة الأميركية كانت تريد متابعة دراستها في إحدى الجامعات الأميركية، للتخصص في اللغة الإنكليزية والحصول على شهادة الدكتوراه. وعندما أطلعت والدتها على هذه الرغبة، رفضت أم أديب ذلك، لأن سن زاهية كان صغيراً وكانت تخاف عليها كثيراً، خاصة وأنها آخر أولادها، ولا تستطيع أن تأخذ هذا القرار بمفردها، بعد غياب الوالد. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، رفضت الوالدة هذا الأمر لبعد أميركا الشاسع عن لبنان. فاقترحت خانم الحسامي على ابنتها أن تتابع الدراسات العليا في مصر، أولاً لأنها بلد عربي قريب، وثانياً بسبب الشهرة التي تتمتع بها الجامعات المصرية وأهمية شهاداتها. فضلاً عن اعتبارها الينبوع الأصلي لدراسة التاريخ العربي الإسلامي.

وسط حيرة وبلبلة في تحديد مسارات المستقبل، وفي تحديد نوعية التخصص العلمي الذي يفترض بها أن تحدده، وفي حمأة الصراع بين رغبتها في نيل شهادة من أعلى الجامعات في العالم، ورغبة والدتها في عدم ابتعادها عنها، قررت التوجه إلى مصر ومتابعة الدراسة في جامعة فؤاد الأول.

ففي هذا الوقت، اشتهرت الجامعة المصرية آنذاك، بأنها كانت ذات مكانة علمية متقدمة، تفيض بأنوارها على الدول العربية، علماً وأدباً وثقافة. فقررت متابعة الدراسات العليا في مصر، والتخصص بدراسة التاريخ العربي الإسلامي، تلبية لرغبة والدتها وتحقيقاً لأمنيتها، بعدم ذهابها إلى أميركا؛ البعيدة عن بيروت، بعد السماء من الأرض[٢٥].

٩ – زاهية قدوره تنال شهادتي الماجستير عام ١٩٤٧ والدكتوراه عام ١٩٥١

توجهت زاهية قدوره إلى مصر لمتابعة الدراسات العليا في جامعة فؤاد الأول، وإذا بها تفاجأ بأنه يتوجب عليها الإلتحاق مرة ثانية بصف الإجازة (الليسانس) لأن القوانين الأكاديمية المصرية، تعتبر الشهادات الجامعية الممنوحة خارج أراضيها، لا تعادل في مستواها العلمي والأكاديمي؛ الشهادات الممنوحة من جامعاتها. وهكذا خضعت لقواعد الجامعة المصرية؛ مما جعلها تخسر سنة من حياتها الدراسية، انصرفت فيها

للتحضير لشهادة الإجازة (الليسانس) في التاريخ، التي كانت بعنوان: «أزواج النبي»، قبل أن تأخذ اسمها النهائي وتصبح بعنوان: «عائشة أم المؤمنين»[٢٦].

في منتصف العام ١٩٤٧، نجحت بالحصول على درجة الماجستير في التاريخ ثم تابعت من بعدها، الإعداد للمرحلة التالية من دراساتها العليا للحصول على درجة الدكتوراه في التاريخ، لتكون أول فتاة غير مصرية، تنال هذه الشهادة من الجامعات المصرية. وأول فتاة لبنانية تتخرج من جامعة فؤاد الأول (دكتورة في التاريخ العربي الإسلامي). وقد اختارت موضوعاً بعنوان: « الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول»[٢٧].

صرفت الساعات الطوال والأيام والشهور بصورة متواصلة، تبحث وتفتش وتستقصي، عن المواضيع المتعلقة بنشأة الشعوبية، دارسة لتطورها وامتدادها، مفصلة لتشعباتها. فرأت فيها أوضاعاً مشابهة مما يحصل في كل وقت. خاصة و «أن حياة الفرد متصلة كل الاتصال.. فماضيه يرتبط ارتباطا وثيقا بحاضره، ومستقبله ليس شيئا آخر غير امتداد لذلك الماضي..»[٢٨]. وفي العام ١٩٥١، حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة فؤاد الأول في مصر بدرجة جيد جداً.

١٠ – عودة الدكتورة الشابة إلى بيروت عام ١٩٥١

بعد العودة إلى بيروت تحمل شهادة الدكتوراه في التاريخ العربي الإسلامي، عرض عليها التدريس في الجامعة الأميركية. رفضت ذلك «لأن خطي غير خطهم. فكما سبق لرئيسي السابق في الجونيور كولدج الأستاذ وليم ستيوارت أن أراد إدخالي في سلكه التعليمي، فرفضت العمل في معهد أجنبي، لأنني لو رأيت منهم أي خطأ، سوف أغضب وأخلق لهم المصاعب والمشاكل وهم لن يتحملوا ذلك. لذلك رفضت عرض ستيورت للعمل في الجامعة الأميركية. ومن هنا فكرت بالدخول إلى السلك الوظيفي بالدولة اللبنانيــة..»[٢٩] فعينت أستاذة للتدريس في دار المعلمين العليا (الجامعة اللبنانية فيما بعد) عام ١٩٥١.

وبعد فترة وجيزة، صدر قرار تعيينها أستاذة متعاقدة للتدريس بالساعة في دار المعلمين العليا بمعدل ٢٥ ساعة في السنة، في عهد الرئيس خليل الجر. وبحكم مسؤوليته، فقد توجب عليها مقابلته للتفاهم على إشكاليات الوظيفة. فطلب منها أن تعلم التاريخ باللغة الفرنسية، رفضت ذلك وسألته: « كيف تريدني أن أعلّم التاريخ العربي

باللغة الفرنسية ؟ فهل هذا معقول ؟ إن جميع المستشرقين الأجانب عندما يريدون أن يدرسوا تاريخ بلادنا يتعلمونه باللغة العربية»[٣٠]. فاقتنع الجر بوجهة نظرها، ووافق على تدريس التاريخ باللغة العربية.

وعندما دخلت إلى دار المعلمين لم يكن فيها، سوى عدد قليل من السيدات اللواتي كن يحملن شهادات توازي شهادتها أو قريبة من درجتها، كنجلاء أبو عز الدين، التي سبق الذكر، أنها درست على يديها مقرر: «تاريخ العرب»، عندما كانت طالبة في الجامعة الأميركية في بيروت. في المقابل، كان هناك عددٌ من الرجال يحملون شهادات دكتوراه في اختصاصات مختلفة، ككمال الحاج في الفلسفة، وحسن مشرفية في العلوم. ثم حصل على درجة الدكتوراه بعد ذلك كل من جبور عبد النور وخليل الجر وقيصر نصر.

تم التعاقد معها في البداية للتدريس بالساعة، بمعدل ساعتين، لمدة سنة ونصف السنة. ثم صدر مرسوم تثبيتها في الملاك، نظراً لحاجة الدار إلى تعبئة ملاكاتها الشاغرة. وتدرجت في منصبها من أستاذ مساعد متمرن، إلى أستاذ مساعد للتعليم العالي، من الدرجة السادسة، إلى الخامسة، وإلى الرابعة، فإلى رتبة أستاذ مساعد للتعليم العالي من الدرجة الأولى. ثم عينت رئيسة لقسم التاريخ والجغرافيا في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية، التي باتت تعرف بهذا الاسم منذ العام ١٩٥٩.

أخذت منها متطلبات الوظيفة الجديدة جل اهتماماتها ومعظم وقتها، كونها شكلت مرحلة جديدة في حياتها. فانصرفت إلى تدعيمها وترسيخها بكل المعلومات والمعارف والقيم، التي اكتسبتها في سنواتها السابقة، واختزنتها في شخصها.

كانت السنوات من ١٩٦٣ إلى ١٩٧٠ مليئة بالعمل والنشاط العلميين. فقد تابعت في خلالها نشاطها الأكاديمي، في الجامعتين اللبنانية والعربية، إضافة إلى إنجاز بعض المؤلفات التاريخية والفكرية والثقافية، فضلاً عن المشاركة في المؤتمرات العلمية والثقافية والتاريخية.

لم تشأ أن تقوم بوظيفة التربية والتعليم من خلال منطلق محض وظيفي، يدر عليها دخلاً مادياً معيناً، وتعويضاً تحصل عليه في نهاية كل شهر.

كانت مهنة التعليم التي اكتسبتها وانتسبت إليها، خطوة مهمة في حياتها، ولجتها بكل إرادتها واقتناع منها؛ لأنها كانت تعتبرها مهمة ذات غاية سامية لها هدف تثقيفي، إنساني واجتماعي في ذات الوقت.

إضافة إلى ذلك، إنشغلت في تلك الفترة باهتمامات أخرى، اجتماعية وسياسية. تمثلت الأولى في إنشاء اتحاد الجامعيات اللبنانيات، وانصبت الثانية على اهتماماتها السياسية، التي تركزت على الأحداث السياسية التي عاشها لبنان، من جراء تأثره بالتيارات السياسية التي كانت تدور من حوله، كصعود الثورة الناصرية في مصر عام ١٩٥٢، وما رافقها من استقطاب سياسي وشعبي، من قبل الكتّاب والمفكرين والمؤرخين، إضافة إلى الطبقات الشعبية والرسمية، العامة والخاصة، في لبنان والبلاد العربية.

وانجذبت أيضاً إلى الشعارات العربية، والطروحات القومية، التي أفرزتها العناوين السياسية والاجتماعية والثقافية للحركة الناصرية وخاصة بين الأعوام ١٩٥٢ - ١٩٥٦، وفي أثناء العدوان الثلاثي على مصر[٣١]، الذي قامت به بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، للقضاء على تلك الشعارات والطروحات، التي نادى بها جمال عبد االناصر، واستقطب من جرائها وبنتيجتها حالة شعبية كبيرة من التأييد في صفوف الجماهير في البلاد العربية. كما حصد كثيراً من التأييد الدولي، فضلاً عن مساندة ودعم دول المعسكر الشيوعي خاصة، ودول عدم الانحياز عامة.

وعندما اندلعت الثورة الشعبية في لبنان، عام ١٩٥٨، تعاملت معها عن طريق الكتابة وتوجيه الأفكار إلى إخماد نيران الثورة. فراحت تدعو اللبنانيين إلى الحكمة والتروي والتقريب بين النفوس والعقول، والابتعاد عن الحقد الطائفي ونبذ الاقتتال بين الأخوة. والاحتكام إلى لغة العقل والمنطق، والعمل للبنان الواحد الموحد لجميع أبنائه، شعاره العدل والمساواة، وتأمين الحقوق لكل مواطن فيه.

شكلت هذه العناوين والشعارات بالإضافة إلى توجيهاتها التربوية والتعليمية، خطوات سياسية واجتماعية مهمة، في حياة زاهية قدوره، ومن الصعب عليها أن تتخلى عن واحدة منها في سبيل الأخرى، مما حال في أحيان كثيرة بينها وبين الاهتمام بحياتها الخاصة. إذ لم تدع لها تلك المهام والتحركات، الفرصة للتفكير بنفسها، للراحة من أعباء الحياة المتشابكة، والاهتمامات المتعددة. كمثل انتدابها للتدريس في العراق، بناء على طلب وزارة المعارف العراقية، أو انتدابها من قبل جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، لمهمة دراسية في مصر.

وربما كانت هذه الأخيرة، النافذة التي فتحت أمامها الفرصة للتفكير بشخصها. إذ كان لا بد لها أن ترتاح في يوم من الأيام، وتنصرف للتفكير بنفسها، حتى يمكن لها

الالتقاء بالشخص الذي تبثه شجونها ومتاعبها، وتحمله بعضاً من أعباء حياتها المثقلة بظروف العمل[٣٢].

١١ - زواج زاهية قدوره من محمد كفافي عام ١٩٦٠

راجت في منتصف العام ١٩٥٩ أخبار خطوبة زاهية قدوره من محمد كفافي، الأستاذ في جامعة القاهرة، وتداولت الخبر الأوساط الاجتماعية في كل من بيروت والقاهرة[٣٣].

تعود العلاقة بينهما إلى أيام الدراسة، عندما حضنتهما مدرجات جامعة القاهرة، وجمعهما اتجاه ثقافي واحد. ثم افترقا كل واحد منهما بعد ذلك في حياته الخاصة والعامة. عادت هي إلى بيروت، لتصبح واحدة من أساتذة جامعتها، بينما سافر هو إلى أميركا كأستاذ لمادة التاريخ في إحدى جامعاتها. ليعودا ويلتقيا من جديد عندما قام كفافي بترجمة بعض النصوص التاريخية من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، التي استعانت بها زاهية في إعداد أطروحة الدكتوراه عن الحركة الشعوبية. فكان من الطبيعي أن تتجدد بينهما صداقة أيام الدراسة[٣٤].

وقد لعبت الصدفة دورها في هذا الزواج، عندما تلقت عرضاً من جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية للذهاب إلى مصر، في مهمة خاصة، لمساعدة طلاب الجمعية بالحصول على منح تعليم لدخولهم إلى الجامعات المصرية، وتسهيل سير أعمالهم الدراسية والمعيشية في مصر. وفي الوقت ذاته، للتفاوض مع وزارة التربية والتعليم المصرية، لإيفاد عدد من الأساتذة المصريين إلى لبنان ليقوموا بالتدريس في مدارس الجمعية. فكُلفت كرسول من قبل الجمعية للإشراف على رعاية وتنفيذ هذين الأمرين. بالإضافة إلى دراسة طلبات المنح المقدمة من الطلاب للحصول على منح الجمعية للدراسة في مصر.

وفي مصر، وفي أثناء القيام بالاتصالات اللازمة حول موضوع اختيار الأساتذة للتدريس في بيروت وتأمين حضورهم إليها، التقت بمحمد كفافي المسؤول عن ذلك. وبعد لقاءات متعددة بينهما، تمكنا من إنجاز الاتفاق وتطبيق بنوده ومستلزمات تنفيذه. ثم تطرق الحديث بينهما إلى المسائل الشخصية، بحكم العلاقة القديمة التي كانت تربطهما، وفاتحها في أمر طلب يدها للزواج.

لم تعارض الأمر ولكن هموم الوظيفة، تسارعت إلى تفكيرها قبل أن تعطيه

موافقتها على الفكرة من حيث المبدأ، وطلبت منه وقتاً لترتيب أوضاع وظيفتها في بيروت. ولما عادت إلى لبنان، كانت أخبار الخطوبة قد سبقتها إلى الجرائد والمجلات، وأوساط المجتمع اللبناني.

أنجزت المهمة في القاهرة، وعادت إلى بيروت لترتيب أوضاعها الخاصة والعامة. وبعد فترة من الوقت - تخللتها عدة اتصالات بينهما - اتفقا على الزواج. فطلبت زاهية إجازة بدون راتب من الجامعة اللبنانية لمدة سنة استعدادا للزفاف[٣٥]. وفي الوقت نفسه، استغلت وزارة التربية الوطنية اللبنانية مناسبة توجهها إلى مصر والإقامة فيها لمدة سنة، فكلّفتها بمهمة رسمية أيضاً. تقضي بتصوير واستنساخ المخطوطات المتعلقة بالتاريخ العربي للعصر العباسي، الموجودة في الجامعات المصرية[٣٦].

مرت السنة التي قضتها بجانب زوجها سريعة، وعادت لمزاولة عملها في الجامعة اللبنانية. كانت تغتنم الفرصة من وقت لآخر للذهاب إلى مصر، وقضاء إجازتها الصيفية إلى جانب زوجها في القاهرة. وعندما بدأت جامعة بيروت العربية التدريس في بيروت عام ١٩٦١، نقل إليها محمد كفافي وعين عميدا لكلية الآداب فيها. ثم تعاقدت معها جامعة بيروت العربية للتدرس فيها لمادة الحضارة العربية، فباتت بيروت مسكنهما الدائم. ولكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ توفي محمد كفافي بعد مدة لا تزيد على العشر سنوات.

١٢ - منصب أرادته ومنعت من الوصول إليه

من الأهمية بمكان، وقبل الدخول في تفاصيل مسيرة حياتها في الجامعة اللبنانية، أن نشير إلى أنها عندما حصلت على شهادة الدكتوراه، التي أنهت فيها مرحلة مهمة من حياتها. بات عليها الانتقال إلى مرحلة جديدة، تختلف كلياً عن سابقتها، شكلاً وموضوعاً وتفاصيل.

ذلك، إن زاهية قدوره عندما انتسبت إلى جامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٣، ولجت عالماً جديداً بالنسبة إلى فتاة في مثل سنها. إن كان من حيث نوعية الأشخاص الذين كان من المحتم عليها أن تتعرف إليهم، أو أن تتواصل معهم يومياً. سواء كانوا من الطلبة أو من الشخصيات المصرية المرموقة، الذين كانوا على معرفة ببعض من أفراد أسرتها.

وكان عدد كبير من الطلبة اللبنانيين، الذين كانوا يقصدون الجامعات المصرية حينذاك للدراسة فيها؛ بحاجة إلى شخص تتوافر فيه سمات القيادة والرئاسة، إلى جانب

الهمة والنشاط، ليعمل على تولي أمورهم. ويكون أيضاً على صلة قوية بالشخصيات المصرية النافذة والمسؤولة، ليتمكن بواسطتها من تأمين مصالحهم فيها. لذلك تنادى هؤلاء للدعوة إلى إنشاء رابطة تجمع شملهم وتوحد مطالبهم وتحركاتهم، وتعمل على تذليل العقبات التي كانت تعترضهم، في أثناء إقامتهم في مصر.

ولما كانت زاهية قدوره قد تمكنت عن طريق أسرتها، الاتصال بعدد كبير من الشخصيات المصرية المرموقة، وتتواصل معها باللقاءات والزيارات. فقد استطاعت تأمين عدد كبير من حاجات الطلاب اللبنانيين في القاهرة، وغيرهم من الطلاب العرب، الذين كانوا يقصدونها أيضاً، لتذليل العقبات التي كانت تعترض حياتهم في مصر.

من هنا توافق الطلبة اللبنانيون في القاهرة، على قيام رابطة تجمع شملهم، فانتخبوا زاهية قدوره رئيسة لها، وزعيمة لهم، بالرغم من اعتراض بعض الأشخاص على ترؤس الرابطة من قبل فتاة صغيرة السن. قامت زاهية قدورة بمهمتها على أفضل وجه، وتمكنت من تذليل معظم المشاكل التي كان الطلاب يعانون منها، ويطلبون مساعدتها على حلها. واستمرت على هذا النحو حتى العام ١٩٥١، عندما حان موعد عودتها إلى بيروت، بعد انتهاء دراستها في مصر، والحصول على شهادة الدكتوراه.

وعندمت قررت زاهية قدورة العودة إلى بيروت، تحرك الطلبة اللبنانيون في القاهرة لإيجاد الشخص المناسب الذي بإمكانه أن يقوم بالمهمة التي كانت تتولاها. خاصة وأن المفوضية اللبنانية في مصر، لم يكن فيها ملحقّ ثقافي يرعى شؤون الطلبة اللبنانيين في مصر[٣٧]. مما دفع هؤلاء للتحرك بإتجاه الحكومة اللبنانية، للمطالبة بتعيين زاهية قدوره، ملحقة ثقافية في المفوضية اللبنانية في مصر، لمتابعة شؤونهم. فأبرقوا إلى رئيسي الجمهورية والحكومة، وإلى وزيري الخارجية والتربية الوطنية. وكذلك إلى عدد من الشخصيات السياسية اللبنانية، للعمل على تأمين مطلبهم.

لاقت الفكرة هوىً مستحباً عندها، وأدركت بقرارة نفسها أنها هي التي تعودت على خدمة الطلبة، وتذليل صعاب الحياة أمامهم، وحل جميع مشاكلهم! لماذا لا تعود وتمارس نفس المهمة؟ إنما بصفة رسمية ؟

عرضت الأمر على عمها نادر قدوره، الذي استشار فيه صديقه وزير الخارجية آنذاك شارل حلو. كما اتصلت عمتها إبتهاج قدوره بالوزير حلو للغاية نفسها. ولما كثرت الاتصالات حول الموضوع وأخذ منحى جدياً، كاد أن يتم لها ما أرادت.

إلا أن القدر غيّر مسار حياتها وبدلها تبديلاً جذرياً. إذ عندما عرض الموضوع على رئيس الحكومة عبد الله اليافي، اقترح تعيينها في معهد المعلمين العالي (الجامعة اللبنانية فيما بعد). وهكذا تغيرت مسيرة حياتها لتتشعب وتتوسع إلى نطاق أبعد مدى من خدمة مئة طالب أو ما يزيد[٣٨].

١٣ـ إنتهاء مرحلة والتحضير لأخرى

اعتبرت الفترة الممتدة بين ١٩٥٠ ـ ١٩٧٠ من حياة قدوره، فترة غنية بالعطاءات الأدبية والفكرية والثقافية، في قالب يغلب عليه التعمق تاريخياً، وفهماً للتيارات السياسية والاتجاهات، التي كانت تنزلق إليها الأوضاع؛ نتيجة لترسبات مختلفة، مما زاد عندها الإحساس بعمق المسؤولية التي كان يقع عليها واجب القيام بها تجاه الناشئة وتجاه نفسها. فلم تشأ أن تترك الناشئة عرضة لمعظم المفاهيم الهدامة، خاصة وأن نفسها كانت تأبى السكوت على الخطأ. فكيف إذا كان هذا الخطأ خطراً إلى حد الإماتة. وعلى ذلك، زادت تلك الأيام من خبرتها، وأغنتها بالمعرفة، ونبهتها للإحاطة بمعظم ما كان يستجد حولها من مشاكل وصعاب.

فعلى الصعيد المهني، كانت الوظيفة بالنسبة إليها غاية وليست وسيلة، وكان هدفها في الحياة الخدمة العامة، التي مارستها وهي ما تزال بعد طالبة على مقاعد الدراسة. هذه الهمة للخدمة العامة نشأت معها وفي حياتها، من دون أن تهيئ لها نفسها، فلم يعرف عنها أنها ردت طلب أي محتاج في يوم من الأيام.

كما إن التجربة المهنية التي مرت بها طوال السنوات العشرين في حياتها، استفادت منها كثيراً. ثم العلاقة الإنسانية التي نتجت عن زواجها من محمد كفافي، فقد أثرت في حياتها روحياً وفكرياً، وأمدتها بزاد من الثقافة النفسية والعقلية؛ مما أكسبها خبرة كبيرة على معالجة الحياة الجسدية، بروح العقل، والثقافية في قالب من الشفافية.

هذا الإرث الفكري والثقافي الذي اكتسبته من زوجها، كان وراء تشجيعها على تحمل مسؤولية الترشيح لمنصب عمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية. فشد على يدها وكان أول من هنأها عندما صدر قرار تعيينها، لإدراكه ومعرفته بمدى الإمكانيات التي تمتلكها، والمؤهلات التي تختزنها في داخلها. وله الفضل في أنه هو الذي دفعها لخوض غمارها[٣٩].

وفي هذه الفترة أيضاً، تبلور نضالها الوطني والقومي باندفاعها نحو القضايا

الوطنية والمصيرية والعربية، فكانت مناضلة صلبة، وقفت طويلاً إلى جانب الحق والعدل.

ونتيجة لما شاهدته في أثناء دراستها في الجامعة الأميركية في بيروت، وفي جامعة فؤاد الأول في مصر، ولمسته في كليهما. تكونت لديها الفكرة عن كيفية قيام الجامعة الحقة، التي تسعى في مهمتها إلى المواكبة العلمية والأكاديمية. ولاحظت هذه الفكرة عندما التحقت بالجامعة اللبنانية في سنة١٩٥١، ثم في أثناء توليها رئاسة قسم التاريخ إبتداءً من سنة١٩٦١. فعملت على مناهضة الأفكار السلبية التي كانت تحد من اندفاع الجامعة اللبنانية، وتلجم تقدمها وتطورها. وتصدت لذلك بقوة وعناد وكبرياء، لم يثنها عن ذلك أي شيء كونها امرأة؛ مما عرضها للنزاع مع بعض المقربين إليها لمجرد أنهم كانوا لا يؤيدونها في هذا التوجه[٤٠].

ومن الأهمية بمكان القول، إن تاريخ ١٨أيار(مارس) ١٩٦١ يعتبر نقطة تحول هامة في حياة زاهية قدوره، عندما فتحت أمامها أبواب جامعة بيروت العربية لتكون في عداد أساتذتها بصفة محاضرة في كلية الآداب.

لم تشعر عند دخولها إلى هذه الجامعة بأنها غريبة، بل وجدت نفسها في وسط أهلها، لأنها كانت واحدة من الذين قاموا للمطالبة بإنشائها، عندما ارتأت مع مجموعة من الأشخاص الذين كانوا يلتقون معها في توجهاتها ودعواتها، إلى ضروروة إنشاء كلية تضم في رحابها الطلبة الذين كانوا لا يتمكنون من الدخول إلى الجامعات الخاصة. فضلاً عن أعداد الطلاب من اللبنانيين أو من العرب الذين كانوا يفدون للدراسة في بيروت، ولا يستطيعون الدخول إلى الجامعة اللبنانية، بسبب حداثة نشأتها، والنسبة المعينة من الطلاب الذين كانت تستطيع استيعابهم آنذاك.

فعملت بخطى حثيثة على المطالبة بإنشاء كلية في بيروت، وفي منطقة الطريق الجديدة بالذات. وفي أحد الأيام من عام ١٩٦٠، التقت مع السيدين راشد الحوري وجميل الرواس، على الأرض التي كان يقوم عليها سجن الرمل القديم. واتفقوا فيما بينهم؛ وبعد التشاور مع بعض أعضاء جمعية البر والإحسان، على إنشاء كلية أو ما شابهها، تقوم بتدريس مفاهيم القومية العربية الصحيحة والأسس الثقافية التي قامت عليها الحضارة العربية. إضافة إلى تلقين المفاهيم الوطنية الصادقة البعيدة عن التعصب والطائفية، وتكون مناوئة للأفكار المغلوطة التي تبثها جامعات المبشرين والإرساليات في بيروت.

وذكرت زاهية قدوره، أنهم لتحقيق هذه الغاية، قاموا بالاتصال بجهات عديدة لمساعدتهم على تحقيق الفكرة، من دون أن يلاقوا تجاوباً في أول الأمر. ثم قام كل واحد منهم بإرسال برقية إلى الرئيس جمال عبد الناصر يطلبون منه المعونة، ومن مصر المساعدة، لقيام كلية في بيروت. وقالت: إنه لم تمضِ أيام قلائل حتى طرق باب منزلها المستشار الثقافي في السفارة المصرية في بيروت، سلامة حمّاد الذي بادرها بالقول: «إن زيارتي لك هذه المرة تختلف عن زياراتي السابقة، لقد كلفت من قبل السلطات المصرية لأبلغك أن الرئيس عبد الناصر وافق على طلبكم بإنشاء جامعة في بيروت وليس كلية»[٤١].

وهكذا كانت فكرة قيام جامعة بيروت العربية نتيجة للجهود التي بذلتها مع بعض الخيرين والوطنيين من أبناء بيروت، وفي طليعتهم جمعية البر والإحسان، التي قيل إنها تبرعت بالأرض التي شيدت عليها المباني الأولى للجامعة.

١٤ ـ زاهية قدوره عميدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية

يشار في البداية إلى نقطة أساسية تتعلق بالدافع الذي ساهم في حث زاهية قدوره على الترشيح لهذا المنصب، وهو وجود زوجها محمد كفافي في حياتها أثناء تلك الفترة، الذي كان يتمتع بشخصية فيها الصفات الخلقية والعقلية والفكرية. كما عرف بانفتاحه وحرصه على ضرورة المساواة بين المرأة والرجل، علمياً وفكرياً. وكان على دراية كافية بمدى الإمكانات والطاقات التي تتمتع بها زاهية في شخصها، فكان دافعاً أساسياً لها؛ على تقديم ترشيحها لهذا المنصب. خاصة وأنها رفضت الفكرة في البداية، لزهدها بالمراكز والمناصب، ولكنه أصر عليه عندما أظهر حقها في هذا المنصب مبيناً رتبتها وأقدميتها التي تسمح لها باعتلائه، وهو المركز الذي لم تسبقها إليه امرأة أخرى في العالم العربي[٤٢].

في العام ١٩٧٠ شغر مركز عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية، بسبب انتهاء ولاية العميد أحمد مكي. وكان رئيس الجامعة آنذاك أدمون نعيم، الذي كان يفضل أن يسند هذا المنصب إلى رجل آخر ليتمكن من مجابهة المشاكل الطلابية الآخذة في التصاعد منذ أحداث نيسان (أبريل) عام ١٩٦٩. فأعلن معارضته ترشيح زاهية قدوره لهذا المنصب، بالرغم من أنه عرف بعلمانيته إلى أقصى حدود العلمنة، وإنفتاحه على الثقافة العالمية، والمناداة بالتطور والتحرر والعدالة[٤٣].

كان العرف في حال شغور مركز العمادة، أن يتقدم الأستاذ الذي كان ينوي

الترشح لهذا المنصب بترشيحه إلى مجلس الكلية. فيتبنى المجلس هذا الترشيح ويضع مطالعته القانونية والأكاديمية ويبدي رأيه. ثم يرسل الملف كاملاً إلى رئاسة الجامعة اللبنانية ليطلع عليه الرئيس ويضع مطالعته الخطية ويوقعه. ثم يرسل اسم المرشح المقترح، أو أسماء المرشحين المقترحين، إذا كانوا أكثر من واحد، إلى مجلس الوزراء لإصدار التعيين[٤٤].

وكانت ترشيحات مجلس كلية الآداب في العام ١٩٧١، مركزة على واحد من اثنين، هما زاهية قدوره وكمال الحاج صاحب كتاب الفلسفة اللبنانية، الذي كان أستاذ ورئيس قسم الفلسفة في الكلية. إضافة إليهما ترشح للمنصب، كل من الشيخ صبحي الصالح وسعيد البستاني ونزار الزين، مع إنهم لم يكونوا قد تأهلوا بعد لرتبة أستاذ تعليم عال في الجامعة اللبنانية.

رافق الترشيح معركة حامية داخل مجلس كلية الآداب، إذ انقسم أعضاؤه فريقين، فريق التقليديين المطالبين بضرورة استمرار العادات والتقاليد الموروثة والاستمرار بتقلد منصب العمادة من قبل الرجل. وفريق التجديد والتغيير، الذي كان مؤمناً بإعطاء المرأة فرصتها لتثبت جدارتها ومكانتها إلى جانب الرجل. وهو الذي دعم ترشيح زاهية قدوره.

وصلت أصداء النقاش داخل المجلس إلى الخارج، فتلقفتها الصحف والمجلات، وتناولتها في عناوينها وموضوعاتها. أيدت بعضها ترشيح المرأة، وقدمت لها الدعم والمساندة، وعارضتها صحف أخرى، التي رفضت تولي المنصب من قبل امرأة. ومنها مجلة الحوادث التي كتبت: « تشهد كواليس الجامعة اللبنانية الآن معركة خفية بين آدم وحواء على كرسي عميد كلية الآداب الذي سيشغر بانتهاء ولاية الدكتور أحمد مكي. آدم ممثل باثنين : الدكتور كمال الحاج ونزار الزين، من أساتذة الكلية. وحواء ممثلة بالدكتورة زاهية قدوره وبس. يقول أصدقاء الدكتورة قدوره في الكلية أن كمال الحاج مستعد لأن يتنازل لها إذا وافقت الدولة على تعيين امرأة في هذا المنصب، وبذلك تكون قد سجلت سابقة تقدمية. نذكر بالمناسبة أن انتخاب عميد كلية الآداب يتم باقتراع سري بين الأساتذة ثم يعطى قرار الفصل لوزير التربية الذي يملك حق الفيتو دون سائر المسؤولين. وتتمنى الدكتورة قدوره أن لا يستخدم الوزير جوزف أبو خاطر هذا النقض، حتى يتاح له أن يحمل لقب : نصير المرأة "!![٤٥].

يبدو من ذلك أن المجلة أرادت تلطيف الأجواء المشحونة بعد أن قيل أن المعركة وإن كانت ظاهرياً بين آدم وحواء، إلا أنها في حقيقتها كانت بين التقليديين والتقدميين أو المجددين. وبالنسبة إلى عملية الاقتراع السري لاختيار اسم الأستاذ المفضل للمنصب، فإنها لم تعرف من سريتها إلا الشكل فقط، حيث أكدت المصادر أن النقاش العلني والجدال الحاد الذي ساد أعضاء المجلس، لم يدع للسرية أي مجال، اللهم سوى شكلها فقط. فلو كانت الأسماء سرية حتى إعلانها من جانب مجلس الوزراء، لما تناولتها الصحف كمادة أولى وراحت تخوض في الأسماء بين مؤيد لزاهية قدوره أو داعم لكمال الحاج.

ودخلت على الموضوع أيضاً؛ جريدة الحياة التي وضعت تعليقاً بعنوان: «ترشيح لبنانية لمنصب عميدة كلية الآداب» ثم كتبت: « رشح مجلس الكلية في الجامعة اللبنانية الدكتورة زاهية قدوره لمنصب عميدة الكلية، كما رشح زميل آخر هو الدكتور كمال الحاج بعد أن انتهت ولاية الدكتور أحمد مكي. وزاهية قدوره تحمل دكتوراه في الآداب من جامعة القاهرة، وتمارس تدريس الآداب في كلية الجامعة اللبنانية منذ عام ١٩٥٢ وهي رئيسة اتحاد(الجامعيات) اللبنانيات. ومن المنتظر أن يدعم المجلس النسائي اللبناني ترشيح الدكتورة زاهية قدوره لدى وزير التربية ومجلس الوزراء مغتنماً الفرصة السانحة لإثبات المساواة واعتماد الكفاءة . وكذلك لا يستبعد أن يدعم الدكتور كمال الحاج منافسته مستغلاً بدوره الفرصة الذهبية لإثبات تقدم وشعاعية لبنان»[٤٦].

وكان من الطبيعي تجاه هذا الأمر، أن تنهض الجمعيات النسائية للعمل على مناصرة إحدى سيداتها في أي عمل تقوم به. فكيف إذا كان الحال ترشيح إحداهن لمنصب عميدة في الجامعة اللبنانية. ومن هذا الواقع كانت ردة فعل المجلس النسائي اللبناني الإيجابية والسريعة، عندما قامت عضواته بخطوات حثيثة لحشد الدعم والتأييد لزاهية قدوره في خطوتها تلك.

وحول هذا الموضوع وضعت جريدة الشمس مقالة بعنوان: « ترشيح الدكتورة قدوره لمنصب عميدة كلية الآداب بالجامعة اللبنانية» .

« يظهر المجلس النسائي اللبناني اهتماما بالغا بإيصال الدكتورة زاهية قدوره التي رشحها مجلس كلية الآداب لمنصب عميدة الكلية إلى هذا المنصب في إطار عمله المتواصل للوصول بالمرأة اللبنانية إلى المناصب الرفيعة في الدولة».

« وقد زار وفد من المجلس النسائي برئاسة السيدة نجلاء صعب، وعضوية السيدات أميلي فارس إبراهيم وزاهية سلمان وزاهية أيوب رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء ووزير التربية الوطنية والدكتور فؤاد أفرام البستاني من أجل هذه الغاية»[٤٧].

وكانت اللجنة النسائية في حزب الهيئة الوطنية، قد قررت ترشيحها لمنصب العميدة في كلية الجامعة اللبنانية[٤٨]. إضافة إلى اتحاد الجامعيات اللبنانيات، الذي رشحتها الهيئتان الإدارية والعامة فيه للمنصب.

وذكرت جريدة لسان الحال أن مجلس الجامعة اللبنانية عندما عرض عليه اسم زاهية قدوره وكمال الحاج رفضهما معا واقترح اسمين بديلين هما نزار الزين والشيخ صبحي الصالح، حيث بات حسب الأصول على مجلس الوزراء حق اختيار العميد من بين الأسماء الأربعة بسبب اختلاف مجلسي الجامعة والكلية، ورأى المراقبون أن الأوفر حظاً كان صبحي الصالح[٤٩].

المهم في الأمر أن تلك الترشيحات تأخرت في أدراج مجلس الوزراء لمدة تقارب الستة أشهر، التي فرضتها اعتبارات عديدة، وتدخلات كثيرة. وقد استفاد منها كل من صبحي الصالح ونزار الزين، اللذين استحقا رتبة الأستاذية فصار ترشيحهما قانونياً. وسبب آخر ساهم في تأخير التعيين. وهو أن رئيس الجامعة أدمون نعيم كان مشككاً في تولي إمرأة للمنصب، وكانت لديه قناعة بعدم قدرتها على تحمل تعقيدات ومشاكل المراكز الحساسة. خاصة وهو المدرك والعَالِم بمدى حجم المشاكل الطلابية، وتعقدها، التي بدأت معالمها بالتبلور وبظهور اتجاهاتها المعقدة والمتشابكة، منذ العام ١٩٦٩، وما رافق تحركاتها من تيارات سياسية ضاغطة. فكان رأيه أن المرأة أعجز عن مواجهة تلك المشاكل، ومن الأفضل الإتيان برجل ليكون عميداً لكلية تعصف بها تيارات سياسية وعقائدية وحزبية، وتتحكم بمسارها مجموعات طلابية ذات اتجاهات ومشارب مختلفة[٥٠].

انصرف المرشحون كل إلى تدعيم مواقعه واستمالة المؤيدين واكتساب الأنصار. ففي حين أن كمال الحاج كان قد استلم عمادة كلية الآداب بالوكالة بعد انتهاء ولاية أحمد مكي باعتباره أكبر أعضاء مجلس الكلية سناً، فإن زاهية قدوره احتجت على هذا الأمر ورأت أنها هي الأولى بذلك لأنها الأقدم في رتبة الأستاذية، وبالتالي فإنها صاحبة الحق في المنصب. وقد كتبت جريدة النهار حول هذا الموضوع فقالت:

« منذ أكثر من سنة وقضية عمدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية مطروحة على بساط البحث نظرا إلى قرب انتهاء مدة ولاية الدكتور أحمد مكي. وكانت المسألة كلما أثيرت تصطدم بعقبات عدة أبرزها طموح الدكتورة زاهية قدوره إلى تولي مركز العمدة، باعتبارها صاحبة حق في المنصب. وواجه موضوع ترشيح المرأة لعمدة الكلية تحفظات واعتراضات من جانب الطامحين إلى المركز، وبينهم أكثر من حامل دكتوراه، ومن جانب الذين يستفظعون وجود امرأة في كرسي العمدة. وكان للأمر صداه السلبي والإيجابي، في لبنان والعالم العربي»[٥١].

هذا الموقف من جريدة النهار استدعى رداً موضوعياً من زاهية قدوره، التي بعثت إليها برد تفند فيه مزاعمها، بالنقاط التالية:

«١- الطموح لمنصب عمادة كلية الآداب

الأمر بالنسبة إلي لا يشكل طموحاً، فقد شغلت منصب الأستاذية منذ عدة سنوات، والعمادة ليست فوق الأستاذية، فضلاً على أنني وقت خلو منصب العمادة وجدت نفسي الأستاذ أو الأستاذة الوحيدة التي ينطبق عليها القانون والعرف بالنسبة إلى شغل هذا المنصب. فكان القانون هو الذي رشحني، بدليل أن مجلس الكلية اتخذ قراراً بذلك بتاريخ ٤ /٢/ ١٩٧٠، ولم يكن الأمر مجرد طموح مني وتطلع إلى ما لا أستحق.

«٢- التنافس على مركز عمادة كلية الآداب

الواقع أن شروط العمادة لا تقتصر على حملة الدكتوراه، إنما تشترط رتبة الأستاذية. والطامحون الذين أشارت إليهم النهار، زملاء أفاضل ولكن ليس بينهم من يحمل، في الوقت الحاضر، رتبة أستاذ.

«٣- استنكار إسناد منصب عمادة كلية إلى إمرأة

لسنا نرى وجه الفظاعة في ذلك، ونحن نعيش في دولة متطورة، ليس في قوانينها ما يفرق بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات، وإن من ائتمن المرأة على وظيفة الأستاذية، قد يكون في موقف المتناقض مع نفسه إذا لم يأتمنها على منصب العمادة، وهي فرع من عمل أي أستاذ يستحقها، في حين ليست الأستاذية فرعا لها.

«١٥- أصداء تعيين إمرأة عميدة كلية في البلاد العربية

كان مجرد إبداء الرأي من جانب بعض الرائدات في تحبيذ سياسة الإنصاف القائمة على المساواة بين الرجل والمرأة في مختلف البلاد العربية، وهي مظهر من

مظاهر التقدم الذي ينبغي أن يفخر به دعاة التقدم في العالم العربي كله» [٥٢].

ضمن هذا السياق، وفي إطار الجدل الذي كان قائماً، والاختلاف البيّن بين المرشحين أنفسهم، وتحت عبارة مَنْ ترشحون لهذا المنصب. قامت جريدة النهار، بمحاورة أربعة منهم، لاستكشاف أفكارهم ومعرفة برنامجهم، فيما لو عين أحدهم عميداً.

بدأت زاهية قدوره كلامها بالحديث عن الجدارة القانونية التي تؤهلها وتعدها لتولي هذا المنصب. ثم انتقلت بعد ذلك لتطالب بإصلاح الجامعة من داخل الجامعة: «فالنقد والنقد الإيجابي هو الطريق السليم لبناء الجامعة الحديثة ..».

وأضافت القول من أنه لا بد لأي جامعة في العالم لكي تكون جامعة حقيقية، من مقومات ثلاث، وهي : الأستاذ القادر على العطاء من خلال البحث والدرس، ثم طالب مجتهد ونشيط، ومكتبة جامعة وافية وشاملة. وهذه النقاط الثلاث كانت بمثابة خطة العمل التي اعتمدتها زاهية قدوره فيما بعد عندما أصبحت عميدة لكلية الآداب، وأضافت إليها نقطة رابعة تتعلق بالتجهيزات التي يجب توافرها في كل بناء جامعي ليكون متكاملاً. وكانت تعتقد أن هذه المقومات إذا ما وجدت وتأمنت في أي جامعة لاعتبرت « الجامعة هي الشريان الحضاري الذي يسري في جسد الوطن».

ثم طالبت بتغيير جذري في الأوضاع المادية للجامعة اللبنانية وبرامجها العلمية. كما في المكتبة وفي المناهج. ومن القضايا التي وعدت بتأمينها فيما لو تسنى لها الوصول إلى منصب العمادة، مساعدة بعض المعيدين والأساتذة المساعدين في العمل على رفع مستوياتهم العلمية عبر إرسالهم في بعثات للتخصص في الخارج، كما وعدت بأن الأولوية ستكون للبحوث والتأليف الجامعي. وطلبت ممن سيتسلم هذا المنصب أن يعطي اهتمامه وعنايته للأنشطة الثقافية والاجتماعية المختلفة.

وسوف يلاحظ أنها بعد أن وصلت لمركز العمادة في كلية الآداب، عملت على تحقيق ما طالبت به من تحسينات في الكلية، بالرغم من الاعتراضات التي وضعت في طريقها والمشاكل التي واجهتها، من قبل أعضاء مجلس الكلية، أو من الطلاب. والأهم من كل ذلك، أنها تعرضت في حديثها لجريدة النهار إلى نقطة اعتبرت بمثابة معالجة جذرية للأزمة التربوية المستعصية، إذ طالبت، بأن: « يكون لدينا مجلس أعلى للتخطيط الجامعي والتنسيق الطلابي يضم مندوبين عن جامعات لبنان وعن وزارة التربية ووزارة التصميم، حيث يطلعون على حاجات لبنان التربوية والأكاديمية،

ويخططون للمستقبل الجامعي، وفقاً لدراسة إحصائية تبين فيها مدى حاجة الجامعة إلى مختلف الاختصاصات اللازمة لسوق العمل، في ضوء المعطيات العامة لخطة الإنماء الشاملة. وعلى مجلس التنسيق أيضاً أن يقترح إنشاء فروع وكليات نظرية وعملية جديدة، كما عليه مهمة توزيع الطلاب، حسب الدرجات والاستعدادات الشخصية، على مختلف الكليات، فيكون لكلية الآداب من هؤلاء نصيبها الوافر» [٥٣].

جرت وساطات كثيرة واتصالات متعددة، قام بها كل مرشح على حدة، وعلى أكثر من صعيد، ومع أكثر من شخصية فاعلة ومؤثرة، لأن كل واحد منهم؛ كان يرى أن وصوله إلى المركز فيه انتصار له ولمن يمثله، وكأنه لا يعلم أن المنصب تكليف لا تشريف!.

أما زاهية قدوره فقد اعتبرتها معركة رياضية، الغرض الأساسي منها كان النهوض بالجامعة الوطنية. واعتبرت أن درجة الخلاف كانت تبعاً لأحلام كل مرشح في تصور مستقبل الجامعة، بالرغم من نفيها الخلاف بين زملاء الكلية الواحدة.

وبات القرار جاهزاً في عهد حكومة صائب سلام الثانية، زمن ولاية سليمان فرنجية، وكان وزير التربية الوطنية آنذاك نجيب أبو حيدر [٥٤].

في الحادي عشر من شهر آذار(مارس)١٩٧١ اجتمع مجلس الوزراء في جلسة عادية وعلى جدول أعماله قضية مهمة وعاجلة، وهي إجراء تعيينات في بعض المراكز الشاغرة، ومنها منصب عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية. وبعد الجلسة صدر المرسوم رقم ٧٧٦ الذي قضى بتعيين زاهية قدوره عميدة لكلية الآداب لمدة ثلاث سنوات، بالرغم من معارضة بعض الوزراء لهذا التعيين، إضافة إلى معارضة أولية من قبل رئيس الجامعة اللبنانية أدمون نعيم، الذي رفض التوقيع على المرسوم.

وفور صدور المرسوم، وقعه رئيس الحكومة صائب سلام، وطلب من سكرتيره جميل كبي؛ أن يتصل بالدكتورة بعد منتصف الليل، ليزف إليها نبأ تعيينها بنفسه. فشكرته على موقفه الشجاع الذي تخطى جميع الصعاب والضغوطات والمداخلات [٥٥].

إعتبر قرار تعيين زاهية قدوره عميدة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية خطوة مهمة، في تاريخ تطور الحركتين التربوية والنسائية. وقد حظيت هذه الخطوة، بأصداء جيدة في لبنان والوطن العربي، وخاصة لدى الجمعيات النسائية

والثقافية، التي اعتبرتها من أوائل السيدات اللواتي تسلمن مثل هذا المركز في دولة عربية، بعد أن كان حكراً على الأساتذة من الذكور. فكان هذا التعيين ثورة أكاديمية بيضاء، قلبت المفاهيم الجامعية رأساً على عقب، وبدلت كثيراً مما كان سائداً من مفاهيم وآراء حول مسؤولية المرأة في تولي المناصب المهمة، ولا سيما التربوية منها، بشكل خاص[٥٦].

هوامش الفصل الثاني

١- (عالسُور) ينظر العيتاني، محمد زكريا: بني العيتاني الأصول والفروع . ص ٨٥ .

٢- يراجع قدوره، زاهية : مذكرات (مخطوطة) ص٢٦.

٣ -ينظر كتيبا كلية الأمام الأوزاعي والمركز الإسلامي في عائشة بكار، بمناسبة تكريم زاهية قدوره، في كل منهما، خلال عامي ١٩٨٣ و١٩٩٢.

٤- للمزيد من التوضيح عن أبواب بيروت، ينظر: حلاق، حسان: ملامح من تاريخ بيروت التراثي والاجتماعي (محاضرة)في١٤/ ١٢/ ١٩٩٣. وينظر أيضاً شبارو، عصام: سور بيروت وأبراجها (محاضرة) في١٧/ ٨/ ١٩٩٣. وجاء في أحد المراجع القول: أن بيروت، زمن دولة بني عثمان وقبلها في الفتح العربي، مدينة صغيرة ذات مرفأ صغير لا شأن له يذكر، ويحيط بها سور من جميع جهاتها، له أربع بوابات: بوابة الدركة شرقاً، وبوابة يعقوب غرباً، وبوابة إدريس شمالاً، وبوابة السور جنوباً.

٥- قدوره، زاهية : مذكرات (مخطوطة) . ص ٣٥ .

٦- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٢٧/ ١١/ ١٩٩٢ (أذن بالإشارة إليه) .

٧- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٠ /١/ ١٩٩٣ (أذن بالإشارة إليه) .

٨- ينظر كتيبا كلية الأمام الأوزاعي والمركز الإسلامي في عائشة بكار. مرجع سابق

٩- يراجع قدوره، زاهية: (مذكرات مخطوطة). ص ٣٨ .

١٠- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٢٣/ ٢/ ١٩٩٣ (أذن بالإشارة إليه) .

١١- تنظر ذكريات زاهية قدوره. مرجع سابق

١٢- سلام (عبد الرحمن)(الشيخ)(١٨٧١- ١٩٤١) من أكبر رجالات بيروت علماً وفقهاً ولغة وأدباً وشعراً وخطابة، تجمعت فيه من الصفات والمواهب، قلما نجدها عند عالم آخر من علماء بيروت آنذاك. عمل في التعليم في سوريا وفلسطين ولعب دوراً كبيراً في مواجهةغورو الفرنسي، حاثاً الجماهير على النضال. أنتخب عام ١٩٢١ في المجمع العلمي بدمشق. من زملائه فيه: العلامة محمد كرد علي، والعلامة عبد القادر المغربي. كان يعطي دروساً لغوية لعدد من رجال الدين الشبان، أمثال الشيخ مختار العلايلي، والشيخ أحمد العجوز، والشيخ محمد الغزال، والشيخ محمد عساف، والشيخ محمد الداعوق. الذين كانوا قد طلبوا من المفتي أن يكلم الشيخ سلام في إعطائهم دروساً في اللغة، فقبل الشيخ بذلك. وجعلوا موعد دروسهم في يوم الأحد من كل

أسبوع، كما نقل عن محمد شامل الذي كان من ضمنهم أيضاً. يراجع الولي، طه: المرجع نفسه . ص ٣٠٩ – ٣١٠.

١٣- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٢/ ٤/ ١٩٩٣ (أذن بالإشارة إليه)

١٤ - حظيت الجامعة الأميركية في بيروت التي أنشئت سنة ١٨٦٦ بشهرة كبيرة في الشرق الأوسط، ومعترف بها من معظم الدول العربية والشرق أوسطية. تراجع: مجلة الوطن العربي. لندن. العدد ٢٤٣- ٧٦٩ الصادرة في٢١/ ١١/ ١٩٩١.

١٥- وله فيه دراسة كبيرة تقع في ثلاثة أجزاء ، صدرت عن دار العلم للملايين في بيروت في سنة ١٩٦٨

١٦- يراجع قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة) . ص ٣٩ .

١٧- منها: أمراء الشعر العربي، وأعلام الجيل الأول، وتطور الأساليب النثرية، والفنون الأدبية وأعلامها. نقلاً عن مذكرات زاهية قدوره، التي قالت فيها أنها صدرت جميعها عن دار العلم للملايين في بيروت في سنوات مختلفة.

١٨- يراجع قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة) . ص ٤٢ .

١٩- توفيت خلال الأحداث اللبنانية.

٢٠- نقلاً عن لسان الأديبة أملى فارس إبراهيم في مقابلة معها بتاريخ ٢٦ /٩/ ١٩٩٧ (أذن بالإشارة إليه) .

٢١- وأصلها: BACHELOR OF ART.

٢٢- ينظر إلى الشهادة الممنوحة للطالبة زاهية قدوره من الجامعة الأميركية في بيروت في العام ١٩٣٩ .

٢٣- قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة). ص ٥٠، وجريدة اللواء. بيروت ٢ /٣/ ١٩٨٧ .

٢٤- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٢٧/ ٤/ ١٩٩٣ (أذن بالإشارة إليه) .

٢٥- قدوره، زاهية : مذكرات (مخطوطة). الجزء الثاني. ص٢٥.

٢٦- قدوره،زاهية: الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول. ص ٥.

٢٧- قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة). الجزء الثالث. ص ١، وبرنامج صدى السنين. مرجع سابق .

٢٨- جريدة اللواء. بيروت. ٢٣ /٣/ ١٩٨٧.

٢٩- ينظر تفصيل العدوان وأسبابه ونتائجه ...، ناتنغ، أنتوني: ناصر. ص ١٨٥- ٢٣٣، وأحمد، رفعت سيد: ثورة الجنرال جمال عبد الناصر. ص ٣٥١ – ٤٠٠

٣٠- تم استخلاص النقاط والعناوين والاطلاع عليها من خلال دراسة حياة وشخصية زاهية قدوره، والتي لا بد سوف يأتي الحديث عنها بصور مختلفة في أثناء دراسة أفكارها ومناقشة طروحاتها، التي وضعتها في كتبها وأبحاثها ومؤلفاتها.

٣١- جرائد ومجلات بيروت التالية: اليوم في ٣/٤ ، ومجلة الصياد في ٩ /٧ و٢٠/٨، وجريدة الأنوار في١٧/ ٧و٢/ ١٢، وجريدة الحياة في٢٠ /٧ و٤/ ١١ و٢٨/ ١١، ومجلة الأسبوع العربي

في٢٠/٧، وجريدتا الاثنين والدنيا في٨/٣، وجريدة الكفاح العربي في٢٢/ ١٠، وجريدتا بيروت المساء والجريدة في٤/ ١١، وجريدة السياسة في ٥/ ١١، وجريدة الرواد في ٢٤/ ١١، وجريدة L' Orientفي ٢٩/ ١٢/ ١٩٥٩.

٣٢- قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة). الجزء الثالث. ص ٢٥، وجريدة اللواء. بيروت. ٢ /٤/ ١٩٨٧.

٣٣- جريدة الأهرام. القاهرة ٤ /٢/ ١٩٦٠.

٣٤- جرائد الكفاح العربي، الحياة، التلغراف، نداء الوطن، الصحافة والنهار. بيروت.٩/١٦ وجريدة الكفاح. بيروت. ٢٣/ ١٠/ ١٩٥٩.

٣٥- تنظر جريدة بيروت المساء. بيروت في ١٤/ ١١/ ١٩٥١.

٣٦- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٣/ ٥/ ١٩٩٣ (أذن بالإشارة إليه).

٣٧- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٢٧/ ٥/ ١٩٩٣ (أذن بالإشارة إليه).

٣٨- شبارو، عصام كلمة في نقابة الصحافة اللبنانية بمناسبة تكريم زاهية قدوره في شهر تموز عام ١٩٩٤، من قبل اتحاد الشباب الوطني.

٣٩- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٢٣ /٥/ ١٩٩٥ (أذن بالإشارة إليه).

٤٠- تراجع جريدة اللواء الصادرة في بيروت بتاريخ ٢/ ٤/ ١٩٨٧.

٤١- تنظر جريدة اللواء الصادرة في بيروت بتاريخ ٢٣ /٣/ ١٩٨٧.

٤٢- تراجع المادة الرابعة والعشرون من القانون رقم ٧٥/ ٦٧ تاريخ ٢٦/ ١٢/ ١٩٦٧وتعديلاته (قانون تنظيم الجامعة اللبنانية).

٤٣- تنظر مجلة الحوادث الصادرة في بيروت بتاريخ ١٣ /٣/ ١٩٧٠ .

٤٤- تنظر جريدة الحياة الصادرة في بيروت بتاريخ ٨ /٣/ ١٩٧٠.

٤٥- يراجع قدوره، زاهية : مذكرات (مخطوطة) . الجزء الرابع . ص ٢٣ .
تنظر جريدة الشمس الصادرة في بيروت بتاريخ ١١/ ٤/ ١٩٧٠.
وتنظر كذلك : مجلة الحسناء الصادرة في بيروت بتاريخ ١٨/ ٤/ ١٩٧٠.

٤٦-تنظر مجلة كل شيء الصادرة في بيروت بتاريخ ٩/ ٥/ ١٩٧٠.

٤٤- تنظر جرائد ومجلات بيروت كلسان الحال بتاريخ ٢٨ /٦ و٤/ ١٢/، ومجلة الحوادث بتاريخ ١ /٣/، وجريدة الحياة بتاريخ٧/ ٤، وجريدة التلغراف بتاريخ ٨/ ١٠، وجريدة الأنوار بتاريخ ١٦/ ١٠، ومجلة المجالس في ١٢/ ١٢/ ١٩٧٠.

٤٨- تنظر جريدة اللواء الصادرة في بيروت بتاريخ ٢٣/ ٣/ ١٩٨٠.

٤٩- تنظر جريدة النهار الصادرة في بيروت بتاريخ ٩/ ٥/ ١٩٧٠.

٥٠- تنظر جريدة النهار الصادرة في بيروت بتاريخ ١٠/ ١١/ ١٩٧٠ .
يراجع أيضاً قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة). الجزء الرابع ص ٢٧.

٥١- المرجع نفسه.

٥٢- تصدر الخبر معظم الصحف اليومية، ولعدة أيام متتالية.وبتاريخ ١١/ ٣/ ١٩٧٠وتصدّر الخبر صُحف: المحرر، البيرق، العمل، صوت العروبة، الأنوار، النهار، Le Jour، وفي تاريخ ٣/١٢

صدر في صحف: المحرر، العمل، صوت العروبة، اليوم، Le Jour ، جمهورية. وبتاريخ١٣/ ٣ في صُحف صوت الفيحاء،البناء،الشمس، اليوم، لسان الحال، العمل، الأنباء. كما ورد في جريدة الحديث البيروتية بتاريخ ١٥/ ٣/ ١٩٧٠

٥٣- يراجع قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة) الجزء الرابع. ص ٣٢ .
يراجع أيضاً جريدة اللواء الصادرة في بيروت بتاريخ ٢٣/ ٣/ ١٩٨٧ .
وقد صار هذا الموضوع حقيقة واقعة وفعلة منفذة، عندما اتفق على فكرة العمل على تحسين جودة التعليم العالي من قبل وزارة التربية والتعليم العالي في الوقت الحاضر

٥٤- تعتبر كلية الآداب من أكبر الكليات في الجامعة اللبنانية، وتضم أيضاً أكبر عدد من الطلاب لسببين : أ - تعدد أقسام الاختصاص فيها، وهي: اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية، التاريخ، الجغرافيا، الآثار، علم النفس، الفلسفة، ولا تجاوزها في العدد كلية أخرى..
ب- لأن شهاداتها تؤمن لحاملها ممارسة مهنة التعليم في حقل اختصاصه أو غيره.
تأسست كلية الآداب بموجب المرسوم رقم٢٨٨٣ تاريخ ١٦/ ١٢/ ١٩٥٩إجازاتها:اللغة العربية واللغة الفرنسية واللغة الإنكليزية، الفلسفة، علم النفس، التاريخ، الجغرافيا، وعلم الآثار. كما تمنح دبلوم دراسات عليا في كل الاختصاصات المذكورة أعلاه. كما تمنح شهادة الدكتوراه اللبنانية أو دكتوراه دولة. وحديثاً أنشئ فيها مركز التواصل واللغات وآخر للترجمة. لغتها الأساسية اللغة العربية.

الفصل الثالث

المنحى التربوي - الثقافي في حياة زاهية قدوره

١ - تقديم وتعريف

الثقافة كلمة صغيرة لعنوان عريض، يزخر بما حبلت به الحضارات من تراث إنساني كبير لشتى الأمم والشعوب. وهي كما قيل عنها: كم من الثقافات المجتمعة.

تعتبر الثقافة (CULTURE) نشاط البشرية التحويري الخلاق، وكذلك نتائج هذا النشاط. ويميز عادة بين "الثقافة المادية" (التكنيك، الخبرة الإنتاجية، الثروات المادية) و "الثقافة الروحية" (العلم، الأدب والفن، الأخلاق...)، و"الثقافة السياسية" (أهداف ووسائل ونتائج نشاط المجتمع أو الطبقة أو الأفراد، والتي تعبر عن درجة التطور الاجتماعي للفرد كذات فاعلة للتغييرات في العلاقات الاجتماعية)..[1].

اما التربية فهي الأسلوب والسلوكيات التي يأخذها الفرد وتكون عنوان الحياة السائدة في المجتمع البشري، الذي هو ثمرة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، والمبادئ الروحية، والأصول العقائدية، التي تساهم بحصيلتها طباع الفرد في مجتمع ما مهما تنوعت أنماطه؛ لأن الأفراد في كل مجتمع يتشربون منذ تفتحهم على الحياة، تربية محيطهم، فيؤثر ذلك في تكوينهم التربوي والخلقي والمسلكي .

ويرى بعض الباحثين، أن مدلول الثقافة مساو لمدلول التربية، فلا يفصلون بينهما باعتبار الأولى هي الجانب المعنوي، والثانية هي الجانب المادي. وبذلك تغدو الثقافة هي البنى الفوقية من المعرفة، والتربية فعل هذه البنى وتجسداتها. أي ما توصل إليه مجتمع ما، من نظم وقواعد وسلوكيات تربوية وكل ما لا يعد جانباً معنوياً؛ علماً بأنه ليس ثمة فصل بينهما، فأي تقدم على صعيد التربية هو نتاج الثقافة، وكل مجتمع مهما كان بدائياً أو متشكلاً بأنماط تربوية محددة، له ثقافته المخصوصة، وتربيته المميزة.

إن المعنى اللغوي للتربية هو التهذيب والصقل. وهي تشمل كل ما يهذب النفس الإنسانية من ألوان الفكر والفن. وقد تطور هذا المفهوم ليشير إلى كل معاني الفكر والقيم الروحية والخلقية والفنية، التي تعمل على نمو الإنسان واكتمال ذاته. وهنا تلتقي كلمة الثقافة مع كلمة التربية ومفهومها، إنما التربية قد تنفرد ببعض المعاني، من ذلك مثلاً

التقدم المادي للتربية. فالكلمتان الثقافة والتربية تلتقيان في مجالات متعددة، في حين تنفرد كلمة تربية تعليمية ونظم وافكار تربوية مختلفة، بحيث تكون في واقعها أشمل مدلولاً من الثقافة[3].

أما بالنسبة إلى الشخص الذي يحمل هذه الهالة على منكبيه، فقد اختلف أهل التربية والعلماء في أي هوية يلبسونه إياها، وأي تعريف يطلقونه عليه، وأي سمة يسمونه بها. ذلك أن التربوي هو المربي والأستاذ والمعلم ورجل التربية والعلم، الذي تقع على عاتقه مسؤولية التربية والتعليم في كل وقت وكل حين. كما يحملونه المسؤولية، ربما لأنه وضع نفسه أو اشتغل في المكان الذي لا يعنيه، وفي مواضع اعتبر نفسه أنه كان فيها الإيديولوجي والاقتصادي والتربوي لا يجب أن يكون إيديولوجيا في تعاليمه وافكاره التربوية، وهو ما ما كان حال زاهية قدورة، التي استطاعت ان تفصل بين افكارها ونظرياتها وممارساتها التربوية والأكاديمية عن فلسفتها السياسية والاجتماعية. ولذلك نهضت الدعوات التي قالت: على التربوي أن يشتغل في ما يعنيه، في الدراسات والأبحاث والمؤلفات، ينتقد نفسه وأدواته من خلالها، أما اشتغاله بأمور السلطة والمعارضة، فتلك أمور لا تعنيه .

من هو المثقف ؟ وبالتالي من هو التربوي ؟ في رأي زاهية قدورة

إذا قمنا بالمماهاة بين المثقف والتربوي، نُخرج من دائرة التعريف أنماطاً مختلفة من التعبير الثقافي، لا تنتهي بالضرورة إلى النمط التربوي. فالثقافة في معناها الأنتروبولوجي هي كل نمط للتعبير عن الذات، وعن رؤيتها للعالم، سواء اتخذت هذه الأنماط شكلاً من التعبير المكتوب أو الحركي أو الشفوي. الأمر الذي يدفعنا إلى تسجيل هذه الملاحظة، وهي أن المثقف ليس رجلاً تربوياً حصراً بل هو غير ذلك بالتأكيد.

في تعريف المثقف، سواء استحضرنا المثقف بما هو شخص امتهن حرفة التربية والتعليم، أم شخص يمتلك أن يتوسل بوسائل أخرى من التعبير تختلف عن التربية.. في الحالتين فإن تعريف المثقف نظرياً هو تعريف تدرجي، أو بالأحرى هو تعريف للحظات ممارسة الثقافة. لأن التربوي يجب أن يكون مثقفاً ومنتجاً للمعرفة منذ اللحظة الأولى التي يمكن أن تكون مدار التساؤل حول دوره المعرفي، في حين أن المثقف لا يمكن أن نعرفه بأنه ذلك الشخص المنتج للمعرفة.

وفي هذا المجال، عرّفوا المثقف أيضا بأنه « ليس الرجل الذي يفكر أي – الرجل العالم - بل هو الرجل الذي ينقل إلى الآخرين نهمه للعلم». ذلك أنه إذا كان

التفكير إنكفاءً واعتزالاً «على نسق التأمل والوحدانية اللتين يقتضيهما الإيمان «وإن التوسط، ونقل المعرفة إلى الآخر، تلك أمور تتطلب الحركة والحذق. فلا عجب إذاً، من أن نجد معجم لسان العرب قد عرّف الرجل المثقف بأنه ذلك الرجل الحاذق الفهم[٤]. فالتثقف حذاقة، وفي الحذاقة دراية في التسوية والسياسة. وهناك صفات أخرى تطلق على أهل النظر «المفكرين» غير أن الحذق ليس إحداها. لذلك فقد اتفق في القول والإدراك أن المثقف «بزيادة الميم على جذر سلفه المعجمي» فهو الأبرع في النقل والانتقال، في الوصل والاتصال.

فالمثقف، خصوصاً العربي له أهمية استثنائية، ويمكن أن يلعب دوراً أساسياً في وجه حالات الإحباط والقمع والانهيار الحاصلة. وإذا كانت بعض الدعوات والأفكار في الغرب لها ما يبررها، خصوصاً أنه كانت هناك محاولة لتحويل المثقف إلى تقني وتهميش دوره، أو محاولة وضعه في زاوية، بشكل معين. فإن هناك كماً كبيراً من المؤسسات والصيغ يمكن أن تعوض نسبياً عن الدور الذي كان يضطلع به المثقف في مرحلة معينة، مع الملاحظة أن المثقف الآن، لم يعد له دور تبشيري كما كان في السابق من خلال المؤسسات السياسية، وإنما له دور نقدي، ودور مراجعة لتاريخه النقدي، وأيضاً فتح حوار يسهم فيه الكل، تمهيداً للوصول إلى قواسم مشتركة، أو إلى صيغة يمكن أن تعطي للثقافة دورها.

ضمن هذه المقولات يتساءل المفكر محمد عابد الجابري: كيف يمكن تقويم نقد العقل العربي في الظروف الراهنة الصعبة التي يجتازها العالم العربي ؟ وهي ظروف كما نعلم تنزع نحو إلغاء العقلانية؟[٥] والجواب؛ أنه هنا يكون دور المثقف ومهامه لمواجهة هذه المشكلات. ذلك أن النضال الثقافي، أو القيام بالمهمة الثقافية، والتزام الثقافة يتطلب مواجهة هذه التحديات، وإلا فما دور المثقفين إذاً؟ ألم يكن مواجهة كل ما هو متخلف ولا عقلاني، وما هو متطرف؟ سواء من هذه الجهة أو تلك. إنها مهمة المثقف المجد صاحب المشروع.

عرّفت زاهية قدوره الجامعة بأنها مؤسسة تعليم عال تنتج المعرفة والعلم والثقافة، ووجدت أنها ليست مؤسسة ساكنة لنقل العلوم وتلقينها، بل هي متحركة لمواجهة نمو المجتمعات، وإعداد الشباب لحياة منتجة تليق بما للجامعيين من دور طليعي في المجتمعات الحديثة[٦].

وفي هذا المجال يقول ساسين عساف، أن للثقافة مناحي متعددة فتكثر وتتشعب إلى مؤسسات مختلفة، ومنها الجامعة التي يرى فيها مؤسسة للتعليم والبحث. مادة تعليمها وبحثها الثقافة، والثقافة هي المظهر الاجتماعي لنشاط الفكر وحركة الوجدان، وتشمل الميادين المعرفية كافة : فلسفة – دين – أدب – علم – تكنولوجيا – فنون – إدارة – قانون – اقتصاد - اجتماع..[٧].

من هنا يمكن للثقافة العربية، أن تكون ثقافة التنوع والاعتراف بالآخر، والتفاعل الحضاري والانفتاح الإنساني، والمساواة والعدالة وحقوق الإنسان.

بينما يعتبر الدكتور عساف، أن الثقافة العربية بعمقها التاريخي/الحضاري، هي وريثة مصر وبابل وأشور وفينيقيا وإيران، وهي ثقافة تمرست بالآخر وانفتحت عليه وتحررت من قيود منبتها الإيديولوجي، فأنتجت شخصية عربية إنسانية، منفتحة على التفاعل الحضاري، معترفة بالتنوع شرطاً له وكفالة، رائدة في العطاء المعرفي والعلمي، يوم كانت شعوب الأرض غارقة في ظلماتها ومجاهلها، رائدة في الإنجازات التي أسست للتقدم الحضاري اللاحق[٨].

يتبين مما سبق، أنه إذا كان المثقف هو الكاتب والأديب والمؤرخ والعالم والشاعر والمفكر، لا بد أن يضاف إلى ذلك، أنه التربوي والمحاضر والمساهم والمشارك في الثورات الاجتماعية، سواء ما كان منها تربوياً أو توجيهياً. وعلى ذلك؛ هل يمكن اعتبار زاهية قدوره من المثقفين المناضلين والمجاهدين حياتياً ومكانياً ؟ اجتماعياً وتربوياً ؟ فكراً وتاريخاً؟ وعت الأبعاد الحقيقية للتعبير الثقافي الصحيح، وماهية التكوين لمهمة الثقافي الناجح؟

٢ - المؤثرات التربوية - الثقافية في نهج زاهية قدوره

عرّفت زاهية قدوره الثقافة في العصر الحديث، بأنها الكلمة التي تدل على المعرفة والتهذيب والصقل وحسن الأداء والتعامل مع الآخرين، ومجموعة المنجزات الفكرية والعلمية والتربوية. ففي الثقافة مميزات متعددة، وقدرة على الحياة، انطلاقاً من استعدادها للأخذ والعطاء. وإمكانيات هائلة على الاستيعاب والتفاعل والتبادل بينها وبين غيرها من الثقافات. وأشارت إلى إمكانية توصل ثقافتنا القومية لتكون مجموعة من المنجزات الفكرية والتربوية .

آمنت بقدرة العرب على أن يحدثوا حركة ثقافية واسعة، نتيجة لتوسع ملكهم وقدرة

إمبراطوريتهم ودولتهم، على استيعاب شتى العناصر والشعوب المختلفة، التي تفاعلوا معها وتفاعلت معهم. فكانت ثقافتهم السباقة في الاقتباس عمن سبقها من حضارات، فأخذوا وأعطوا ثم أبدع رجالها، فأعطوا في كل مجال من مجالات العلوم والفنون، وأنتجوا حضارة عربية عظيمة، أصبحت الحضارة الرائدة، وأصبحت الثقافة العربية ثقافة عالمية في الغرب، لا بل العامل الفعال أو الفاعل، لعصر النهضة في القرن الخامس عشر وما تلاه. وكتب المؤرخين من عرب ومستشرقين حافلة بالصفحات الطوال حول إنجازات العرب في هذه المجالات.

فالثقافة العربية التي انتشرت بين الشعوب المتنوعة الأجناس واللغات، كانت ثقافة عالمية لا تحدها عوامل الجنس واللغة والدين، بل على العكس، استطاع الإسلام أن يثري هذه الثقافة وتلك الحضارة العربية، ويغنيهما علماً وإبداعاً في كل ميدان.

من هذه المنطلقات، يجب أن لا نغفل ناحية مهمة في حياة زاهية قدوره الثقافية والفكرية، والتي ساهمت في صقل شخصيتها وصبغها بصبغة ثقافية وحضارية متقدمة. وهي المكتسبات الحقيقية التي تحققت لها من زواجها بالدكتور محمد كفافي. هذا الزواج الذي كان بعيداً عن الإفادة الشخصية، لأنه كان مهماً لهما.

أغلب الظن أنه كان مهماً لها، كما كان مهماً له، ليس من منطلق عاطفي، بقدر ما كان ناتجاً من حقيقة موضوعية؛ لا يمكن التغافل عنها. ففي زواجها منه، اكتسبت شخصيتها وفكرها، أبعاداً ثقافيةً وتربوية من جراء المناقشات والحوارات التي كانت تتم بينهما يومياً. إذ لم يكن يبخل عليها بأي فكرة كانت تحتاجها، او بأي زاد ثقافي وتربوي كان يرى ضرورة إفادتها منه. فلا غرو إذا قالت - في أحد الأيام كرد على سؤال وجه إليها لمعرفة شروطها بفتى أحلامها - : « إنني أشترط في شريك حياتي أن يكون رجلاً بكل معنى الكلمة.. مثقفاً ثقافةً عالية، ناضج العقلية، واسع المدارك، جذاباً قوياً.. حسن الهندام.. مقبولاً عندما تقع عليه العيون..»[٩].

إلى جانب ما تقدم، كان للبيئة التربوية التي نشأت فيها أثر فاعل في تكوين شخصيتها، خاصة أنها تربت في أجواء مختلفة عن أجواء مثيلاتها من فتيات ذلك الوقت. ففي الحديث عن الخلفية الثقافية والتربوية التي كان يتمتع بها بعض أفراد عائلتها، لا بد من الحديث عن الثقافة التربوية التي توافرت لجدها مروراً بوالدها وأعمامها، بخاصة حليم قدوره الذي كانت له أنشطة سياسية وثقافية واجتماعية متعددة.

وكذلك عمتها ابتهاج قدوره التي حصلت تربية ثقافية وفكرية، وتركت تأثيرها في نهج زاهية وتفكيرها، التي بصمت معظم المسالك التي سارت.

عرف عن الرائدة ابتهاج قدوره، أنها نهلت من الثقافات الأجنبية الزاد الوفير، ولم تبخل بذلك أو تحبسه لنفسها، بل جعلته مشاعاً في سبيل نهضة بنات جنسها من أي مشرب أتين. وأورثته بالتالي لابنة شقيقها زاهية، التي عرفت كيف تستفيد من هذا الإرث، وجعله مشاعاً بين أبناء أمتها، رجالاً ونساءً، شيوخاً وشباباً.

كما كانت ثقافة والدتها المنبع والنهر الذي شربت منه، والمرجع الأساسي الذي استندت إليه في تقرير الكثير من محطات حياتها. فقد وفرت لها زاداً ثقافياً وتربوياً مهماً، إذ أمنت لها ولأخوتها التربية العائلية المميزة؛ عندما دفعت إلى الدراسة والعلم والنبوغ، كلاً في مجال اختصاصه. وبالنسبة إلى زاهية، فقد استقدمت لها الشيخ عبد الرحمن سلام المعروف آنذاك بشيخ شيوخ اللغة العربية، ومن الأعلام المبرزين في تعليم أصولها وقواعدها، الذي كان له الفضل في تعليمها وتقويم أسلوبها وإتقانها اللغة العربية، حتى تمكنت من قواعدها وأساليبها[١٠].

أمدها هذا العامل بالتوغل في مجالات اللغة العربية الثقافية، مما هيأ لها المقومات التي ساعدتها في تحصيل منابت فكرية وعقلية، أوجدت عندها شخصية المثقفة، مما مكنها من أن تناقش وتجادل، وتطرح النظريات العلمية والتربوية والتاريخية[١١].

وقبل التطرق إلى الأسلوب التربوي الذي اعتمدته منهجاً في حياتها، لا بد من طرح سؤال عام له مدلولات خاصة: هل يمكن تسمية من يؤلف وينشر الكتب والمقالات تربوياً مثقفاً أم لا ؟ لأن التربوي كما المثقف هو الشخص الذي لا يكتفي بالمعرفة الشخصية لنفسه، بل يتحتم عليه أن يعمم ما يعرفه على غيره. وزاهية قدوره بما قامت به في خلال مسيرتها، وعملها الدؤوب في مجال التربية والتثقيف، ماذا يمكن أن تسمى ؟ في غالب الظن لا يمكن إعتبارها إلا واحدة من التربويين المثقفين، الذين نحوا في حياتهم درب تعليم الآخرين وتدريسهم وتلقينهم ما يجهلون. وبمعنى آخر، إن تربيتها ونشأتها ومحيطها الذي عاشت فيه، أكسبها من المقومات الخلقية، ما جعلها توقف حياتها على خدمة الآخرين، سواءً بالمعونة والمساعدة والمشورة، أو بالعلم والتربية والثقافة.

٣ ـ مؤلفات زاهية قدوره

إن الخلفية الثقافية التي وعت أبعادها، هيأت لها التربة الخصبة للأجواء

الفكرية الواعية والرصينة، للسير بالمهمة التربوية والثقافية التي كانت تنتظرها من خلال نهجها التربوي، وفكرها وثقافتها.

١ـ عائشة أم المؤمنين

من أولى أعمال زاهية قدوره المنشورة، الرسالة التي اعدتها لنيل شهادة الماجستير في التاريخ العربي الإسلامي من جامعة فؤاد الأول في مصر ١٩٤٧، وحولتها إلى كتاب بعنوان: «عائشة أم المؤمنين». التي قالت عنها: « اخترت السيدة عائشة أم المؤمنين موضوعاً لرسالتي لأنها احتلت منزلة كبيرة في التاريخ تتحدث عنها الأجيال، وهي من قوة شخصيتها ونفوذها مصدر دائم لكثير من الناس يستوحون منها معاني الثقة بالنفس والإقدام الحازم...»[١٢].

وقيل ايضاً أن زاهية اختارت لموضوعها واحدة من بنات جنسها، التي كان يستشيرها الرجال قبل النساء، بسبب علاقتها اللصيقة بالرسول، صلى الله عليه وسلم، مبينة ذلك بالقول: « ... هي سيدة يربطني بها رباط الجنس ... خاضت معترك الحياة، صلبة في مبادئها، صريحة في أعمالها وأقوالها، ضربت بأوفر سهم في شؤون الناس العامة، السياسية والدينية والاجتماعية، ولكنها لم تنس أنوثتها ولم تتهاون بها» [١٣].

صادفت زاهية قدوره في إعداد مؤلفها عقبات وصعوبات ليست من العمل بحد ذاته، بقدر ما كانت من عملية البحث والتفتيش والتفميش في كتب المتأخرين والمتقدمين؛ من أجل تأمين المقومات الأساسية لنجاحه.

انطلاقاً من الرغبة في أن يأتي العمل متكاملاً ومعززاً بالأخبار الصادقة، ومدعماً بحقيقة الرسالة الإسلامية، التي أنزلت على نبي المسلمين محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم. نهضت الباحثة لتوضيح الصلة الوثيقة، والعلاقة القوية، التي جمعت بين النبي وزوجه عائشة، التي اشتهرت بحماسها وصدق أحاسيسها لحقيقة رسالته. وقد دعمت الكاتبة مؤلفها بما قرأته وبما عادت إليه من كتب المؤلفين والمؤرخين والمستشرقين، الذين قاموا بدراسة الرسالة الإسلامية من كافة جوانبها؛ مما وفر لها وللمكتبة التاريخية؛ مجموعة لا يستهان بها من المراجع والمصادر، انتقت منها كمية ساعدتها في وضع كتابها.

انكبت الباحثة على الكتب تقرأها وتستخلص منها عناصر مقومات موضوعها. ولما كان يستعصي عليها البرهان والوصول إلى دليل حسي ملموس، كانت تلجأ لمطالعة

عدد آخر من المصادر والمراجع الغربية، بلغاتها الأصلية أو تلك المترجمة والمنقولة إلى اللغة العربية، مما كان يتوافر لها الاطلاع عليه، في بعض المكتبات العامة والخاصة. فامتلكت معلومات كثيرة، سهلت لها صوغ أفكارها واستخلاص تحليلاتها، التي مكنتها من وضع كتاب غني بالمعلومات، التي أظهرت شخصية عائشة أم المؤمنين.

ما يدعو إلى توكيد نسبة كتاب عائشة أم المؤمنين إلى زادها الثقافي الزاهي، مجموعة الكتب التي قرأتها وأمنت لها ثقافة عالية، وكمية المعارف التي توافرت لها، وقولبتها في الكتاب. مما يسر لها الاطلاع على فترة مهمة ودقيقة من تاريخ العرب والإسلام. كان من نتيجتها أن أجمع كل الذين قرؤوا الكتاب وتعرضوا له بالنقد أو بالثناء، أنها لم تكتف منه بمجرد سرد سيرة حياة أم المؤمنين. بل قدمت فيه دراسة للحياة العربية قبل الإسلام وبعده. فاستعرضت تاريخ الجزيرة العربية، والحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية والدينية فيها. وانتقلت من ثم لدراسة حياة المرأة العربية قبل الإسلام، وما كانت ترفل به من جاهلية العادات والتقاليد، وأجرت مقارنة بين حياتها القديمة والجديدة، تحت ظلال الإسلام[١٤].

قامت بدراسة الواقع الاجتماعي لشخصية السيدة عائشة، التي اختارتها من وسط مجموعة من النساء اللواتي حفل بهن التاريخ العربي عموماً، في جاهليته وإسلامه، وتمتعن فيه بمكانة مرموقة، ولعبن أدواراً أساسية، سواء في حياة هذا التاريخ، الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية...وكن في جميع هذه الأمور مجليات وصاحبات مواقف بارزة، صنعن أمجاداً، وبنين صروحاً فكرية واجتماعية وثقافية ما تزال خالدة إلى اليوم. ومن هؤلاء وأفضلهن نساء النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

كانت الفكرة في البداية، أن تقوم بوضع كتاب عنهن جميعاً، لسموّ مكانتهن بعد زواجهن بالرسول صلى الله عليه وسلم. غير أنها وجدت أن لدى كل زوجة مزايا وفضائل تختلف عن الأخرى. بالرغم من أن منزلتهن واحدة؛ مما يفقده الإنسجام، فعدلت عن ذاك الأمر، إلى دراسة شخصية السيدة عائشة، ذات الوجه الناصع في التاريخ الإسلامي، دراسة جعلته أكثر وضوحاً وأبرز سطوعاً. فلم تترك خاطرة يمكن أن تخطر في بال النقاد، من دون أن تثيرها أو تعالجها معالجة فيها من الدقة والعلم؛ ما جعل الكتاب يحتل مكانة ثقافية متقدمة، اغنى المكتبة العربية بمعلومات مهمة جداً[١٥].

درجت في مؤلفها على الطريقة العلمية في البحث، وعادت إلى المظان تستقي

منها وتسرد بعضها في نهاية الكتاب الذي وضعته في خمسة أبواب، دارت عليها جميع الوقائع في السرد والبحث والتأليف. فأتى في حلة قشيبة، وفي بلاغة متينة موافقة لفضيلة العلم الصحيح؛ مما دفع بعضهم لتفضيله على غيره من المؤلفات التي درست السيدة عائشة. ومما زاد في أهميته الإفاضة التي أسبغتها عليه المؤلفة، كالتقصي عن حب الرسول لها، وعلاقتها بضرائرها، وحياتها العلمية، وأثرها الاجتماعي، ومواكبتها للحياة السياسية، ثم صفتها ومرضها ووفاتها[١٦].

واللافت للانتباه كانت مقدمة الكتاب، التي وضعها الدكتور حسن إبراهيم حسن، الأستاذ المشرف على رسالة الماجستير لزاهية قدوره، الذي اعتبرت كلمته، شهادة حق وتقدير للجهود التي بذلتها في تأليفه. أراد بها، الثناء على الكاتبة، بعد أن لمس لديها خطوت واعدة في مجال البحث والتأليف. فاعتبر ذلك من العلامات المميزة في تقدير الكتاب وصاحبته، خاصة وأنه أسبغ عليها من الكلمات؛ ما أثلج صدرها وجعلها تشعر بالفخر والاعتزاز. فوصفها بأنها: «آنسة عربية، عرفت بيننا بالجد والنشاط والغيرة على بعث تراث العروبة المجيد». كما قال أيضاً: «...تستحق لهذا كله، كل ثناء وكل اطراء وكل تهنئة، على ما بذلت من جهد وتكبدت من عناء في سبيل إخراج هذا البحث الطريف»[١٧].

وأضاف: « ومما يزيد من غبطتنا أن يكون هذا البحث ثمرة يانعة لآنسة لبنانية عربية جمعت بين الثقافتين العربية والغربية، ولكنها - مع ذلك - تعتز بعربيتها وتقاليدها، وتساهم في بعث النهضة العربية التي نعمل نحن معشر العرب جاهدين على إحيائها، حتى تعود إلى ما كانت عليه في عصرها الذهبي المجيد» .[١٨].

جاء الكتاب من ثمار تلك الثقافة العلمية والموضوعية التي صبغت شبابها، كما شابت عقلها وتفكيرها، على ما عداها من مباهج الحياة وترفها، لفتاة في مثل عمرها آنذاك.

سكبت زاهية قدوره في مؤلفها أفكاراً فيها من آفاق الأدباء أكثر مما فيها من روح المؤرخين. والسبب أن التاريخ والتأريخ بقدر ما هو علم، إلا أنه يتكون من الأدب والفن، الأدب في سرد الوقائع، والفن في سهولة إيصال المعلومات إلى عقول الناس. حملت بفكرها وقلمها، إلى جانب علمها وتأريخها، كلاً من العلوم التاريخية والعلوم والفنون التربوية على حد سواء.

اعطى قلمها سهولة في تدفق التعابير، وجمال في رسم اللوحات وسحر في

استعمال الألوان. وطلاقة لغوية في سرد موضوعي لمقتضيات علم التاريخ. فجاءت كلماتها جميلة، وجملها سلسة، سهلة على الذوق والسمع. فلم تلجأ إلى غريب الألفاظ، ووعورة التعابير، وصعوبة الأساليب؛ مما يمجه الذوق وتأنف عنه الأذن. استعملت كلمات هي من صميم الكيان العربي، ومن صلب وجوده وكيانه، كالفخر والقوة والعزة. كلمات تبعث على الهمة والعزيمة والنشاط الطارد للكسل. فأتت تعابيرها في مكانها الصحيح، مطابقة للغاية المبتغاة منها.

جاءت ألفاظها بأسلوب شعري إذا جاز التعبير، عندما أشارت إلى أمجاد العرب التليدة شعلة وضياءً، أنارت بوهجها وإشعاعها، ظلمات العالم القديم ومجاهله. ورسمت بألفاظها كذلك لوحة جمالية لرسالة الإسلام، عندما لونت بمعانيها روحانية هذا الدين، ونعمه التي عمت على الناس أجمعين. فانتشرت مبادئ العدل والحق، وظهرت المساواة التي حلت مكان الجور والشر، فانهارت ممالكه، وسيطرت الفضيلة بدلاً من الفساد، وتحطمت عبادة الأصنام، وسادت كلمة الله ودعوة نبيه الكريم.

هذه الخلفيات الفكرية التي امتلكتها زاهية قدوره تممت مداركها العقلية؛ مما أهلها لتبوء مكانة ثقافية لائقة، فظهر الاستعداد لأن تعطي الفكرة التي تكتب عنها من زاد عقلها وفكرها وروحها، ما رفعها لأن تكون كاتبة ومؤرخة، تهتم بتدوين سير التاريخ وأحداثه.

هيأتها قدراتها التربوية والثقافية، وحماسها للفكرة التي تكتب عنها، لأن تتقدم فيهما كما في كل المجالات الأخرى التي تناولتها في حياتها. وبالعودة إلى الكتاب عن السيدة عائشة، فعندما كانت تجد بعض التضارب أو التعارض في المصادر التي كانت تعود إليها،كانت تلجأ إلى ترجيح الرواية الأقرب إلى الواقع. وفي أحيان كثيرة، كانت تعرض الروايتين معاً للتساؤل والمناقشة. فلم تكن تكتفي بمجرد سرد الروايات والأخبار، من دون تمحيص وإعمال للفكر، والتحليل والاستنتاج.

تنسب هذه المنهجية، إلى المعنى التاريخي الذي هو عبارة عن مجموعة إحداثيات تشير إلى جماعة من البشر في الزمان والمكان. كما نسبها بعضهم، إلى علم التاريخ الوضعي، وهو العلم الذي يعرف بتسجيل أحداث التاريـخ والتحقق من صحتها. ويعتقد آخرون، أن التاريخ باعتباره معنى، فهو ذاك العلم الذي يرسم حياة جماعة معينة من البشر. أما التاريخ بما هو علم ومبنى، فهو الذي يقوم على إظهـار المعنى الحقيقي عند صياغته للحدث التاريخي. عن طريق جمع بعض الأحداث التاريخية المتفرقة في رواية

واحدة، بنفس المعنى والمضمون والشكل[١٩].

إنصرفت زاهية قدوره إلى دراسة مصادر التاريخ العربي الإسلامي بعمق كلي، وتجولت بين مراجعه الثانوية والعامة، الأساسية والفرعية، حتى تأتي تعبيراتها أكثر دقة وموضوعية، ولوحاتها الكلامية شمولية بصورة أعم. كما رجعت إلى المظان المتناثرة في كتبه المختلفة، لاستقصاء الخبر من مصدره، والإتيان على الفكرة من أساسها لإعطاء المعلومة كما وردت، وليس كما يريد المؤرخ ويشتهي. فضلاً عن ذلك، تعتبر ملازمتها الطويلة للمصادر والمراجع، والقراءة المتأنية والمتمعنة، من المكونات الإيجابية التي أغنت شخصيتها الثقافية، بزاد اللغة العربية الثري بمفرداته وألفاظه وجمله وتعابيره؛ مما أعطاها إمكانية على التحكم في جمال الوصف، ومتانة الأسلوب.

عاشت مرحلة الكتابة عن عائشة، في حالة نفسية جعلتها شديدة القرب من حياتها، وتلاشت في ثنايا شخصيتها؛ وتعرفت إلى كل دقائق حياتها، وتقلبات نفسيتها، حتى باتت تراها أمامها في كل حين، تحادثها وتكلمها وتفتح الحوار الطويل معها، بالهداية والاسترشاد تارة، وبالنصح والموعظة تارة أخرى. فانعكست شخصيتها في نفسية الباحثة، وصارت تتحدث بلسانها، وتفكر بعقلها. لدرجة أنها وضعت في نهاية الأمر، قصة لقاء جمعها بأم المؤمنين، وأقامت معها حواراً بثتها فيه خواطرها وهمومها. واستعرضت وإياها أوضاع المرأة ماضياً وحاضراً.

في قصة اللقاء معها سألتها زاهية قدوره عن رأيها في مطالب المرأة وممارسة حقوقها على غرار الرجل. فأجابت المؤلفة بنفسها عن لسان أم المؤمنين، فقالت: «إن نهضة المرأة قامت على أساس أجوف من المظاهر الخدّاعة، وإن كل ما وصلت إليه المرأة من تقدم وحضارة، هو بمثابة خروج على التقاليد الشرقية المحمودة، وإن تقليد غيرها في زيها وتبرجها وطريقة عيشها وحياتها، من الأمور الممجوجة بل غير المستحبة. كل هذه الأشياء لم توصل المرأة إلى المنعة في شخصيتها واستقلاليتها، كما أنها لم تمنحها المكانة التي تجعلها في مرتبة متقدمة من الرجل، أو أدنى منه بقليل» [٢٠].

في ارشيف زاهية قدوره أوراق متناثرة، وأفكار مخطوطة بينت فيها فكرة المساواة بين الرجل والمرأة، التي افترضتها على لسان أم المؤمنين. واستنكرت في الوقت نفسه هبوط منزلتها عن منزلة الرجل. ثم أشارت إلى أن الطبيعة السماوية ومختلف الأديان، حبت المرأة مكانة مميزة عن سائر المخلوقات، يجب عليها عدم

تخطيها وتجاوزها، لا بل المحافظة عليها[٢١].

تطرقت الكاتبة في مؤلفها إلى قواعد الدين الإسلامي؛ والأصول التي وضعها لمعاملة المرأة. كضرورة احترامها وتحريم وأدها، وإحلالها في المرتبة التي أوصى بها الله ورسوله، أختاً وبنتاً وزوجاً، وجَعْلِ الجنة تحت أقدام الأمهات.

وتحدثت عن قضايا الزواج والطلاق في الإسلام. وتوقفت عند الآيات التي أنزلت لمراعاة أمور هاتين القضيتين، وعدم جعلهما عرضة للأهواء والمزاج والطبع. فأشارت إلى أن الإسلام، نظم سبلهما ووضع القوانين التي ترعى وتنظم طريقة عملهما. ثم ذكرت أسماء النساء اللواتي آمَنّ بالدين الجديد، وآزرن الرسول وساندنه في رسالته[٢٢].

استعانت الباحثة لذلك؛ بالكتب التي تناولت الحياة الإسلامية، منذ انطلاق الدعوة ونزول الوحي وإنتشار الدين الإسلامي، حتى أصبح شريعة كاملة، تامة وناجزة. درست هذه المواضيع جميعها، وبخاصة القريبة من حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحياة الأشخاص الذين أحاطوا به، من أهله وأزواجه، وعائشة كانت واحدة منهم.

تحدثت عن اسمها وكنيتها ولقبها. فرأت أنه مأخوذ من العيش. وكُنّيت بأم عبد الله، بالرغم من أنها حرمت من نعمة الإنجاب والأمومة. أما شهرتها بعائشة أم المؤمنين؛ فحملتها منذ ما قبل ولادتها. ومن ألقابها: المُبَرّأة، والصادقة أو الصدِّيقة بنت الصدِّيق، ومحبوبة رسول الله وحبيبته، وحبيبة حبيب الله. وأخيراً لقبت بالموفقة[٢٣].

ظهرت في الكتاب شخصية السيدة عائشة وصفاتها، التي راوحت - كما أشارت الدراسة - بين الشرف والنسب الرفيع، وبهاء الطلعة ومضاءة الجبين، وزهو الشباب والذكاء المتوقد والذهن الحاضر والحديث العذب. امتزج ذلك بحكمة في القول وليونة في التصرف المقرون بالتواضع.

وعندما وصلت الكاتبة إلى «حديث الإفك»، توقفت ملياً تجاه هذه المسألة التي آذت الرسول كثيراً؛ وأدمت قلوب المسلمين. فنهضت لاستقصاء خلفياته من جميع جوانبه. فقلّبت فيه وجهات النظر جميعها. وتوصلت إلى تكذيب ادعاءات المفترين والحاقدين والموتورين. مدعمة أفكارها ومعلوماتها، بآيات من القرآن الكريم، التي أنزلت ونسخت كل غش وتضليل؛ وكذبت الافتراءات، وأظهرت صدق عائشة وطهارتها.

يتبين من أبواب الكتاب الأخرى، أن المؤلفة نهضت لدراسة علاقة السيدة

عائشة بضرائرها، فعملت على توضيح أثرها في الحياة العلمية والاجتماعية والسياسية في المجتمع الإسلامي. فضلاً عن ممارسة السياسة التي قامت بها تحت كنف النبي، والتي تابعتها مع خلفائه الراشدين من بعده. فكانت في عملها هذا سياسية من الطراز الرفيع، حازت الحكمة في الشرح والتحليل، وملكت العقول في المجادلة والمناقشة. فاستقطبت بكلامها السياسي عقول المسلمين من الصحابة، وجمعت حولها نخبة رجال المسلمين الذين كانت تقارعهم الحجة بالحجة، والبرهان باليقين. مما كان له أثر كبير في حل كثير من المسائل، وتليين العديد من المواقف السياسية في ذلك الوقت.

أما بالنسبة إلى «معركة الجمل» التي توقفت عندها الكاتبة بكل تمعن وموضوعية، فقد أولتها من الأهمية ما جعلها تبحث عنها، وتدور حولها في كتب المتقدمين من المؤرخين والمتأخرين، وفي مصادرهم ورواياتهم حول دورها في المعركة، التي أسفرت نتائجها عن تغيير كثير من المعادلات في حياة المسلمين. وذلك بفضل حكمة كل من الإمام علي بن أبي طالب وصحبه من ناحية، وعائشة أم المؤمنين التي أدركت خطورة خروجها في هذه المعركة على وحدة المسلمين وتماسكهم، من نوايا المشركين وأعوانهم الذين كانوا يريدون شراً بها وبالإسلام.

أنطلقت المؤرخة لمعالجة الموضوع بكل جد وصراحة، معتمدة على المصادر وأخبار الرواة التي كانت تقلبها على مختلف أوجهها السلبية والإيجابية، في عملية لاستنطاق التاريخ عن حقيقة الأحداث التي عصفت بالمسلمين بعد وفاة النبي. صحيح أن المؤرخة لم تقطع بصحة رواية على أخرى، ولكنها في عملها هذا، كما في أعمالها الأخرى، كانت تأخذ بالروايات من مصادرها المتعددة، ثم تلجأ بها إلى الطريقة الخلدونية في البحث عن الحقيقة، حتى تصل في عملها إلى أقرب نقطة من اليقين.

على ضوء ذلك، يعتبر الكتاب أنه يمثل ثورة التفكير الديني عندها، إذا ما صار إلى مقارنته ببعض الكتابات المشابهة، كونه من كتب الدراسات الإسلامية المهمة، لما تضمنه من عناوين، وما تعرض إليه من أبحاث ومناقشات لصفوة القوم من المسلمين.

ما يدفع لذلك أن المؤلفة استندت بدراستها إلى العقل، وإلى منابع الحضارة الإسلامية التي اكتسبتها، لتستمد منها كل جديد تلقح به أفكارها، فلم تقف عند النصوص كثيراً، وبخاصة ما تعارض منها مع العقل أو الحضارة، بل اعتمدت على حسن قصدها وطيب طويتها، ونبل هدفها؛ لأنها كانت تكتب عما آمنت به. فكانت تشعر من أعماق

نفسها، بأن هدفها حسن ونبيل. كما أن دفاعها عن رأيها الذي كانت تهتدي به مستقل عن النزوات. فبلغت من الحماسة والقوة، منزلة عالية في الدفاع عن آراء المتحمسين للإسلام وأصوله وروح تشريعاته.

نتيجة للخلفية الثقافية التي تأمنت لها والخبرة الكبيرة التي اكتسبتها، فقد تمكنت من إنارة السبل التي مهدت لها فهم أسرار الحياة والشرع والدين. فظهرت هذه الثقافة، في أنصع صورها ومعانيها في كتاباتها الإسلامية، ومنها بالطبع كتاب السيدة عائشة أم المؤمنين[٢٤].

اعتبرت زاهية قدوره بفضل هذه الدراسة، من رواد التفكير الحر في العصر الحديث؛ وممن أبلوا بلاءً حسناً في الدفاع عن الحضارة العربية الإسلامية ورموزها، ومن الذين ساهموا في الكشف عن أصولها الإنسانية والعلمية والروحية، من خلال محاضراتها وكتبها ومؤلفاتها.

واتسم منهجها في البحث بالخبرة والعمق، والرغبة في الوصول إلى الحقيقة، من خلال صوفية الدرس، والتفتيش عن الأسس التي تجعل من دفاعها عن رأيها دفاعاً مقنعاً وقوياً. فلم تجامل ولم تنافق أو تتزلف. بل كانت تجهر برأيها وما كانت تعتقده أنه حق، سواء أرضت الناس أم أغضبتهم. مما جعلها تواجه الاعتراضات الكثيرة، في أثناء قيامها بتنفيذ رسالتها العلمية والتربوية والإنسانية، إلا أن هذا لم يكن ليزيدها إلا إصراراً على المضي في مواقفها دفاعاً عن دينها، وترسيخاً وتعميماً لكل ما كانت تراه من حق وعدل ومساواة، وتثبيتاً لرسالتها الحضارية والإنسانية[٢٥].

كما ظهرت في الكتاب، بعض الخطوط العريضة لتفكيرها، فضلاً عن روحها المتصوفة والمؤمنة من أعماقها. لأن الإسلام الذي كانت تراه وتعتقده أنه دين حضاري، كان بالنسبة إليها ديناً أصيلاً في روحه الحضارية، لا ينافي العقل ولا يتخلى عن متابعة الحياة وقيادتها؛ لأن أصوله العامة تدعو إلى العمل والكفاح والجهاد، وإلى الاعتزاز بإنسانية التفكير والعمل. وفي توسلها لهذه الطريقة في الكتابة التاريخية، شبهت بالمؤرخ المثقف الذي عليه أن يكون أديباً وموسوعياً، شأنه في ذلك شأن الصوفي، والفقيه، والفلكي[٢٦].

إن الكتاب على الرغم مما فيه من دراسة وافية لأوضاع الجزيرة العربية قبل الإسلام وما بعده، ولحياة المرأة فيها، فقد أحدث أثراً كبيراً في الدراسات الإسلامية، وفي الحضارة العربية، وفي التفكير الديني، وقت وضعه وصدوره، مما شكل تراثاً جلياً.

فشاع بين جمهرة الدارسين والمؤرخين والمثقفين، بسبب الأثر الذي أحدثه في تحريك النهضة العلمية والفكرية والثقافية في العصر الحديث.

وقد حصدت المؤلفة من خلاله، أصداء ثقافية واجتماعية مشجعة، كالتهنئة التي حظيت بها من مفتي العراقين الذي قصدها لتهنئتها وشكرها على ما كتبت[٢٧]. فأثنى على عملها، وطلب منها مزيداً من الدراسات والمؤلفات، المتعلقة بتاريخ الإسلام، لإلقاء الأضواء على تلك الحقبة الناصعة، وشخصياتها الدينية والسياسية[٢٨].

كما حظي الكتاب باهتمام ملفت من الصحافة العربية واللبنانية والمصرية على حد سواء. لما تضمنه من معلومات وافية، ودراسة شاملة تبين منها، أن الباحثة لم تقل خاطرة، من دون أن تثيرها أو تعالجها معالجة فيها من الدقة والعلم ما يحمل على تهنئتها[٢٩]. خاصة و«.. إن الكتابة في هذا الموضوع تحتاج إلى عناء مضاعف وجهاد كبير وعمل متقن ومتابعة مستمرة، كي يأتي العمل شاملاً جامعاً بعيداً عن الهوى والميول»[٣٠].

هذا ما قاله محمد البعلبكي (نقيب الصحافة اللبنانية) عندما كتب في مجلة كل شيء، تعليقاً على الكتاب عند صدوره. فقال: «لم يختلف الناس كما اختلفوا في السيدة عائشة أم المؤمنين، ففريق يؤيدها ويخلص لها ويتفانى في الدفاع عنها، وفريق آخر يكرهها ويسيء الحديث عنها ويتفانى في حرمها... ولكن هؤلاء وأولئك يتفقون في أمر لا يستطيعون الخلاف فيه. ذلك أن السيدة عائشة احتلت منزلة كبيرة في التاريخ العربي وكان لها أثر بعيد في الحياة الإسلامية سياسية كانت أم اجتماعية أو فقهية[٣١] .

«وبالرغم من هذا الأثر الذي كان لأم المؤمنين وزوج الرسول العربي، وبالرغم من كثرة الأخبار التي تفرقت في كتب التاريخ والحديث واضطراب بعضها وتناقضه أحياناً، لم ينهض مؤرخ لوضع كتاب مستقل يقوم على البحث العلمي ويستقصي تاريخها ويعالجه معالجة حيادية تنجلي من ورائها تلك الشخصية الجبارة، وذلك المثال للمرأة العربية في حياتها الخاصة والعامة» . ويضيف البعلبكي إلى قوله: «ولكن الأمر الذي لم ينهض به مؤرخ عربي، قد حاولت أن تنهض به مؤرخة عربية أعجبت بشخصية أم المؤمنين .. فكانت أول مؤرخة تضع كتابا مستقلا عن السيدة عائشة» [٣٢].

وكما لاقى الموضوع التأييد، فقد واجه هجوماً قاسياً على الأسلوب وطريقة وضع الكتاب، من صحافي مصري، كتب في جريدة الأساس المصرية مقالاً، بدأه بالتشكيك بمقدرة المرأة في التعبير والكتابة، واعتبر قدرتها في ذلك مستمدة من الرجل،

فقال: «إذا كانت هناك كتابة موضوعية لأي امرأة، فمستمدة من قوة الرجل»[٣٣] .

ثم يعترف بقدرة المرأة على العطاء الفكري؛ من دون أن يدري. فيقول: «لما أهدت إليّ مكتبة الأساس كتاب عائشة أم المؤمنين لمؤلفته الآنسة زاهية قدوره... عكفت على قراءته مراعيا سوء الظن بنتاج المرأة...».

ولكنه لم يلبث أن يستدرك، عندما قال أنه: «... مضطر إلى الاعتراف بجهد الآنسة المؤلفة». وإذ يتذكر أنه قرأ كتاباً آخر بالموضوع نفسه لمؤلفة سورية هي وداد سكاكيني، فإنه لم ينكر أهمية مؤلف زاهية قدوره وعملها المضني الذي قامت به، بالرغم من أنه يجهر بعدم رضاه عن تقسيمها لمؤلفها إلى قسمين، أحدهما، كما قال عنه: «مصدر يبحث عن الجزيرة العربية ومركز المرأة فيها» . في حين قال عن القسم الثاني أنه «... مذيل عن السيدة عائشة ولادتها وزواجها وبيئتها»[٣٤].

ثم يتهم كاتب المقال؛ المؤلفة بأنها: «.. أفاضت وتقصت وتوسعت في حياة عائشة حول حب الرسول لها ولضرائرها، وحياتها العلمية، وأثرها الاجتماعي، وتدخلها في السياسة، ثم في صفاتها وأخيرا وفاتها». ولما كان لا يجب التغاضي عن آراء هذا الصحافي المصري وعن مواقفه، التي طرحها في نقده لمؤلف زاهية قدوره. كان لا بد من طرح السؤال التالي: أين المبالغة في عمل دراسي مثل الذي قامت به المؤلفة؟ فيأتي الجواب من صاحبة الكتاب، التي أشارت إلى خطة العمل التي انتهجتها في وضعه؛ وفق مقتضيات عملية البحث العلمي ومنطوقه الداعي للتعمق في دراسة الموضوع من جوانبه كافة.

وحتى لا تكون هناك ثغرة لأي مشكك، أو نقطة استفهام غير واضحة قد تثير الشك والظن. أشارت زاهية قدوره، إلى أن من يفترض سوء الظن في أول المقال، ليس بإمكانه الهروب إلا إلى سوء ظنه .

في متابعة لنقد الصحافي المصري لمؤلف عائشة أم المؤمنين، تبدو حيرته واضحة بين التأييد تارة والنقد تارة أخرى، وربما يعود ذلك لخلفية ما، كأن يكون هناك خلاف مع المؤلفة، أو مع غيرها ممن كانوا على علاقة بوضع الكتاب.

يظهر تخبطه في المديح من خلال قوله: « تمتاز رسالة الآنسة بأمانة الباحثة واثبات المراجع وجمع الشواهد وسردها بعد التمهيد لها» .

ثم يأتي نقده للكتاب مرة ثانية، فيقول: « إن القارئ يكاد يضيق صدره بذلك

وتجد شخصية الكاتبة ضائعة في ثنايا الجمع والسرد وغزارة الاستشهاد».

وكذلك الأمر عندما تعرض لمقدمة الدكتور حسن إبراهيم حسن، المثبتة في صفحة الكتاب الأولى، حيث يتهمه بكثرة الثناء على المؤلفة، والاستئثار بالإشادة لنفسه وتمسكه ... بأن تُرد له الجهود، و تمشي الباحثة الجديدة على مناهجه، وتتطبع بطباعه، لتذل له أعناق طالباته وطلابه.

ظهرت حيرة العجلان، بتنقله تارة بين نقد العمل وذمه، وتارة أخرى بكيل المديح له والثناء على واضعته، وأعترف في نهاية مقاله بالقول: « أن الكتاب أثر تحمد عليه الآنسة ويستدل به على فضل المرأة الشرقية، وحسن بلائها في ميدان التأليف»[٣٥].

كما أدلت جريدة بيروت بدلوها للحديث عن كتاب عائشة أم المؤمنين، فأفردت له بضعة أسطر في متن صفحاتها، تناولت فيها تبويب الكتاب، وكلمة الدكتور حسن إبراهيم حسن، فقالت: « إن قارئ الكتاب يملك عليه لبه وتستسيغ مخيلته طريقة بسط مؤلفته للحقائق التاريخية ولا يستطيع أن يتركه إلا بعد الانتهاء من قراءته ليعود إليه مرة ثانية»[٣٦].

جمعت زاهية قدوره في أرشيفها مجموعة جيدة من الجرائد والدوريات،اللبنانية والعربية المختلفة، وهي موجودة اليوم في مكتبة دار الفتوى بناء على وصيتها. ومنها: مجلة الاتحاد النسائي العراقي، التي ورد في عدد لها عام ١٩٥١، تعليق على كتاب عائشة أم المؤمنين، جاء فيه: «... إن زاهية قدوره قد أبرزت مواطن عظمة هذه السيدة النادرة، وكشفت عن خفايا تاريخها المجيد. أما مزايا هذه الرسالة فتظهر في دقة العبارة، وسهولة الأسلوب، مع التعليق الناضج الذي يصور لنا براعة عائشة في حياة الرسول، وعائشة في الحياة الاجتماعية وفي السياسة وفي الحرب، وأخيرا عائشة الزاهدة التقية على فراش الموت. كلها صور حقيقية وواقعية لسيدة قديرة امتزجت بالحياة العامة بعد وفاة رسول الله وأثرت فيها أعظم تأثير. وقد وضّحت لنا الآنسة زاهية أسباب هذا النشاط النادر في جملة بليغة قالت فيها: إن عائشة رضي الله عنها أرادت أن تستعمل ما منحت من حقوق، وأن تنهض بكل ما اعتقدته واجباً عليها. وهذا سر اندفاعها في مجال الحياة، بل سر نبوغها وعظمتها..»[٣٧].

وورد في مجلة مصرية محفوظة في الأرشيف أيضاً، رأي لأحد الكُتّاب اللبنانيين المقيمين في القاهرة وكانوا كثراً آنذاك، أشاد فيه بأفكار زاهية قدوره، التي دعت فيها إلى دعم المرأة والدعوة لتحريرها، وأشاد بشخصيتها كمحررة للمرأة، التي

دعتها للانعتاق من أغلالها، وعدم الخضوع بأن تكون سلعة للرجل ووسيلة لتحقيق متعته. وذكّر بنهوض الكاتبة مع غيرها من الرائدات، لتحقيق ما يحلمنَ به من علو لمكانة المرأة ومساواتها بالرجل. فقال: « ... وفي الفترة التي تنشط فيها المرأة اللبنانية وتنتبه بعض الشيء إلى نفسها، ناقمة على الإجحاف اللاحق بحقوقها كانسان له ما لأفراد البشر من حقوق وعليه ما عليهم، في هذه الفترة انبعثت شخصية فتاة لبنانية في القاهرة إلى حيز الظهور وهي الآنسة زاهية قدوره وأبدت نشاطاً عظيماً في مضمار التحرر، وهي لا تزال تعمل جاهدة إلى جانب الفتاة المصرية في سبيل رفع شأن المرأة ومساواتها بالرجل» [٣٨].

ثم تابع عفيف عبد الصمد قائلا: « هذه الفتاة الطالبة استطاعت أن تتبوأ مركزاً مرموقاً في أوساط مصر الثقافية وفي جامعاتها، وأن تصبح رئيسة لرابطة الطلبة اللبنانيين المقيمين في القاهرة، وقد أدت عدة خدمات لطلابنا الجامعيين، وكانت مثالاً كاملاً للجرأة والإخلاص...»[٣٩].

وأخيراً فقد جاء الكتاب رافداً المكتبة العربية بمرجع مهم، ما زال منذ سنوات عديدة مادة غزيرة للدراسة، من قبل الأساتذة والطلاب والقراء في لبنان ومصر وغيرهما من الدول العربية على حد سواء. .

٢ - الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في العصر العباسي الأول

نهضت زاهية قدوره لاختيار هذا الموضوع، وفق ما ذكرت في جريدة الأنباء، لتثبت أن: « الشعوبية حركة ظهرت في العصر العباسي الأول نتيجة الاصطدام القومي للأعاجم - الموالي منهم – بالعصبية العربية. واتخذت صورة الحركة الأدبية والسياسية والدينية. وكانت دعوة الإسلام إلى المساواة التي تتمثل فيها الآية الكريمة: {**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**} دافعاً إلى الموالي لطلب المساواة مع العرب، فظهرت تلك الحركة المعروفة في التاريخ بالشعوبية، وفي الصراع القومي بين العرب والفرس ضمن الإطار الديني للإسلام»[٤٠].

أ - المعنى التاريخي للشعوبية

قبل الدخول في تفاصيل الكتاب، لا بد من الوقوف على بعض التحديدات لكلمة الشعوبية. فقد اعتبرها عدد من المؤرخين، أنها: « فرقة لا تفضل العرب على العجم، ولا ترى لهم فضلاً على غيرهم». وفسر خليل جفال أصلها، فقال: « أن العرب مصدر التسمية،

ولفظة الشعوبية غلبت على العجم لعهد عمر، فلما فشت العصبية بين الناس وتعصب كل قوم لقومهم، أضيفت ياء النسبة إلى شعوب، فقيل: شعوبي لكل من يحتقر العرب، أو لا يرى لهم فضلاً على غيرهم، كما قيل أنصاري نسبة إلى أنصار النبي من أهل المدينة »[٤١].

ويرى المسعودي: «أن كل من لا يعترف بفضل العرب على غيرهم من الشعوب هو شعوبيٌّ، أقر بالتسوية أم جحد العرب الفضائل وألحق بهم الرذائل»[٤٢].

رفض أحمد أمين هذا القول، لأنه كان يعتقد بأن الحركة الشعوبية، لم تكن قد اتخذت شكلها الواضح بعد، ومقوماتها المتينة في ذلك الوقت المتقدم من حياة الإسلام في العصر العباسي، خاصة وأن معظم المذاهب التي ظهرت وعرفت في ذلك الحين مثل (الخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة)[٤٣] لم تكن فيها ياء النسبة؛ تلك التي أدخلت على كلمة شعوب، حتى ظهرت كلمة شعوبية[٤٤].

وتوجد في مؤلفات أخرى[٤٥] تأويلات وتفسيرات متعددة وتحديدات مختلفة لكلمة الشعوبية، أُيدت من قبل بعضهم، ورفضت من آخرين. من أغربها ما خرج به أحدهم من أن التسمية أطلقت على الجماعة من تلقاء أنفسهم، فأعجبهم ذلك وفتنوا به وتسموا بالشعوبيين.

عرضت زاهية قدوره للموضوع، وذكرت في مقدمة الكتاب: « الشعوبية مشتقة من كلمة شعوب، ومفردها شعب، ولهذه الكلمة ثلاثة معان: المعنى الأول يفيدها تشعب من قبائل العرب والعجم، والمعنى الثاني يقصد كلمة شعب على العرب وحدهم، والمعنى الثالث وهو أكثر هذه المعاني شيوعاً وهو أن الشعوب تطلق على غير العرب، أي على العجم»[٤٦].

ذكر فيليب حتي أن أصل التسمية؛ ربما يعود إلى طلب التسوية بين كل الشعوب الإسلامية، وبأن عناصرها الأساسيين في أغلبهم كانوا من الخوارج والشيعة. فتحدث عنهم الكتاب في بضع كلمات معتبراً إياهم من العناصر الرئيسة الأولى، التي ساهمت في قيام الحركة الشعوبية بطريقة غير مباشرة ربما، أو عبر توسلهم الجدل الأدبي الذي راحوا يبثون عبره دعواهم إلى مثالب العرب، وتسفيه التفوق العربي العقلي والفكري[٤٧].

ب - الصراع القومي بين العرب والفرس

مهما يكن من أمر في هذا الخلاف، كانت غاية المؤلفة أن تطرح على بساط البحث، قضية الصراع القومي بين العرب والفرس. من جراء ما تغلغل في وعيها وعقلها، لمعاني الحرية والاستقلال عن سلطة الانتداب، والعمل لتوحيد البلاد العربية تحت سيادة ملك واحد أو زعيم موحد، يصهر الشعوب العربية جميعها تحت راية العزة

والكرامة العربيين، في محاولة لاستعادة الأمجاد العربية. تعلمت زاهية هذه المبادئ وعاشت شعاراتها في منزل أهلها. فأخذت عن عمتها إبتهاج قدوره طريقة ممارساتها السياسية، وطريقة التصدي لمحاربة الأطماع والمخططات الاستعمارية التي كانت تهدف للاستيلاء على البلاد العربية جميعها[٤٨].

ساهمت هذه المقومات، بتكوين خلفيتها القومية التي تشبعت منها؛ في تربيتها الثقافية والعلمية والأدبية. وكانت دافعاً لها لولوج هذا الموضوع، ليكون عنوان دراستها المطولة للحصول على درجة الدكتوراه. كان دافعها لذلك، أهداف عدة، بينتها بقولها: « إن العصر الذي نمت فيه الشعوبية وازدهرت شبيه بالعصر الذي نعيش فيه من بعض الوجوه والظروف التي تحيط بنا معشر العرب. والأخطار التي تهددنا تماثل تلك الظروف والأخطار التي نشأت عن الشعوبية في كثير من الملامح...».

ترافق ذلك مع التأثير الذي أصابه من جراء موضوع القوميات وقيامها ونشوئها وتطورها. في وقت كانت البلاد العربية، تعاني من الجدلية المستحدثة، بين العلمانية والدين، كنتيجة متأتية من الصراع القائم بين الأتراك العلمانيين والعرب القوميين والمؤمنين بجذورهم العربية. يوم نادى الأتراك بالطورانية[٤٩] للقضاء على النزعة العربية.

ت - الدعوة الطورانية

وبالرغم من أن أفراداً من أسرة قدوره الأوائل، كانوا على مبدأ النزعة العثمانية الإسلامية، الداعية لاستمرار الخلافة الإسلامية تحت سلطة العثمانيين. وهو الأمر الذي انعكس على سياسة زاهية المؤرخة، التي رفضت قيام الأتراك بالدعوة لسيادة مبدأ الطورانية. فكانت ردة فعلها؛الدعوة لنشوء القوميات: «للفكرة القومية دور هام في سياسة الدول والشعوب وأوضاعها الدولية. وقد كانت فكرة الشعوبية عبارة عن تنبيه الفكرة القومية عند المسلمين – سواء عند العرب أو الفرس منهم – وكان تنبيه القومية مبكراً في تلك العصور، إذ أن الفكرة الدينية كانت وحدها هي المسيطرة في ذلك الحين، وكانت الرابطة الدينية في العصور الوسطى هي الرابطة الأساسية التي تربط بين الشعوب والأمم وتعمل على وحدتها. ولم تظهر فكرة القومية في أوروبا إلا في عصر النهضة – القرن التاسع عشر – وهي الفكرة التي تميزت بها العصور الحديثة »[٥٠].

وفهم فيليب حتي العلاقة بين الشعوبية والحركة القومية، بأنها ذلك الإحساس الذي

سيطر على الموالي بسبب شعورهم: «...أنهم أحط الطبقات الاجتماعية في البيئة الإسلامية فاستنكروا هذا الوضع ولم يرضوا به قط. ومن هنا نستطيع أن ندرك الباعث الذي دفع بهم إلى مناصرة حركات متنوعة كحركة الشيعة في العراق والخوارج في فارس...»[٥١].

وكان لخليل جفّال، رأي مخالف، وهو أنه لم يكن بالإمكان؛ في ظل سيطرة الأمويين على الحكم، أن ينشط الموالي والأعاجم للمطالبة بحقوقهم كاملة، والإعلان عنها صراحة. لذلك رد تحركهم من خلال فهمه للعلاقة بين الشعوبية والحركة القومية، إلى مشاركة الموالي في حركة المعارضة التي قامت بوجه الأمويين، علهم يتوصلون من خلالها إلى الاستفادة من ذلك لتسوية أوضاعهم، فانخرطوا في صفوف المعارضة، واشتركوا في ثورات الخوارج وابن الزبير وابن الأشعث وغيرهم. واستغلوا الدعوة العباسية وعملوا على نشر دعواهم، حتى توصلوا إلى احتلال منصب الوزير في معظم الفترات والعهود، وانتزعوا مكانة مهمة ومراكز قوية في الدولة العربية، بالرغم من يأسهم من السلطان الأموي الذي انكفأوا عنه إلى أحضان المعارضة.

وأشار إلى معاناة هؤلاء من ممارسات الخليفة العباسي بحقهم عبر ممثليهم في مركز الخلافة، ومنها النزاعات التي كانت تقوم بين الخليفة وبين الوزير الفارسي، مما يعني أن الفوز في نهاية هذه المنازعات لا بد أن يكون إلا بجانب الخليفة. كما عانوا أيضاً، من الصراع على منصب الخلافة. إذ شهدت قصور الحكام ووزرائهم نزاعاً دامياً ومريراً بين الأمويين والعباسيين.

نظر إلى هذه الصراعات والمنازعات والخلافات، على أنها قامت بحكم أن الموالي كانوا من ضمن المجموعات التي وجدت في وسط هذه الأجواء من المشاحنات، فكانت سلبياتها أشد تأثيراً فيهم عن غيرهم؛ مما كان السبب المباشر لظهور الحركة الشعوبية في المجتمع الإسلامي، وما استتبعها من قيام مرحلة جديدة من الصراع، عرفت بمرحلة الصراع القومي بين العرب والفرس[٥٢] .

لا بد من الإشارة إلى هذا، للتدليل على أهمية الفكرة التي استندت إليها زاهية قدوره عندما أرادت البحث، حول أحد مفاصل التاريخ العربي الإسلامي وهو ما كان عليه حالها، عندما اختارت عنواناً لكتابها من قلب الأحداث، التي يزخر بها تاريخ العرب والمسلمين، وما أنتج من تفاعل مع حركة التطور الذي أدى إلى تبلور الأفكار الحديثة وانتشارها.

وقد دلت الأبحاث والمؤلفات في مثل هذه المناسبة، أن ليس كل مؤرخ يستطيع أن يستخلص أحداث التاريخ من تجاربه وعلومه. بل إن تحقيق ذلك، يحتاج إلى دراسة العوامل والظروف والمؤثرات النفسية والاجتماعية والسياسية التي يراها المؤرخ ويتطلبها علم التاريخ، وكانت دافعاً لحركيته في بعض المواقف، أو تكون قد أنتجت حركة معينة؛ أو أحدثت تغييراً منتظراً.

ث ـ إنبعاث حركة القومية العربية

ورأت الباحثة، أن فكرة القومية سواء في سلبياتها أو إيجابياتها، ليست حكراً على بلد معين، أو شعب مختص، بل عرفتها الشعوب القديمة، كما عاشتها الأمم الحديثة. ووافقها على ذلك جورج أنطونيوس الذي رأى أن المعنى الحقيقي للفكرة، لم تتبين دوافعها ولم تعرف أسبابها، إلا في مطلع القرن التاسع عشر مع انبجاس عصر النهضة[٥٣].

وينسب فيليب حتي، قيام الحركة القومية العربية إلى القاعدة الكبيرة لكافة الأمم والجماعات التي دانت للغة الضاد. فتشكلت من هذه الفئة حسب رأيه، مقومات الجامعة العربية الإسلامية التي اعتبرت في نظر بعضهم، النواة الأولى لقيام فكرة القومية العربية[٥٤].

ويرى أبو خلدون ساطع الحصري، أن للغة العربية الفضل بالحفاظ على القومية؛ بسبب ارتباطها باللغة. فكانت الحصن المنيع الذي حال دون ضياعها وتشتتها[٥٥] .

على ضوء ذلك، رأت زاهية قدوره: « أن الفكرة القومية نشأت مبكرة عند كل من الشعبين المتصارعين حينذاك – العرب والفرس – ومن الطبيعي إذاً ألا تكون قد نضجت، واستمرت في نزاع مع الفكرة الدينية والنزعات الإقليمية، بينما ظهرت وتنظمت في أوروبا بمدة قرن ونصف قرن. والذي لا مراء فيه أن المسلمين سواء من العرب أو الفرس، قد وضعوا نواة القومية سابقين في ذلك الغرب. فسجلوا في التاريخ نهضة قومية أصبحت فيما بعد مدرسة سياسية لها نظمها وأنصارها ورجالها الذين يذودون عنها» [٥٦].

ولاحظت في موضع آخر، أن: « الشعور بالقومية لا يبلغ تمام نضجه إلا إذا أحست الشعوب بالاختلاف والفروقات الكثيرة التي تفصل بعضها عن بعضها الآخر؛ ولذلك كان ظهور القومية عند العرب سابقاً على ظهوره عند الغربيين، فإنها لم تصبح عاملاً سياسياً له تأثيره الواضح إلا في عصر النهضة»[٥٧]. وقد أدركت هذه الوقائع منذ حداثة سنها، عندما تعرفت إلى مكانة الأمة العربية، ومعانيها وقيمها؛ فباتت بالنسبة

لها مميزة عن غيرها من الأمم، بأصالتها وعزتها وكرامتها وتراثها. رأت كل ذلك مبسوطاً أمامها وموضوعاً أمام علمها وفكرها، وهو بحاجة لشرح وتحليل. فعملت على دراسة عوامل القومية، ونشوئها وتطورها، فباتت حركة القومية العربية المجال الرحب لأبحاثها ودراساتها.

ووجدت أن الشعوبية لم يكن بإمكانها أن تنشأ، وتقوم وتصبح حركة لها أثرها وتأثيرها في تاريخ الأمة العربية، لولا إدراك القائمين عليها أي امتيازات يتمتع بها العرب، وأنهم يملكون شعوراً بالاختلاف عن سواهم من الشعوب الإسلامية، مفضلون على غيرهم من الأقوام.

وتمكن الشعوبيون من النفاذ عبر ذلك، واستغلوا هذا الأمر بسبب شعور العرب بوضاعة الشعوبيين، الذين قاموا ليضعفوا من قوة العصبية العربية، ويحدوا من تماسكها عن طريق الدين الإسلامي، الذي استغلوه أيما استغلال وتستروا من ورائه بحقيقة مشاعرهم وأهدافهم « لأنهم كانوا لا يجهرون بعدائهم للإسلام، وإنما يخفون دينهم القديم بين حنايا ضلوعهم ويدعون إليه سرا» [٥٨].

لن يتم الوقوف لإجراء دراسة مقارنة بين الفكرة الشعوبية وإشاراتها الخجولة، التي ألمح إليها فيليب حتي، وبين الدراسة المقارنة التي وضعها خليل جفّال عن أدبياتها، منذ العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري؛ إلا للإشارة إلى أنها كانت حركة عنصرية عرقية حاقدة على العرب، هدفها تقويض قيمهم الدينية والسياسية والحضارية، وقطع صلتهم بماضيهم، تمهيداً للانقضاض عليهم ودفعهم إلى التيه في صحرائهم.

نهضت زاهية قدوره لكشف هذه الأفكار والمخططات، ودارت حول نشأتها عن طريق البحث والتفتيش، بالإضافة إلى التقميش والتحليل، للوصول إلى أهوائها وتبيان مراميها وغاياتها. فرأتها وكما سبقت الإشارة، حركة عنصرية، قامت للقضاء على الركائز العربية الحضارية والإنسانية، من غير أن تنسى التعرض للمعاني والمعتقدات الإسلامية الدينية والمعنوية.

ج - نوايا الشعوبية المبيتة: الزندقة

توصلت الباحثة إلى الحركات المريبة، التي كانوا يقومون بها؛ ويحضر لها الشعوبيون، ضمن الإطار الديني. فدرستها بكل تمعن ودراية، ورأت أنهم عمدوا إلى إحياء أديانهم ونحلهم القديمة كالزرادشتية والمانوية والمزدكية والخرمية، وأسرّوها

وأظهروا الإسلام وتستروا به. وكشفت أنهم كوّنوا ما عرف - بالتاريخ - بحركة الزندقة. وكتبت حول إتخاذ بعضهم الغلو ستاراً للتخريب في الإسلام. وأشارت إلى أنهم مزجوا عقائدهم القديمة ببعض المفاهيم الإسلامية، ليتسع لهم المجال للظهور والعمل بحرية. فوضعوا الأحاديث المناقضة لجوهر الإسلام، ونسبوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم زوراً وبهتاناً؛ ليشككوا المسلمين في عقيدتهم، ويظهروا الإسلام على أنه دين متناقض القواعد والأحكام[٥٩].

رصدت الكاتبة محاولات الفرس المستميتة، لبسط هذه الممارسات في الشعر والأدب والأخلاق والعادات والتقاليد، وفي ممارسة السياسة، ودروب الحياة الأخرى. فظهر لها من خلال التقصي والبحث، الأساليب العنصرية للشعوبية، والمرامي التي كانوا يبيتونها ضد العرب. فالنظرة التعصبية التي أضمروها ضدهم، كانت غايتها نكران جميع أعمالهم وازدراء كل أفعالهم وفضائلهم. أظهرت زاهية قدوره هذه الأمور بالبراهين العملية التي توصلت إليها. ومنها أن الشعوبيين كانوا جادين في إنشاء سيادتهم القومية الأجنبية المعادية للعرب، وعمادها التعصب لغير العرب.

ورأت أن هذه النوازع والأهداف لم تكن منظمة ومنضبطة، لأن معظم تحركاتهم كانت تتم بطرق عشوائية وفوضوية، فكان لها تأثيرات مختلفة. كفشلها في أن تكون حزباً سياسياً منظماً له أهداف ومبادئ معينة، ولكنها نجحت في أن تكون «... فكرة أدبية سياسية اتخذت من الدين ستاراً لها...ونشأت عنها حركات بعضها أدبي، وبعضها ديني وبعضها الآخر ثوري...»[٦٠].

إلا أن نشأتها؛ كانت – كما قالت الباحثة المؤرخة - من جراء العلاقة التي سادت بين العرب والفرس زمن الجاهلية ومطلع صدر الإسلام، تأكيداً للعلاقة الاقتصادية التي تحكمت بطبيعة تجاورهم السكني. وكان لمملكة الحيرة التي أقامها الفرس، أهمية كبيرة على تمتين العلاقة بينهما؛ وشكلت - في نظرها - حلقة وصل واتصال مع العرب.

غير أن ذلك، لم يحل دون إخفاء الأثرة العربية وبروز نزعة التفوق والترفع عند العرب والاعتزاز بأنسابهم. بينما قابل الفرس هذا الموقف بإحساسهم بتفوقهم وتقدم حضارتهم، التي كانوا يعتقدون أنه لم تكن تضاهيها حضارة أخرى، ولا حضارة العرب أنفسهم. مستندين بذلك إلى المؤلفات الفارسية التي ترجمت إلى العربية، وفيها ذكر لعلوم الفرس وتراثهم وحضارتهم.

كما رأت زاهية قدوره أن العلاقات بين العرب والفرس ظلت ودية وحميمة طيلة عقود عدة. خاصة وأن نعرة العرب بتعصبهم وترفعهم على غيرهم من الشعوب خفت بعض الشيء، بالرغم من ترؤسهم على الفرس زمناً طويلاً، نتيجة سيطرتهم التي حققوها بالفتوحات.

حكمت هذه الفرضية، طبيعة العلاقات وطرق الاتصالات في تلك الفترة، التي ظهرت في الكتب والمؤلفات، التي أرخت للفترة الفارسية. فالعلائق لم تتغير أو تتبدل إلا بعد مقتل الخليفة عمر بن الخطاب؛ بسبب مناداته بسيطرة الأرستقراطية الإسلامية، التي كانت السبب المباشر - وفق ما كانت تعتقد الباحثة - لقيام الحركة الشعوبية، مما سبب لديهم شعوراً بالنقص والازدراء، تحسسوه من جراء احتكاكهم المتواصل بالعرب، لا سيما الطبقة الحاكمة منهم.

ح - الشعوبية في العصرين الأموي والعباسي

ظهرت الفكرة الشعوبية جلية واضحة في العصر الأموي، عندما حاول الأمويون أن يلغوا أسس المساواة والعدالة التي أقامها الإسلام. فكان من نتيجتها، كما قالت: «لم يشعر الموالي مطلقاً بامتزاجهم مع الدولة الأموية بل وجدوا من عصبية الأمويين ما أثار حفيظتهم، وبعث فكرة الشعوبية من مهدها في أوساطهم، فأخذت منذ تلك اللحظة تقوى وتشتد وتترقب الفرص، وكانت هناك فئات عربية تضمر الحقد للدولة الأموية، فأنضم إليها الموالي في حركاتها وثوراتها ضد الأمويين إلى أن كانت ثورة بني العباس التي تزعمها الموالي أنفسهم، وتعد هذه الثورات من أوج الحركة الشعوبية»[٦١].

لم تقلل من أهمية الدور الذي قامت به الدولة العباسية تجاه الحركة الشعوبية، وما قدمته لها من دعم وتشجيع، خاصة بعد أن تبدت لها براهين ذلك. وثبت لديها قيام الحركة الشعوبية من لدن الدولة العباسية. والدليل: مشاعر الحقد والكراهية التي كان يضمرها الشعوبيون والعباسيون للدولة الأموية، وتعاونهما معاً للقضاء عليها. وكان لمساهمة الفرس الأثر الكبير في تدعيم ركائز الدولة العباسية.

نرى مثل هذا الاتجاه في معظم المؤلفات التاريخية والعربية المعنية بالموضوع؛ ونلمح العوامل التي ساعدت على تحقيقه. فضلاً عن العناصر والجماعات المختلفة التي ساهمت في نشوئها. وبخاصة العناصر الأجنبية الإسلامية من غير العرب، التي عملت في خدمة الدولة والخلافة معاً. وسهلت للحركة الشعوبية اختراق المجتمع العربي

الإسلامي؛ لتحقيق المكاسب السياسية والاجتماعية والأدبية التي أحرزتها الشعوبية على هذه الصعد المختلفة.

نهضت المؤرخة لدراسة التأثيرات التي تركتها هذه الظاهرة في المجتمع العربي الإسلامي، بعد أن أصبحت الشعوبية حركة فاعلة ومؤثرة، من خلال المساجلات والمناظرات الأدبية، التي أفردت أفضل عناصرها ومفكريها للدفاع عنها.

فتطرقت إلى المراحل التي أفرزتها هذه المساجلات، التي توزعت على طوائف ثلاث، هي: أهل التسوية الذين ساووا بين العرب والعجم، وجماعة المتعصبين للعجم الذين رأوا فضلاً للأعاجم على العرب، وطائفة المتعصبين للعرب التي حملت لواء الدفاع عن العرب من خلال الحركة الأدبية.

لجأ الفرس إلى محاربة العرب بسلاح لم يكن متوفراً عندهم، وهو الزندقة التي استغلوها للطعن في الأخلاق والفضائل العربية، المتمثلة في النخوة والنبل والشهامة، متوسلين الدين الإسلامي، الذي اتخذوا منه وسيلة في الدعوة لحركتهم الانفصالية[٦٢].

وللقضاء على مفاخر العربي القومية والسيطرة عليها، توسل الفرس طريق الزندقة الفكرية بواسطة الأدباء والمفكرين ورجال العلم، الذين: « ظلوا رغم إسلامهم يكنّون الإخلاص والحنين لدينهم القديم وحضارتهم الفارسية، وكان هؤلاء الزنادقة أشد خطراً على الإسلام من الزنادقة الثوار، لأنهم كانوا لا يجهرون بعدائهم للإسلام، وإنما يخفون دينهم القديم بين حنايا ضلوعهم ويدعون إليه سراً...». ويوجد في كتب الأدب العربي ودواوين شعرائه، صفحات مطولة يمكن الاستدلال منها على ممارسة الفرس للزندقة الفكرية والأدبية[٦٣].

فلاحظت الباحثة في دراستها، أن بدعة الزندقة قامت بها عناصر من الفرس وبعض الجماعات الأجنبية الأخرى، كالأتراك الذين ساهموا في تفشيها وجعلها ظاهرة من مظاهر الخلاعة والمجون، وقد عمل هؤلاء وأولئك؛ على بث سمومهم في بعض وجوه المجتمع الإسلامي. فاتخذ الفرس من الأدب والشعر، مسالك ومفاتيح يلجون بواسطتها إلى البلاطات والقصور، بتسهيل من الجماعات والأفراد التي زرعوها في دواوين الملوك، وأماكن سكنهم وعملهم[٦٤].

إذا كانت الحركة الشعوبية اتبعت في بعض وجوهها الزندقة شعاراً لها، والمجون والخلاعة هدفاً لتحقيق أغراضها ومراميها. فإنها توسلت في الوقت نفسه؛

الحضارة الفارسية الغنية بالتراث والعلم والثقافة، سبيلاً لتحقيق مراميها وأهدافها، وعرفت كيف تفيد وتستفيد من المدنيات التي عايشتها واحتكت بها. فأخذت من الحضارات التي عاصرتها أشياء كثيرة، أضافتها إلى علمها وثقافتها. فأنتجت حضارة كان لها فعل وانفعال، وأثر وتأثير في مجرى الحضارة العالمية.

يحتمل هذا الموضوع الكلام على جهتين، جهة سلبية وأخرى إيجابية. فالنظرة السلبية تعود في مجملها إلى الطريقة التي اعتمدها الفرس للدخول إلى المجتمع العربي الإسلامي، مدعمين عملهم بالفكرة التي تقول: الغاية تبرر الوسيلة. لذلك لم يكن بإمكانهم إتباع إلا هذه الطرق من الزندقة والشعوذة والخلاعة، وكل الأساليب الملتوية والنافرة التي أدخلوها إلى الحياة العربية الإسلامية.

أما النظرة الإيجابية، فتظهر من خلال الحضارة والتراث الفارسيين، اللذين تعرف إليهما العرب، وكان لهما تأثيرات إيجابية نتجت من جراء احتكاك حضارتهم بالحضارة العربية الإسلامية؛ فظهرت آثاره فيما بعد، في مختلف الميادين.

فإذا كانت النظرة السلبية سياسية تدعيماً للفكرة القائلة بأن الغاية تبرر الوسيلة، فإن النظرة الإيجابية الموضوعية، اجتماعية وثقافية تكون قد سجلت بعض انتصاراتها في حياة العربي الثقافية والفكرية، بعد أن كانت قد تمكنت، من السيطرة على أكثر من موقع سياسي من مواقع الخلافة والوزارة في العصر العباسي الأول.

يمكن مقارنة هذه الوقائع، من مقاربة كتاب الدكتورة نفسها، ومن قراءة المؤلفات التي وردت فيها عناوين وأفكار متعلقة بهذه الطروحات، لم يتم نشرها، كانت محفوظة في أرشيفها ومكتبتها. وعلى ضوئها يمكن القول، أن الدكتورة قدوره بما حازت من ملكة أدبية وفكرية وثقافية، وبما تمتعت به من أسلوب أضفى عليها صبغة المؤرخة التي تتحسس مسؤوليتها الإنسانية والقومية. حتم عليها واجبها أن تظهر الحقيقة التاريخية واضحة وجلية، سواء كانت مع أو ضد. فنهضت لإنارة جوانب مهمة من التاريخ العربي الإسلامي، وما اكتنفه من علاقات مع القوى المتواجدة في ذلك الوقت، بالرغم مما سيطر على هذه العلاقات من صراعات، سواء على الصعيد العسكري والتوسعي أو على الصعيدين الفكري والاجتماعي، الحضاري الإنساني.

إضافة إلى ذلك، قام الكتاب بتسليط الضوء على حقبة تاريخية امتدت منذ أواخر عهد الجاهلية حتى بداية الدعوة الإسلامية، وتوسع بعض الشيء مع قيام الخلافة

الإسلامية وامتدادها إلى العصر الأموي، انطلاقاً إلى العصر العباسي. وتطرقت مؤلفته لدراسة التحولات والتأثيرات السلبية، وبروز الحركات السياسية التي مرت بها تلك العصور. فانطلقت إلى تتبع الآثار الأولى التي أدت إلى بروز ظاهرة الحركة الشعوبية، وتبيان دوافعها وأسبابها الظاهرة والخفية، وما لحقها من أنشطة طاولت مراكز الخلفاء أنفسهم ووزرائهم. فضلاً عن التغيرات التي حدثت والتبدلات التي أصابت، مختلف مرافق الحياة في تلك العهود؛ نتيجة لمقتل هذا الخليفة وقيام آخر مكانه. وما نتج عن الثورات المتعددة التي قامت في بعض العهود، وأفرزت عناصر جديدة تمكنت من الاستيلاء على الحكم بفعل عوامل وظروف كثيرة[٦٥].

خ - البعد التاريخي للحركة الشعوبية

بذلت المؤلفة جهداً كبيراً في عملها، وسلكت في سبيله طريق البحث العلمي الموضوعي الساعي وراء الحقيقة المطلقة، ولم تضيع في متاهاته السياسة. كما لم تنح فيه نحو بعض المؤرخين والمستشرقين الذين تعصبوا لهذا الفريق أو ذاك في بعض مؤلفاتهم. بل صرفت جل وقتها، تبحث عن الحقيقة التاريخية المجردة التي وضعتها نصب أعينها، وجعلتها هدفها منذ البداية، وراحت تسعى وراءها بكل صدق وواقعية.

ظهر ذلك واضحاً، بعدم تعصبها للعرب تعصباً أعمى، فلم تنس عظمة ما وصل إليه الفرس من قيم حضارية وثقافية وعلمية، وأظهرت انسياقهم وراء السلطة وطمعهم بالاستيلاء على مركز الخلافة، وأشارت إلى أن معظم الخلفاء والحكام في تلك الآونة، كانوا من أصول فارسية أو ذات ميول فارسية.

بينت العناوين بكل وضوح، عندما درست مرحلة النزاع بين الأمين[٦٦] والمأمون[٦٧]، وأوضحت أطماع العناصر الفارسية في الوصول إلى مركز الوزارة، الذي كان يلي منصب الخلافة بأهميته. فسيطروا عليها وانتزعوها من العرب لفترة طويلة من الزمن، إلى أن تمكن هؤلاء من استرجاعها والاقتصاص منهم، ومعاقبتهم وطردهم من جميع مناصبهم ومراكزهم[٦٨].

عمدت في عملها، إلى توضيح العلاقة التي أقامها كل من الأمين والمأمون مع الحركة الشعوبية. ذلك أن الأمين، لم يشجع حركتهم كما لم يطاردهم ويحظر نشر أفكارهم وآرائهم، بل أظهر شيئاً من التسامح معهم. فلم يضطهد الزنادقة في عهده على ما يذكر المؤرخون؛ لأنه صرف عنايته وجهده في المحافظة على حكمه، بسبب النزاع

الذي قام بينه وبين المأمون، وانتهى بمقتله. أما في عهد المأمون، فقد استغل الزنادقة تسامحه وانفتاحه على التيارات الفارسية المتعددة، بسبب جذوره وأصوله الفارسية، إلا أنه ما لبث أن انقلب عليهم بعدما خشي منهم على الإسلام، فحدّ من حركتهم. ويقال إنه تصدى لهم في بعض المواقف والأحيان، واستعمل القوة معهم[٦٩].

اعتبرت هذه المفاصل من قبل بعض المراقبين، محطات مهمة وخطيرة في التاريخ العربي الإسلامي، فتعرض لها الكثيرون بالدرس والتحليل والمناقشة، وتعصب لها آخرون، وتحامل عليها كثيرون. غير أن قلة منهم قاموا بإعطائها ما تستحق من عناية واهتمام. فتم بحث أبعادها ومراميها بكل صدق، واستخلصت منها دراسات مهمة. وكانت المؤرخة، من جملة المساهمين الذين أضاءوا ظلمات حقب تاريخية متعددة، إما بدرايتهم ودراساتهم؛ أو بأمانتهم التاريخية .

منها الدراسات التي تناولت تحليل أسباب الحركة الشعوبية، والتي كانت الدكتورة واحدة من المساهمين، الذين نهضوا لمعاجتها. كما قامت بدراسة وضع الزنادقة الثوار، وتسليمهم بنبوة زرادشت[٧٠] ووجود اله واحد، وما نجم عن مقتل أبي مسلم الخراساني[٧١] ونشوء الخرامية[٧٢] والراوندية[٧٣] التي كانت تعتقد بتناسخ الأرواح، فأشارت إلى ملاحقة المنصور لهم[٧٤]، الذي لم يتمكن من استئصال شأفتهم تماماً.

أشارت إلى ما قال به الدكتور حسن إبراهيم حسن، من تشدد المنصور في مطاردتهم، للحد من شوكتهم، لخوفه من أن يعمدوا إلى إنتزاع منصبه منه، بعدما لمس تصميمهم وعملهم الدؤوب على التخلص منه، عندما تسنح لهم الفرصة بذلك. كما أن مغالاة المنصور في مطاردة الراوندية، يعود لكونهم من أنصار أبي مسلم الخراساني، الذي قامت من ورائه حركة شعوبية متعصبة في عدائها للعرب، فحاول التخلص منهم بأي طريقة[٧٥].

د - زنادقة متعددون

فضلاً عن ذلك، ذكرت الدكتورة عدداً من الفرق والأشخاص الذين قاموا يدّعون النبوة ويبغون السلطة والجاه في ناحية بلاد خراسان، منهم أستاذ سيس في خراسان، وآخر يدعى بالحكيم أو عطا أو هاشم؛ لقب بالمقنع. ومن أشهرهم في كتب الأدب والتاريخ، بابك الخرمي زنديق من الزنادقة الثوار تزعم جماعة كبيرة في إذربيجان. ومن الثورات والحركات الإنفصالية التي قامت في عهد المأمون أيضاً، واحدة قام بها المدعو المازيار والي طبرستان من قبل المأمون.

إن حجم الأخطار والمؤامرات، التي قامت ضد الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي، وحيكت في العصور الأخرى كانت كثيرة. فدرستها وحللتها بأمانة الباحث وصدقه. كما سعت وراء الحقيقة أينما كانت، فلم تكتف بما كانت تقرأ أو تلاحظ وتستنتج، بل كانت تقارن وتحلل. تدرس الأسباب والمسببات، وتجول حول الأحداث، تستنطق التاريخ وتحاوره عن مشاكله ومؤامراته، وتفتش بين زواياه وتعرجاته، عن كل حركة وكل نقطة، مهما كانت صغيرة أو كبيرة؛ لتخرج منها بالبرهان والدليل. لإظهار الحقيقة وفق ما تقتضيه دراسة علم التاريخ، وما يوافقه من عملية البحث العلمي الموضوعي.

إن دراسة الحركة الشعوبية وتشعبها، وما رافقها من ثورات وتحركات. بالإضافة إلى البحث والتفتيش عن جماعات الشعوبيين وعناصرهم، الذين تواجدوا على مساحة الأرض العربية، والبلاد الفارسية، والتأثيرات التي أحدثوها. استغرقت دراستها مدة ثلاث سنوات ونصف السنة، تلاحق أخبارها، والدوران حول وقائعها. كما قامت تتحرى عن الثورات التي قامت هنا وهناك، بالإضافة إلى حركات الزنادقة ... إلى ما هنالك من مواضيع وعناوين. شكلت مادة تاريخية غنية بالوقائع والأحداث، ضمت إلى غيرها من المؤلفات والدراسات الأخرى، التي أغنت المكتبة العربية والإسلامية.

وتجدر الإشارة إلى أن ما قامت به زاهية قدوره في دراسة الحركة الشعوبية، وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة العربية، واستقصاء مدلولاتها اللغوية والتاريخية، ونشوئها وانتشارها في الجاهلية وصدر الإسلام، وصولاً إلى العهد الأموي كما مر سابقاً. ثم الجري وراء جذورها وأصولها، وتوسعها وتتبع أهدافها ومراميها، وما كان لها من تأثير واضح في مجريات الأدب بشقيه الشعر والنثر. والتطرق كذلك إلى العناصر التي كانت قائمة عليها وطبيعة علاقاتهم وارتباطاتهم، وتأثيراتهم في الحياة السياسية الإسلامية. كلها كانت من الأعمال التي يتطلب تحقيقها، وجود فريق كامل يتوزع المهام بين أعضائه.

ما يدفع لذلك، الأفكار التي أرادت الباحثة تعميمها، والبعد الشمولي الذي عالجت به موضوعها، والفكرة التي توصلت إليها. وأشارت فيها إلى: « أن الشعوبية قد بدأت بمعناها السياسي الصحيح في العصر الأموي. فحاول الأمويون جهدهم أن يخففوا من حدتها فلما أخفقوا، حاولوا القضاء عليها، فكان ذلك سبباً في استعارها، وتسربها في

مسارب خفية، ولكنها أخطر وأشد وطأة. بيد أنها لم تكشف عن نواياها، ولم تنفجر اللهم إلا في العصر العباسي الأول فقامت الثورة العباسية الكبرى على أكتاف الموالي من الفرس، وانتقم الشعوبيون لأنفسهم انتقاماً قاسياً» .

وأضافت: « لقد حاول العباسيون أن يتلافوا أخطاء سابقيهم، فأزالوا كثيراً من الفروق العنصرية بينهم وبين الفرس، وذلك لأسباب عدة، منها رابطة النسب التي كانت تربطهم بالفرس واعترافهم بمهارة قوادهم وشجاعتهم، ودهاء ساستهم وحسن تدبيرهم، ولولا الجهود التي بذلها هؤلاء لما استطاعوا أن يرقوا إلى العرش، ومن هذه الأسباب أيضاً اعتقادهم أن الاستقرار لن يتم في ربوع المملكة الإسلامية، إلا بتعاون العناصر المختلفة»[٧٦].

ذ - صعود الترك إلى سدة الحكم

إن الصراع بين فئتين أو بين شعبين، لا بد أن تتولد في نهايته هزيمة قاسية تصيب المتخاصمين وتضعف من كيانهما ووجودهما. وهذا ما حدث بالنسبة إلى العرب والفرس؛ عندما تركا صراعهما يقوى ويشتد، فتولد عنصر ثالث عمل على الحد من قوة الاثنين معاً. إذ استعان المعتصم[٧٧] بالأتراك الذين قاموا بالسيطرة على الخلافة: «ولما اعتلى المعتصم كرسي الخلافة وجد الفوضى قد ضربت أطنابها، وألفى الضعف قد تفشى في أوصال الدولة، من جراء التطاحن المتصل بين الفريقين، ولما راحت الأوضاع الخارجية تزداد اضطراباً، لجأ المعتصم إلى عنصر عسكري جديد لم يكن على شيء من الحضارة أو المدنية، هو العنصر التركي، فقربهم إليه وفضلهم على أوليائه. ولما استفحل أمرهم بنى لهم مدينة جديدة أصبحت بعد قليل حاضرة خلافته، مبتعداً بذلك عن معقل العباسيين ومركز نفوذهم. وكانت النتيجة أن قوي نفوذ الأتراك واشتد بأسهم، وأصبحوا الحكام الفعليين للدولة، ولم يعد للعرب أو الفرس مكان...»[٧٨].

توصلت زاهية قدوره إلى عدة استنتاجات، تمحورت حول نقاط ثلاث.

أولاً: إن الحركات والثورات التي قام بها أفراد من الحركة الشعوبية وقادتها، الذين سعوا مخلصين لإنشاء دولة لهم. لم تتحقق غايتهم لأنها لم تكن حركات منظمة، كما أن أهدافها لم تكن واضحة وجلية. بل كانت في سبيل الكسب والسيطرة والطمع بمركز الوزارة.

ثانياً: إن سبب فشل هذه الحركات، يعود إلى سيطرة العامل الفردي على

مقدراتها وتحركات قادتها. فها هو حال أبي مسلم الخراساني، مثال لطبيعة هذه العلاقة من الصراع الذي نشأ بين الخليفة المنصور، وكل من الوزيرين الفضل بن الربيع[٧٩] والفضل بن سهل[٨٠] والقائد الفارسي عيسى بن ماهان. بحيث أن حدة الصراعات والمنازعات بينهم، اتخذت طابعاً شخصياً أحياناً، وفردياً في أحيان أخرى؛ مما ألب حول كل واحد منهم، الأتباع والأنصار للدفاع وليس للقتال، في سبيل قضية ما، أو حركة معينة.

ثالثاً: خلصت في هذه النقطة إلى أن الصراع الذي قام بين العرب والفرس، أيقظ الفكرة القومية عند كل منهما؛ مما دفعهما للقتال وخوض صراع مرير للمحافظة على قيمهما وتراثهما. تمثل ذلك عند العرب بالدفاع عن الدين الإسلامي وقيمه الحضارية والإنسانية وزيادة تماسك المؤمنين به. أما الفرس فقاموا بثوراتهم المختلفة، وخاضوا الحروب العديدة ضد العرب، لتكوين دولتهم وإعادة تأسيس مجدهم القديم الذي انتزعه منهم العرب، الذين هددوهم في كيانهم، وفي تقويض أسس حضارتهم الفارسية[٨١].

لم تكن الفكرة واحدة عند غالبية العناصر الفارسية على ما يقول به بعض المراقبين، الذين قاموا بدراسة الحركة الشعوبية. إذ رأى بعضهم أن: « الشعوبية وقرينتها الزندقة، إنما تستمد الوحي من خارج النطاق العربي الإسلامي فهي بولائها وعصبيتها وثقافتها، بعيدة عن الروح الإسلامية، متناقضة معها. وهذا التناقض كان من الأسباب المهمة التي أبعدت العناصر الفارسية المتدينة عنها، ليس ذلك فحسب، بل نشط كثير منهم لمحاربتها، ومكافحتها، ودحض افترائها على العرب والإسلام. ففشلت بإيجاد تيار قومي فارسي مناهض للعرب، يجسد الآمال القومية لعامة الفرس، وكان التطرف الشعوبي من أول أسباب هذا الفشل»[٨٢].

ومهما يكن من أمر، فإن القومية عند الفرس قامت كما رأت قدوره، لتحقيق الحلم الذي راودهم طويلاً، وهو قهر العرب لتحقيق الغلبة النفسية والمعنوية عليهم، والثأر منهم. قاموا لتحقيق ذلك، بشن الحروب التي خاضوها تحت ستار الدين، يحركهم حقدهم الدفين على العرب، ودعواهم للتخلص منهم ومن حكمهم.

هدفت زاهية قدوره من الدراسة التي وضعتها عن الحركة الشعوبية، إلى القول بأنها حركة عنصرية عرقية حاقدة؛ قام بها الفرس لتحطيم العرب سياسياً، وتشكيكهم في أمر دينهم، وإضعاف نفسياتهم تجاه مكتسباتهم ونتاجهم الفكري والعلمي، وفي تراثهم

الحضاري. فعدوا على العرب مثالبهم، وتعرضوا لأنسابهم، وسفهوا مناقب العربي، مثل الوفاء والنجدة والمروءة والفروسية، وأنكروا عليه إكرامه لضيفه وإغاثته. واستنجدت الشعوبية بالشعر العربي، منكرة على العربي اتخاذه إياه وسيلة لتعداد مآثره وفتوحاته وانتصاراته. وأشار الفرس إلى أن الحضارة العربية هي نتاج فارسي، وتناسوا دورها في حماية الدين الإسلامي وصونه من الزيف والأضاليل والأباطيل التي حاولوا إلصاقها به.

أما على الصعيد الديني، فقد بذلت الكاتبة جهدها لإظهار المحاولات المستميتة التي قام بها الفرس لإعادة إحياء ديانتهم القديمة وابتداع نحل جديدة. فبينت كيف أنهم تمنطقوا بمذاهب الزرادشتية[٨٣] والمانوية[٨٤] والمزدكية[٨٥] والخرمية[٨٦] وخبؤوها في صدورهم وأعلنوا إسلامهم ظاهراً. أما بدعة الزندقة التي اخترعوها، فقد كانت الغاية منها تسفيه الدين الإسلامي وإظهاره على أنه دين متناقض القواعد والأحكام.

لم تتمكن الشعوبية من تحقيق الغاية التي قامت من أجلها على الصعيد السياسي، ولم يتمكن قادتها من اقتطاع منطقة يقيمون عليها سلطانهم المزعوم. كما لم يتوفر لها من الدعم السياسي والمعنوي ما استطاعت معه منافسة الدولة العباسية في سطوتها ونفوذها. وعلى العكس تماماً، كان في ممارسات العناصر الفارسية من الهفوات والأخطاء، ما جعل هذا الأمر مساعداً للخلفاء للقضاء على رؤوس الحركة الشعوبية وزعمائها. فالخليفة السفاح قضى على أبي سلمى الخلاّل، والمنصور أمر بقتل أبي مسلم الخراساني، وغيرهما من الرموز الشعوبية، التي قامت زاهية قدوره بدراسة طبيعة دعواهم. فأظهرت ميولهم وأهواءهم ونفسياتهم، التي قادتهم إلى حتفهم، من قبل الخلفاء وقادتهم، دفاعاً عن الدين الحنيف وعن دولته وأمة المسلمين[٨٧].

ر - إنتشار الوعي القومي العربي

سردت زاهية قدوره في كتابها بعض مراكز السلطة التي تمكن الفرس من إقامتها، لفترات زمنية محدودة في خراسان وفارس. وفي الشام ومصر وشمال أفريقية، وأطراف الجزيرة العربية. وقد ردتها إلى الضعف، وعدم الاستقرار الذي سيطر على الدولة العربية لوقت من الزمن، نتيجة المؤامرات والفتن والثورات والحروب التي شنت عليها من هنا وهناك، أو لتهاون بعض الخلفاء والولاة وضعف شخصياتهم. وليس بسبب القوة التي حازتها العناصر المتمردة على سلطة الدولة، وجعلتها تستقل وتنفرد ببعض الأطراف[٨٨].

ظهرت غاية زاهية قدوره في تظهير العبرة القومية من جراء الحركة الشعوبية التي أحدثت خلخلة في جسد الدولة العربية ضعفاً وانحلالاً في مجتمع هذه الدولة، مما كان له انعكاس إيجابي على الصعيد القومي. ما أدى إلى انتشار الوعي القومي بين الشعوب العربية، وأيقظ لديهم الإحساس بالمسؤولية، والدفاع عن دينهم وقيمهم، المتمثلة في دولتهم، وفي رموزها العربية والإسلامية.

إذا كان كتاب عائشة أم المؤمنين تمثيلاً لثورة التفكير الديني عند زاهية قدوره، فإن كتاب الشعوبية...، كان متابعة أمينة ودقيقة لتلك الثورة. حملت رايتها دفاعاً عن الإسلام وقيمه وإنسانيته، عبر كشف المؤامرات والدسائس التي تعرض لها المسلمون، من الذين تستروا وراءه بشعارات زائفة وباطلة، وأضمروا له الشر.

نهضت زاهية قدوره للكشف عن هذه المواضيع لفضح الخطط والمؤامرات، معتمدة على علمها وفكرها وثقافتها، إضافة إلى أسلوبها في البحث التاريخي، الذي أجادت استخدامه مستندة إلى مئات المرويات والمقولات، بالإضافة إلى الأخبار والوقائع والأحداث المنثورة والموزعة على عشرات الكتب والمجلدات. قامت بالاطلاع عليها جميعها، وعملت على دراستها، وحللت محتوياتها، وسعت لتفسير أحاديثها، وإرجاع أسانيدها إلى مصادرها الأصلية كلما كان يتسنى لها ذلك، وفق وقائع علم التاريخ، المرتبط أساساً بالعلوم الإنسانية.

اعتمدت قدوره لتحقيق هذا الكتاب على العلوم المساعدة لعلم التاريخ[٨٩]، وربط الأسباب بالمسببات. وأدركت أثناء دراسة الفترة التاريخية التي سبقت فجر الإسلام، أن هناك شيئاً ما وأحداثاً مريبة تحضر، فضلاً عن انها لاحظت أن هناك ظروفاً وعوامل تهيأ، للنيل من العرب. وعندما تعمقت في مراقبة ذلك، وجدت من العناصر الداعمة لقيام نزاع مرتقب بين العرب والفرس، ما جعلها تتابع الأمر بكل دقة وموضوعية، فراحت تحلل كل ما كان يتوافر لها من معطيات. وعندما تأكدت من هذا الواقع، كتبت تقول: «إن الشعوبية قد بدأت بمعناها السياسي الصحيح في العصر الأموي. فحاول الأمويون جهدهم أن يخففوا من حدتها فلما أخفقوا، حاولوا القضاء عليها، فكان ذلك سبباً في استعارها، وتسربها في مسارب خفية، ولكنها أخطر وأشد وطأة» [٩٠].

تعبت الباحثة وجهدت في أسلوب عملها، كما كابدت الصعاب، ودارت كثيراً لإثبات المعارك التاريخية والوقائع التي كانت تبحث حولها، مما عرضها لكثير من

المعاناة. وعندما كانت تصل إلى الحقيقة التي تبحث عنها، كانت تعرضها كاملة صادقة وصريحة، بعيدة عن اللبس والغموض، خالية من التملق والتزلف. من هنا لا يمكن للمرء إلا أن يندهش من هذه الطريقة في التفكير؛ وفي الأسلوب المتبع، خاصة إذا ما عرفنا ماذا كان يعني الإسلام بالنسبة لزاهية قدوره والقيم الحضارية التي كان يمثلها بالنسبة لها.

وكما كان لكتاب زاهية قدوره عن عائشة أم المؤمنين من قيمة علمية ومعرفية، فقد لاقى الكتاب الثاني عن الشعوبية؛ اهتماماً كبيراً، نظراً للدراسة العلمية والإنسانية التي تضمنها في أبوابه وفصوله؛ مما شكل زاداً ثقافياً وتاريخياً أَمَدَّ المكتبة العربية الإسلامية بمرجع قيم للباحثين عن المعرفة العلمية والحقيقة التاريخية. فكان بما تضمنه بين دفتيه، بمثابة السد الذي يخزن المعرفة والعلم والحقيقة، في وقت يعز وجودهما وحضورهما في كل حين، ليملأ فراغاً سيطر فيه الفقر الثقافي على هذا النوع من الكتب.

ز - تقييم لكتاب الشعوبية من خلال الفكر التحليلي لزاهية قدوره

تجدر الإشارة إلى أن الكتاب لم يجذب انتباه المشتغلين بالدراسات التاريخية والتراثية عند صدوره، ولكنه لاقى بعد وقت طويل من صدوره اهتماماً كبيراً بسبب تشابه الأحداث، التي وقعت في فترة من الزمن، جاء فيهه الكثير من الشواهد المماثلة بين احداث الماضي والحاضر. عرف عن الكتاب انه تطرق لموضوع سياسي وتاريخي متخصص، وشكل عملاً غير عادي، لأنه اشتمل على دراسة جادة للتاريخ العربي القديم، بقراءة موضوعية، ابتعدت عن الاكتفاء بمقاييس الإخباريين، ولم تتأثر مؤلفته ببساطة أحاديث هؤلاء المليئة بالصور الأسطورية الغامضة.

فجاءت شخصية صاحبته، متوافقة مع جدية محتواه، ليظهر فيه الجهد الذي قامت به، والعناوين العريضة التي توصلت إليها. كما ظهرت ثقافتها على متنه وبين أبوابه وفصوله، في قالب من الموضوعية، محكم التفصيل والتحليل. وفي سرد للوقائع والأحداث؛ بترابط محكم؛ مما نم عن ملامح حضارية وإنسانية سيطرت على الكتاب وصاحبته في الآن ذاته.

ولما أرادت زاهية قدوره لكتابها، أن يكون محطة مضيئة لمرحلة قاتمة، عزف عنها العديد من المؤرخين والباحثين، لما تحتاجه من عمل دؤوب. لذلك لم يأتِ الكتاب عرضاً متواتراً لأحداث سياسية، وما اكتنفها من دسائس ومؤامرات واغتيالات. بل جاء مدخلاً حضارياً لتاريخ مرحلة مهمة، مليئة بالصراعات والثورات والحروب. فجاء

الكتاب غنياً بمصادره ومراجعه، وبتحليلاته السياسية والاجتماعية. وعملاً محموداً على المستوى الحضاري والإنساني، ظهر فيه جهد صاحبته؛ مما وفر له مكانة سنيّة عند الباحثين .

استعانت لتحقيقه بذات المصادر والمراجع، التي لجأت إلى عدد منها، عند تحقيق كتاب عائشة أم المؤمنين. ولما تم سؤالها عن هذا الأمر، نفت ذلك عن عملها لسببين، الأول: أن العودة إلى سبعة عشر مصدراً من أصل مئة مصدر ونيف، له أهميته المميزة، لما تناولته هذه المصادر، من تدوين لسير ومواقع التاريخ العربي الإسلامي، كل من المواقف التي يراها مؤلفوها، أو من طريقة سماعهم أو مشاهدتهم للحدث. فكان لا بد للباحث إذا ما أراد الإطلاع على هذه السير، أن يطلع على معظم هذه المصادر والكتب[٩١].

وقيل في السبب الثاني أنه لا ضير من عودة الكاتب إلى المصادر والمراجع والكتب التي يكون قد اطلع عليها سابقاً، لأنها حافلة بأحداث التاريخ التي لا تنتهي.

وأنهت كتابها أخيراً؛ بالإشارة إلى أن النزاع بين العرب والفرس ترك أثراً سيئاً في البلاد العربية. فاضطربت فيها الأمور، وقامت في أصقاعها الفتن والحركات الثورية. فوجد العلويون في هذه الحالة مرتعاً خصباً لنشاطهم، وأيدهم في ذلك كل شخص وصل إلى مركز قوي في الدولة. وكان منهم وزراء من الفرس الذين تقربوا من الخلفاء، ذوي الميول الفارسية.

فكانت هذه العوامل من جملة أسباب أخرى بينتها الدراسة عندما أشارت إلى قيام الثورات العديدة، في العراق والحجاز واليمن. كما أدت إلى ظهور الحركات الانفصالية في المناطق البعيدة ونشوء الدويلات المستقلة، والممالك النائية، من أهمها الدولة الطاهرية[٩٢] والدولة الصفارية[٩٣] في المشرق.

تميز الكتاب بعلامات فارقة ومميزة، نمت عن ثقافة زاهية قدوره، ودلت على مداركها الفكرية، وغنى معارفها وسعة علومها، التي مكنتها جميعها من العمل على تحقيقه، وأفرغتها في متون صفحاته. فكان من الصعوبة بمكان على أي كاتب أن يترك ذلك التأثير بين دفتي أي كتاب، كما فعلت زاهية قدوره، بطريقتها التي كانت تتبعها في الكتابة والتأليف.

هذا ويعود لكمية المؤلفات التي وضعتها بين أيدينا، والكمية الوفيرة من الدراسات والأبحاث التي أنتجتها قريحتها، أن تجعل زاهية قدوره تتصف بالكاتبة

الثقافية. فضلاً عن كونها مؤرخة من قماشة المؤرخين المتمكنين من علم التأريخ، ومحللة سياسية، وباحثة اجتماعية. من دون أن ننسى أنها كانت أستاذة جامعية وتربوية بالدرجة الأولى.

٣ – تاريخ العرب الحديث

يعتبر كتاب تاريخ العرب الحديث ذات الستمائة وسبع صفحات[٩٤] الكتاب الثالث من ضمن الكتب الستة التي ألفتها زاهية قدوره. وقامت في مقدمته بتوضيح الغاية التي دفعتها لوضعه. وهي الإعجاب بماضي الأمة العربية، وقدرتها على استعادة الأمجاد التي كانت عليها في السابق. أرادت منه إبراز أهم المحطات التي مر بها تاريخ البلاد العربية، بالإضافة إلى أهميتها الجغرافية، فقامت بدراسة أوضاع كل دولة عربية ومقارنتها بمفاصل التاريخ الحديث.

تساءلت زاهية قدوره في بداية الكتاب عن أي فترة زمنية وتاريخية تبدأ بها الكتاب، خاصة وأنها من المؤمنين بأن التاريخ العربي مليء بالمحطات التاريخية، التي حفلت جميعها بنقاط مهمة تستحق التوقف عندها، واعتبارها من البدايات الأولى لتقويم التاريخ الحديث عامة، وتاريخ العرب خاصة.

فتساءلت بكثير من الحيرة: هل يمكن اعتبار سقوط القسطنطينية وقيام الدولة العثمانية، البدايات الأولى لتدوين تاريخ العرب الحديث ؟ أم أن قيام الدعوة الوهابية في الجزيرة العربية، تصلح لأن تكون البداية الأولى لعملية التدوين تلك؟ بسبب ما نتج عنها من حركة تنور واستشراق، وما شكلت من مفصل مهم في حياة العرب، أدى إلى اتصالهم لأول مرة بالحضارة الغربية.

أم يصلح ذلك انطلاقاً من بدء تاريخ حملة نابليون بونابرت إلى مصر خاصة، وإلى الشرق بصورة عامة ؟ أو ابتداء من قيام دولة محمد علي باشا في مصر ؟ أو من بداية ثورة الشريف حسين على الحكم العثماني ؟ ومدى تأثرها بقيام فكرة القوميات في أوروبا ؟ وما أدت إليه من تأثر القائمين بها وقناعتهم بانبعاث فكرة القومية العربية في بلاد العرب، التي دفعت بهم إلى التخلص من سيطرة الحكم العثماني، وتحررهم من جورهم وظلمهم[٩٥].

بالرغم من هذه التساؤلات التي طرحتها، لتكون بداية للكتاب، ولترجيح أي نقطة من تلك تكون منطلقاً لعملية التدوين التي ستتبعها فيه، قالت: « إن التاريخ مجموع

حركات ومنجزات، وسجل لمختلف الجوانب الفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية، وكل هذه الأحداث معاً تصنع التاريخ. ولسنا نشك في أن بذور هذه النهضة العربية كانت كافية في العالم العربي، حتى في العصر العباسي. وإن الأحداث المختلفة التي بدأت تمر بالعالم العربي منذ نهاية القرن الثامن عشر، أخذت تعمل على تنبيه الشعب العربي وتحريكه في اتجاه جديد، وجميع هذه الحركات مترابطة، فالنظرة الدينية بدون شك كانت مرتبطة بالسياسية...»[٩٦].

لذلك وبعد أن قرأت عدداً من المصادر والمراجع التاريخية، العربية منها والأجنبية، واستعرضت بعض مفاصل التاريخ العربي ومحطاته البارزة. رأت أن أصلح فترة للبدء بتدوين تاريخ العرب الحديث، هي بداية القرن التاسع عشر. لأنها الفترة الأمثل التي يمكن للمؤرخ بواسطتها، أن يعمل على تبيان حقيقة التاريخ الحديث للأمة العربية. وقد عمدت عند البدء بدراستها، إلى وضع فكرة عن المنطلقات السياسية التي رافقت البلاد العربية، منذ مرحلة ما قبل فترة الفتح الإسلامي. فعرفت بنشأتها وبحثت عن أوضاعها السياسية التي كانت عليها في ظلال الإسلام وما بعده... .

وأشارت إلى أن اختيار فترة بزوغ فجر القرن التاسع عشر، لتكون فاتحة للكتاب، تعود إلى أنها تمثل « فترة التغيير الممهدة إلى النهضة الكبرى». وكان من أسباب اختيارها؛ أنها شكلت النواة التي أدت « إلى بعث الآمال في نهضة الأمة العربية، وتحررها وقيامها بواجبها الأكمل في بناء الحضارة الإنسانية»[٩٧].

ورأت في هذه الفترة، نقطة الارتكاز الرئيسة والمفصل التاريخي المهم؛ بسبب ما حصل فيها من انتصارات وما شابها من هزائم مني بها العرب، من جراء المؤامرات الدولية ضدهم. وقد أَمِلَتْ أن تكون دافعاً لهم على استلهام العبر والاستفادة من دروسها .

قسمت الكتاب إلى قسمين، عرضت في الأول الكيانات السياسية للدول العربية، والتعريف بتفصيلاتها، وأسس تكوينها التاريخي عبر العصور. وتناولت في القسم الثاني الأحداث الكبيرة التي عصفت بالدول العربية، وما رافقها من حركات، كان لها تأثيرها المباشر على التاريخ العربي بوجه عام[٩٨].

تناول الكتاب دراسة النواحي التاريخية والجغرافية، وكذلك الكيانات السياسية، لكل من المملكة العربية السعودية واليمنين الشمالي والجنوبي، وسلطنة عُمان، وقطر، والبحرين، والكويت، والعراق، والمملكة الأردنية الهاشمية، وفلسطين، وسوريا،

الثقافية. فضلاً عن كونها مؤرخة من قماشة المؤرخين المتمكنين من علم التأريخ، ومحللة سياسية، وباحثة اجتماعية. من دون أن ننسى أنها كانت أستاذة جامعية وتربوية بالدرجة الأولى.

٣ – تاريخ العرب الحديث

يعتبر كتاب تاريخ العرب الحديث ذات الستمائة وسبع صفحات(٩٤) الكتاب الثالث من ضمن الكتب الستة التي ألفتها زاهية قدوره. وقامت في مقدمته بتوضيح الغاية التي دفعتها لوضعه. وهي الإعجاب بماضي الأمة العربية، وقدرتها على استعادة الأمجاد التي كانت عليها في السابق. أرادت منه إبراز أهم المحطات التي مر بها تاريخ البلاد العربية، بالإضافة إلى أهميتها الجغرافية، فقامت بدراسة أوضاع كل دولة عربية ومقارنتها بمفاصل التاريخ الحديث.

تساءلت زاهية قدوره في بداية الكتاب عن أي فترة زمنية وتاريخية تبدأ بها الكتاب، خاصة وأنها من المؤمنين بأن التاريخ العربي مليء بالمحطات التاريخية، التي حفلت جميعها بنقاط مهمة تستحق التوقف عندها، واعتبارها من البدايات الأولى لتقويم التاريخ الحديث عامة، وتاريخ العرب خاصة.

فتساءلت بكثير من الحيرة: هل يمكن اعتبار سقوط القسطنطينية وقيام الدولة العثمانية، البدايات الأولى لتدوين تاريخ العرب الحديث ؟ أم أن قيام الدعوة الوهابية في الجزيرة العربية، تصلح لأن تكون البداية الأولى لعملية التدوين تلك؟ بسبب ما نتج عنها من حركة تنور واستشراق، وما شكلت من مفصل مهم في حياة العرب، أدى إلى اتصالهم لأول مرة بالحضارة الغربية.

أم يصلح ذلك انطلاقاً من بدء تاريخ حملة نابليون بونابرت إلى مصر خاصة، وإلى الشرق بصورة عامة ؟ أو ابتداء من قيام دولة محمد علي باشا في مصر ؟ أو من بداية ثورة الشريف حسين على الحكم العثماني ؟ ومدى تأثرها بقيام فكرة القوميات في أوروبا ؟ وما أدت إليه من تأثر القائمين بها وقناعتهم بانبعاث فكرة القومية العربية في بلاد العرب، التي دفعت بهم إلى التخلص من سيطرة الحكم العثماني، وتحررهم من جورهم وظلمهم(٩٥).

بالرغم من هذه التساؤلات التي طرحتها، لتكون بداية للكتاب، ولترجيح أي نقطة من تلك تكون منطلقاً لعملية التدوين التي ستتبعها فيه، قالت: « إن التاريخ مجموع

حركات ومنجزات، وسجل لمختلف الجوانب الفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية، وكل هذه الأحداث معاً تصنع التاريخ. ولسنا نشك في أن بذور هذه النهضة العربية كانت كافية في العالم العربي، حتى في العصر العباسي. وإن الأحداث المختلفة التي بدأت تمر بالعالم العربي منذ نهاية القرن الثامن عشر، أخذت تعمل على تنبيه الشعب العربي وتحريكه في اتجاه جديد، وجميع هذه الحركات مترابطة، فالنظرة الدينية بدون شك كانت مرتبطة بالسياسية...»(٩٦).

لذلك وبعد أن قرأت عدداً من المصادر والمراجع التاريخية، العربية منها والأجنبية، واستعرضت بعض مفاصل التاريخ العربي ومحطاته البارزة. رأت أن أصلح فترة للبدء بتدوين تاريخ العرب الحديث، هي بداية القرن التاسع عشر. لأنها الفترة الأمثل التي يمكن للمؤرخ بواسطتها، أن يعمل على تبيان حقيقة التاريخ الحديث للأمة العربية. وقد عمدت عند البدء بدراستها، إلى وضع فكرة عن المنطلقات السياسية التي رافقت البلاد العربية، منذ مرحلة ما قبل فترة الفتح الإسلامي. فعرفت بنشأتها وبحثت عن أوضاعها السياسية التي كانت عليها في ظلال الإسلام وما بعده... .

وأشارت إلى أن اختيار فترة بزوغ فجر القرن التاسع عشر، لتكون فاتحة للكتاب، تعود إلى أنها تمثل « فترة التغيير الممهدة إلى النهضة الكبرى». وكان من أسباب اختيارها؛ أنها شكلت النواة التي أدت « إلى بعث الآمال في نهضة الأمة العربية، وتحررها وقيامها بواجبها الأكمل في بناء الحضارة الإنسانية»(٩٧).

ورأت في هذه الفترة، نقطة الارتكاز الرئيسة والمفصل التاريخي المهم؛ بسبب ما حصل فيها من انتصارات وما شابها من هزائم مني بها العرب، من جراء المؤامرات الدولية ضدهم. وقد أَمِلَتْ أن تكون دافعاً لهم على استلهام العبر والاستفادة من دروسها .

قسمت الكتاب إلى قسمين، عرضت في الأول الكيانات السياسية للدول العربية، والتعريف بتفصيلاتها، وأسس تكوينها التاريخي عبر العصور. وتناولت في القسم الثاني الأحداث الكبيرة التي عصفت بالدول العربية، وما رافقها من حركات، كان لها تأثيرها المباشر على التاريخ العربي بوجه عام(٩٨).

تناول الكتاب دراسة النواحي التاريخية والجغرافية، وكذلك الكيانات السياسية، لكل من المملكة العربية السعودية واليمنين الشمالي والجنوبي، وسلطنة عُمان، وقطر، والبحرين، والكويت، والعراق، والمملكة الأردنية الهاشمية، وفلسطين، وسوريا،

ولبنان، ومصر، والسودان، وليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب.

ولا بد من الإشارة، إلى أنه كانت قد حصلت تبدلات كثيرة في هذه الأقطار خلال فترة وجيزة، ما بين تبويب الدراسة وبين إصدار الكتاب. والأمر نفسه ينسحب على المتغيرات التي حصلت في بعضها، ما بين الطبعات المتوالية له. جهدت المؤلفة بأن تكون دقيقة في تحليلاتها التاريخية، وتعريفاتها الجغرافية، وتوصيف مقولاتها السياسية. وبما أن التاريخ في حركة دائمة لا تهدأ، والسياسة في تبدل دائم ومستمر، فمن الصعب على كل مراقب ومتتبع لأحداث الدول ومحلل لتطوراتها المختلفة، أن يعطي الثبات لأفكاره وآرائه. بينما المؤرخ يمكنه أن يسير في ذلك من منطق التأريخ، وسرد الحوادث حال وقوعها وتوقع بعض نتائجها.

تحسبت الكاتبة لهذه الناحية عندما ذكرت في تصدير بعض الطبعات المتتالية للكتاب، حيث أجرت بعض الإضافات؛ بسبب ما شهدته المنطقة العربية من أحداث وتطورات، فرأت ضرورة إدخال عدة أضافات[٩٩].

أعتبر الكتاب في بعض أوجهه، أنه أقرب إلى الكتاب الجغرافي منه إلى التاريخي، كون التحديدات الجغرافية تطغى على كثير من صفحاته. إلا أن ذلك لم يمنع من القول، أنها اعتمدت فيه على تدوين التاريخ الجغرافي، لتكوّن الدول العربية وتصوير حقائق تواجدها وقيامها في عهود مختلفة. فظهر من طريقتها في العرض، تداخلاً في الحدود الجغرافية بين معظم الدول العربية وائتلاف في ما بينها. أما الانفصال الجغرافي، فجاء من صنيع الدول الأجنبية التي استعمرتها، أو تقاسمتها بنتيجة بعض الاتفاقيات الدولية[١٠٠].

أدرجت في الطبعة الأولى منه، فصلاً عن سلطنة عُمان وساحلها، المؤلف من مشيخات سبع، وهي: أبو ظبي، دبي، الشارقة، أم القيوين، عجمان، رأس الخيمة، والفجيرة. وبعد صدور الطبعات التالية، اتحدت هذه الإمارات في دولة واحدة؛ دعيت بدولة الإمارات العربية المتحدة، واتخذت من دبي عاصمة لها: « تقع هذه المنطقة على أطراف الجزيرة العربية وشرق الوطن العربي المحاذية للخليج العربي وخليج عجمان، ممتدة من الغرب إلى الشرق في سبع إمارات عربية»[١٠١]. عرف أغلبها تقدماً وتطوراً اقتصادياً وحضارياً لافتاً، كما أصاب الازدهار معظمها بشكل واضح، وباتت دبي التي اشتهرت بلؤلؤة الخليج العربي، مركز استقطاب الحركة التجارية

الاقتصادية، عربياً وعالمياً.

وجاء في الكتاب لمحة تاريخية وجغرافية عن شبه الجزيرة العربية، عرضت فيها الكاتبة للجذور الأساسية التي تحدر منها الشعب العربي. فتحدث عن النظريات التي قال بها بعض علماء الأجناس والحضارات، حول أسسه العريقة ومنابته الأصيلة، المؤسسة لحضارته الإنسانية. فذكرت أن: «الجنس العربي ليس بدعاً، وليس بحاجة إلى تحري أصوله بين الحفائر»[١٠٢].

وأشارت من ناحية ثانية إلى أن هذه العملية ضرورية في سبيل العمل على توضيح «مرحلة من مراحل الفكر والتاريخ، كمقدمة ممهدة لدراسة الأمة العربية قبل أن تتخذ شكلها الحالي المتكامل» .

وجالت في نظريات أخرى، فرأت أن الشعب العربي هو من الجنس السامي كالبابليين والآشوريين والأموريين والكنعانيين والفينيقيين والعبرانيين والأحباش. من دون الدخول في تفاصيل الهجرات التي قامت بها هذه الشعوب لأسباب عديدة ومختلفة، فقد رأت مع غيرها من الباحثين؛ أن الجزيرة العربية هي المقر الأول للعرب، ومنها انطلقوا ليصلوا إلى ما هم عليه الآن. وقد تكونت الأصول الأساسية للشعب العربي من مناطق العراق وسوريا الطبيعية، أي لبنان وسوريا والأردن وفلسطين، وكذلك مصر وشمال أفريقيا، فضلاً عن الجزيرة العربية وغيرها. فانتشرت على هذه المناطق وتوزعت فيما بعد؛ على البلاد العربية الحالية، التي جمعت بينها اللغة والتاريخ والتراث والمصير المشترك.

من الناحية الجغرافية، رأت أن الحدود الطبيعية لهذه الكتلة العربية تبدأ شرقاً من سلسلة جبال زغروس التي تفصل ما بين العراق وإيران، ويحيطها من الغرب المحيط الأطلسي، من وراء ساحل مراكش، الذي تقع عليه دول المغرب العربي ليبيا تونس والجزائر. أما شمالاً فتحيط بها سلسلة جبال طوروس، التي تفصل تركيا عن الهلال الخصيب، المكون مناصفة من العراق وسوريا الطبيعية شرقاً وغرباً. وأخيراً يحدها من جهة الجنوب؛ المحيط الهندي وغابات أفريقيا والصحراء الكبرى.

أطلقت زاهية قدوره على هذا التجمع من الدول العربية، تسمية الوطن العربي، وليس العالم العربي، كدليل على رغبتها في توحده وتماسكه بين أقطاره الشاسعة المترامية الأطراف. وما يميز هذا الوطن العربي، اتصال حدوده العريضة والطويلة

مع معظم قارات العالم ودوله، مما يشكل – في رأيها - أفضل منطقة اتصال تجاري واقتصادي بين الشرق والغرب.

وتقع في هذا الوطن العربي، ثلاثة أبحر تعتبر من أفضل بحور العالم، كالبحر الأبيض المتوسط وبحر العرب والبحر الميت. وتحتوي أراضيه على أجود موارد الإنسان الطبيعية، كالبترول وغيره من المعادن والثروات الطبيعية(١٠٣).

يعتبر الوطن العربي مهبط الديانات الثلاث، وعلى أرضه عاش أنبياء الله ورسله، الذين أنزلت عليهم رسالاته وكتبه السماوية. وبفضل هذه المزايا، نشأت أطماع الدول الكبرى لاستلاب خيراته وثرواته، ووضعت من أجل السيطرة عليه الخطط العديدة، وحيكت المؤامرات الكثيرة، وتعرضت دوله وأقطاره - وما زالت - للحروب المتواصلة، لتحقيق أطماع الهيمنة وسلب ثرواته.

عاشت زاهية قدوره فترة طويلة من حياتها في قلق دائم على الوطن العربي، بسبب المؤامرات والدسائس، التي تحاك ضده، لإلغاء وجوده وديمومته. فنهضت للدفاع عنه وعن كيانه، من خلال الأسلحة الفكرية والثقافية التي كانت تمتلكها وتحارب بها، كالأبحاث والدراسات، وكلمات الوعظ والإرشاد، التي وضعتها للتحذير من المؤامرات التي كانت – وما تزال - تحاك ضد الوطن العربي لقهره وإذلاله. فحذرت من المؤامرات التي كانت تستهدف النيل من نفسية المواطن العربي، المؤمن بدينه وربه. وإن توحده في دين الله، لهو دليل على وحدة لغته، وتاريخه ومصيره وتراثه وحضارته. هذه المقومات ما زالت تستهدف الوطن العربي بالمؤامرات المستمرة؛ ابتداء من هجمات المغول وحروب الفرس، ثم غزوات الحملات الصليبية التي شنت على الشرق العربي، وما زالت تتابع حتى الآن بأشكال مختلفة وحجج واهية.

كان إيمانها بقدر هذه الأمة عظيم، واعتدادها بإمكانياتها البشرية والطبيعية والدينية كبيراً. وفخارها وتمسكها بمقومات أمتها الحضارية والإنسانية، بأعرافها وقيمها، بعاداتها وتقاليدها، كانت المقومات؛ التي انصرفت طوال حياتها الفكرية والثقافية والأكاديمية والتربوية، إلى الهداية لها وتعليمها لطلابها ومريديها. فأنشأت جيلاً من المثقفين والعلماء والمؤرخين، عملوا على نهجها، واهتدوا بتعاليمها.

من هنا كانت ترى أن المنطقة العربية، شكلت النقطة الأولى التي انطلقت منها الشعوب العربية، للقيام بأدوارها على مر التاريخ. فوصل العرب إلى مختلف

أصقاع العالم الغربي ودوله، وأقاموا ممالك المسلمين ودولهم في الأندلس، ووطدوا أركان ممالك أخرى في رقعة كبيرة من الكرة الأرضية. فاتخذت من هذا الأمر، دافعاً لتبيان المكانة السياسية، وتوضيح الأهمية الإنسانية والتاريخية، التي وصلت إليها الدول العربية القريبة والمحيطة بشبه الجزيرة العربية. مما كان له تأثير واضح في تاريخهم الحديث(١٠٤).

ثم درست زاهية قدوره الأدوار السياسية التي مرت بها شبه الجزيرة. فعرفت بوضعها الجغرافي، وذكرت الحدود الطبيعية المحيطة بها، ونوهت بخصائصها الجغرافية ومقوماتها البشرية. كما لمحت إلى بعض سماتها. ورأت من ناحية ثانية، أن هذه الرقعة الجغرافية المترامية الأطراف، حظيت بالإهمال من قبل المدونين والكتّاب العرب الذين تغاضوا عن تاريخها القديم. وأعطت مثلاً على ذلك، عندما تحدثت عن النقص الحاصل في عملية تدوين تاريخ نشوء المملكة العربية السعودية، التي رأت فيها أنها بمثابة القلب من المنطقة. وأشارت إلى أنه لم يبدأ تدوين مسيرتها إلا منذ سنوات قريبة، وما كتب حتى الآن قليل ونادر، بالرغم من اكتشاف منابع النفط ووفرة الثروات الطبيعية التي لفتت أنظار العالم إليها منذ سنوات عديدة(١٠٥).

نهضت المؤرخة في محاولة لسد النقص، فعملت على دراسة وتمحيص تاريخ الجزيرة منذ أقدم العصور التاريخية، وأشارت إلى مراحل القوة والضعف التي مرت عليها، ولاحظت المتغيرات والتبدلات التي طرأت، بالإضافة إلى التطورات التي واكبت مسيرتها التاريخية والبشرية، فضلاً عن المؤثرات السياسية التي عملت في كياناتها، وكان لها آثار مهمة على أوضاعها الحالية.

وكتبت أن منطقة الجزيرة العربية، شهدت منذ القرن السادس عشر ومعها المناطق العربية الأخرى، فترة تحول مهمة وخطيرة في تاريخها السياسي الطويل، انعكست تأثيراتها السلبية عليها عندما خضعت الدول العربية، والجزيرة، للحكم العثماني لفترة تزيد عن أربع مئة سنة تقريباً، امتدت من سنة ١٥١٧إلى سنة ١٩١٨، وهو ما نهضت المؤرخة لمعالجته ضمن صفحات كتابها الذي عمم للتدريس في عدد من جامعات الدول العربية(١٠٦).

هذه هي أهم المميزات التي أرادت زاهية قدوره الإشارة إليها في كتاب: تاريخ العرب الحديث. لم تشأ أن تضع كتاباً تحليلياً لهذا التاريخ، بقدر ما كانت غايتها التعريف

بمكونات عدد من الدول العربية التاريخية والسياسية، وكياناتها الجغرافية والاجتماعية. لذا أمكن اعتباره من الكتب التاريخية الجيدة، التي حاولت الكاتبة تعميمه على شريحة واسعة من الطلاب. كما نصح المهتمون بتدريس التاريخ، صوابية تعميمه على طلاب أقسام التاريخ في لبنان والبلاد العربية. فكان كتاباً مقرراً في الجامعة اللبنانية، وجامعة بيروت العربية، وكتاباً أساسياً في المدارس الثانوية والمعاهد العليا في بعض الدول العربية، وبخاصة في المملكة العربية السعودية.

٤ – شبه الجزيرة العربية: كياناتها السياسية

في نظرة أولية على كتاب شبه الجزيرة العربية يبدو أنه مكمل ومتمم، أو بالأحرى هو جزء ثان من كتاب تاريخ العرب الحديث. بدأت الكتابة فيه عن أوضاع المملكة العربية السعودية والدول المجاورة لها على الخليج العربي[١٠٧].

تحتل دراسة الكيانات السياسية لشبه الجزيرة العربية، والإمارات والممالك الشقيقة والمحيطة، مساحة مهمة في الكتاب، ليس من السهل التوقف عندها واستعراض مجمل التحركات المختلفة التي مرت بها؛ بالرغم مما يشكل ذلك من أهمية لمعرفة الأبعاد المنهجية التي اعتمدتها في تدوين هذا التاريخ، الحافل بالتقلبات السياسية والتطورات التاريخية.

كما وردت فيه، صور متعددة للأحداث والتطورات التي عصفت بالجزيرة، وبكل واحدة من الممالك والإمارات مجتمعة أو منفردة. وتركزت الدراسة عند محاولة بريطانيا استغلال الأوضاع التي نتجت عن حرب محمد علي وتأثير ذلك عليها، ومحاولة احتلال البحرين عنوة. مما دفع بريطانيا لبسط سيطرتها ونفوذها على مناطق الخليج العربي.

في الكتاب إشارات إلى بعض التطورات الدراماتيكية المتلاحقة التي عاشتها المملكة العربية السعودية، باعتبارها أكبر دول الخليج العربي مساحة، وأفضلها مكانة وهيبة بالنسبة للدول الضعيفة والفقيرة؛ مما جعلها عرضة لطموح هذا السلطان، أو ذاك، من الذين كانوا يبذلون الأموال السخية ليقدموها إلى الوالي المصري الوصي عليها، ليصلوا إلى إعتلاء العرش الملكي السعودي. مما فرض عليها أن تعيش في حالة من الفوضى والبلبلة وعدم الاستقرار. فضلاً عن حروب كانت تتعرض لها من هنا وغزوة من هناك، وانتفاضات متعددة. كان منها الحركة الوهابية[١٠٨]، وغيرها من

الحركات؛ التي ما كانت لتهدأ مع قيام هذا الحاكم وتتراجع بعض الشيء مع حاكم ثان، إلا وتعود للإنتفاض مع طامع ثالث، من أجل الوصول إلى السلطة والحكم.

في بلاد عرفت بسيطرة النزعة القبلية على مجتمعاتها وسيادة الروح العشائرية، وتحكم النزعة الدينية بين عناصرها. كانت الخلافات والأطماع تذر بقرنها على مختلف شؤونها وأمورها، حتى باتت شهوة الوصول إلى العرش، مرادفاً لوجود أعلى رأس للسلطة فيها. حتمت هذه الأوضاع على المنطقة، أن تعيش فترة من الوقت أسيرة لهذه النزاعات، مكبلة بالقيود التي لم تتمكن من التخلص منها جميعها، للانطلاق إلى رحاب التطور والتقدم، ومواكبة العصر والحضارة. وقد تغير هذا الواقع بعض الشيء بعد اكتشاف البترول فيها وتحقيق الطفرة الاقتصادية من صناعة النفط، التي كانت السبب المباشر لكثير من المشاريع.

بعد اكتشاف الثروة النفطية، تغير الوضع الاقتصادي، الذي بات يعول عليه في تنمية الموارد الاقتصادية للمنطقة، وقيام المشاريع العمرانية والاجتماعية المختلفة. فكان اكتشاف البترول بمثابة الثورة الصناعية الثانية، بالنسبة إلى المنطقة العربية، الذي بدل حالها كثيراً، ونقلها من مجرد منطقة ذات موقع على طرق المواصلات العالمية، وصلة وصل بين الشرق والغرب، إلى منطقة بات يحسب لها ألف حساب، في مخططات الدول العالمية وإستراتيجياتها، سواء كانت سلبية أم إيجابية[١٠٩].

هذه الأوضاع المتشابكة والظروف المعقدة، وسيطرة العصبيات المتزمتة، كانت سيدة الوضع في المنطقة والمملكة، عندما آلت أمورها ومقاليد العرش؛ إلى الملك عبد العزيز بن سعود[١١٠] الذي قام بمواجهة كل النزاعات السائدة، وقرر عند وصوله إلى العرش السعودي، أن يعمل على تطوير المنطقة برمتها، والقضاء على حالة الجمود وحل كل الصراعات، ونقل المملكة من التخلف إلى التنمية، وإحلال السلام بين القبائل والعشائر المتنازعة. من دون أن يغيب عن ناظريه، الوجود البريطاني الذي يطمع بالسيطرة على مقدرات بلاد شبه الجزيرة العربية كلها[١١١].

ثم ذكرت باختصار لمسيرة الملك عبد العزيز، ومسيرة النهوض التي قام بها لإعمار المملكة. وتحدثت عن متابعة إخوانه من بعده للخطة التي انتهجها، الذين أخذوا عنه أيضاً؛ طريقته في معالجة مختلف الظروف الاجتماعية المعقدة والمتشابكة في كثير من أمور المملكة وأحوالها. بالإضافة إلى بذل الإمكانيات الكبيرة للعناية بالأوضاع

الاقتصادية والطبيعية، التي كانت تفوق احتياجاتها إمكانيات الإنسان ومعارفه في بعض الأحيان. ومنها على وجه الخصوص، ندرة وجود المياه وما كان يسبب فقدانها من جفاف وعطش. كما أشارت إلى الجهود التي صرفها رجال المملكة المخلصون، وعنايتهم بمعالجة الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية الأخرى.

في مقاربة لكتاب شبه الجزيرة العربية مع كتاب تاريخ العرب الحديث يظهر شيءٌ من التطابق بينهما. فيتبين في الأول أن الكاتبة - وإن تطرقت إلى معالجة الكيانات السياسية للدول التي ذكرتها في تاريخ العرب الحديث - تحدثت في الثاني، عن كيانات الدول التي لم تتعرض لها في الأول. منها مثلاً، الدراسة التي أتت فيها على تاريخ الخليج العربي ونشأته السياسية، ذكرت فيها: « أنه أحد جسور العبور الهامة التي تربط بين الشرق والغرب أو حلقة اتصال بين الشرق العربي وأفريقيا والشرق الأقصى، من الهند إلى الصين»[١١٢].

ورأت أن الخليج العربي، يمتد شمالاً في العراق إلى مسافة أبعد كثيراً من شط العرب، وتغمر مياهه قسماً كبيراً من جنوب العراق. ولكن الأتربة التي يحملها الفرات ودجلة، غمرت قسماً من الخليج. وتقدر مساحة ما يطمره النهران في القرن الواحد بنحو ميل ونصف الميل المربع.

يعتبر الخليج العربي مهد الحضارة، ومهد الجنس البشري. قطنه الكنعانيون – ومنهم الفينيقيون – في سواحله الغربية قبل نزوحهم إلى سواحل الشام وفلسطين. ومخرت سفنهم مياهه قبل أن تنزل في البحر الأبيض المتوسط. ومارسوا التجارة مع الهند وإيران وسواحل الجزيرة العربية الجنوبية، وأفريقيا[١١٣].

بينت النقوش الأثرية القديمة، أن سكان الخليج هم مجموعة من الأمم القديمة الذين قاموا بالتجارة - عبر سواحله - مع المدن والشعوب الأخرى القريبة والبعيدة، كالسومريين والأكاديين والبابليين والآشوريين. ودعي الخليج بالبحر الأسفل أو البحر الأدنى، في مقابل البحر الأعلى، وهو البحر الأبيض المتوسط. أطلق عليه الإسكندر المقدوني اسم الخليج الفارسي، في حين تدنت أهميته في عهد الرومان، نتيجة لتحول طرق التجارة إلى البحر الأحمر.

أما في العهد العربي الإسلامي، فقد صار بحراً عربياً وعادت له أهميته وأصبح طريقاً دولياً للتجارة بين الشرق والغرب. وعلى ساحل الخليج العربي، ظهر ملاح عربي

شهير هو أحمد بن ماجد[١١٤]. وقامت على ضفافه دولة عُمان البحرية التي فتحت جنوبي إيران؛ وسيطرت على أفريقية الشرقية. وبعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح[١١٥] والوصول إلى الهند؛ في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر، بدأ سيل المراكب الأوروبية المؤلفة من البرتغاليين والهولنديين، بالإضافة إلى الفرنسيين والبريطانيين؛ ترافقهم مجموعات من التجار والسياسيين بحماية قوات عسكرية، يفدون إلى الخليج العربي من الهند والصين وغيرهما من بلاد الشرق الأقصى، سعياً وراء الثروة الموجودة في أرضه وتحت مياهه.

سمحت هذه الأطماع لسكانه، بتأليف عصابات بحرية للدفاع عن أنفسهم وبلادهم؛ والوقوف بوجه جيوش الأوربيين المزودين بالأسلحة وآلات التدمير؛ التي جلبوها معهم لإلقاء الرعب في قلوب الخليجيين، الذين كانوا يستميتون في مهاجمة القوات الأجنبية الغازية، لمنعها من الاستيلاء على خيراتهم[١١٦].

سيطر الغزاة على ساحل الخليج العربي، ولكنهم لم يتمكنوا من تغيير طبيعته وأصالته؛ فبقي عربياً بشاطئيه، وبقيت المناطق الواقعة على سواحله عربية، وظل سكانه عرباً، يتكلمون اللغة العربية، ويرأسهم حكام عرب[١١٧].

تابعت الدراسة البحث في تاريخ الخليج العربي؛ للتعرّف على الجوانب التي أحاطت بنشأته، وتوضيح أهميته في طرق المواصلات البحرية العالمية، منذ أقدم الأزمنة. فأشارت إلى محاولات السيطرة عليه من قبل الدول الاستعمارية، بسبب أهميته الاقتصادية في الملاحة العالمية؛ وقربه من منابع النفط العربية. وتحدثت عن استخراج اللؤلؤ من جزره وخلجانه، مما هيأه ليكون من أغنى مصادر اللؤلؤ الطبيعي في العالم، الذي انعكس بإيجابياته، على اقتصاديات كل من البحرين وقطر وساحل عُمان.

قيل إن البابليين دعوا اللؤلؤ بعيون السمك، وذكرت زاهية قدوره أن هناك روايات مختلفة عن تكوّن اللؤلؤ. منها، أنه ناتج عن حبيبات المطر التي احتفظ بها المقاتلون القدامى صدفة.

أدت عملية صيد السمك في الخليج، بالإضافة إلى استخراج اللؤلؤ من مياهه، لأن يحتل مكانة اقتصادية مهمة؛ ساهمت فيها ندرة الأراضي الزراعية، القاصرة عن تأمين حاجات السكان من المواد الغذائية والزراعية. كما أن تحقيق الاكتفاء الذاتي لسكانه؛ لا يتم إلا بتنمية جميع موارد الثروة فيه. فأشارت إلى أن الاعتماد على النفط؛

لا يمكن أن يضمن لشعبه، المصير السليم على المدى الطويل؛ بالرغم من أنه من أهم مناطق البترول في العالم. ويوجد البترول في سواحل إيران، وجوار البصرة، والكويت، والإحساء، والبحرين، وقطر، وأبو ظبي. وصار التنقيب عن البترول، منذ اكتشاف أول بئر في الخليج العربي.

ويعتبر ثلث احتياط النفط في العالم، موجود في سواحله الثلاثة، وهو المسؤول عن تقدم الصناعة في وسط وغربي أوروبا؛ وفي الشرق الأقصى. ويشاع أن سلام العالم متوقف على ثروته النفطية. وقد أثرت هذه الثروة على تقدم الثقافة، وارتفاع مستوى المعيشة لسكان المنطقة العربية برمتها، فصارت مقصداً من أصحاب اليد العاملة، الذين قصدوا مناطقه للعمل فيها[(١١٨)].

وبظهور البترول على سواحله نشأ صراع على المنطقة العربية؛ أدى إلى تدخل الدول الأجنبية في مقدرات المنطقة برمتها؛ وبخاصة الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا اللتين جمعت بينهما المصالح والمطامع الإستعمارية القديمة.

لاحظت زاهية قدوره أن هذه التطورات كان لها تأثيراتها المختلفة على عدد من الدول العربية، فطالبت بعضها بتحقيق الاستقلال؛ وتفشت في أخرى مظاهر ثقافية متنوعة. «غير أن استقلال دول الخليج لم يبعد عنها طموحات الدول الكبرى ومشاكلها، فالمشكلة في الخليج خاصة والشرق الأوسط عامة، انتقلت من مشكلة استعمار تقليدي إلى استعمار جديد. وهو استعمار تسلطي اقتصادي صاحب استراتيجية متعددة الوجوه»[(١١٩)].

عندما انسحبت القوات البريطانية من دول الخليج وإماراته عام ١٩٦٨، توحدت إمارات ومشيخات البحرين، وقطر، وأبو ظبي، والشارقة، وعجمان، وأم القيوين، ورأس الخيمة، في دولة واحدة عرفت بدولة الإمارات العربية المتحدة، في شباط / فبراير ١٩٦٨.

ساهمت هذه الخطوة بالمحافظة على مكانة المنطقة العربية عامة ومنطقة الخليج العربي بصورة خاصة، تجاه الأطماع الدولية المتزايدة؛ والراغبة بالسيطرة عليه. كما أن قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربي، أسس لقيام علاقة اقتصادية جيدة بين دوله، وعمل على تمتين اللحمة الأخوية والإنسانية، بين مناطقه الغنية بالنفط والثروات الطبيعية؛ وتلك التي تقل عنها غنى وثراء.

في القسم الثالث من كتاب شبه الجزيرة العربية، جاء فيه عرض للكيانات

السياسية للجمهورية اليمنية، والحروب التي مرت عليها. ودراسة عن سلطنة عُمان. وأنتهى الكتاب ببحث مستقل عن إمارات الخليج العربي السبع.

جاء في الدراسة عن سلطنة عُمان وعاصمتها مسقط، التعريف بموقعها الاستراتيجي، وميناها الموغل في القدم، ذي الحركة التجارية النشيطة، مع البلدان والممالك والحواضر والإمارات؛ إضافة إلى الهند وإيران، اللتين ارتبطت معهما عُمان بعلاقات تجارية واقتصادية منذ زمن بعيد. احتل هذا الميناء مكانة إستراتيجية بارزة في حركة التجارة العالمية، ساهمت في تقدم السلطنة؛ وجعلها تواكب التطورات المدنية والتكنولوجية الحديثة، وتأمين مختلف الخدمات الحياتية والمعيشية والاجتماعية والتربوية.

أما بالنسبة إلى البحث عن دولة قطر، فقالت عنها: « عاشت قطر خلال التاريخ العربي حياة هادئة بعيدة عن الأحداث العاصفة والصراعات الطبقية، نظراً لموقعها، وقلة مواردها الطبيعية .. أطلق على عاصمة قطر لقب الدوحة، العاصمة اليائسة لمنطقة يائسة.. وتبدلت أمورها بعد تفجر البترول، وأصبحت قطر والدوحة بالذات، البلد الزاهرة، تعج بالحياة والعمران والتقدم»[(١٢٠)].

وأضافت إلى أن البحرين، تتشكل من مجموعة جزر. وأظهرت الدراسات الجيولوجية أن المنطقة هي جزء من الساحل الشرقي لجزيرة العرب، انفصلت عنها نتيجة لتحرك القشرة الأرضية في العصور الجيولوجية المختلفة.

تعتبر البحرين امتداداً طبيعياً للجزيرة العربية، وهي تبعد حوالي ١٥ ميلاً أو ٢٤ كم عن شواطئ المملكة العربية السعودية، ومثلها عن سواحل قطر. كما تبعد حوالي ١٨٠ ميلاً أو ٢٨٨كم عن أقرب أرض إيرانية.

تحتل هذه الجزر موقعاً جغرافياً مميزاً، بسبب إشرافها على طرق الملاحة البحرية الموصلة بين العراق والهند. وتمخر البواخر مياهها الإقليمية في أثناء توجهها من بومباي إلى البصرة؛ ومن العراق إلى الهند. وتعتبر محطة تجارية هامة لسكان الجزيرة العربية.

سمح الموقع الجغرافي للبحرين في أن تكون مركزاً مهماً يتواجد فيه عدد وافر من العناصر البشرية؛ التي يمر بعضها مرور الكرام، في حين تستوطنها جماعات أخرى؛ بعد أن رسخت فيها؛ طابعها الحضاري الذي جلبته معها.

وتشير بعض المرويات، إلى أن العناصر البشرية التي سكنت البحرين في

عهود مختلفة؛ تنتسب إلى قبائل عدنان، وقحطان، وربيعة، وبني بكر، وبني تميم، ووائل، وبني عبد قيس وسواهم.

قيل عن البحرين، أنها أشبه بمملكة حكمها بعض الملوك، وعرفت شهرة مهمة في القرون القديمة لوجود اللؤلؤ فيها بكثرة، إضافة إلى وجود الخمور والأخشاب وبعض المعادن.

عاصمة البحرين المنامة، يعتبر شاطئها من أجمل الشواطئ في العالم، ولهذا السبب استولت عليه القوات البحرية البريطانية لفترة من الزمن، وجعلته قاعدة بحرية لها. أما مدينة المحرق فهي ثاني مدنها، وتمتاز بوفرة الخضار والفاكهة؛ وأشجار النخيل المنتشرة في بساتينها.

البحرين فقيرة اقتصادياً إذا ما قيست ثروتها بما تمتلكه جاراتها من إمكانيات مادية وطبيعية، غير أن النقوش والحفريات الأثرية تشير إلى غناها في بعض العهود والأزمنة. والبحرين من المراكز التجارية المهمة عالمياً، خصوصاً في تجارة اللؤلؤ؛ المصدر المهم في اقتصادياتها. وتشير الكاتبة إلى إن هذا العامل كان الدافع لآل خليفة للمجيء إلى المنطقة، والإقامة على شواطئها وتأسيس حكمهم فيها.

ثمة من يقول أنها أول دولة ظهر فيها البترول في شبه الجزيرة العربية قبل ظهوره المبكر في السعودية؛ ويشكل مع اللؤلؤ النفيس والسمك المجفف أهم صادراتها. قامت فيها صناعة بناء السفن الخشبية، وصناعة الذهب والفضة، وتطعيمها. رافق تطورها الاقتصادي قيام صناعات أخرى، كصناعة السفن والورق والأسماك والألمنيوم والبلاط وحجر البناء والنسيج والمشروبات الغازية. تولت الدولة الإشراف على صناعة اللؤلؤ. وتعتبر صناعة المشتقات البترولية؛ العصب الرئيس في اقتصادياتها[١٢١].

دخلت البحرين في الدين الإسلامي منذ أوائل عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ عن طريق أبي العلاء الحضرمي، ومنها انطلقت شرارة الثورة التي قامت ضد الدولتين الأموية والعباسية. ومنها خرجت حركة المعارضة الإسلامية التي تزعمها الخوارج والزنج؛ إضافة إلى أن القرامطة كانوا قد أعلنوا قيام دولتهم من بين ظهرانيها.

شكلت البحرين نتيجة لموقعها الاستراتيجي والاقتصادي، قبلة جلبت إليها أنظار الدول الأوروبية للاستفادة من خيراتها ومواردها. فحاول البرتغاليون إخضاعها وفشلوا. وجرب العثمانيون احتلالها ولم يفلحوا. واستمرت عرضة للمنازعات السياسية.

وقد جهدت دول متعددة لامتلاكها، إلى أن قامت إيران في العام ١٩٧١ بوضع يدها على الجزر الثلاث، طنب الكبرى وطنب الصغرى وجزيرة أبو موسى[١٢٢].

وبفضل موقعها الاستراتيجي على خط مواصلات التجارة العالمية، باتت البحرين ملتقى حضارات العالم القديم والحديث. وهي من الدول الناهضة في منطقة الخليج العربي سياسياً وعلمياً. وقد أصابتها نهضة ثقافية وتربوية مميزة، انعكست بنشأة المؤسسات الحكومية والخاصة؛ وفق أحدث الأنظمة الإدارية والقانونية. فضلاً عن إنشاء المستشفيات الحديثة؛ والعناية بشبكة الطرق والمواصلات فيها. وباتت في العصر الحديث من أكثر دول المنطقة رقياً وتطوراً، على الصعد الإنمائية والاجتماعية والتربوية.

قامت فيها المدارس منذ العام ١٨٩٠، وفيها معهد للمعلمين والمعلمات، مما زاد نسبة المتعلمين الذين كانت الحكومة ترسلهم في بعثات علمية للتخصص في الخارج.

ساهم التعليم وعامل النفط في نمو البحرين وازدهارها، مما كان له انعكاس إيجابي على المفاهيم والعادات الاقتصادية والاجتماعية، ومشاركة المرأة البحرينية للرجل في بعض المهن والأعمال، والمراكز والمؤسسات الأخرى.

عالجت زاهية قدوره هذه المواضيع في كتابها، ورأت تحولات جذرية أصابت المجتمع البحريني، وتغييراً حدث في واقع المرأة البحرينية؛ فحصلت على معظم حقوقها المشروعة. ورأت أن هذه الدولة عرفت تبدلات نهضوية أخرى، في الأدب والثقافة والاجتماع والرياضة، مما ساهم في نشأة الأندية المختلفة. وقامت فيها الجرائد اليومية، للتعبير عن الآراء والأفكار بكل حرية وصراحة، مما أعتبر ظاهرة طبيعية في البحرين، حتى باتت في مصاف الدول العصرية والمتقدمة.

أما البحث عن الكويت، فيقودنا إلى السير بتمهل لتتبع الخطوات التي جالت فيها الباحثة لاستكشاف آفاق قيام الكويت ونشأتها. وقد استندت في دراستها على بعض الكتب والمؤلفات الموضوعة عن الكويت، وتوقفت عند كتب الرحالة والمؤرخين، الذين نفوا فيها وجود أي ذكر للكويت في التاريخ القديم؛ بالرغم من مكانتها المتقدمة في حضارات المدن السومرية، منذ حوالي خمسة آلاف سنة قبل المسيح.

تنتمي الكويت إلى قبائل البادية العربية، وليس إلى سكان السهول. نسبها المؤرخون إلى البحرين، وقالوا إنها جزء منها، منذ عهد الدولة الإسلامية الأولى إلى نهاية الدولة العباسية.

يتألف غالبية سكانها من العرب الذين وفدوا إليها من الجزيرة العربية، وأكثرهم من نجد. وتنتمي عشائر الكويت إلى قبائل عنزة، والعوازم، وبني هاجر، والرشايدة، والعُجمان، وبني خالد، ومُطير، وقليل من الصُلَبَة. غالبية السكان تقيم في مدينة الكويت العاصمة[١٢٣].

عرفت باسم كاظمة البحار، وشهدت أراضيها معركة السلاسل بين الفرس والعرب، انتصرت فيها القوات العربية بقيادة خالد بن الوليد[١٢٤]. كانت الكويت مقراً لعدد من الصحابة ورواة الحديث والقراء.

تشكل الكويت جزءاً مهماً من شبه الجزيرة العربية، انطلقت منها بعض الهجرات السكانية لظروف مختلفة. وهي تتألف من بعض الجزر، وتحتل موقعاً مهماً على رأس الخليج العربي، ومكاناً اقتصادياً مميزاً في الملاحة البحرية التجارية، وتمتلك أكبر ميناء تجاري في الخليج العربي.

يتشكل الداخل الكويتي من السهول الرملية، والصحراء المستوية، والأودية المتعددة؛ يسيطر عليها المناخ الصحراوي المعروف بشدة حرارته صيفاً، وبرودته شتاء. لا توجد فيها أنهار وعيون ماء وجداول، مما يشكل عقبة كبيرة أمام الزراعة، التي يعتمد في ريها على مياه الآبار. وقد لجأت الحكومة إلى تحلية المياه من شط العرب؛ لاستعمالها في الاستخدامات المتعددة، وخاصة في ري المزروعات، التي وضعت من أجلها مشاريع عديدة للحصول عليها، وفق أحدث الطرق العلمية العالمية، مما عاد عليها بفوائد كبيرة، لم تقتصر على الكويت وحدها؛ بل استفادت منها المملكة العربية السعودية والعراق. وقد أنشأت الحكومة مصانع عديدة لتقطير مياه البحر وتحويلها إلى مياه عذبة، بخاصة بعد ازدياد الحاجة إليها، نتيجة للزيادة المطردة في عدد السكان وقيام المشاريع المختلفة.

تتألف الكويت من عدد من المحافظات، منها الكويت العاصمة وضواحيها، ومحافظة الأحمدي؛ وفيها الميناء الشهير لتخزين البترول. ومحافظة حولي. وفيها عدد من المدن الأخرى، وبعض القرى والجزر.

عرفت الكويت ابتداء من القرن الثامن عشر؛ ويقال أن اسمها تصغير لكلمة الكوت، بمعنى البيت المربع المبني على شكل حصن أو قلعة. تعددت الأقوال فيمن قام ببنائها، وكثرت الأقاويل حول معناها. أما تاريخها فحارت فيه الآراء، ولكنها أجمعت على ابتدائه مع مطلع القرن الثامن عشر.

نزح إليها سكانها من أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية، ومن نجد. فكونوا

مجموعات من الوافدين والمهاجرين الهاربين، من المنازعات والحروب؛ التي كانت تقوم في الدول المجاورة لها، وهم بمجموعهم يمتون بصلة إلى أكثرية عراقية، وأعداد إيرانية، وهندية، وباكستانية، وإنكليزية. ومع اكتشاف البترول زادت نسبة الوافدين إليها للعمل في صناعة النفط. فوفدت إليها أعداد من الفلسطينيين كلاجئين بعد عام ١٩٤٨، وتوجهت إليها أيضاً مجموعات من اللبنانيين، والمصريين، والأردنيين، والسودانيين[١٢٥].

يبدأ تاريخها الحديث في عام ١٧١٦ مع آل الصباح؛ الذين جاءوها من نجد بصحبة ثلاث قبائل عربية، كانوا يمثلون عائلات الصباح أو آل الصباح، وآل خليفة، والجلاهمة. استقر آل الصباح على الساحل الغربي من الخليج العربي، وظلوا فيه إلى عام ١٧٥٦.

وعرفت ازدهاراً ملحوظاً، وتقدماً اقتصادياً وتجارياً، خاصة بعد أن هاجر إليها أهل البصرة، هرباً من الفرس الذين انتصروا على العثمانيين وانتزعوا منهم مدينتهم العراقية.

انتقلت الكويت من حكم إلى آخر من أفراد آل خليفة، مما كان سبباً لأزمات وصراعات، للوصول إلى السلطة، والحصول على الجاه. واستمر ذلك زمناً من الوقت، إلى أن نهض لاستلام الحكم فيها الشيخ مبارك بن صباح الثاني، الذي شهد عهده تطورات اقتصادية وسياسية بارزة، حيث قام بإرساء علاقاتها الخارجية، بخاصة مع بريطانيا، التي ارتبط معها بمعاهدة ود وتحالف.

ساءت الحالة فيها بعد وفاة شيخها مبارك، وباتت عرضة للمنازعات العائلية، ومطمحاً للدول المجاورة لإخضاعها؛ واقتطاع أجزاء من حدودها. وطمع بها مدحت باشا[١٢٦] وزير الدولة العثمانية المخول أمر العراق، الذي فرض على شيخها عبد الله الثاني، أن تكون الكويت قائمقامية تابعة لولاية البصرة، ترجع في تبعيتها الأساسية للدولة العثمانية. خضعت مع غيرها من الدول العربية الأخرى لمشيئة الوالي التركي حتى الحرب العالمية الأولى، عندما تم تقسيم المناطق العربية وبلاد الشام بين فرنسا وبريطانيا بموجب اتفاقية «سايكس – بيكو» (Picot–Sykes). فكانت الكويت من نصيب المملكة البريطانية[١٢٧].

شهدت الكويت منازعات على الحدود بينها وبين المملكة العربية السعودية في عهد أحمد الجابر بن مبارك، انتهت بمعاهدة العقير عام ١٩٢٢ بوساطة بريطانية.

وقامت مشكلة لها على الحدود مع العراق، وتطورت باجتياحها من قبل القوات العراقية عام ١٩٩٠ ودخولها إلى الأراضي الكويتية. وقد تحدثت الدكتورة في كتابها عن هذا الخلاف بين البلدين، وبسطت وجهة نظرها حول النزاع. ثم قالت: « إن قضية النزاع على الحدود بين العراق والكويت لم تكن قضية حدود وحسب، إنما كانت قضية ذات جوانب متعددة، استراتيجية، تجارية، نفطية، وعقائدية أيضاً...»[١٢٨].

وتحدثت كذلك عن طريقة تعاطي المجتمع الدولي مع القضية، وأشارت إلى أن اهتمامها بها كان سلبياً إلى درجة كبيرة، ومنحازة في أحيان كثيرة إما إلى الكويت أو إلى العراق، وفق ما كانت تقتضيه مصالحها. وكان لذلك تأثيرٌ سلبيّ، مارسته الدول الأجنبية باستغلال الحساسيات الشخصية، والمنافسات العائلية والقبلية.

إلا أنه كان للقضية أبعادٌ مختلفة، تعود إلى طبيعة المنطقة الاستراتيجية، التي تزخر أراضيها بموارد اقتصادية مهمة، وخصوصاً البترول. ومن مزاياها أيضاً، وقوعها على نقطة الثقل في طرق المواصلات العالمية، وخطوط الملاحة البحرية. إضافة إلى عامل آخر، نابع من قوة الإيمان الديني التي يتمتع بها معظم أبناء الدول العربية. لهذه الأسباب مجتمعة، نشأت أطماع الدول الغربية والأوروبية، للإستيلاء على الأراضي العربية، للقضاء على إيمانها ومعتقداتها الروحية والإنسانية، واقتناص ثرواتها ومواردها الطبيعية.

وآخر بحث تضمنه كتاب شبه الجزيرة العربية، كان عن دولة الإمارات العربية المتحدة؛ والوحدة بين الإمارات والمناطق المنتظمة سياسياً واقتصادياً في دولة واحدة، بالرغم من احتفاظ كل منها بالسمات الخاصة لكل إمارة.

شكلت الإمارات العربية عبر تاريخها، الامتداد الطبيعي لساحل شبه الجزيرة العربية، الذي يشرف على الخليجين العماني والعربي. وهي محاطة من جهاتها المختلفة بالسلطنات والمشيخات والممالك المنتشرة في منطقة الجزيرة العربية. أغلب أراضي الإمارات صحراوي، يوجد فيها عدد من الواحات نتيجة بعض التضاريس الطبيعية التي وجدت عليها. يسيطر عليها المناخ الصحراوي الحار في الصيف، ويشوبه شيء من الاعتدال في الشتاء. وتهطل عليها بعض الأمطار الموسمية.

فرض هذا الوضع الجغرافي القاسي، أن تعيش الامارات فترة من الوقت في عزلة عن الخارج والجوار، وكان للتدخل الإنجليزي في شؤونها اليد الطولى في

هذه العزلة، رغبة من بريطانيا في أن تجعل منها امتداداً لشبه القارة الهندية. وبذلت محاولات عديدة لعزلها عن العالم العربي[١٢٩] .

هذا وبالرغم من قسوة الطبيعة وشظفها، واستغلالها من قبل المخططات البريطانية والأجنبية، لفرض السيطرة، إلا أن الطابع العربي للبلاد؛ لم يفسح المجال لفرض أوضاع غير مؤاتية، ولم تمكن الدول الأجنبية من انتزاع أبناء الإمارات من انتماءاتهم العربية، ومن جذورهم العربية[١٣٠].

بعد اكتشاف البترول في الإمارات، حدثت فيها تطورات مهمة نقلتها من طور البداوة إلى مقومات حضارية جديدة. ونهضت لتطوير طرق ممارساتها الحياتية، وقام حكامها ومشايخها بإنشاء دولة عصرية، تتماشى مع سرعة تطور الحياة وتقدمها، في مختلف الميادين العلمية والتكنولوجية والعمرانية والتنموية والتربوية.

عمت فيها الخدمات المتقدمة، بعد أن عملت الدولة على توافرها باستيعاب مشاكل الحياة والمجتمع في كل إمارة. وقامت فيها مشاريع الكهرباء؛ ومعامل توليد الطاقة وانتاجها. وعنيت الدولة بتوفير المياه للشرب، والاستخدام الدائم وري الزراعة. فضلاً عن المشاريع المختلفة المواكبة لصناعة النفط[١٣١].

يلاحظ في الكتاب كثرة المصادر والمراجع التي لجأت إليها المؤلفة، لتوفير المادة اللازمة له. فاستعانت بما ينيف على مئة كتاب، إضافة إلى عدد وافر من الدوريات والمجلات اللبنانية والعربية، التي عنيت بدراسة نشأة دولة الإمارات. ودعمت دراستها، باستعراض أوضاع مناطق شبه الجزيرة العربية من مختلف وجوهها؛ كما استعانت بثلاث عشرة نشرة علمية وإحصائية، وضعت من قبل بعض مراكز الأبحاث والدراسات المهتمة بأوضاع المنطقة العربية، ودولها وإماراتها. وبواحد وأربعين كتاباً ومرجعاً باللغة الإنجليزية، واستعانت بعشر دراسات، ومثلها بعض التقارير والوثائق حصلت عليها من السفارات والبعثات الدبلوماسية العربية والأجنبية.

مما ساعد على التعريف بنشأت منطقة الخليج العربي من الناحية الجغرافية، وإلقاء الضوء على أهميته الاقتصادية والاستراتيجية، جملة المصادر والمراجع والتقارير، التي عادت إليها في أثناء إعداد الدراسات الغنية التي تضمنها الكتاب. فيسرت بذلك مادة معرفية، تاريخية وجغرافية عممتها في البداية على طلابها؛ ليتعرفوا على الخصائص التي تتمتع بها مناطق شبه الجزيرة العربية، وعلى مميزاتها الطبيعية.

ثم قامت بنشره ليستفيد منه العامة أولاً، وليكون ثانياً من جملة ذخائر المكتبة العربية من النواحي التي درستها.

وهو يختلف بعض الشيء عن ذاك الذي وضعته عام ١٩٦٧، عندما درست تاريخ العرب الحديث. فبالنسبة إلى الناحية الموضوعية والتاريخية، يتفق كتابا تاريخ العرب الحديث وشبه الجزيرة العربية، من حيث الجوهر والأساس في أنهما قاما، من أجل التأريخ لنشأة بعض الدول العربية، والتعريف بتاريخها الحديث. إضافة إلى دراسة أوضاع مشيخات وسلطنات شبه الجزيرة، وظروف نشأتها الحديثة وتطور الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي واكبتها.

فظهرت فيه نوعية العمل الذي قامت به، من خلال حجم المعلومات التي توافرت أمامها، نتيجة لقراءاتها ودراستها العديدة. ناهيك بالمراجع الكثيرة التي طالعتها وتفحصتها. فأخذت منها ما وافق عملها، وناسب الخطة التي وضعتها لتسير على هديها في تأليفه. ويظهر أنها في أثناء تبويب قراءاتها وتنظيم معلوماتها، وترتيب أفكارها، اصطدمت بما حصلت عليه من زخم في المعلومات، فكان من الصعب عليها التفريط بأي نقطة منها.

فتملكتها الحيرة وتساءلت عن كيفية التوفيق بين رغبتها في الإعلان عن المادة التي جمعتها، وحجم الكتاب المنوي وضعه عن مناطق الإمارات الثمانية ودولها. فلجأت إلى سلوك طريق الواجب والأمانة، والصدق والإخلاص؛ مع مفاعيل المادة التي تعاطت بها. فأنتجت كتاباً غزيراً بمادته، غنياً بمعلوماته. وفق منهجية علمية، على التماس مباشر بالتاريخ، ووفق موضوعية علمية حتمتها طبيعة المنطقة الجغرافية. واعتمدت عند وضعه طريقة التحري والبحث، والتنقيب عن دقائق الأمور. فلاحقت الأفكار الصالحة التي قامت بدراستها؛ وعملت على إظهار حقيقتها، التي كانت غايتها من وضع الكتاب.

٥ – بحوث عربية وإسلامية

سبقت الإشارة إلى أن عدد الكتب التي وضعتها زاهية قدوره ستة؛ بما فيها كتاب مذكراتها « رحلة العمر «. أما كتاب « بحوث عربية وإسلامية» فهو الرابع الذي وضعت بين دفتيه عدداً من الأبحاث، التي سبق ونشرتها في بعض الدوريات والمجلات الأخرى. وقسمت الكتاب إلى أربعة أبواب. احتوى البـاب الأول على خمسة أبحاث،

والباب الثاني على ثلاثة أبحاث، والباب الثالث على بحثين، وكذلك الباب الرابع ضمت فيه بحثين[١٣٢].

اختلف هذا الكتاب عن مؤلفاتها الأخرى من ناحية التبويب، وإن كان ليس بعيداً عنها من حيث المحتوى والمضمون. وتعود قيمته إلى أهمية المواضيع المختلفة التي احتواها، كالأبحاث السياسية والاجتماعية والتربوية وغيرها من الموضوعات التي تضمنها. ومن النادر قيام البحاثة والمؤلفين السياسيين - قبل هذا الوقت - بوضع كتاب؛ يتضمن مواضيع شتى، تتناول التاريخ والسياسة والاجتماع والتربية.

ضم الكتاب عدداً من أبحاث زاهية قدوره البارزة التي تنشر للمرة الأولى في كتاب، كما ضم غيرها التي سبق ونشرت في منشورات مختلفة، وتعتبر جميعها من الأبحاث التي وضعت في فترة خصبة من انتاج زاهية قدوره تربوياً وفكرياً وتاريخياً. والسبب أن الفترة التي تلت صدور الكتاب، اعتبرت فترة قليلة الإنتاج الفكري عند زاهية قدوره؛ بالرغم من عشرات المحاضرات التي كانت تلقيها، والمؤتمرات التاريخية والمهرجانات الفكرية والثقافية، التي كانت تشارك فيها. بالإضافة إلى الكلمات المختلفة التي وضعت كمقدمات لبعض الكتب، أو للتعريف بهذا المحاضر أو تقديم ذاك. وبالرغم من ذلك إتصفت بقلة إنتاجها في هذه الفترة، بالنسبة لباحث اشتهر بكثرة مؤلفاته، وبغزارة عطائه التربوي والأكاديمي والفكري والثقافي، التي كان عليه حالها خلال فترة طويلة من الوقت، عرفت بأنه كان لها في كل عام أكثر من بحث ودراسة، أو محاضرة، أو مداخلة لواحد من المؤتمرات المتعددة التي شاركت فيها، والتي كانت تحرص على تلبية دعواتها جميعها[١٣٣].

وتجدر الإشارة تجاه هذا الكتاب إلى أنه لن يتم الوقوف عند الدراسات والأبحاث التي ضمها بين دفتيه، لأنه تم توزيع عناوينها عند وضع خطة هذا المؤلف على المناحي الثلاث، التي دارت عليها حياة زاهية قدوره وهي: التربوية - الثقافية والسياسية والاجتماعية.

هوامش الفصل الثالث

١- يفريموفا، نتاليا وسلوم، توفيق: معجم العلوم الاجتماعية. ص ٢٥٦.
٢- ابن منظور: لسان العرب. مج ٩، ص ١٩ ــ ٢٠، مادة [ثقف].
٣

- ٢٤٥□ .٢٤٧

٤- ابن منظور: لسان العرب. ج ٩ ، ص ١٩ مادة [ثقف]. يقال: ورجل ثَقْفٌ وثَقِفٌ وثَقُفٌ حاذقٌ فَهِمٌ.
٥- حوار مع محمد عابد الجابري. ملحق جريدة النهار. بيروت. ٢٦/ ٤/ ١٩٩٧. ص٣.
٦- مقدمـة التقرير السنوي الموضوع لكلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية للعام ٧١-١٩٧٢ .
٧- عساف، ساسين: ثقافة المواجهة، شرق أوسط جديد أم صهيونية جديدة. ص ١٥١.
٨- عساف، ساسين: المرجع نفسه . ص ١٢٩ .
٩- جريدة الاثنين. القاهرة ٢٢/ ١٠/ ١٩٥١.
١٠- قدوره، زاهية: رحلة العمر. ص ٦٥.
١١- ذكرت زاهية قدوره في بعض الجلسات معها، أن الفضل في تنمية ثقافتها وتطورها وتنوع معارفها وعلومها يعود للقراءات المختلفة التي كانت تقوم بها، خاصة في اللغة الإنكليزية التي كانت تقرأ فيها جميع ما كان يقع تحت يديها منها ككتب الأدب الإنكليزي والشعراء الإنكليز. فأعجبت بأفكار ديفيد هيوم وبرتراند راسل وغيرهما. وكانت تقول، أن الأساس في ثقافتها يعود في كثير منها إلى تعاليم وأفكار الدكتورين قسطنطين زريق وأسد رستم، اللذين درّساها في الجامعة الأميركية في بيروت، كما تأثرت بآراء بعض المفكرين النهضويين والمفكرين والمثقفين العرب، أمثال الدكتور طه حسين ومحمود العقاد وحسين باشا هيكل وغيرهم. ومن المفيد ذكره أنه يوجد في أرشيفها بعض الأبحاث المخطوطة باللغة الإنكليزية، التي كانت تنوي العمل على تنقيحها وطبعها في كتاب، قبل وفاتها في العام ٢٠٠٢.
١٢- جريدة بيروت المساء. بيروت ٢١ /٧/ ١٩٤٧ .
١٣- المرجع نفسه.
١٤- مجلة صوت المرأة. بيروت. أيلول / سبتمبر ١٩٤٧.
١٥- المرجع نفسه.
١٦- الدخيل، سعيد فايز: موسوعة فقه عائشة أم المؤمنين. حياتها وفقهها. ص١٩ وما بعدها.
١٧- قدوره، زاهية: عائشة أم المؤمنين . ص ٨ .
١٨- المرجع نفسه.
١٩- غليون، برهان: « مفهوم التطور التاريخي ونهاية الفلسفة التاريخية الحديثة «. مجلة الفكر العربي. العدد ٧٨/٢. ص ١٠٣-١٠٤.
٢٠- جريدة الاثنين. مصر. ٥/ ٩ / ١٩٤٩ .
٢١- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٤/ ١/ ١٩٩٥ (أذن بالإشارة إليه) .
٢٢- قدوره، زاهية: « المرأة في حياة الرسول» . المجلة العربية. الرياض. المملكة العربية السعودية.

تموز / يوليو ١٩٧٧.
٢٣- قدوره، زاهية: عائشة أم المؤمنين. ص ٨٢ - ٨٣.
٢٤- قدوره، زاهية: حقوق المرأة في الإسلام، الإسلام ومحاورة أهل الكتاب. وهما من الأبحاث التي تمت بصلة قريبة إلى الكتاب موضوع البحث، وتأثيراً بمضمونه إلى حد بعيد. نشر الأول في الجزء الأول من كتاب تنظيم الأسرة عام ١٩٧٣، وترجم إلى الإنكليزية سنة ١٩٧٤. ونشر في مجلة الفكر الإسلامي الصادرة عن دار الفتوى في الجمهورية اللبنانية في شهر أيار/مايو١٩٧٥. ثم نشرا في كتيب بعنوان: «أبحاث في العروبة والإسلام »٢٠٠٠. صدر عن دار النهضة العربية في بيروت، عام ٢٠٠٠.
٢٥- ذكرت زاهية قدوره في مقابلة معها بتاريخ ٣٠/ ١/ ١٩٩٥ أنه في أحد الأيام، طلب منها مقابلة مسؤول كبير في الدولة (وصرحت لنا فيما بعد أنه كان رئيس الجمهورية كميل شمعون) الذي ما أن ذهبت إليه، حتى راح يستوضح منها حقيقة مواقفها وتعاليمها. لما وقف منها على صدق توجهاتها وإيمانها القوي بدينها ومعتقدها، أقرها عليها وبارك خطواتها، وطلب منها العمل بحقيقة ما كانت تؤمن به من حق وعدل ومساواة (أذن بالإشارة إليه).
٢٦- لمزيد من التوسع يراجع): H.H. Schaeder : Das Individium in Islam; in : tologie
der Person IV , S. ١٩٢٩ , (٩٥٥ – ٩١٣)
٢٧- قدوره، زاهية: رحلة العمر. ص ٩٣ - ٩٥.
٢٨- جريدة اللواء. بيروت. ١٩٨٧/٣/٧.
٢٩- مجلة المرأة. القاهرة. أيلول / سبتمبر ١٩٤٧ .
٣٠- جريدة بيروت المساء. بيروت. ١٩٤٧/٧/٢١.
٣١- بعلبكي، محمد: « آنسة لبنانية تضع أول كتاب عن عائشة أم المؤمنين «. مجلة كل شيء. بيروت. ١٧ /٧/ ١٩٤٧ (تمت الاستعانة بها من أرشيف زاهية قدوره) كان محمد البعلبكي نقيب الصحافة اللبنانية حالياً، من الأصدقاء المقربين من زاهية قدوره بحكم الظروف التي جمعت بينهما في أثناء مرحلة الدراسة الجامعية في مصر، في أواخر العقد الرابع من القرن الماضي. واستمرت هذه العلاقة حتى اللحظات الأخيرة من حياتها.
٣٢- المرجع نفسه.
٣٣- العجلان، محمد كامل: « قراءة لكتاب عائشة أم المؤمنين «. جريدة الأساس. القاهرة. آب / أغسطس ١٩٤٧.
٣٤- المرجع نفسه.
٣٥- المرجع نفسه.
٣٦- جريدة بيروت. بيروت. ١٥ /٨/ ١٩٤٧، وجريدة الأخبار. العراق. ١٩٤٨/١/٥.
٣٧- مجلة الاتحاد النسائي العراقي. بغداد. آذار / مارس ١٩٥٠.
٣٨- مجلة الأحد. القاهرة. نيسان / أبريل١٩٥١ .
٣٩- المرجع نفسه
٤٠- جريدة الأنباء. بيروت. ١٤ /٩/ ١٩٥١ .

٤١- جفّال، خليل: الشعوبية والأدب. ص١٦- ١٧.

٤٢- المسعودي: مروج الذهب.ج ٢ . ص ٥٣-٥٤ .

٤٣- * **الخوارج** : كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً.
وهم فرق تبلغ العشرين. كانوا من أشياع علي بن أبي طالب، ثم خرجوا عليه بعد التحكيم. قالوا بصحة خلافة أبي بكر وعثمان في سنيه الأولى، وعليّ إلى أن حكم الحكمين. ينظر الشهرستاني: الملل والنحل.ج١. ص١١٤، والبغدادي: الفرق بين الفرق. ص٢٤. وحسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام. ج ٢. ص ٣.

* **المرجئة**: صنف آخر تكلموا في الإيمان والعمل، إلا أنهم وافقوا الخوارج في بعض المسائل التي تتعلق بالإمامة؛ وخالفوهم في مسائل أخرى، وخاصة في تكفيرهم للخلفاء عثمان وعلي ومعاوية، وأنصارهم. والمرجئة أربعة أصناف: مرجئة الخوارج ومرجئة القدرية ومرجئة الجبرية والمرجئة الخالصة. يراجع الشهرستاني:الملل والنحل. ج ص ١١٤ وص ١٣٩، وحسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام. ج ٢. ص ٣.

* **المعتزلة** : ويسمون أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية والعدلية. نشأت المعتزلة أيام الحسن البصري حين وقع خلاف بينه وبين واصل بن عطاء الغزال في القدر والمنزلة بين المنزلتين، وأنضم إليه عمرو بن عبيد فطردهما الحسن من مجلسه، فأعتزلا إلى سارية من سواري مسجد البصرة؛ فقيل لهما ولأتباعهما «معتزلة». وقد سموا القدرية لأنهم يقولون بحرية إرادة الإنسان. وتتكون عقيدة القدرية من خمسة أصول:التوحيد، والعدل، والوعيد، بالإضافة إلى القول بالمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يراجع البغدادي: الفرق بين الفرق. ص ٢٠- ٢١، والشهرستاني: الملل والنحل.ج ١. ص٤٣، وحسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام. ج ٢. ص ٣.

٤٤- أمين، أحمد: ضحى الإسلام. ج ١. ص ٥٦ _ ٥٧.

٤٥- لواساني، أحمد: نظرات جديدة في الأدب. فصل الشيعة. وجفال،خليل: الشعوبية والأدب. ص ١٧.

٤٦- قدوره، زاهية: الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول. ص ٩ .

٤٧- حتي فيليب، وجرجي، إدوار وجبور، جبرائيل: تاريخ العرب ص ٣٧٣-٣٧٤.

٤٨- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٩٩٥/٢/١٨ (أذن بالإشارة إليه) .

٤٩- بعدما أبدى قادة العرب والمسلمين شكهم في إخلاص جمعية الاتحاد والترقي، وذلك لسببين جوهريين:" أولاً، لأن قادة الجمعية وزعماؤها كانوا جميعاً، وبدون استثناء، من البنائين الأحرار (Freemasons) والتعصب الديني يتعارض مع مبادئهم". وثانياً، لأن يهود سالونيكا كانوا جزءاً لا يتجزأ من جمعية الاتحاد والترقي. فقد كتب ستون وتسون (Watson–Seton) يقول: إن الحقيقة البارزة في تكوين جمعية الاتحاد والترقي أنها غير تركية وغير إسلامية.فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركي صاف. فأنور باشا مثلاً هو ابن رجل بولندي مرتد. وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة ب"دونمه" (Dunmeh) وكراسو (Carasso) من اليهود الإسبان القاطنين في مدينة سالونيكا. وكان طلعت باشا بلغارياً من أصل غجري اعتنق الإسلام ديناً. أما أحمد رضا، أحد زعمائهم في تلك الفترة، فكان نصفه شركسياً

والنصف الآخر مجرياً إلى جانب كونه من أتباع مدرسة كونت الفلسفية.
هذه المخاوف والمحاذير التي كان الزعماء العرب يبدونها نحو جمعية الاتحاد والترقي أصبحت أمراً واقعاً، وذلك بعد أن ظهرت القومية التركية المغتصبة على حقيقتها وراحت تتحدى الكرامة العربية في أعز ما لديها من دين ولغة. وفي الحقيقة إن ظهور القومية التركية بهذا المظهر هيأ التربة الصالحة لبذور الحركة العربية الانفصالية كي تنمو وتترعرع، بدءاً من ١٩٠٩. وهذا ما أصبح يعرف ب" الاتحاد الطوراني" (Turanianism Pan -). وهو حركة تهدف إلى توثيق الروابط بين جميع الشعوب التي تتكلم التركية على نمط الحركة السلافية الاتحادية(Salvis– Pan).يعتقد أن الطورانية كفكرة مستمدة من كتاب لعالم فرنسي يدعى Léon Cahun، وردت في كتاب عن الطوارانيين أنهم كانوا فيما مضى من الزمن شعباً ذكياً ممتازاً، لكنه أخذ بالتقهقر والانحلال عندما تخلى عن الخصائص التي كان يتميز بها في صحاري آسيا الوسطى، واعتنقوا الإسلام ديناً وحضارة. ويقال أن الدكتور ناظم، وكان عضواً بارزاً في " جمعية الاتحاد والترقي "، اعتنق الطورانية مذهباً بعد إطلاعه على هذا الكتاب الذي أعاره إياه القنصل الفرنسي العام في سالونيكا. يراجع زين، زين نور الدين: نشوء القومية العربية. ص ٨٦ _ ٨٧ وص ٢٠٨.

٥٠- قدوره، زاهية: المرجع السابق. ص ٦ .

٥١- حتي، فيليب وجرجي، إدوارد وجبور، جبرائيل: المرجع السابق . ص ٢٩٦-٢٩٧ .

٥٢- جفّال، خليل: المرجع نفسه. ص ٢٥-٥٣ .

٥٣- أنطونيوس، جورج: يقظة العرب. ص١٩.

٥٤- حتي، فيليب وجرجي، إدوارد وجبور، جبرائيل: المرجع نفسه. ص ٨٥٥ .

٥٥- الحصري، أبو خلدون ساطع : ما هي القومية ؟ ص ٢٠٧-٢٠٨ .

٥٦- جريدة الأنباء. بيروت. ١٤ /٩/ ١٩٥١ .

٥٧- قدوره، زاهية: المرجع السابق. ص ٦ .

٥٨- المرجع نفسه . ص ١٢- ١٣ .

٥٩- جفّال، خليل: المرجع نفسه. ص ٤١٠-٤١١ .

٦٠- قدوره، زاهية: المرجع السابق. ص ١٠.

٦١- المرجع نفسه.

٦٢- عرفت كلمة الزندقة واشتهرت في العصر العباسي الأول، وهي من الموضوعات التي أحاط بها الكثير من الأسرار والغموض ويعود ذلك لعدة أسباب، منها التحويل والتغيير في آثارهم والذي قام به خصوم الزنادقة في فترات مختلفة،ومنها أيضا أن بعض الغيارى قد أتلفوا كل ما كان يتعلق بالزندقة حتى لا تقع تلك الآثار بين العامة والخاصة من المسلمين وتعم بينهم هذه الظاهرة من المجون والخلاعة. كان أشد الثورات بأساً وأكثرها خطراً في العصرالعباسي الأول، تلك الثورات التي أذكى نيرانها الزنادقة، الذين تبعد تعاليمهم عن تعاليم الإسلام وعقائده، وتقوم على أنواع من الديموقراطية الفاسدة التي تبيح المحرمات وتعبث بالآداب الاجتماعية، وتعرض الحياة السياسية والاجتماعية للخطر. وللزندقة عدة معان تختلف بإختلاف العصور: فقد كان العرب يطلقون لفظ "زنديق" على من ينفي وجود الله سبحانه، أو يقول إن له شريكاً. وقيل: إن الزنديق من يبطن الكفر

ويظهر الإيمان. وكان لفظ زنديق يطلق أول الأمر على كل من يتأثر بالفرس في عاداتهم ويسرف في العبث والمجون، ثم صار يطلق بعد ذلك على كل من يتخذ عقائد المانوية شعاراً له، ويتمسك بعقيدة الثنوية، وعبادة إلهين اثنين، وإتباع تعاليم ماني. ثم توسعوا في العصر العباسي في إطلاق لفظ الزندقة، فأصبح يطلق على من ينكر الألوهية، أو يتظاهر بالظرف. وحددت الدكتورة قدوره الكلمة بأنها كانت: " تطلق في بادئ الأمر على الذين يعتنقون مذهب المانوية. ثم اتسع معناها حتى شمل كل صاحب بدعة وكل ملحد، وأطلقت أخيراً على كل من يحيا حياة ماجنة من الشعراء والكتاب". وقسمت الزنادقة إلى ثلاث فئات : فئة عرفت بالمنانيين في الإسلام، وفئة دعيت بالمتكلمين، والفئة الثالثة اشتهرت بأنها طائفة الأدباء الماجنين من كتاب وشعراء. يراجع حسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه. ج ٢. ص١١٤ – ١١٥، وقدوره، زاهية:بعض الأوراق المتناثرة والمخطوطة المتواجدة بوفرة في مكتبتها وأرشيفها.

٦٣- قدوره، زاهية: المرجع نفسه. ص١٢- ١٣ .

٦٤- بدأت بوادر التفتت والتفكك تنخر في كيان الدولة العباسية عندما استعان الخلفاء بعناصر غير عربية، مثل الفرس الذين كان لهم دور كبير في قيام الدولة العباسية في البداية، والأتراك الذين استعان بهم العباسيون منذ عهد الخليفة المعتصم حتى كان منهم الوزراء والقواد والولاة، واستغلت هذه العناصر ضعف الخلافة العباسية، فاستقل كل منهم بما كان تحت يده من أقاليم، وأقام فيه دولة إسلامية مستقلة، وأصبح الخليفة العباسي مجرد سلطة شرعية ورمزاً للدولة الإسلامية من دون أن يكون له سلطان حقيقي. يراجع حسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه. ج ٢. ص ٨٧ – ٨٨.

٦٥- قدوره، زاهية: المرجع السابق . ص ٢٧- ١٢٦، وجقّال، خليل: المرجع نفسه . ص ٢٣ - ٨٤ .

٦٦- **الأمين (١٩٣ – ١٩٨هـ/ ٨٠٨ – ٨١٣ م):**

هو أبو عبد الله محمد الأمين ولد في سنة١٧٠ هـ وتوفي في سنة ١٩٨هـ. كانت ولادته في السنة التي نصب فيها والده هارون الرشيد .هو أصغر من أخيه المأمون بستة أشهر. أمه أم جعفر زبيدة ابنة جعفر بن المنصور، وهي من بني هاشم. فور وفاة والده في طوس، احضرت إليه بردة الخلافة، بالإضافة إلى القضيب وخاتم الخليفة. كان عهده مليئاً بالفتن والاضطرابات من جراء الصراع بينه وبين أخيه المأمون، الذي دفع حياته ثمناً له. قتل الأمين بعد أن جلس على العرش لمدةأربع سنين وثمانيةأشهر وخمسة أيام. عمت في عهده الفتنة الهوجاء التي فرقت بين المسلمين،وأضعفت قوتهم وقوضت كثيراً من معالم مدينة بغداد حاضرة العباسيين، وكعبة العلوم والآداب، ومركز التجارة، وحاضرة الإسلام. يراجع: حسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه. الجزء الثاني. ص٦٣ - ٦٥.

٦٧- **المأمون (١٧٠ – ٢١٨ هـ/ ٧٨٦ - ٨٣٣ م.)**

هو عبد الله بن هارون الرشيد، الخليفة العباسي السابع (١٩٨هـ/٨١٣م) من كبار الخلفاء العباسيين. امه جارية فارسية. قتل أخاه الأمين وخلفه. عني بالآداب والعلوم، وأنشأ « بيت الحكمة «في بغداد، فازدهرت في عهده حركة الترجمة والنقل. ناصر المعتزلة. امتحن الناس في خلق

القرآن، فعرف هذا الامتحان « بالمِحنة «. خلعه أخوه المعتصم. راجع: المنجد في اللغة والإعلام. ص ٥١٦.

٦٨- يذكر فيليب حتي: أن منصب الوزارة هو منصب فارسي في الأصل. يراجع: تاريخ لبنان. ص ٣٨٦ . وذكرت بعض المراجع الأخرى أن منصب الوزارة لم يظهر رسمياً إلا في زمن العباسيين، حيث اتخذ الخلفاء وزراءهم من الفرس، الذين زاد نفوذهم في العصر العباسي الثاني مما أضعف من هيبة الخلفاء.

٦٩- للمزيد حول هذا الموضوع، يراجع حسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه. الجزء الثاني. ص ٦٣ – ٨٤.

٧٠- **زرادشت** Zarathushtra (توفي نحو ٥٨٣ ق.م.) نبي الفرس الأقدمين ومصلح ديانتهم الأولى. من أتباعه الأخمينيون والساسانيون . يراجع: المنجد في اللغة والأعلام. ص ٢٧٨.

٧١- **الخرساني (أبو مسلم) (ت ١٣٧ هـ/ ٧٥٠ م)**

من أعظم دعاة العباسيين وقادتهم. احتل مرو ودخل الكوفة في سنة ٧٤٩م. خشي أمره المنصور فقتله. يراجع: ابن خلكان: وفيات الأعيان. مج ٣. ص ١٤٥، والمنجد في اللغة والأعلام. ص ٢١ .

٧٢- عرف أتباع هذه الفرقة بالخرامية تيمنا باسم خرما زوجة أحد أشهر مؤسسيها وهو مزدك الخرمي، وقد قامت خرما هذه بنشر عقيدة هذه الفرقة والدعوة لها بعد مقتل زوجها. يراجع الدكتور حسن، إبراهيم حسن: المرجع نفسه. ج٢. ص ١٠٨.

٧٣- قيل أن نسبهم يعود لمدينة راوند القريبة من أصفهان، وهي مركز انطلاق دعواهم التي قامت بعد مقتل أبي مسلم الخرساني وقد اشتهروا بتقديس ملوكهم ورفعهم إلى مصاف الآلهة. كانوا يغالون في ديانتهم، وزعموا بانتقال الروح من شخص إلى آخر. قاتلهم المنصور ليكسر شوكتهم بعد دعوه بأنه هو الله، ولخروجهم أيضاً على الدين والدولة. ثاروا عليه يبغون قتله، فأنجده معن بن زائدة الشيباني. ويبدو أن سبب الحرب التي شنها المنصور على أتباع الراوندية تعود إلى أنهم كانوا يشكلون النواة الأساسية لأعدائه السياسيين، وفي مقدمتهم أبو مسلم الخرساني، كما كانوا يعملون على انتقال الخلافة إلى ملك كسرى، كما كان ينظر إليهم أنهم زنادقة، يعملون على عودة المجوسية، كالزرادشتية أو المانوية أو المزدكية إلا أنه لم يتمكن من القضاء عليهم، إذ عادوا بعد هذه الحرب التي شنها عليهم المنصور، إلى الظهور بصور مختلفة، تمثلت في ثورات المقفع الخراساني وبابك الخرمي، وغيرهما. يراجع حسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه. ج ٢. ص ١٠٤- ١٠٥ .

٧٤- **المنصور : أبو جعفر عبد الله (ت ١٥٨ هـ/ ٧٧٥ م)**

هو الخليفة العباسي الثاني. خلف أخاه السفاح ١٣٦ هـ/ ٧٥٤ م. قتل قائده أبا مسلم الخرساني. أخضع العلويين، وقضى على ثورة محمد النفس الزكية في المدينة وثورة ابراهيم أخي محمد في الكوفة. قمع فتنة المقنع في فارس. بنى بغداد في سنة ٧٦٢هـ ودعاها مدينة السلام، وجعلها عاصمته. نظم إدارة الدولة والمالية والبريد. توفي محرمًا بالحج. يراجع: السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص ٢٥٩، والمنجد في اللغة والأعلام. ص ٥٤٩.

٧٥- حسن، إبراهيم حسن: المرجع نفسه. ج ٢. الصفحة من ٩٤ إلى ١٠٤ .

٧٦- قدوره، زاهية: المرجع السابق. ص ٣٢٨ .

٧٧- **المعتصم بالله (محمد بن هارون الرشيد):**

هو الخليفة العباسي الثامن (٢١٨ – ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ – ٨٤٢ م) خلف أخاه المأمون. استعان بالجنود الأتراك لتوطيد قوة حكمه. قضى قائده الأفشين على بابك في أذربيجان. هزم البيزنطيين وتابع ما بدأ به المأمون من امتحان الناس في خلق القرآن (المحنة). يراجع السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص٣٣٣ .

٧٨-المدينة التي تشير إليها في هذا المقام عرفت باسم "**سر من رأى**» واشتهرت في كتب التاريخ بمدينة "**سامراء**» وهي في العراق، تقع على ضفة دجلة اليمنى شمالي بغداد.

وهي اليوم مركز قضاء بمحافظة صلاح الدين. عدد سكانها هو ٤٥٠٠٠ نسمة. بناها المعتصم سنة ٨٣٦ م. وأتخذها عاصمة له ومسكناً لجنوده الأتراك، وأسماها "سر من رأى". وبلغت أوج إزدهارها في عهد المتوكل. بدأت بالإنحطاط بعد أن أعاد المعتمد العاصمة إلى بغداد في سنة ٨٩٢ م.بنى فيها سـدا لتخزين فيضان مياه نهر دجلة في منخفض الثرثار. من آثارها قصر المتوكل والمنارة الملوية وضريحا الإمامين علي الهادي وولده حسن العسكري. يراجع قدوره، زاهية: المرجع السابق . ص ٣٢٩، والمنجد في اللغة والأعلام. ص٢٨٧ – ٢٨٨ .

٨٠- **ابن الربيع (الفضل) (ت ٢٠٨هـ / ٨٢٤ م):**

هو حاجب المنصور العباسي. تولى الوزارة في عهد هارون الرشيد بعد قضائه على البرامكة. ثم عينه الأمين في الوزارة، عمل على مقاومة المأمون، ولكن هذا الأخير كان له بالمرصاد عندما اعتلى منصب الخلافة، وبعد انتهاء الفتنة بين الأمين والمأمون، أبعده عن مركز الوزارة. يراجع الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب. ص ١٢٢و١٢٦، والمنجد في اللغة والأعلام. ص ٤١٥ .

٨١- **ابن سهل (الفضل) (ت ٢٠٢ هـ / ٨١٨ م) :**

هو وزير المأمون. من أولاد ملوك الفرس، كان أبوه مجوسياً من ذوي اليسـار. أسلم في عهد هارون الرشيد. اتصل هو وابنه الفضل بيحي بن خالد البرمكي الذي اتخذه الفضل قهرماناً له (أي رئيساً للخدم). اتخذه الرشيد ليكون في خدمة ابنه المأمون. ويقال إن الفضل بن سهل لما رأى نجابة المأمون في صباه ونظر في طالعه، وكان خبيراً بعلم النجوم التي دلته على أن المأمون سوف يصبح خليفة المسلمين، فبذل جهده في خدمته، وأخلص له، حتى عينه وزيره الأول. عرف بذي الرياستين، أي السيف والقلم. ودعي ودعي بالوزير الأمين. عرف بسخائه وكرمه. تعصب للفرس، وعمل على أن تكون السيادة لهم.وقد مثل العنصر الفارسي في الفتنة بين الأمين والمأمون، فكان خصماً لدوداً للفضل بن سهل واعتقد بأحقية العلويين بالخلافة.ولما تفاقم أمره،خشي منه المأمون،فأشار باغتياله وهو في الحمام.يراجع: الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب. ص ١٤٧، وحسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه. ج٢. ص١٧٣ – ١٧٥ .

٨٢-قدوره، زاهية: الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول . ص ٣٣٠ . وجفّال، خليل: المرجع نفسه. ص ٤١١ .

٨٣- نسبة إلى زرادشت نبي الفرس الأقدمين ومصلح ديانتهم القديمة.

٨٤- **المانوية:**

أسس هذا المذهب المدعو ماني، وهو القائل بمبدأين: الخير والشر، النور والظلام. وإليه يرجع اليزيدية. أدخل على التصوير الفارسي الأسلوب الصيني،ورسم الملائكة والشياطين.أعدمه بهرام الأول بتحريض من الكهنة المزديين نحو سنة ٢٧٧. يراجع الشهرستاني: الملل والنحل. ج١.ص٢٤٤ .

٨٥- **المزدكية:**

نسبة إلى مزدك، وهو داع فارسي، ظهر في أواخر القرن الخامس الهجري. دعا إلى إصلاح ديني وثورة اجتماعية. بشـر باشتراكية الأموال والنساء. انتشرت دعوته في عهد قباد الأول، ونتج عنها اضطرابات وفتن في نحو سنة ٥٢٩ فأعدمه كسرى أنو شروان وأعاد الزرادشتية. مذهبه المزدكية المخالفة للمزدية التي أصلحها زرادشت. يراجع الشهرستاني:الملل والنحل. ج١.

٨٦- **الخرمية:**

تنسب الخرمية إلى بابك الخرمي، وهي طائفة من الطوائف الكثيرة التي ظهرت في بلاد فارس. أسسها مزدك في أيام قباد أبي كسرى الأول المعروف بأنو شروان. نشأت من طائفة الخرمية المزدكية طائفة الخرمية البابكية التي تنسب إلى بابك، الذي إدعى الألوهية، وعكر صفو الدولة العباسية في أيام المأمون، وتفاقم أمره حتى أيام المعتصم. يراجع حسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه. ج٢. ص ١٠٨ .

٨٧- أمين ، أحمد: ضحى الإسلام . ج ١ . ص ٥٠ – ٨٠ .

٨٨- حسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه . ج ٢. ص ٩٥ وما بعدها .

٨٩- تعتبر اللغات والفيلولوجيا (فقه اللغة) وعلم قراءة الخطوط والوثائق والجغرافيا والاقتصاد والآداب... كلها من العلوم المساعدة لدراسة التاريخ. ويلاحظ أن العلوم المساعدة تختلف وتتفاوت – بالنسبة لدارس التاريخ – باختلاف العصر أو الناحية التي يرغب في دراستها والكتابة عنها. فالعلوم المساعدة اللازمة لدراسة تاريخ اليونان القديم تختلف عن العلوم المساعدة الضرورية لدراسة تاريخ عصر النهضة أو تاريخ الثورة الفرنسية... يراجع عثمان، حسن: منهج البحث التاريخ. ص٢٥ .

٩٠- قدوره، زاهية: الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول. ص ٣٢٨ .

٩١- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٢٥ /٢/ ١٩٩٥ (أذن بالإشارة إليه).

٩٢- **الطاهرية (الدولة) :**

سلالة حكمت في خراسان ٢٠٥ – ٢٥٩ هـ/ ٨٢٠ – ٨٧٢ م. أسسها طاهر بن الحسين من قواد المأمون العباسي. قضى على ثورة الخوارج واستقل بالحكم. اغتيل في سنة ٨٢٢. خلفه ولداه طلحة ثم عبد الله. قضت عليها الدولة الصفارية. يراجع : المنجد في اللغة والأعلام. ص٣٥٤ .

٩٣- **الصفارية (الدولة) :**

سلالة حكمت في خراسان ٢٥٤ - ٢٨٩ هـ/ ٨٦٨ – ٩٠٢ م. أسسها على أنقاض الدولـة الطاهرية يعقوب بن الليث الصفار. هـاجم بغداد فهزمه المعتمد بقيادة أخيه الموفق في دير العاقول في ٢٦٢هـ / ٨٧٦ م. خلفه أخوه عمر بن الليث سنة ٨٧٩، ونال رضى المعتمد والمعتضد. أسره إسماعيل بن أحمد الساماني وسلمه للمعتضد الذي قتله. يراجع المنجد في اللغة والأعلام . ص٣٤٦ .

٩٤- يوجد في مكتبة زاهية قدورة أكثر من طبعة لهذا الكتاب. وفي الغالب أن يكون صدر في طبعة أولى عام ١٩٦٨- ١٩٦٩، ثم صدر في طبعات متوالية خلال الأعوام ١٩٧٢و١٩٧٣و١٩٧٥و١٩٨٥. وكانت تريد إدخال بعض الإضافات والتعديلات عليه ليصدر في طبعة جديدة. والجدير بالذكر أنها قد أهدت الطبعة الأولى إلى روح والديها، والطبعات الأخرى إلى روح جمال عبد الناصر، وقالت في الاهداء إليه: «إلى ذكرى بطل العروبة الخالد جمال عبد الناصر». قدوره، زاهية: تاريخ العرب الحديث.

٩٥- قزي، وليد: « فكرة الوحدة العربية في مطلع القرن العشرين «. مجلة المستقبل العربي. العدد الرابع. تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٨. ص٢٠-٢٦. وهي دراسة عن القومية العربية وقضية الوحدة العربية. تطرق الكاتب في أثناء عرضه للموضوع؛ للثورة العربية في الحجاز.

٩٦- قدوره، زاهية: تاريخ العرب الحديث. ص٣. المقدمة.

٩٧- المرجع نفسه. ص ٣. المقدمة.

٩٨- جريدة اللواء. بيروت. ١٩ /٦/ ١٩٧٠.

٩٩- في أثناء التفتيش والتقميش في مقتنياتها وأوراقها، والبحث عن مؤلفاتها دفعت إلينا بنسخة من كتاب « تاريخ العرب الحديث « حيث تبين من خلالها أنها كانت تقوم بكتابة كثير من التعديلات على صفحاته، إن لم يكن فيها جميعها، وقالت إنها تأمل من ذلك أن يزيد من قيمة الكتاب ومن أهميته للمكتبة العربية ولجمهرة الباحثين والدارسين تاريخ البلاد العربية الحديث.

١٠٠- منها إتفاقية " سايكس – بيكو " (Sykes - Picot) التي رسمت الخطة لاقتسام الإمبراطورية العثمانية في المستقبل. نصت الإتفاقية على أن تقام في فلسطين إدارة دولية، وعلى أن يكون الجزء الساحلي الواقع إلى الشمال حتى خط ممتد على محاذاة دمشق وحمص وحلب منطقة نفوذ فرنسي، كما نصت على أن يكون العراق من نصيب بريطانية. يراجع بركلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية. ص ٧٤٦.

١٠١- قدوره، زاهية : تاريخ العرب الحديث . ص ٧٩ .

١٠٢- المرجع نفسه. ص٥.

١٠٣- في العديد من الجلسات واللقاءات التي عقدتها مع الدكتورة قدوره، في أثناء الإعداد لهذه الأطروحة، كنت أتطرق بالحديث معها عن الدول العربية، فكانت الدكتورة تهب على الفور لتصحح لي القول، بأن اسمها الوطن العربي، وليس أي تسمية أخرى.

١٠٤- قيل أن كلمة شبه الجزيرة العربية، كانت تعني لسنوات خلت منطقة المملكة العربية السعودية تحديداً، من دون الإشارة إلى ذكر الممالك والإمارات والمشيخات أو المحميات الأخرى التي كانت تعتبر أجزاء من المملكة. أما في الوقت الحاضر فإن التسمية الصحيحة لهذه المنطقة فهي المملكة العربية السعودية، وسميت بقية الدول والأقطار المحيطة بها أو تلك التي تجمع بينهما حدود مشتركة؛ بأسمائها المعروفة بها اليوم. وبذلك تكون قد انتفت من التداول كلمة شبه الجزيرة العربية.

١٠٥- لمزيد من الإطلاع على النقص الذي شاب تدوين تاريخ العرب قبل ظهور الدعوة الإسلامية يراجع زيدان، جرجي: العرب قبل الإسلام . مقدمة المؤلف . ص ٧ - ١٤.

١٠٦- للتوسع يراجع العقاد، صلاح: جزيرة العرب في العصر الحديث. من دون تحديد لرقم الصفحة.

١٠٧- هو الكتاب الرابع في سلسلة كتب ومؤلفات زاهية قدوره المنشورة، والتي يدرس بعضها في عدد من الجامعات، كالجامعة اللبنانية، وجامعة بيروت العربية، وفي بعض الدول العربية خارج لبنان.

١٠٨- مذهب إسلامي ذو نزعة سلفية يرمي إلى تخليص الشريعة من الشوائب. دعا إليه محمد بن عبد الوهاب. يستند إلى تعاليم ابن حنبل وابن تيمية. ساعد محمد بن سعود على انتشار حكمه في الجزيرة العربية. يراجع: المنجد في الأعلام واللغة. ص٦١٤.

١٠٩- العقاد، صلاح: المرجع نفسه. ص٣٨.

١١٠- **ابن سعود (عبد العزيز) (الملك) (١٣٤٠ – ١٤١٥هـ/ ١٨٨٠ – ١٩٥٣ م) :** مؤسس المملكة العربية السعودية. ولد في الرياض . استعاد الرياض من ابن رشيد عام ١٩٠٢، وانتزع مكة من الشريف حسين عام ١٩٢٤، واستقر له الحكم، فأسس المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢. يراجع: الحارثي، ساعد العرابي: الملك عبد العزيز رؤية عالمية. ص ١٣-٣١، وايف بيسون: ابن سعود، ملك الصحراء (تأسيس المملكة العربية السعودية). من دون تحديد رقم الصفحة.

١١١- قدوره، زاهية: شبه الجزيرة العربية. ص ٣١ إلى ٧٠.

١١٢- المرجع نفسه. ص ٩٧.

١١٣- الصليبي، كمال: التوراة جاءت من جزيرة العرب. ص ٢٨ وما بعدها.

١١٤- **ابن ماجد (أحمد)** (ت نحو ١٣٥٠) :
عالم أندلسي من الأئمة. اشتهر باختصار الكتب، وله شعر كله حكم. يراجع: المنجد في اللغة والإعلام. ص ١٣.

١١٥- راس الرجاء الصالح: رأس في أقاصي أفريقيا الجنوبية بالكاب. اكتشفه فاسكو دي غاما في سنة ١٤٩٧.

١١٦- قدوره، زاهية : تاريخ شبه الجزيرة العربية . ص ١١١ – ١٣٣ .

١١٧- من ضمن الأوراق المتناثرة في أرشيفها، واحدة خطّت عليها الدكتورة بخط يدها أن العرب في بعض عهودهم كانوا يطلقون على الخليج تسمية الخليج الفارسي، أو خليج العجم أو القطيف. وكتبت أن العثمانيين أطلقوا عليه اسم خليج البصرة.
وأشارت في ورقتها إلى أن إحدى الدول المجاورة، حاولت استغلال التسمية سياسياً، وأفصحت عن رغبتها بضم المناطق المجاورة لها، مما كان له أبلغ الأثر في نفوس الخليجيين، فعملوا على تثبيت تسميته بالخليج العربي. ووضعوا بذلك الأمور في نصابها. وأثبتت بهذا أن عروبة الخليج؛ حقيقة جغرافية وتاريخية ثابتة لا ينكرها إلا المكابرون.

١١٨- ورقة مخطوطة بيد زاهية قدوره، ذكرت فيها أن هذه المعلومات منقولة من مجلة المعلم الجديد العراقية. مج ٢١. ج ٤ و ٥. تموز- تشرين الأول / يوليو- نوفمبر ١٩٥٨. ص ١٥.

١١٩- قدوره، زاهية: تاريخ شبه الجزيرة العربية. ص ١٢٩.

١٢٠- المرجع نفسه . ص ٤٠٧ .

١٢١- الدباغ، مصطفى مراد: المرجع نفسه. ص ٢٢٤- ٢٢٥.

١٢٢- العريس، محمد: دراسة غير منشورة عن احتلال جزر الخليج العربي: طنب الصغرى، طنب الكبرى وجزيرة أبو موسى. بيروت ١٩٩٥.

١٢٣- الدباغ، مصطفى مراد : الجزيرة العربية. ص ٢٧٩ .

١٢٤- **ابن الوليد (خالد) (ت ٢١ هـ - ٦٤٢ م.) :**

خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي. كان من أشراف قريش في الجاهلية. أسلم قبل فتح مكة هو وعمرو بن العاص سنة ٥٧ هـ، فسر به الرسول (ص) وولاه الخيل. ولما ولي أبو بكر وجهه لقتال مسيلمة ومن أرتد من أعراب نجد. ثم سيره إلى العراق سنة ١٢ هـ، ففتح الحيرة وجانباً عظيماً منه،وحوله إلى الشام وجعله أمير من فيها من الأمراء. ولما ولي عمر عزله من قيادة الجيوش بالشام وولي أبا عبيدة بن الجراح، فلم يثن ذلك من عزمه، وأستمر يقاتل بين يدي أبي عبيدة إلى أن تم لهما الفتح. كان مظفراً خطيباً فصيحاً،روى له المحدثون ١٨ حديثاً.مات بحمص. يراجع العسقلاني،ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة. ج١. ص٤١٣، والزركلي: الأعلام. مج ٢. ص٣٠٠، وابن عساكر، علي بن الحسن: تهذيب تاريخ دمشق الكبير. ج٥. ص ٩٥ _ ١١٧ .

١٢٥- الدباغ، مصطفى مراد: المرجع نفسه. ص ٢٧٩، و أرزوني، خليل: الهجرة اللبنانية إلى الكويت ١٩١٥ _ ١٩٩٠.

١٢٦- **مدحت باشا (١٢٣٨ _ ١٣٠١ هـ - ١٨٢٢ _ ١٨٨٤م.) :**

مدحت باشا أو (أحمد باشا) أبن حاجي أشرف أفندي العثماني. ولد في اسطنبول، وكان أبوه قاضياً وسماه محمد شفيق و غلب عليه اسم «أحمد مدحت» ثم مدحت. تعلم العربية والفارسية، وتقلب في الوظائف حتى كان والياً على الدانوب (الطونة) وقضى على ثورات البلغار بشجاعة، ثم انتقل إلى الأستانة رئيساً لمجلس شورى الدولة. لم تتفق وجهة نظره في سياسة الدولة مع وجهة نظر السلطان عبد الحميد؛ فجرد من الوزارة وضُيّق عليه، فسافر إلى أوربا واستقر مدة في لندن، إلى أن صدر أمراً بتعيينه والياً على الشام. أتهم بالمشاركة في قتل السلطان عبد العزيز ؛ فنفي إلى قلعة الطائف في الحجاز، وقتل فيها بعد بضع سنوات. يراجع الزركلي: الأعلام. مج ٧. ص ١٩٥.

١٢٧- بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية. ص٧٤٦، وقدوره ، زاهية : تاريخ شبه الجزيرة العربية. ص ٤٩٣ .

١٢٨- قدوره، زاهية: المرجع نفسه. ص ٥٥٠ و ٥٢٦.

١٢٩- المرجع نفسه.

١٣٠- الدباغ، مصطفى مراد: المرجع نفسه. ص١٥٣-١٥٤.

١٣١- لمزيد من التوسع يراجع: العقاد، صلاح: جزيرة العرب في العصر الحديث. من دون تحديد لرقم الصفحات وندوة جزر الخليج العربي، أسباب النزاع ومتطلبات الحل. من دون تحديد لرقم الصفحات.

١٣٢- صدر كتاب بحوث عربية وإسلامية، في العام ١٩٨٤ في طبعته الأولى عن معهد الإنماء العربي.

١٣٣- كانت زاهية قدوره في فترة طويلة من حياتها في العمل السياسي والاجتماعي، تتلقى في اليوم الواحد أكثر من دعوة لحضور، أو للمشاركة أو لإلقاء مداخلة في مؤتمر يعقد هنا، وندوة تنعقد هناك، وتجمع يقام هنالك. وغالباً ما كانت الدكتورة تتخلف عن المشاركة في أي من هذه المناسبات.

الفصل الرابع

الدلائل التربوية والثقافية والاجتماعية

عند زاهية قدوره

المقدمـــة

تركت زاهية قدوره عدداً من الدراسات المخطوطة غير المنشورة، مثل: العرب منذ الجاهلية إلى آخر صدر الإسلام، والدولة العربية – الأموية والدولة العباسية، والدويلات الإسلامية، وقضايا حضارية عربية إسلامية، والمرأة في العصر العباسي، وتاريخ الحضارة العربية الإسلامية، والحرائر والجواري في العصر العباسي.

ووضعت ثلاثة أبحاث مخطوطة باللغة الإنكليزية غير منشورة أيضاً، وهي: The Arab Women وWomen In Islam و Arab Civilisation [١].

يتبين بعد تصفحها، أنها دراسات عن: المرأة العربية، والمرأة في الإسلام، والحضارة العربية. وهي ذات أسلوب منهجي ودراسي، متطور من حيث التأليف باللغة الإنكليزية، التي اتقنتها بطريقة جيدة منذ أن كانت طالبة، وتفوقت بها في الامتحان الذي خضعت له مع طالبات جمعية المقاصد.

كما وضعت عدداً من الأبحاث، التي تقدمت بها إلى المؤتمرات التاريخية والسياسية والتربوية - الثقافية والاجتماعية. ومجموعة من المحاضرات التي ألقتها في أماكن ومناسبات مختلفة؛ داخل لبنان وخارجه، وكمية من الكلمات المخطوطة، التي أدلت بها في مناسبات متفرقة. بالإضافة إلى الأوراق غير الرسمية، التي خطت عليها كلمات مختلفة، كانت تراودها في أوقات متفرقة.

بقي أغلب هذه العناوين مخزوناً في أرشيف زاهية قدوره ومكتبتها، ولم يُمط اللثام عنها إلا عندما بدأنا العمل بدراسة حياتها ومؤلفاتها، حيث تبينا مدى أهميتها الكبيرة، والقيم التربوية والثقافية والمعرفية التي كانت تتضمنها[٢].

في محاولة لتعميم المنهج الثقافي الذي سارت عليه زاهية قدوره، تم التركيز على إبراز الوجهة العلمية والموضوعية للأبحاث التي وضعتها في فترة مهمة من حياتها، وتناولت فيها مواضيع مثل: التاريخ في المرحلة القومية المعاصرة، وتاريخنا

وكيف نكتبه، والحقيقة التاريخية عند ابن خلدون. وحتى تكتمل حلقة التعريف بهذا النهج التاريخي الذي اتبعته؛ نشأت الغاية من التعرض للأفكار التي تأثرت فيها بابن خلدون، والتي مهدت لإنسياب الأثر الخلدوني في فكرها. فضلاً عن الإنطلاق في رحاب المنظومات الأكاديمية التي طرحتها لتطوير عملية التعليم العالي في لبنان. والمتعلقة بنظرتها إلى دور الجامعة في حياة الأمة. وظهر ذلك بالبحث الذي وضعته عن: التنسيق والتعاون بين كليات الآداب في الجامعات العربية. بالإضافة إلى الأفكار التي سكبتها في البحث الموسوم بدور الجامعية في بناء المجتمع العربي المعاصر. كما لا بد من الوقوف عند البحث المطول الذي وضعته عن بيروت وتاريخ ابن عساكر وكان بعنوان: بيروت في القرنين الأول والثاني للهجرة من خلال تاريخ: ابن عساكر.

وكان لا بد من الإضاءة على نظرة زاهية قدوره إلى العملية التربوية المتبعة في لبنان وارتباطها بعلم التاريخ، وكذلك على مفهومها لدور الجامعة في المجتمع.

من أجل ذلك، تمت الاستعانة بالكتب التي وضعتها في هذا المجال، للتعرف إلى النقاط التي وضعتها فيها، ويمكن الإستدلال منها على أشياء من فكرها. في سبيل إجراء المطابقة وتنفيذ المقارنة مع غيرها من المؤلفين والكُتّاب، الذين جاروها في الكتابة حول هذه العناوين، وتوضيح نقاط التقابل والتعارض التي التقت بها مع أقرانها، أو اختلفت فيها مع معارضيها.

١ – مفاهيم التاريخ في المرحلة القومية المعاصرة

كان بحث: « مفاهيم التاريخ في المرحلة القومية المعاصرة:[٣] البحث الأول المدرج في كتاب: «بحوث عربية وإسلامية» الذي تقدمت به إلى « المؤتمر التاريخي للمؤرخين والباحثين العرب «، في جامعة قار يونس في مدينة بنغازي (ليبيا) في شهر نيسان/أبريل ١٩٧٩.

قبل بسط الأفكار العامة لهذا البحث، يبدو للمطلع على الطريقة التي اتبعتها في تدوين أفكارها، ووضع كتبها ومؤلفاتها؛ أنها لجأت إلى ربط الحاضر بالماضي، لتعطي للمستقبل صورة جلية وواضحة.

وأشارت إلى أن معظم الكتابات قديما وحديثاً، تمت في ظل أجواء سياسية واقتصادية واجتماعية، قام بها مؤرخون تأثروا بالحدث نفسه، وانفعلوا بواقعية على الموضوع، من نواحيه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية[٤].

ولاحظت أن معظم الكتابات التاريخية؛ تأثرت بشكل أو بآخر، بمزاج مؤلفيها وسارت في فلك أصحابها، دون تمحيص أو تنقيب، أو حتى التحري عن الحقيقة المجردة. لذلك اتهمت بعض المؤرخين بأنهم يستخدمون التاريخ « لأهداف سياسية واجتماعية».

ورأت أن ذلك « لا يعود إلى اختلاف الوثائق المستخدمة بل إلى اختلاف المنهج المستخدم والمصلحة السياسية للكاتب «. مما أدى، إلى قيام تيارين ذات اتجاهين، تحزب لهما الأنصار والمؤيدون، وناهضهما المعارضون والمشككون .

نشأت هذه القناعة لديها، من جراء قيام المصالح السياسية، لأهداف وغايات خاصة؛ ظهرت عند مستشرقين توجست خيفة من أعمالهم ونياتهم، ولم تر فيهم أصحاب مصلحة واحدة. وقالت في ذلك: « كانت مهمة المستشرقين الأوائل جمع أكبر قدر من المعلومات عن مواطن المصلحة في الشرق سعيا وراء تنمية هذه المصالح ورعايتها...»[٥].

وعبرت عن سخطها من عمل هؤلاء عندما قالت أيضاً: «إن تصحيح العلاقة بين الشرق والغرب هو الشرط الضروري والأول لبروز استشراق أكثر موضوعية، وما لم يحدث ذلك فإن جهود بعض عمالقة المستشرقين الموضوعيين ستبقى فردية ومشوبة بالمخاطر».

وظهرت في البحث نقاط أخرى غالطت فيها الاستشرلق ورجاله، لأنهم صبوا جهودهم على الحوادث التي توافق أهواءهم ومصالحهم. فلم يرق لها تغاضيهم عن الحقائق الموضوعية والسياسية، التي تبدت لهم في عمليات سير التاريخ وسبر أغواره.

لذلك قالت: «حفل الاتجاه التبشيري بسيئات كثيرة في كتابة التاريخ، ذلك أنه عندما يريد أحدنا أن يدلل على فكرة واضحة في ذهنه؛ فإن الواقعة التاريخية لا تريحه، بل تزعجه، إلا إذا دار حولها أو فسرها تفسيراً قسرياً بما يتفق وهدفه».

وأنهته بالمطالبة بكتابة التاريخ الفعلي والحقيقي، المجرد من إشكالياته. وعلى من ينهض لهذه العملية؛ التحلي بالتجرد والموضوعية، ليعمل على تحليل أخطائه وسلبياته، في نطاق دراسة علمية لا غاية لها، ولا هدف؛ سوى العمل على إظهار حقيقته، والاتعاظ من عبره الماضية، والاستفادة من تجاربه السابقة؛ لقيام علاقة جيدة بين الماضي والحاضر.

ثم تابعت قولها بضرورة: « الانطلاق من موضوعية الحقيقة التاريخية والحدث التاريخي ومحاورة تاريخنا بالذات» . وطالبت بأن يصار إلى: « الانطلاق من عدم وجود

انقطاع في حياة الأمة العربية من الناحية التاريخية. وضرورة دراسة التاريخ كوحدة متماسكة بجوانبه المتعددة، السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية في آن واحد لكل فترة من الفترات، على أن تكون هذه الدراسة، تتمحور حول جميع طبقات الشعب ونمط حياتهم ودورهم في المجتمع حينذاك»

من الضروري دراسة التاريخ الحضاري في جميع مجالاته، وليس التركيز على ناحية واحدة منه، كالسياسة أوالاقتصاد،أو الاجتماع. وقد عبرت عنه، بالمطالبة بالعمل على: «إبراز المقومات والاتجاهات القومية، والوحدوية بالذات. فالموضوعية والنزاهة لا يتنافيان أبدا مع قومية التاريخ، لكن يحتاجان إلى عقول عربية، تسهم بالعلم والتجرد والصبر والدقة؛ وقلوب عربية تمتاز بالأمانة، ورهافة الحس، وصفاء الاتجاه. تتلمس جذور الحقيقة، والنظر إلى أبعادها، ثم إبراز المقومات الأساسية للقومية العربية، وعناصر الوحدة. لأن القومية والوحدة هما الإطار الوطني الذي يصهر أبناء الأمة، على مختلف طوائفهم ومذاهبهم في بوتقة واحدة. فلا يعود هناك من مجال فيه للعنصرية والطائفية» .

وأملت أخيراً أن يتم العمل على درس وتحليل «العوامل الاجتماعية والفكرية والنفسية والاقتصادية والسياسية التي دفعت إلى التجزئة وتمزيق كيان الأمة، وعدم إهمال ما كان (للقوى الأجنبية) من يد كبرى وفي صور مختلفة، تجارية واقتصادية وثقافية ودينية، ثم حمـلات وحروب (...)، ساهمت في تفتيت كيان الأمة وتجزئتها، بدءا من القبيلة إلى أن انتظمنا في دول، وما زال يجهد في ذلك استغلالاً وتحقيقاً لأطماعه في الوطن العربي» [٦].

٢ – تاريخنا وكيف نكتبه

قبل البدء في استعراض النقاط الأساسية للبحث، لا بد من التوقف قليلاً لنتبين الجوانب الرئيسة التي اعتمدتها الباحثة في كتابة التاريخ أولاً، وللاطلاع ثانياً على بعض النقاط التي اعتمدها المؤرخون، في دراساتهم لعلم التاريخ[٧].

فالتاريخ في حقيقته تحليل لحوادث الكون، واستعراض لمختلف الواقعات البشرية والزمنية على حد سواء. وهو تحليل لمجريات أوضاع الدول وشرح أسبابها، والتحسب لنتائجها. والتاريخ ضرورة حتمية في حياة الأمم والشعوب، لأن الأمة التي لا تاريخ لها، هي أمة مريضة وناقصة. والأمم العظيمة هي صاحبة تاريخ حافل بالأحداث والتطورات المجيدة.

أما كتابة التاريخ، فهي عملية مهمة في حياة الأمم والشعوب، لتسجيل حوادثها وتحليل أسباب نشوؤها وإرتقائها في معارج الحضارة والتقدم والازدهار. بالإضافة إلى تدوين أخبار الماضي وحفظ تراث الدول في سجل الذاكرة البشرية، والاستفادة من تجارب الماضي في دراسة الحاضر للوصول إلى النتائج الجيدة في المستقبل.

تدرج البحث في بسط أفكاره لتوضيح الغاية منه، وشرح مراحل تطور العملية التاريخية، مقارنة مع تطور حركة الفكر الإنساني، المستنير لحركة العمران البشري[٨].

فالتاريخ سجل الخلود لهذا الكون، يسيطر بواسطته العقل البشري على ما قام به الإنسان من أعمال واختراعات، وما توصل إليه من إكتشافات، فتبلى الأيام وتنصرم الأعوام، ويبقى ذكرها خالداً، وتمر العصور وتفنى الأمم ويبقى شبحها ماثلاً على صفحات التاريخ. ففائدة التاريخ إذاً أنه يصل الماضي بالحاضر ويبصر المستقبل، إنه المصباح الذي يضيء الطريق لتجنب أخطاء الماضي.

« التاريخ ذاكرة الشعوب وضمير الأمم ... فالأمة التي فقدت تاريخها، أشبه بالإنسان الذي فقد ذاكرته فهو ضائع... فالإنسان إذاً تاريخي في جوهره. وكل إنسان مرتبط بماضيه، فلا إنسان بلا تاريخ، ولا تاريخ بلا إنسان. والإنسان هو الذي يصوغ التاريخ ويصوره ويتفاعل معه، فهو مصدره وصانعه»[٩].

ومن رأي زاهية قدوره أن مفاهيم الدراسة التاريخية تطورت عبر العصور، وتنقلت من اعتبار التاريخ: هل هو فن؟ أو أدب؟ أم أنه علم قائم بذاته؟ له أسسه ومنهجيته، وأهدافه وفلسفته، وغيرها من المفاهيم والمصطلحات. وأقرت بما اتفق عليه بعض المؤرخين من أن علم التاريخ، يبدأ بدراسة المادة القائمة والمدونة التي يمكن الرجوع إليها ودراسة مضمونها.

وعلى هذا الأساس، كان هناك شبه إجماع على أن أول دراسة للتاريخ، تعود إلى «هيرودوتس» (HERODOTOS)[١٠]، حيث قيل إن الإغريق تعاملوا مع التاريخ على أنه علم، يدور في منحى العقل. أما «ثوقيديس» (THOUKUDIDES)[١١] فأستند إلى الوثائق في تفسير التاريخ وأحداثه، وأخذ بفكرة الربط بين المراحل الزمنية[١٢].

لن يتم الوقوف مطولاً مع تطور هذه العملية عبر الحقب التاريخية، لأن ذلك، يحتاج إلى دراسة مستفيضة لتبيان مختلف المراحل التي مرت فيها، والنظريات التي نشأت عنها، والمناقشات التي قامت حولها. لأنه قيل أن زاهية قدوره كانت من

المجموعة، التي اعتمدت على تطور المسار التاريخي للأحداث في عملية التدوين. فكانت من جملة المساهمين في وصول الكتابة التاريخية، إلى ما نراها عليه اليوم من تقدم في المنهج والأسلوب. وقد جمع هؤلاء كل علوم العصر وفنونه في قالب واحد.
وسبق لها أن أشارت إلى أن ذروة ما وصل إليه علم التاريخ في أوروبا القرن التاسع عشر، كان من نتاج عمل المؤرخين العرب، وهو الأمر الذي جاءت على ذكره في بعض مؤلفاتها وكتاباتها.

ويلاحظ في هذا الصدد، أن التاريخ العربي قيل فيه الكثير، وكتب عنه عدد كبير من الباحثين والمفكرين. وأشيع أن بعض الأنظمة العربية الحاكمة، قامت بتفصيل كتابة التاريخ العربي على قياس أهدافها وأطماعها. وكان موقفها تجاه هذا الأمر، منسجماً مع عدد من المؤرخين العرب، الذين أجمعوا على إعادة كتابة التاريخ العربي، ليأتي منسجماً مع الحقيقة أولاً، ومع التطلعات العربية نحو المستقبل ثانياً[١٣].

وهنا لا بد من طرح السؤال التالي:

هل كانت كل الكتابات التاريخية العربية سليمة وصحيحة ووفية للغرض الذي قامت من أجله؟.

ردت زاهية قدوره على ذلك بالإشارة، إلى أنه على المؤرخ الواعي والصادق، أن يتجمل بالصراحة، ويتجلبب بالموضوعية، ويبتعد عن الهوى والمنفعة، واطراح الغرائز العصبية والمذهبية، والاعتماد على العقل والمنطق، والإخلاص فيما يكتب ولمن يؤرخ.
ورأت بأنه يجب عدم إخفاء الحقيقة التاريخية مهما كانت، سلبية أم إيجابية، وعدم تزييف التاريخ وطمس الوثائق المتعلقة به. وعلى المؤرخ اعتبار المادة التاريخية التي بين يديه؛ ليست مسألة رياضية أو جدولاً إحصائياً، لا يحتملان النقاش والجدل. بل هي مادة اجتماعية لها سلبيات وإيجابيات؛ لها حساسية معينة سياسية وفكرية واقتصادية ونفسية، لأن منشأها المجتمع الذي تأثرت به وأثرت فيه .

ومن أفكارها أنه متى ظهر المؤرخ الموضوعي والصادق، لا بد أن تظهر موضوعيته ومنهجيته من خلال بحثه بالوثائق الموجودة بين يديه، يتفحصها ويحللها، ليقارن بينها وبين مثيلاتها، لطرح ما تم التوصل إليه على المساءلة بكل صدق وصراحة في سبيل الحقيقة، حتى ولو كانت مخالفة لرأيه ولوجهة نظره.
أعطت لكتابة التاريخ مكانة متقدمة من علمها وعملها، تعاطت معها بعين ناقدة،

جريئة، سليمة وصحيحة، وكان دأبها قول الحقيقة ولا شيء سواها . لأنها من المؤمنين بأن التاريخ الصادق والسليم هو الذي يخرج من لدن الشعوب الحقيقية. لذلك أطلقت في نهاية البحث؛ نداءً من أجل تاريخ واقعي، قالت فيه: « عودتنا إلى تاريخنا القومي يجب أن تكون عودة أصيلة متبصرة، ناقدة منطلقها العقل لا العاطفة والهوى والعصبية... فالتاريخ الذي لا يبحث بحثاً متجرداً من كل هذه الأمور، هو تاريخ محكوم عليه بالزوال والانتهاء، ولا يكتب له البقاء والاستمرار»[١٤].

وتساءلت في نهاية البحث وقالت: «كيف نكتب تاريخنا؟ وما هي الأسس التي علينا أن ننتهجها»؟. وردت بنقاط، بينت فيها الطرق التي يجب اتباعها لوجود كتابة تاريخية سليمة وصحيحة، وذلك عن طريق اقتناع المسؤولين العرب وعلمائهم، بضرورة كتابة التاريخ العربي بجهود عربية مشتركة، وطالبت بتأسيس هيئة عربية واحدة، لها فروع في أقطار الوطن العربي، مهمتها كتابة التاريخ العربي، ضمن برمجة زمنية، على غرار مؤلفات اليونسكو.

إضافة إلى ذلك، طلبت من الجامعات العربية والجمعيات التاريخية، ووزارات التربية والتعليم والثقافة، ومراكز الدراسات والبحوث التاريخية والثقافية والفكرية؛ ضرورة الالتزام بهذه المنهجية في أثناء كتابة التاريخ وتدوينه. ودعت إلى استقطاب الكفاءات والأدمغة العربية؛ المتخصصة للمساهمة في المشروع، وحصر اختصاصاتها وإنجازاتها، ليسهل التعاون والعمل. وأن يتم ذلك عن طريق التفكير، بشكل هادئ وموضوعي، بعيداً عن العواطف والأهواء والنزاعات والعصبيات.

وطرحت الصوت أخيراً للإشارة، إلى أنه على المؤرخ أن يتحلى بالنظرة الشاملة، والمقارنة الموضوعية؛ فالتاريخ العربي والثقافة الإنسانية غير معزول عن الحضارات الأخرى، يتعامل معها على ضوء ظروف التاريخ العربي، ومجتمعاته وما يحيط به. بسبب تأثر التاريخ والحضارة العربية بهذه المقومات، تأثراً إيجابياً، أخذاً وعطاءً، فعلاً وتفاعلاً، مما يجعل منها، مصدر ثراء وغنى للحضارة الإنسانية[١٥].

٣ ـ الحقيقة التاريخية عند ابن خلدون

يعتبر الفكر الخلدوني ومنظوماته الاجتماعية والتاريخية أنه فتح المجال أمام دراسات الباحثين، وتحليلات المراقبين، لاستكشاف النظريات والأفكار التي دارت حول التاريخ والعلوم المساعدة له. وتركز البحث فيها على معرفة كنه الحقيقة التاريخية

عند ابن خلدون. فوضعت من حولها الأبحاث والمؤلفات وفق المنظار الذي رصدت به الفكر الخلدوني، بأشكال متعددة، وطروحات ومنظومات مختلفة، نتيجة للعقائد والإيديولوجيات التي تأثرت بها تلك المؤلفات[١٦].

ومن الملاحظ أن زاهية قدوره لم تنظر إلى هذا الفكر؛ إلا من ناحيته العلمية المجردة، فلم تخضعه لمقياس القومية، ولم ترهُ محاطاً ومقولباً داخل إطار الدولة الإسلامية، ورفضت تدجينه داخل أي أيديولوجية معينة. فكانت دراستها للفكر الخلدوني طبيعية ومنطقية. لم تفلسفه أو تخضعه لمنطق القياسات المتعددة، لأنها اعتبرته فكراً رائداً في فرادته، وفي تناوله دراسة التاريخ والمجتمع والسياسة، من خلال تسلحه بعبقرية سبق بها زمانه وعصره، سمحت له بوضع القواعد والقوانين لعدد من العلوم الجديدة. هذه العبقرية التي أمنت له مكانة مهمة بين المؤرخين الاجتماعيين والنفسانيين، لم تتضح معانيها وفوائد ما أبدعت، بالنسبة إليها، إلا في العصور اللاحقة، عندما أصبحت الحقيقة التاريخية ذات فائدة كبيرة، في مجمل الدراسات والأبحاث التي وضع أسسها ابن خلدون[١٧].

تأثرت زاهية قدوره بابن خلدون بشكل واضح؛ وأشارت إلى أن هذه النظم والقوانين، تعتبر المقياس العلمي والموضوعي للحضارة العربية الإسلامية، التي دارت عليها أبحاث ومؤلفات الكتّاب والمفكرين، سواء من العرب أو من المستشرقين المعاصرين للعهود الإسلامية الأولى وصولاً إلى الوقت الحاضر.

كانت هذه الأفكار من المحاور الرئيسة، التي دارت عليها أبحاث المشاركين في المؤتمر التاريخي الأول، الذي دعت إليه زاهية قدوره، في أثناء توليها مركز عميدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية عام ١٩٧٥، والذي عقد تحت عنوان: «الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد».

٤ – الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد

رافق إنعقاد هذا المؤتمر ملابسات مختلفة وظروف معقدة، حتمت على الجهة الداعية لإنعقاده، القيام بإتصالات مكثفة، مع بعض الشخصيات المسؤولة، سياسياً وأكاديمياً، وتتمتع بصلاحيات قوية في الدولة والمجتمع اللبناني، للمساعدة على تأمين الظروف المناسبة لعقد مؤتمر للحضارة العربية في لبنان، تحت جناح الجامعة اللبنانية، في شهر آذار عام ١٩٧٥. فكان للدعم الكبير الذي لقيته من رئيس الجامعة اللبنانية إدمون نعيم، الأثر الواضح في نجاح عقده في بيروت.

في ظروف في غاية الحساسية، لأنه كان لهذا الحدث دلائل كثيرة، أولها أن إنعقاده في تلك الظروف المعقدة آنذاك، اعتبر فيه تحدياً كبيراً من نواحٍ عدة. منها، أن زاهية قدوره عندما عينت عميدة لكلية الآداب في الجامعة اللبنانية، كان ذلك بما يشبه الثورة، لأنها انتزعت منصباً كان حكراً على الذكور. فنشأت من وراء تعيينها عميدة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية؛ حركات رفض ومعارضة، وصلت إلى حد العصيان؛ من قبل العنصر الذكري، الذي اعتبر أنها سلبته أحد أهم مواقعه ورموزه، التي كان يراها حكراً له وحده. فراح يحاربها في منصبها الجديد بكل ما أوتي من صلف وقوة، لدفعها إلى الهروب من هذه المسؤولية.

أما نقطة الاعتراض الثانية على تعيينها في منصب العمادة، فكانت من جانب زمر مختلفة آنذاك في الجامعة اللبنانية، ومن مستويات طلابية مختلفة، كانت تريد التعبير عن حالة من السخط على أشياء كثيرة ضد الدولة. وكأن هذا التعيين كان فيه الفرصة المناسبة، ليزيد في تأجيج تحرك الطلاب وليعمل على زيادة الغليان في صفوفهم، الذين كانوا ينتمون إلى عقائد سياسية مختلفة، تناصب زاهية قدوره العداء لمواقفها وتعارض العديد من خططها وأسلوبها ونهجها، مما خلق أمامها أوضاعاً ومشاكل كان من الصعوبة بمكان، أن تترك لها مجالاً تنصرف فيه إلى عقد المؤتمرات الأكاديمية أو التاريخية.

المدلول الثالث وهو الأهم، أن الفترة التي انعقد فيها المؤتمر، كانت حبلى بأحداث سياسية وأمنية، تترقب الشرارة الأولى لتذر بقرنها وتشعل الحريق الكبير، الذي كانت عواصفه الهوجاء على أبواب الوطن.

في ظل هذه المخاطر، وفي ظل الحرب الشعواء، التي كانت تندلع بشكل جنوني في وجهها في كل يوم. سواء في داخل مجلس الكلية، أو مع الطلاب. أو من قبل المجموعات السياسية المناوئة لسياستها ونهجها. وكلها كانت تتحين الفرص لاسقاطها في حمأة نيرانها الملتهبة للقضاء على طروحاتها، والتخلص من مشاريعها الأكاديمية والسياسية والاجتماعية.

وسط هذه التداعيات جميعها، دعت زاهية قدوره إلى إنعقاد المؤتمر التاريخي الأول، في بيروت حول دور الحضارة العربية في الحضارة العالمية والإنسانية. وتحملت في سبيل إنعقاده في هذه الأجواء المشحونة، مسؤولية المخاطرة بدعوة عدد من عمداء الجامعات في دول عربية عدة، فضلاً عن عمداء الجامعات الخاصة في لبنان،

عند ابن خلدون. فوضعت من حولها الأبحاث والمؤلفات وفق المنظار الذي رصدت به الفكر الخلدوني، بأشكال متعددة، وطروحات ومنظومات مختلفة، نتيجة للعقائد والإيديولوجيات التي تأثرت بها تلك المؤلفات(١٦).

ومن الملاحظ أن زاهية قدوره لم تنظر إلى هذا الفكر؛ إلا من ناحيته العلمية المجردة، فلم تخضعه لمقياس القومية، ولم ترهُ محاطاً ومقولباً داخل إطار الدولة الإسلامية، ورفضت تدجينه داخل أي أيديولوجية معينة. فكانت دراستها للفكر الخلدوني طبيعية ومنطقية لم تفلسفه أو تخضعه لمنطق القياسات المتعددة، لأنها اعتبرته فكراً رائداً في فرادته، وفي تناوله لدراسة التاريخ والمجتمع والسياسة، من خلال تسلحه بعبقرية سبق بها زمانه وعصره، سمحت له بوضع القواعد والقوانين لعدد من العلوم الجديدة. هذه العبقرية التي أمنت له مكانة مهمة بين المؤرخين الاجتماعيين والنفسانيين، لم تتضح معانيها وفوائد ما أبدعت، بالنسبة إليها، إلا في العصور اللاحقة، عندما أصبحت الحقيقة التاريخية ذات فائدة كبيرة، في مجمل الدراسات والأبحاث التي وضع أسسها ابن خلدون(١٧).

تأثرت زاهية قدوره بابن خلدون بشكل واضح؛ وأشارت إلى أن هذه النظم والقوانين، تعتبر المقياس العلمي والموضوعي للحضارة العربية الإسلامية، التي دارت عليها أبحاث ومؤلفات الكتّاب والمفكرين، سواء من العرب أو من المستشرقين المعاصرين للعهود الإسلامية الأولى وصولاً إلى الوقت الحاضر.

كانت هذه الأفكار من المحاور الرئيسة، التي دارت عليها أبحاث المشاركين في المؤتمر التاريخي الأول، الذي دعت إليه زاهية قدوره، في أثناء توليها مركز عميدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية عام ١٩٧٥، والذي عقد تحت عنوان: «الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد».

٤ – الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد

رافق إنعقاد هذا المؤتمر ملابسات مختلفة وظروف معقدة، حتمت على الجهة الداعية لإنعقاده، القيام بإتصالات مكثفة، مع بعض الشخصيات المسؤولة، سياسياً وأكاديمياً، وتتمتع بصلاحيات قوية في الدولة والمجتمع اللبناني، للمساعدة على تأمين الظروف المناسبة لعقد مؤتمر للحضارة العربية في لبنان، تحت جناح الجامعة اللبنانية، في شهر آذار عام ١٩٧٥. فكان للدعم الكبير الذي لقيته من رئيس الجامعة اللبنانية إدمون نعيم، الأثر الواضح في نجاح عقده في بيروت.

في ظروف في غاية الحساسية، لأنه كان لهذا الحدث دلائل كثيرة، أولها أن إنعقاده في تلك الظروف المعقدة آنذاك، اعتبر فيه تحدياً كبيراً من نواح عدة. منها، أن زاهية قدوره عندما عينت عميدة لكلية الآداب في الجامعة اللبنانية، كان ذلك بما يشبه الثورة، لأنها انتزعت منصباً كان حكراً على الذكور. فنشأت من وراء تعيينها عميدة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية؛ حركات رفض ومعارضة، وصلت إلى حد العصيان؛ من قبل العنصر الذكري، الذي اعتبر أنها سلبته أحد أهم مواقعه ورموزه، التي كان يراها حكراً له وحده. فراح يحاربها في منصبها الجديد بكل ما أوتي من صلف وقوة، لدفعها إلى الهروب من هذه المسؤولية.

أما نقطة الاعتراض الثانية على تعيينها في منصب العمادة، فكانت من جانب زمر مختلفة آنذاك في الجامعة اللبنانية، ومن مستويات طلابية مختلفة، كانت تريد التعبير عن حالة من السخط على أشياء كثيرة ضد الدولة. وكأن هذا التعيين كان فيه الفرصة المناسبة، ليزيد في تأجيج تحرك الطلاب وليعمل على زيادة الغليان في صفوفهم، الذين كانوا ينتمون إلى عقائد سياسية مختلفة، تناصب زاهية قدوره العداء لمواقفها وتعارض العديد من خططها وأسلوبها ونهجها، مما خلق أمامها أوضاعاً ومشاكل كان من الصعوبة بمكان، أن تترك لها مجالاً تتصرف فيه إلى عقد المؤتمرات الأكاديمية أو التاريخية.

المدلول الثالث وهو الأهم، أن الفترة التي انعقد فيها المؤتمر، كانت حبلى بأحداث سياسية وأمنية، تترقب الشرارة الأولى لتذر بقرنها وتشعل الحريق الكبير، الذي كانت عواصفه الهوجاء على أبواب الوطن.

في ظل هذه المخاطر، وفي ظل الحرب الشعواء، التي كانت تندلع بشكل جنوني في وجهها في كل يوم. سواء في داخل مجلس الكلية، أو مع الطلاب. أو من قبل المجموعات السياسية المناوئة لسياستها ونهجها. وكلها كانت تتحين الفرص لاسقاطها في حمأة نيرانها الملتهبة للقضاء على طروحاتها، والتخلص من مشاريعها الأكاديمية والسياسية والاجتماعية.

وسط هذه التداعيات جميعها، دعت زاهية قدوره إلى إنعقاد المؤتمر التاريخي الأول، في بيروت حول دور الحضارة العربية في الحضارة العالمية والإنسانية. وتحملت في سبيل إنعقاده في هذه الأجواء المشحونة، مسؤولية المخاطرة بدعوة عدد من عمداء الجامعات في دول عربية عدة، فضلاً عن عمداء الجامعات الخاصة في لبنان،

وكذلك الأساتذة الذين شاركوا فيه بأبحاث ومداخلات كثيرة. كانت الغاية الأساسية من حضورهم بعد المنفعة الفكرية والعلمية، إظهار الدعم الكبير لصاحبة المؤتمر، وتوفير الدعم لأفكارها ومشاريعها.

وإن دل إنعقاد مؤتمر للحضارة العربية في بيروت، وفي العام ١٩٧٥، الذي اعتبر عام إنطلاق شرارة الأحداث التي وقعت في لبنان، وما كانت تحفل فيه البلاد من غليان سياسي وفكري وصراع عقائدي، كان يذر بقرنه بين المجموعات التي تصارعت فيما بعد على الأراضي اللبنانية. إن دل على شيء، فإنما على مكانة زاهية قدوره من خلال شبكة العلاقات الشخصية والأكاديمية، التي تمكنت من إقامتها مع عدد من الجامعات العربية. ساهمت هذه العوامل في نجاح المؤتمر، الذي شكل ميداناً رحباً، ومنبراً حراً للأفكار المحتلفة، والأبحاث المتعددة التي طرحت. إذ عبر كل فريق من المشاركين فيه، عن وجهة نظره بكل صراحة وحرية.

ومن الأسباب التي ساهمت في نجاحه، ندرة المؤلفات التي عنيت بدراسة مواضيع الحضارة العربية الإسلامية، مما انعكس تجاهلاً واضحاً لطروحاتها وللأفكار التي جاءت بها. فوجدت في أثناء التحضير للمواضيع التي تدرسها لطلابها حول الحضارة العربية. أن الأبحاث المخصصة لقيامها وانتشارها، فردية وقليلة. ما خلا بعض الأبحاث التي وضعت من قبل مؤلفين وباحثين، يشهد لهم باعهم الطويل في الدراسة المعمقة والأعمال السنيّة حول مقوماتها وعوامل تفوقها. وكان منهم محمد عبد السلام كفافي، وأحمد بدوي، ومحمد عمارة، وعمر فروخ، وغيرهم.

هذا وطرحت في المؤتمر أيضاً أبحاثاً ومواضيع حول الإصالة والتجديد في الحضارة العربية، كان لها المساهمة الفضلى في عوامل نجاحه. وقد تفرع عنها عناوين ومواضيع دارت في فلك العلوم الإنسانية والاجتماعية، وبما تشتمل عليه من تاريخ وآثار وفنون وأدب. وكذلك كان هناك أبحاث أخرى، تناولت دراسة العلوم البحتة بما تضم من علوم طبيعية وطب وصيدلة ورياضيات وفلك، إلى غير ذلك، مما نهض المؤتمرون للعمل على دراسة تأثيراته في الحضارة والتراث العربيين.

وفي أثناء قيامها بوضع دراسة ما أو بحث مخصص، كانت تستأنس بكمية الأبحاث والمؤلفات، التي توافرت أمامها والمجردة عن كل ميل أو هوى، أو تلك الخالية من أي شائبة. فكانت تجد فرقاً شاسعاً بين ما كانت ترى، وبين مجموعة المؤرخين

الذين قضوا سنوات طويلة يدرسون ويحللون، ويضعون النظريات، ويتوصلون إلى الطروحات التي وضعوها حول حقيقة التاريخ.

وبالرغم من ذلك كله، كانت ترى أن فضل الريادة في هذا الأمر كان لابن خلدون، الذي قالت عنه أنه راح: « يفتش عن الحقيقة التي يسعى إليها علم التاريخ، فوجدها بين الأنقاض، قد تراكم عليها كثير من غبار الزمن والحقد الشخصي والدافع المادي والمصلحة الخاصة، أي باختصار وجد أن الحقيقة التاريخية مظلومة محجوبة، ووجد الساعين إليها كثراً، ولكن الطريق شاق وشائك، فوجد نفسه مسؤولاً عن تخليص تلك الحقيقة من شوائبها، ورسم الطريق الصحيح السليم الواضح المؤدي إليها ليرتادها كل مخلص، وليتجنب مخاوفها ومخاطرها كل مريد للحقيقة لذاتها» [١٨]. ويمكن أن تكون الكاتبة قد حددت بذلك، صورة إجمالية للإشكاليات المهمة التي قام بها ابن خلدون. فصورت الوضع في تمام التماثل ودقة التعبير، ولم تضف شيئاً من عندها.

كما أشارت أيضاً إلى بعض مفاصل الفكر الخلدوني، الذي ربط التاريخ بمجرياته في الماضي، ليظهر العديد من الحوادث والمواقع والأمور التي حدثت فيه؛ مما جعلها تعتقد أنه بذلك قد ساعد في فهم كثير من الأحداث. حيث تبين أنها أقرت بمبدأ أن: « مهمة المؤرخ هي دفع السحب عن ماضي الإنسان، ووصف حقيقة حياة الناس في كل صورها وأشكالها وتتبع تطورها»

وقامت من ناحية ثانية، بدراسة مهام المؤرخين وتحليل أعمال من سبق ابن خلدون في مضمار الكتابة التاريخية ولحق به. فرأت في أعمالهم كثيراً من الشوائب والأخطاء، وأشارت إلى عدم إدراك بعضهم، أن تدوين التاريخ وفق أهوائهم ونزعاتهم، له مضار كثيرة في عملية سيره. وقد أثبتت الأيام صحة هذه النظرية. ولذلك كانت ترى أن: «التاريخ الصحيح هو مادة وأسلوب، أي معرفة منهجية، والمنهجية هي الوسيلة والأسلوب العلمي، للبحث عن الحقيقة والوصول إليها، أو أقرب ما يكون إليها. ولهذه المنهجية، أو لهذا الأسلوب العلمي قواعد ونظم، يجب تنميتها بالعلم والممارسة والتحرر الذاتي قبل كل شيء. إذ لا يجوز للباحث أن يقوم بعمله وفي ذهنه حكم مسبق أو ميل وهوى لأن ذلك يضلله عن الوصول إلى الحقيقة البحتة المجردة» [١٩].

ورأت أن أسلوب ابن خلدون ومنهجيته، لم تعرف تماماً في زمانه، ولكنها جاءت كنتيجة منطقية للقواعد التي سنها في عملية البحث العلمي. ومن هنا لوحظ أن

بحثها عنه جاء موافقاً لمقتضيات العلم والممارسة، شرط الانعتاق من النوازع الذاتية، وعدم المفاضلة بما سبق .

ولما كانت تمضي في عملها لسبر غور الحقيقة التاريخية عند ابن خلدون. فقد كانت تقوم بملاحقة عملية تفسير التاريخ منذ أقدم الأزمنة، وحتى الآن. وذلك لإبراز النظريات والتناقضات التي شابت عمل المؤرخين. فقسمتهم إلى عدة نزعات: اعتبرت في الأولى أن التاريخ علم قائم بذاته، ووجدت في الثانية أنه فرع من الآداب، أما النزعة الثالثة فاعتبرت فيها أن التاريخ قصصي بحق، وفي الرابعة أخذت عليه جانب العلم.

وأشارت إلى احتدام المناقشات والمجادلات بين من أكد أن التاريخ هو علم لا أكثر ولا أقل، في حين رفض علماء الطبيعة ذلك، وأيدهم رجال الأدب الذين اعتبروه، علماً أو هو في مصاف العلم؛ ثم راحوا يثبتون أنه فوق العلم بدرجات.

من هنا كانت أهمية ابن خلدون عندها وعند غيرها من المؤرخين، في أنه سبق بفكره إشكالية الخلافات التي نشأت بعده، بعد أن قام بما قام به في البحث عن الحقيقة التاريخية. فكان له الفضل – وفق منطقها - في استنباط عملية الحقيقة التاريخية، ووضع أسسها وقواعدها، وتثبيتها وإزالة الشوائب التي علقت بها، بعد أن رأى زيف التاريخ والمغالطات الملفقة من حوله، واختراع الأكاذيب التي أثرت على عدد من المؤلفات والأبحاث، وانعكست على بعض النظريات.

وتوقفت عند المعنى الذي حدد به ابن خلدون التاريخ، كما ورد في كتاب المقدمة، فقال: « أما بعد فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وهو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، في باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات في ميادينها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق»[٢٠].

كان قصدها من ذلك، أن البحث عن الحقيقة التاريخية، طريقة علمية تشوبها سبع ملاحظات من الوهم والبعد عن المنطق؛ تقابلها نقاط ثلاث من الأخطاء والغموض، التي تحيط بعمل المؤرخين. وقد أتت المؤرخة على ذكر بعض الفواصل الموضوعية، التي تشكل غايته في البحث عن الحقيقة. وأهمها البعد عن الكذب، وإنشاء ضوابط تتحكم بسير عمل المؤرخين، وترفعهم من الوقوع بخطأ التدوين والكتابة.

أثار البحث عند طرحه عاصفتين متلاطمتين من التأييد والانتقاد، التأييد لدقة بحثه وسلامة منطقه، والانتقاد بسبب العيوب التي شابته، كتجاهله الحديث عن العلاقة

التي اعترت ابن خلدون بمن سبقه من رواد عصره وزمانه. ومن أسباب انتقاد البحث، عدم تطرقه إلى الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية، التي كونت النظريات الخلدونية. فإذا كان الكاتب أو المؤرخ؛ ابن بيئته ووليد عصره وزمانه، فلماذا لم تنهض زاهية قدوره للبحث حول عدم استمرار المفهوم الخلدوني، في العقلية العربية الإسلامية بعد القرن الرابع عشر؟[٢١].

٥ـ الأثر الخلدوني في فكر زاهية قدوره

هذه الفرضية في المنهج التحليلي لكتابة التاريخ، حتمت الإشارة إلى الأثر الذي تركه ابن خلدون في أعمال زاهية قدوره، وظهر في البحث الذي وضعته عن الحقيقة التاريخية عند ابن خلدون. فجاء فيه كثير من النظريات التاريخية، والأفكار التي أثرت بكتابتها عن النهج الخلدوني، كمثل المطابقات التي قامت لتحقيقها، وعادت بها إلى المصادر والمراجع القديمة. مما سهل لها دراسة العلوم والنظريات الخلدونية، وملاحظة ارتباطها المباشر بالحياة الاجتماعية، وبعلم العمران البشري، وتطابقها مع التاريخ.

في أثناء العمل على أرشيف زاهية قدوره، وجدت بعض الأوراق المخطوطة، ومنها واحدة كتبت عليها: « إن ابن خلدون ذهب إلى أن التاريخ فرع نوعي من المعرفة؛ يهتم بكامل مجال الظاهرات الاجتماعية للتاريخ الفعلي، ويكشف المؤثرات المختلفة التي تعمل فيه». وورد في ورقة ثانية: «أن التاريخ لم يكن بالنسبة إلى ابن خلدون مجرد تسجيل للحوادث، بل هو وصف للعلاقات الاجتماعية الداخلية والخارجية».

هذه بعض المؤثرات التي تم ملاحظتها في دراسات زاهية قدوره وأبحاثها، التي ظهر فيها الأسلوب الذي اتبعته في دراسة أفكار ابن خلدون، وتأثرها به؛ لجهة اعتبار التاريخ سجل حوادث الأيام الماضية. ويبدو أنها كانت تتمثل في عدد من أعمالها وكتاباتها، ببعض النواحي التي قام عليها الفكر الخلدوني وعالج فيها مواضيع من الحياة العربية.

وقالت في دراستها عنه، أنه تعقب الفروقات بين الشعوب؛ فردها إلى بيئتهم الطبيعية، ومناخهم وتكوين أراضيهم، وغير ذلك من العوامل.

وأكدت على اهتمامه بالنواحي الاجتماعية للتاريخ، ونهوضه لمعالجة حالات الأفراد المختلفة، وما يصيبهم من أفراح وأتراح، ووصف حياتهم الاجتماعية المشتركة.

ورأت عدم تغافله عن الحقائق الدينية في المجتمع؛ فأعار النبوة التفاتة كبيرة، فتوقف عند تأثير رجال الدين؛ والدعاة والناشطين الدينيين في المجتمع العربي الإسلامي.

ونتيجة للإعجاب الذي كانت تبديه تجاه الفكر الخلدوني، يلاحظ التأثير الكبير الذي تركه في عملها، من خلال عملية تدوين التاريخ وفق نظرياته المختلفة التي تركت بصماتها في عدد من أعمالها[٢٢]، وهو أمر مسلم به. أما إسهامه في إدراك التاريخ وعلم الاجتماع فتحدثت عنه بإسهاب مفرط أحياناً ومن دون أي حرج. ورأت في مساهماته الأخرى في ميادين الأدب والفكر وساحات العلوم المختلفة، أنها اتصفت جميعها بالإبداع ولا تبلى جدته. ودلت على أنه من الصعب تقدير قيمتها وأصالتها حق قدرها، بالرغم من مئات المؤلفات والمجلدات والدراسات التي وضعت عنها.

كان الهدف من بحث زاهية قدوره في الفكر الخلدوني، إلقاء الضوء على جانب من فكره، لأنه لم يلق - حسب رأيها - ما يستحق من اهتمام. فقد لاحظت أنه أول من كشف القناع عن كثير من الحقائق والمعلومات والنظريات، إذ لم يكتف بوضع الأفكار والآراء؛ بل قام بالنصح والإرشاد، والهداية والتعليم، لكل ما وضعه من طروحات. فلامست وعورة مسالك الحقيقة التي بحث عنها طويلاً، ليتوصل إلى استنتاجاتها، ووضع قواعدها[٢٣].

اتسم ابن خلدون بسعيه الدائم للبحث عن الحقيقة، وكذلك زاهية قدوره التي بذلت قصارى جهدها أنى تأمن لها ذلك، لتأكيد مقولة أن التاريخ يعتمد على المعرفة؛ والمعرفة ترتبط بالمنهجية الصحيحة، فكان عليها أن تتحلى بالأسلوب العلمي. وهو ما تمت ملاحظته في مؤلفاتها ودراساتها، خصوصاً في بحثها عن الحقيقة؛ أي حقيقة. فغالباً ما كانت تتبع في عملها طرقاً وقواعد مختلفة تقوم بتهذيبها وتحسينها؛ للعمل على تطويرها باستمرار. كمثل البعد عن المبالغة، والأنانية، والمصلحة النفعية، فضلاً عن تنميتها بالإضافات الجديدة؛ والبحث عن المستجدات العلمية والدراسية والنظريات المختلفة[٢٤].

من هنا يمكن اعتبار المنهجية التي اتبعتها زاهية قدوره، أنها كانت تتسم بطريقة علمية، من خلال ما تم ملاحظته من عملها؛ إذ لم تكتف فيه بمجرد رواية الأخبار، وسرد السمعيات، ونقل القصص والأحاديث كما هي. بل لجأت إلى نقد حوادث التاريخ التي تعرفت إليها، وبحثت في قصصه؛ عن وقائعه الصحيحة، بطريقة علمية وبمنهجية دراسية. ثم قامت بشرح ما وافق عقلها؛ وخضع لعلمها وثقافتها، ولاءم دراستها وطابق استنتاجاتها، فردت كل شيء إلى أصله. ما يدفع لذلك، اقتناعها بأن الثقافة والمعرفة، عنوانان لتسيُّد المؤرخ والعالم والأديب.

وظهرت منهجيتها أيضاً في التحري عن الحقيقة، التي سعت وراءها مهما كانت قصية أو عصية؛ مما إنعكس على مؤلفاتها وأبحاثها.

كمثل على ذلك، ما ظهر في كتاب عائشة أم المؤمنين، عندما استقصت تاريخ حياتها، وتقصت أخبارها، في ما ينيف على مئة مصدر ومرجع، وما قامت بدراسته عن الشعوبية وأثرها السياسي والاجتماعي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، وتاريخ العرب الحديث، وشبه الجزيرة العربية وغيرها من الكتب والمؤلفات، ومثلها من المخطوطات، التي قامت فيها بدراسة تاريخ الدولتين الأموية والعباسية. إذ أنها لم تكتف منها بإيراد الحوادث والأخبار، بل علَّمها ابن خلدون أن تبحث عن الحقيقة أينما كانت.

تلك هي الطريقة التي اعتمدتها، وهذا هو الأسلوب الذي سارت عليه في دراساتها ومؤلفاتها. فالمنهجية التي سلكتها هي منهجية كتبة التاريخ. فتوافقت بذلك مع غيرها من المؤرخين والمؤلفين، بالرغم من أنها نفت عن نفسها صفة المؤرخة، وفضلت تسميتها بالباحثة عن الحقيقة التاريخية[٢٥].

على ضوء ما تقدم، هل يمكن اعتبار زاهية قدوره ابنة التاريخ العربي الإسلامي؟ كما كان ابن خلدون ابن الحضارة العربية الإسلامية بمعناها الواسع؟

في الحقيقة لا يجب إطلاق الأوصاف، والمبالغة في التعابير؛ بقدر ما يتوجب التوكيد على المنهجية العلمية والموضوعية لكل عمل. إلا أنه مما لا شك فيه، أن ابن خلدون لم يكن نتاج عصره فقط؛ تمثلت عبقريته جوانب تلك الحضارة، ومحضت وجدان المجتمعات العربية، لتبدع نظريات وآراء في علم التاريخ والاجتماع.

أدركت زاهية قدوره بعض مفاصل ابن خلدون الفكرية، وتعرفت إلى محطات مختلفة من أفكاره؛ وتأثرت بها بكل عناية ودراية، وتوصلت للتعرف على جوانب أخرى كثيرة. فائتلفت مع صفوة من الأعلام والمؤرخين في الكشف عن حقائق هذا الفكر، لجلاء عناوينه المتعددة وطروحاته الإضافية، مما كان له فائدة كبيرة للتاريخ وطلابه، وللبحاثة والدارسين، في أي اتجاه كانوا.

انطبعت هذه المقومات في فكرها وشخصيتها، وتأثرت بمحاكاة الفكر الخلدوني، من دون أن تبت تجاهه بأمر قاطع؛ وكانت ترى أنه إذا كان ابن خلدون قد نجح فيما توصل إليه، فذلك توفيق من الله، وإن فاته شيء، فتلك طريق لمن سيأتي من بعده للتحقق والإصلاح، وله الفضل في فتحه الطريق.

أفردت لها تلك الآثار مكانة سنية بين أترابها من المفكرين والمثقفين، وأفسحت لها في المجال؛ لتكون واحدة من المحاضرين الموجهين لحجم هذه الثقافة العربية، وحضارتها الرائدة على أجيال متعاقبة من الطلاب. فالفضل يحسب لها هنا، في أنها درست وأعطت، بعد أن تلقحت بجذور تلك الثقافة، وبأسس مقوماتها الحضارية والإنسانية، التي عممتها على طلابها ومريديها.

٦ - التنسيق والتعاون بين كليات الآداب في الجامعات العربية

يمكن اعتبار هذا البحث[٢٦] من مجموعة الدراسات، التي ظهرت فيها بعض الأفكار التربوية - الثقافية لزاهية قدوره؛ المجبولة بخبرتها التعليمية والأكاديمية، وكان الهدف من الأفكار إلتي وردت فيه، الدلالة على ربط الجامعة بحاجات المجتمع، وتأمين هذه الحاجات عن طريق الكفاءات التي تصدرها.

كما أرادت منه تبيان سبل التنسيق والتعاون بين الجامعات المختلفة، وتأمين حاجات الدول، التي يرى فيها البعض إحدى مسالك الحضارة التي يتحتم ولوجها والاستزادة منها. إبتدأ البحث بعبارة إن: « التعاون بين الجامعات هو تعارف يقوم بين المفكرين والعلماء، على أسس سليمة صحيحة.. لأن الفكر الصحيح هو القاعدة الصحيحة والسليمة للتعاون والتكامل في جميع المجالات»[٢٧].

حول الموضوع نفسه، كتب محمد كفافي، فقال: «إن العصر الحديث عصر تعاون ثقافي وثيق. وليس في هذا الزمن مجتمع يمكن أن ينغلق على نفسه، ويغمض عينيه عن تيارات التقدم في مختلف البلاد، ولئن كانت الشعوب المتقدمة لا تستغني عن مثل هذا التعاون، فتعمل على تبادل الأساتذة والطلاب، والمطبوعات، والخبرات العلمية والفنية، فإن الشعوب النامية أكثر حاجة إلى مثل هذا التبادل، لأنها به تزداد غنى، وتعوض ما فاتها من تطور خلال عصور الجمود» [٢٨].

أرادت زاهية قدوره الإشارة إلى أن مفهوم الجامعة، هي مؤسسة يمارس فيها التعليم العالي، وفيها تحفظ للمعرفة مكاناً، بالإضافة إلى عملها على تنمية هذه المعرفة ونشرها. ورأت أن على مؤسسة التعليم العالي؛ أن تنهض بوظيفتها بروح علمية وموضوعية، وتكون - في الوقت نفسه - ملازمة للحضارة. وأشارت إلى أنه عندما راحت ماديات الحياة تتصارع وأمورها تتشابك، رأى المفكرون أنه قد نشأت عن هذه الاحتكاكات، الأفكار والأفكار المضادة، التي باتت تلعب دوراً خطيراً في النزاع

بين طبقات البلد الواحد والدولة الواحدة، كما بين البلدان والشعوب المختلفة[٢٩].

هذا ولم يعد يقتصر دور هذه المؤسسة على العلم لمجرد العلم؛ كما كان الاعتقاد السائد في العصور السابقة، بل بات رمزاً من الرموز التي « تحفظ المعرفة، وتعمل على تنميتها ونشرها، وعليها أن تنهض بوظيفتها بروح علمية وموضوعية، وقد أصبحت في العصر الحديث مقترنة بالحضارة» [٣٠].

ويرى الأستاذ الجامعي كامل عياد، أنه لا يجب أن يقتصر دور الجامعة في المجتمع، على تغذية أفكار الشباب بالعلم والمعرفة، في معزل عن الزمان والمكان، بل على العكس، إن « الدراسة الجامعية تظل عقبة وتصبح عبئاً ثقيلاً؛ إذا هي لم تجهز الشباب بالوسائل اللازمة لفهم العالم الذي يعيشون فيه، وتفسير المشاكل التي تجري حولهم»[٣١].

وعلى نطاق أكثر شيوعاً، فضل المحاضر والمفكر الأكاديمي نقولا زيادة، أن يكون للجامعة دورٌ أساسيٌّ؛ يقوم على دفع الطلاب، في أن يكونوا باحثين في قضايا أوطانهم وأممهم، لينتجوا أبحاثاً ويضعوا حلولاً؛ للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي تعاني منها بلدانهم[٣٢].

وأشار الأديب طه حسين إلى أن: «مهمة الجامعة هي قبل كل شيء، أن تتلقى الشباب في هذه الأطوار من أطوار الحياة، فتعلمهم كيف يصبحون رجالاً، وكيف يهيئون أنفسهم لتحمل تبعات الحياة، وكيف يهيئون أنفسهم لفقه ما يعرض لهم من المشكلات في حياتهم. ثم تعلم فريقاً منهم – والخير في أن يكون هذا الفريق قليلاً لا كثيراً – كيف يُخلصون أنفسهم للعلم، وكيف يقفون حياتهم على البحث والتنقيب والاستقصاء، والإضافة إلى ما أتيح للناس أن يعرفوا إلى الآن»[٣٣].

هذه المفاهيم والنظريات عن دور الجامعة في حياة المجتمعات عامة، والعربية بخاصة، ليست صعبة التحقيق أو بعيدة عن أرض الواقع الأكاديمي والتعليمي، الذي عملت فيه زاهية قدوره. وهو ما لمسه كل من عايش مسيرة حياتها، وتتبع دراساتها ومؤلفاتها، وعرف توجهاتها وتعاليمها. عندما كانت تقوم بدفع الشباب لتحمل مسؤولياتهم كاملة؛ وترويض أنفسهم على حل مشاكل مجتمعاتهم، عن طريق دراسة الأزمات التي تعترضها؛ وحسن التصرف تجاهها بكل تجرد وموضوعية، نتيجة تسلحهم بالعلم والمعرفة والثقافة، التي اكتسبوها من الجامعة، وأضافوا إليها أشياء من ذواتهم وأنفسهم.

وخلصت إلى « أن وجود الجامعة، مرهون بتطور المجتمع وتقدمه، وعلى

الجامعة أن تساير تقدم البلد، وتواكب تطوره الحضاري، والجامعة معقل الفكر والمعرفة، أي عليها بالنسبة للوطن نشر تراثه الحضاري الذي لا يمكنه أن يعيش بدونه، والجامعة ليست مجرد معهد للخدمة بحد ذاته وتكديس المعرفة وتخزينها، أو مؤسسة لإعداد الموظفين للدواوين الحكومية والشركات والمؤسسات الخاصة، أو مجرد معهد للتدريب التطبيقي والعملي، أو للعناية بالمعامل والمختبرات والمكتبات ومراكز البحث العلمي فحسب، بل هي معقل للفكر الإنساني في أعلى مستوياته، ومصدر إنتاج أهم ثروات المجتمع وأغزرها، ألا وهي ثروة الشباب والرجال الذين يصنعون الأوطان، ويساهمون في تطور الحضارة الإنسانية»[٣٤].

بمقارنة هذه الأفكار مع من سبقت الإشارة إليهم؛ يتبين أنها اختلفت عنهم من ناحية ربط دور الجامعة بتطور الوطن وتقدمه، وتمايزت عنهم باعتقاد مفاده؛ أن مواكبة التطور يجب أن ينطلق من الجامعة نفسها. بمعنى أن الوطن إذا تقهقر أو تأخر أو اندثر، ستصاب الجامعة بنفس الحمّى التي أصابته.

توصلت إلى هذه الفكرة، من خلال التجربة العملية والمحسوسة في الجامعة اللبنانية، التي أشارت إليها في مناسبات مختلفة؛ من أن المصيبة التي لحقت بالوطن وأصيبت بها الجامعة اللبنانية، إنما كانت نتيجة للأهواء والأنواء التي عصفت بجسد الوطن، فأصاب الجامعة اللبنانية ما لحق به وبالمجتمع اللبناني من أوضاع وظروف. وعندما استعاد الوطن حياته الطبيعية، وعاد لممارسة دوره، عادت الجامعة تستعيد أدوارها، وتمارس مهامها الأكاديمية المنوطة بها.

٧ – دور الجامعية في بناء المجتمع العربي المعاصر

أرادت من هذا البحث إضفاء دراسة اجتماعية سوسيولوجية؛ على أوضاع بعض الأقطار العربية الاجتماعية، التي كانت قد درست مقومات وجودها في كتاب تاريخ العرب الحديث. وشكلت في نظرها؛ مجتمعاً واحداً، نشأ عن امتزاج عناصر بشرية مختلفة، وفدت خلال حقب تاريخية متعاقبة، تفاعلت في حضارته. مما دفع هذه المجموعات البشرية للاندماج في رابطة أساسية، قوامها اللغة الواحدة، والتاريخ المشترك، وتلازم الأرض والمصير[٣٥].

وكان للخبرة الأكاديمية والتربوية التي اعتمدتها مهنة لها، أن تضع نصب أعينها خطة عملية لترشيد الفتاة الجامعية؛ للإفادة من إمكانياتها وقدراتها. وقامت في

هذا المجال بجهود لافتة، وخاصة في المؤلفات التي وضعتها بتوجيه الوصايا والإرشادات للمهام التي يجب أن توكل إلى الفتاة الجامعية لتمكينها من العمل على تنمية مجتمعها، والمساهمة في تطوره وتقدمه، علمياً وإنسانياً. ودفعها إلى تنفيذ كل ما اكتسبته من خبرات تعليمية، وذلك بتلقينها للفتيات اللواتي هن أقل منها مستوى تعليمي ورتبة ثقافية. يوجد الكثير من هذه الأمثلة في البحث، ويوجد غيرها أيضاً في مبحث آخر حمل عنوان: مهمة الجامعية، وذاك الذي حمل أيضاً عنوان: المرأة في التعليم الجامعي، أو الذي وسمته باسم: مساهمة الجامعية في التطوير العلمي للمجتمع. وغيرها من المؤلفات والأبحاث المخطوطة، وغير المنشورة.

كما وجد بحث حمل عنوان: دور الجامعة في المجتمع، ظهر منه المفهوم العملي لدور الجامعة في المجتمع. وهو من خارج الأبحاث الموضوعة في كتاب: بحوث عربية وإسلامية.

٨ – دور الجامعة في المجتمع

منذ اليوم الأول الذي عملت فيه زاهية قدوره في الحقل التربوي عامة، وفي الجامعة اللبنانية بصورة خاصة، اقترنت شخصيتها بهذا الصرح الفتي في ذلك الوقت، الذي لم يكن قد احتل مكانته بعد؛ كجامعة كبيرة ومتطورة، كالجامعتين اللتين كانتا موجودتين في بيروت – آنذاك – وهما الجامعة الأميركية وجامعة القديس يوسف.

وقد تمت الإشارة سابقاً إلى الأثر الذي تركته كل من الجامعة الأميركية في بيروت، وجامعة فؤاد الأول في مصر في نفسها. وكذلك إلى الظروف المختلفة التي لمستها وعايشتها فيهما، ومقارنتها بما صادفته في معهد المعلمين العالي، منذ أن وطأت قدميها سلم هذا المركز التعليمي في بيروت. مما أوجد عندها حساسية معينة، تجاه الأوضاع التي شاهدتها في المكانين الأولين، وتلك التي عاشتها في الثانية، وصدمت مما صادفها في الثالثة.

فرأت ضرورة العمل لتغيير هذا الواقع، وقررت أن تصرف سني حياتها في رحاب هذا الصرح التعليمي، تثقف وتهذب، إلى جانب القيام بالتدريس. وبات هذا الحصن الثقافي - الجامعة اللبنانية - همها الدائم، الذي أرق أيامها وسنين عمرها، بعد أن احتل مكانة مميزة في مسيرة حياتها.

على ضوء ذلك، سيطر على فكرها شعار الجامعة الوطنية الواحدة والموحدة،

وطالبت لتحقيقه بوجود جامعة لبنانية، تكون على مستوى الآمال والطموحات، كمثال الجامعات العربية والأجنبية التي زارتها. جامعة يكون لها دور هام ومميز في المجتمع، كالمجتمع اللبناني، الذي اتخذته مقياساً لهذا الدور. فراحت تعمل لقيام الجامعة اللبنانية من خلال إعداد المجتمع المثالي لها، مجتمع النخبة المتميزة المنطلق من رحاب فكرها وثقافتها وتعاليمها.

ولوضع هذه الأفكار في مكانها الصحيح؛ وضعت بحثاً ضمنته أفكارها وطروحاتها، التي كانت تنادي بها، وعملت بأن تكون على مستوى الواقع والحقيقة. ففي بحث: دور الجامعة في المجتمع، ظهرت أشياء من الأبعاد الثقافية التي طرحتها. فضلاً عن قيامها بتوضيح بعض المعارف الإنسانية والعلوم الحياتية، التي توسمت تحقيقها في الجامعة اللبنانية.

وجاء في مقدمة البحث المذكور: « إن الجامع والدير، هما المعقلان اللذان صانا المعرفة، وحافظا عليها ورعياها خلال عصور التخلف، ومنه انتقل العلم إلى المؤسسات الزمنية في الشرق والغرب. وعلى سبيل المثال، نذكر المستنصرية والنظامية في بغداد، والأزهر في القاهرة، والقيروان في فاس، والزيتونة في تونـس» [٣٦].

يتبين من ذلك، الفكرة الشاملة التي رسمتها في فكرها؛ حول الهالة التي وضعتها للجامعة. فشبهتها بإحدى المنارات العلمية السَّنِيّة، في العصور العربية الناهضة. وبأنها من الأمكنة التي انطلقت منها علوم العرب إلى أوسع الأرجاء، في أزمنة مختلفة. وبفضلها تحولت المعرفة من شعاع علمي مستنير، إلى عامل أساسي في تحقيق إغناء الحاجات البشرية وتأمين سبل سعادتها. وكان دور الجامعة احتضان هذه المعارف، والعمل على تطويرها والتفاعل معها.

فإذا كانت النظرة الشائعة إلى الجامعة فيما مضى، بأنها ذات كيان محدود الآفاق والقدرات، فقد تغيرت مع زاهية قدوره، وتحولت وتطورت لتصبح الجامعة ذات الروح القومية، صاحبة دور في التخطيط والتنسيق لنمو المجتمعات البشرية، مما يحتم «ربط الجامعة بالمجتمع وتلاحم المجتمع بالجامعة..»[٣٧].

في عملية تحليل للأهداف المرجوة من الجامعة، وُجد عندها اتجاهٌ أشارت فيه، إلى أنه حان الوقت لتغيير المفهوم السائد لها. فباتت مهماتها تلبية احتياجات العصر وإجراء البحوث العلمية، ونقل المعارف البشرية والإنسانية، وتنسيق وإعداد الشباب

للتخصص المهني، والعمل على تربية الشخصية الفردية والمجتمعية وتثقيفها، وأخيراً نشر الثقافة بين جمهور الشعب[٣٨].

إن تاريخ الجامعات في العالم، حافل بتركيزه على واحد أو اثنين من هذه الأهداف. فبعض الجامعات الألمانية في القرن التاسع عشر أعطت عنايتها لمنحى البحث العلمي، بينما بعض الجامعات الفرنسية، أفردت اهتماماً خاصاً لعملية التعليم فيها. في حين أن الجامعات الإنكليزية، ركزت جهودها على بناء الشخصية وتكوينها عند جمهرة الطلاب.

إلا أن الجامعات الحديثة في الوقت الحالي، لم تقصر عملها على ناحية واحدة من هذه النواحي، بل صرفت جهودها على التوفيق بين هذه الأهداف مجتمعة قدر الإمكان، وإعطاء كل ذي حق حقه، فيما يعود على المجتمع بالمنفعة المرجوة.

ومهما اختلفت الظروف، فإن مفهوم الجامعة يتضمن الإخلاص للعلم واحترام الحقيقة. ولا يمكن للفكرة أن تتحقق، إلا إذا تدرب الطلاب على طريقة البحث العلمي؛ واعتادوا النقد الصريح النزيه، وشعروا بالمسؤولية، واحترموا حرية الفكر والقول، واتصفوا بالتسامح تجاه من يخالفهم في الرأي والعقيدة.

وهناك دور آخر للجامعة، فبالإضافة إلى تنمية المجتمعات وتطويرها علمياً وإنتاجياً. يقوم دورها الآخر على صقل عقول الطلاب بكل رغبة وجدية؛ توصلاً لانتاج النخب القادرة على الاستنتاج مما تشاهده حتى يصبح بإمكانها التمييز بين الأمور عن معرفة كاملة، وإصدار الأحكام الخالية من أي غاية.

ولا يمكن للجامعات أن تؤدي رسالتها تلك، إلا إذا خرجت من عزلتها، وشاركت في الحياة العامة مشاركة فعالة، وقامت بنشر العلم بين الناس ودفعهم إلى احترامه.

يظهر من متابعة سير التطور الذي سلكته الجامعة، وما صارت عليه أهدافها، أن دورها بات يتمثل بتوسيع آفاق المعرفة؛ مما يدعو لربطها بالمجامع العلمية والثقافية. وفيما يتتابع البحث مع زاهية قدوره للاطلاع على معنى وجود الجامعة عندها. قامت تعمم لفكرتها بالقول: «إن وجود الجامعة مرهون بتطور الوطن وتقدمه، وعلى الجامعة أن تساير تقدم البلد، وتواكب تطوره الحضاري، والجامعة معقل الفكر والمعرفة، أي عليها بالنسبة للوطن نشر تراثه الحضاري الذي لا يمكنه أن يعيش بدونه»[٣٩].

لم يكن الهدف من ذلك ربط وجود الجامعة، بكونها مؤسسة للمعرفة وتخريج

الموظفين والأطباء والمهندسين فقط، بل حددت لها دوراً أكبر من ذلك. فهي في نظرها خزان لشحن عزيمة الشباب، ومصنع للرجال المزودين بالفكر الإنساني المبدع. «الجامعة ليست مجرد معهد للخدمة بحد ذاته وتكديس المعرفة وتخزينها، أو مؤسسة لإعداد الموظفين للدواوين الحكومية والشركات والمؤسسات الخاصة، أو مجرد معهد للتدريب التطبيقي والعملي أو مجرد معهد للعناية بالمعامل والمختبرات والمكتبات ومراكز البحث العلمي فحسب، بل هي معقل للفكر الإنساني في أعلى مستوياته، وهي مصدر لإنتاج أهم نزوات المجتمع وأعزها، وهي نزوة الشباب والرجال الذين يصنعون الأوطان، ويساهمون في تطور الحضارة الإنسانية» (٤٠).

هذه هي رؤيتها لدور الجامعة في المجتمع. ثم راحت تدعو إلى قيام الجامعة الواحدة الموحدة؛ الفاعلة والمتفاعلة، المؤتلفة للحضارات العديدة، العاملة على إغناء مجتمعها بالفكر والقلم، كما بالرجال الذين يصنعون المستقبل، ويقودون الأجيال نحو العزة والكرامة.

ولتحقيق ذلك يجب أن تترافق هذه التطلعات مع خطة مدروسة؛ تساعد على نجاح تطبيق التعاليم الجامعية الناهضة لدراسة الواقع، أي واقع المجتمع؛ دراسة علمية موضوعية، تساعد على ربط التعليم بالخطة الإنمائية الشاملة، لأن المجتمع وحدة متكاملة لا يمكن تجزئته، تماما كالفرد وشخصيته، الذي يعتبر وحدة متكاملة لا يمكن عزل صفة منها عن الأخرى.

هنا يجب العمل على شد أزر العلماء والمفكرين ليكون لهم دور فاعل في حياة الجامعات، وهو من ضمن الأدوار التي يجب أن يعدوا لها، خاصة وأن طبقة المثقفين بحاجة دائمة، إلى المنارات العلمية لهؤلاء العلماء والمفكرين.

احتلت هذه العناوين مكانة هامة في مسيرة حياة زاهية قدوره العلمية والأكاديمية، وهيأ لها مركز عميدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرصة المناسبة للعمل بجدية وموضوعية أكثر، لتطبيق المبادئ وتنفيذ الأفكار الأكاديمية والجامعية، التي كانت تحلم بها، وصرفت جهودها لتحقيقها منذ اليوم الأول لتسلم مهام العمادة. وفي العديد من كتبها ومراسلاتها المتعلقة بكلية الآداب بصورة خاصة، والجامعة اللبنانية بصورة عامة، لم تتوان عن التذكير بمطالبها حيالهما، لتطويرهما وتقدمهما. وبالرغم من أنه لم يتم تحقيق معظم الأفكار التي اقترحتها، إلا أنه تم تنفيذ كثير من المواضيع؛

بحيث سجل لها الفضل أنها عملت وناضلت وكافحت، وباتت شعاراتها وطروحاتها؛ موجودة في برامج وخطط، تطوير الجامعة اللبنانية، وكلياتها ومعاهدها.

وكانت جملة النقاط التي وردت في بحث: دور الجامعة في المجتمع، خلاصة للتجارب التي توصلت إليها وعاشتها ردحاً من الزمن. أما النتائج والعبر التي خرجت بها، فلتّدليل على دور الجامعة في حياة المجتمعات. بحيث أنه لا يمكن أن تقوم حياة في أي جامعة، ما لم يكن لها ضمير حي يحركها، يعمل على تطويرها. ومن مهام هذا العقل ترسيخ وحدة العقول، وتوحيد المراكز العلمية والأكاديمية، مما ينمي قدرة هذه وتلك، على استعادة أصالتها.

٩ ـ بيروت في القرنين الأول والثاني للهجرة من خلال تاريخ: ابن عساكر

ورد في كتاب بحوث عربية وإسلامية في الباب الثاني منه، بحث بعنوان: بيروت في القرنين الأول والثاني للهجرة من خلال تاريخ ابن عساكر. أرادت منه الباحثة دراسة تاريخ بيروت والاطلالة على فترة ربما كانت منسية في عملية تأريخ المدن العربية عند بعض المؤرخين والمستشرقين الغربيين. ولكن ابن عساكر أفرد لها مكانة بارزة في تاريخه، وعمل على تدوين فترة مهمة من حياة هذه المدينة في جوانبها السياسية والفكرية والاجتماعية(٤١).

تبلغ مدة الفترة الممتدة من الفتح العربي الإسلامي إلى بداية الفتح العثماني، حوالي ثمانمئة وثمانين عاماً، وهي مرحلة غامضة في مفهوم الكتابة التأريخية، ولم تأخذ حيزاً من كتابات المؤرخين؛ كالفترة الفينيقية، والعثمانية وغيرهما.

استهجنت زاهية قدورة هذا التهاون واستغربت التقصير الذي ظهر من مؤرخي القرون الوسطى، الذين لم يهتموا بتدوين كافة المراحل التاريخية بنفس المستوى، لأنهم كانوا يدونون ما يشاءون، تبعاً لأهوائهم والحوادث التاريخية التي كانوا يميلون إليها بعواطفهم. ولاحظت هذا الأمر واعتبرته إهمالاً فاضحاً في تدوين التاريخ العربي الإسلامي.

كما حملته المسؤولية، بعد أن رأت الخسارة الكبيرة التي نتجت عن هذا التقصير، والإنصراف إلى العناية بتدوين تاريخ الملوك والأمراء، وملاحقة أخبارهم ونزواتهم، لكسب رضاهم والفوز بنعمهم وأعطياتهم السخية. أما المؤرخون اللبنانيون - الذين تفردوا بتدوين تاريخ لبنان الحديث والقديم - فقد عابت عليهم نزواتهم في هذا

المجال. لأنهم أغفلوا تدوين تاريخ حقبة تاريخية مهمة عمرها تسعة قرون. وهي الفترة التي لا يمكن لأي مؤرخ صادق مع نفسه وتاريخه، وصريح في علاقاته التاريخية، أن يتخطاها من دون تدوين تواريخها. وتناسي ذكر أيامها وحوادثها، مما أدى إلى إهمال عملية التكوين الحقيقي للتاريخ اللبناني، الحديث والمعاصر.

كما رأت أن هناك مغالطات أخرى عند عدد من المؤرخين اللبنانيين منها الاهتمام برقعة جغرافية معينة من لبنان، والتغافل عن إعطاء المناطق الأخرى حقها من الكتابة وتدوين الأخبار عنها. كالشمال والجنوب والبقاع وبيروت، التي عرفت عناية أقل في كتابة تاريخها، كما ظهرت العناية والاهتمام بتدوين تاريخ المنطقة الجغرافية المعروفة بجبل لبنان. وتساءلت: « هل أن هذه المنطقة لها أهمية أكثر من غيرها ؟ وبالتحديد أكثر من بيروت التي تعتبر من أهم الثغور العربية آنذاك ؟» [٤٢].

وهو ما كان حال بيروت، في طور نشأتها الأولى؛ امتداداً إلى العهد الروماني وصولاً إلى الفتح العربي الإسلامي. ووجدت ذلك في أثناء دراسة مكانة بيروت في العصور القديمة؛ إذ اكتشفت ندرة في المصادر التي أتت على ذكر تاريخها، ولا سيما في الفترة الممتدة من الفتح العربي الإسلامي، حتى زوال عهد المماليك. سوى كتاب: تاريخ بيروت لصالح بن يحي[٤٣]، الذي دونه استناداً لروايات أقاربه من أمراء الغرب، الذين قاموا بالدفاع عن بيروت ضد غزوات الإفرنجة[٤٤].

اعترضت هذه العقبات زاهية قدوره في عملية التأريخ، وواجهتها عند وضع الأبحاث وإعداد المحاضرات، عندما كانت تلجأ إلى المصادر والمراجع القديمة، للتحقق من فكرة معينة أو لتوثيق بحث أو مروية تاريخية، بالطريقة التي ترى فيها صحة المعلومات المطلوبة.

ففي بحث: بيروت في القرنين الأول والثاني للهجرة من خلال تاريخ أبن عساكر، لم تكتف فيه بالاستشهاد على تأريخ ابن عساكر فقط[٤٥]؛ بل عادت إلى المصادر العديدة، والمراجع المختلفة، تقمش وتبحث عما يدعم فكرتها بالحقيقة واليقين.

كما عادت إلى المخطوطة الموجودة في دار الكتب المصرية حول تاريخ مدينة دمشق من تهذيب أبن عساكر، وإلى غيرها من المصادر والمراجع، التي توافرت لها، وفيها ذكر للفترة التاريخية التي دار عليها تاريخ ابن عساكر[٤٦].

وألمحت إلى أنها استفادت كثيراً من دراسة مخطوطة ابن عساكر، بسبب

الحجب المتعددة التي أزيلت من طريقها؛ عندما نهضت للبحث عن تاريخ بيروت. فوجدت أن تاريخ هذه المنطقة، قد أصيب بالإهمال عند بعض المؤرخين. والسبب أن بيروت لم تكن بنظرهم في تلك الفترة، بذات المكانة التي كانت عليها حال منطقة جبل لبنان. فنظروا إليها، من خلال وضعها الجغرافي القديم، على أنها مساحة من الأرض لا مكانة تاريخية لها ولا أهمية، وكان اهتمامهم منصباً على تدوين تاريخ جبل لبنان. يعود ذلك ربما، إلى الواقع الاجتماعي والصراع السياسي، الذي شهدته المنطقة، بسبب امتدادها الجغرافي. فتناسى المؤرخون هذه المكانة التاريخية عبر العصور القديمة، كالفينيقية والرومانية والبيزنطية، وصولاً إلى العهدين العربي والعثماني، وغاب عن بال بعضهم أنها كانت مركز ولاية، وأقام بين ظهرانيها عدد من الأمراء والسلاطين[٤٧].

لذلك نهضت لتصحيح هذه المغالطات و سد النواقص المزعومة حول تاريخ بيروت؛ وبذلت لدعم فكرتها وقتاً غير قصير، بحثت ودرست وناقشت، ثم حللت ما حصلت عليه من معلومات، وطابقته مع ما سبقه وما لحقه من أخبار وروايات، توافقت مع موضوع تاريخ بيروت.

لم تقطع في عملها بصحة الأمور التي حصلت عليها، بل أخضعتها للمساءلة. بمعنى آخر، لم توجه اللوم إلى ابن عساكر، لأنه لم يذكر شيئاً عن تاريخ بيروت، في حين قام غيره بذكر أخبار مدينة طرابلس، وقد أعطته العذر، لأنها لا تملك ضده شيئاً، بالرغم من إشارتها إلى إغفاله الكتابة عن بيروت.

ومهما يكن من أمر، فقد رأت أن بيروت كان شأنها، شان سائر مدن الساحل الشامي، التي فتحت بعد موقعة اليرموك. ورأت أن ابن عساكر أغفل تدوين فتح بيروت، وقالت: « لم يذكر ابن عساكر شيئاً عن فتح بيروت في ٦٣٤م، في الوقت الذي يتحدث فيه عن فتح المسلمين لطرابلس الشام والمدن الساحلية الأخرى..»[٤٨].

وتابعت الإشارة إلى الملاحظات القليلة، التي ذكرها ابن عساكر في تدوين الأخبار عن بيروت القديمة. ومنها أن الأسطول البحري البيزنطي، قام بهجوم مضاد حوالي العام ٦٤٣م. أسترد بعده أكثر مدن الساحل، فأضطر والي الشام معاوية بن أبي سفيان[٤٩] إلى الانتظار لمدة سنتين، لإعداد قوة بحرية يفتح بها مدن الساحل الشامي، ما عدا طرابلس، التي بقيت بيد البيزنطيين، لمدة ثلاث سنوات أخرى.

من مدونات ابن عساكر، التي نقلتها عنه أنه عندما دخل العرب المسلمون

إلى بيروت، لم تكن هذه أكثر من قرية صغيرة معظمها خراب نتيجة الزلازل الكثيرة التي ضربتها، ومنها زلزال العام (٣٣ هـ/٥٥٥م) الذي دمر أهم معالمها، كمدرسة الحقوق المشهورة[٥٠] ومكتبتها، ومنشآت مرفئها. وبالرغم من ذلك، فقد شهدت خلال حكم معاوية بن أبي سفيان، حدثين مهمين: الأول تحولها إلى نقطة تمركز لقطعات من الأسطول البحري العربي، والثاني إمدادها ببعض العناصر السكانية، لتكون سكناً نهائياً لهم، إلى جانب رجال الحامية البحرية، الذين كان يجيء بهم للمدافعة عن بيروت[٥١].

عاشت بيروت؛ ردحاً من الزمن، في ظل الإدارة العربية الإسلامية، وتولى بعض ولاتها أمور الإدارة فيها زمن الحكم العربي الإسلامي، كعبد الرحمن بن سليم الكلبي الذي كان من أصل يمني، وعبد الرحمن الجهني. وقام في بيروت منصب أمير المدينة، وسكنها العرب والمسلمون، الذين كانوا يرتبطون إدارياً ومالياً بأمير البحر.

بتقادم الأيام وتوالي الأحداث، جرى الفصل بين المنصبين في أيام عبد الملك بن مروان[٥٢]. ورأت أن منصب صاحب بيروت بقي من الأمور الغامضة سواء في تاريخ دمشق الكبير، أو من خلال تاريخ ابن عساكر عن بيروت، لأنه كان يطلق عليه في بعض الأحيان أمير ساحل دمشق[٥٣]. من هنا نشأ الغموض حول حدود ولايته، هل كانت تشمل المنطقة الممتدة من عكا إلى طرابلس، أم كانت غير ذلك ؟

لم تجزم فيما إذا كان منصب صاحب بيروت مستقلاً عن إمارة الساحل؟ لكنها أكدت أن أمير الساحل كان يتخذ من بيروت في بعض الأحيان مقراً له.

وفي العصر العباسي الأول قررت الإدارة العربية، المجيء بمجموعات من القبائل العربية، وتسهيل سكنها على الساحل بين بيروت وصيدا؛ لتقوم بالمدافعة عن الساحل اللبناني.

عرفت بيروت حياة علمية زاهرة، بعد أن كانت منغلقة على نفسها بعض الشيء، ولم تشهد التطور الذي عاشته إلا بعد فترة من هذا الوقت، بسبب الأوضاع السياسية التي جثمت على صدرها، وانصرفت للدفاع عن نفسها ضد الأطماع البيزنطية. بدأ تطور بيروت وتقدمها العلمي، زمن الأمام عبد الرحمن بن عمرو، المعروف بالأوزاعي[٥٤] الذي وفد إليها ورابط فيها للمدافعة عنها[٥٥].

نزل الأوزاعي في بيروت مرابطاً، إلا أن المصادر لا تشير إلى اشتراكه في صد الغزوات البحرية التي تعرضت لها بيروت.

عددت الكاتبة نقلاً عن ابن عساكر، أسماء الصحابة والتابعين الذين عرفوا برباطهم في بيروت؛ وأمراء البحر الذين رابطوا فيها، وهم من العلماء التابعين. وإذا كانت بيروت لم تعرف في هذا العصر الزهاد المنقطعين، كأولئك المعتزلين في جبال لبنان في تلك الفترة؛ فقد عرفت منصب القاضي في السرايا، إضافة إلى أنها عرفت منصبي قاضي الجند، وقاضي المدينة، اللذاين ظهرا في العصر العباسي.

وسردت وصفاً لحياة بيروت العلمية من مختلف اتجاهاتها، وهو ما أخذته نقلاً عن تاريخ ابن عساكر. فذكرت مثلاً، أنه لم تنشأ فيها، حياة اجتماعية حقيقية؛ إلا بعدما نزلها المسلمون، إثر انسحابهم من الجزر المحيطة بها، في عهد يزيد بن معاوية[٥٦].

ونقلت عنه وصفاً للزلزال الذي ضربها في حوالي منتصف القرن الثاني الهجري؛ مما أعاد هذه المدينة قرناً إلى الوراء، وجعلها تنتظر قرناً آخر، لتعود إلى الظهور في مؤلفات الجغرافيين المسلمين.

لعل هذه القراءة السريعة لبيروت من خلال ابن عساكر، لم تظهر الشيء الكثير عن المدينة، ربما لأن ذلك يعود في جزء منه إلى طبيعة الكتاب، واعتبار كونه من كتب التراجم بالدرجة الأولى.

كما أن القراءة الموضوعية لأخبار بيروت من خلال ابن عساكر، لن تزيد كثيراً من الصور التاريخية والحضارية المتنوعة عنها. فالكتابة التاريخية في كل عصر لها منطقها ونوازعها ونقاط اهتمامها. ومن هنا أمكن أن نتبين عدم تلبية طموح زاهية قدوره في هذا المقام، لتوضيح مكانة بيروت في ذلك الوقت. إلا أنه رغم المنهجية المختلفة بينهما، يمكن استخرج صور تقريبية للوحدة الاجتماعية التي عاشتها بيروت، والشمولية المتماثلة التي عمت جوانب مجتمعها الصغير آنذاك ، وهي شمولية مستمرة الحلقات، تطال جميع فئات الشعب.

وخلصت إلى أن ابن عساكر استنتج جملة من العوامل، تبدت لها من دراسة تاريخه، وتوصلت من خلالها إلى أن بيروت عاشت مرحلة الصعود والتفوق، بعكس المدن المماثلة لها في تلك الآونة، فباتت ثغراً من ثغور المسلمين المهمة؛ بخاصة منذ أن بدأ الاهتمام بمرفئها، وبمركزها كرباط للمجاهدين المسلمين. فارتادها صحابة، وتابعون، وزهّاد، وقادة بحريون كبار، رابطوا فيها في إطار الاستراتيجية العربية الشاملة، وقيل إن بيروت ساهمت في ضبط الداخل بمرابطها[٥٧].

يبدو من مجمل البحث الذي جالت فيه على تاريخ بيروت من خلال ابن عساكر، توضيح النشأة المتواضعة لمسجد بيروت؛ والإيجابيات الروحية والإنسانية التي عاشتها المدينة في ظلاله. فعبر سلسلة أئمة جامعها، ظهر خط علمي متميز، انتشر في بقاع الشام كله، وشدد من ارتباط بيروت ودمشق عبر الأوزاعية، بعد الارتباط في الإمارة والحكم وإدارة الحكم.

وإذا كانت بيروت قد لقبت بساحل الشام، كما عرفت بمرابط أهل دمشق منذ خلافة عثمان بن عفان. وأشارت بشكل انفرادي وباستقلالية تامة عن ابن عساكر، وربما كاستنتاج مباشر لدراسة تاريخه، أنه عندما حدثت التغييرات في الاستراتيجية البحرية العربية؛ التي استهدفت إنشاء نقاط قوية وثابتة، بدلاً من الجزر الصغيرة الكثيرة والمنتشرة التي لا يسهل الدفاع عنها. عند هذا الواقع وأمام هذه المتغيرات المهمة؛ احتلت بيروت مكانة كبيرة ومهمة، وتركزت فيها أكثر القطع البحرية للأسطول الإسلامي. ومما يدل على أهميتها وتكاثر المرابطين فيها، أن استنجد والي الداخل الشامي برجالها لضرب العناصر المدعومة من البيزنطيين، الذين كانوا يُدفعون إلى زعزعة استقرارها، ونشر البلبلة بين ظهرانيها، كتمرد ثوار المنيطرة[٥٨].

خلاصة الأمر، أن بيروت اكتسبت قيمتها عبر التاريخ العربي، من خلال الارتباط بمحيطها العربي، خاصة دمشق، التي كانت بيروت من ساحل دمشق وجندها[٥٩].

١٠ – سلة أبحاث متفرقة

تضمن كتاب بحوث عربية وإسلامية، أبحاثاً أخرى، كانت زاهية قدوره قد وضعتها في مناسبات مختلفة. ومنها الأبحاث الأربعة التالية: القيم والأعراف الأخلاقية في الحضارة العربية الإسلامية. وحقوق المرأة في الإسلام. والغزو الثقافي الإمبريالي للأمة العربية. ونحن وأميركا والغرب.

يعتبر بحث: «القيم والأعراف الأخلاقية في الحضارة العربية الإسلامية» من الأبحاث ذات الصلة بالحياة الاجتماعية عند العرب. ركزت فيه على عادات العرب وأخلاقهم ومميزاتهم الإنسانية والحضارية، المنطلقة من رحاب الدين الإسلامي، الذي هو دين تسامح ومحبة وغفران، وليس دين القتل والتعصب والإرهاب، كما يتم التركيز عليه في الوقت الحاضر، في وسائل الإعلام الغربية والصهيونية، للنيل من قوة هذا الدين العظيم، والقضاء على مقوماته الحضارية والإنسانية[٦٠].

أما بحث: «الغزو الثقافي للأمة العربية» فقد تناولت فيه قصة الصراع الثقافي، الذي جاء فيه أنه بعد أن فقدت الدول الغربية، القدرة على محاربة العرب عن طريق سلاح ساحات الحرب التقليدية والعنفية الجديدة، الذكية والمدمرة. لجأت هذه الدول إلى نوع جديد من الأسلحة، وهو محاولة القضاء على مقومات العربي العقلية والفكرية والتربوية والثقافية.

وهناك بحث ثالث أيضاً وهو بعنوان: « نحن وأميركا والغرب» . يتبين منه أنها عالجت فيه الواقع السياسي. ويبدو من الأفكار التي وردت فيه، أنه وضع، بسبب محاولات الدول الغربية، فرض هيمنتها ونفوذها السياسيين على البلاد العربية، بعد أن استحال عليها ذلك بمنطق السلاح.

ولذلك يعتبر هذا البحث أنه في سياق مغاير بعض الشيء، بالرغم من أن الأفكار العامة الواردة فيه، قد دارت من النقطة التي حملت عنوانه. أي نحن، يعني معشر العرب، وأمريكا رافعة رايات النضال والحرية والعدالة والمساواة، في فترة من فترات كفاحها ونضالها. ثم تحولها إلى النقيض لتصبح المتصدية الأولى في العالم لأي نضال، والمناهضة لحريات الشعوب، وصاحبة أطول سجل من الظلم والقهر. ثم الغرب، أي أوروبا التي لا يمكنها أن تدور إلا في الفلك الأمريكي، ولا سيما بعد انتهاء الحرب الباردة، وسقوط مقولة المعسكر الاشتراكي.

ويبقى من الكتاب المبحثان اللذان ضمهما الباب الرابع وهما: العصبية في المجتمع العربي: طبيعتها وأثرها. ومفكران لبنانيان وقضية فلسطين: نجيب عازوري وميشال شيحا.

دار البحث الأول على فكرة العصبية عند العرب، وما كان لها من تأثير على المجتمعات العربية، أما الغاية التي رمت إليها من وضعه. فقد تضمنت دراسة الأفكار الثقافية، فضلاً عن الطابع الاجتماعي الذي غلب على تأليفه.

ودار البحث الأخير حول وضع لبنان وعلاقته بالقضية الفلسطينية، وتوضيح مفهوم كل من نجيب عازوري وميشال شيحا حيالها. ومدى التأثير الذي أحدثته هذه القضية على مجمل الوضع العربي برمته.

يتبين من المندرجات التي اعتمدتها لتقسيم أبحاث الكتاب، أنها هدفت من خلاله، أن يحتوي العناوين العريضة من طروحاتها وأفكارها. فضمت بين أوراقه؛

أبحاثاً تاريخية، تبين أهمية العملية التاريخية في حياة الأمم والشعوب. كما ناقشت عبره نظرية: الحقيقة التاريخية عند ابن خلدون. وانطلقت للبحث في مكان آخر منه، حول دور الجامعة في حياة الفرد والمجتمع، وإسهامات الفتاة الجامعية ودورها في بناء المجتمعات الحديثة.

ويلاحظ أن الدكتورة لم تغفل أن تضمن لائحة أبحاثها تلك، واحداً يظهر مكانة بيروت البارزة من خلال أحد أبرز المؤرخين العرب الذي تناول التعريف بها، وبمكانتها العلمية والاجتماعية والدينية والمجتمعية في العهود الإسلامية.

احتوت هذه البحوث أفكار الدكتورة وطروحاتها عن الحضارة العربية وقيمها وأصالتها، والمفاعيل الأخلاقية التي أنتجتها، والإسهامات التي تركتها للمساعدة على بناء المجتمعات العربية والإنسانية.

وتوقفت بالدراسة عند المكانة التي أعطاها الدين الإسلامي للمرأة العربية والإسلامية، والحقوق التي منحها إياها، والامتيازات التي صانها بها.

كما أفسحت المجال فيها لقضية العرب المركزية، فخصصت لها بحثاً مطولاً تناول دراسة القضية الفلسطينية، من خلال شرح مواقف ووجهات نظر مفكرين لبنانيين، وغيرهم سواء من العرب أو من الكتاب الغربيين، الذين عملت على توضيح بعض أفكارهم حيال مقومات هذه القضية، والمصاعب الكثيرة التي أحدثتها في الوطن العربي[٦١].

وبذلك تكون المؤلفة قد ضمنت كتابها بعض الأفكار والتوجهات، مما أنتج خليطاً معرفياً، فكرياً وثقافياً وتربوياً. بثت فيه رسائل متعددة لطلابها، وأهل الفكر والثقافة. فعد الكتاب بالرغم من الشوائب المطبعية التي ظهرت فيه، كتاباً يحمل فكراً حضارياً، سهل المطالعة لكل صاحب اختصاص، بعيداً عن التكلف والغلو، وقريباً من الحقيقة.

ويلاحظ أنها لم تضع بعد هذا التاريخ، منذ منتصف العام ١٩٨٤ وحتى عام ١٩٩٩ أي كتاب آخر. وطالت الفترة حتى أواخر العام ١٩٩٩ تقريباً، عندما أنجزت كتاب مذكراتها رحلة العمر[٦٢]. وبعده بأشهر قليلة، أصدرت كتيباً آخر بعنوان: أبحاث في العروبة والإسلام[٦٣]، وضعت فيه خمس دراسات، تمحورت حول نظرتها إلى: العلاقة بين العروبة والإسلام، والثانية عن: مكانة أهل الكتاب في الدين الإسلامي، وفي الثالثة وضع: أهل الذمة في ظل الحكم العربي الإسلامي.

كما ضمنته المحاضرة التي تمت الإشارة إليها سابقاً، وهي بعنوان: «القيم

والأعراف الأخلاقية في الحضارة العربية الإسلامية» ، التي كانت قد تقدمت بها إلى المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الذي عقد في جامعة دمشق في شهر نيسان/أبريل عام ١٩٨١، ونشرت في كتاب المؤتمر[٦٤].

١١ ـ العملية التربوية في حياة زاهية قدورة وعلاقتها بالتاريخ

نهضت زاهية قدوره لدراسة العملية التربوية برمتها، منذ الفترة الأولى لعملها في الشأن العام. فاتخذتها رسالة، وليس حرفة أو مهنة، تقوم من جراء تأديتها بالحصول على أجر ما، أو قبض تعويض مادي.

فالرسالة التربوية، التي حملت أعباءها وقامت بتأديتها؛ هي رسالة سامية في حياة المجتمعات العلمية المتقدمة، واجهت في سبيلها صعوبات مختلفة ومشاكل متعددة. ظهرت معالمها واتضحت مراميها، في المسيرة التربوية التي سلكتها، وممارسة الأدوار التي قامت بها، سواء كمحاضرة أو كمربية أو كعميدة. من دون الإخلال بأي من النظم العلمية والأكاديمية المتعارف عليها. فكانت المنهجية التي اتبعتها في كل الممارسات التي قامت بها، على مستوى رسالة التربية والتعليم التي ندبت حياتها لها.

أعطت للتربية أهمية كبيرة، بسبب الدور المنوط بها في المجالات المختلفة؛ التي تعنى بإنشاء أجيال تربوية صالحة، لأنها عملية مستمرة لكل زمان وضرورية في كل مكان؛ فمن المحتم إذاً أن تساهم فيها عناصر عدة، كما البيت والأسرة والدولة، إضافة إلى مؤسسات المجتمع الأخرى.

احتلت عملية التربية والتعليم دوراً مميزاً في حياة زاهية قدوره. وظهر ذلك من خلال الكتابات المتفرقة وغير المنشورة التي عثر عليها في الأرشيف، وجاء في إحداها: أن التربية واقع ومنهج وفلسفة. ففي الواقع هي عملية بناء وإصلاح وتوجيه، ويتوقف عليها إعداد الفرد إعداداً علمياً لحياة فضلى. فالتربية لم تكن تلقيناً وتكديساً للمعلومات، ولا عملية تخزين وجمع. إنما وسيلة لتحضير الإنسان وتربيته، ليقوم بدوره في المجتمع. فالتربية بالنهاية عملية تساعد على التقدم، وتحث على التوافق بين الفرد والمجتمع؛ وبالتالي هي: «خط بناء للأمم وإصلاح، ونمو وتطور، وهي بعد ذلك وسيلة لإنماء المعرفة وإثارة الملاحظة؛ والاهتمام بالمثل والعادات، واستغلال الطاقة في الفرد، ليستطيع أن يدرك مركزه الصحيح وما يحويه في مجتمعه»[٦٤].

وقد التقت بهذا المنحى مع عبد الله عبد الدايم، الذي رأى أن التربية «كانت

تهدف أولاً وآخراً إلى دمج الفرد بعادات مجتمعه وتقاليده وقيمه وأساليبه في كسب العيش»[٦٥].

ورأت من ناحية ثانية، أن التربية والتعليم بمناهجها المدروسة تعتبر ركناً أساسياً من أركان الحياة العامة. لا بل مظهراً حضارياً من مظاهر الأمم، ومقياساً عاماً من مقاييس الرقي والتقدم، ودليلاً واضحاً لقوة الأمم وعزتها.

وتوافقت بالنظرة الموضوعية للتربية مع عبد الدايم، على أن التربية بوجهها العام، مخصصة للفرد من قلب المجتمع، وإلى الفرد في المجتمع. فالتربية والمجتمع هما في خدمة الفرد؛ الذي لولاه لا توجد تربية ولا يوجد مجتمع.

وتحدثت في مناسبة أخرى، عن نشأة النظام التربوي في لبنان، الذي اعتبرت أنه انطلق مع انبعاث حركة الوعي التربوي، منذ ما قبل القرن التاسع عشر. وبالتحديد منذ أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر، وذلك بسبب انفتاح هذه البلاد نحو الغرب، التي أخذت من حضارته أشياء كثيرة.

ولما كانت مدينة بيروت مركزاً بارزاً للحياة بشتى وجوهها ومظاهرها، لوجود مقار قناصل الدول فيها. فقد شكلت نقطة إلتقاء لطرق تجارية وبحرية. وعاشت نشاطاً ملحوظاً منذ أيام المعنيين؛ مما ساعد على زيادة أنشطتها التجارية. فتطلب هذا الأمر معرفة جيدة باللغات الأجنبية، ليتم بواسطتها التفاهم بين المقيمين والوافدين.

هيأ هذا الوضع لبيروت أن تكون مركزاً لسكن وإقامة أعداد كبيرة من الأجانب، الذين كانوا يتوافدون على البلاد. فنشأت أنشطة كثيرة، وقامت فيها تحركات متعددة، فكرية وثقافية، تركت تأثيرها على العملية التربوية بشكل إيجابي، وظهرت بوادرها في الجهود الحثيثة، التي بذلتها العناصر المختلفة في بعث حركة الإرساليات وإقامة المدارس والمطابع[٦٦].

أما النهضة التربوية بمعناها الأوسع فترجع إلى عام ١٨٢٠، التي صاحبها بروز الوعي لحقوق الفرد، وتبلور الشعور بالتراث العربي؛ مما مهد لقيام حركة تربوية وفكرية واسعة، ساعدت على ظهور التيارات الفكرية والتربوية العربية.

وفي أغلب الظن، أن التربية التي قال عنها أجدادنا العرب أنها صناعة؛ ليست كسائر الصناعات، لأن مادتها أشرف المواد. كانت باعثاً لزاهية قدوره ولغيرها من الأساتذة التربويين في العمل على نشأة التربية الفضلى. لأن موقع لبنان الجغرافي

والإنساني، يحتم قيام تربية قومية متجددة. تربية يجب أن تكون واحدة وموحدة في المفاهيم والرؤى، أي تربية قومية يصار الاتفاق على أسسها، وقوامها، ومناهجها وفلسفتها. حيث تقوم تلك المبادئ بالعمل على ترسيخ مفهوم القومية، التي تجمع بين العرب، في مشرقهم ومغربهم، كما في آسيا وأفريقيا.

فالتربية الوطنية القومية التي ظهرت معانيها في منهجية زاهية قدوره، ليست مناقضة لأحد، ولا لاغية لأحد، كما أنها ليست بعيدة عن الواقع اللبناني والعربي. وهي في الوقت ذاته، من ضمن التربية الإنسانية، حيث تمتزج الاثنتان معاً، طالما أنه ليس هناك من تناقض بين القومية والإنسانية[٦٧].

فالتربية يجب أن تكون ملازمة للتطور، والتطور ملازماً لحياة الفرد في المجتمع. فمهمة التربية الصحيحة، العمل على تقدم المجتمع؛ وتقدم الفرد. ويصعب تحقيق هذه المبادئ والأفكار، من دون إدراك كامل للواقع الذي يعيش في داخل الفرد، سواء كان مادياً أو معنوياً.

أما بالنسبة للواقع التربوي المطبق في لبنان، فقد طالبت بأن يكون نظاماً تربوياً شاملاً. وأن يكون منفتحاً ومتطوراً، في خدمة المجتمع اللبناني بالأفكار المتعددة، والآراء المتنوعة؛ وموجهاً في الوقت نفسه إلى الإنسان اللبناني. وطالبت أهل التربية بالعمل على تجديد برامجها التربوية، وتطوير مناهجها، ابتداء من المرحلة الأولى وانتهاء بالتعليم الجامعي. لأن التربية بمناهجها الحديثة والمتجددة؛ تمثل الحد الأدنى، لما ينبغي أن توفره الدولة من الثقافة والتعليم للمواطن، حتى يتمكن من التكيف في المجتمع المعاصر، وشق طريقه في حياته العملية.

دعت زاهية قدوره إلى نظام تربوي يستمد أصوله من أوجه النشاط اليومية للناس. ليجمع بين مظاهر الحياة العقلية والجسدية، وكذلك الروحية والأخلاقية. وأكدت أن الهدف منه، العناية بالنواحي الشخصية للتلميذ، لمساعدته على اكتساب المهارات والاتجاهات الروحية والوطنية، وأساليب التفكير، واهتمامه بالقيم، إلى جانب تحصيل المعلومات.

ونشطت في دراساتها ومؤلفاتها، بالدعوة لقيام النظام التربوي الأمثل في مراحل التعليم المتعددة؛ للمساهمة في خلق جيل من المواطنين، مزود إلى جانب العلم بالوعي الكامل لحقوقه وواجباته. لأنها اعتبرت التربية من القوى الفعّالة في

المجتمعات، وخصوصاً النامية منها. فالتربية هي المسؤولة عن تنمية مستوى العيش والعمران الاقتصادي. فضلاً عن تطور الأوضاع الاجتماعية، وترشيد العناية بالصحة العامة، وتحديد أطر الاتجاهات الروحية والأخلاقية والوطنية، ونشر التعليم بين عموم طبقات الشعب.

ودعت القيمين على النظام التربوي في لبنان، إلى التصدي للمشاكل التربوية والتعليمية الملحة، ووضع الخطط لتحقيق الأهداف التربوية الحديثة. وأشارت إلى عدم وجود توازن بين القطاع العام والخاص، فيما خص نظامهما التربويين، ومشكلة التفرقة بين المرأة والرجل في الحقل التربوي، والاختلافات الظاهرة بينهما، وبين نظامي كل من الريف والمدينة. وقد دعت لتلافي ذلك، إلى العمل على تحقيق التوازن بين الدراسات النظرية والتطبيقية .

وكانت قد طرحت عدداً من النقاط، ضمنتها وجهة نظرها التي يجب أن يتمتع بها النظام التربوي، الذي كانت تأمل العمل على تحقيقه. كمثل القيام بالتخطيط الواعي للمستقبل، والعمل على ربط التعليم بالنظام الإنمائي الشامل للبلد. مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار زيادة عدد السكان، وإيجاد التوازن بين المناطق، ومواكبة التطور العلمي. ومن ثم دراسة حاجات البلد، وإنماء الكفاءات والدراسات، لفتح مجالات العمل أمام الخريجين، وتوجيههم نحو الاختصاصات المطلوبة في سوق العمل، ضمن خطة إنمائية شاملة لضم جميع الكفاءات[٦٨].

١٢ - زاهية قدوره المربية والمؤرخة

من الأعمال التي لاقت الاستحسان عند أهل التربية والتاريخ، المحاضرة التي تطرقت فيها إلى العلاقة بين التربية بالتاريخ. وجالت فيها على عملية التربية عبر التاريخ، وبينت فيها العناية التي أولتها العملية التربوية لعلم التاريخ، والارتباط العضوي الذي نشأ بينهما، والأهمية التي تركتها هذه الثنائية في حياة الأفراد والشعوب.

ظهر في المحاضرة، تأكيد صاحبتها على أن: « المجتمع مكون من الأفراد، فصلاح الأفراد هو صلاح المجتمع، وكل توجيه صحيح للفرد، إنما هو توجيه صحيح للحياة العامة.. فإذا ما استطعنا أن نجعل من التاريخ مهذباً لاتجاهات الفرد، ووازعا في جموحه وصاقلاً لطباعه، فإننا بذلك نكون قد أفدنا من التاريخ في الحياة العامة وفي المجتمع»[٦٩].

ولما اتخذت منها فرصة للحديث عن التربية عبر التاريخ، كان لا بد من

الاطلاع على التحديدات العلمية التي أطلقتها فيها على مفهوم التاريخ، الذي عرفته بالقول: « التاريخ في واقع الأمر ذاكرة الشعوب، وكما أن الذاكرة هي التي تحفظ للوجود الفردي وحدته، وتجعل حياة الإنسان تبدو متماسكة ملتحمة الأسباب. فكذلك الأمر يمكن أن يشكل التاريخ، ذاكرة الشعوب التي تحفظ لها وحدتها، وتختزن فيها حوادث ماضيها وآمالها في الحاضر والمستقبل. فالأمة التي فقدت تاريخها أشبه بالإنسان الذي فقد ذاكرته، فهو ضائع لا يدري له أصلاً، وحائر لا يعرف له مستقراً»[٧٠].

على ضوء هذا التعريف، أين هو موقع زاهية قدوره عند المؤرخين الذين عرّفوا التاريخ وتكلموا عن تحديداته؟ هذا ابن خلدون المؤرخ العربي العالمي الذي عرّفه بأنه : «فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية». وقال في كتاب المقدمة: «التاريخ في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرب بها الأندية إذا غصها الاحتفال». وقال في موقع آخر: «في باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يُعَدَّ في عُلومها وخليق»[٧١].

وعرّفه أدوار كار بأنه: « التحقيق الذي يسلكه المؤرخ وحقائق الماضي التي يحقق بها، هو عملية اجتماعية ينغمس فيها الأفراد كمخلوقات اجتماعية، والتناقض الوهمي بين الفرد والمجتمع. إن العملية المتبادلة في التفاعل بين المؤرخ وحقائقه، وما أسميته بالحوار بين الحاضر والماضي، هو ليس حواراً بين أفراد مجردين، وأفراد منعزلين، ولكنه هو بين مجتمع اليوم ومجتمع الأمس»[٧٢].

ورأى لانجلو أوسينودوس أنه علم قائم بذاته. فحدده بقوله: « هو علم الوقائع التي تتصل بالأحياء من الناس في مجتمع ما؛ خلال توالي الأزمنة في الماضي»[٧٣].

كما أطلقت عليه تسمية العلوم الوصفية، مما يعني أن محاكاته في البحث والمعرفة والتجربة؛ محاكاة حسية تتحرى في كثير من المواضيع الشعور والعواطف، التي تبعده عن العلوم المرتبطة بالقوانين، وتشده إلى معرفة الوقائع الجزئية، التي تبحث عن الوقائع المادية، والوقائع الطبيعية النفسانية. لا بد إذن من دراسة تأثير هذه الأمور في المجتمع، حتى يتم التعرف عليها معرفة كافية، مما يقود إلى التلاحم بين علمي التاريخ والاجتماع الذي، وضع أسسه ابن خلدون.

لا يوجد عند زاهية قدوره أي تحديد لعملية النسق التاريخي، أو أي توصيف للمعنى اللفظي والعلمي للكلمة. فلم تعط فيه رأياً قاطعاً. بل تأرجحت مع الذين اعتبروا التاريخ علماً لا أكثر ولا أقل، ومرت على الذين أنكروا صفة العلم عنه، واعتبروه دون ذلك بمنزلة كبيرة. واتفقت مع القائلين، بأن التاريخ هو السياسة، لا يعدو أن يكون في حقيقة الأمر، إلا تاريخ الحياة من جميع نواحيها، مما انبثق عنه حديثاً، ما بات يعرف بأن التاريخ، هو تدوين تاريخ الحضارات.

يتبين من ذلك حجم الشمولية التي اتسم بها كل واحد من الأعلام السابقين في تأطيره لمفهوم التاريخ، وتحديد نقاطه العامة والخاصة. هذه المقومات التي دارت عليها المحاضرة: بين التربية والتاريخ، التي استقت مضامينها من قراءة تاريخ هيرودوت (HERODOTE) وسبنجلر (SPENGLER)(٧٤) وغيرهما. فدرستهما بواقعية وبفكر الباحثة وأسلوب الأديبة، مما انعكس على المحاضرة، التي جاءت مترابطة في سرد موضوعها، متسقة في تحاليلها، ومتشابكة في الدراسة والسرد البحثي.

أ - عيوب في تدوين التاريخ

لم يكن في وسع زاهية قدوره أن تتغافل عن العيوب التي اكتنفت العملية التاريخية في لبنان؛ نتيجة بعض الممارسات. لذلك قالت: « إن التفكير التاريخي في لبنان متناقض المفاهيم تعصف به عوامل السياسة فتدفعه في تيارات متضاربة»(٧٥).

فالتيارات السلبية سواء من هذا الجانب أو ذاك، والعيوب التي تكتنف الحياة المشتركة لأفراد المجتمع اللبناني، عائدة لنقص في التربية السليمة والصادقة. لذلك طالبت بقيام ما يشبه «ثورة تربوية وتعليمية توحد القوى، وتخلق جيلاً يستمد قوته من ذاته في وثبة إلى الأمام، فتبدأ مسيرة التربية؛ تربية صحيحة من الأساس، ثم ينمو هذا الجيل ويتكامل ويستمد ثقته الكاملة لصياغة حياة أفضل وأرغد»(٧٦).

عندما تحدثت عن المغالطات التي اكتنفت عملية تدوين التاريخ، والشوائب التي ظهرت في كتابة حوادثه ووقائعه. كان لديها حججها عندما طالبت بإعادة كتابة التاريخ، والابتعاد عن الأضاليل والأكاذيب، حتى لا تضيع معه الحقائق(٧٧).

ولكنها تساءلت: «هل يعين التاريخ على حل مشاكل اليوم؟» .

بعد ترجيح الإجابات المحتملة، أجابت قدوره: « إن للتاريخ فائدة دينية، وأخرى علمية، ومنها أيضاً، ثقافية وحضارية وبيانية بوقائع الأزمات؛ وأحوال الدول

والعمران». أغلب الظن أنها تتمثل في ذلك بنظرية ابن خلدون حول فائدة التاريخ، فرأت أن: «العرب أول من كتب في تأريخ التاريخ، ووسعوا أبواب الكتابة التاريخية، مما يدل على حبهم واهتمامهم في تدوين التاريخ، ووضحت في أذهانهم فكرة الزمان والمكان، فصنفوا العصور، بتوقيت الواقعة التاريخية بالأيام والشهور والسنين، وهو عالم يعرفه مؤرخو اليونان والرومان»(٧٨).

على ضوء ذلك تتبعت تطور الحقيقة التاريخية منذ بداياتها الأولى في الشرق الأدنى القديم، حتى وقتنا الحاضر. متمثلة بطريقة السرد التاريخية المحكمة، مستعينة ببعض الدراسات، ومستشهدة بآراء ونظريات، من تعاطوا بالعملية التأريخية، سواء كانوا من العرب أو من المستشرقين. وتوصلت بعد أن دارت على ما أصاب التاريخ العربي من إحن ومصائب، وبعد ما أسبغ عليه المستشرقو من أضاليل وتهجمات، إلى المطالبة بضرورة التركيز على إنسانيته، لأنه هو التاريخ الأبرز والأفضل، الذي عمل على إظهار الاتجاهات الإنسانية الموجودة فيه.

والسبب في الأرجح الأعم، عدم تقوقعه على نفسه أو على أقليميته الضيقة، بل انفتاحه على العالم كله، واهتمامه بإبراز القيم والأعراف الإنسانية المتمثلة فيه، من خلال الحرب والسلم. فضلاً عن العدالة والصفح والرحمة والعلم، والمؤسسات التعليمية التي أفرزها. هذه المفردات الغنية بمحتواها الإنساني؛ كونت إنجازاته وحضارته، لتشكل مقومات أساسية في تطور الحضارة العربية.

فالتاريخ أعجز من أن يعطينا حلولا للمشاكل التي نعاني منها في حياتنا، لأنه لا يعيد نفسه. وكانت قدوره قد أكدت أن التاريخ يساعدنا بصورة جذرية على تفهم واقعنا.

فهناك عدد من الصفات يجب أن يتحلى بها كل من ينهض لممارسة العملية التأريخية، فضلاً عن المميزات التي يجب أن تتوافر فيه. كأن يتصف بالدقة الموضوعية، ويبذل إمكانياته ليكون عمله متمتعاً بالصدق والأمانة والعدل، ومتحلياً بالإحساس والذوق، مما يسهل له بلوغ الحقيقة المتوخاة.

ظهر من خلال الدراسة، أنها سلكت في حياتها خطة البحث والتعرف على مسارب التاريخ العربي المختلفة. انطلاقاً من القناعة، بأن التفتيش عن الحقيقة التاريخية أينما وجدت؛ تبقى مسؤولية وطنية وقومية، يتحملها المؤرخ بقدر كبير من الوعي والكفاءة.

ولوحظ في عدد من مؤلفاتها، ضيقٌ وتبرمٌ كانت تبديهما؛ من الواقع الثقافي

العربي بصورة عامة، وبخاصة في مجال الكتابة التاريخية. وظهر في عدد من مقالاتها ومؤلفاتها، عدم رضاها وسخطها على طروحات وأفكار، لا يوجد فيها أي مراعاة للوقائع التاريخية، الموضوعية والوطنية والقومية. فطالبت بنسفها وإعادة تحديد المفاهيم والعناوين، التي يجب أن يتبعها كل من يتصدى لكتابة التاريخ بشكل علمي وموضوعي، أو يود أن يقوم بوضع كتاب لتدريس التاريخ، وخاصة الكتّاب الذين قالت عنهم؛ أنهم يتصدون لإعادة كتاب التاريخ الوطني وصياغته بصورة واقعية، وبشكل يظهر فيه البعد الوطني لأبطالنا القوميين. فرأت بأن تكون كتاباتهم نقية من التشويه والتزييف، وخالية من الأفكار السلبية التي فرضت في أوقات معينة، وظروف محددة[٧٩].

فطالبت بوضع كتاب تاريخ موحد يدرس في جميع المدارس الرسمية والخاصة، ويجب أن يتم ذلك من قبل لجنة مختصة، تضم شريحة واسعة من أساتذة التاريخ العلمانيين والمتنورين بأمور التاريخ اللبناني، لأن: «التاريخ قبل كل شيء، هو السعي وراء الحقيقة ودراسة ماض مرتبط به أشد الارتباط. وكاتب التاريخ يجب أن يكون موضوعياً، بعيداً عن التعصب والهوى، ويرى بعض المؤرخين أن تاريخنا شوه من قبل المتعصبين والمستشرقين والطائفيين، ولذلك أصبح التاريخ الذي يدرس اليوم عجيباً غريباً، منفصلاً عن التاريخ العربي العام، لأن هذه ليست هي حقيقة لبنان، وأصر على أن يدعى أساتذة التاريخ في لبنان إلى مؤتمر يصدر بنتيجته كتاب تاريخ موحد»[٨٠].

على كل من يقدم على هذه العملية، أن يكون مالكاً لدراسات معمقة في الموضوع، ويتمتع بأسلوب كتابي سليم. ولا تتأمن هذه الأمور إلا بميل قوي للدراسة، وجلد وصبر على ما يمكن أن يعتور عمله من صعاب، أو يصادفه من عقبات. كما عليه التحلي بالأمانة والشجاعة في سرد الوقائع، دون تصنع أو تكلف أو تزوير، بعيدا عن الهوى والميل، محتكماً إلى الفكر الصافي والضمير الحي .

لم تقطع زاهية قدوره بالجهة التي دعتها لإعادة كتابة سير التاريخ العربي وحوادثه، ظهرت هنا علامات استفهام متعددة حول هذا الموضوع، منها مثلاً: من المقصود بذلك؟ هل هم الكتاب اللبنانيون؟ أم العرب؟ أم المسلمون؟! الدعوة ليست واضحة، لأن الموضوعية والنزاهة، يحتاجان إلى عقول تتسم بالعلم والتجرد؛ والصبر والدقة. إضافة إلى قلوب تمتاز برفاهية الحس، وأفكار تتمكن من تلمس جذور الحقيقة، والنظر إلى أبعادها، لإبراز المعاني التاريخية الهامة، والتركيز على المواضيع، التي

تحدد معالم الأمة ووجوه أصالتها. أي إبراز العناصر اللافتة في هذا التاريخ والمواقف الواضحة لفضائل الأمة.

أي أمة طلبت منها زاهية قدوره تأريخ سيرتها؟

اغلب الظن أن الأمة العربية ليست المعنية بذلك، لأن الدراسات المتفرقة التي وضعت حولها والمؤلفات الكثيرة التي أرخت لمسيرتها، تملأ الخزائن المتوافرة في المكتبات النتشرة في أي مكان. وكانت زاهية قدوره واحدة من أولئك المساهمين، الذين أرخوا لتاريخ العرب والإسلام، ولها في هذا المجال أكثر من مؤلف، وأكثر من بحث ودراسة.

وإذا تم الافتراض بأن لبنان هو المعني بهذه الأسئلة، فقد يكون في ذلك شيء من الدقة والموضوعية. والسبب لأنه أتبع في تدوين أحداثه خصوصية معينة، استعملت فيها منهجية متميزة، عنوانها عدم الاجماع حتى الآن؛ على كتابة تاريخ موحد للبنان. وقد دفعها هذا الأمر إلى دعوة معظم المؤرخين اللبنانيين؛ وأولئك الذين يتعاطون بالكتابة التاريخية، إلى اللقاء في مؤتمر وطني عام، يكون له توجه واحد، ومهمة واحدة، لدراسة التاريخ اللبناني، بكل مقوماته وتشعباته وكياناته؛ والاتفاق على البنود العريضة والأساسية. ليتم التركيز ساعتئذ على دراسة مقومات الشعب اللبناني بصورة معمقة، ويتخذ بالنهاية القرار الوطني والجريء، القاضي باعتماد ما يكون قد تم الاتفاق على تدريسه بشكل موحد، وفرض اعتماده في جميع مؤسسات التعليم في لبنان، العام والخاص، التكميلي والثانوي والأكاديمي. مما يفسح المجال أمام طلاب لبنان أن يدرسوا تاريخاً واحداً وموحداً، يلتقون حوله في الرؤية، ويتناقشون به في مجالسهم العلمية والأدبية، بروح فكرية وأدبية، لتوحيد الأهداف، وتشعب المنطلقات.

واقترحت من ناحية ثانية، أن تترافق عملية تدوين التاريخ اللبناني، مع دراسة وتحليل مواضيع التجزئة والتفرقة، ودرس العوامل الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية والفكرية والعلمية، التي دفعت للتجزئة وأدت إلى تمزيق كيان الوطن؛ للإلمام بكل أطراف الصورة، تعميماً للفائدة، دروساً وعبراً.

لا بد هنا من مناقشة الأمر بكل روية، لأنه إذا ما تحققت هذه الدعوة، هل ستتم بصورة إيجابية ؟ أم ستؤدي إلى الدخول في متاهات ومناقشات وجدالات غير مجدية ؟ تفضي إلى عكس الغاية المتوخاة منها.

بالنسبة للدعوة إلى دراسة بعض العناوين، فالأجدى أن تتم دراستها في مؤلفات خاصة ومستقلة، تفسح المجال في المناقشة لمن يرغب من المؤلفين والباحثين، من منطلقات شخصية، وليس أن يصار تعميمها من ضمن البرامج والمناهج الدراسية.

ب – الكتابة التاريخية

أما في ما يتعلق بأي كتابة تاريخية يجب أن تعتمد، فقد تم ملاحظة التشدد من قبل زاهية قدوره في هذه الناحية، وإصرارها بأن على المؤرخ الذي يقوم بتأريخ ما، أو يتصدى لكتابة التاريخ بجوانبه المتعددة، أن يكون عمله متكاملاً وشمولياً، وينهج طريقة المقارنة مع التاريخ العربي، ويتمتع بآفاق فكرية واجتماعية رحبة، وبنواح نفسية ومادية سهلة ولينة. كما عليه أن يراعي اهتمامات الإنسان التي أصبحت جديرة بالدراسة؛ لانعكاسها على وضع الأمة.

بالإضافة إلى ذلك، يجب دراسة تاريخ العرب واعتماد المقارنة، أي اللجوء إلى التاريخ المقارن، لأن وحدة المعرفة ضرورية. وأغلب الظن أن هذا الطرح جاء ليتلاءم مع الدعوة إلى كتابة تاريخنا بصورة موضوعية ونزيهة[٨١].

وكان السبب من وراء ذلك، الأسلوب اللغوي الحديث المتبع في عملية تدوين التاريخ، الذي يميل إلى التعقيد، والتراكيب الملتوية، مما يتطلب جهداً عند قراءته، فيؤثر في صعوبة وصول الكتابة التاريخية إلى غايتها. فمن المهم التأكيد أنه لا داعي للتفريط بالجهد، فالوضوح والإبانة هما الوسيلة الصحيحة لبلوغ الغاية، أو لتحقيق المراد من كل عملية صحيحة وسليمة لكتابة أي تاريخ كان.

ظهرت هذه الأفكار عند زاهية قدوره، نتيجة قراءات كثيرة للمؤلفات المختلفة، التي طالعتها واستعانت بها لوضع بعض الدراسات، أو الأبحاث التي تطلبت منها ذلك. فحرصت قبل وضع أي منها، أن تكون تامة الوضوح والإبانة؛ للأفكار التي تطرحها من خلالها. وكأني بها كانت تتمثل في هذه الناحية عبارة الجاحظ: «على قدر وضوح الدلالة يكون إظهار المعنى». فالتوضيح والإبانة هما المطلوبان إذن، لا التمييع واللبس والإشارة.

وعلى ذلك، طالبت بإعطاء العناية الكاملة للمعاني الإنسانية التي يتمتع بها التاريخ العربي، لأنه لم يكن في وقت من الأوقات، محصوراً في النطاق القومي الضيق، بل كان تاريخاً منفتحاً على العالم، فكان منشؤه وتطوره مطبوعين بطابع إنساني عام. وكان في أحداثه يحافظ على القيم الإنسانية في الحرب والسلم، والعدالة والصفح،

والرحمة والعلم والنزاهة.

عارضت الكتابة المنحرفة الناتجة عن الأوضاع السيئة وسوء الممارسات خلال الحقب التاريخية المختلفة[٨٢]. ورأت أن هذه السلبية نشأت في بعض المراحل التاريخية، بسبب الظروف التي فرض فيها على العرب ذات غريبة، سلطت عليهم إرادتها، وحاولت طمس تاريخهم وحضارتهم. مما كان يهيأ لظهور الدعوات المشبوهة، حتى خيل أن هذه الشعارات الزائفة، شكلت الأرضية المصطنعة والخلفية المهزوزة لزعزعة الشخصية العربية والهوية العربية.

وقد نهضت زاهية قدوره بعد أن لاحظت هذه السلبية إلى المناداة بالتمحور حول قومية التاريخ. وكأننا بها تعلمت من هيرودوت (HERODOT) الذي محور كتاباته حول أوضاع بلاده، في الأزمات التي مرت بها مع الفرس. أو بما فعله ثيوقيديدس (THOUKUDIDES) الذي ركز على استنباط قانون الغلبة، تشجيعاً لوطنه الذي خاض حرباً شرسة، ضد خصم حاول الهيمنة على بلاد اليونان.

كما طالبت بالعودة إلى التاريخ الوطني، وعودة الشعوب العربية إلى تاريخها القومي. شرط أن تكون هذه العودة أصيلة متبصرة، ناقدة، منطلقها العقل لا العاطفة والهوى؛ لدراسة الإيجابيات والبحث عن السلبيات، لتحليل أسبابها ومعرفة خلفياتها، كي يصار إلى تجنبها. مع الإشارة إلى أن التاريخ اللبناني والعربي هما من ضمن تاريخ البشر، الذين يصيبون ويخطئون.

ولما وجدت من اعتبر التاريخ جسراً يربط الماضي بالحاضر، وآخرون يرونه محاكاة الماضي والحاضر، لإنارة طريق المستقبل. لذلك وتوضيحاً لهذا الأمر، طلبت زاهية قدوره بأن لا نكون من إحدى الفئتين، واحدة قدست تاريخها ونزهته عن كل غلط، وأخرى اعتبرته مصدر ضعف وغلط. بل شددت في طروحاتها على أن التاريخ الذي لا يُبحث على أساس من التجرد والعين الناقدة العادلة، تصيبه الشيخوخة ويدركه الموت.

وعندما تتم الكتابة عن تاريخ الوطن، يجب اعتبار الأمة في داخل هذا الوطن أساساً له. كما يجب أن يصار إلى درس الأحداث والمظاهر التي تجري على مستوى الوطن. لم نتبين تجاه هذا الأمر أي تعارض، سواء أكانت تعني بكلامها الوطن العربي، أم الوطن اللبناني[٨٣].

وإذا ما أردنا أن نعطي لهذه الأفكار شمولية أوسع، نتيجة للمعرفة التي حصلت

عليها. يبدو أن ما كانت تقصده بكلامها، هو الحديث عن الوطن العربي. خاصة وأنها لم تطلق توجهاتها إلى الإقليمية والفردية، بل إلى المجموع المتمثل بالوطن العربي، الذي كانت تراه وطناً واحداً، تقوم وحدته على تنوع فريد، يؤلف في مجموعه وحدة متجانسة متناغمة. وتتجلى وحدة الأمة والوطن، في السمات والخصائص المشتركة للوجود العربي ولنشاطه الحضاري[٨٤].

وركزت في جزء من محاضرة: بين التربية والتاريخ، الحديث عن الشخصية اللبنانية، التي وصفتها بالشخصية العربية المتكاملة. ورأت أن تاريخ لبنان لا ينفصل عن تاريخ العرب، وهو يشكل جزءاً مهماً من التاريخ العربي العام. ثم تساءلت: «هل فعل التاريخ فعله؟ هذا في لبنان؟ «. وأجابت: « كلا، ذلك أن اضطراب الشخصية الفكرية والعقائدية، وبالتالي السياسية؛ راجع إلى اضطراب دراستنا التاريخية؛ التي يجب أن تحدد وتوضح الاتجاهات الفكرية، وشخصيتنا اللبنانية العربية المتكاملة» [٨٥].

كما برز في المحاضرة عنوانان عريضان، ظهرت فيهما شخصية زاهية قدوره التربوية، فضلاً عن الأكاديمية. ما يعزز ذلك، أن التربية هي المدماك الصالح لبناء الأمم وإصلاحها وتطورها، لتوصيل المعرفة إلى مختلف جنبات الحياة والمجتمع. كما جاء فيها بعض الأفكار التربوية وكذلك التاريخية، والطريقة التي اعتمدتها في تحليل الحوادث. بالإضافة إلى طروحات أخرى، حيث صورت فيها التاريخ بأنه: « ذاكرة الشعوب» . وهي من ضمن الطروحات التي طبعت أفكارها وشعاراتها في كل مناسبة، وفي كل حين. وأتت المحاضرة على مجمل الأفكار التي دارت حول محور « الأمة والتاريخ».

فالأمة التي لا تاريخ لها، هي كالجسد بلا ذاكرة، أو كالرأس بلا عقل. إن التاريخ هو السبيل القويم لفهم الحاضر والتطلع نحو المستقبل. وركزت في بعض نقاط المحاضرة، على فكرة زرع التربية السليمة والصحيحة في الفرد، سواء من قبل البيت أو المجتمع، لأنها هي السبيل المؤدي إلى تأسيس مجتمع علمي تربوي متطور[٨٦].

عملت زاهية قدورة طوال سني حياتها على هدي هذه المبادئ، تنادي وتطرح الشعارات، وتناضل لترسيخ رسالتها الوطنية، وتعمل للعقيدة الفكرية والثقافية والتربوية التي اعتنقتها. فاتخذت من الماضي عبرة؛ لمواجهة الحاضر والتخطيط للمستقبل.. دعت بحماس ورغبة.. للتكاتف والمحبة، والتخلص من روح الانهزامية والعصبية الفاسدة.. تتوثب آمال طموحاتها لبنان إلى الوطن العربي الكبير؛ تحسست آلامه وعاشت أمانيه.

كانت المحاضرة كالشعلة التي أضاءت جوانب مهمة لعملية التربية في التاريخ، وكرست مكانة سنيّة لتدريس التاريخ، وتوضيح مساهمته في قيام التربية السليمة. فالتربية والتاريخ - كما كانت تشير - موضوعان متلازمان فعلاً وتأثيراً، علماً وتعليماً، إرشاداً وتوجيهاً.

١٣ _ السمات التربوية - الثقافية المؤثرة في حياة زاهية قدوره

تركزت دراسة أفكار زاهية قدوره وعناوينها التربوية _ الثقافية في مرحلة سابقة، على الأثر الخلدوني الذي ظهر في المؤلفات التي وضعتها في مجال الكتابة التاريخية، ومنهجية البحث التاريخي التي اعتمدتها. إلا أنه يجب أن لا تغفل الإشارة، إلى الآثار الإيجابية التي كان لها أدوار متعددة في فكرها ومنهجيتها. ومنها التربوية - الثقافية التي أخذت مبادئها الأولى وعناوينها العريضة من ثقافة والدتها، وما اكتسبته منها، والتأثير الواضح الذي كان لزوجها في أفكارها، وطروحاتها التاريخية، فضلاً عن أسلوبها في الكتابة، الذي ظهرت بواكيره الأولى، عندما كانت في مقتبل العمر وتتلمذت على يدي أحد أعلام اللغة العربية وقواعدها، الشيخ عبد الرحمن سلام، الذي عزز في نفسها جذور اللغة العربية، قراءة وكتابة؛ مما كانت له آثاره الإيجابية، في كامل أنشطتها الفكرية.

أ _ المنابت الثقافية عند زاهية قدوره

ومن الآثار الثقافية التي اقترنت بشخصية زاهية قدوره، الجلسات واللقاءات الفكرية التي تابعتها في القاهرة، مع كبار أئمة الفكر والأدب والثقافة في عاصمة المعز. تعرفت فيها على أفكار الأديب طه حسين[٨٧]، وعباس محمود العقاد[٨٨]، الذي كان يقيم لقاءاته الأدبية، في الفترة التي كانت تتابع فيها الدراسة في مصر.

ورد في سيرة مذكراتها، أن العقاد كان يناديها بأم عائشة، لإعجابه بالكتاب الذي وضعته عنها. وذكرت أنه أخبرها في واحد من لقاءاتها معه، أنه لم يشأ أن ينهي تأليف كتابه عن بنت الصديق، إلا بعد أن تكون قد فرغت هي من وضع كتابها عن عائشة. وجاء في رحلة العمر، أن العقاد كان يشبه زاهية قدوره بمي زيادة[٨٩]. وأن لطفي باشا السيد قال لها بأنها تذكره بمي زيادة أيضاً، بسبب الشبه الكبير بينهما[٩٠].

وتأثرت أيضاً بالكاتب المصري محمد حسين هيكل[٩١]، وهو غير الصحافي والكاتب السياسي في جريدة الأهرام المصرية. وبالشاعر علي محمود طه؛ مؤلف

قصيدة الجندول وقصيدة كليوباترا. وبالكاتب والمؤرخ أحمد أمين مؤلف مجموعة كتب فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وغيرهما. وبعبد الرحمن بدوي أستاذ الفلسفة، الذي ترجم لها من اللغة الألمانية إلى اللغة العربية؛ بعض المقاطع من أفكار الكاتب الألماني جولدزيهر. كما كان لأعضاء لجنة مناقشة أطروحة الدكتوراه، بعض المؤثرات التي انطبعت في شخصها، ومنهم: رئيس اللجنة زكي محمد حسن، وعضو اللجنة أمين الخولي.

وكان للمؤسسات العلمية والثقافية المصرية، أثر واضح أيضاً في حياتها، التي لازمتها لفترة طويلة من حياتها، وكان منها: المجمع العلمي المصري، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، ودار الكتب. حيث كانت هذه المنارات؛ من المراكز الفكرية والثقافية، التي صبغت المجتمع المصري في ذلك الوقت، بسمات ثقافية وفكرية رفيعة، أغنت شخصية كل من كان على احتكاك دائم بها وعلى اتصال مستمر معها. كما كان حالها، فقد كانت لا تترك مناسبة من دون التردد على هذه المقار الثقافية، للتزود من غناها المعرفي، وثراها الثقافي، سواء بالمصادر والمراجع النادرة، أو المخطوطات القيمة، أو الكتب المتوافرة فيها بكثرة، لدرجة أنه كان يوجد في إحداها في تلك الفترة، ما يناهز المليون ونصف المليون كتاب[٩٢].

ب – جمعية أهل القلم

بعد العودة إلى بيروت حائزة على درجة الدكتوراه في التاريخ، دعيت زاهية قدوره للانضمام إلى عدد من التجمعات الثقافية والمراكز العلمية الموجودة في تلك الفترة. ومنها جمعية أهل القلم التي طلب منها رئيسها صلاح لبكي، أن تكون واحدة من الشخصيات والنخب الفكرية والثقافية المؤتلفة في داخلها.[٩٣] كالأديبة إميلي فارس إبراهيم[٩٤] وغيرها من رجال الإعلام والأدب والفكر. فضلاً عن عدد من السياسيين والمثقفين، كجوزف باسيلا[٩٥]، وسليم حيدر الشاعر والسياسي[٩٦]، وادوار حنين[٩٧]، والمؤرخ فؤاد أفرام البستاني[٩٨] الذي أصبح بعد هذا التاريخ رئيساً للجامعة اللبنانية، وغيرهم[٩٩].

وقد عملت إميلي فارس إبراهيم على رعاية إنضمام زاهية قدوره إلى هذه الجمعية، التي ذكرت في مقابلة معها، أنها كانت صديقة أديبة قدوره قزعون شقيقة زاهية، التي كان سكنها في منطقة البقاع، مجاوراً لسكن زوج أديبة. ولما عادت زهية – كما كانت تدعوها – من مصر تحمل شهادة الدكتوراه، اعتبر الأمر حدثاً مهماً ومميزاً لعدة أسباب[١٠٠].

ذلك أن عائلة قدوره هي من الأسر البيروتية ذات النسب العريق، التي كان منها رجال علم وطب وتجارة، وسيدات تميزن بشهرة جيدة في العمل النسوي والاجتماعي والثقافي. كالرائدة إبتهاج قدوره التي كانت أول إمرأة بيروتية مسلمة تدخل إلى مدرسة البنات الأميركية في ذلك الوقت[١٠١]. وخانم الحسامي والدة زاهية، وشقيقتها وديعة قدورة زوجة أديب خرطبيل من فلسطين، التي اشتهرت بالعمل الإنساني والاجتماعي في فلسطين قبل النكبة وبعدها، إذ قامت بعد التهجير؛ بتأسس المراكز الصحية وإنشاء المقار الاجتماعية للفلسطينيين في لبنان.

وتابعت الأديبة إبراهيم، ذكر السبب الذي دفعها لدعوة زاهية قدوره للإنضمام إلى جمعية أهل القلم، فقالت: « انطلاقا من عاطفتي وصداقتي ومحبتي لآل قدوره، وخصوصاً إبتهاج وأديبة. فقد قصدت أن أقيم مع هذا الفكر الساطع والعلم اللامع، علاقة صداقة ومحبة. لأنني أحببت زهية قدوره من كل قلبي منذ أن التقيت بها وتعرفت عليها. ولما وجدت عندها ميلاً للمساهمة والاشتراك في أي عمل فكري أو أدبي أو ثقافي قد يعرض عليها. لذلك طلبت منها الانضمام إلى الجمعية. فكان ان استجابت لطلبي في الحال، من دون أن تسأل عن الجمعية وتستوضح عن حقيقة مواقفها التي قامت من أجلها، والمشاريع التي تنوي تنفيذها[١٠٢].

من الطبيعي على شخصية تمتلك كل هذه المقومات الثقافية والأدبية في شخصها وفكرها، أن يسند كل هذه المقومات، زاد معرفي وثقافي مميز، من خلال مجموعات ضخمة من الكتب، سواء كمصادر أو مراجع، قديمة وحديثة. وحوالي الستين بحثاً وضعت خلال فترة أربعة وأربعون عاماً أو أكثر. إضافة إلى بضعة أبحاث مخطوطة، وما يزيد على العشرين محاضرة؛ وستة كتب خاصة. فضلاً عن العديد من الكلمات، الموضوعة في مناسبات مختلفة من الصعب حصرها جميعها، لأن منها ما كان مقدمات لبعض الكتب، أو لحفلات التأبين، أو لتقديم أحد المحاضرين والمنتدين والخطباء، في الاحتفالات والمهرجانات المختلفة؛ التي كانت تدعى لحضورها والتعريف بواحد من هؤلاء. كما احتلت ثلاثة أبحاث مخطوطة باللغة الإنكليزية؛ مكانة مميزة في مكتبة زاهية قدوره.

لا يمكن إزاء هذا الكم الثقافي إلا الوقوف، للتبصر والتمعن، لاستخلاص المعاني الأساسية للمنحى الثقافي الذي طبع شخصيتها وفكرها من خلال مسيرة حياتها.

كما يقتضي الوفاء لهذا الانتاج الغزير، الإشارة إلى أنه من الصعب على أي دارس أو باحث، أن يفي هذا الأرشيف التربوي - الثقافي، والتراث الأدبي والفكري، حقه من الموضوعية، وتقدير قيمته العلمية والثقافية.

وحتى تعطى حقها في هذه الناحية الثقافية التي طبعت فكرها وصبغت شخصيتها بسمة علمية وإنسانية. لا بد من الوقوف عند بعض المعاني التي أثرت في شخصها وفي تكوين ثقافتها، التي طغت على محطات حياتها، أكثر من المحطتين السياسية والاجتماعية. لأن الثقافة فيها مزيج من الثقافة والاجتماع، كما فيها تاريخ أيضاً، وعلوم أخرى. وليس بالضرورة أن يكون السياسي مثقفاً مثلاً، وهو غالباً لا يكون إلا كذلك.

من هذه المعاني التي أثرت في فكر زاهية قدوره وفي عقلها، المطالعات التي كانت تعود إليها. لأنها كانت من المؤمنين بأن القراءة الجيدة لهي من صفات الكاتب المنصف والموضوعي. ولما كانت زاهية قدوره قريبة دائماً من الكتاب، وهي غالباً ما كانت كذلك. فجذبها الكتاب الجيد، الذي يحمل أفكاراً رائدة، في أي موضوع يعرض له. ومن هنا تأثرت بكتاب: تاريخ الحضارة الإسلامية، المترجم من اللغة التركية إلى اللغة العربية، والذي قدم له عبد الوهاب عزام بك[١٠٣].

وأعجبت بكتاب: فتاة الشرق في حضارة الغرب، للمؤرخ العلامة محمد جميل بيهم. وبكتاب: العالم العربي، لنجلاء أبو عز الدين. وبكتاب: تاريخ العرب، لفيليب حتي. وبكتاب: الإسلام سياسة وعقيدة، لمكسيم رودنسون. كما انحازت إلى أفكار دعاة النهضة الحديثة؛ كالسيد محمد رشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي، والشيخ محمد عبدو، والسيد جمال الدين الأفغاني، ورفاعة رافع الطهطاوي. بالإضافة إلى بعض طروحات الأديب طه حسين، وأبو خلدون ساطع الحصري. والمؤلفات التي كانت تتوافر لها، ومنها: مؤلفات جبور عبد النور، ونبيه أمين فارس وأنيس المقدسي. من غير أن ننسى أنها كانت تلميذة في صف قسطنطين زريق في الجامعة الأميركية في بيروت.

وانسجمت مع بعض أفكار أوغست كونت (Auguste Comte) ودافيد هيوم (David Hume) وبرترند راسل(Bertrand Russell) وغيرهم من الكتاب والمؤلفين الغربيين.

وبالعودة إلى محطات من المنحى الثقافي عند زاهية قدوره، يظهر لنا أنها

عرفت الحضارة بمفهومها العلمي والموضوعي، وربطتها بالثقافة. وأوحت بأن الكلمتين تصبان في معنى واحد من التحضر والتمدن، المرافقين للصقل والتهذيب[١٠٤].

من ذلك مثلاً، أنها اعتبرت الحضارة العربية الإسلامية، نتاج تفاعل حضارات شعوب عديدة؛ أخذ العرب أحسن ما عندها، وزادوا عليها من إبداعهم وتفوقهم وتصورهم، ما جعلها تظهر بالصورة التي نعرفها بها اليوم. فهذه الحضارة كانت في رأيها، حضارة معنوية أكثر مما هي مادية، وقد لعبت الإنسانية دوراً كبيراً في تكوين خصوصياتها.

كما تبين من بعض دراساتها الأخرى، أنها كانت تبدي حماسة لتصوير المعاني الكبيرة لهذه الحضارة، وتظهير صورة العرب الإبداعية فيها. لأنهم في رأيها، كما أعطوا المدنية أشياء كثيرة؛ فقد أخذوا منها أشياء أخرى أيضاً. ووصفت عطاءهم أنه يتميز بخصوصية روحية ومعنوية. ولم يكتفوا بذلك، بل ابتكروا كثيراً من الإنجازات العلمية والمادية، التي ابتدعوها وأضافوها إلى سلسلة الحضارة العالمية[١٠٥].

ولم تغفل الإشارة في دراساتها، إلى المساهمة التي قدمها المفكرون المسيحيون، والعديد من أعلامهم الذين كان لهم دور رائد في تكوين الحضارة العربية التي نقلوها إلى الغرب، مما كان له الأثر البين في تقدمها وتفوقها، فضلاً عن أهمية هؤلاء وأولئك المثقفين المسيحيين في الحضارة العالمية والإنسانية[١٠٦].

وفي تتبع الخطة التي اعتمدتها زاهية قدوره في البحث والتأليف، والطريقة التي سارت عليها في تجميع الأفكار وعرضها، وفق منطق عملية السرد التاريخي. يظهر لنا بعض خصائصها الحضارية، ومميزاتها الثقافية، وميلها نحو المعرفة، وانجذابها الشديد إلى العلم. فهل هذه السمات جعلتها تتصف بصفة الباحثة في بحر العلوم الإنسانية، التي صبت جميعها في مجرى الثقافة الإنسانية ؟ أم هي مؤلفة من جمهرة المؤلفين الذين تعاطوا عملية الكتابة التاريخية ؟!.

أمضت زاهية قدوره الأيام والشهور في عملية البحث التاريخي، وتتبع المؤلفات التاريخية الصادرة تباعاً، مما ولد لديها القناعة: بأن قصة الحضارة وجدت مرتعها الأول في بلاد الشرق. فتوافقت بذلك مع مؤرخين آخرين، على أن الحضارة الشرقية، ومنها المصرية وحضارة ما بين النهرين، كونتا الأساس للحضارة اليونانية والرومانية قبل أن يتوقف توالدهما.

ضمت أبحاثها قيماً علمية وأدبية، تاريخية وثقافية، موضوعية وأكاديمية، أضاءت مناراتها الرحبة. فكانت توجيهات وتوجهات، نصائح وإرشادات، تعليقات وتحليلات، استنتاجات وخلاصات. أهّلت صاحبتها لأن تكون مربية ومحاضرة لأجيال متعاقبة من الطلاب، الذين تزودوا من علمها وخبرتها وثقافتها. ثم قاموا بتنفيذ تعاليمها ووصاياها على مجتمعاتهم وحواضرهم، بأسلوب علمي وموضوعي، وبمنهجية أكاديمية متطورة[١٠٧].

وظهرت في الأبحاث الستين التي وضعتها، علامات فارقة ومميزة من كفاحها ونضالها، وشمعات مضيئة في مسالك الدروب المظلمة، التي أنارت بها عتمة الأجيال؛ ووسعت مدارك آفاقهم. وبالرغم من أنه لم تتم دراسة جميع أبحاثها واستعراض أفكارها، فالعزاء أنه مهما بذلت المحاولات وتوافرت الجهود، فلن يكون بالمستطاع أن يوفى هذا التراث حقه من الإحاطة والإلمام به كله.

ت – تحديد المعنى الثقافي عند زاهية قدوره

لا بد هنا من طرح السؤال عن ماهية الثقافة؛ التي كان عليها فكر زاهية قدوره؟ وأدبها، وبماذا كانت تعرف الثقافة ؟ وما هو تحديد الثقافة في مفهومها؟

رأت زاهية قدوره في الثقافة تعريفاً للكلمة العربية، التي تضم في معناها الإرث الثقافي العريض والواسع، من الفكر والأدب العربي، بمنظومتيه الشعرية والنثرية. والثقافة التي قصدتها بكلامها، تحوي الحضارة التي نشأت عبر مئات السنين من الجهد والعمل، ووصلت قيمتها الفكرية والأدبية إلى مختلف الأنحاء والأرجاء، التي وصلها العرب في فتوحاتهم، فنشروا فيها دعواهم لتعميم رسالة دينهم. تمازجت معها حضارات الأمم الأخرى، ما أنتج حضارة إنسانية عريقة وعالمية، اعتبرت على مر الأزمان والعهود نتاج الثقافة والحضارة العربية[١٠٨].

أما مثقفو العصر الحديث وعلماؤه، فقد نظروا إلى الثقافة كل من موقعه الإيديولوجي والحياتي. فالمثقفون المسلمون رأوا فيها، الثقافة الإسلامية المستوحاة من الكتاب والسُنَّة كنصين مقدسين، في إطار الاجتهادات التي يتحرك ضمنها المجتهدون، ويضيفون إليها حركة الواقع التي انطلق بها المسلم في كل مجالاته، ومناهج التفكير والعادات والتقاليد والفن.

ووجد هؤلاء أنها تتألف من: « القيم والمعتقدات والمعايير والرموز

والإيديولوجيات وغيرها من المنتجات العقلية. أما الاتجاه الآخر فيربط الثقافة بنمط الحياة الكلي للمجتمع، والعلاقات التي تربط بين أفراده، وتوجهات هؤلاء الأفراد في حياتهم»[١٠٩].

إن الإحاطة بالتعريفات المختلفة لكلمة الثقافة وتحديد معناها، أظهر محدودية معينة، تدفع للظن أنها تقتصر على فعل النخبة من الناس. إلا أن زاهية قدوره اعتبرتها كالوعاء الشامل لكل ما يحيط بالمجتمعات البشرية. بمعنى آخر، كان يوجد في أرشيفها أوراق مخطوطة؛ خطت على إحداها أن الثقافة تشمل كل ما يوجد في المجتمع من تراث ورموز وتقاليد؛ غايتها اكتساب المعارف من أجل تهذيب الحس النقدي للفرد، والارتقاء بذوقه، وتنمية القدرة على الحكم، مع تلخيص شامل لكل ما يكتسبه الفرد من معتقدات وتقاليد، كي يصبح عضواً في المجتمع الذي يعيش فيه.

وكانت تعتقد أن هذه التعريفات الملتبسة تزداد وضوحاً إذا ما تم البحث عن جانبها الوظيفي وصارت صورتها في سؤال محدد: ما هي الثقافة وما هي أهميتها للمجتمع؟

هذا وبالرغم من أنه تم استعراض ما أحيط بكلمة ثقافة، لغوياً ولفظياً، وتم توضيح من هو المثقف؟ إلا أنه تبقى في نهاية هذا المنحى، بعض النقاط التي تحتاج إلى تفسير. ومنها مثلاً، إن الثقافة – مهما كان تعريفها – تبرز بذاتها حقيقة تفردها، فهي تتنوع بتنوع الأمم، والجماعات العرقية، والجماعات النفعية، والنوادي، والشركات، وسائر التجمعات الرابطة بين الأفراد، وتجعلها تفكر بطريقة مختلفة قليلاً أو كثيراً عن بقية المجتمع.

ج – الثقافة والمجتمع

ولما كانت زاهية قدوره من دعاة تعميم الثقافة ونشرها على مختلف طبقات المجتمع، فقد كانت من أنصار المقولة التالية: قبل أن نتحدث عن الثقافة دعونا نتخيل الحياة من دونها، وسوف يكون هذا الخيال قاصراً وغير صحيح، لأنه لا توجد مرحلة في تاريخ البشرية لم تلعب فيها الثقافة دورها. إلا أن هذا الواقع لم يمنعها من أن تقول في يوم من الأيام، وبشيء من الحسرة: « إن العرب قليلاً ما يقرؤون، وإذا قرؤوا نادراً ما يفهمون، وإذا فهموا فهم لا يطبقون ما يقرؤون أو يفعلون به»[١١٠].

وطالما يدور البحث عن المنحى الثقافي الذي لازم زاهية قدوره معظم سني

عمرها، فمن المحتم الإشارة إلى مقولتها التي كانت تذكرها باستمرار، وهي: بأن الشعب الذي ليس له تاريخ، ليس له ماضٍ. وهنا لا بد من طرح السؤال: هل المجتمع الذي لا ثقافة له هو مجتمع بلا تاريخ؟

لذلك كتبت عن رؤيتها للمجتمعات التي تعيش بدون ثقافة، وكيف تحمي تراثها، وتصون تاريخها من الإندثار. فجاء الجواب من خلال القول: « يُعرّف هنري لاوست الثقافة، بأنها مجموعة الأفكار والعادات والموروثات، التي يتكون منها مبدأ خلقي لأمة ما، ويؤمن أصحابها بصحتها، وتنشأ منها عقلية خاصة بتلك الأمة تمتاز عن سواها. وجميع الثقافات تتكون وتتطور بعوامل داخلية، وتتأثر ببعض المؤثرات الأجنبية»[١١١].

وعلقت على تعريف أرنست باركر عن الثقافة، التي اعتبرتها أنها: «ذخيرة مشتركة من الأفكار والمشاعر، لأمة تجمعت لها وانتقلت من جيل إلى جيل خلال تاريخ مشترك، وتغلب عليها بوجه عام عقيدة دينية مشتركة، هي جزء من تلك الذخيرة المشتركة من الأفكار والمشاعر والعقيدة الدينية، واللغة هي من العناصر الأساسية للثقافة» .

وكتبت عن تعريف تايلور للثقافة، فقالت: «إن الثقافة هي الكل المركب الذي يتضمن المعارف والعقائد والأخلاق والقوانين والعادات والفنون» .

وقالت في ورقة أخرى حول الموضوع نفسه: « فها هي ثقافة المصريين القديمة، تطل علينا كي نتحقق من تاريخهم، فلو أن الفنان المصري القديم، لم يسع لكتابة أحداثه الكبرى على الجدران وزينها بالرسوم المختلفة، لما استطعنا أن نتعرف إلى معالم هذا التاريخ. ولولا المعابد والأهرامات والمدافن، التي أقامها الفراعنة، لما وصل إلينا شيء من معارفهم في فنون العمارة، ولا طقوسهم للموت والميلاد. لقد ضاع تاريخ العديد من المجتمعات، لأنها أضاعت ثقافتها المحلية. فلم يبق شيء من تاريخ الهنود الحمر في أمريكا، لأن الثقافة الهندية قد اضمحلت أو أريد لها ذلك»[١١٢].

وقالت أيضاً: « كما أنه في الكثير من الكتب والمراجع التاريخية، نرى أن هناك حضارات سادت ثم بيدت ولم تخلف من العمران شيئاً، لأنها لم تخلف ثقافة يستفيد منها الإنسان، في حين بقيت ثقافات أخرى وإن ضعفت دولها أو مجتمعاتها، إلا أنها خلفت إرثاً حضارياً وثقافياً ما زال الإنسان يستفيد منه، فالثقافة تؤكد التاريخ وتدعمه، وحتى يستمر هذا التاريخ يجب أن تغرس قيماً ومعتقدات في أنصاره، بأن يقبلوا أشياء

ويقاوموا أخرى، يتنبهوا من بعض الأخطار ويغفلوا أخرى، وأن يلقوا اللوم على بعضها ويغفروا لآخرين. كل ذلك تفعله الثقافة، إن الثقافة هي كسب أو خسارة الأنصار»[١١٣].

وكأننا بها أرادت الإشارة، إلى أن المثقف هو الشخص الذي يحمل رسالة، يبتدعها بالانطلاق من الواقع أو من الحلم، ويريد أن يبلغها للآخرين، بوسائل عديدة تمكنه من ذلك. وكانت قد رأت في هذه الناحية، أنه إذا لم يكن بإمكان المثقف أن يبلغ رسالته بصراحة ووضوح، فيمكنه أن يبلغها من خلال الرمز، بعكس ما يعتقده حقاً وصدقاً من آراء.

ضمن هذا الواقع، يبدو أن مفهوم الثقافة عندها كان معادلاً لمفهوم الحضارة. وتبدي إعتقادها ذاك؛ بأن الثقافة هي الناتج الأساسي لكل حضارة. من هنا يلاحظ تأكيدها بأنه لولا تكوّن الحضارات، لما وجدت الثقافات.

ووجدت على بعض الأوراق أيضاً تحديدات وتعريفات ثقافية. وهي أن الثقافة: «معرفة وأسلوب حياة» . وكان تصورها للمثقف؛ ذاك الذي يجب أن: « يتصف بالمعرفة الشاملة بدءاً بمعرفة ثقافة أمته ولغتها وتاريخها وإنجازاتها وإمكانياتها، ومعرفة آمالها وطموحاتها، ومنها ينطلق في مسيرة العلم والمعرفة..».

ح ـ مفهوم الحضارة

رسمت زاهية قدوره في ورقة ثالثة دوراً للمثقف، وحددت له مهمة، يتحتم عليه القيام بهما. وحثته على الإجادة ـ ما أمكنه ذلك ـ بلغات الأمم، إذ عليه أن: « يعرف ما يستطيع من لغات الأمم..»، وتقع عليه مهمة التعرف على: «.. هويته وحدودها وتطور مسيرتها وتطلعاتها، وما يجابهها من مصاعب وعقبات، وأن يستفيد من الإيجابيات ويبتعد عن السلبيات، ومواكبة المستجدات المحلية والدولية في مختلف حقول المعرفة...»[١١٤].

ونتيجة لهذه التعريفات والمقومات الثقافية التي جاءت إنعكاساً لأفكارها، طرحت زاهية قدوره السؤال التالي: «ما هي الحضارة» وأتبعته بالسؤال: « ما هي الحضارة العربية؟» .

ردت على ذلك بالقول: « لقد ذهب العلماء في تحديد مفهوم هذه الكلمة مذاهب وصيغاً عديدة، ولسنا بصدد التفصيل في هذا البحث، بل يحسن بنا القول بإيجاز: إن الحضارة هي إنجازات الأمة أو الأمم، إنها نتاج ما يدور في المجتمع الإنساني من

تفاعلات اقتصادية وسياسية واجتماعية وفكرية وروحية، وشرطها أن تكون شاملة جامعة مرتبطة بعضها ببعض، ذلك أن حياة الإنسان وحدة كاملة متعددة الألوان مختلفة الصور... ويستعمل الكثير كلمة ثقافة للتعبير عما تعنيه كلمة حضارة، فالثقافة هي في إيجاز، تعني الصقل والتهذيب، أي أنها أسلوب تفكير وطريقة حياة الشعب» (١١٥).

أغلب الظن أنها أرادت الإشارة إلى وجود تمازج وتقابل بين الحضارة والثقافة. والسبب - كما قيل - لأنها تأثرت باستدلال أحدهم على أن الثقافة هي الحضارة، غير أنها أصرت من ناحية ثانية، على تفضيل كلمة الثقافة على تعبير الحضارة، من خلال رؤيتها بأن الثقافة تصقل حضارة الشعوب وتهذبها وترفعها إلى المراتب الأولى في تقدم الإنسانية ورقيها.

حول هذا الأمر أشارت في مبحث آخر، إلى ضرورة تهذيب الثقافة وصقلها، إنما بأسلوب أكثر شمولاً وأوسع معنى. فطالبت بالاتفاق على الخطوط العامة لمفهوم الثقافة وبإظهار أهمية تحديد المعنى المقصود من كلمة ثقافة: « استخدمت كلمة الثقافة لتدل على معناها الفكري في العصر الحديث، فهذا المفهوم المادي البسيط؛ أصبح أصلاً لكل ما تعنيه الكلمة من مفهوم عريض، شمل كل ما يهذب النفس الإنسانية وينسبها من ألوان الفكر والإبداع الفني. وقد يدعي البعض أن هذه الكلمة قاصرة عن التعبير عن كل هذا المفهوم الواسع، ولكن هذا الإدعاء لا أساس له، لأن معنى الكلمات ينمو ويتسع مع الزمن، وما أظن أحداً من المثقفين في العصر الحاضر، ينكر ما تحمله الكلمة من المعاني الفكرية والروحية الواسعة؛ رغم هذا الأصل الحسي الذي تدل عليه» (١١٦).

خ – نصيرة الحضارة الثقافية

وكتبت عن الحضارة العربية، فقالت: « الحضارة العربية ليست نتاج شعب واحد أو طائفة واحدة، بل هي تفاعل مجموعة شعوب وطوائف عديدة ساهمت في بناء تلك الحضارة... وقد أخذ العرب من كل أمة أحسن ما لديها.. وحافظوا عليه من الضياع والاندثار، ثم درسوه وتمثلوه ومزجوه وهذبوه، وأضافوا إليه اختبارهم وما تفتقت عنه قرائحهم وعبقريتهم في جميع الميادين ولقحوه وطعموه، فانطبع بطابعهم. فكوّنوا بذلك حضارة عربية أصيلة لها مميزاتها وطابعها الخاص. إذاً فالعرب لم يكونوا نقلة وحُفَّاظا فقط، بل كانوا خلاقين ومبدعين ومبتكرين»(١١٧).

وذكرت في إحدى المناسبات الثقافية: « إن الحضارة العربية كغيرها من

الحضارات لم تبدأ من فراغ، بل تمتد جذورها إلى الماضي البعيد، وأنها رغم تنوع الروافد الفكرية التي صبت فيها عبر التاريخ، إلا أنها احتفظت دائماً بخصوصيتها وأصالتها وعراقتها» (١١٨).

على ضوء هذه التحديدات، التي أنارت بعض مسالكها الثقافية، يمكن الدلالة – كما سبقت الإشارة – على أن ذلك عائد إلى الجذور التي استقت منها زاهية قدوره ثقافتها. ونهلت من ينابيعها، وتزودت من منابتها الثقافية الأصيلة، طعمت هذه الثقافة فكرها وأدبها، بهالات من الرقي الفكري والتهذيب الأدبي. وكانت هذه المقومات بمثابة الحاجز الذي لم يمكن للغرور سبيل إلى نفسها وفكرها. بدليل أنها لم تحتكر التعاليم التي استقتها لنفسها، أو احتفظت بالثقافة التي حصلتها لذاتها، بل سعت لتعميم هذه المنافع على طلابها؛ والأجيال التي تتلمذت على يديها. وعملت بأن تفيض ثقافتها على تلاميذها علماً وأدباً وثقافة، فخرَّجت أجيالاً ثقافية وفكرية وأدبية، ووصفت من جراء ذلك، بالمنارة النوارة(١١٩) التي يمكن أن يصل إليها علمها وفكرها.

يقال أن العلماء المسلمين لم ينكروا التأثير الذي سببه الدين الإسلامي، على الحضارة العربية الإسلامية، وكذلك كان حال زاهية قدوره، التي لم تر فيها بعداً روحياً عن الثقافة الإسلامية. لأن أساسها كان من جوهر الإسلام، مغلفة بشفافيته، ومشبعة بمبادئ الرسالة السماوية وأهدافها السامية. كما كانت تعتقد، أن في الحضارة العربية طاقة معنوية وروحية؛ استمدت قيمها ومعانيها من: «عقيدة الإسلام وهو دين توحيدي عالمي، أثبت قدرته على أن يجمع تحت لوائه، وفي رحابه، مختلف الشعوب والأجناس على الرغم من اختلاف المواطن واللغات، إذ لا مجال للعنصرية ولا للعرقية في رحابه، ولا مجال للإقليمية في إطاره. وهو ثورة مستمرة متجددة متفاعلة مع الإنسان في زمانه ومكانه، تهتم بصنع الإنسان وتهذيبه وبناء المجتمع وإصلاح السلوك الإنساني»(١٢٠).

وإذا أمكن اعتبار زاهية قدوره من أنصار الثقافة الشاملة والواسعة، فلا بد من اعتبارها بالتالي، من الذين رأوا أنه ليس للثقافة دين يدمغها، أو جنس يحدها، أو عنصر يحيط بها ويكبلها. بدليل أنه لم يكن بإمكانها أن تتغاضى عن الثقافة الروحية والفكرية والإنسانية التي انطلقت من رحاب الدين الإسلامي، ومن وحي النبوة.

وإذا كانت قد ظهرت في العصر الجاهلي ثقافة من نوع آخر، متمثلة بثقافة البدوي المنطلقة من صحرائه، التي أنتجت ثقافة الشعراء الجاهليين المعروفين بأشعارهم

وحِكَمِهم وأفكارهم[١٢١]. فقد لاحظت من جهتها أن تلك الثقافة، بحاجة إلى تهذيب وتنظيم؛ ضمن إطار الثقافات الإنسانية التي تفتقر إليها، لأنها ثقافة الانس والسمر، الناشئة من إنس المجالس، وزهوة الخمرة، وصبوة الشباب، والنزعات الأخرى المتفلتة من أي قيود.

ظهر في هذه الاندفاعة، تجاه الثقافة التي جاءت من منابت الإسلام ومن جذور العقيدة، اندفاعاً لا حدود له، ليعم نفعها على المسلمين عرباً وأعاجم، مستزيدين منها متلحفين بعقائدها وشعاراتها، طالما أنها لم تتعارض مع منطلقاتهم، بالرغم من اختلاف مواطنهم وتعدد لغاتهم. ألم تجتمع شعوب العالم الإسلامي قاطبة من أقصى الشرق إلى آخر حدود الغرب، الذي وصله تحت مفاهيم وكلمات القرآن الكريم، وتتوحد بتلاوته، وفهمه بلغة الإسلام وعقيدة التوحيد.

استوعبت زاهية قدوره الثقافة الإسلامية، ورأت بأنه لا مجال فيها للعنصرية وللعرقية، ولا حتى للإقليمية، وقالت: « لقد وحدت الثقافة في سالف الأمم بين أبناء الوطن العربي، فكانت أرجاؤه كلها تتجاوب بأدب واحد، وشاعت العلوم والمعارف في جميع أنحاء هذا الوطن، فكان أهل المغرب يقرؤون لأهل المشرق، وأهل المشرق يتأثرون بأهل المغرب، وكان العربي يقطع الأميال ليستمع إلى عالِم كبير أحب أن يتلقى العلم منه...»[١٢٢].

ليست هذه النظرة للثقافة الإسلامية التي تحققت بفضل سلطة المسلمين المتسامحة؛ تجاه البلاد المفتتحة، بل إن هذا المفهوم انطلق من اعتبارها نتاجاً للحضارة العربية الإسلامية. من هنا أقامت زاهية قدوره تلك العلاقة الجدلية بينهما، لأنهما – حسب اعتقادها - لا ينفصلان ولا يفترقان. هذا التوصيف هو ما دفعها للانطلاق في رحاب الثقافة الأوسع والأكثر انتشاراً وشيوعاً.

وبسبب مواقعها الثقافية وأفكارها الإنسانية حيالها، حثت الحكومات الأوروبية والمجتمع الدولي على ضرورة تعميم الثقافة على مواطنيها، لما لها من أهمية كبيرة. لأنها تعتقد أن رقي الأمم وتقدمها، مرهون بدرجة الثقافة التي تحصلها وتعممها على شعوبها: «...فالمستوى الاجتماعي والصحي والصناعي يرتفع إذا ارتفعت؛ درجة الثقافة عند أبناء الأمة ويهبط بهبوطها. والثقافة تسهل على قادة الأمم مهمتهم، فالأمة المثقفة تعرف ما لها وما عليها من حقوق وواجبات...»[١٢٣].

ضمنت دعاويها ضرورة تعميم الثقافة الصادقة والسليمة بين أقطار الدول العربية وشعوبها، لأن الثقافة التي تتمناها هي «...ثقافة عربية عامة تنتشر بين أبناء الوطن العربي، لتعريف أبنائه على ماضيه وحاضره، وتنير لهم السبيل في سعيهم لبناء مستقبلهم. ولا بد أن يتم ذلك، بانتشار الثقافة التي تعمل على المساعدة في محو الأمية بين أبناء الوطن العربي عامة» [١٢٤].

الغاية من ذلك، إماطة اللثام عن المعتقدات والأفكار الثقافية، التي التصقت بذهن بعضهم، من جراء حملات التضليل، الناتجة عن النظر إلى المصطلحات والكلمات التي كشفت عنها، بعض الحقائق في السنوات العجاف التي تعرضت فيها عقول الأجيال العربية ورجالاتها، إلى حملات الغزو الفكري والثقافي، المتمثلة بالتغريب والحرب النفسية، التي شنتها القوى الغربية، للقضاء على العرب والمسلمين، ومحو مقومات وجودهم، المستمدة من تعاليم دينهم وقيمه الإنسانية[١٢٥].

أدركت قدوره من خلال حركة الغزو الثقافي والفكري، معظم المخططات الثقافية والأدبية التي كان يتوسل بها الأعداء، وإسرائيل في طليعتهم، للقضاء على العرب وتدمير كيانهم، وتحطيم معنوياتهم وشخصيتهم. فرأت في حركة الغزو الفكري والثقافي - كما سبق لها ورأت في حركة الشعوبية والزندقة التي نتجت عنها وأبدعتها - النوايا المتعمدة لتزييف الحقائق واصطناع الشعارات الكاذبة وفبركة العناوين المضللة. فاستوعبتها ثم قامت تنبه التجمعات السياسية والفكرية والاجتماعية، بضرورة التصدي لها عبر تحركات متعددة، كالكتابة، وإقامة المؤتمرات والمهرجانات لتوعية الجماهير على أضرارها ومواقفها العدوانية. وقامت مع غيرها بالتصدي لهذه الأضاليل، عن طريق تصحيح زيف الادعاءات المغرضة التي كان يجري إطلاقها وبث سمومها[١٢٦].

كما قامت بتحركات مكثفة؛ وأنشطة متعددة لمعارضة الغزو الثقافي والأدبي. وشكلت مع عدد من الشخصيات جبهة لمقاومة هذه الهجمة، فكانوا رؤوس حراب أدبية وفكرية، لأنهم رأوا في الهجوم على ميادين الفكر والثقافة أخطر مجالات الغزو. فحشدوا طاقاتهم، ورصوا صفوفهم، ورتبوا أفكارهم، ونظموا شعاراتهم وطروحاتهم، في عملية منظمة للمقاومة والصمود. وجندوا أقلامهم للمرابطة، في خط الدفاع الفكري الذي يشبه خط الدفاع العسكري.

اندفعت زاهية قدوره مع غيرها من المثقفين والعاملين على الصعد الفكرية

والسياسية وحتى الاجتماعية، لعقد المؤتمرات، ووضع الأبحاث، وإلقاء المحاضرات، وإطلاق الصيحات المتوالية، مما كان له الأثر الواضح في تحريك العقل العربي وتنبيهه إلى النتائج السيئة لعملية الغزو الفكري والثقافي، التي يقوم بها الأعداء وفي مقدمتهم إسرائيل. وقامت جماعات أخرى بأعمال مختلفة، كالتنديد والتحذير، وإطلاق التحذيرات والتنبيه من التيارات المسمومة، التي تم كشف غاياتها وأهداف القائمين عليها.

المهم من ذلك، الدلالة، إلى التحركات الفكرية والثقافية التي قامت بها زاهية قدوره في واحد من مفاصل حياتها، كتعبير عن تفاعلها مع الأنشطة المختلفة، التي كان لها فيها بصمات لا تمحى. وقد استمرت على هذا المنوال؛ حتى فترة متقدمة من حياتها، قبل أن تضطرها السنوات الثمانون من عمرها، إلى الاعتكاف عن المشاركة بأي نشاط من أنشطة حركة اليقظة العربية، التي كانت تعتبر واحدة من دعاتها، ومن العاملين عن إماطة اللثام، وإزالة الحجب، عن مؤامرات التبشير والاستعمار، التي ما زالت تنذر بقرنها على الشعوب العربية منذ حقب تاريخية طويلة ومتعددة[١٢٧].

وكانت زاهية قدوره في نظر كثير من المنتديات السياسية والفكرية والاجتماعية، من المساهمات الفاعلات والنشيطات في التحذير من أخطار نشر وتعميم الغزو الثقافي. ومن المفكرين الساعين على دحره، وكشف زيفه وأباطيله المناهضة للقيم المسيحية والإسلامية، وحضارتيهما الفكرية الثقافية والإنسانية - المعتبرة وفق منطقها - من مقومات العرب؛ وأسباب قوتهم وتقدمهم، إلى رحاب الإنسانية الواسعة[١٢٨].

تقييم المنحى الثقافي في فكر زاهية قدوره

هذه هي الجذور الأصيلة، والمبادئ الأساسية، والقيم الفكرية والإنسانية، التي استقت منها زاهية قدوره المنابت الثقافية التي عرفت بها وعاشت في رحابها، وتنورت من أفكارها. لأنها تتلمذت على أيدي أساتذة كبار وأدباء ومفكرين، عرفوا بشهرتهم في هذه المجالات. فضلاً عن علاقتها بزوجها، الذي قدم لها زاداً ثقافياً، ساهم بترشيدها إلى مدارك إنسانية متقدمة ومتطورة؛ ساعدت في تشكيل إرثها الثقافي[١٢٩].

الغاية من التعريف بهذه المقومات الفكرية والسمات الشخصية في فكرها، هي الإضاءة على جوانب كثيرة ومحطات بارزة في حياتها، التي لا يمكن إلا الوقوف عندها بدراسة متمعنة. لأنه ليس بالإمكان التغافل عن هذه المعاني الإنسانية، والتعامي عن المقومات الثقافية المتقدمة، التي كانت عليها هذه الناشطة ثقافياً وفكرياً. كما أنه كان من

الظلم بحق العلم والتاريخ؛ أن يصار إلى تجاهل الوقائع الشخصية دون إبراز مقوماتها، وأعطائها الأهمية التي تستحقها، وتوضيح العناوين الأساسية التي كانت عليها من الناحية التربوية - الثقافية.

لذلك إذا ما وردت عبارة تكريم هنا، ولفظة تفخيم هناك، وإشارة تعظيم هنالك، لا يجب أن يعتبر هذا من باب المبالغة. لأنه ليس بوسع أي دارس عندما يتصدى للتحري عن مقومات هذه الشخصية الأدبية والفكرية والتربوية، إلا أن يتوقف عند تقديرها واحترامها والعمل على إبراز معانيها ومكانتها.

والسبب أن ثقافتها وإن كانت متعددة الجذور، إلا أنها كانت واسعة الانتشار، لا بد أن يعترف بذلك الغريب قبل القريب، والخصم قبل الصديق. فثقافة زاهية قدوره، لن نقول أنها كانت عالمية الانتشار، بالرغم من أنها لم تكن محدودة الآفاق. بل هي ثقافة عممتها على أكبر عدد من تلامذتها وطلابها، طوال ما يزيد على ربع قرن من الزمان.

من نافلة القول أن زاهية قدوره لم تستغل ثقافتها لنشر أفكارها وآرائها الفردية، وبالطريقة التي كانت تحلو لها. لقد كانت ثقافتها من ناحية ثانية، ثقافة الإنسان الملتزم بقومه ووطنه وشعبه. ثقافة المؤمن بمستقبل أبنائه في العطاء والتفوق والنجاح. كانت ثقافتها ذات جذور عربية أصيلة، ولبنانية وقومية راسخة في وطنيتها. كانت ثقافتها الإلتزام بقضايا هذا الوطن وهذه الأمة، لا بل أكثر من ذلك كان همها الوطن العربي[١٣٠] كله، بفئاته ورموزه ومختلف أجناسه وأنواعه.

لم ترفض زاهية قدوره في ثقافتها؛ ثقافة الآخر، ولم تنغلق على الثقافة الذاتية الضيقة والمحدودة الآفاق. كانت ثقافتها مشرعة الأفكار للحوار والنقاش والمجادلة، ومقارعة الحجة بالحجة، والمنطق بالبرهان والدليل. كانت في توثب دائم لفهم أفكار الآخر وثقافته، ومناقشته في طروحاته. فإما أن تُقنع أو تقتنع. لم يكن عندها شيء اسمه المستحيل أو الممنوع.

كانت ثقافتها المتينة والقوية، المتجذرة في تراب هذه الأمة، ذات منابت وحدوية وتوحيدية، من الكل إلى الجميع، ومن الفرد إلى المجموع. فأفكارها الثقافية، وكذلك أبحاثها ودراساتها كانت قد أوضحت مختلف هذه النقاط والعناوين. فكانت خالية من أي فكرة ثقافية تفرضها بالقوة والإكراه. وطالما أنها كانت من المثقفين الإسلاميين والمؤمنين بدينهم وشرائعه، فقد سارت على نفس الطريقة الإيحائية الإسلامية بنشر

الدعاوي الروحية والإنسانية والثقافية؛ بأسلوب اعتقادي متين وبنهج يقيني أكيد.

اتبعت في ثقافتها القومية طريق المجادلة والحوار والمنطق. فبرغم الظروف السياسية التي سادت الفترة التي كانت فيها زاهية قدوره، من أحد الأعلام المبرزين على الساحتين السياسية والثقافية، فإنها لم تستغل هذه الصفة لفرض ما كانت تعتقد أنه حق، وأن أفكار غيرها وتطلعاتهم هي باطل. كانت ثقافتها متسامحة إلى أبعد الحدود، منفتحة على الجميع، مع المعارض قبل الموالي. وتوافقت في الشعارات التي كانت تطرحها، وبالمنظومات التي كانت تؤمن بها، مع التفكير المسيحي المعتدل الذي كان يرى في الوحدة الاجتماعية قضاء على الطائفية، لذلك « دعا الفكر المسيحي إلى اعتبار الوحدة الاجتماعية وليس الوحدة الطائفية أساساً لفكرة الوطن» (١٣١).

من هنا لم يكن في ثقافتها لهجة دينية أو نبرة تعصبية أو نظرة مذهبية وفئوية. عرفت ثقافتها بشموليتها لمختلف المفارق والاتجاهات. ونشأت مبادئها تجاه هذا الأمر من الحرية المنضبطة ومن الاستقلال الحر بالفكر والعقيدة، نهجاً وتأسيساً على ما جاء به الإسلام من حكم ومواعظ « لا إكراه في الدين». فحرية الفكر والرأي كانت بالنسبة إليها « مناطق لا يجوز اختراقها محافظة على كيان الأمة ووجودها، ومحافظة على الشخصية الإنسانية وتماسكها» (١٣٢).

هذه الثقافة التي انتشرت على مدى هذه الفترة الزمنية، لا بد أن يكون قد عم نفعها على أعداد لا بأس بها من الطلاب، الذين خرج من بينهم المثقفون والكتّاب والمؤرخون، فضلاً عن الأساتذة في اختصاصات متنوعة، بعد أن تزودوا من ثقافة صاحبتها وعلمها وأدبها بأشياء كثيرة، ليعملوا بعد ذلك على نشرها بين طلابهم وتلامذتهم.

من هنا الفكرة التي طرحت سابقاً، وهي عدم محاسبة الأفكار الواردة حول مكانة زاهية قدوره الثقافية، لأنه ليس من المبالغة في شيء إعطاء زاهية قدوره الهالة الحقيقية التي تستحقها من التكريم والتقدير على مسيرتها الثقافية والتربوية/التعليمية طوال ما يزيد على نصف قرن من الزمان أو أكثر. وهي لم تقتصر على ذلك فقط، بل ارتبط فيها أيضاً نشاطها السياسي وعملها الاجتماعي، الذي لم يقل في أهميته عما سبقه.

هوامش الفصل الرابع

١ ـ كانت زاهية قدوره تنوي نشر الأبحاث غير المنشورة في كتيب صغير، وعهدت إلينا الاهتمام بهذا الموضوع، لجهة ترتيبها والإشراف على طباعتها، وغير ذلك من الأمور. وكنا ننتظر إشارة منها للبدء بالتنفيذ، بعد أن تكون قد اختارت العنوان المناسب له. ولكن المنية لم تمهلها لتحقيق ذلك. مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٥/ ٧/ ١٩٩٩ (أذن بالإشارة إليه).

٢ ـ يبلغ عدد أبحاثها ما يقرب من الستين، ويتألف الواحد من عشرين صفحة. وعدد المحاضرات العشرون، عدد صفحات كل منها الثلاثون. إضافة إلى عدد كبير من كلمات متفرقة، كانت قد وضعتها لمناسبات مختلفة. يراجع السيرة الذاتية لزاهية قدوره.

٣ ـ قدوره، زاهية: مفاهيم التاريخ في المرحلة المعاصرة. من كتاب: بحوث عربية وإسلامية. ص ٩ ـ ٢٣.

٤ ـ قدوره، زاهية: " كتابة التاريخ العربي. الواقع والبدائل ". دراسة في مفاهيم التاريخ في المرحلة القومية المعاصرة. مجلة الآداب. السنة السابعة والعشرون. العددان ٤ و٩ (عدد ممتاز) نيسان/ أيار - أبريل/ نوار ١٩٧٩. ص ٧٩- ٨٣.

٥- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٦- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٧- ألقي البحث أول الأمر كمحاضرة في المركز الثقافي الإسلامي، في بيروت، في شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٩، ونشر في مجلة قضايا عربية. بيروت. آذار/مارس ١٩٨٠، وأعيد نشره في كتاب: بحوث عربية وإسلامية. معهد الإنماء العربي. بيروت ١٩٨٤.

٨- يتألف البحث من سبع وعشرين صفحة من الحجم العادي، وكل صفحة مزيلة بعدد من الحواشي. وهناك ملخص له مؤلف من ثلاث صفحات، بينت فيها أهم النقاط التي دار عليها البحث. وطرحت في نهايته بعض الأسئلة عن كتابة التاريخ.

٩- قدوره، زاهية: بحث: تاريخنا وكيف نكتبه.

١٠- **هيرودوت Hêrodot (٤٨٤؟-٤٢٥؟ ق.م.)** :مؤرخ ورحالة يوناني. زار العالم المعروف آنذاك لا سيما العراق وفينيقيا ومصر. له « تاريخ « هو من أهم المراجع لمعرفة أخبار الأمم القديمة وأساطيرها. يراجع: المنجد في اللغة والأعلام. ص ٦٠٦.

١١- **ثوقيديدس Thoukudidês(٤٦٠- نحو ٤٠٣ ق.م.)** مؤرخ وقائد يوناني.له « تاريخ حرب البيلوبونيز»التي اشترك فيها وأرخها بصدق شارحاً أسبابها. يعتبر أول المؤرخين الأقدمين وأقدرهم في سرد الوقائع الاقتصادية والاجتماعية وتحليلها.يراجع: المنجد في اللغة والأعلام. ص ١٩٢.

١٢- ويدجري، اليان جريجوري:التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي. ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد. ج١. ص ١٠٤ وما بعدها.

١٣- يراجع قدوره، زاهية؛ بحث: تاريخنا وكيف نكتبه ؟ من كتاب: بحوث عربية وإسلامية.

ص ٣٩. لمزيد من التوسع تنظر محاضرة الدوري، عبد العزيز بعنوان: إعادة كتابة التاريخ العربي. دار الندوة. بيروت تموز / يوليو ١٩٩٢.

١٤- قدوره، زاهية: المرجع السابق. ص ٤٧ .

١٥- قدوره ، زاهية : ملخص عن بحث : تاريخنا وكيف نكتبه .

١٦- لمزيد من الإطلاع على هذه المتشابهات يراجع العظمة، عزيز: ابن خلدون وتاريخيته، وجغلول، عبد القادر: الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، والحصري، أبو خلدون ساطع: دراسات عن مقدمة ابن خلدون، وسبيتي، حسين محمد: أعلام فلسفة التاريخ. ص ١٧ – ٢٧.

١٧- قدوره، زاهية؛ بحث: الحقيقة التاريخية عند ابن خلدون. كتاب: بحوث عربية وإسلامية. ص٤٨-٥٨.

١٨- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

١٩- قدوره، زاهية: المرجع نفسه . ص ٥١

٢٠- ابن خلدون: المقدمة. من دون تحديد لرقم الصفحة.

٢١- للمزيد حول هذا الموضوع، تراجع جريدتا السفير والنداء. بيروت في ١٢ /٣/ ١٩٧٥.

٢٢- لا حاجة للتوكيد على مدى الإسهام الخلدوني في كتابات زاهية قدوره ومؤلفاتها، التي وضعت عنه أكثر من دراسة وبحث، ليس أدل عليها من بحث: الحقيقة التاريخية عند ابن خلدون، أو إسهام الفكر الخلدوني في إدراك التاريخ وعلم الاجتماع.

٢٣- يراجع قدوره زاهية؛ بحث: إسهام الفكر الخلدوني في إدراك التاريخ و علم الاجتماع. مؤتمر ابن خلدون. الجزائر. عام ١٩٨٦.

٢٤- يبدو للمطلع على كتب زاهية قدوره ومؤلفاتها، توافر المعاني المشار إليها آنفاً، ففي أعمالها وأبحاثها، لم تكن تتوقف عند عرض الفرضيات التي كانت تظهر أمامها من كتب التاريخ، أو تلك المنقولة عن ألسنة الكتبة والرواة. فبعد تدوين النقاط التي كانت تستجمعها، أو تأخذها من المتعاطين بالموضوع الذي كانت تطرحه؛ سرعان ما كانت تنهض إلى مصادر التاريخ ومراجعه الكثيرة، قارئة وباحثة، لتقوم بالمقارنة بين الأشياء التي كانت تتجمع لديها، فتدرس حوادثها الأساسية القريبة والبعيدة، ثم تقوم بعـرض فكرتها، ووضع مؤلفها.

٢٥- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٧/ ٣/ ١٩٩٥ (أذن بالإشارة إليه).

٢٦- قدوره، زاهية، بحث:التنسيق والتعاون بين كليات الآداب في الجامعات العربية. وضعته ليقدم في مؤتمر اتحاد الجامعات العربية، الذي عقد بجامعة القاهرة بالخرطوم (السودان) في شهر كانون الأول الأول/ ديسمبر عام ١٩٧٣. وتجدر الإشارة إلى أن مشاركتها فيه كانت مزدوجة. فكانت أولاً ممثلة شخصية لرئيس الجامعة اللبنانية آنذاك الدكتور ادمون نعيم. وثانياً لكونها عميدة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية.

٢٧- المرجع نفسه.

٢٨- كفافي،محمد عبد السلام؛بحث:تعدد الجامعات في خدمة المجتمع اللبناني. من دون تحديد لرقم الصفحة.

٢٩- للمزيد حول هذه الأفكار تراجع قدوره، زاهية: الجامعة واقع ورؤيا. كلمة ألقيت بمناسبة افتتاح إحدى السنوات الدراسية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية، وكانت بدون تاريخ.

٣٠- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٣١- عياد ، كامل : ما هي الجامعة. من كراس محاضرات: مهمة الجامعة في العالم العربي. ص ٢٣.

٣٢- زيادة، نقولا: أثر الجامعة في حياة العالم العربي.المرجع نفسه. ص ٥١ - ٧٢.

٣٣- حسين، طه : مستقبل الجامعة في العالم العربي. المرجع نفسه. ص ٧٣ – ٨٧ .

٣٤- قدوره، زاهية؛ بحث: دور الجامعة في المجتمع. بيروت في ١٩٧٧/٥/٢. لم يعرف أين قدم ونشر. وتراجع الكلمة التي ألقتها بتاريخ ١٥ /٥/ ١٩٨٥ في مركز الرابطة الثقافية في طرابلس بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لوفاة الدكتور معن زيادة.

٣٥- قدم هذا البحث في المؤتمر الأول للجامعيات العربيات الذي عقد في بيروت عام ١٩٦٤بدعوة من رئيسة اتحاد الجامعيات اللبنانيات. ونشر في كتاب: تاريخ العرب الحديث.في الطبعة التي صدرت عام ١٩٧٥، عن دار النهضة العربية في بيروت.

٣٦- قدوره، زاهية؛ بحث: دور الجامعة في المجتمع. بيروت ٢ /٥/ ١٩٧٧. (غير منشور).

٣٧- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٣٨- لمزيد من التوسع يراجع عياد، كامل وزيادة، نقولا والبستاني، فؤاد أفرام وحسين، طه: مهمة الجامعة في العالم العربي. ص ٢٣- ٢٤.

٣٩- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٤٠- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٤١- قدم هذا البحث إلى مؤتمر ابن عساكر، الذي عقد في شهر نيسان/أبريل عام ١٩٧٩، بدعوة من وزارة التعليم العالي في سوريا، وطبع في كتاب خاص بالمؤتمر صدر سنة ١٩٧٩، ونشر في كتاب بحوث عربية وإسلامية، عام ١٩٨٤.

٤٢- إذا كانت معظم المؤلفات التاريخية، التي اعتبرت أن للبنان تاريخاً خاصاً ومميزاً. قد وُضِعَتْ أو نُشِرَتْ بعد إنشاء دولة لبنان الكبير، او في عهد الانتداب الفرنسي وما بعد. فإن جذور هذه المدرسة تعود عدة قرون إلى الوراء. وإن أولى ملامحها في الكتابة التاريخية؛ تعود إلى أواخر القرون الوسطى، التي تجلت في الأخبار الواردة في زجلية المطران جبرائيل اللحفدي، المعروف بابن القلاعي. وقد تناول ابن القلاعي في هذه الزجلية حروب المُقَدّمين الموارنة خلال الفترة (١٠٧٥ – ١٤٥٠ م.) في منطقتي بشـري والزاوية. وتُظهر الأخبار الواردة في هذه الزجلية دعوة صريحة إلى فصل تاريخ الموارنة السـياسي وتميزه عن تاريخ سائر سكان المناطق والطوائف اللبنانية. ويعتبر صاحب الزجلية أن جبل لبنان، أو القسم الشمالي من الجبل اللبناني، هو الوطن الأصلي للموارنة. وتعكس الزجلية في الوقت نفسه موقف الموارنة العدائي من المحيط العربي - الإسلامي. أي أن منطقة الجبل اللبناني هذه، كما يقول صاحب الزجلية، كانت منيعة وممنوعة على الإسلام. يراجع أبو صالح، عباس: نقد المدرسة التاريخية القائلة بفصل تاريخ لبنان عن محيطه. ص١٩٠–١٩١ من كتاب بحوث ومناقشات النـدوة الدراسـية التي نظمتها جمعية متخرجي

المقاصد الإسلامية في بيروت، بعنوان: كتابة تاريخ لبنان، إلى أين ؟. بيروت ٢٠ /٤/ ١٩٩٣.

٤٣- **ابن يحي (صالح) ابن بحتر (... - نحو ١٤٤٦):**

صالح بن يحي بن صالح بن الحسين التنوخي، مؤرخ من بني تنوخ البحتريين، أمراء الغرب وحكام بيروت في لبنان. كان له علم بالنجوم والاسطرلاب. له كتاب: تاريخ بيروت، روى فيه أخبار الحروب الصليبية أيام المماليك ومشاركته في غزو قبرص.

كما له كتاب في سيرة الإمام الأوزاعي. يراجع الزركلي: الأعلام. مج٣. ص١٩٨.

٤٤- أبن يحي، صالح: تاريخ بيروت، وقدوره، زاهية: بيروت من خلال تاريخ ابن عساكر عساكر (١١٠٥ – ١١٧٦) مجلة تاريخ العرب والعالم. بيروت. السنة ١٢. العدد١٣٩. ربيع الأول – ربيع الثاني ١٤١٣هـ / أيلول – تشرين الأول ١٩٩٢م.

٤٥- **ابن عساكر (أبو القاسم علي) (١١٠٥ – ١١٧٦) :**

علي بن الحسن بن هبة الله، كنيته أبو القاسم ولقبه المعروف به ثقة الدين بن عساكر الدمشقي. ولد وتوفي في دمشق.مؤرخ حافظ رحالة، كان محدث الديار الشامية. له تاريخ دمشق الكبير يعرف بتاريخ ابن عساكر ،وله أيضاً: الإشراف على معرفة الأطراف في الحديث، ومعجم الشيوخ والنبلاء، وسواها. يراجع ابن خلكان: وفيات الأعيان. مج٣.

ص ٣٠٩، وابن كثير: البداية والنهاية. مج ٦. ج١٢. ص٢٦١.

٤٦- قدوره، زاهية؛ بحث: بيروت في القرنين الأول والثاني للهجرة من خلال تاريخ ابن عساكر. من كتاب بحوث عربية وإسلامية.ص ٨٧ - ٩٦. وتنظر الأوراق المخطوطة في أرشيف الدكتورة زاهية قدوره، وهي بعنوان: صفحات من تاريخ بيروت من خلال تاريخ ابن عساكر. تعرف هذه المخطوطة باسم: تاريخ مدينة دمشق (مخطوطة دار الكتب المصرية رقم١٠٤١- تاريخ) ٧٧/١٦، تهذيب ابن عساكر لبدران (دمشق ١٣٣١هـ) ١٨٤/٦. صورة طبق الأصل للمحاضرة التي كانت قد ألقتها الدكتورة زاهية قدوره في جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، بعنوان: بيروت، ساحل الشام وقصبته. من دون تحديد للتاريخ الذي ألقيت فيه.

٤٧- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٥ /٣/ ١٩٩٥ (أذن بالإشارة إليه).

٤٨- جاء في فتوح البلدان للبلاذري:«أن يزيد بن أبي سفيان أتى بعد فتح دمشق، صيدا وعرقة وجبيل وبيروت،وهي سواحل، وعلى مقدمته أخوه معاوية ففتحها فتحاً يسيراً،وجلا كثيراً من أهلها وتولى فتح عرقة معاوية نفسه في ولاية يزيد». أما ابن الأثير فقد ذكر في الكامل في التاريخ: «إن فتح بيروت حدث في سنة ١٣هـ/٦٣٤م. في زمن الخليفة عمر ابن الخطاب». يراجع البلاذري: فتوح البلدان. ج١. ص١٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ. مج٢. ص٤٣١. وقدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٤٩- **معاوية بن أبي سفيان (ت ٦٠ هـ/ ٦٨٠ م)**

مؤسس السلالة الأموية. حكم سورية في عهدي عمر وعثمان. عارض علياً وقاتله في صفين ٣٧هـ / ٦٥٧م . فكان التحكيم. نصب خليفة على المسلمين في عام ٤١هـ / ٦٦١م. ونقل الخلافة إلى دمشق، وأتخذها عاصمة له. اشتهر بدهائه وحسن سياسته.

يراجع حسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه، ج١. ص٢٧٦، والمنجد في اللغة والأعلام. ص ٥٣٦.

٥٠- **مدرسة الحقوق الرومانية**

أسسها سبتيموس سفيروس ونشأت في أواخر القرن الثاني الميلادي. وازدهرت منذ أوائل القرن الثالث حتى منتصف القرن السادس الميلادي. وتعتبر أنها هي التي أعطت لبيروت شهرتها العالمية. وبسببه أخذ المشترعون الرومانيون يدرسون في بيروت، بعد أن تحولت مدرسة الحقوق إلى مركز فكري خلاق. وبسببه أيضاً تحولت بيروت إلى مركز للدراسات اللاهوتية. يراجع: شبارو، عصام: تاريخ بيروت. ص ٢٨-٢٩.

٥١- قدوره، زاهية : صفحات من تاريخ بيروت من خلال تاريخ ابن عساكر . ص ١٠ .

٥٢- **عبد الملك بن مروان (٢٦ - ٨٦ هـ/ ٦٤٦ - ٧٠٥ م) :**

الخليفة الأموي الخامس٦٥هـ/٦٨٥ م. ولد بالمدينة وتوفي بدمشق. وحد الإمبراطورية بعد أن قضى على مصعب بن الزبير وأخيه عبد الله في سنة ٦٩٢ م. حارب الخوارج وأوقع بهم. قمع ثورة عبد الرحمن بن الأشعث في دير الجماجم. أنشأ البريد. عرب دواوين الدولة وصك النقود الذهبية. يراجع حسن، حسن ابراهيم: المرجع نفسه. ج١.

ص٢٩١، والمنجد في اللغة والأعلام. ص٣٦٩.

٥٣- قدوره، زاهية:«صفحات مطوية من تاريخ بيروت الإسلامية من خلال تاريخ ابن عساكر واستراتيجية الدفاع العربية في ظل خلافة أكسبت بيروت مكانة كبرى وكرّست ارتباطها بمحيطها العربي». جريدة اللواء. بيروت. ٨ /٦/ ١٩٧٩.

٥٤- **الأوزاعي (عبد الرحمن) (٨٨ - ١٥٧هـ/٧٠٧ - ٧٧٤م)**

من أئمة الفقهاء في الإسلام. وُلد في بعلبك. ترك مذهباً معروفاً. كان جريئاً. احتج على ظلم الولاة لا سيّما بعد ثورة المنيطرة ٧٥٩. قبره جنوبي بيروت. له كتاب السُنَن، والمسائل. يراجع حلاق، حسان: «إمام بيروت عبد الرحمن الأوزاعي». مجلة تاريخ العرب والعالم. بيروت. العدد١٦٦ آذار- نيسان/مارس- أبريل ١٩٩٧.ص٣١-٣٩.

والولي، طه: بيروت في التاريخ والحضارة والعمران. ص٢٧٧ - ٢٧٩ .

٥٥- قدوره، زاهية؛ بحث: بيروت في القرنين الأول والثاني للهجرة من خلال تاريخ ابن عساكر. من كتاب: بحوث عربية وإسلامية. ص٩٣.

٥٦- **يزيد بن معاوية أو يزيد الأول (٢٥ - ٦٤ هـ/ ٦٤٥ - ٦٨٣ م.)**

الخليفة الأموي الثاني (٦٠هـ/٦٨٠م) ابن معاوية وميسون. في عهده قتل الحسين بن علي في كربلاء في سنة ٦١هـ/٦٨٠م. ثار عليه عبد الله بن الزبير في الحجاز.عرف بميله إلى اللهو والخمرة. توفي قرب حمص. يراجع حسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه. ج١. ص٢٨٥.

٥٧- قدوره، زاهية: صفحات من تاريخ بيروت من خلال تاريخ ابن عساكر. ص٩٣.

٥٨- **ثورة المنيطرة :**

قام بها اللبنانيون في كسروان ضد العباسيين سنة ٧٥٩. قمعت بقسوة أثارت احتجاج الإمام الأوزاعي. يراجع: المنجد في اللغة والأعلام. ص ٥٥١.

٥٩- قدوره، زاهية: بيروت ساحل الشام وقصبته. محاضرة ألقيت من على منبر جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، من دون تحديد للتاريخ الذي ألقيت فيه.

٦٠- وضعت هذا البحث في عام ١٩٧٣ ونشر في كتاب تنظيم الأسرة، ثم تمت ترجمته إلى اللغة الإنكليزية سنة ١٩٧٤. ونشر بعد ذلك في مجلة الفكر الإسلامي الصادرة عن دار الفتوى في الجمهورية اللبنانية في عدد شهر أيار (مايو) عام ١٩٧٥.

٦١- قدوره، زاهية؛ بحث: مفكران لبنانيان وقضية فلسطين: نجيب عازوري وميشال شيحا. من كتاب بحوث عربية وإسلامية.

٦٢- قدوره، زاهية: رحلة العمر. دار اللواء للصحافة والنشر. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٩٩

٦٣- قدوره، زاهية: أبحاث في العروبة والإسلام. دار النهضة العربية. الطبعة الأولى. بيروت ٢٠٠٠.

٦٤- قدوره، زاهية؛ محاضرة: بين التربية والتاريخ (مخطوطة) ألقيت بدعوة من رابطة العمل الاجتماعي في بيروت عام١٩٥٩.

٦٥- عبد الدايم، عبد الله: التربية عبر التاريخ - من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين. ص ٢٣٧-٢٣٨.

٦٦- ملخص عن مجموعة أوراق متناثرة ومتفرقة من أرشيف زاهية قدوره. بدون تاريخ.

٦٧- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٦٨- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٦٩- قدوره، زاهية: محاضرة بين التربية والتاريخ (مخطوطة). ص٣.

٧٠- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٧١- ابن خلدون، عبد الرحمن محمد : مقدمة ابن خلدون. ص٣.

٧٢- كار، أدوار: ما هو التاريخ ؟ ص ٥٩ .

٧٣- أوسينودوس، لانجلو: المدخل إلى الدراسات التاريخية(النقد التاريخي). من المقدمة، ص أ.

٧٤- **سبينجلر (أوزوالد) Oswald SPENGLER** فيلسوف ومؤرخ ألماني، اشتهر بكتاباته ومؤلفاته عن الحضارة الإنسانية. يراجع معجم لا روس الفرنسي. ص ٦٨٩.

٧٥- قدوره، زاهية: محاضرة بين التربية والتاريخ مخطوطة. ص٥.

٧٦- قدوره، زاهية: كلمة مخطوطة وضعتها تعريفاً بالمحاضرين في مؤتمر التربية الإسلامية الذي عقد في بيروت في شهر آذار/ مارس عام ١٩٨١ .

٧٧- وردت هذه الأفكار والأسئلة في واحد من بحوثها (من دون تاريخ، ولا ذكر لمكان النشر)، وكان مؤلفاً من ٢٤ صفحة من الحجم الكبير، ومخطوطاً بيدها.

٧٨- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٧٩- قدوره، زاهية: أخذت هذه الأفكار والعناوين من الأوراق المتناثرة في أرشيفها.

٨٠ - جرائد بيروت: كالشرق بتاريخ ٣/ ٥ ومجلة الحوادث وجريدة السياسة بتاريخ ٥/٥ وجريدة صوت العروبة بتاريخ ٦/٥ومجلة الجمهور بتاريخ ٣١ /٥/ ١٩٦١.

٨١ - هذه الأفكار والآراء والاقتراحات، هي خلاصة مجموعة متفرقة من الأوراق التي أخذت من أرشيف زاهية قدوره، وتم العمل على دراستها وتحليلاتها. فظهرت فيها مجموعة الطروحات المشار إليها في مفاصل الكتاب.

٨٢ - قدوره، زاهية؛ بحث: تاريخنا وكيف نكتبه. من كتاب: بحوث عربية وإسلامية. ص ٢٤-٤٧.

٨٣ - لم تكن قدوره تحبذ هذه التسميات، كالوطن المصري أو اليمني أو السوري، وغيرها. بل كانت تؤمن بأن جميع هذه الكيانات تؤلف في مجموعها وفي اتحادها وتضامنها، الأمة العربية أو الوطن العربي الكبير من المحيط إلى الخليج.

٨٤ - للمزيد حول الموضوع، تراجع الأبحاث والمحاضرات والمؤلفات التي وضعتها حول عناوين: الحضارة العربية الإسلامية، وإعادة كتابة التاريخ العربي، والتجزئة والوحدة العربية، والوحدة القومية. وهذه المؤلفات كانت موجودة بكثرة في أرشيفها وفي مكتبتها.

٨٥ - قدوره، زاهية: محاضرة بين التربية والتاريخ مخطوطة. ص١٠.

٨٦ - قدوره، زاهية: محاضرة بين التربية والتاريخ. من دون تحديد لرقم الصفحة، وبحث: تاريخنا وكيف نكتبه. من دون تحديد لرقم الصفحة.

٨٧ - **حسين (طه) (١٨٨٩ – ١٩٧٣) :**

أديب وناقد مصري كبير. لقب بعميد الأدب العربي. ولد في مغاغة بالصعيد. فقد بصره طفلاً. درس في الأزهر والجامعة الأهلية في فرنسا. أسس جامعة الإسكندرية وتولى إدارتها عام ١٩٤٢. عين وزيراً للمعارف في سنة ١٩٥٠. عمل على إقرار مجانية التعليم وأسس جامعة عين شمس. له نتاج وافر يتوزع في الصحف والمحاضرات والكتب، ويشمل الأدب والنقد والسيرة والقصة. من مؤلفاته الكثيرة: ذكرى أبي العلاء وابن خلدون وفي الأدب الجاهلي وحديث الأربعاء ومع المتنبي وعلى هامش السيرة والأيام وشجرة البؤس والمعذبون في الأرض. وله عدد من التراجم. يراجع الزركلي: الأعلام. مج ٣. ص ٢٣٢، والمنجد في اللغة والأعلام . ص٣٥٨.

٨٨ - **العقاد (عباس محمود) (١٨٨٩ – ١٩٦٤):**

عباس بن محمود بن إبراهيم بن مصطفى العقاد. أصله من دمياط، انتقل أسلافه إلى المحلة الكبرى، وكان أحدهم يعمل في «عقادة» الحرير؛ فعرف بالعقاد. ولد عباس في أسوان وتعلم في مدرستها الابتدائية وشغف بالمطالعة. عمل بالسكة الحديدية وبوزارة الأوقاف بالقاهرة، ثم معلماً في بعض المدارس الأهلية. إمام في الأدب شاعر مجدد. ناقد، صحافي مصري. من المكثرين كتابة وتصنيفاً مع الإبداع. اشترك مع المازني في نقد أنصار الشعر القديم. أكثر مؤلفاته مجموعات شعرية، منها: ديوان شعر، وحي الأربعين، هدية الكروان، عابر سبيل، مراجعات في الآداب والفنون، المرأة في القرآن. وله سلسلة سير أعلام الإسلام، مثل: «عبقرية محمد»، «عبقرية عمر». توفي في القاهرة. ودفن في أسوان.يراجع الزركلي:الأعلام. مج ٣. ص ٢٦٦ – ٢٦٧، والمنجد في اللغة والأعلام. ص ٣٧٦.

٨٩ - **زيادة (مي) (١٨٨٦ – ١٩٤١) :**

ماري بنت إلياس زيادة، المعروفة بمي. كان والدها من أهل كسروان (لبنان)، أقام مدة في الناصرة (فلسطين)، فولدت بها، وتعلمت في إحدى مدارسها الإبتدائية، ثم تعلمت بمدرسة عين طورة (لبنان) وانتقلت إلى مصر مع والديها. أديبة وكاتبة. كتبت في جريدة المحروسة وفي مجلة الزهور. امتازت بثقافة عربية وغربية. ساهمت في النهضة الأدبية وكانت دارها ندوة للأدباء يعقدون فيها مجلساً أسبوعياً. من آثارها: باحثة البادية، سوانح فتاة، كلمات وإشارات، الصحائف،

ابتسامات ودموع. يراجع الزركلي: الأعلام. مج ٥. ص٢٥٣ – ٢٥٤، والفاخوري، حنا: تاريخ الأدب العربي. ص ١١٠٩-١١١٠.

٩٠ - قدوره، زاهية : رحلة العمر. ص ١٢٤.

٩١ - هيكل (محمد حسين) (١٨٨٨ – ١٩٥٦) :

محمد بن حسين هيكل كما عرف، وهو محمد بن حسين بن سالم هيكل. ولد في كفر غنام (بالدقهلية) وتخرج من مدرسة الحقوق بالقاهرة سنة ١٩٠٩، حصل على الدكتوراه من السوربون (فرنسا) سنة ١٩١٢. مؤرخ، سياسي، صحافي، من أعضاء المجمع اللغوي. كتب في جريدة الجريدة، وترأس تحرير جريدة السياسة اليومية سنة ١٩٢٢ ثم الأسبوعية. من أركان الحزب الدستوري المناوىء لسعد زغلول وحزبه. تولى وزارة المعارف عدة مرات. يعتبر رائد الرواية العربية. اشتهر بروايته «زينب» التي ألفها في سنة ١٩٤٤،كما له كتاب بعنوان «حياة محمد». يراجع الزركلي: الأعلام. مج ٦. ص ١٠٧، والمنجد في اللغة والأعلام. ص ٦٠٦.

٩٢ - وهو ما كانت قد ذكرته زاهية قدوره في المذكرات التي نشرتها لها جريدة اللواء في العام ١٩٨٧.

٩٣ - لبكي (صلاح) (١٩٠٦ – ١٩٥٥) :

شاعر وأديب لبناني. والده الصحافي والسياسي، رئيس مجلس النواب السابق نعوم لبكي.

لصلاح لبكي عدة دواوين شعرية، وبعض المؤلفات، منها: أرجوحة القمر، مواعيد،سأم، لبنان الشاعر، من أعماق الجبل. يراجع المنجد في اللغة والأعلام. ص ٤٩٢.

٩٤ - إبراهيم (إميلي) (١٩١٤):

ولدت في الولايات المتحدة الأميركية سنة١٩١٤.نشأت في بيت خرج منه الأديب فيلكس فارس، جدها السياسي الدكتور في الحقوق حبيب فارس. دخلت عالم الأدب والفكر والسياسة في سن مبكرة، واكبت عصر النهضة، وصدر لها عدة مؤلفات بالعربية والفرنسية. من مؤسسات جمعية أهل القلم، وشغلت منصب أمين سر الجمعية. رئيسة هيئة التعبئة الوطنية التي تأسست بعد اجتياح إسرائيل لجنوب لبنان. مندوبة لبنان في اللجنة النسائية في جامعة الدول العربية. يراجع فارس، إملي كلمات ومواقف. كلمة تعريف بها.

٩٥- باسيلا (جوزف) (توفي في العام ١٩٩٢):

هو من رعيل الشيخ عبد الله البستاني، وبشارة الخوري الأخطل الصغير، ووديع عقل، وبولس سلامة، الذين درسوا سوية في مدرسة الحكمة. تابع دراساته العليا في معهد الحقوق الفرنسي. وعرفته أروقة قصر العدل ومحاكمه صاحب الصوت العالي، والكلمة الصائبة، المقنعة، والبراعة في تقليب الأدلة والبراهين.كما أشتهر بأدبياته التي كان يكتبها في مجلة المكشوف، وبقراءاته لأكبر الكتاب والمؤلفين الفرنسيين العالميين. ترأس مجلس المتن الشمالي للثقافة» لفترة طويلة من الزمن، وحاول توسعته ليكون المجلس الوطني للشؤون الثقافية. ولكن المنية لم تسعفه لتحقيق ذلك.

٩٦ - حيدر (سليم) (١٩١١ – ١٩٨٠) :

ابن نجيب بن سليم حيدر، من مواليد رأس بعلبك. حرم من حنان والديه وهو في السادسة من عمره،بسبب نفيهما إلى الأناضول من قبل الأتراك عام ١٩١٦،فعاش ردحاً من الزمن في كنف عمه نافذ في بدنايل حتى عام ١٩١٨، عندما انهزم الأتراك، وتم الإفراج عن جميع المعتقلين

السياسيين، ومنهم والدا سليم حيدر. عاش طفولة شيطانية ودلالاً عائلياً بسبب غياب والديه. وبعد تعلم القرآن الكريم وحفظه، مال إلى الجدية. بعد عودة والده من المنفى أحضر له الشيخ توفيق الصاروط ليعلمه أصول اللغة العربية والدين والتاريخ.

تلقى دروسه الأولى في الجامعة الوطنية في عاليه في القسم الداخلي، والتي حصل منهاعام ١٩٢٩ على (شهادة الدائرة العالية) المعادلة لشهادة البريفيه. وتلقى دروسه الثانوية في معهد اللاييك(البعثة العلمانية الفرنسية)في بيروت، وحصل منها على شهادة البكالوريا عام ١٩٣٠. وتقى دروسه الجامعية في باريس، حيث نال من جامعة باريس:الليسانس في الحقوق وليسانس في الآداب عام ١٩٣٤، وشهادة دبلوم العلم الجنائي عام١٩٣٦، ودكتوراه في الحقوق عام ١٩٣٧، وشهادة الدبلوم في العلوم السياسية. وعندما عاد إلى لبنان، عين قاضياً في عدد من المحاكم. عين وزيراً عدة مرات، كما انتخب نائباً لعدة دورات، وسفيراً في عدة سفارات بالخارج، كطهران التي تعلم فيها اللغة الفارسية. أجاد اللغات الفرنسية والإنكليزية والفارسية والألمانية واللاتينية. أسهم مع جماعة المكشوف في بعث النهضة الثقافية والأدبية والفكرية في مطلع الثلث الثاني من القرن العشرين، وفي بداية النصف الثاني من هذا القرن كانت جمعية «أهل القلم» تستقطب أرباب الكلمة في لبنان، وكان من الطبيعي أن يكون سليم حيدر عضواً فيها، بل رئيساً لها. وفي ذكرياتها عن هذه الجمعية تتحدث الدكتورة زاهية قدوره عن الملابسات التي سادت انتخاب رئيس للجمعية، خلفاً لرئيسها السابق الشاعر صلاح لبكي. وقد تمسكت زاهية بانتخاب سليم حيدر، إلا أنه لم يحصل. له تآليف كثيرة في النثر والشعر. من نثرياته: البغاء والاتجار بالنساء والأطفال، إلى جانب العديد من المواقف والآراء السياسية والفلسفية والقانونية والاجتماعية والتربوية، وغيرها. ومن مؤلفاته الشعرية: آفاق، وألسنة الزمان،ويا نافخ الثورة البيضاء، والعدالة، وإشراق، وأشواق، وغيرها.

يراجع سليمان، همذان: سليم حيدر، حياته وشعره. ص ١٩ – ١٣٦.

٩٧ - حنين (إدوار) (١٩١٣ – ١٩٩٢) :

أديب ومحام وسياسي لبناني. ولد في كفرشيما. عضو في البرلمان اللبناني من ١٩٧٢ إلى ١٩٩٢. من مؤسسي الجبهة اللبنانية. من مؤلفاته: رواية الكذب، شوقي على المسرح جريمة ٢٥ أيار. يراجع: المنجد في اللغة والأعلام. صفحة ٢٢٦.

٩٨ - البستاني (فؤاد أفرام) (١٩٠٦ – ١٩٩٤) :

عالم وأديب وناقد وباحث ومؤرخ لبناني. ولد في دير القمر. مارس تدريس الآداب، أول رئيس للجامعة اللبنانية عام ١٩٥٣. من مؤسسي الجبهة اللبنانية. له أكثر من مائة مؤلف أشهرها: دائرة المعارف (١٤ جزءاً) ومنجد الطلاب وسلسلة الروائع (٥٧ جزءاً).

يراجع المنجد في اللغة والأعلام. ص ١٢٨.

٩٩ - جريدة بيروت المساء. بيروت. ٢٤ /٢/ ١٩٥٥.

١٠٠ - مقابلة مع الأديبة إميلي فارس ابراهيم بتاريخ ٢٦ /٩/ ١٩٩٧ (أذن بالإشارة إليه).

١٠١ - قامت مدرسة البنات الأميركان في أول الأمر قرب سور بيروت القديمة (عالصور) عام ١٨٣٥، كان موقعها في نفس المكان الذي بنيت فيه بعد ذلك المطبعة الأميركية التي كانت إلى جانب الكنيسة الإنجيلية. كانت أول مدرسة لتعليم البنات في بيروت وفي سائر الولايات العثمانية.

وأول مدرسة تعطي شهادة «الهاي سكول» في الشرق العربي، وهي البداية الأولى لما عرف فيما بعد بمدرسة الجونيور كولدج Junior College أو "كلية بيروت الجامعية". يراجع الولي، الشيخ طه. ص٢١٤-٢١ وقدوره، زاهية: رحلة العمر. ص١٧.

١٠٢- مقابلة مع إميلي فارس إبراهيم بتاريخ ٣/ ١٠/ ١٩٩٧ (أذن بالإشارة إليه).

١٠٣- يعتبر هذا الكتاب من المؤلفات النادرة والمميزة التي تعرضت بإيجاز إلى توضيح معنى الحضارة العربية بكل يسر وواقعية في الزمن الحاضر. وقد تم العثور عليه، والاستعانة به من مكتبة زاهية قدوره.

١٠٤ - لمزيد من الشرح، يراجع كفافي، محمد عبد السلام: الحضارة العربية طابعها ومقوماتها العامة. من دون تحديد لرقم الصفحة.

١٠٥ - هذه المعاني والمميزات كانت موضوع محاضرة لزاهية قدوره بعنوان: حضارتنا العربية، حضارة أصيلة، جذورها ضاربة في الأرض. وقد وردت في بحث مطول بعنوان: ثقافتنا العربية الإسلامية ودورها في الثقافة العالمية. تقدمت به إلى مؤتمر: آداب ثقافة، ديموقراطية. الذي عقد في باكستان عام ١٩٩٦، وشاركت فيه مع عدد من الأدباء وأساتذة الجامعة.

١٠٦ - للمزيد من التوسع،راجع الأب قنواتي،جورج شحاته: المسيحية والحضارة العربية ص٩٩

١٠٧ - تجدر الإشارة إلى أن زاهية قدوره قامت بتدريس مادة الحضارة العربية الإسلامية على طلاب الدراسات التاريخية في جامعة بيروت العربية من دون أي مقابل مادي، إذ رفضت تقاضي أي تعويض عن عملها في هذه الجامعة، لأنها كانت موظفة بالملاك التعليمي والأكاديمي للجامعة اللبنانية، وحتى لا يكون هناك أي تعارض بين عملها في التعليم في هاتين الجامعتين، لا يحرم طلابها من محاضراتها، بحجة خرق القانون وأنه لا يحق لها القيام بالتدريس في مكان آخر خارج الجامعة اللبنانية. فقد فضلت أن تقوم بإعطاء هذه المحاضرات بدون أي مقابل لمدة خمس سنوات متواصلة رغم اقتراح العديد من الطرق والسبل التي عرضت عليها لقبض التعويض عن تلك المحاضرات، فرفضتها جميعها.

يراجع مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٢٠ /٣/ ١٩٩٥(أذن بالإشارة إليه).

١٠٨- باستثناء سياسة الإخضاع المتعددة الرؤوس الموجهة إلى العرب ودولهم، فإن ثمة سياسة ثقافية تجري متابعتها من جانب الغرب الأوروبي – الأميركي وإسرائيل، أساسها اضطهاد الثقافة العربية، وجعلها في مرتبة دنيا في ثقافات العالم المعاصر، بل إن تلك السياسة في نظرتها المتعسفة إلى الثقافة العربية تمتد إلى الماضي، وإلى تلك الفترات التي تركت فيها الثقافة العربية بصماتها الواضحة في تطور الحياة الإنسانية، يوم كانت الثقافات الأخرى في أدنى المستويات. وتترافق سياسة الإخضاع والسياسة الثقافية مع نهج يحاول الغرب الأوروبي – الأميركي وإسرائيل تكريسه باعتبار الإسلام عدواً ليس للغرب وحضارته فقط، وإنما للعالم.

وعلى رغم أن العرب ليسوا كل الإسلام في العالم، فإن الأساس في تلك المقولة أنها تقصد العرب، أكثر من غيرهم من المسلمين الآخرين، وقد يكون السبب في ذلك اعتباران أساسيان، الأول منهما أن العرب حضارياً وثقافياً هم النواة الأساسية للإسلام، والثاني أن السياسة الغربية تركز، ولأسباب استراتيجية سياسية واقتصادية،على المنطقة العربية، وهي تسعى للإحاطة بها،

ووضعها تحت اليد. إن وقائع كهذه تجعل من العرب أصحاب مصلحة وحاجة إلى السلام وثقافة السلام، لكن الأمر في ذلك ليس محكوماً برغباتهم وإرادتهم، بل برغبة وإرادة الدول التي تضع استراتيجيات الاخضاع ضد العرب،والتي تنفذ سياسات طابعها العنف المكشوف في أغلب الأحيان والمستور في أحيان أخرى، وفي كل الأحوال، فإن موجة الاستراتيجيات والسياسات التي تستهدف العرب هي ثقافة العنف والتطرف والعنصرية،وهي ثقافة سائدة وخصوصاً في الولايات المتحدة وإسرائيل،وفي الاثنتين يأخذ العنف والتطرف والعنصرية بعداً مؤسساتياً منظماً، إضافة إلى بعده الاجتماعي الملموس. يراجع سارة، فايز: العرب وثقافة السلام ". جريدة السفير. بيروت. ٢٦ /٧/ ١٩٩٩. ص٢١ .

١٠٩- لمزيد من التوسع يراجع: "نظرية الثقافة". تأليف مجموعة من الكتاب. سلسلة عالم المعرفة. الكويت. العدد٢٢. يوليو/ تموز ١٩٩٧. ص١٠.

١١٠- في الجلسات العديدة التي كانت تتم مع زاهية قدوره، كانت تردد أشياء كثيرة من هذه الأفكار والمعاني. إلا أنها في وصفها العرب بذلك، لم تكن تقصد الإساءة إليهم، بقدر ما كانت تهدف إلى النصح والإرشاد والهداية إلى الطريق الثقافي والمعرفي السليمين.

١١١- لم تذكر زاهية قدوره على الورقة أي عنوان أو تاريخ، وأغلب الظن أنها وضعت عليها أفكاراً تجمعت لديها لاستعمالها أو لوضعها ضمن سياق مؤلف أو بحث أو محاضرة عن الثقافة.

١١٢- وردت هذه الأفكار على ورقة مخطوطة، تم العثور عليها في أرشيف زاهية قدوره.

١١٣- ورقة مخطوطة كتبت عليها بعض أفكارها المندرجة في المنحى السياسي.

١١٤- نص الكلمة التي ألقتها زاهية قدوره في المؤتمر الثقافي العربي الذي عقد في الجمهورية التونسية في شهر تشرين الأول / أوكتوبر عام ١٩٩٧، حول المفهوم العام لمعنى كلمة ثقافة.

١١٥- قدوره، زاهية؛ بحث: حضارتنا العربية، حضارة أصيلة جذورها ضاربة في الأرض (مخطوط)، والكلمة التي ألقتها في ندوة العلاقات الثقافية بين لبنان ومصر، بقاعة جمال عبد الناصر في جامعة بيروت العربية، عام ١٩٩٥.

١١٦- قدوره، زاهية: الثقافة ضربت وتهدمت مثلما لبنان ضرب وتهدم. مجلة الأفكار. بيروت٣ /٨ /١٩٩٢.

١١٧- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

١١٨- قدوره، زاهية:حضارتنا العربية،حضارة أصيلة جذورها ضاربة في الأرض. من دون تحديد لرقم الصفحة.

١١٩- سلمان، طلال: الكلمة التي ألقاها في كلية الآداب والعلوم الإنسانية (الفرع الأول) بمناسبة تكريم زاهية قدوره في شهر تشرين الأول عام ١٩٩٩.

١٢٠- قدوره، زاهية، المرجع نفسه.

١٢١- لمزيد من التوسع يراجع، زيدان، جرجي: العرب قبل الإسلام. (مرجع سابق). من دون تحديد تحديد لرقم الصفحة.

١٢٢- قدوره، زاهية: « الثقافة القومية بلا تاريخ ولا مكان» كلمة مخطوطة، موجودة في أرشيفها.

١٢٣- قدوره، زاهية، المرجع نفسه

١٢٤- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

١٢٥- كانت زاهية قدوره قد شاركت مع نفر من السياسيين والمثقفين ورجال المجتمع، وبعض أهل الفكر والأدب، بتشكيل نواة المؤتمر الدائم لمناهضة الغزو الثقافي الصهيوني، الذي ترأسه أمين الحافظ . كما أنها كانت عضوة مؤسسة في المجمع الثقافي العربي- أكاديمية المثقفين العرب في جميع ديار العرب – حيث شغلت منصب الأمينة لشؤون الحضارة العربية في المجمع. يراجع: العالم العربي والثقافة، والثقافة العربية في مواجهة المستقبل، ودور الثقافة في التضامن العربي. وجميع هذه الكتب صادرة عن المجمع.

١٢٦- قدوره، زاهية: الغزو الفكري الصهيوني للأمة العربية. مجلة الموقف. بيروت. العدد ١. حزيران ١٩٨٣م/شعبان ١٤,٣هـ.

١٢٧- كانت زاهية قدوره من الذين عملوا طويلاً على التنبيه من المؤامرات التي ما زالت توضع لإخضاع الوطن العربي لهيمنة وسيطرة الدول الغربية، سواء عبر الإرساليات الثقافية حيناً، أو عبر المساعدات المالية مداورة، أو عبر التهديد والوعيد علناً وبصورة مباشرة للتدخل في شؤونه الداخلية. للتوسع حول هذا الموضوع يراجع فروخ، عمر والخالدي، مصطفى: التبشير والاستعمار في البلاد العربية. من دون تحديد لرقم الصفحة.

١٢٨- يشار إلى أن زاهية قدوره كانت عضواً مؤسساً في المنتدى القومي العربي الذي يعتبرها من المنارات التاريخية العربية والإنسانية، التي يفاخر بها، بسبب مواقفها السياسية العربية والقومية وشعاراتها الفكرية والثقافية التي رفعتها طوال ما يزيد على نصف قرن أو أكثر. فلا عجب أنها في المناسبات القومية والسياسية اللبنانية والعربية التي أقامها المنتدى أن كانت الدكتورة أحد أعمدته المبرزين، وأحد رموزه المكرمين، سواء بمناسبة الاحتفالات القومية، أو الوحدوية العربية، أو كواحدة من الأمناء على العهد القومي.

١٢٩- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٢ /٤/ ١٩٩٥ (أذن بالإشارة إليه).

١٣٠- « آمنت زاهية قدوره بالعروبة فكراً قومياً وحلاً وحيداً لمشاكل لبنان والوطن العربي. لأنه لا يجوز من خلال نظرتها القومية استخدام تعبير: العالم العربي. لأن كلمة العالم تعني شعوباً مختلفة في اللغة والقومية والحضارة والتاريخ. بينما كلمة الوطن تعني شعباً واحداً في هويته وإنتمائه السياسي والحضاري. ولبنان في نظرتها الوطنية والقومية، هو وطن سيد حر مستقل هو عروس العروبة مكللة بتاج الوحدة الوطنية، المرصعة بقرع أجراس الكنائس وبقول أعلى المآذن الله أكبر». من كلمة عصام شبارو في تقديم المشاركين في أسبوع الوفاء الذي أقيم في دار الندوة، في بيروت بتاريخ ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠٢.

١٣١- شرابي، هشام: المثقفون العرب والغرب. ص ٧٤.

١٣٢- الجندي، أنور: المرجع نفسه. ص١١-١٢.

الفصل الخامس

المفكر السياسي عند زاهية قدوره

المقدمـــة

قبل التطرق إلى إنقاط والعناوين السياسية، التي صبغت شخصية زاهية قدوره، في فكرها ودراساتها على حد سواء، لا بد من التعريف ببعض الأصول التي أتت منها كلمة سياسة.

جاء في لسان العرب أنها من السوس، وهي تدل على الرياسة[١]. وورد التعريف عنها أنها من: رأسوه قيل سوسوه وأساسوه، بمعنى ساس الأمر سياسة قام به. وقد ورد في بعض معاجم اللغة العربية بأن السوس هو الطبع والخلق والسجية.

وعرفت السياسة قديماً وحديثاً، بأنها القيام بالأمر بما يصلحه، والمقصود بها أمر الناس. ويقول الحطيئة: « لقد سوست أمر بنيك حتى تركتهم أدق من الطحين» . والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه، والسياسة فعل السائس[٢].

أما التعريف الإنساني للسياسة، فهي النشاط البشري الذي يقوم به الإنسان، ليعم النفع على مجموعة متكاملة من الناس. تميز الإنسان عن باقي المخلوقات الحية، بنشاطه الإنساني والبشري الذي يقوم به في المجتمع. وبسببه فإن الإنسان لا يمكن له أن يعيش في فراغ، فالسياسة في هذه الناحية تلعب دور سد الفراغ عند بني البشر.

إن السياسة تقوم بتنظيم المجتمع وتأمين وجود وحدته، وتعمل بالتالي على قيام المؤسسات، وتأطير هيكلياتها ونظمها وقوانينها وقواعدها المختلفة، التي تدار من خلالها حياة الناس المتواجدين في المجتمع؛ لتسوس علاقاتهم فيما بينهم، وتعمل على تعزيز الفرد والمجتمع[٣].

قام علم السياسة، لدراسة الظاهرة السياسية بصورة منهجية وعلمية، انطلاقا من إدراك الباحث بدقائق الأحداث التاريخية، بصورة واقعية وحقيقية وبشكل تسلسلي لا يفقد الأحداث قيمتها وأهميتها. ويصاحب هذه الدراسة العلم، لمعرفة التطور التاريخي لدراسة الحدث السياسي. فراح هذا العلم يتطور حتى اصبح مادة قائمة بذاتها، تدرس

في عدد من الجامعات، وبات يفرض نفسه كأحد العلوم الأساسية، إلى جانب غيره من العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية.

وبما أنه لا يمكن فصل الواقع السياسي عن جذوره التاريخية، لذلك نشأت ضرورة ارتباط تطور الحدث السياسي بالتطور التاريخي للمجتمع. وورد في بعض دراسات زاهية قدوره، الرؤية التي كانت تراها متمثلة في أن الماضي الجيد لكل أمة نشطة، لا بد أن يسهم في المساعدة على كشف حقيقة حاضرها بصورة جلية، « .. إذ بدون معرفة الماضي يتعذر فهم الحاضر، ذلك الذي سوف يخلو تماما من المعنى إذ لم ندركه في سياق التطور والاستمرار التاريخي..» [٤].

كانت تعتقد أن التاريخ ليس عبارة عن وقائع حصلت في الماضي، بل هو مجموعة أحداث مرسومة في لوحة بانورامية للمساهمة في توقع تطورات المستقبل؛ كما هو الحال في معظم الأحيان. فمعرفة الوقائع التاريخية ودراسة أسبابها ومسبباتها، تعتبر مهمة أساسية في رسم البنية السياسية للأحداث التاريخية، وهو ما كان حال زاهية قدوره في أعمالها التاريخية التي تطرقت فيها إلى مثل هذا الموضوع.

فالمعطيات التاريخية، هي التي ترسم العلاقة المهمة التي تنشأ بين التاريخ وعلم السياسة، مما يؤدي إلى ابتداع النظريات السياسية، المؤدية إلى وقائع تاريخية مهمة، تدفع بفئات من المجتمع للسير وراءها، لمطالبة رجال الفكر ودعاة الاصلاح، بتغييرات ثورية، تؤدي إلى تعديل بنيات المجتمع السلبية. ومثل هذا الأمر تمت مطالبة كل من مونتسكيو [٥] وجان جاك روسو [٦] به؛ مما أدى إلى قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ [٧].

١ ـ نشأت الفكر السياسي

تعتبر السياسة فن ممارسة المستحيل، والسياسي هو الشخص الذي يبتدع النظم والقوانين المتعلقة بشخصه، لتؤمن مصالحه، وتسيده في مجتمعه، لترفعه إلى المراتب العليا بين أترابه، سواء كان صالحاً أو سيئاً. وتلك ظاهرة يمكن تفسيرها طبيعياً. وكان هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق صاحب نظرية، سمعها كل من كان قريباً منه، إذ كان يقول: « عرفت بالدرس أن القوة عنصر جاذبية لا يقاوم؛ ولكنني لم أتصور إلى أي مدى، إلا حين أصبحت مستشاراً للأمن القومي للرئيس، ثم وزيراً للخارجية، ثم نجماً في السياسة الدولية، وحينئذ اكتشفت إن لدي عوامل إثارة لم أعرفها عن نفسي من قبل، ثم اكتشفت أن لدي موارد طاقة لم أكن متنبهاً إلى وجودها فيّ» [٨].

هل يعني ذلك أن السياسي هو ذلك الشخص القوي، سواء من خلال السلطة التي بين يديه، أو من خلال ثروته، لا تهم الطريقة التي حصلها بها، أم أنه ذاك الاستبدادي في أفكاره وممارساته؟

لا يشير تاريخ الفكر عبر العصور التاريخية التي مر بها إلى هذه الصورة، وإن كان قد ظهرت أشياء من ذلك في حقب معينة؛ وفي فترات تاريخية مختلفة. بالرغم من أن تاريخ الفكر السياسي للشعوب القديمة قد دل على القيمة المعنوية والموضوعية للممارسة السياسة التي اتبعوها.

بالعودة إلى الأفكار السياسية للشعوب القديمة، أمثال السومريين والبابليين والأشوريين والفينيقيين والفراعنة والصينيين والهنود والإغريق (في بداية عهدهم)، يلاحظ أنها تمتزج بأساطير قديمة. ولا يمكن العثور على مفاهيمها؛ في الحكم والسلطة والعدالة والدولة والحرب والسلام، إلا من خلال الأساطير التي تتداخل فيها السياسة بالماورائيات. وكان للحضارات القديمة في الشرقين الأدنى والأقصى، بصورة خاصة، دور في تكوين معطيات ومقومات التفكير السياسي والاجتماعي. تتجلى هذه المقومات في المحاورات التي أطلقها أفلاطون، عن نظام الحكم الذي ساد في بعض المدن القديمة منذ آلاف السنين. وظهرت في ما حملته ألواح سومر [٩]، من وصايا وتنبؤات في الحكم والدولة، وما سجلته نقوش نصوص شريعة حمورابي [١٠]. وكان على الفكر السياسي القيام برحلة طويلة، وقد تحققت بالفعل وأسهم فيها الحكماء السبعة، الذين كان منهم سولون [١١]، الذي كان أول من أسهم في تلك الرحلة، وقد جاءت أفكارهم بشكل أمثال؛ وصفها أفلاطون بأنها كانت تتضمن بعض النتائج الصادقة، التي وصلوا إليها عن طريق التجربة.

كانت تشريعات سولون، بمثابة قواعد لإرشاد موظفي الدولة لضبط أعمالهم الإدارية، وكانت ذات أبعاد تتجاوز النطاق الضيق الذي أعدت له أصلاً. سعى سولون إلى إدخال المثل الأعلى للمساواة الاجتماعية في دولة مزقتها المنازعات، وآمن بسيادة القانون.

وكان لا بد لرحلة الفكر من المرور بالفيثاغوريين [١٢]؛ الذين وجدوا في نظريات معلمهم المادية في تفسير الطبيعة والعلم، حلولاً تنطبق على حياة الإنسان، واكتشفوا في العلاقات المتبادلة بين العناصر في الطبيعة؛ صورة مماثلة للعلاقات الأخلاقية للإنسان.

وفي العام ٥٥١ ق.م. قام كونفوشيوس [١٣] بتزويد الفكر السياسي في الصين والعالم بمؤلفات منها: كتاب التعليم الأكبر وكتاب الأغاني وكتاب عقيدة الوسط.

وكانت للفكر السياسي وقفة تطلع فيها إلى السفسطائيين الذين جاؤوا إلى أثينا في عهد بركليس يلقون الدروس في الفصاحة والقدرة العلمية. كما توقف في القرن الخامس ليطالع الرسالة التي كتبها عضو مجهول الهوية في الحزب الأوليجاركي في عام ٤٢٥ ق.م، بيّن فيها خصائص الديموقراطية الأثينية وانبعاثها من حرية أثينا، وفصّل فيها أقدم أنموذج للطريقة الاستقرائية وتطبيقها على المجتمع والسياسة.

ظهرت معالم المدن الفاضلة في الفكر السياسي، في قصائد مطولة على شكل ملهاة لبعض شعراء اليونان. وظهرت الفكرة عند أفلاطون[١٤] بأجلى صورتها في المدينة الفاضلة الذي كان يطمح منذ حداثة سنه إلى زعامتها السياسية؛ إلا أن أعمال العنف والمظالم الناتجة عن الثورة والثورة المضادة التي شهدتها أثينا في ذلك الوقت، دفعت به للإعراض عن حلبة الممارسة السياسية والانصراف إلى إستشراف أول رؤيا للمدينة الفاضلة، التي وضعها في حوار على لسان معلمه أرسطو، وأسماها الجمهورية[١٥].

أما أرسطو[١٦] فقد اتجه بالفكر السياسي إلى مدارك جديدة لا علاقة لها بمدينة أفلاطون الفاضلة، وقد تبصر بأمور الماضي، مما حدى به إلى التحول عن منهج أفلاطون القياسي، لينشىء منهجاً خاصاًعرف به؛ وهو المنهج الإستقرائي. يعتبر أرسطو صاحب فضل على التفكير السياسي، لأنه صنف السياسة ضمن العلوم. مما أكسبه أهمية خاصة لدى طلاب علم السياسة. وكذلك كان حال إخوان الصفا[١٧] الذين اعتبروا السياسة؛ علماً مستقلاً بذاته، صنفوه من ضمن العلوم الناموسية والشرعية، وجعلوه في أقسام خمسة، هي: السياسة النبوية، السياسة الملوكية، السياسة العامية، السياسة الخاصية، السياسة الذاتية. وقد إنفرد أرسطو عن سواه بأسس فلسفته السياسية، في أنها قامت من لدن فيلسوف يمتاز بتحليله وبخبرته السياسية.

يطول المقام في هذا الموضوع ويتشعب؛ إلى مختلف الأعصر التاريخية، والحديث عن أعلام الفكر السياسي الأوروبي؛ أمثال: توما الأكويني، ونيقولو مكيافللي، وتوماس هوبز، وجون لوك، وجان جاك روسو، وفردريش هيغل، وكارل ماركس، وستيوارت ميل وغيرهم، إنما الغاية ليست استعراض أعلام التاريخ السياسي وعباقرته منذ نشأته وحتى الآن، بقدر ما تنشد الدراسة؛ توضيح الأفكار السياسية الأولى التي توالى ظهورها في مختلف المراحل التاريخية؛ لتكوين فكرة واضحة يمكن الولوج منها إلى الفكر السياسي الذي شاب حياة زاهية قدوره واصطبغت به شخصيتها.

فالرواقيون إذاً فصلوا الأخلاق عن السياسة؛ لتأكيد مبدأ المساواة. في حين أن الرومان ألبسوا تفكيرهم السياسي مقومات جديدة، من أهمها أنهم عمدوا إلى فصل الفرد عن الدولة، وتمتع كل منهما بالحقوق والواجبات. وجاء الرومان بفكرة السيادة ذات الدلالة المميزة في المجتمع.

بالانتقال إلى المرحلة التاريخية العربية، يلاحظ أن انطلاقة التفكير السياسي الإسلامي ظهرت مع بداية تكوين الدولة الإسلامية، وكانت بوادرها الأولى في خطب متعددة؛ كيوم السقيفة[١٨] والحجيج، وكذلك في خطب الخليفة أبي بكر الصديق[١٩]، الذي تناول فيها تنظيم أمور الدولة الإسلامية الفتية، ولا سيما الرئاسية والخلافة.

عاد الفارابي بالفكر السياسي إلى نهج الفيلسوف اليوناني أرسطو الرامي إلى اعتبار السياسة نوعاً من أنواع العلوم، غير أن الفارابي قام بالجمع بين السياسة والأخلاق، وفي مؤلفاته أبلغ دليل على ذلك؛ ومن أهمها آراء أهل المدينة الفاضلة.

وعرفت الفلسفة الميتافيزيقية في الفكر السياسي الإسلامي تراجعاً بيناً، خصوصاً عندما بدأت دراسة المقومات الاجتماعية والأخلاقية للحياة العربية الإسلامية، ثم عندما اشتبكت هذه الدراسات مع المجادلات النظرية حول المبادىء الفقهية. ظهر مثال لذلك عند ابن قتيبة في كتابه: عيون الأخبار[٢٠]، وعند الماوردي في: الأحكام السلطانية[٢١]. وتلاهما أبو حامد الغزالي الذي عرّف السياسة كعلم في كتابه: علم السياسة، من غير أن نغفل مؤلفاته الفلسفية الأخرى. وأبو بكر الطرطوشي الأندلسي؛ المتوفى في سنة ١١٢٦م. الذي عرض في: سراج الملوك[٢٢] للسياسة من الناحية الأخلاقية والفلسفية، إنما بطريقة دينية وعظية.

يشاع أن قمة أعلام الفكر السياسي الإسلامي، تتمحور حول ابن خلدون، الذي لم يقتصر في عمله على معالجة مختلف مسائل البحث الاقتصادي والتحليل الاجتماعي والتطبيق التاريخي، بل تطرق في كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، إلى عرض تاريخ العرب ومن عاصرهم من الأمم وإلى البربر، ودولهم وأحوالها.

وتعتبر الأفكار السياسية التي طلع بها ابن خلدون، واحتوتها القوانين الطبيعية لقيام الدول وزوالها (طبائع العمران) التي استخرجها من دراسته للظواهر التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، للدول في التاريخ الماضي والحاضر، أنها شكلت منهجاً ومحتوى اصطلح على تسميته بعلم الاجتماع السياسي[٢٣].

أما بالنسبة إلى علم السياسة، فمما لا شك فيه أن السياسة باتت تمثل في الزمن الحالي موقعاً مهماً إلى جانب العلوم الاجتماعية، كما أصبحت تحتل حيزاً بارزاً في اهتمامات المتخصصين في هذه العلوم، وفي العلوم السياسية بصورة خاصة. فعلم السياسة، شأن سائر العلوم الأخرى، علم قائم بذاته، وله استقلالية خاصة، إنما لا تنفي علاقته بالعلوم الأخرى. فاكتساب علم ما كيان خاص به، لا يعني إنعزاله عن باقي العلوم، خصوصاً أن إنفتاح حقول المعرفة بعضها على بعض هو الطابع المميز للتطور العلمي[٢٤].

كل فرد في المجتمع يتحدث سياسة؛ ويمارس عملاً سياسياً كما يمارس أي عمل آخر، أو يتكلم في السياسة كما يتكلم في أي موضوع من مواضيع المجتمع، حتى بات لكل فرد في المجتمع اهتمامات سياسية خاصة. هذا الرواج للاشتغال بالسياسة والتحدث بها؛ يعود إلى أن العالم المعاصر أصبح عالماً سياسياً، فاعتبر الإنسان في العصر الراهن إنساناً سياسياً بالدرجة الأولى.

فعلى كل من يتعاطى بالعمل السياسي في الوقت الحاضر، أو ينهض للكتابة في السياسة، أن يستلهم في كتابته الجذور القديمة للأفكار السياسية التي كان عليها أئمة السياسيين القدماء، فأهمية تحليل الأفكار السياسية؛ وما لحقها من ممارسات ظهرت معالمها في التراث الكلاسيكي لعلم السياسة، هي عملية ضرورية لتلقي الكثير من الضوء على الوضع الراهن للدراسات السياسية[٢٥].

درست زاهية قدوره الأفكار المتداولة لأعلام الفكر السياسي الغربي والعربي، وأطلعت على آرائهم؛ وتعرفت على نشأة علم السياسة واعتباره علماً كبقية العلوم الأخرى. وأدركت العلاقة القائمة بين التاريخ وعلم السياسة، ودرست عواملها وتعرفت إلى مقوماتها، وظهرت إشارات منها في منهجية مؤلفاتها السياسية والتاريخية، كما طبعت شخصيتها وممارسة السياسة عندها. بمعنى آخر، إن زاهية قدوره لم تعن بالوقائع التاريخية لذاتها، وبما حفلت به من أحداث، بقدر ما نهضت لدراسة الأحداث ومساراتها التاريخية والسياسية، في أي اتجاه ومنحى توافر لها. درستها بتمعن ودراية، بفكر الباحثة المقمشة، لم تنشغل بالسلبيات التي غشيت الأحداث، كما لم تتوه في تعرجاتها وغموضها. بل أخذت منها ما يوافق الحقيقة التي كانت تفتش عنها لعرضها، عرض الباحث المؤتمن على التاريخ والحقيقة[٢٦]، من غير أن تغفل قيمتها، ومن دون أن تتجاهل العوامل والظروف السياسية التي كانت وراء قيامها.

دفعتها هذه المنهجية، للتوكيد على العلاقة بين التاريخ وعلم السياسة، من دون أن يغرب عن البال أن السياسة تحمل معاني متعددة تدور حول طروحات كثيرة، اجتماعية واقتصادية وجغرافية وحقوقية، إلخ... فضلاً عن أن طرحها التاريخي يمت بصلة قوية إلى التاريخ السياسي.

إن الكتابة عن الفكر السياسي عند زاهية قدوره، ليست محاولة لإحصاء أفكارها؛ والطروحات التي وضعتها بين يدي طلابها ومريديها، أو للتعرف إلى نضالها السياسي الذي أخذ فترة طويلة من حياتها.

بل هي محطة من المحطات الثلاث، الهدف منها التبصر بأبعادها التربوية - الثقافية والسياسية والاجتماعية، أدبياً وإنسانياً، لتأطير وتأصيل المنهجية التي صارت عليها، قومياً وعربياً وإسلامياً، والربط بينها وبين العروبة الحضارية.

ما يدعو لذلك، أن زاهية قدورة لم تكن من رعيل سياسي مارس السياسة فعلاً وقولاً وعملاً، بالرغم من أنها لم تكن بعيدة عن هذه العناوين. فمؤلفاتها تحمل أكثر من عنوان وأكثر من موضوع سياسي تطرقت إليه وعالجته في أبحاثها ومحاضراتها. فكانت تطلق التنبيهات والصيحات المحذرة للمعالجة، ولا سيما بالنسبة إلى المناداة الدائمة بالعروبة، التي اعتبرتها الحل الأفضل والأنسب، لمعالجة جميع المشاكل الطائفية والسياسية التي يعاني منها لبنان منذ زمن بعيد. فضلاً عن أنها كانت من دعاة القومية العربية، لم تكن تقبل حيالها أي نقاش أو جدال.

آمنت زاهية قدوره منذ فترة مبكرة من حياتها، بأن السياسة ليست وقفا على الحكام فقط، بل تتعداهم إلى العديد من الأشخاص الآخرين، الذين قد يكون لهم تأثيرات معينة في اتخاذ القرارات؛ من جراء قيامهم وممارستهم للأعمال السياسية، كما كان حال أفراد كثر من عائلتها، وخصوصاً عمها حليم قدوره وعمتها إبتهاج قدوره.

عرفت زاهية قدوره السياسة منذ نشأتها الأولى في بيت أهلها، الذين تشبعت من أفكارهم وآرائهم. وما زاد في قناعاتها الآثار التي تكونت لديها؛ عندما انتسبت إلى الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٣٩، وتتلمذت على يدي قسطنطين زريق[٢٧]، حيث غرزت فيها هذه التعاليم؛ المعاني الأولى للعروبة وللقومية العربية[٢٨].

٢ – خواطر زاهية قدوره السياسية

عرفت زاهية قدوره السياسة وعياً فكرياً حضارياً، وجانبتها عملاً منزهاً عن الغايات والخصومات والأنا والشخصانية. وأرادتها سمواً في التعامل مع الناس وبين

الرئيس والمرؤوس. ولما أصابتها الخيبة في استحالة تحقيق ذلك، شعرت بالمرارة تعتصر فكرها ووجدانها، والحزن يغلف نفسها، واليأس والإحباط يلف كيانها. خاصة بعد اندلاع شرارة الحرب (اللعنة) اللبنانية في العام ١٩٧٥. فرأتها من يومها الأول حرباً عبثية، وحرباً مذهبية وطائفية، لتحقيق الأطماع وسلب المناصب السياسية، وتدمير مقومات لبنان التربوية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية[٢٩].

لا يمكن وصف زاهية قدوره بالمرأة السياسية؛ مع إنها كتبت في السياسة، ولم تمارس العمل السياسي؛ وهي التي خرجت من بيت سياسي عريق. إنما تعود الكتابة السياسية عندها؛ التي ظهرت في مؤلفاتها وأبحاثها المتعددة، سواء منها التاريخية أو التربوية أو الثقافية أو الأدبية أو الاجتماعية. إلى جذورها السياسية، التي استفادت منها في سنين تفتحها الأولى.

وبغض النظر عن ذلك، لم يكن غريباً عليها وهي من أسرة بيروتية ولج أفرادها عالم السياسة، أن لا تجانب السياسة عندما باتت في ريعان الشباب، وأن لا تنحو في حياتها منحى سياسياً معيناً. تلك السياسة التي تعاطاها جدها منذ زمن طويل، ومارسها أبناؤها من بعده، كمصطفى (والدها) وأخوته، ولكن مع اختلاف بيّن بالنسبة لكل منهم. حتى أن عمتها إبتهاج قدوره، اشتغلت بالسياسة هي الأخرى عن طريق الخدمات الاجتماعية والأدوار النسائية التي كانت تقوم بها[٣٠].

وكذلك كان حال والدتها خانم الحسامي، ربة الأسرة البيروتية، التي قامت بتربية أولادها على حب العلم وطلبه. كانت في نفس الوقت من الناشطات في الحقلين الاجتماعي والثقافي، وتلم إلماماً جيداً بالعمل السياسي، بسبب ما كانت تتمتع به من نظرات سياسية سديدة لوقائع الأمور، وتحليلات سياسية قارعت بتفسيراتها ساسة آل قدوره المتمرسين بها.

لا عجب إذن أن تنشأ زاهية قدوره وقد وجدت نفسها تملك خبرة سياسية بارزة، وهي التي وعت الحياة السياسية متغلغلة في جنبات منزلها العائلي. وكذلك الأمر؛ عندما أجبرت على أول تحرك سياسي، لفتاة صغيرة في مدرسة الجونيور كولدج (Junior College)، ومن بعدها في الجامعة الأميركية في بيروت. فكانت في كل هذه الأمور غير بعيدة عن الاهتمام بالأوضاع السياسية التي كانت تدور من حولها. وكدليل على بعض الأفكار والأعمال السياسية التي أخذتها من أمها وعائلتها، هي الفورة السياسية

الأولى التي ظهرت عليها، عندما تصدت لمعلمتها الأجنبية، حين قالت لها: "أنها – أي زاهية - تريد أن تكون جان دارك لبنان". ومن ثم عندما قامت في إحدى مناسبات عيد الاستقلال، بارتداء فستان على شكل العلم اللبناني تتوسطه الأرزة الخضراء.

وفي خلال السنتين اللتين قضتهما في الجامعة الأميركية في بيروت، لم تتخل عن نشاطها السياسي الذي هيأت له عن غير قصد. فالأحداث التي كانت تحيط بها، والتطورات التي كانت تشهدها بعض الدول العربية؛ كانت تدفعها للمشاركة في التظاهرات التي تقوم لدعم استقلال لبنان، أو لتأييد أي دولة عربية في مطالبها المشروعة، لتحقيق الحرية والاستقلال.

كانت زاهية قدوره قد وقفت حياتها، على تحمل هم الوطن والمواطن اللبناني والعربي، بكل شجونه وقضاياه العربية والقومية. نذرت قسماً كبيراً من حياتها للعمل السياسي، إلى جانب عملها في الحقل التربوي - الثقافي والأكاديمي، إضافة إلى الأعمال الاجتماعية والسياسية، التي قامت بها في فترة مبكرة من حياتها، كتعبير مفعم بالوطنية، من جراء الأجواء التي كانت قد عايشتها في بيت أهلها، فشبت على التعلق بالعروبة، والإيمان بالقومية، والنضال في سبيل حرية لبنان واستقلاله.

وشاركت في الجامعة الأميركية في بيروت، بأول تظاهرة قامت فيها، كتعبير عن الإحساس الذي نشأ لديها، وكان فيه ترجمة حية لمعاني الديموقراطية والحرية، وتأييد للشعارات التي رفعت في ذلك الوقت. كانت واحدة من مئات الطلبة، الذين قاموا بتظاهرة سياسية عام ١٩٤١ تأييداً لثورة رشيد عالي الكيلاني[٣١] ضد الوجود البريطاني في العراق.

غير أن هذه المشاركة، لم تكن العمل السياسي الأول في حياة زاهية قدورة. فبالإضافة إلى تحدي معلمتها الفرنسية في مدرسة الجونيور كولدج (Junior College) سبق لها وفعلت الشيء نفسه عندما هجمت على لوح الصف .. وكتبت عبارة: U.S.A أي الولايات المتحدة العربية، تجاه عبارة المعلمة الأميركية التي كتبت عبارة: .U.S.A أي الولايات المتحدة الأميركية[٣٢].

يمكن اعتبار هذه التحركات السياسية في مطلع حياتها، خلال الفترة ١٩٣٩ – ١٩٤٣ (الإنفعالية والحماسية) النواة السياسية الأولى لفكرها السياسي. فبعد ولوجها الحياة الجامعية كطالبة؛ بكل صخبها وتحركاتها، لم تفقد هذه الفتاة؛ المبادىء والتعاليم التي

تزودت بها من منزل عائلتها. فقد ساعدتها هذه المكتسبات على تحديد مساراتها السياسية والفكرية خارج منزل الأهل، والتمييز بين الخطأ والصواب في هذه الممارسات. فكانت توازي بين الاثنين في كل عمل تقوم به، أو في كل تحرك تنخرط في صفوفه.

وفي الجامعة الأميركية في بيروت أيضاً، خلال الأعوام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٣، عاشت مرحلة تحقيق استقلال لبنان أولاً، ثم بزوغ فكرة القومية العربية، التي عمل دعاتها على دعم كل حركات التحرر التي عاشتها البلاد العربية في ذلك الوقت.

كانت أجواء الجامعة في هذه الفترة، مختلفة تماماً. فتحركات الطلاب كانت تتم بحرية مطلقة، من دون أن تواجهها أي من سلطة الانتداب، أو السلطات المولجة بالمحافظة على أمن الجامعة. وحرية التحرك والتعبير عن مختلف الآراء والاتجاهات؛ مؤمنة لجميع الطلاب، بالرغم من وحدة تحركاتهم، وتوحيد شعاراتهم، ومعرفة أهدافهم، وحماسهم لفكرة العروبة. من رموز الجامعة الذي كان يحظى بتأييد الطلاب وحماسهم في ذلك الحين؛ الشاعر فخري البارودي وقصائده المعروفة، كنشيد بلاد العرب أوطاني، وأناشيد الشاعر سعيد عقل العروبية التي كانت تتردد على كل شفة ولسان، ومنها: نحن الشباب لنا الغد، ونشيد العروة الوثقى[٣٣].

إن دراسة هذه الاندفاعة السياسية لفتاة شابة، تحثنا على ملاحظة الروح السياسية المقاومة التي كانت في داخلها. ذلك أن حياتها العادية وإن كانت كباقي فتيات عصرها، إلا أن نفسيتها كانت تزخر بإحساسها القومي المبكر، والشعور الوطني الجارف.

تطلعت منذ صغرها إلى أمور أكبر من عمرها، كانتظار الشخص البطل الذي يعمل على تحرير بلاده من الاحتلال السياسي والنفسي[٣٤]. كما كان لها اهتمامات أخرى، كجمع التبرعات والهبات من أجل القضية الفلسطينية[٣٥].

كما ظهرت عليها سمات مغايرة عن سيدات عصرها، اللواتي انصرفت بعضهن إلى مختلف دروب الحياة الاجتماعية. متناسيات أنه يوجد في بلادهن أشخاص محرومون من الحرية وحقوقهم المدنية، وآخرون يموتون في السجون من جراء أعمال التعذيب، التي يتعرضون لها بسبب مبادئهم الوطنية والسياسية والقومية. في حين أن زاهية قدوره، كانت متابعة دائمة ومستمرة لمشاكل بلادها الاجتماعية والسياسية، ودراسة السبل الكفيلة بمعالجتها، وتوفير حد أدنى من الكرامة والعدالة؛ للأشخاص الذين كانوا يعانون من الاضطهاد وسوء المعاملة.

ضمن هذا المقياس، يمكن النظر إليها نظرة المتسيدة على النساء والرجال على حد سواء، للمزايا الكثيرة التي كانت تتحلى بها، والصفات الخلقية والفكرية والثقافية، والمسؤوليات الاجتماعية والوطنية والقومية، التي نذرت نفسها لنصرتها ودعمها.

فجميع الممارسات السياسية الأولى التي قامت بها؛ لا يمكن وصفها سوى بالعمل السياسي البدائي، نتيجة لمكونات نفسية ووطنية، أرادت بواسطتها التعبير عن السخط الذي يعتمل في داخلها .

وللبحث عن نشاطاتها السياسية المختلفة، يخيل للدارس فيها؛ دخوله عالماً واسعاً متشعب الأهداف والتحركات، مليئاً بالنشاط السياسي، والإحساس القومي، في وسط حالة من الاندفاع؛ لتفجير كل الأفكار التي كانت مختزنة في داخلها منذ الصغر.

٣ ـ زاهية قدوره تنتسب إلى عصبة العمل القومي

من المؤثرات السياسية التي كان لها بصمات واضحة في مسيرة حياتها، انتسابها إلى عصبة العمل القومي، الذي جاء تلبية لنداء سجيتها السياسية، التي كانت قد تهيأت لها ـ من غير قصد - منذ صغرها. وبالرغم من أنها لم تسع لهذا الانتساب، إلا أنه جاء عفوياً؛ كردة فعل على البيئة التي ترعرعت فيها. مما ولّد عندها شعوراً وإحساساً متميزاً، عند أول لمحة من صديقتها ليلى بستاني[٣٦] أو للي السعد، التي شعرت بميولها السياسية، وتلمست بعض أفكارها الوطنية وتوجهاتها القومية، واستعدادها للانخراط لأول مرة في حياتها؛ في جمعية سياسية تلبي طموحاتها وتحقق فيها أهدافها. فكانت عصبة العمل القومي الجمعية الأولى لولوجها عالم السياسة، وتعاطيها المبكر معها من بابها العريض.

ولد لديها انتماؤها إلى العصبة، إحساساً معيناً جعلها تشعر بالفرحة تعم نفسها، والزهو يغشى آمالها وأحلامها، لتواجدها وسط المحيط الذي أحبته منذ زمن بعيد، وفي المكان الذي كانت تفتش عنه في أرادتها اللاواعية، في محاولة للتعبير عن شعورها وأحاسيسها؛ لترجمتها عملياً .

وقد شعرت بهذه الغبطة النفسية، نتيجة لتحقيق الذات؛ كون الحلم قد أصبح حقيقة، ولم يعد هناك من داعٍ لتسأل عن اسم الشخص الذي كان يلقي عليهم مداخلة تعريف بالعصبة، وأهدافها ومبادئها وطروحاتها المستقبلية. وجاء في الصفحة ٧٠ - ٧١ من كتاب مذكراتها، ذكر لاسم الشخص الذي كان يحدثهم عن العصبة، وكان يدعى علي ناصر الدين[٣٧]، الذي راح يعرفهم على الجمعية وأهدافها، بأنها: « حركة قومية

عربية سياسية شاملة، تتجاوز الحواجز القطرية، وحدود الكيانات، وترتفع فوق المسائل المحلية المدسوسة».

تأسست هذه الحركة عام ١٩٣٣ بعد عقد مؤتمر سري في قرنايل (لبنان)، وحضره: أكرم زعيتر، فريد زين الدين، عبد الرزاق الدندشي، شفيق سليمان، الدكتور سيف الدين الطباع، علي ناصر الدين، واصف كمال، ثابت الغزاوي، سامي شوكت ومحمود صفا... وأصدروا بياناً إلى الأمة العربية: (من عصبة العمل القومي) شرحوا فيه أهداف الاستعمار ومواقفه من القومية العربية، وطبيعته وأساليبه في تجزئة الوطن العربي وتفتيته وشرذمته، بغية إضعافه للسيطرة عليه واستغلاله..[٣٩] وقد أكدت قدوره هذه الواقعة فيما بعد، في إحدى اللقاءات معها[٤٠].

ضمن هذا الجو، انتسبت زاهية قدوره إلى عصبة العمل القومي، وباتت عضواً مؤثراً فيها، نتيجة لإلتقاء أهدافها وتطلعاتها؛ مع شعارات العصبة التي وجدت عندها كل دعم وتأييد، فتعانقت طموحاتها الوطنية مع أهداف العصبة، وتشبثت أحلامها في القومية والوحدة العربية مع غايات العصبة. فضلاً عن مناداة الأخيرة بالانطلاق فوق الحدود وتخطي السدود المصطنعة، واقتحام المجتمعات المنغلقة، المتنافرة والمتقاتلة فيما بينها. وهي المبادىء التي كانت قد تعرفت إليها، في فترة مبكرة من حياتها. كما تعرفت على غاية العصبة في جمع العرب في قومية عربية واحدة، والقضاء على الحساسيات المصطنعة. فرأت في هذا الميدان، مجال عملها وساحة لتحقيق أحلامها[٤١].

وجد في أرشيف زاهية قدوره، كمية من الأوراق أصابها الاهتراء، خطت عليها أفكاراً وشعارات طلبت من العصبة العمل على تحقيقها. وجاء في بعضها، مبادئ عامة لتسير عليها العصبة، ثم الغاية التي قامت من أجلها، والأهداف التي وضعتها لتحركها، ومنها: « إزاحة الكابوس الرابض على صدر الدول العربية، لتحقيق استقلالها وسيادتها. والعمل لقيام الوحدة العربية بين جميع الأقطار العربية» [٤٢].

وجاء في أوراق أخرى، أن عصبة العمل القومي، كانت قد تنبهت للخطر المحدق بالأراضي الفلسطينية، فدعت لمقاومة الغزوة الصهيونية. وذكرت أنه كان للعصبة اهتمامات أخرى، ومنها أن كل قضية كانت تتعرض لها أي دولة عربية، كانت تعتبرها العصبة قضيتها الخاصة؛ التي يجب العمل على حلها.

وذكرت الدكتورة في إحدى أوراقها، أن العصبة كانت قد أولت عناية مميزة

للبنان، بسبب وضعه الديموغرافي، وطريقة العيش المشترك بين سكانه. فنبذت فكرة الأقلية والأكثرية فيه، واعتبرت أن سكانه جميعا، مسلمين ومسيحيين، أبناء دولة عربية واحدة، لها سيادتها الخاصة، وليست تابعة لأي دولة أجنبية، مهما كانت هويتها .

هذا التأثير الذي تركته العصبة في شخصية زاهية قدوره على مدار السنوات اللاحقة؛ رسخ في نفسها الإيمان القوي، بضرورة استقلال الوطن العربي كله، وليس دولة دون أخرى. مما جعلها تنهض للمطالبة بالعمل على جمع أبناء هذا الوطن العربي، تحت لواء واحد موحد. مما أوجد عندها القناعة بحتمية قيام الوحدة القومية الشاملة، لجميع الشعوب العربية الناطقة بالضاد[٤٣].

في اللحظة التي كانت فيها زاهية قدوره تتحضر للذهاب إلى مصر للدراسة، كان لبنان يمر بفترة مهمة من تاريخه السياسي للمطالبة باستقلاله. ولما كانت هذه البانوراما السياسية قد رافقتها منذ يفاعة عمرها، بالإضافة إلى الأفكار السياسية التي تمكنت من اكتسابها في الفترة الماضية من حياتها. والتظاهرات التي كانت تشاهدها تمر من أمام منزل أهلها في منطقة «عالسُور»[٤٤] للمطالبة بتحقيق الاستقلال وإلغاء الانتداب، والإفراج عن رجال لبنان من سجون الاعتقال.

ارتسمت هذه الصور في مخيلتها غداة ذهابها إلى مصر، ولم تفارقها لفترة طويلة من الوقت، خاصة وأن أهلها كانوا يطلعونها على تطور الأوضاع السياسية في لبنان بصورة دائمة. وكان أول عمل سياسي قامت به في مصر، الاشتراك في تظاهرة انطلقت من جامعة فؤاد الأول دعماً للمطالبة باستقلال لبنان[٤٥].

في ظل هذه الأجواء، أشيع أنها كانت لولب الحركة السياسية المؤيدة للبنان، ولغيره من الدول العربية، واستمرت على هذا الوضع معظم الفترة التي قضتها في مصر. وفي الذكرى السنوية الرابعة لعيد استقلال لبنان، كتبت من مصر تقول: « في هذا اليوم المبارك الخالد، يتجاوب في صدر كل لبناني أصداء الإيمان، ووحي العقيدة، إعلاء لتلك الذكرى التي انقشعت بها ظلمات البغي والعدوان، وتبدد ما كان من ظلم تجاه الضعيف، ومن الغني للفقير، وشمل لبنان أسمى معاني كمال البشرية»[٤٦].

أرادت من هذه الكلمة التعبير عن الإحساس بقيمة الاستقلال؛ كفعل إيمان يتردد صداه في صدر كل شخص لبناني. فدعت للمحافظة على قيمته الوطنية، اعتقاداً بأن تحقيقه الفعلي، يفضي للقضاء على الظلم والجور، مما يؤدي إلى الشعور بتحقيق خطوة وطنية كبيرة.

كانت ترى أن الاستقلال هو فعل إيمان بوطن حر؛ يجب الوصول إليه والمحافظة عليه بالعرق والدم، لأن الأوطان العريقة تحتاج إلى عزائم كبيرة. والاستقلال كان في رأيها أكثر من مجرد رمز قومي وسيادة وطنية. كانت تريد من الاستقلال الدعوة لتوحد عقائد أهله، ومذاهب شعبه. وفي سبيله يجب أن تنمحي الأهواء الشخصية، وتزول المطامع الآنية، وتتطهر النفوس من كل أدرانها.

كانت تعتقد أن المستعمر حتى يتمكن من فرض إرادته على الشعوب المستضعفة، غالباً ما كان يلجأ لاتباع سياسة (فرق تسد). تلك الطريقة التي سادت منذ زمن بعيد، اتبعتها السلطنة العثمانية وسارت بها بريطانيا في الزمن الماضي، وتمارسها إسرائيل في الوقت الحاضر. وكانت الغاية منها، اللجوء إلى شتى وسائل وأساليب زرع الفتن والبغضاء بين أبناء البلاد الواحدة، لتسهيل سياسة التفرقة وإيجاد التنابذ بين أبناء البلاد الضعيفة والفقيرة. وقد تم إتباع هذه الطريقة في لبنان أيضاً، لذلك كتبت تقول: « لقد أوهمونا.. وخدعونا وملأوا رؤوسنا بالمحرر العجيب. وداسوا كرامتنا.. وفرقونا شيعاً وأحزاباً.. امسكونا سلاحاً ماضياً، يغرزه الأخ في صدر أخيه، ويشهره الابن في وجه أبيه..» [٤٧].

أرادت الإشارة، إلى أنه لا بد للحق أن يظهر، وللظلم أن يزول، وللعدل أن يسود. فنذرت حياتها لهذه الأمور، ولتحقيق العدل والمساواة والإخاء بين اللبنانيين. وقالت: « أستيقظ الوعي القومي، وهب لبنان.. مناضلاً ثائراً على الظلم والبهتان».

من هنا يمكن ملاحظة هذا الشعور حيال هذه المعاني، التي كانت تشترك بالكتابة عنها، بطريقة غير مباشرة مع عدد من الكتاب اللبنانيين، حيث كان كل منهم يبدي وجهة نظره، حول كيفية تحقيق الاستقلال الذي يحلم به. وكان بالنسبة لها، يتمثل بمقاومة الانتداب، بمختلف الوسائل والأشكال.

لم تكتف زاهية قدوره من الاستقلال بصور البطولة والعنفوان، بل عمدت إلى النصح والإرشاد، حتى يمكن المحافظة عليه وتنقيته من العقبات والصعوبات التي تعترضه وهي كثيرة. فالاستقلال الحقيقي في رأيها، يكون بالترفع عن صغائر الأمور، وممارسة اللين بغير وهن، والقوة بغير تسلط. على أن يتم ذلك تحت ظلال القانون والعدل، والمساواة بين الجميع، بما يستحقه كل واحد وبما يقدمه من خدمات للوطن، حتى يأخذ كل ذي صاحب حق حقه، ويصبح الجميع يعملون في خدمة الوطن. وكتبت

تقول: « لو حصلنا ذلك لكان حاضرنا غير ما نحن فيه، ولكان مستقبلنا يشع أملاً وضياءً، وأكثر خيراً مما يتوقعه المتفائلون»[٤٨].

٤ ـ الفكر السياسي الإسلامي عند زاهية قدوره

عندما انتسبت زاهية قدوره إلى جامعة فؤاد الأول في مصر، للتحضير لدرجتي الماجستير والدكتوراه، كانت المكتسبات التي حازتها من عائلتها، والأفكار السياسية التي درستها على يدي قسطنطين زريق، وشعارات القومية التي أغنت عقلها وفكرها، قد ترسخت في نفسها، وكونت مع خلفيتها السياسية، البدايات الأولى لفكرها السياسي. وعلى ضوء ذلك، يمكن اعتبار المعطيات السياسية والتاريخية؛ التي دارت عليها أحداث كتابيها: عائشة أم المؤمنين، والشعوبية وأثرها السياسي والاجتماعي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، ذات مدلولات واضحة لمدى علاقة التاريخ بعلم السياسة. فالوقائع التاريخية العربية الإسلامية، التي كونت مادة كتابيها، والظروف السياسية التي أحاطت بموضوعيها، وجدت ما يشابهها في بعض أحداث ذلك الوقت وظروفه، التي سيطرت على مرحلة مهمة من التاريخ العربي الإسلامي. كالأحداث التي حبل بها في بعض مفاصله (المؤامرات السياسية، خطط الإطاحة بالقادة، المكائد في وجه الملوك والأمراء والحكام، إلخ..) تداخلت فيها السياسة بشكل أساسي، بحيث اعتبرت من جملة العوامل والظروف التي مهدت الطريق لصنع أحداث التاريخ ومجرياته.

فعندما نهضت لدراسة حياة عائشة أم المؤمنين، تصدت للموضوع من زاويته الاجتماعية؛ فتوقفت مع كل تشعباته، تحلل وتستنتج وتطرح الأفكار المختلفة أنّى شاءت. وعندما وصلت إلى حديث الإفك وموقعة الجمل، تمهلت حولهما، لأنه كان لهما أبعاد سياسية[٤٩]، تفترض البحث والدراسة المطولة، وتلك كانت الإشارة السياسية الأولى في منهجيتها السياسية، وفي دراساتها ومؤلفاتها[٥٠].

أ ـ حديث الإفك في المفهوم السياسي

توقفت زاهية قدوره في كتاب عائشة أم المؤمنين عند حديث الإفك، التي ذكرت أنـه : « كثر فيه القول ووجد فيه المنافقون، وخصوم الإسلام وسيلة للطعن في الدين ونبيّه الكريم، فأذاه أشد الأذى، وأدمى من ورائه قلوب المسلمين، ذلك الحديث الذي لفقه منافق موتور حاقد...»[٥١].

بالعودة إلى فصل الكتاب المتعلق بهذه العناوين، يتبين أنه جاء فيه سرد عن

جماعات من اليهود والمشركين، الذين كانوا يضمرون النوايا المبيتة للرسول صلى الله عليه وسلم. ويتحينون الفرص إما للإيقاع به وإزاحته من طريق أطماعهم وشهواتهم، أو لاستغلال أي فرصة تسنح لهم، يستخدمونها وسيلة يشغلونه بها، ويصرفون جهوده عن الاهتمام بتنظيم أمور الدين الجديد.

من دون الدخول في سرد تفاصيل الحادث المعروفة، الذي حيكت حوله الأقاويل المصطنعة، رأت فيها زاهية قدوره أنها كانت « موجة لم تلبث أن انقشعت بوحي من الله بإنزال آيات بينات، تظهر حقيقة ناصعة لصفات أم المؤمنين..» .

وقد أعد اليهود والمشركون لهذه الحملة، جملة من ظروف الحرب النفسية والسياسية، لينالوا من النبي، في أحب أزواجه إلى نفسه، ولمحاولة القضاء على مكانته الروحية والسياسية. وكانوا جلهم من الجماعات الحاقدة والغيورة، الذين كانت غاياتهم معروفة وأهدافهم واضحة. ومنها التشكيك في نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق التشكيك في أخلاق زوجته، التي هي من أشرف نساء المسلمين، وبعيدة عن أي شبهة في عرضها وسمعتها. فإذا ما كانت غير ذلك، فلا تصح في زوجها النبوة، وحمل راية الرسالة التي أئتمن عليها من الله، وبالتالي يكون – لا سمح الله – غير جدير بإتباعه وتصديقه في دعواه، فيجري تكذيبه في كل ما يبشر به ويحث على عبادته وتقواه، تلك هي الغاية السياسية التي سعى اليهود والمشركون لتنفيذها، للنيل من مكانة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، السياسية والروحية[٥٢].

بالإضافة إلى ذلك، كانت غاية اليهود وأعوانهم، النيل من النبي عن طريق قطع العلاقة الروحية والدينية التي تربطه بأقرب الرجال إليه، والد عائشة ورفيق دربه ودعوته، أبي بكر. فيكونون بذلك قد أوجدوا الشك في قلب النبي من ناحية، وفي فصم عرى الصداقة والعلاقة العائلية والدينية، التي تربطه بأبي بكر، نتيجة لهذا الشك الذي أرادوا منه أن يقوم النبي صلى الله عليه وسلم، بطلاق عائشة وقطع علاقته مع والدها، مما سيؤدي في رأيهم إلى ذرع أول إسفين في رسالته ودعوته.

تلك الخطة السياسية – المكيدة – كان من الممكن لها أن تتحقق، لولا أن النبي قد دانت له الزعامة في المدينة، مما أوغر قلوب اليهود ضده، الذين كانوا يرومون استلام زعامتها قبل هجرته إلى المدينة. ولذلك حاولوا إثارة المشاكل في وجهه، والتشكيك في أهل بيته ونزاهته؛ ليفرقوا قومه من حوله، ويصرفوهم عن الوثوق به والالتفاف من

حوله. فيقوم اليهود والمشركون باستلام زعامة مجتمع المدينة المنورة.

تمكنت الكاتبة من عرض الأمر وبسطه للتحليل والمساءلة، للوصول إلى النتيجة السياسية المتوخاة منه. وحللت الأحداث التي رافقت حديث الإفك. فبينت جوانبه النفسية والاجتماعية، وقالت: « أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر الحق، ويزهق الباطل، ولكي تكون براءتها ثابتة واضحة اقدس من أن تتناولها مناقشة العباد أنزلها الله في كتابه الكريم، وجعل منها آيات بينات تتلى إلى يوم القيامة..»[٥٣].

ظهر من العرض، المنهجية التي سارت عليها الكاتبة، في طرح الموضوع من ناحيته السياسية. فبعد أن حار اليهود وأعوانهم من المشركين في الإيقاع بالرسول، والحيلولة دون نجاح دعوته؛ وإضعاف إيمان المسلمين بالدين الجديد. لجأ هؤلاء إلى بث الدسائس وأعمال النميمة. ولكن كل هذه كان مصيرها الفشل بعون من الله تعالى، الذي خيّب آمالهم؛ وفشّل مخططاتهم. وكان السبب الثاني بعد العون من الله، أنه قد غاب عن بال اليهود وأعوانهم، أن الدين الإسلامي جمع القبائل العربية في وحدة متماسكة، وألف بين قلوبهم، وقضى على عصبيتهم التي سادت زمن الجاهلية. فمحا الحساسيات القديمة، ونبذ عادات الثأر بين القبائل. وباتوا يأتمرون بطاعة النبي ونواهي حكمه، والتقيد بأهداب القرآن. ثم خضعوا لسياسة الحكومة المركزية التي قامت في المدينة، تسوس أمورهم، وترعى أحوالهم.

ب – المفهوم السياسي لموقعة الجمل

حصلت موقعة الجمل بين السيدة عائشة والإمام علي بن أبي طالب[٥٤]، التي رأت فيها زاهية قدوره ذات الدوافع التي كانت وراء حديث الإفك. بالإضافة إلى عدد من الأسباب، ومنها ما ذكرته، بأنه عندما عادت عائشة إلى مكة، صدمت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان[٥٥]؛ ومما زاد من حدة الخصومة بينهما تولية الإمام علي خلافة المسلمين، حيث كانت تعارض ذلك لأسباب كثيرة وعوامل متعددة وجدت متنفسها في مقتل عثمان.

إذ كانت تأمل أن يكون طلحة بن عبيد الله[٥٧] متولياً أمور المسلمين، ولما لم يتحقق ذلك، اتخذت من مكة مكاناً لإقامتها؛ خاصة وقد عرفت بأنها موطن الأمويين، وجماعات قريشية أخرى، إضافة إلى أنه كان يتواجد فيها بعض الناقمين على بني هاشم. ضمن هذه الجماعات، ومن مكة بالذات بدأت حملة عائشة للمطالبة بدم عثمان،

التي يقال أنها اتهمت علي بن أبي طالب بقتله. ويبدو – حسب اعتقاد البعض – أن أهل المدينة، كانوا يترصدون حركة ما تقوم بها عائشة ضد علي.

وكان لهذا الخلاف أسباب أخرى. منها ما روته زاهية قدوره، ومفاده أن خلافة أبي بكر ساهمت في تغذية هذا الخصام، عند عائشة من ناحية، والسيدة فاطمة والإمام علي من ناحية ثانية. إذ كانت نفس عائشة قد اغتبطت بنصيبين، أولهما أنها زوجة حبيب الله، والثاني أنها ابنة خليفة رسول الله. في حين أن الأمر كان مغايراً عند فاطمة وعلي، اللذين كانا يمنيان النفس بخلافة علي لابن عمه.

كما كان للمعاملة التي كانت تلقاها عائشة من الرسول صلى الله عليه وسلم، من دون زوجاته ومنزلتها عنده، لا تعادلها منزلة أخرى، فكانت سبباً للحساسية مع ابنته فاطمة الزهراء[٥٧] وزوجها الإمام علي. وكانت عائشة تدرك هذا التوتر في العلاقات معهما. وكان الموضوع مجالاً للنمامين الذين عملوا على زيادة توتره، كما قامت كل من عائشة وفاطمة باللجوء إلى النبي تشكو إليه همها ولواعجها.

ساهم حديث الإفك بزيادة العلاقة توتراً ونفوراً، خاصة بالنسبة لعائشة التي كمنت نفسها لكل من ساهم ولو بكلمة في الموضوع، وقد علمت فيما بعد؛ أن علياً أشار على الرسول بطلاقها، حتى من قبل أن تظهر براءتها، فكان لموقفه هذا أشد الأثر عندها[٥٨].

بالإضافة إلى أمور أخرى كثيرة، ونوازع خلافية عديدة، كانت تتعلق بالخلافة أو بقرب موقع عائشة من مركز الخلافة، وإتهامها حتى بالتوصية لتولية عمر بعد أبي بكر. كل هذه الأمور كانت تزيد الوضع تعقيداً؛ والخلافات حدة، وبلغت ذروتها في نفس علي من عائشة، عندما توفيت فاطمة، وقمن نساء النبي بواجب التعزية بها، إلا عائشة التي اعتذرت بداعي المرض. وبعثت إلى علي برسول من قبلها ينقل إليه تعازيها، الذي قبلها من دون أي تعليق[٥٩].

ذكرت زاهية قدوره هذه الأسباب واستعرضت فيها تراكمات العلاقة المتوترة التي نشأت بينهم؛ بالإضافة إلى تداعياتها، وعملت على تدعيم التنافر واستحكامه، لدرجة أنها أقفلت كل محاولات منع حدوث موقعة الجمل؛ التي أسفرت عن سفك دماء كثيرة من الطرفين. وكان سببها الرئيسي «سوء ظن متقابل بين علي وعائشة»[٦٠].

ظهر من هذه الموقعة عدد من الاستنتاجات السياسية التي حتمت حصولها، بالإضافة إلى عدد من العوامل، التي فرضت وقوع المعركة. وبغض النظر عن

الخصومة في دورها العملي، فقد رأت زاهية قدوره أن عائشة بالرغم من كونها لم تكن موافقة على بعض تصرفات الخليفة عثمان بن عفان، إلا أنها كانت من المطالبين باعتقال قتلته، والاقتصاص منهم، من غير أن يعني ذلك سعيها إلى تصحيح الخلل الذي طرأ على المسيرة بقيادة الخليفة الشرعي، لأنه لا يجوز التطاول على مقام الخلافة، حتى لا يستفحل الشر، وتزداد الأخطار التي تهدد الأمة. من هنا بادرت بعد مقتل عثمان؛ للمطالبة بدمه، وقامت تخطب في الناس عند الكعبة ولا يتهاونون في هذا الأمر.

لم يكن ذلك حكراً على عائشة وحدها، إذ كان قد طالب عدد كبير من الصحابة والتابعين؛ من الخليفة علي بالقبض على قتلة عثمان، والاقتصاص من الثائرين، وإقامة العدل بينهم.

ومهما يكن من أمر، حدثت الموقعة وأهلكت أناساً كثيرين، وقتل عدد كبير من فريق عائشة، ووقع في الأسر مقاتلين من كلا الطرفين. وكادت عائشة نفسها أن تصاب بمكروه عندما أصبح الجمل نقطة الهجوم والدفاع حتى امتلأ جسمه بالنبال، وصار كالقنفذ، ولما رأى علي أصحاب عائشة ودفاعهم المستميت، طلب من جماعته أن يضربوا الجمل ضربة تقعده، ففعلوا وكان ذلك بمثابة إعلان عن نهاية المعركة، بعد مقتل ما لا يقل عن عشرة آلاف رجل من الفريقين[٦١].

لم تشكك الكاتبة في خروج عائشة على علي وندمها على ذلك، لأنها كانت تعتقد، أنه يمكن بعملها ذاك وخروجها من بيتها؛ قد خالفت أمر الله.. وكانت كلما ذكر يوم الجمل تبكي حتى كان يظن من رآها أنها لا تسكت[٦٢]. ومما زاد ندمها حسن معاملة علي لها بعد الموقعة، إذ سئلت بعد رجوعها إلى المدينة عن مسيرها فسجدت، وقالت: «ما ازددت والله يا ابن أبي طالب إلا كرماً وددت أني لم أخرج هذا المخرج..»[٦٣].

ولعل عائشة شعرت أيضاً أنها بخروجها على علي قد أغضبت زوجها وأباها...

وكان هذا الندم، مصحوباً برغبة من الجانبين في نسيان الماضي وحوادثه المؤلمة والتفاهم. وقد قالت حين خرج الناس لتوديعها من البصرة عائدة إلى المدينة، مخاطبة أبناءها ألا يعتب بعضهم على بعض.

عرضت الباحثة للموضوع من زاويته السياسية، فبينت الأسباب والعوامل الشخصية والنفسية، التي نشأت من جراء تفاقم الخصومة بين علي وفاطمة من جهة، وبين عائشة من جهة أخرى. فإذا ما تم النظر إليه من جوانبه كافة، يتبين أن الكاتبة قد

تمكنت من عرض دوافعه النفسية، وعوامله الاجتماعية، لتخلص في النهاية إلى بسط ما نتج عنه من نتائج سياسية.

تلك طريقة ربما تكون قد أخذتها عن أبن خلدون، مشفوعة بخلفية ثقافية وسياسية، تؤهل صاحبها إلى أن يحيط بالفكرة التي كان يريد طرحها على الدرس والمناقشة، وتقليبها من مختلف وجهات النظر والاحتمالات، التي أثرت فيها سلباً أم إيجاباً. ويمكن اعتبارها من هذه الناحية، أنها اتجهت بفكرها السياسي بعيداً عن المدن الفاضلة، فهي لم تعمد إلى استشراف المستقبل، بقدر ما ركزت فكرها السياسي على استلهام الماضي.

ما أقربها من الطريقة التي سار عليها من ابن خلدون، الذي شغلت مسائل البحث الاقتصادي والتحليل الاجتماعي والتطبيق التاريخي عنده، حيزاً مهماً من فكره السياسي. كذلك كان حالها عندما قامت بالعرض السابق، بتقصي البحث الاجتماعي والتحليل التاريخي لموقعة الجمل. فاستخرجت منها دراسة للظواهر التاريخية والاجتماعية والسياسية، مما يمكن أن يكون قد شكل عندها توطئة لمفهوم علم الاجتماع النفسي.

لا نود أن نلبس الكاتبة ثوباً ليس على قياسها، أو نلصق بها صفات قد لا تتلاءم مع نهجها وطريقتها في الكتابة والتأليف، إنما يشار إلى أنها وليدة هذا الواقع السياسي والاجتماعي الذي طرحته في دراساتها ومؤلفاتها. ونهضت لمعالجته بطريقة استقرائية عادية، من دون الدخول في تعاريج فلسفية؛ أو مصطلحات وكلمات لم تعتدْ على تردادها.

كما لا يجب أن تطلق عليها أوصافاً ونعوتاً، ربما تكون أكبر من منطقها، وأوسع من منهجها. فبدل أن يعمل على إيفائها حقها من الموضوعية. ربما يتسبب لها ذلك ببعض الأحكام الفضفاضة، التي قد ترتد عليها، وتلبسها ثوباً لا يليق بمقاصها، وتلصق بها منهجية ليست لها.

إنما يمكن اعتبارها أنها: «عرفت بيننا بالجد والنشاط والغيرة، على بعث تراث العروبة المجيد. وقد اختارت لذلك موضوعاً محبباً إلى نفوسنا؛ نحن معشر العرب والمسلمين...»[٦٤].

فكان أسلوبها في بحث حياة عائشة أم المؤمنين ممتعاً؛ فلا عجب من التنويه بعباراتها والثناء على دراستها. «...عكفت زاهية، على بحث هذا الموضوع ودراسته، فامتاز بحسن الترتيب، ودقة العبارة، وسهولتها ووضوحها، وببسط الحقائق التاريخية؛

التي تناولتها بالتحليل والنقد والتعليق عليها بآراء متزنة، واستطاعت بذلك أن تمدنا ببحث مبتكر، يفيد العلم فائدة محققة، ويلقي ضوءا ساطعاً؛ يهتدي به الباحثون في تاريخ المرأة العربية المجيد»[٦٥].

أما طريقتها التي سارت عليها في البحث، فكانت ... ثمرة يانعة لكاتبة لبنانية عربية، جمعت بين الثقافتين العربية والغربية. كانت تعتز بعربيتها وتقاليدها، وساهمت في بعث النهضة العربية، التي عمل ويعمل لها معشر العرب جاهدين على إحيائها، حتى تعود إلى ما كانت عليه في عصرها الذهبي المجيد.

ت ـ التداعيات السياسية للحركة الشعوبية عند زاهية قدوره

عندما تصدت زاهية قدوره لدراسة نشوء الحركة الشعوبية، ومذاهب القائمين عليها ونزعاتهم، وآرائهم واتجاهاتهم، كانت قد تكونت لديها القناعة، بأن الموضوع عولج من كتاب ومؤرخين كثر، ومنهم من أعطاه ما يستحقه من البحث والدراسة، ومنهم من أغفل كثير من أسبابه ونواحيه...

كانت دوافعها لذلك، نابعة من أنه لا يستطيع أن يخدم الأمة العربية، ويكتب بعضاً من تاريخها ويعمل على تخليدها وتمجيدها، إلا من تشبعت نفسه بحب العرب، وجبلت سجيته على تقديرهم؛ لأن حبهم لا يمتزج مع روح المرء، إلا إذا كان منحدراً إليه من ماضٍ بعيد.. وكان منهم، وهو ما كان عليه حالها.

أما السبب الأساسي الذي دفعها لدراسة الحالة الشعوبية، فقد جاء كنتيجة للآثار الاجتماعية والسياسية، التي تركها الشعوبيون على الجنبات المختلفة للحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول. وتأكيداً على صحة هذا الأمر، ردت الباحثة من دون إبطاء على السبب الذي حفزها لمثل هذه الدراسة، وذلك عندما وصفت الحركة الشعوبية بأنها: «حركة ظهرت في العصر العباسي الأول نتيجة الاصطدام القومي للأعاجم ـ الموالي منهم ـ بالعصبية العربية» . وقد اتخذت من الحركة الأدبية والسياسية والدينية ستاراً لتحركها، وبث دعاويها. فجاء الإسلام وهو دعوة إلى السلام وإلى المساواة، متمثلاً بالآية الكريمة: **{يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم}**[٦٦] دافعاً إلى الموالي لطلب المساواة مع العرب. فظهرت تلك الحركة المعروفة في التاريخ بالشعوبية وفي الصراع القومي بين العرب والفرس ضمن الإطار الديني والإسلامي »[٦٧].

في متابعة لشرح الفكرة التي استندت إليها زاهية قدوره لدراسة واقع الحركة الشعوبية، كواحدة من أوائل الدراسات التي نهضت لمعالجتها، يتبين أنها جاءت كنتيجة حتمية لتوافق إنطلاقتها مع الواقع السياسي المتردي الذي كانت تعيشه بعض الدول العربية آنذاك. وبررت ذلك فقالت: « كان لاختياري لهذا الموضوع عدة دوافع، منها: إن العصر الذي نمت فيه الشعوبية وازدهرت، شبيه بالعصر الذي نعيش فيه من بعض الوجوه والظروف التي تحيط بنا معشر العرب. والأخطار التي تهددنا تماثل تلك الظروف والأخطار، التي نشأت عن الشعوبية في كثير من الملامح ...ومن الأسباب الأخرى أيضا ... هو أننا نعيش في عصر القوميات، حيث تلعب الفكرة القومية دوراً هاماً في سياسة الدول والشعوب وأوضاعها الدولية ... وقد كانت فكرة الشعوبية عبارة عن تنبيه الفكرة القومية عند المسلمين - سواء عند العرب أو الفرس منهم - وكان تنبيه القومية مبكراً في تلك العصور، إذ إن الفكرة الدينية كانت وحدها هي المسيطرة في ذلك الحين، وكانت الرابطة الدينية في العصور الوسطى هي الرابطة الأساسية التي تربط بين الشعوب والأمم وتعمل على وحدتها. ولم تظهر فكرة القومية في أوروبا إلا في عصر النهضة، أي في القرن التاسع عشر، وهي الفكرة التي تميزت بها العصور الحديثة» [٦٨].

رأت أن الشعوبية ظهرت في قرون مختلفة، وبعثت في أثواب فكرية وسياسية قشيبة، تستر بها نفر غير قليل من غير العرب، ليس باسم الشعوبية بل بأسماء متنوعة، وعرف هؤلاء بعدائهم للعرب، وكانوا من أسرع الناس استعداداً للوثوب عليهم، إذا ما أزفت ساعة استشعروا الوهن فيهم.

عملت الباحثة على توضيح هذه المواضيع، وبينت عواملها وعناصرها، فوجدت أن الشعوبية حركة هدامة نشأت من الموالي والمرتزقة، الذين جاءوا البلاد العربية؛ طمعاً في رزق أو جاه أو منصب. وكان لهذه الحركة، أهداف سياسية وعنصرية ودينية، سعى إليها أولئك الموالي الذين أرادوا أن يظهروا ويبزوا العرب في مجدهم وسيادتهم، فسقطوا من حيث أرادوا، وحاولوا الغض من منزلة العرب؛ وفضلهم والطعن عليهم، فصوبوا سهامهم؛ تلك السهام الطائشة المليئة بالأحقاد والسموم، يرومون بها النيل من تراث العرب، فلم يفلحوا، ومنوا بالخيبة والفشل.

وبينت في دراستها حالة الاحتقار التي كان يقابل بها الموالي، الذين كانوا لا يؤبه لهم، تجاه العزة القومية والأبهة العربية. ولما كانوا لا يكنون ولا يدعون بالأسماء

العربية وألقاب العرب، ولا يمشون في الصف مع العرب، ولا يتقدمون في مواكبهم، فكان ذلك من جملة الأسباب المساعدة على تفاقم حالتهم النفسية، التي قادتهم إلى القيام بحركتهم ضد العرب.

رامت من دراسة الشعوبية من زاويتها السياسية، إلى تكذيب المزاعم والادعاءات التي طلع بها الشعوبيون؛ يبينون فيها فضلهم على العرب. فتصدت لكل الأضاليل التي تمنطقوا بها، وعمدت إلى توضيح نظرة العرب للموالي، وكيف أنهم حاولوا مزاحمتهم ومهاجمتهم في طرق عجيبة وأساليب ملتوية غريبة، لا تتعدى إنكار الأمور الثابتة البديهية، التي لا تقبل جدلاً ولا نقاشاً، وحاولوا إثبات غيرها مما لا تقوم على أساس من الحقيقة، ولا تستند إلى واقع؛ تمادياً منهم في كراهتهم للعرب[٦٩].

ورأت المؤرخة أن الشعوبيين ليسوا إلا جماعات غريبة عن جسم الأمة العربية. أبت أن تستمع إلى صوت الحق الذي دوى في العالم؛ وهو صوت الإسلام. فكان هؤلاء حريصين على أن يدسوا ويمعنوا في الدس، من أجل تغيير حقائق التاريخ، إستجابة لأغراضهم في الذم، تلك الأعمال التي أرادوا من خلالها تحطيم القومية العربية وهي في عز عنفوانها، ووسم التاريخ العربي بما ليس به، بعكس ما يحفل به من عدل وشجاعة.

وتبين لها أن العرب لم يهتموا بالسفسطة والمزاعم التي أثارها الشعوبيون، ولم يكونوا ليعيروا منكري فضلهم ومجدهم؛ أذناً صاغية، لأنهم واثقون من أنهم فوق تلك المزاعم المضللة؛ والادعاءات الباطلة. ووجدت، أن الشعوبيين لم يكونوا بنظر العرب، إلا جماعات فقدت توازنها الأخلاقي، واصطنعت الإسلام اصطناعاً.

إن الدراسة المتمعنة التي وضعتها زاهية قدوره عن الحركة الشعوبية، وأثرها السياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، أرادت منها الدلالة على أن أثرهم لم يقتصر على هذا العصر، بل عمومه على عهود مختلفة وفي فترات متباينة لأنهم أقاموا بين العرب وفي عقر دارهم.

وأشارت إلى أن الله منح العرب منزلة جليلة لا يضيرها قيام هؤلاء الشعوبيين بالطعن بهم، فها هو تاريخهم العربي طافح بالفضائل والمآثر، وها هي مزاياهم، أدلة وشواهد على عظيم منزلتهم؛ وجليل شأنهم؛ ورفيع مقامهم.

فدعت الأمة العربية، إلى المحافظة على خصائصها القومية، والسعي إلى رفع مستواها الاجتماعي والاقتصادي، حتى ينعم أبناؤها بالحياة الطيبة، الوارفة الظلال،

ويعيدوا عزهم ومجدهم.

كما نبهت العرب وحذرتهم، من شعوبيي هذا الزمان المتواجدين في زوايا الأمة العربية. يتربصون بها الدوائر، ويكيدون لها الخطط والمؤامرات، ويعدون المشاريع للقضاء عليها لاستلاب مواردها وثرواتها الاقتصادية.

ظهرت في الدراسة، بعض الآثار السياسية التي كانت لزاهية قدوره، في عدد من دراساتها ومؤلفاتها، التي صبغت منهجيتها وسادت الطريقة التي اتسمت بها في العديد من أبحاثها.

كما عمدت إلى المعالجة ذاتها، التي اتبعتها في دراسة حديث الإفك وموقعة الجمل، وأثر الحركة الشعوبية. فسارت على المنوال نفسه والطريقة ذاتها، التي سلكتها فيما سبق لها من أبحاث ودراسات. وكان تأثرها السياسي فيها أكثر عمقاً، وأوسع بحثاً وتحليلاً. ربما لأن للشعوبية إرتباطات سياسية، أكثر مما كان في حديث الإفك أو في موقعة الجمل. فالشعوبيون لم يقوموا بذلك إلا للوصول إلى الحكم، وإلى مركز الخلافة بالذات، لإنتزاعه من المسلمين. فحركتهم إذاً؛ هي حركة سياسية بالدرجة الأولى، وإن تستروا بالأدب. وقد عملت زاهية قدوره على فضح نواياهم ومخططاتهم، والتحذير من بواعثهم.

فقامت بالتثبت من صحة الحقائق التي قدمتها إليها الأصول والمصادر التاريخية القديمة، بسلسلة من عمليات التركيب والبناء التاريخيين. كما درست المعطيات التي توافرت لديها، من أجل الإلمام بمنهج البحث في علم التاريخ، بصورة عامة، وتاريخ الفكر السياسي العربي بصورة خاصة، وذلك من خلال إرتباطهما بنوع المادة التاريخية التي توصلت إلى جمعها.

فكان إطلاعها على حوادث الماضي، والقراءات الكثيرة التي عادت إليها، مساعدا مكنها من توقع حصول بعض الأمور التي جاءت في بعض دراساتها.

يدفع هذا الأمر إلى التساؤل عن كيفية تمكنها من تصور أو توقع شيء ما في الوقت الحاضر، ربما هو على علاقة كبيرة بظروف الماضي المختلفة ؟ من المرجح أنها عندما كانت تنصرف بكليتها إلى الغوص في الأصول والمصادر، للاطلاع على الماضي، كانت تتكون في ذهنها لوحات بانورامية مضطربة عن أحداثه، تستمدها من التشابه الذي كان يتراءى لها بين الماضي والحاضر. ومع إزدياد مطالعاتها حول هذه المواضيع، كانت الصور المتكونة لديها تزداد وضوحاً ودقة، حيث تعمد لتحكيم عقلها

وفكرها؛ لتصفية المعلومات وإبعاد الأخبار الكاذبة وتفهم الأخبار الصحيحة. والدليل على ذلك، أنها تخيلت لقصة لقاء جمعها مع السيدة عائشة أم المؤمنين، وأجرت معها حواراً عن واقع المرأة العربية والإسلامية(٧٠).

تخيلت هذا اللقاء لتوضيح شخصية عائشة أم المؤمنين، وموقعها في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومكانتها عند المسلمين بعد وفاته، وتأثيرها في موقعة الجمل. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الحركة الشعوبية؛ التي تسترت بالدين الإسلامي منطلقاً للقضاء على شعوبه وأممه عن طريق الأدب.

تصورت الباحثة، مختلف هذه العناصر والمسائل المفردة، ووازنت بينها وبين الأفكار التي اعترضتها والآراء التي تعرفت إليها في مختلف الكتب والمتون، وتمكنت من تلخيص عمليات التركيب أو البناء التاريخي في بعض المراحل، وبين المتخيلات والصور التي يمكن أن تكون رأت فيها حقيقة اللقاء بعائشة أم المؤمنين، أو كأنها شهدت بعض فصول موقعة الجمل، أو رأت بعض الشعوبيين، بأشكال مختلفة، فضمت هذه الصور إلى ما أخذته من قراءاتها، مما مكنها من توضيح الحقيقة التي كونتها في ذهنها؛ سواء عن عائشة أم المؤمنين، أو المعركة بينها وبين الإمام علي بن أبي طالب، أو توضيح الصور التي كونتها في عقلها عن الحركة الشعوبية، ومنطلقاتها الأدبية والسياسية.

٥ ـ الممارسة السياسية في فكر زاهية قدوره ودراساتها

عملت زاهية قدوره على ترجمة مكتسباتها السياسية، والتعبير عنها في دراساتها ومؤلفاتها، فضلاً عن كتبها من خلال طرح مجمل الأفكار والآراء التي صدرت عنها، لما يمكن معه اعتبارها من أهل التاريخ، الذين يصرفون بالتخصص في دراسته، شطوراً مهمة من حياتهم. كما عمدت إلى ترجمة منابتها الفكرية والثقافية، عبر مؤلفات وأبحاث تاريخية، تطرقت فيها إلى الثقافة والاقتصاد والاجتماع. واحتل التاريخ السياسي عندها، حيزاً مهماً من تطلعاتها وعملها، واتخذت منه وسيلة ومنبراً، للتعبير عن أفكارها، وتنفيذ طروحاتها على أرض الواقع.

وبالنسبة إلى موقفها من قيام حركة القومية العربية في العصر الحديث، فقد جاء كنتيجة منطقية بسبب الحالة السياسية التي سادت في فترة بعثها وإنطلاقتها؛ كرفض لحالة الضعف والتقهقر التي أصابت الدولة العثمانية، التي تردت في سلبيات كثيرة، بخاصة بعد حركة الانفصال التي حدثت في بعض دولها وأقطارها الأوروبية، مما

كان له آثاره وعواقبه على وجود الإمبراطورية. ومما ساعد على إنطلاق هذه الحركة، الإرساليات التبشيرية التي أتت بكثافة إلى الشرق، بحجج واهية ثقافية حيناً، وتعليمية أحياناً أخرى، توسلت تعريف الشباب الناشئة على الأفكار النهضوية التي علا صيتها في تلك الفترة. كما كانت غاية هذه التجمعات الدينية المتسترة بالثقافة، غرز مفاهيم القومية في عقول الشباب العرب، ودفعهم للانتساب إلى الجمعيات والمنتديات القومية التي ساهمت الإرساليات في بعث فكرتها[٧١].

لم تهدف هذه السياسة إلى قيام حركة قومية عربية، بقدر ما كانت الغاية منها؛ تحويل عقول الشباب وتطلعاتهم عن عظمة الدولة العربية التي كانوا يرونها متجسدة في الإمبراطورية العثمانية لفترة طويلة من الوقت. وإن كان قد نجح هدف الإرساليات لبعض الوقت، إلا أنه فشل في نهاية الأمر، عن تحقيق غايات المبشرين الذين باتوا يخشون على وجودهم وإرسالياتهم، بعد أن افتضحت خططهم ومؤامراتهم فتم دعمها بالاحتلال العسكري حيناً أو آزروها بالانتداب، الذي كان يفرض بالقوة والقهر حيناً آخر [٧٢].

فضلاً عن ذلك إن قيام حركة القومية العربية في العصر الحديث، ربما تعود في سببها المباشر، ووفق ما ورد عند بعض الكتاب والمفكرين، إلى فكرة الطورانية[٧٣] التي حاول الأتراك تنفيذها بواسطة الشعب التركي، وجعله شعباً مقدماً على غيره من الشعوب التي كانت تحت سيادة الدولة التركية. وهو ما رفضته هذه الشعوب، وعملت على محاربة الطورانية بسلاحها الذي شرعه الأتراك أنفسهم، عن طريق الدعوة لتحقيق فكرة القومية العربية.

كانت فكرة القومية العربية قد تمكنت من فكر زاهية قدوره؛ لأسباب عديدة، منها الأوضاع التي كانت تدور من حولها وتتفاعل معها، نتيجة لترسب تعاليم الأساتذة الذين درست عليهم وتأثرت بأفكارهم، مما جعلها تنكب على الكتب التي تناولت طروحات القومية المعاصرة، الأجنبية والعربية؛ مما زاد في تنمية معارفها، وصقل فكرها ودفعه نحو القومية الصالحة التي راحت تعمل بالدعوة إليها في الوطن العربي.

انفعلت مع الفكرة منذ صغرها، ترسخت في عقلها ونضجت في مخيلتها. ولاحقت الموضوع من كل جوانبه، بعد أن اقتنعت بأن الرسالة التي نذرت نفسها من اجلها قد حان أوانها. وبالرغم من توفر الظروف التي ساعدت بالتعرف على الفكرة منذ نشوئها، فقد قامت عندها الرغبة للبحث عن العناصر المعادية للعرب وعن حركتهم القومية في كافة العصور.

فوجدت عدداً من الحركات التي نهض أصحابها لمحاربة العرب وتقويض ركائز حكمهم، ورأت أن الشعوبية كانت من أهمها، ولديها عداء مستحكماً ضد العرب. فنهضت للتحقق من أسباب انتشارها وغلوائها، حتى وقفت لاستجماع مقومات نشوئها وتطورها وسيطرتها.

ولما سؤلت عن إهتمامها بدراسة التاريخ العربي الإسلامي بالذات؟ أشارت إلى ما يشبه اليقين، أولاً لكونها مسلمة وثانياً مثقفة، وثالثاً سيدة، فرأت أنه من الواجب عليها، أن تكون على إطلاع كامل بتاريخ بلادها ودينها[٧٤].

بالإضافة إلى الرسالة القومية التي نذرت نفسها، لم تنس زاهية قدوره الدور الذي رسمته لنفسها دينياً وإسلامياً، فكانت من المفاخرين بإسلامها وقوميتها وعروبتها، التي كانت بالنسبة إليها اقانيم ثلاثة لا يمكن التنازل عن أي واحد منها. كانت مؤمنة بإسلامها حتى العبادة، ومتشددة في قوميتها وعروبتها. لم تقبل فيها أي مناقشة، ورفضت بسببها كل المناصب الكبيرة، والمراكز التي عرضت عليها، لقاء تخليها عن تلك المبادىء[٧٥].

كانت من المؤمنين بأن في الأمة العربية من الطاقات والإمكانيات، ما يتيح لها أن تلعب دوراً كبيراً ومميزاً، على صعد الوحدة والتضامن والتكافل بين العرب. وأدركت بأن الوحدة قدر هذه الأمة، من خلال مصيرها المشترك الذي يميزها عن غيرها من الشعوب.

وبالنسبة إلى النظرة لواقع الأحداث والمنظومات السياسية العالمية، فيمكن ملاحظة بعضها من خلال الأبحاث والدراسات التي تناولت هذه العناوين، وخصوصاً قضية فلسطين التي احتلت جانبا مهما عندها.

وضمن هذا النطاق كانت محاضرة: «نحن وأميركا والغرب» التي سبق الإشارة إليها، التي تناولت فيها شرح الأفكار المتداولة حول نظرة الغرب إلى العرب. فقامت بتحليل ومناقشة نوايا الدول الغربية وتطلعاتها الاستعمارية، المتمثلة بالأطماع العدوانية تجاه الدول الصغيرة، صاحبة الخيرات الكثيرة، التي تمتلك موارد اقتصادية كبيرة. فرأت أن نظرة الغرب إلى هذه الدول، نشأت بسبب جهل الدول النامية لطرق الاستفادة من هذه الخيرات وتلك الموارد. فاستغلت الدول القوية والغنية هذه المميزات. كما هو الحال مع العناصر العربية، الذين كان ينظر إليهم أنهم عناصر متخلفة، وغير متحضرة، تحكمهم عنصرية متعصبة وتسيطر عليهم سمات غير إنسانية.

ولما كانت تدرك نظرة الغرب الأميركي الحاقدة ومعه الصهيونية العالمية،

إلى العرب والطمع بثرواتهم القومية. فقد اعترفت صراحة بأنه لا يمكن إطلاق الأحكام الجائرة على مجمل الأميركيين، إذ يوجد بينهم طبقة من المفكرين المنصفين والمتميزين ولكنهم قلة، الذين منهم مجموعات وأفراد، أشد عداوة وحقداً على العنصرية والصهيونية، التي تتسلط على الشعوب العربية. إلا أن هذه الفئة لا تملك شيئاً حيال القوة والغطرسة، اللذين يتحكمان بالفئات الأميركية العنصرية، والصهيونية التي تحمكها وتديرها عناصر صهيونية معادية للعرب وللمسلمين[٧٦].

ورأت أنه قد تعرض كتّاب ومفكرون للعلاقة بين الغرب والعرب. وهم من الذين كانوا يعتقدون بأن الحياة الأميركية تتسم بالنشاط والحركة الدائمة. بينما كانو يرون وضعها من ناحية العرب أنها تتصف بالطيبة والفطرة، وبسيطرة العلائق الإنسانية وسيادتها على العلائق المادية الأخرى.

وأشارت قدوره إلى سيطرة هذا المنطق على بعض الكتاب الغربيين، الذين كانوا يرفضون مبدأ الفطرة العربية، لأن الطيبة والبساطة لا يمكن أن ينشأ عنهما أحلام طيبة، إلا بالتنفيذ الذي يتطلب روح الإقدام والبناء والتطلع إلى النواحي الإيجابية في معظم الأمور. وبما أن الأميركيين يرون أن جميع هذه الوقائع لا تنطبق على الروح العربية، وفق بعض المزاعم. لذلك كانت السمة العامة التي كونوها عنهم بأنهم متخلفون عن مسايرة الركب المسرع نحو التقدم. إنما يعود ذلك إلى الخمول والتواكل والتناحر، وانعدام الثقة بين الأخ وأخيه، فضلاً عن قناعة هؤلاء الكتّاب بأن الوضع الثقافي والاقتصادي والاجتماعي للعرب، لم يطرأ عليه أي تطور يذكر منذ عدة قرون. وقد تصدت زاهية قدوره لهذه المقولة، وقالت بأنه يوجد في الغرب كتابٌ يتحاملون على العرب[٧٧].

أدركت زاهية قدوره غايات ومرامي هؤلاء وأولئك سواء كانوا مع العرب أو ضدهم، فنهضت متسلحة بزادها الفكري والثقافي، للتنبيه من سوداوية النظرة الغربية إلى العرب. وقامت لتصحيح هذه المغالطات والأوهام، التي يبثها بعض المتعصبين من الغربيين على العرب، وبعض المفسدين من العرب على العرب.

وأوضحت بأنه يجب أن تسود بيننا وبين الغرب علاقات جيدة. ثم استعرضت المراحل التاريخية المهمة للعلاقة القديمة التي نشأت بين العرب والغرب منذ أزمان بعيدة. وتطرقت إلى منشأ الصدام الذي حصل بين العرب والدولة البيزنطية في القرون الوسطى الأولى، وبالتحديد منذ العام ٣٤هـ/٦٥٥م، عندما حاول العرب دك أسوار

القسطنطينية زمن الأمويين.

ثم قامت بسرد تاريخي لمجريات العلاقات العربية - الأوروبية بشيء من الدقة والموضوعية. فحددت المحطات الهامة فيها، وذكرت المفاصل التي تركت آثاراً جيدة، بدءاً من اليوم الأول الذي خرج فيه العرب من جزيرتهم إلى البلدان المجاورة.

وأشارت بشيء من التبسيط أحياناً والذكر العابر أحيان أخرى، إلى المسارات التي صبغت العلاقة التي نشأت بين الغرب (الإفرنج) والعرب (خصوصاً المسلمين منهم) بناحيتيها الإيجابية والسلبية، مع سيطرة الناحية الثانية منها، بسبب طبيعة الحروب التعصبية – الدينية التي قامت بينهم. ومنها الحروب الصليبية التي كان لها آثار سيئة ما زالت تنسحب على بعض من هذه العلاقة حتى الآن، بالرغم من السمات الحضارية العديدة التي نتجت عنها.

لم تشر في المحاضرة إلى الإساءات التي نتجت عن تلك العلاقة، بل أظهرت حسناتها، وما أسبغته على الدولة العربية الإسلامية من نعم الحضارة الإنسانية، التي سادت جنباتها فترة طويلة من الزمن، وكانت سبباً مساعداً لقيام الحضارة العالمية الحديثة.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أنها ردت مجموعة السيئات التي نتجت عن تلك العلاقة، إلى سلبية تصرف الدول الأوروبية الغربية، بدءاً من البرتغاليين والهولنديين، وصولاً إلى الفرنسيين والإنجليز. أما بالنسبة إلى أميركا، التي كانت ترى أنها امتنعت بادئ الأمر عن القيام بأي عمل يسيء إلى العرب، لانصرافها إلى بناء نفسها، وانعزالها عن مشاكل العالم حتى مطلع القرن التاسع عشر. إلى أن أجبرتها بريطانيا ومطامعها التوسعية، بأن تكون لها مكانة مهمة على خارطة العالم، الاستعمارية والعدوانية.

استعرضت زاهية قدوره مجمل التطورات الدولية والإقليمية التي فرضت على أميركا أن تكون على تماس مباشر مع العرب، فكانت النصير الأول للصهيونية العالمية في اغتصابها لأرض فلسطين. فلم تلتفت إلى مبادئ العدل والمساواة والحقيقة. فظهرت روحها العدوانية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ورغبتها بالتوسع تجاه الوطن العربي وفرض هيمنتها على المجتمع الدولي، لأنها الدولة الأكثر قوة ونفوذاً في العالم[٧٨].

فدورها في الوطن العربي وممارساتها تجاه دوله ومناطقه حدث عنها ولا حرج، وتدخلها الخجول في أمور المنطقة أول الأمر. ثم انقلاب هذا الدور إلى ممارسات وأعمال عدوانية سافرة، من أبلغ عناوينها الدعم المتمادي للعدوان الإسرائيلي

واغتصاب الأرض الفلسطينية واحتلال العراق، وضرب إفغانستان، والتحريض على إيران، وإثارة النعرات الطائفية، والعصبيات المذهبية، في مناطق مختلفة من العالم[٧٩].

وفي مقابل هذه الهجمات الشرسة والروح العدوانية التي قام بها الغرب ضد العرب، ظهرت في محاضرة «نحن وأميرك والغرب»، المعاني السامية والخلقيات الرفيعة، التي امتاز بها ماضي العرب والمسلمين وأصالة حضارتهم وسمو دينهم وشمائل صفاتهم، فخشي الغرب مما قد يسببه هذا العنفوان، من أخطار على مصالح الغرب ومطامعه الاستعمارية. وأشارت زاهية قدوره إلى تكتل الدول الغربية ضد هذه المقومات العربية، التي واجهت مزيداً من المؤامرات في سبيل القضاء على الوطن العربي. وقد تمكنت المؤامرات الكثيرة والمتتالية؛ من تحقيق أغراضها العدوانية، وتسببت بإلحاق الهزائم المتتالية بالشعوب العربية، التي أصيبت بالضعف والهوان، وسيطرت على قادتها الممارسات السياسية الخاطئة، والتصرفات السيئة، الناتجة عن ضعف أصحاب القيادات الضعيفة، التي تسلمت بعض مراكز النفوذ في الدول العربية، فانعكست ممارساتها السيئة خللاً وانهياراً لمجمل المقومات العربية.

من قدر الأمة العربية أن أنعم الله عليها بالقرآن وبالاسلام، اللذين رفعاها من مزالق التهاوي، إلى مشارف الحق والعدل والمحبة والتقدم، حيث أنتجت حضارة علمية وأدبية وثقافية وفكرية وتربوية، ساهمت مساهمة جلى في تغذية الحضارة الإنسانية العالمية. فانطلقت الأفكار من عقالها، ونعم العرب والمسلمون بالحرية الفكرية، وكوفئوا على أفكارهم ولم يحاربوا في معتقداتهم وطموحاتهم. وذكّرت زاهية قدوره بالحوافز الثقافية، والمنابر العلمية والإدارية العربية المتعددة، التي حثت على العلم وطلبه[٨٠].

حفلت المحاضرة بشعارات كثيرة طرحت، كمثل قدرة الدين الإسلامي باتجاهه العالمي، في أن يكون إطاراً لحضارة عالمية مستوعبة لكافة النشاطات التي يمارسها الإنسان أو يطمح إليها. والتأكيد على أن الإسلام، أوصى اتباعه بالعلم والتعلم وتعزيز العلماء، ودعوة الناس كلهم إلى التمسك بالمبادئ الإنسانية، من حرية وعدالة، ومساواة، ورحمة ومغفرة، وأخوة وسلام وتسامح. وموقفه من الديانات الموحدة الأخرى خير برهان على ذلك.

يجهل الأميركيون ذلك، ويجهلون أن الإسلام وضع الأسس والقوانين، التي حثت الإنسان على أن يكون عضواً ملتزماً وفعالاً في المجموعة الإنسانية، وما أصيب

به المسلمون من نكبة التأخر، كان بفعل الممارسات الاستعمارية، والقوى السياسية المتسلطة، التي فرضت عليه لتجهيله واستغلال ثرواته. وعندما أتيحت الفرصة للمسلمين، أثبتوا قدرتهم على مجاراة العصر ومواكبة التطور[٨١].

وجاء في نهاية المحاضرة؛ الحقيقة التي يجب أن تتسم بها العلاقة بين العرب والغرب، وذكرت بأن العربي لم يلجأ إلى استغلال الفرص المناسبة والإستفادة من الظروف التي سنحت له في بعض المراحل لتحقيق المطامح التي يحلم بها. لأنه لو قدر له ذلك لقلب الوضع رأساً على عقب، وتمكن من تصحيح النظرة إلى هذه العلاقة، وتبديل الصورة عند الغرب عن العرب. أدركت زاهية قدوره هذه الحقيقة وقالت: «عز على العرب كثيراً أن ينظر إليهم العالم نظرة تخلف مع أن العالم يدرك سر هذا التأخر الذي أبتلي به العرب، وبدل أن يقف العالم إلى جانب العرب ويأخذ بيدهم، ناصبهم العداء، وحرمهم من إمكانية التطور السريع. والسبب بلا أدنى شك، الموقع الإستراتيجي الذي يحتله العالم العربي والثروات التي يمتلكها، مما كان لهم فيها نقمة وليس نعمة. كما أن الحضارة الإسلامية، بدل أن تشفع لهم كانت هاجس خوف عند الغرب من يقظة العرب، الذي جعله يفرض عليهم حصاراً طويل الأمد، فحاول إبقاءهم في زوايا التاريخ عن عمد، بينما لم يفعل العرب ما كان يجب أن يقوموا به، عندما كانوا في عز منعتهم وتقدمهم وتطورهم...»[٨٢].

جاء في هذه المحاضرة؛ عرض المؤرخ الراسخ القِدَم، المُنصف في الحكَم، لواقع التراث العربي والحضارة الإسلامية، التي نشأت عنها حضارات متعاقبة. وبينت فيها زاهية قدوره أيضاً آثار الحضارة العالمية والإنسانية المتأتية عنها، التي أخذ منها الغرب كثيراً من العلوم والمعارف، قبل أن ينقلب عليها ويتعصب ضدها، وعلى الأمة العربية.

كما عرضت فيها شواهد من تاريخ العرب الإسلامي، وسردت مبعثه ونشأته وأثره، توصلاً إلى ما أنتجته القريحة العربية من مبتكرات في العلوم والفنون، وأساليب في التجارة والتنظيم الإداري، وفلسفة في التاريخ والاجتماع وغيرها. وعرجت على ذرى التاريخ القديم والوسيط، لدحض مزاعم الغرب المتعصب، والبرهان على أن التراث العربي لا يجارى، وهو يدعو العربي لأن يكون مزهواً به وبما أنتجه على مر التاريخ.

ومن قلب اتعبته حال التخاذل العربية، أطلقت الصوت في صرخة مدوية، في ما يشبه الانذار، حيث قالت: « تنبهوا أيها الغربيون على مستقبل أمتنا العربية، لأننا أمة

مهما تقهقرت، ومهما تأخرت، فإنها سوف تنتفض كما كان حالها دائماً، لأنها تدرك أن صياغة مستقبلها سوف يكون من توق نفسها وفكرها وعقول أبنائها الذي هو من عمل أيديهم» [٨٣].

٦ ـ زاهية قدوره و القضية الفلسطينية

احتلت قضية فلسطين حيزاً كبيراً من اهتمام زاهية قدورة، وكانت تطوراتها الدراماتيكية والإنسانية شغلها الشاغل، الذي لم يفارقها لحظة واحدة، حتى الرمق الأخير من حياتها.

فقد وقعت حرب فلسطين وهي طالبة في جامعة فؤاد الأول، تملك شعوراً قومياً متحفزاً، وإحساساً عربياً متوثباً، مما كوّن عندها عاصفة من الغضب هزت عقلها وكيانها، وجعلها حائرة، تائهة وضائعة بين الثورة على الوضع، والحقد والكراهية للمكر والخداع اللذين مورسا بأبشع صورهما. غير أن ذلك لم يجعلها تستكين وتتساءل عما تفعل، وما هو المطلوب. بل قامت مع زملائها، من طلبة الجامعات والمعاهد المصرية بتحركات بارزة، لبلسمة جراح المرضى، وإسعاف المصابين الوافدين إلى الديار المصرية، والتعزية بالشهداء المصريين.

وبعثت بهذه المناسبة بمقال سياسي إلى مجلة كل شيء، ضمنته مشاعرها وآراءها، لإثارة نقمة الشعوب العربية عامة، والمرأة منهم خاصةً، ودفعهم للعصيان المدني. وعنونت مقالها بما يمكن اعتباره شعاراً سياسياً. فقالت: « بدراهمِكِ صوَّب اليهود الرصاص إلى صدور أبطالنا، فتعالَ.. نقاطع بضائع العدو»[٨٤].

ظهر في هذه المقالة شدة تأثرها بحرب فلسطين؛ التي قالت عنها: « لقد فاجأنا عام ١٩٤٨، بكارثة عظيمة كان قد استعد لها الصهاينة بالتآمر مع الغرب منذ سنين عديدة، وكشروا عن أنيابهم لتنفيذ خطة مرسومة، مدعومة بالمال والرجال والسلاح، بينما نحن معشر العرب سارعنا لدرء هذا الخطر الجسيم في معركة ارتجالية، كانت نتائجها أرواحاً تزهق ودماءً تهرق وشعباً يشرد»[٨٥].

وأشارت إلى أن العدو كان قد هيأ كل العوامل لنجاح خطته، إبتداء من المال والرجال والسلاح، في حين أن العرب وان لم ينقصهم الرجال، إلا أنه كان ينقصهم السلاح والتخطيط للمعركة. فكأنها توجه المسؤولية إلى الحكام العرب، الذين أدركوا الأخطار، ولم يتحسبوا لها، فتغاضوا عن تأمين السلاح، ولم ينهضوا لوضع الخطط

اللازمة للمعركة، فكلا الأمرين؛ لم يتم توافرهما بما فيه الكفاية. فحلت الخسارة بأرض فلسطين، وفرض قيام دولة الأمر الواقع [٨٦].

وتابعت تحذيراتها والتنبيه من خطورة ما يعد للعرب من مؤامرات، ومنها قولها: « ما لم تهب العروبة للمقاومة وفق خطة مدروسة ومنظمة، وبعنفوان المقاتل العربي أيام الصليبيين، عندما كان العرب يقاتلون الصليبيين بكل قواهم وشجاعتهم وعنفوانهم، وإذا لم نتمكن من إنقاذ فلسطين، فلا يجب أن يضعف ذلك من عزيمتنا في المقاومة» [٨٧].

وفي صيف العام ١٩٤٨، قامت بزيارة إلى دمشق فاستقبلتها عادلة بيهم، حرم الأمير عبد القادر الجزائري[٨٨]، مع مجموعة من سيدات الاتحاد النسائي السوري، اللواتي رافقنها في زيارة إلى مستشفى المزة السوري، لعيادة المصابين والجرحى من الجنود، الذين رووا لها، قصصاً عن المعارك التي خاضوها على أرض فلسطين، التي كانت تعتبرها: « ... مفخرة وعزة لكل عربي بالرغم من مؤامرة الغدر والخداع والخيانة التي حصلت في فلسطين» [٨٩].

وكتبت تشجب الأوضاع المتردية التي وصل إليها العرب، نتيجة ضعفهم وعدم توحدهم، فقالت: «إن خذلاننا في إنقاذ فلسطين يجب ألا يحد من عزيمتنا إذ ليست الشعوب العظيمة جديرة بالحياة ما لم ترزح تحت ثقل الكوارث، وتكتفي بالرثاء والسخط والعويل، بل ليكن الماضي عبرة لمن اعتبر، ودرسا لتجنب الوقوع في الأخطاء والاستفادة من الظروف»[٩٠].

هذا ويلاحظ في كتاباتها التحريض على الثورة، والدعوة إلى العصيان المدني. وفي هذا المجال وجهت سؤالا إلى المرأة العربية والفلسطينية، قالت فيه: « هل تكتفين بالدموع واللوم والجدال العقيم ؟ إني أقول ليس في الدمع معنى في بكاء هؤلاء الشهداء، وما هم إلا أبطال أسمى من الأجسام الفانية، ولهم عندنا نحن الأحياء الذكرى الخالدة ولهم في رقابنا دين نؤديه، ورسالة عاهدنا الله والوطن على إتمامها»[٩١].

عندما كانت تكتب في السياسة، كانت تعبر عن الألم من بشاعة الأوضاع السياسية التي تردت فيها الدول العربية، التي تغافلت عن حماية حقوقها وتقاعست عن صيانتها، والدفاع عن مكانتها بين الدول. فها هي قضية فلسطين قد فجرت عندها الثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية. وطلبت من المرأة العربية الإنتفاض على الأوضاع السيئة، والتمرد بكل ما أوتيت من قوة. كما قامت تحرضها على الثورة

والعصيان. فقالت لها: « أما الآن وقد استيقظ وعيك القومي.. فلا بد من برنامج لك.. حيث لك هناك واجبات معنوية، وأخرى عملية.. أما المعنوية فهي محاربة الروح الانهزامية والقضاء على الفساد .. أما واجباتك العملية فكثيرة.. كالتطوع للتمريض وخدمة المجاهدين..». وأوصت المرأة العربية على القيام بالثورة، بأن: « تقاطع البضائع الصهيونية في محاولة للقضاء على تلك الدولة الصهيونية اقتصاديا.. فإذا أردت المشاركة مع أخيك وزوجك وابنك في الجهاد، فتوجهي فورا إلى حوانيت إخوانك واشتري من بضائعهم ولو بأسعار أغلى.. فالعزة والكرامة لا تذكر وتقدس إلا بالتضحية والألم .. هذا إنذار موجه إليك أيتها الأخت العربية.. وهذا ما تطلبه العروبة منك لئلا يقال: نعيب زماننا والعيب فينا.. فهل من مجيب؟!» (٩٢).

وجاء في مخطوطة مذكراتها، عبارات كثيرة عن فلسطين، قالت في إحداها: « إن كارثة فلسطين كان قد استعد لها الصهاينة بالتآمر مع الغرب منذ سنين، وكشروا عن أنيابهم لتنفيذ خطة مرسومة، مدعومة بالرجال والمال والسلاح. بينما نحن معشر العرب سارعنا لدرء الخطر الجسيم، في معركة ارتجالية كانت نتائجها أرواحا تزهق ودماء تهرق وشعبا يشرد.. بدراهمنا صوّب اليهود الرصاص إلى صدور أبطالنا فعلينا أن نقاطع بضائعه وأن نتحمل التضحيات وأن نفيد من العبر. فإذا كنا نريد الحرية والسيادة، فكيف نستطيع أن نخذل العدو، وسلاحنا الجشع والمفاخرة وحب الظهور والأنانية والرياء.. نحن نريد أن نعيش بينما نأكل السم من أيدي أعدائنا، ونحن نفتخر بلبس ما حاكته يد العدو ومصانعه.. إن كل درهم ندفعه لهم ليس هو إلا سلاح مشحوذ مصوب إلى صدور رجالنا وأبطالنا..» (٩٣).

ونتيجة لهذه المعطيات اعتبرت زاهية قدوره، واحدة من مجموعة الكتّاب والمؤلفين الذين تعاطوا بالشأن الفلسطيني؛ فترة طويلة من مسيرة حياتهم في الكتابة والتأليف(٩٤). فقامت برصد تاريخ فلسطين في كتاباتها ودراساتها؛ للتحذير من المخططات الصهيونية الكثيرة، والممارسات الإسرائيلية التي تهدف إلى القضاء على القضية الفلسطينية. وكتبت إلى القادة العرب، وقالت لهم: «تنبهوا واستفيقوا أيها اللبنانيون وسائر العرب، العدو أمامكم، والعدو وراءكم، بل بين ظهرانيكم، أرضكم تميد بكم وأنتم ساهون، وحضارتكم يتصدع بنيانها وتتزعزع أركانها، وتتهاوى معاقلها، وتكاد تبيد وأنتم سادرون، وبلادكم تستلب، وأعراضكم وقيمكم تستباح وأنتم ساهرون

مستلبون إلى دعة المهانة وخفض المذلة»(٩٥).

إنعكس تفاقم الأحداث، وتكاثر المؤامرات التي تعرضت لها القضية، وكذلك فشل مشاريع الحلول المقترحة للحل، إنفلش هذا الواقع على مجمل مؤلفاتها في هذا الموضوع، وانعكس على نفسيتها، التي اشتدت وتيرة غضبها، وصار لصرخاتها دوي أكبر مما كان من قبل. حتى قالت في إحداها: « ألا أيها الغافلون التائهون، ويحكم هبوا، العدو الصهيوني الرجيم يغير عليكم وأنتم عنه لاهون في معابثكم، ويغزوكم في عقر دياركم، ويفتك بضمائركم ويزري بكم، وأنتم في بهارج مغرياته الخلب غارقون.. يزين لكم المفاسد، وأنتم فيها تمرحون، ويحق فيكم الباطل وأنتم راضون به قانعون.. وها هو يغزوكم في ثقافتكم ولغتكم واقتصادكم وأعرافكم وفي قيمكم الاجتماعية والفكرية والدينية العصماء، ويلون عالمكم ومناخكم الحضاري الصافي الذي طالما أظلكم وأحياكم.. وها أنتم تخدعون.. بأحابيله وتنطلي عليكم حيله فيطبعكم بطوابعه الخبيثة المدمرة التي ينبغي أن تحجوا بها معالمكم ويزيل خصائصكم ويستأصل شأفتكم.. وأنتم تتوهمون – جهلاً وعماية – إنها سبل الحياة الطريفة التي يجب احتذاؤها وإقتداؤها » (٩٦).

أرادت من صرخاتها، التحذير من مغبة الأحداث والتحركات، التي كانت تقوم بها إسرائيل لترسيخ وجودها في الشرق وتحقيق عملية التطبيع، التي كانت تريد منها إخضاع لبنان والوطن العربي كله، وقهر شعوبه وتحويل أجياله، إلى أتباع أرقاء، لا يرومون شرفاً ولا يطمحون إلى عز، ولا يحدوهم مجد إلى المكارم والعلى.. فعمدت إلى رفع حدة نداءاتها للتنبيه من المكائد التي تحاك، والتحذير من المخاطر التي يدفعون لبنان إلى التردي في حمأتها.

وأهابت بسائر الجمعيات الثقافية، والهيئات الاجتماعية، والأندية الفكرية، والمنتديات السياسية، ووسائل الإعلام المختلفة، الخاصة والعامة، أن تعي دورها في هذه المحنة، وتتحمل وزر مسؤولياتها الجسيمة. فتتكاتف مع بعضها، للوقوف بوجه الخطر الداهم، وهز الوجدان الهاجع، واستثارة الضمير الوازع، وتحريك العقول البليدة، واستنهاض الهمم الراقدة.

كان الهدف من ذلك، العمل على تنبيه أبناء الوطن والأمة؛ من المخاطر المحدقة بهم، وتحذيرهم من مغبة العاقبة وسوء المصير، لينهضوا جميعهم ويقفوا صفاً واحداً كالبنيان المرصوص، ويواجهوا هذا المد الجامح، ويغالبوا هذا العصف الجارف، ذوداً

والعصيان. فقالت لها: « أما الآن وقد استيقظ وعيك القومي.. فلا بد من برنامج لك.. حيث لك هناك واجبات معنوية، وأخرى عملية.. أما المعنوية فهي محاربة الروح الانهزامية والقضاء على الفساد .. أما واجباتك العملية فكثيرة.. كالتطوع للتمريض وخدمة المجاهدين..». وأوصت المرأة العربية على القيام بالثورة، بأن: « تقاطع البضائع الصهيونية في محاولة للقضاء على تلك الدولة الصهيونية اقتصاديا.. فإذا أردت المشاركة مع أخيك وزوجك وابنك في الجهاد، فتوجهي فورا إلى حوانيت إخوانك واشتري من بضائعهم ولو بأسعار أغلى.. فالعزة والكرامة لا تذكر وتقدس إلا بالتضحية والألم .. هذا إنذار موجه إليك أيتها الأخت العربية.. وهذا ما تطلبه العروبة منك لئلا يقال: نعيب زماننا والعيب فينا.. فهل من مجيب؟!» (٩٢).

وجاء في مخطوطة مذكراتها، عبارات كثيرة عن فلسطين، قالت في إحداها: « إن كارثة فلسطين كان قد استعد لها الصهاينة بالتآمر مع الغرب منذ سنين، وكشروا عن أنيابهم لتنفيذ خطة مرسومة، مدعومة بالرجال والمال والسلاح. بينما نحن معشر العرب سارعنا لدرء الخطر الجسيم، في معركة ارتجالية كانت نتائجها أرواحا تزهق ودماء تهرق وشعبا يشرد.. بدراهمنا صوّب اليهود الرصاص إلى صدور أبطالنا فعلينا أن نقاطع بضائعه وأن نتحمل التضحيات وأن نفيد من العبر. فإذا كنا نريد الحرية والسيادة، فكيف نستطيع أن نخذل العدو، وسلاحنا الجشع والمفاخرة وحب الظهور والأنانية والرياء.. نحن نريد أن نعيش بينما نأكل السم من أيدي أعدائنا، ونحن نفتخر بلبس ما حاكته يد العدو ومصانعه.. إن كل درهم ندفعه لهم ليس هو إلا سلاح مشحوذ مصوب إلى صدور رجالنا وأبطالنا..» (٩٣).

ونتيجة لهذه المعطيات اعتبرت زاهية قدوره، واحدة من مجموعة الكتّاب والمؤلفين الذين تعاطوا بالشأن الفلسطيني؛ فترة طويلة من مسيرة حياتهم في الكتابة والتأليف(٩٤). فقامت برصد تاريخ فلسطين فيَ كتاباتها ودراساتها؛ للتحذير من المخططات الصهيونية الكثيرة، والممارسات الإسرائيلية التي تهدف إلى القضاء على القضية الفلسطينية. وكتبت إلى القادة العرب، وقالت لهم: «تنبهوا واستفيقوا أيها اللبنانيون وسائر العرب، العدو أمامكم، والعدو وراءكم، بل بين ظهرانيكم، أرضكم تميد بكم وأنتم ساهون، وحضارتكم يتصدع بنيانها وتتزعزع أركانها، وتتهاوى معاقلها، وتكاد تبيد وأنتم سادرون، وبلادكم تستلب، وأعراضكم وقيمكم تستباح وأنتم ساهرون

مستلبون إلى دعة المهانة وخفض المذلة»(٩٥).

إنعكس تفاقم الأحداث، وتكاثر المؤامرات التي تعرضت لها القضية، وكذلك فشل مشاريع الحلول المقترحة للحل، إنفلش هذا الواقع على مجمل مؤلفاتها في هذا الموضوع، وانعكس على نفسيتها، التي اشتدت وتيرة غضبها، وصار لصرخاتها دوي أكبر مما كان من قبل. حتى قالت في إحداها: « ألا أيها الغافلون التائهون، ويحكم هبوا، العدو الصهيوني الرجيم يغير عليكم وأنتم عنه لاهون في معابثكم، ويغزوكم في عقر دياركم، ويفتك بضمائركم ويزري بكم، وأنتم في بهارج مغرياته الخلب غارقون.. يزين لكم المفاسد، وأنتم فيها تمرحون، ويحق فيكم الباطل وأنتم راضون به قانعون.. وها هو يغزوكم في ثقافتكم ولغتكم واقتصادكم وأعرافكم وفي قيمكم الاجتماعية والفكرية والدينية العصماء، ويلون عالمكم ومناخكم الحضاري الصافي الذي طالما أظلكم وأحياكم.. وها أنتم تخدعون.. بأحابيله وتنطلي عليكم حيله فيطبعكم بطوابعه الخبيثة المدمرة التي ينبغي أن تحجوا بها معالمكم ويزيل خصائصكم ويستأصل شأفتكم.. وأنتم تتوهمون – جهلاً وعماية – إنها سبل الحياة الطريفة التي يجب احتذاؤها وإقتداؤها » (٩٦).

أرادت من صرخاتها، التحذير من مغبة الأحداث والتحركات، التي كانت تقوم بها إسرائيل لترسيخ وجودها في الشرق وتحقيق عملية التطبيع، التي كانت تريد منها إخضاع لبنان والوطن العربي كله، وقهر شعوبه وتحويل أجياله، إلى أتباع أرقاء، لا يرومون شرفاً ولا يطمحون إلى عز، ولا يحدوهم مجد إلى المكارم والعلى.. فعمدت إلى رفع حدة نداءاتها للتنبيه من المكائد التي تحاك، والتحذير من المخاطر التي يدفعون لبنان إلى التردي في حمأتها.

وأهابت بسائر الجمعيات الثقافية، والهيئات الاجتماعية، والأندية الفكرية، والمنتديات السياسية، ووسائل الإعلام المختلفة، الخاصة والعامة، أن تعي دورها في هذه المحنة، وتتحمل وزر مسؤولياتها الجسيمة. فتتكاتف مع بعضها، للوقوف بوجه الخطر الداهم، وهز الوجدان الهاجع، واستثارة الضمير الوازع، وتحريك العقول البليدة، واستنهاض الهمم الراقدة.

كان الهدف من ذلك، العمل على تنبيه أبناء الوطن والأمة؛ من المخاطر المحدقة بهم، وتحذيرهم من مغبة العاقبة وسوء المصير، لينهضوا جميعهم ويقفوا صفاً واحداً كالبنيان المرصوص، ويواجهوا هذا المد الجامح، ويغالبوا هذا العصف الجارف، ذوداً

عن حياضهم. فأردفت في صرخة أخرى، قالت فيها: «مواطنكم يا قوم أم كريمة عزيزة، فكونوا أبناءها البررة الأعز. فيا أيها اللبنانيون وسائر العرب تنبهوا واستفيقوا»[٩٧].

وكتبت حول ضرورة التصدي لمجابهة الأعداء، فقالت: «إننا منذ فترة طويلة ونحن نكتب، ونشارك في مؤتمرات وندوات متعددة في عدد من العواصم، فالكلام كثير والعمل قليل، بينما الآخرون يعملون أكثر مما يتكلمون. لذا أقترح تضافر المجهود العربي الموحد، في سبيل وضع خطة قومية لمجابهة الأخطار المحدقة بنا، فنحن نتكلم أكثر مما نفعل، وغيرنا يفعل أكثر مما يتكلم». كما اقترحت في مقال آخر لها عبر إحدى الصحف، اقترحت تشكيل مجلس عربي، أو هيئة عربية موحدة، مهمتها: « تأكيد ونشر الفكرة الصحيحة عن العروبة، هذه العروبة الناصعة التي هي الساحة الفضلى للعرب من جميع الطوائف، واعتبارها ليست وقفاً على الإسلام والمسلمين، وليست صفة عنصرية، بل هي الساحة الفضلى لجميع العرب، من مسيحيين ومسلمين. هذا الفهم والتفهم، يجعلنا متواصلين مترابطين في مواجهة ومجابهة التحديات المعاصرة، ولا سيما تلك التي خططت لها إسرائيل، مدعومة من بعض الدول الغربية، وبخاصة أميركا »[٩٨].

وكتبت منبهة : « ... إن الدول الغربية والمعادية لنا، وخاصة أميركا وإسرائيل، لا تفرق بين المسلم والمسيحي، بل هي في تعدٍّ دائم على المسلم والمسيحي، وهي مصممة على سلب أرضهم واستعبادهم. وغزو القدس أكبر دليل على ذلك»[٩٩].

لدرء كل الأخطار المبيتة، اقترحت: «تشكيل هيئة عربية لها فروع في كل البلاد العربية، ويكون لها اتصالات وعلاقات مع المغتربين خارج أوطانهم، ووضع برنامج سياسي – اقتصادي، اجتماعي – ثقافي، وحتى عسكري، للدفاع عن حقوقنا وبلادنا وأرضنا»[١٠٠].

كان قصدها من ذلك، أن يتم تفهم وضع سكان الدول العربية، انطلاقاً من قيام العمل المشترك الموحد بين العروبة والإسلام لمجابهة الأعداء وأولهم إسرائيل. ووضحت الفكرة عندما قالت، بأنه علينا أن نوضح أن قوميتنا وإيماننا يتضمنان المحبة والأخوة، مع الحفاظ على كرامتنا ووجودنا وحقوقنا. ثم تصرخ بأعلى صوتها بأننا لسنا مجرمين، ولسنا متخلفين، ولسنا أعداء الإنسانية، فعروبتنا وإيماننا سواء بالإسلام أو بالمسيحية، يدعواننا للأخوة والمحبة مع الحفاظ على الحقوق والكرامة[١٠١].

ضمن هذا السياق من الممارسة السياسية الواعية، التي طبعت شخصيتها، كان

لها نداء آخر وجهته عبر الصحافة اللبنانية، تستنكر فيه تهويد مدينة القدس، التي كانت تعتبر الغاية منه، تنبيه كل إنسان عربي وتحذيره، مما يجري حوله، وبما يحيط بالمدينة العربية المقدسة من خطط ومؤامرات للقضاء عليها. لذا أرادت من ندائها التنبيه إلى: « أن تهويد القدس وما نواجهه من استفزازات واغتصابات، تحقيقاً للمخطط الصهيوني، يقتضي منكم أيها العرب أموراً عاجلة جداً، ومن هذه الأمور توحيد الجهود والعمل العربي المشترك، على اختلاف الانتماءات الدينية والطائفية والمذهبية والسياسية، وذلك لمجابهة الغزو للأرض والفكر والاقتصاد والاجتماع والثقافة، والضغط في سبيل إعادة الحقوق إلى أصحابها في الجنوب اللبناني وفي الجولان السوري وفي فلسطين. ثم العمل على إيقاف التطبيع، بسبب المطامع والتجاوزات والاستفزازات الصهيونية، وبغياب الرعاية النزيهة لعملية السلام. كمراعاة حقوق الإنسان التي وضع مبادئها الرئيس الأميركي ويلسن..» [١٠٢].

يبدو من مجمل ما سبق، أنها كانت من الكتّاب والسياسيين الذين اتبعوا في أبحاثهم ودراساتهم، قضية استشراف المستقبل. ومن الملاحظ أنها عندما كتبت عن تهويد مدينة القدس، كانت تستشرف المستقبل الذي ينتظر هذه المدينة. ما يدفع للتوكيد على هذه الناحية، الطريقة التي كانت تتبعها في دراساتها، التي سبق وتمت الإشار إليها؛ من خلال مقارنة الماضي بالحاضر، تلك العملية التي سارت عليها في بعض أبحاثها ومؤلفاتها.

٧ ـ مفكران لبنانيان وقضية فلسطين: نجيب عازوري وميشال شيحا

من ضمن الأبحاث والدراسات التي وضعتها زاهية قدوره، واحداً عن قضية فلسطين، من خلال مفكرين لبنانيين، عرفا بعضاً من خفايا المؤمرات التي كانت تحضر لهذه القضية، وهما: نجيب عازوري[١٠٣] وميشال شيحا[١٠٤]، حيث جالت فيه على بعض من أفكارهما ونظرياتهما السياسية حيالها، في فترة تفجر القوميات في العالمين العربي والأوروبي[١٠٥].

قبل متابعة الأفكار التي وردت في هذا البحث، نشير إلى ندرة المؤلفات الموضوعة باللغة العربية لهذين المفكرين، ما خلا كتاب خواطر لميشال شيحا في جزأين، وهو من جمع وتعريب جميل جبر، الذي تناول في الجزء الأول منه كتابات شيحا خلال الفترة بين ١٩٤٣ ـ ١٩٤٦، وتطرق في الجزء الثاني إلى إبراز كتاباته في الفترة بين ١٩٤٦ ـ ١٩٤٨. وكانت هذه الخواطر من تلك المجموعة التي كان شيحا يسقطها في صحيفة Le jour التي أنشأها عام ١٩٤٣، وظل يتابع العمل على تحريرها

حتى أعجزه القدر عن ذلك [١٠٦].

كذلك الأمر بالنسبة لنجيب عازوري الذي لا يوجد له في المكتبة العربية، سوى كتاب واحداً، تناول بحث واقع الأمة العربية وفلسطين التي في القلب منها. وكان بعنوان: « يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري مؤسس جامعة الوطن العربي في مطلع القرن العشرين». من تعريب أحمد أبي ملحم. وقد وضعت زاهية قدوره مقدمته وعرّفت بمؤلفه[١٠٧].

صدّرت البحث بالإشارة إلى أن أحدهما لم يكن معاصراً للآخر، إلا أن كل واحد منهما كان يتواجد في أفكار الآخر.

بمعنى أن ميشال شيحا كان يشكل استمراراً أيديولوجياً لنجيب عازوري، بالنسبة إلى ما توافقا عليه حول قضية فلسطين، التي رأت أنها كانت عندهما القضية المحورية. وتحدثت عن قضايا سياسية أخرى، عربية وعالمية شغلت تفكير العازوري، الذي قالت عنه، أنه صرف معظم أنشطته الفكرية والثقافية والاجتماعية، بالدعوة لاستنهاض شعار القومية العربية[١٠٨].

قامت زاهية قدوره في هذه الدراسة بمهمة المحلل، الباحث والمنقح، فاستعرضت بموضوعية سليمة، عناصر الشخصية التي كانت تدرس أفكارها، سواء كانت موافقة لفكرها أو متعارضة مع نهجها. وهو ما تم رصده عندما استعرضت طروحات عازوري القديمة، التي لم تقف منها موقف المؤيد والمساند، بل قامت بتحري حقيقتها وصدقيتها. فعارضت الكثير من مواقفه ودعواته، لأنها رأت فيها دعوات قومية مغلفة بغايات شخصية أحياناً، وسياسية ذاتية، أحياناً أخرى.

وإذا كانت قد رأت في منظومات العازوري ودعوته إلى القومية العربية، شيئاً من الذات التي سكنت داخلها، وبعضاً من الأحاسيس التي دغدغت مخيلتها وفكرها إلى أمة قومية عربية واحدة، إلا أنها في الوقت نفسه لم تترك لمشاعرها أن تنسيها حقيقة المطابقة بين الواقع وعدمه، وبين المآرب الذاتية والمصالح القومية والعربية عامة .

ومن هنا، صنفت دراستها عنه بصفة الموضوعية والواقعية الحقيقية، وكأنها تتمثل بابن خلدون في بحثه عن الحقيقة التاريخية المجردة من أي غاية شخصية. ذلك أنه عند الشروع في الدخول مع زاهية قدوره في عناوين وسطور الطروحات العازورية، كان لا بد من الإشارة، إلى أن كل محاولة تستهدف دراسة الأفكار التي نادى بها، وعمل في سبيلها نجيب عازوري، يجب ألا تتم إلا من خلال دراسة الخلفية الثقافية والسياسية

والاجتماعية والاقتصادية التي تقبع وراء شخصية صاحبها، ليستمد منها مدلولاتها وأبعادها، في الظروف التاريخية السائدة عند مطلع القرن العشرين. ومن هنا تستدعي الملاحظة، أنها في بحثها عن تلك الخلفيات العازورية، تأثرت بابن خلدون في بحثه المضني عن الحقيقة التاريخية، وهو ما كان عليه حالها ودأبها؛ في معظم أعمالها ومؤلفاتها.

لم يقتصر البحث على الأفكار التي ارتبطت باسم العازوري فقط، بل درست بداية نشوء حركة القومية العربية، والطروحات التي قامت حولها. ثم تعرضت لمجمل الكتابات التي تحدثت عن بدء انطلاقتها. في محاولة لتأتي الكتابة عن أفكاره متطابقة حيث يجب التطابق، ومتعارضة عندما تجد فيها ما يجافي الحقيقة.

أما الدراسة التي وضعها جورج أنطونيوس في كتاب: يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية[١٠٩]، فقد جاءت متطابقة مع بحث زاهية قدورة، حول نشاط العازوري السياسي خلال السنوات الأخيرة من العهد الحميدي. وكان الكتاب، في مقدمة المصادر التي استندت إليها للمقابلة بين مواقف العازوري وطروحاته القومية والعربية، التي تبين من خلال الكتابة عنها، أنها تعود بمعظمها إلى مواقف شخصية عانى منها، وإلى حوادث تشابكت نظرياتها مع تطلعاته السياسية وممارساته، وإقراره بقومية الحضارة العربية لغة وتاريخاً. غير أن هذه المواقف لا تنفي دعواته المتكررة إلى الانفصال عن الدولة التركية المسلمة.

من أفكار العازوري التي توقفت حيالها باستغراب، عدم إعلان استنكاره لقيام دولة تمثل الخطر اليهودي بكل أبعاده وأخطاره. وطوال الكتابة عنه لم يساورها شك في معلوماته عن المخططات الصهيونية، ومشروعاتها الاستيطانية في الشرق العربي وفلسطين. لأنها كانت متأكدة أنه كان يستقي معلوماته من وزراء الدول الأوروبية الكبرى، ومن أصحاب الشأن والقرارات الخطيرة، الذين كان يلتقيهم؛ ومن السمعيات التي كانت تتوافر له؛ بحكم المراكز الوظيفية التي شغلها في حياته[١١٠].

على مدى صفحات البحث ودعوة العازوري للقومية العربية، ونظرته إلى قيام « دولة عربية تنشأ في الجزيرة وبلاد الشام والعراق». عملت زاهية قدوره على توضيح اهتمامه بهذا الموضوع، أكثر مما أبداه من عناية في دراسة القضية الفلسطينية بكل مخاطرها وأبعادها. والسبب كما قالت، عائد إلى أن «نشوء القضية الفلسطينية وقيام عناصر من الحركة الصهيونية بغزو المناطق العربية واحتلالها، والتي كانت

بدايتها في زمن العازوري، لم تكن قد تركزت بكل سلبياتها في تلك الفترة. بل احتاجت إلى دعم بريطانيا ودعمها، حتى تصبح حركة عنصرية منظمة فيما بعد»[١١١]. بينما الأمور كانت مختلفة بعض الشيء مع ميشال شيحا كما ستوضح عند دراسة أفكاره.

وأضافت من أنه ليس من تعارض بين مفهوم نجيب عازوري للمخاطر الصهيونية، ومؤامراتها تجاه فلسطين، وبين المفاهيم المتداولة قديماً وحديثاً، فيما خص المفكرين والمؤرخين المحدثين. وذلك لقرب الرجل من الأحداث التي كانت تقع من حواليه، نتيجة علاقاته الشخصية التي أقامها، لشغله مناصب قريبة من بعض التحركات التي كانت تحصل في زمانه، ولقربه كذلك من دوائر القرار الفرنسية، التي كانت بدورها قريبة جداً من مجريات الأخطار الصهيونية وأطماعها وأهدافها.

أما بالنسبة إلى عروبته وأفكاره القومية، فقد كانت أقرب إلى مضامين ونظريات القوميات الأوروبية، حيث قام بتطبيق ذلك قياساً على الظروف والأوضاع التي كانت تمر بها القومية العربية، لقولبتها بقالب معين. بدليل دعوته إلى تعريب الكتب العربية، بحيث تصبح لغة القرآن والإسلام العالمي، لغة المذهب الكاثوليكي.

إضافة إلى ذلك رأت عنده كثيراً من الأفكار التي كانت تروج لقيام كيان عربي على مثال خلافة أو مملكة علمانية عربية، هذه المملكة التي حاول أن يوجد لها المحبين والمؤيدين من المسلمين والمسيحيين.

غير أنها لا تنفي له فضلاً ؛ بأنه كان من أوائل المفكرين الذين رأوا في الخطر الصهيوني كارثة كبيرة ستحل على الدول العربية، مما عد جرأةً وإقداماً وانفتاحاً منه؛ في طرح هذه الآراء في تلك المرحلة من بداية مشروع قيام الحركة الصهيونية، الذي تمثل بدعوته المتقدمة لضرورة قيام حركة ما باتجاه القومية العربية، تعمل على التصدي لجميع هذه المؤامرات.

ولاحظت في رؤيته للخطر الصهيوني، ودعوته لنهوض القومية العربية محاولة لتكون نداً للحركة الصهيونية، مما عدته بعداً أساسياً في نفاذ بصيرته، وفي رؤية واضحة بعيدة المدى.

وكانت قد واجهت في دراستها - سواء عن نجيب عازوري أو ميشال شيحا - نقصاً في توضيح بعض الحقائق التاريخية التي طرحاها في مجال التحذير، وتوقع بعض الأمور في المستقبل، على حد زعمهما. وعندما كانت تبحث عن مثل هذه الأمور، في

دراسات ومؤلفات أخرى، لم تكن تعثر على ما كان يكفيها لتغطية كل ما يتطلبه الموضوع. فوجدت بعض الحقائق في ناحية، واعترضتها نواقص في نواحٍ أخرى، ورأت أن هذا النقص، من الممكن أن يسبب لها بعض الفجوات في بحثها عنهما. لذلك عمدت إلى ملء هذه الفجوات عن طريق العقل والاجتهاد.

وفي أثناء قيامها بالدراسة المشار إليها عن العازوري وشيحا، توافرت لها بعض المصادر والمراجع، التي وجدت فيها أفكاراً وآراءً، فتحت لها مجالاً آخر للقيام بوضع دراسة عن حالة المفكر اللبناني، الذي كان متأثراً في تلك الفترة؛ وإلى حد كبير بالصراع الذي كان دائراً بين فرنسا وإنجلترا، للسيطرة على بلاد الشرق العربي. فجهدت في دراستها، إلى توضيح حجم التجاذب بين هذا الفريق وذاك، من المفكرين والكتاب والموظفين، الذين تمحورت أفكارهم وثقافاتهم واتجاهاتهم تجاه هذه الدولة أو تلك[١١٢].

ما يهم من ذلك كله، دراسة فكر ومنهج نجيب عازوري وأسلوبه، وقد استقت موادها وأخذت قواعدها، من روحه الفكرية، وارتباط حياته بكل ما أقدم على طرحه، وبكل ما جاء به من أفكار. فتناولت ذلك بطريقة علمية موضوعية، متسلحة بوعي ثقافي قارب الطروحات الميدانية، متفوقة عليها بمناقشتها وتحليلها، وتبيان صالحها من سيئها. ولجأت إلى ثقافتها التاريخية لمقارعة الحجة بالحجة، والمنطق بالمنطق، والسرد التاريخي بحقيقته التاريخية والموضوعية[١١٣].

أما بالنسبة لميشال شيحا، فلم تندفع الكاتبة في دراستها عنه؛ كما كان حالها بالنسبة لنجيب عازوري، لماذا ؟ لم تشر إلى هذه النقطة في دراستها. إلا أنها أشارت، إلى أن ميشال شيحا شهد مرحلة انطلاق الأطماع الصهيونية؛ واغتصابها للمناطق الفلسطينية والعربية. والسبب أن نشوء القضية الفلسطينية، لم تكن بدايتها في العام ١٩٤٨، بل إن قيامها وتحركها سبق تلك الفترة بزمن طويل، وتصادفت بدايتها وتزامنت مع إنطلاقة شيحا الاجتماعية، وتعاطيه بالشأن السياسي.

ما يحدو على ذلك، أن المخططات الصهيونية التوسعية وغاياتها؛ قد ظهرت بشكل واضح وجلي، لكل من يملك عقلاً وفكراً سياسياً وتحليلاً لمختلف الأمور وقضايا العصر بطريقة أو بأخرى، أو كان قريباً من واضعي هذه المخططات، ومن أصحاب المراكز والمناصب العاملة على تنفيذها. وهو ما كان حاله، وحال غيره من الصحافيين الذين كانوا على اطلاع واسع، وملاحقة مستمرة لسير هذه المخططات.

ومما ساعد شيحا بالوصول إلى هذه الأمور، ومعرفة الكثير من أسرارها، مكانته الصحافية التي بلغها، ومركزه المرموق الذي احتله آنذاك، في أوساط المجتمع الأوروبي. فظهرت أمامه المخططات الصهيونية بأبعادها ومراميها، من قبل أن تظهر لغيره، أو يعرف بها سواه بسنوات طويلة، على حد ما قالت في دراستها عنه[١١٤].

ولاحظت أن ميشال شيحا تنبه إلى قيام الخطر الصهيوني منذ زمن بعيد، من خلال مراقبته وكتابته عن عمليات الزحف البشري (المنظمة والمقصودة)، التي كانت تقوم بها جماعات كثيرة من اليهود إلى فلسطين، ينزحون إليها من الدول الأوروبية والأميركية، ومناطق شتاتهم الأخرى[١١٥].

ونتيجة لهذه الأمور، أشارت إلى تساؤل شيحا؛ عن الغاية أو الهدف الذي كان يدفع بهذه الجماعات إلى الهجرة من دولها الكبيرة والغنية، إلى أرض فلسطين المقفرة، لولا التحضيرات التي تتم بالسر والعلن، لإنشاء الكيان الصهيوني على حساب فلسطين والدول العربية المجاورة؟

فرأت أن هذه الملاحظات قد تلقفها منه المراقبون والباحثون، مما ساعدهم على فهم أسلوب عمله ومنهجية أفكاره، فنهضت توجه الأنظار إليها، وتدرس أسباب التحذيرات التي كان يطلقها.

فرأت أنه عندما كتب عن العلاقة الجدلية بين الشعب والأرض، إنما أراد الإشارة إلى حق العرب والمسلمين والمسيحيين في أرض فلسطين، وتكذيب ادعاءات اليهود وتفنيد أضاليلهم.

فعمدت إلى بسط منهجه الذي اتبعه في التحذير من مخاطر الهجرة الصهيونية. وعملت على دراسة أفكاره على ضوء حقيقتها العلمية والموضوعية، وشرحت منهجيته في توصيل آرائه إلى الغاية التي كان يبتغيها. كمثل تحذيره من المخاطر التي تهدد الوطن العربي، وتنبيهه إلى الأطماع الصهيونية منذ ذلك الوقت. ثم أشارت إلى صدق مخاوفه مع مرور الأيام وتقادم السنين، بحيث أنه حذر منذ نصف قرن من مطامع هذا الغازي المعتدي.

كما بينت مخاوف ميشال شيحا على لبنان والوطن العربي منذ أوائل العام ١٩٥٠، يوم حذر من أن ارض فلسطين سوف تضيق عن استيعاب الملايين من اليهود، الذين تقرر إرسالهم للإقامة في فلسطين، تحت ضغط القوة والسلاح. ولما ضاقت تلك المساحة من الأرض العربية عن تحمل تدفقهم، كان من الطبيعي أن يتطلع المستعمرون

الجدد؛ إلى أراضي الدول العربية المجاورة.

وأظهرت المواقف المتقدمة التي كان قد اقترحها شيحا لحل القضية الفلسطينية بطريقة عادلة وسليمة، حتى من قبل أن يتم عرضها على الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة، وحتى من قبل أن تصدر القرارات الدولية بحقها. وأرادت بذلك، إظهار تقدمية أفكاره وأسبقية طروحاته.

«كان ميشال شيحا يرى أن البحث في قضية اللاجئين يمكن أن يشكل مدخلاً لحل القضية كلها . لكنه أكد في كل مرة جرى فيها بحث الموضوع، من جانب مبعوثين أميركيين، على أن القضية ليست قضية اقتصادية أو مالية بحتة، بل هي قضية سياسية»[١١٦].

وتابعت عرض أفكاره ونظرياته حول هذه المسألة، فقالت: « إن مشاريع التطوير الاقتصادية الأميركية في الشرق الأوسط، كلبنان والأردن وسورية مفيدة، لكنها ينبغي أن لا تكون باتجاه استيعاب الفلسطينيين في البلاد التي لجأوا إليها، كما ينبغي أن لا يتم انطلاقاً من مياه الأردن والليطاني»[١١٧]. وكأنها أرادت الإشارة إلى أنه؛ سبق بنظرياته عملية رفض توطين الفلسطينيين في لبنان من قبل نصف قرن من الآن.

وتطلعت إلى تحذيره من مسألة التوسع الصهيوني، من قبل أن تصبح مادة متداولة في سوق المزايدات السياسة العالمية. إلا أنها عابت عليه المطالبة بتدويل مدينة القدس. أهو استشراف التاريخ السياسي عند شيحا ؟ أم الإدراك المبكر ببواطن الأمور؟ أم تنبؤ صحافي بما تحمله المخططات السرية ؟

يلاحظ من الصورة التي رسمتها لمواقف شيحا السياسية، أنها لم تبرر أعذاره ولم تتقبل سلوكياته السياسية وطروحاته في سوق التداول السياسي. خصوصاً وقد رأت أن ما جاء فيها لحل القضية الفلسطينية، فيه كثير من الاستغراب! فبالرغم من أنه يمكن أن يكون قد استنبط تلك الاقتراحات انطلاقاً من موقفه الخائف على مصير بلده. إلا أنها رأت أن شيحا أبدى إعرابه عن التضحية بكيان غيره للمحافظة على كيان بلده، الذي يخشى عليه من الانهيار.

هنا تظهر أرجحية زاهية قدوره الوطنية والقومية على ما عداها من السياسيين.

غير أن ذلك لا يعني قبولها بأي عملية فيها مساس بكرامة وطنها واستقلاله وسيادته. ولكنها في الوقت ذاته لم تكن ترضى بأن يكون حل القضية الفلسطينية أو حل أي قضية أخرى، وكما حصل قبلاً بالنسبة للقضية الجزائرية، وغيرها من القضايا العربية

والقومية، أن تكون الحلول التي توضع لها على حساب الشعوب العربية وكراماتها.

فإذا كانت زاهية قدوره قد أعجبت بأفكار ميشال شيحا، التي دارت على مخاطر الحركة الصهيونية، كما أعجبت قبلاً بأفكار نجيب عازوري ودعوته للقومية العربية. إلا أنها كانت تفضل لو أن شيحا، استغل مكانته السياسية والصحافية المؤثرة بين الأوروبيين، ووظف صداقاته في المجتمع الدولي للضغط من أجل وضع الحلول العادلة والمنصفة للقضية الفلسطينية، وليس أن يعمد إلى التضحية بها، خشية منه على أن تؤثر هذه القضية على بلده وتلاحم شعبه.

ما كان يدعوها لذلك، أن شيحا كان ينتظر مخرجاً للوضع من خلال مشروع إقليمي ما، يقوم على مرتكزات طائفية لحل القضية الفلسطينية، من غير أن يأتي على تحديد أو رسم أي دور عربي يمكن أن يكون فيه حل عادل لهذه القضية[١١٨].

المهم في ذلك، الفكر التحليلي والتأريخ الموضوعي اللذين اعتمدتهما في بحثها عن هذين المفكرين، اللذين وصفتهما باللبنانيين، ولم تقل المفكرين العربيين. هل قصدت ذلك حقاً، أم أنها اعتمدت على معطيات رأت فيها تباعداً، بين نهجهما وأسلوب كل منهما، عائد ربما إلى تشبعهما بالثقافة الأجنبية وتحديدا الفرنسية. ومن ناحية ثانية، أشارت إلى أن نجيب عازوري كان موظفاً في وزارة الخارجية الفرنسية؛ مما ساعده كثيراً، وسهل له طرح أفكاره حول المناداة بمشروع جامعة الوطن العربي وتأسيسه لعصبة الوطن العربي.

في حين اعتبرت شيحا، من ألمع منظري الإيديولوجيا المارونية السياسية الحديثة، القائمة على المناداة بأن كثلكة العالم، كفيلة بخلاص لبنان وفلسطين من مشاكلهما المستعصية مع الصهيونية العالمية .

وهنا لا بد من ملاحظة تأثرها بفكر كل من نجيب عازوري القومي والعروبي، وفكر ميشال شيحا الذي دعته باللبناني الصميم، واعتبرته من اللبنانيين القلائل الذين اطلعوا بحكم وظائفهم، وقربهم من دوائر القرار الأجنبية، إلى التنبيه من خطورة الأطماع الصهيونية في فلسطين.

وقد أسفت الكاتبة لانتهاء مشروع العازوري بوفاته سنة ١٩١٦، من دون أن يتمكن من معرفة الأوضاع، التي آلت إليها الدولة العثمانية بعد وفاته. كما تأسفت من ناحية ثانية، لانحسار طروحات شيحا، بسبب الجمود الذي أصاب بلاد العرب بعد خمود

الثورة العربية. ونظرت بحسرة إلى إقدام الفرنسيين والبريطانيين على « .. تقسيم أقطار الدولة العثمانية، مما كان له آثاره السيئة على مواقف ميشال شيحا من القضية العربية، وهو في ذروة حماسه بالدعوة لنصرة الحق العربي بفلسطين ...»[١١٩].

يلاحظ من مجمل الأفكار الواردة، الاندماج الفكري الذي لاحظته الباحثة بينهما، وتفاعلهما الحي في الأفكار والطروحات. ولكنها لم تقر بتقاربهما بشكل حاسم، بسبب ارتباط كل واحد منهما بخلفية ثقافية وسياسية وحتى خلقية معينة. إذ لاحظت بالرغم من أن الاثنين نهلا من تربة لبنانية واحدة وتشبعا منها، إلا أن ميولهما العملية والحياتية مختلفة. وأشارت إلى التباعد بين اتجاهات شيحا عن الأفكار العازورية لاختلاف « الظروف الموضوعية لذلك، لكن بذور موقف شيحا موجودة في تراث عازوري حول العروبة وان اختلفت منطلقات كل منهما ...».

ويبقى لميشال شيحا أخيراً، الفضل – كما أشارت - في أنه نبه ودعا وحث، على مقاومة الأفكار والمخططات الصهيونية، والغربية المريبة، ولم يركز على نوعية تلك المقاومة، مسلحة كانت أم سلمية، أم مقاومة على مبدأ اللاعنف. المهم أنه أرسى مدماكاً، وطالب بتنشيط عمل المقاومة ضد هذا المعتدي الغاصب. ألم نقل سابقاً، أنه قدر الصحافي المبدع في استشراف التاريخ، وفي رؤيته المستقبلية للغد الآتي، من خلال قيام شتى أنواع المقاومة العربية منذ ستين عاماً، وحتى الآن؟!.

ربما من يسأل، كيف تسنى لزاهية قدوره أن تبحث في كل هذه المسائل، وتجول حول نظريات العازوري الوحدوية، وطروحات ميشال شيحا حول القضية الفلسطينية ؟ ومن أين لها هذه الاطلاعات العالمية، على أفكار وعناوين ذات صلة بالتاريخ الحديث والمعاصر، وبتشعباته السياسية العالمية ؟

مما لا شك فيه، أن إلمامها بمنابت الثقافة الفكرية والأدبية، فضلاً عن تشبعها من تراث عائلة سياسية قديمة، ذات جذور بارزة في مختلف العلوم؛ ومنها علم السياسة المرتبط في حده الأدنى بالتاريخ السياسي، جعلها على اطلاع واسع بأهم المذاهب والأفكار السياسية، العربية والعالمية. كما تبين سابقاً تأثرها بعدد من المفكرين السياسيين؛ مما ساهم في تكوين فكرها السياسي.

وزاد من قيمة الموضوع أنها، عندما قررت الإنصراف إلى دراسة التاريخ وكتابته[١٢٠]، فقد جهدت كثيراً بالتعرف على التاريخ العام والخاص، بخصائصه ومذاهبه

وأفكاره. فانكبت على قراءة عدد وافر من كتب المؤرخين، القدماء منهم والمحدثين. وتزودت ما تسنى لها ذلك، بقراءة أشياء من المؤلفات الحديثة في تاريخ العالم بعامة، وقراءات عن العصر الحديث، وأحداثه القريبة من مواضيع أبحاثها ودراساتها، فألمت بثقافة تاريخية مهمة، ساعدتها بالتعرف على مختلف الأساليب في الكتابات السياسية، وفي منهج المطابقة والمقارنة، والبحث والتحليل. مما مكنها من التوصل إلى معرفة خصائص النصوص التي كانت تبحث فيها، والإلمام بمزاياها وعيوبها، مما إنعكس على أعمالها بفائدة كبيرة.

هذا ولا يعقل أن تعكف زاهية قدوره أو غيرها من الباحثين، على دراسة ناحية تاريخية معينة فجأة، ومن دون أن تتعرف موضع هذه الناحية من الدائرة المحيطة بها مباشرة، ثم موضعها من الدوائر الأوسع نطاقاً، بل وموضعها من العالم كله. لا يتأتى لها هذا الأمر، أو لغيرها من التاريخيين، بغير الإلمام بقدر مناسب من الثقافة التاريخية العامة والخاصة على السواء.

وكان من الصعب أن تتأمن لها هذه المقومات الدراسية والبحثية، لولا الثقافة التي حصلتها، بالإضافة إلى مكتسباتها الثقافية. إلا أن ذلك وحده لا يكفي، بل يجب أن يترافق مع الدراسة والخبرة في الحياة العامة ذاتها، ولها في دائرة أهلها خير مثال لذلك، وبين أفراد قومها ومجتمعها.

فضلاً عن ذلك، إن الخبرة التي اكتسبتها بالملاحظة والممارسة العملية، مكنتها من تفهم مختلف الأعمال التي كانت تتوافر بين يديها أو تقع تحت ناظريها، ومن تقدير أهميتها العلمية، وقيمتها الثقافية والتاريخية، الأمر الذي مكنها من دراستها، وإطلاق الأحكام والمعايير على مكانتها الموضوعية.

٨ – مفهوم العمل السياسي عند زاهية قدوره

بالعودة إلى المفهوم السياسي الناشيء عن الأحداث السياسية التي عايشتها زاهية قدوره، في مرحلة متقدمة من حياتها. لا بد من القول أنه ليس من السهل الإحاطة بمعطياتها جميعها، خشية الإفاضة والإطالة، إلا أنه يمكن اختصار عناوينه والإشارة إلى درجة تأثرها بالوقائع التي كانت تدور من حولها.

كانت سريعة الإنفعال والتأثر، عند تعرض أي شعب عربي لمحنة ما، لأن النوائب كانت سمة مميزة في تلك الآونة. فكانت تندفع في تأييد مختلف الحركات والثورات

التحررية، التي قامت في بعض الدول العربية، وفي دول العالم الثالث.

بدأ تنامي المفهوم السياسي عندها منذ قيام الحركة الاستقلالية اللبنانية، التي عاشتها بتحركات سياسية بدائية، في مدرسة الجونيور كولدج وفي الجامعة الأميركية في بيروت، بالإضافة إلى بعض النشاطات السياسية التي كانت لها في مصر عندما كانت طالبة فيها.

وعندما عادت إلى بيروت ودخلت إلى دار المعلمين العليا (الجامعة اللبنانية فيما بعد) للتدريس فيها منذ العام ١٩٥١. ظلت حركتها السياسية على نفس الوتيرة، فكانت متابعة دائمة ومستمرة؛ لمجمل الأحداث السياسية، التي كانت تحصل في بيروت.

كانت شديدة التأثر بالأحداث التي تقع في أي بقعة من الأرض العربية؛ نتيجة إنتمائها العربي والقومي، ولأنها كانت تعتبر نفسها معنية بصورة مباشرة بها. تأثرت بأحداث الجزائر التي كافحت للحصول على الاستقلال. فلقيت منها كل الاهتمام والمساندة والتأييد. فصبت جهودها على قضية الشعب الجزائري، الذي أعتبر القدوة والمثل بين شعوب العالم آنذاك[١٢١].

كما تأثرت بما تعرض له الشعب الأردني، عندما قام يطالب بالحرية والسيادة، والتخلص من القوات الإنجليزية التي كانت متواجدة على أرضه. فجوبه بشتى أنواع التنكيل والاضطهاد؛ مما تسبب بموجة عارمة من السخط والاستنكار، لدى الشعوب العربية، التي قامت بالتظاهر تأييداً للأردنيين في تحركهم نحو الحرية. وكانت واحدة من الذين تألموا لما تعرض له. فكتبت معبرة عن تنديدها والاستنكار لكل الممارسات التي كانت ترتكب.

وكرئيسة لاتحاد الجامعيات اللبنانيات، قامت مع بعض الشخصيات السياسية والاجتماعية، بإرسال برقيات الاحتجاج، إلى داغ همرشولد DUGE HAMARCHOLDE[١٢٢] الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة آنذاك، لمطالبته بالتدخل مع المجتمع الدولي؛ للضغط على الحكومة الأردنية، لوقف أعمال العنف والتنكيل بحق الشعب الأردني. وقامت أيضاً، بارسال برقيات مماثلة إلى المراجع الدولية المختصة، استنكرت فيها حملات الإرهاب والتعذيب، التي نفذتها السلطات الأردنية بحق الأردنيين، وطلبت من المسؤولين الدوليين في هذه البرقيات، ممارسة نفوذها على الحكومة الأردنية لوقف ممارساتها القمعية ضد شعبها[١٢٣].

وقامت مرة ثانية بمساندة الشعب الأردني؛ عندما قام يطالب بالإنضمام إلى الوحدة العربية، التي قامت بين قطرين عربيين، وحركت آمال الشعوب العربية، التي

قامت بالتظاهر للتعبير عن تأييد الوحدة المصرية – السورية[١٢٤].

فمنذ العام ١٩٥٦ بدأ في الحياة العربية، شيء جديد كلياً، جديد في النوع لا في الدرجة، وهو أن العرب للمرة الأولى في العصر الحديث، بدأوا يعيشون تاريخاً واحداً. فوحدة التاريخ العربي أصبحت واقعاً، فلم يعد هنالك حدث يحصل في الجزائر، لا يؤثر إلا في الجزائر، أو حادث يقع في العراق، لا يؤثر في غير العراقيين اطلاقاً. أو حادث يقع في اليمن، ولا يترك أثره في كل بقاع العرب. لم يعد هناك تواريخ كما كان في الماضي، بل أصبح هناك تاريخ واحد، فالحدث في مكان ما، صار كأنه حدث في كل مكان في الأرض العربية[١٢٥].

وعندما وقع العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، لم يكن ذلك مفاجأة لها أو لغيرها ممن كانوا يتابعون تطور الأحداث السياسية آنذاك. بالنسبة لها لم يكن العدوان مستغرباً، لأنها كانت ترى أن ثورة ٢٣ تموز (يوليو) عام ١٩٥٢، كانت من العلامات البارزة في تاريخ الأمة العربية. ولذلك لجأت الدول الغربية إلى كل قوتها وأساليبها؛ لوقف إندفاعتها الثورية. وقامت كل من فرنسا وبريطانيا وإسرائيل بشن العدوان على مصر. وكرد فعل على العدوان، قامت بتحركات مختلفة، لتقديم كل الدعم إلى مصر ومساندتها. واستطاعت زاهية قدوره في فترة وجيزة، حشد أكبر دعم مادي ومعنوي، تمكنت في خلاله من جمع شمل مجموعة مهمة من الشخصيات اللبنانية، التي انضوت في اللجنة الأهلية لنصرة مصر. وقامت بجمع كمية كبيرة من الأموال والمصاغ، وسلمتها إلى السفير المصري في بيروت لإرسالها إلى مصر، كتعبير ولو رمزي، عن وقوف الشعب اللبناني مع مصر وشعبها في وجه العدوان[١٢٦].

وعلى ضوء هذه التطورات والأحداث، قامت بوضع عدد من الأبحاث والكلمات المؤيدة لمصر، دعت فيها إلى تنظيم حملة واسعة لمقاطعة بضائع كل من فرنسا وبريطانيا، وضمنتها أيضاً؛ دعوة للوحدة والتضامن، وتحقيق فكرة القومية العربية. ثم ذهبت إلى مصر للاطمئنان على « ناسها وشعبها وأرضها». وبالرغم من الآلام التي خلفها العدوان. فقد استغلت زاهية قدوره هذه المناسبة السلبية، ودعت العرب للوحدة والتضامن، وتحقيق فكرة القومية العربية.

من ناحية ثانية كانت زاهية قدوره من أشد المعجبين والمتحمسين، للوحدة التي قامت بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ونشأ عنها قيام الجمهورية العربية المتحدة، التي

كان لها وقعها المكين في نفسها. ولما تم سؤالها في إحدى اللقاءات معها عن هذه الوحدة، قالت عنها: « إنه في السادس والعشرين من شهر شباط/فبراير من عام ١٩٥٨ كان يوماً مشهوداً، كان يوماً قومياً، كان يوم العروبة بكل معانيها، نسينا في هذا اليوم جميع المآسي وأعمال الاضطهاد والتنكيل، ونسينا حتى الغارات الوحشية التي شنت على أمتنا العربية. شعرنا بذلك من خلال الوحدة التي قامت بين مصر وسوريا، واعتبرنا ذلك مقدمة للوحدة العربية الشاملة بين جميع الأقطار العربية» [١٢٧].

وأتت في مخطوطة مذكراتها على أحداث الوحدة ، وقالت: « أستطيع أن أقول إن اهتمامي في تلك الفترة كان له عنوانان.. الجامعة اللبنانية واتحاد الجامعيات اللبنانيات.. هذا دون أن يقل اهتمامي بالشأن العام القومي والوطني.. لذلك لم تكن تمر مناسبة قومية أو وطنية، أو ذات مغزى قومي ووطني إلا شاركت فيها.. من ذلك الوحدة بين مصر وسوريا، في الجمهورية العربية المتحدة، وهي أول وحدة في تاريخ العرب الحديث. وأذكر أنني عبرت بهذه المناسبة، قائلة: إن الوحدة العربية الشاملة؛ هي أمنية كل عربي متحرر، لذلك فإن الجمهورية العربية المتحدة، هي أول خطوة إيجابية نحو تحقيق الوحدة الشاملة.. إنني أبعث باحترامي كله، للرجل الكبير شكري القوتلي، الذي جعل العالم كله يرى في شخصه، مثال القائد العربي الذي ضحى بمصلحته الخاصة، في سبيل مصلحة الشعب. وأما جمال عبد الناصر، فإن الكلمات لا تكفي، لتعبر عما أشعر به ويشعر به الشعب العربي كله نحوه من محبة وشكر وتقدير. إن الجمهورية العربية المتحدة؛ هي بداية الطريق نحو مستقبل يعيد لنا مكانتنا بين الأمم المتقدمة» [١٢٨].

أما موقفها من الأحداث التي شهدها لبنان في العام ١٩٥٨ فقد رأت في تطوراتها الدراماتيكية، أنها لم تكن وليدة ساعتها، بل جاءت نتيجة تراكمات مختلفة على مدار سنوات عدة من المعاناة، إضافة إلى ممارسات سياسية خاطئة. ووجد في أرشيفها بعض الإشارات إلى الخلفيات السياسية للنزاعات والحروب اللبنانية المتتابعة. أشارت في إحداها إلى أن الانتداب الفرنسي؛ عمل على الاستفادة من تركيبة لبنان الطائفية، لإيجاد بذور الفرقة والشقاق بين أبناء المجتمع اللبناني، قبل أن يتمكن العهد الاستقلالي؛ من وضع الميثاق اللبناني الجديد. غير أن هذا الميثاق كانت تحوم حوله، الروح الفرنسية الانفصالية والتفريقية، حتى بات عرضة لأي هزة سياسية داخلية، كانت أم خارجية. ومن هنا لم يكن مستغرباً - كما أشارت - أن تقوم في

لبنان، وعلى مر السنوات الطوال نزعتان، واحدة قومية عربية مطالبة بالوحدة يريدها المسلمون، وأخرى مطالبة بالحماية الفرنسية تمناها المسيحيون، من دون أن يتوحد الاثنان، حول المطالبة بالسيادة الوطنية إلا بالاسم فقط[١٢٩].

كان لها دور خاص ومميز في أحداث لبنان عام ١٩٥٨ بالدعوة إلى التهدئة والحوار والمحبة، بين العناصر المتقاتلة، والمطالبة بتغليب المصلحة الوطنية.

وقامت بدراسة أسباب المشاكل المؤدية إليها، ومحاولة إيجاد الحلول. لذلك بادرت إلى التحرك بسرعة، للإسهام في وأد بذور الخصام والفرقة، قبل أن تتفاقم أمورها بين اللبنانيين.

لم تشارك زاهية قدوره في الأعمال المسلحة، وامتشاق السلاح، وإلقاء القنابل، إلا أن مقاومتها تمثلت بمواقفها الثقافية والفكرية والتربوية والتعليمية، التي كانت أكثر فعالية من حمل السلاح. فالثورة الفكرية المرافقة للحركات الشعبية، تكون في أحيان كثيرة ذات تأثير ومفاعيل؛ أفضل من الممارسات العسكرية. خصوصاً إذا كان المفكر أو المثقف الثوري، يؤمن بأبعاد وأفكار الثورة التي أعتنق مبادئها، وراح بزاده الفكري يحطم أسوار الجهل والظلم والطغيان، التي قام المسلحون بثورتهم لتحقيقها.. فالتربوي الناجح والمفكر الواعي، والمثقف الرصين، هو الذي يدعو للمحبة والعدالة والمساواة بين أبناء وطنه وقومه، ويحثهم على نبذ أعمال العنف، التي لا تخدم إلا العدو، وهو ما كان حالها في أحداث العام ١٩٥٨. فالثورات مهما كانت تسميتها ومهما كانت أسبابها، لها عناصر إيجابية تغلف واقعها السلبي في أحيان كثيرة، خصوصاً إذا كان القصد منها؛ تبديل وضع مأساوي، بأحوال وأوضاع عادلة ومريحة.

كانت زاهية قدوره التي نذرت فكرها وحياتها، لمساعدة المضطهدين والمظلومين والمكافحين، للحصول على أبسط حقوقهم المدنية والسياسية، من الطبيعي عليها أن تلبي نداء ثورة١٩٥٨ عندما دعتها للانضمام إليها، ليس لتأليب الثوار على الحكام مهما كانت دوافعهم وأسبابهم. أو لحضهم على تهديم مقومات البلاد الاقتصادية والتربوية والاجتماعية والفكرية، أو لتعطيل دورتها الحياتية والتربوية. لقد لبت نداء الشباب اللبناني جميعهم في العام ١٩٥٨، من أجل توحدهم وجمعهم في بوتقة واحدة، وتقريب وجهات نظرهم، وتهذيب ممارساتهم الفكرية والسياسية. لأنها كانت تنبذ التقاتل بين الأخوة، لذلك دعت إلى قيام الثورة الفكرية التحررية، بدل العصيان وحمل السلاح.

وقد دفعها إلى هذا الواقع، أن سبب منشأ الأحداث والفتن التي يشهدها لبنان بين الحين والآخر، إضافة إلى طابعها السياسي، أنها كانت ذات خلفيات وممارسات فكرية وثقافية تغلفها شعارات كاذبة. وكانت تؤمن بأن الاختلاف الفكري والثقافي بين اللبنانيين، يؤدي إلى فقدان الانسجام الحضاري بينهم. وطالما أن هذه العوامل كانت هي السائدة، والوحدة الفكرية والثقافية مفقودة بينهم. فإن انفجار الأزمات والثورات سيظل قائماً في كل حين[١٣٠].

وكانت ترى أن مهمتها صعبة، وعملها للتوفيق بين المتخاصمين والمتنافرين مستحيل التحقيق، لكنها لم تيأس أو تتراجع، بل فضلت التقدم والجهاد؛ لتأليف القلوب وتوحيد الصفوف. لذلك مـا فتئت تقول: « ولكي يعمل المجتمع معاً في انسجام، ويسير أبناؤه في طريق مرسوم، لا بد أن تنشأ بينهم وحدة في الفكر، تؤدي إلى وحدة الشعور، ووحدة الآمال، ولسنا نقصد بذلك أن يصبح أبناء المجتمع، نسجاً متماثلاً تمام التماثل في كل شيء، فليس هذا ممكناً ولا مطلوباً، إنما الذي نقصده أن يكون بينهم قدر. هذا القدر المشترك عاملٌ على توجيههم في كفاحهم الجماعي لبلوغ أهدافهم المنشودة» [١٣١].

هذا هو الموقف الذي أمكن ملاحظته من أفكارها وممارساتها، وتلك هي تعاليمها ومفاهيمها، وهي أشد تأثيراً من السلاح وتوجيه البنادق إلى الصدور. وكان هذا موقفها، من الرياح التي ضربت لبنان في أرضه وشعبه على مر التاريخ. فلم تكن زاهية قدوره في يوم من الأيام من دعاة الحروب، أو من مشجعي التقاتل بين أبناء الصف الواحد والشعب الواحد واللغة الواحدة. فقد صرحت مراراً، أنه وفي أثناء الحرب الأخيرة، عندما كانت تسمع أو تعلم، بأن منطقة أخرى تأذت من أعمال القتال والقصف، سرعان ما كانت تتصل بالأشخاص القاطنين في تلك المناطق للاطمئنان عنهم، بالرغم من اختلافها معهم في الفكر والرأي والعقيدة.

من أقوالها أيضا: «قد يختلف أبناء المجتمع الواحد على الوسائل التي تؤدي إلى تحقيق أهداف كل واحد منهم، ولكنها تبقى كما هي، والإحساس بأهميتها يبقى كما هو، والعمل على تحقيقها يدفع العاملين بنفس القوة وإن اختلفت الوسائل، وهذا ما نشهده في المجتمعات الراقية»[١٣٢]

سخرت من أحداث ١٩٥٨ وغيرها من الحروب التي حصلت والمنازعات التي تقوم، ما كان يدفعها لأن تتساءل عن وضع لبنان، والتعجب من وضعه المختلف

عن غيره من الدول المشابهة له، فأبناؤه لا يبدون حماسة للوحدة فيما بينهم؛ أو للتآلف والانسجام. كانت تعرب عن تعجبها واستغرابها، من خلال قولها: «إذا نظرنا إلى وضعنا في لبنان وجدنا أننا لم نحقق شيئا من هذه الوحدة الفكرية ولا الوحدة الشعورية، فنحن لا نزال بين تيارات كثيرة تعمل على تفريقنا في الفكر والشعور، وتيارات مقنّعة ولكنها معروفة ملموسة تطل بوجهها حينا وتختفي أحياناً. فإذا تساءلنا ما هو لبنان وما وضعه؟ أهو بلد عربي؟ أو غربي؟ أم لا عربي ولا غربي؟ وإنما هو كيان قائم بذاته ليس مصطبغا من الصبغتين بل إن تاريخه وثقافته وفكره مستقلة، لم نظفر بجواب. نرى بعض أبناء هذا الوطن ممن يتجاهلون أو يجهلون ثقافة لبنان الحقيقية ولغته وتاريخه وكفاحه المشترك، كما يتجاهلون وضع لبنان بين الدول العربية وكيانه الاقتصادي والاجتماعي وهم بذلك يجنون عليه من حيث لا يدركون»[١٣٣].

ومن الأهمية بمكان الإشارة، عند بحث المشاكل التي كانت سببا للخلاف بين اللبنانيين وفق منطق زاهية قدوره، وقيام المنازعات الطائفية والحروب العسكرية فيما بينهم. أن نفتح مزدوجين لنضيف أن القضية الفلسطينية، ساهمت هي الأخرى في زيادة حدة الانقسام بينهم. إضافة إلى ذلك فقد وجد بعض البحاثة والمفكرين، أن قناصل الدول الأجنبية ركزوا في مراسلاتهم وتقاريرهم إلى حكوماتهم، على حال التنافر واختلاف الآراء بين المسلمين والمسيحيين في لبنان. وأضافوا بأن نظرة كل من المسلم والمسيحي إلى القضية الفلسطينية، باتت عنصراً مؤثراً في زيادة حدة المنازعات العصبية والطائفية فيما بينهم، فضلاً عن نظرة كل منهم، إلى الأخطار التي تهدد بلادهم من جراء الأطماع الإسرائيلية فيها[١٣٤].

وأبدت قناعتها الفكرية والسياسية حيال هذه الأمور، بقولها: «... إن لبنان بلد عربي الفكر والثقافة، وبالتالي هو عربي الكيان، عاش في الثقافة العربية منذ قرون وتشبع بها وبدأ العمل مع أخوته العرب على بث هذه الثقافة وتجديدها، والدخول في عصر النهضة الجديد، الذي بدأ في العالم العربي عندما تأثر بثقافة الغرب في الأزمنة الحديثة».

وتابعت عرض رأيها حول الموضوع، فأكدت أن بيت الداء في لبنان، الاختلاف الفكري قبل التباين العقائدي، وهو السبب الأساسي لمعظم الانقسامات التي تحصل: «ولكن هذا الانقسام الفكري ... الانقسام في التيارات الفكرية والتيارات الحياتية، أدى إلى انقسام سياسي وتسبب في ظهور دعوات مختلفة، وبالتالي نشأت النظرات المختلفة

لمفهوم القومية في لبنان. فبينما نجد في الأمم الأخرى مفهوماً موحداً للقومية، نجد الأمر على غير ذلك في بلادنا. ففريق يؤمن بالقومية اللبنانية، وفريق يؤمن بالقومية السورية، وفريق ثالث يؤمن بالقومية العربية. فينشأ عن تطاحن هذه الجماعات بلبلة فكرية. وقد بينت الحوادث الأخيرة أنه يجب على اللبنانيين أن يتوحدوا في تفكيرهم. وما السبيل إلى ذلك؟ إن خير طريق إلى ذلك أن يفهم اللبنانيون ذاتيتهم وأن يعوا شخصيتهم، ثم يحددونها على ضوء تاريخهم وماضيهم، ولغتهم ومصالحهم المشتركة، وآمالهم وأمانيهم، بصراحة ووضوح. وإني من المؤمنين بأن خير مخرج للشعب اللبناني من أزمته، المحافظة على الكيان اللبناني العربي. هذا الكيان الصريح الواضح بأن لبنان بلد عربي، لا ذا وجه عربي، بل عربي قلباً وقالباً، وأن لا حياة له في هذه البقعة من العالم ولا رخاء ولا رفاهية، ما لم يكن فيه هذا الإيمان الواضح الذي يعاون على تقوية العلاقات بين اللبنانيين وشقيقاته العربيات»[١٣٥] .

كشفت زاهية قدوره العيوب بصراحة متناهية، ظهر ذلك في آرائها الجريئة، فلم تراوب ولم تتهرب من توضيح الحقائق على سيئاتها. رأت أن بيان الحقيقة على مرارتها، أسهل في إقناع الفريق الآخر بما تدعو إليه من حق وعدل ومساواة، على شن الحروب لتوضيح ما تعتقده من صدق وصواب.

هذا، وأثار الاعتداء الإسرائيلي الذي وقع على الدول العربية، في الخامس من حزيران/يونيه عام ١٩٦٧، الاستنكار الشديد عندها. مما دفعها للسخط والغضب عبر الكتابة، أسوة بغيرها من المفكرين والمثقفين، ولكنها لم تكن كأي منهم. لأنه كان في كتاباتها من معاني الثورة، أكثر مما كان فيها من معاني الرثاء. فقد دعت إلى قيام المعركة الحقيقية، لأن الوقت لم يعد وقت البكاء على آثار المعركة، وأن ما وقع قد وقع، وليس من سبيل إلى رد مضاره، لذلك فالأجدى أن تتم الدعوة إلى قيام المعركة البديلة عن المعركة الحربية، فقالت: «لقد كنت مؤمنة أن ما حدث لا يعني النهاية، فالمعركة مستمرة والنضال دوار..لا، لم تبدأ الحرب، المعركة الحاسمة بيننا وبين إسرائيل ابتدأت في الوقت الحاضر.. وإننا نعتبر كل مواطن مجندا لتأدية دوره في هذه المعركة، والمعركة يجب أن تقوم في كل الميادين، معركة سياسية عسكرية، معركة اقتصادية، معركة اجتماعية، معركة ثقافية»[١٣٦].

يلاحظ من دعوتها إلى الثورة، أنها كانت موجهة لجميع اللبنانيين عموماً،

والعرب عامة، رجالاً ونساءً، وكانت دعوة للانخراط في التجنيد العسكري الاختياري وحمل السلاح بوجه المغتصب الإسرائيلي، وأكدت أن ذلك واجب قومي وعربي، خصوصاً بالنسبة إلى المرأة التي كانت تطالب بمساواتها بالرجل. فوجهت إليها النداء للتجنيد واستعمال السلاح لمقاتلة العدو. لأنه كما على المرأة أن تتحمل الغنم، عليها أيضاً أن تتحمل الغرم، فلا يجوز أن تتقاعس المرأة العربية واللبنانية، عن القيام بخوض حرب العنفوان والتصدي للمرأة الإسرائيلية، التي تقود الدبابة والطائرة وتهبط بالمظلة في ساحة الحرب.

إضافة إلى ما تقدم، طلبت من المرأة اللبنانية القيام بواجبها الحقيقي في المعركة، عن طريق مقاطعة البضائع الأجنبية للدول الداعمة لإسرائيل، خصوصاً الأميركية والبريطانية. ودعتها أيضاً إلى التقشف في حياتها، وإلى مد يد المساعدة لإيواء المشردين والنازحين والمهجرين. وطلبت من رجال السياسة والفكر وأساتذة الجامعات المشاركة في حملات التوعية، وحثت رجال الصحافة والإعلام على القيام بالدور المطلوب منهم في دعم المعركة. واقترحت في هذه المناسبة إقرار ضريبة تخصص لتمويل حملات الدفاع عن لبنان.

ولوحظ في كتابات أخرى، أنها تعرضت فيها للحوادث العربية المتتابعة، ومنها الأحداث اللبنانية التي توالت بعد حرب حزيران/يونيه١٩٦٧، والإفرازات العقائدية والفكرية التي أحدثتها على الساحتين العربية عامة واللبنانية خاصة، والشروخ التي بدأت بالظهور من جرائها. وقد كانت هذه الكتابات بمثابة الدليل؛ على أن الأيام القادمة سوف تكون قاسية وحبلى بمفاجآت كثيرة. فسارعت إلى التنبيه بواسطتها من الأخطار التي كانت تتوقعها. كما قامت ترشد إلى السبل؛ التي كانت تعتبرها كفيلة بتلقي الضربات بأقل الأضرار. وقد تأتى لها ذلك بسبب الإلمام بدقائق الأحداث، التي توافرت لها بالدراسة المعمقة، لسبر أغوار التاريخ واستنتاج ما قد تحفل به الأيام من أحداث.

ويمكن الإشارة من خلال هذه الأمور، إلى إن المؤرخ المدرك لمغازي التاريخ، ومنعطفاته الدائمة، والمدرك لمعانيه الماضية من خلال ربطها بالحاضر استشرافاً للمستقبل، أنه قد تتبدى له بديهيات الزمن القادم؛ لذلك لو تنبه اللبنانيون إلى معاني «التربية الواعية منذ الصغر» التي دعت إليها زاهية قدوره، وتحدثت عنها، لأمكن التنبه والحذر من الأحداث الكثيرة التي عصفت بلبنان ابتداء من العام ١٩٧٥ وما قبله.

وفي سبيل اليقظة من المستقبل، فقد أعلنت وبكل صراحة وجرأة: «أن الهوية

الصريحة التي ارتضيناها لأنفسنا هي الهوية اللبنانية العربية دون مواربة». وفي مقالة لها تحت هذا العنوان دعوة إلى ما يشبه الثورة البيضاء، فقالت: «إنها هوية نتمسك بها ونتحمل كل النتائج التي تنجم عنها، راضين غير مكرهين.. والثورة الحقيقية التي نريدها هي ثورة البقاء، لا ثورة الهدم والخراب، ثورة التعايش والتفاعل، ثورة التنظيم والتطوير، لا ثورة التعصب والتمسك بالأفكار الغريبة عن شخصيتنا وحقيقتنا وواقعنا. الثورة الفكرية والثورة التربوية لخلق مواطن واحد، لا متعدد، متشعب، موزع..»[١٣٧].

إن المؤرخ الذي لا يهمل قضايا وطنه الاجتماعية والسياسية، ويدعو إلى مجابهتها قبل حصولها، يكون حريصاً بذلك على تدعيم وحدة بلده الوطنية، وعلى شد روابط ووشائج المودة والقربى فيما بين مواطنيه. وليس بمستغرب في هذا الإطار، الدعوة التي أطلقتها لقيام « التربية الواعية منذ الصغر»، وبث الشعور بالطمأنينة في نفوس اللبنانيين، بدلاً من التعلق بالمادة وبالظواهر البراقة، التي أدى التحلق حولها إلى التفرقة والتناحر. وهي غالباً ما كانت تدعو إلى « تعلقنا بالقيم العليا وليس بالقيم الزائفة»[١٣٨].

ليس بوسع الدراسة التوقف عند جميع محطات النضال السياسي التي خاضتها زاهية قدوره. كما ليس بالإمكان ذكر بعضها، والتغاضي عن بعضها الآخر، نظراً لتأثيرها وتداعياتها في حياتها. إلا أن النقاط السياسية المهمة في مسيرتها، هي الجديرة بالبحث والمتابعة، لتظهر الحجم الذي كان عليه فكرها السياسي، من حيث القدرة على استقراء وقائع الأحداث، ودراستها وتحليلها، واستخلاص العبر والنتائج. فضلاً عن توضيح الأبعاد السياسية التي تمتلكها في ممارساتها وعملها. إذ تبين أنها مارست في بعض الفترات، العمل الإداري من منطلقات سياسية، كما لوحظ قبلاً أنها سلكت سبيل التربية والتعليم، في وقت كانت تحث فيه الخطأ على تقلد منصب سياسي بقالب ثقافي.

إن دراسة محطات من نضال زاهية قدوره السياسي ليس بالعملية اليسيرة، خصوصاً أنها لم تسع لتسلم منصب سياسي، إلا أنها كتبت في السياسة أكثر من أي شخص آخر اتخذها حرفة له. غير أن البحث حول مساراتها السياسية العديدة تحتاج إلى جهد مضاعف، وإلى جهود أكثر من شخص واحد، يفي الموضوع حقه من العمق والمتابعة والشمول.

٩ ـ تأثير أحداث العام ١٩٧٥ في حياة زاهية قدوره وفكرها

مع بداية أحداث العام ١٩٧٥ انطلقت مجموعة من النظريات والشروحات، تحلل الأسباب، وتفسر الدوافع الخفية التي أدت إلى قيامها. فجالت حول دوافعها،

ودرست احتمالات مخاطرها. منها ما كان بعيداً عن المنطق والواقع، وجانب بعضها الحقيقة في كثير من الأحيان، من دون الوصول إلى توضيح الخلفيات الحقيقية لها، وفق المفهوم التاريخي لنشوئها.

وكانت صحيفة الأنوار قد قامت تستطلع آراء بعض القادة والمفكرين والمثقفين التربويين، حول الأسباب التي أدت إلى قيام الأحداث في لبنان. فمنهم من ربطها بعوامل خارجية وآخرون ربطوها بأسباب داخلية، وفريق ثالث قال بالاثنين معاً، وأتفقوا في أغلبهم على أن دوافعها كانت حاجات اقتصادية.

أما زاهية قدوره فقد جاءت إجابتها على أسئلة الجريدة في منتهى الصراحة، تجلت في قوة منطقها وسلامة تفكيرها. كما في بعد نظرها وتحليلها للأحداث، التي ظهر فيها ما يدفع إلى الظن، أنها كانت على معرفة ما بدقائق الأمور، من خلال اللمحات التي ظهرت في كلامها عندما قالت: « ليس من شك في أن هذه الأحداث لها جذور عميقة وراسخة ترجع إلى العهد العثماني ثم الانتداب، وقد جاء الاستقلال ولم يتم العمل على استئصالها أو مداراتها. ولم يحاول إيجاد الحلول الواضحة لها. إن الأزمة في لبنان أزمة اجتماعية اقتصادية، وبالتالي أزمة طبقية. وأزمة فئة من المواطنين أصبح لديهم من الوعي والتفهم ما جعلهم ينادون بمواطنيتهم»[١٣٩].

إضافة إلى ذلك، وجدت دراسات وأبحاث تطرقت فيها إلى هذا الموضوع. جاء في إحداها أن الأحداث التي مرت على لبنان حتى من قبيل عهد الاستقلال، ذات جذور طائفية مغلفة بقوالب اجتماعية واقتصادية وطبقية. فأزمة عام ١٨٦٠؛ وإن دعاها بعضهم بثورة الفلاحين، نتجت – في غالب الظن - عن ظلم طبقة لطبقة أخرى، فضلاً عن أن جوانبها ذات جذور طائفية[١٤٠]. وكذلك الأمر بالنسبة لثورة ١٩٥٨ الشعبية، وإن كانت ذات منطلقات سياسية، إلا أن رياح الطائفية سرعان ما هبت على بعض فصولها.

إن أحداث العام ١٩٧٥ من خلال متابعة مكوناتها الطائفية، يلاحظ كيف أنها أدت إلى تفاعلاتها الدراماتيكية. ففي بلد مثل لبنان معروف تكونه الديموغرافي، لا عجب أن تعصف به رياح الأحداث الطائفية بين الحين والآخر. هذه هي النقطة المهمة، التي كانت وما تزال تدفع بالعناصر الخارجية، على استغلال العوامل والظروف المختلفة لإشعال فتيل الحرب في لبنان.

إن سبب نشوء الأزمات في لبنان كما كانت تعتقد، مرتبط بدوافع طبقية،

مجبولة بعوامل طائفية داخلية، خصوصاً في غياب أي إحساس وطني، أو شعور قومي، بالانتماء إلى وطن واحد موحد لجميع بنيه. لذلك نهضت إلى التنبيه لتدارك هذه العوامل، وإلا فإن لبنان سيبقى يعاني من الأزمات المتواصلة « ولو كان اللبنانيون يداً واحدة وقلباً واحداً، وتفكيراً واحداً ولو كان لهم هوية واحدة لا ازدواجية فيها ولا في الشخصية، لكانت الأمور على غير ما نحن عليه»[١٤١].

ومنذ أن قامت تكتب في السياسة؛ لم تتقاعس يوماً عن حث اللبنانيين على التوحد لبناء هذا الوطن، بعيداً عن التعصب وعن الممارسة الطائفية. وطالبت بالتعصب والتطيف للبنان الذي أقامه الآباء والأجداد، ليكون عنواناً عريضاً للوحدة الوطنية. فاللبنانيون القدماء الذين اتفقوا على اللقاء تحت لواء الوحدة العربية، كانت مطلباً مسيحياً قبل أن تكون حلماً إسلاميا، خصوصاً وأن العروبيين الوحدويين الأوائل كانوا في معظمهم من النصارى قبل أن يعاضدهم المسلمون.

ليتحقق ذلك بكل تجرد وموضوعية، قالت أنه: «علينا أولاً أن نحرر أنفسنا من العصبيات المتعددة، العصبية القبلية، والعصبية العشائرية، والعصبية الطائفية، والعصبية الإقليمية، وغيرها من العصبيات السلبية المؤذية المخربة، وتحل محلها العصبية للوطن الواحد. العصبية للمواطنية الحقة، العصبية للأخوة الأبدية بين أبناء الوطن الواحد، وبالإجمال علينا أن نحرر ذاتنا من ذاتنا»[١٤٢].

هل صحيح أن منشأ الأزمة في لبنان هو نتيجة لكل هذه العصبيات التي ذكرتها زاهية قدوره ؟ يمكن أن يكون ذلك صحيحاً من ناحية التكوين الجيوسكاني والجيوسياسي والجيوطائفي للبنان. ولكن توجد مقولات ودراسات غلبت الناحية التاريخية، واعتبرت من العوامل المهمة التي كانت تساهم بشكل أو بآخر في قيام الأزمة، لا بل الأزمات الطائفية في لبنان، التي كانت تؤدي إلى المنازعات العسكرية.

أشارت إلى هذه التداعيات، ووجدت أنها تتمثل في التمايز الاجتماعي والتفاوت الاقتصادي، وقيام هوة تعليمية وثقافية سحيقة بين المواطنين، وساعد الأجنبي والمستعمر على تعميقها في النفوس وحتى في النصوص، مما خلق «حقداً بين المواطنين، وغربة في تفكيرهم وبعداً في مستوياتهم، فنتج عن ذلك لبنانان وعقليتان، وتضارب في الهوية والانتماء، واختلاف في تحديد المصير، ونتج عن ذلك أيضاً أزمة ثقة. وأصبحت فئة تشعر أنها مغلوب على أمرها غاضبة حاقدة، وأخرى قلقة من قلب الموازين وضياع

الامتيازات، وهذا ما خلق الانقسام الطائفي الذي لم يكن أصيلاً، ولكنه مفتعل بعد أن رسخه الأجنبي، ودعمته العقليات العفنة..»[١٤٣].

وظهرت في إحدى الدراسات حيرة زاهية قدوره واستغرابها حيال هذا الموضوع، عندما تساءلت عن كيفية قيام المستقبل السليم والصحيح، والمرتكز إلى الجذور التراثية الروحية والقومية، خصوصاً في ظل الأجواء غير الوفاقية، وفي حمأة النفور القائم بين اللبنانيين حول وحدة تراثهم، ومنشأ قوميتهم ؟ وقبل هذا وذاك في عدم اتفاقهم على تدريس تاريخ موحد، تلتف حوله الأجيال القادمة.

لذلك قامت تحث اللبنانيين على التوحد، وتدعوهم إلى الترفع عن الطائفية الوضعية، والتسلح بأديان الله السماوية ورسالاته، بغض النظر عن أن الدين هو الجامع بين البشر تحت قوس المحبة والأخوة الإنسانية. وكانت ترى أنه علينا في لبنان، أن نمارس طقوس ديننا بعيداً عن الطائفية، لأنه متى تم ممارسة الشعائر الدينية بتعصب، فمن شأن ذلك أن يقود إلى التفرقة والتقاسم، وسلوك دروب التعصب والمذهبية. لذا طالبت بممارسة الطقوس الدينية بطريق سليمة، نقية من أي شوائب، وبأن لا تحل الطائفية فيها في موقع الدين. بمعنى آخر، كانت تشير إلى أن اجتماع الإنسان المسلم بالإنسان المسيحي، هو قمة الاجتماع الإنساني في لبنان. أما إذا تمترس المسلم وراء طائفته، والمسيحي وراء دينه وطائفته، فإن ذلك سيقودهما إلى الهاوية السحيقة. ومن هنا نادت بضرورة قيام المسيحي الكامل، والمسلم الكامل، ليتمكنا بكمالهما من القضاء على جميع المتناقضات، وإحلال الحب والوئام والألفة فيما بينهما.

وعندما استرسلت في بسط رؤيتها وطرح تصورها لحقيقة لبنان الروحية، رأت أن لكل إنسان جذوراً لا يستطيع أن يعيش منفصلاً عنها. لذلك طلبت قيام لبنان بالدفاع عن كيانه ولغته وانتمائه وتراثه. وفي ذلك عودة للبنان «إلى أصالته العربية وقيمه العظيمة، أوليس هو من شارك في وضع تلك الحضارة ؟» . أرادت أن تنفي عن لبنان فئويته، بمعنى أنه بلد ليس لأناس دون آخرين، فهو وطن للجميع وليس مأوى لهم، ومواطنوه يجب أن يكونوا متساوين في الحقوق والواجبات، كما في السيادة والاحترام، لا فضل لفئة منهم على أخرى؛ إلا بمقدار ولائها وإخلاصها وعملها في سبيل لبنان.

أضافت، يجب أن لا ينسينا ذلك، الهوية المميزة للبنان وهي العربية «فهي تراث ومصير، وانتماؤنا إليها أصيل وعريق، فلا يمكن الانسلاخ عنها، فهي محبة

وخير لنا وموضع فخر واعتزاز، وليست مجال ارتزاق..». وتساءلت: «لماذا هذا التخلي اليوم عن هذا الانتماء، ومحاولة الاستعاضة عنه بالانتماء إلى جذور فرعية..؟». السبب كما رأته نتيجة للمواقف المترددة التي ظهرت من هنا ونتأت من هناك. أما عندما نادى الدستور بلبنان ذي وجه عربي، ظهر حرجها من ذلك، بسبب الإبهام واللغط الذي رافق هذه الطروحات[١٤٤].

وعندما سألتها صحيفة الأنوار: «طالما أن الوضع حسب ما أوضحته في كلامك وأفكارك، التي اطلعتنا على أشياء منها، ما هو في رأيك العمل المطلوب للتغلب على الأزمات المتمادية للبنانيين»؟.

لم تعط جواباً مباشراً حيال هذا الأمر، بل أبدت عندها رغبة قوية لتهدئة الأمور. لذلك قامت بدعوة بعض الشخصيات اللبنانية، التي تتمتع بمراكز حساسة، وتملك نفوذاً كبيراً، بالإضافة إلى نخبة من رجال السياسة والاجتماع وأساتذة الجامعات في لبنان، للقيام بجهود كبيرة لإشاعة المحبة والألفة بين اللبنانيين. لأنها تعتقد أنه متى تحققت هذه الأمور؛ سوف تتم دراسة الأسباب والعوامل المؤدية إلى قيام النزاعات بين اللبنانيين، وإيجاد الحلول الكفيلة بحلها.

كانت تمثل هذه النقطة المحورية في هذه الجدلية الاجتماعية في نظر زاهية قدوره، تحقيق الأمن والسلام والطمأنينة بين المواطنين، والاتفاق على إبراز هوية لبنان العربية بصورة نهائية، من دون خوف أو مواربة أو مسايرة، والاعتراف النهائي بانتماء لبنان إلى محيطه العربي وجذوره القومية.

كما لم تنس الإشارة إلى ضرورة إيجاد حلول للنقاط المسببة لقيام الأزمات المتفرعة. كوضع دراسات لتنمية المناطق اللبنانية النائية، ومدها بالعناية اللازمة واعتبارها من مشاريع الدولة الحيوية، ومساواة أبنائها بغيرهم من أفراد المجتمع اللبناني، واعتماد الكفاءة والإخلاص في التعيينات الوظيفية والإدارية[١٤٥].

وتتضح بذلك، أهمية المعاني السياسية والاجتماعية، المغلفة بقوالب إنسانية، التي عملت زاهية قدوره على تحقيقها وتنفيذها. فدعوتها إلى المحبة والألفة والتكاتف بين اللبنانيين، رسالة حملتها منذ أن وعت الحياة السياسية والاجتماعية، طريقاً للخدمة العامة. كما أن نبذ التقاتل والعنف، شعار من الشعارات التي ناضلت من أجل تحقيقها. فضلاً عن أن إيجاد حلول للمشاكل التي يعاني منها الإنسان كانت هماً من همومها.

وكذلك تطوير وتحديث البرامج والمناهج التعليمية، كانت من الإنجازات التي عملت على وضعها، لإيجاد الإنسان اللبناني المثقف والمتطور، ومواكبته لأحدث الأساليب العلمية والتربوية. كذلك الأمر بالنسبة إلى المناداة بعروبة لبنان بصورة نهائية، التي كانت حلماً خاضت لتحقيقه معارك كثيرة.

إضافة إلى هذه العوامل، يلاحظ أن زاهية قدوره ردت عوامل قيام الحرب اللبنانية، إلى الإهمال والحرمان اللذين أصابا فئات مختلفة من اللبنانيين. فنشطت بدعواتها لمحاربة القائمين عليهما بسلاح تحقيق العدل والمساواة؛ واعتماد الكفاءة قبل أي شيء آخر. كما كانت تدعو باستمرار لتحقيق الوحدة الوطنية، وقيام الوحدة الإيمانية للتوحد في الصلاة والتعبد لإله واحد أحد. وكانت تحث على اتباع سنن الفضيلة، والتسلح بالكرامة والذات الوطنية، والمحافظة على الأصالة والوجود والكيان. وقالت في إحدى توجهاتها: « لنرفع دوماً شعائر الإنجيل والقرآن لنبني لبناننا الجديد، عدالة وكفاية وكفاءة بمحبة وإخاء، ولنسِر إلى الأمام، فقد سبقنا العالم أشواطاً، فها شواطئنا تبكي الأبجدية، وذا الأرز أخنى الهمام حزناً واكتئاباً، وتلك ذخائر الفكر بللت دموعها بطون المصادر والمتون أسفاً والتياعاً..وها نحن في ضياع، فلتتشابك الأيدي سلاماً وتتعانق القلوب وئاماً، فإن الأمل ما مات بعد، ولبنان الجريح ينتظر الخلاص، ولا خلاص لنا إلا بالعودة إلى الله، والإيمان بإنسانية الإنسان»[١٤٦].

في جلسات متتابعة مع زاهية قدوره، كانت تظهر الخوف على مستقبل لبنان، وتعرب عن القلق على مستقبل أجياله، بسبب الممارسات السيئة والأداء غير المتزن، من بعض الأشخاص الذين استلموا مقدرات البلاد السياسية والاجتماعية، وتسببوا بسيطرة المناحي والاتجاهات الخاطئة، التي أدت إلى الكوارث والحروب، التي وقع فيها لبنان.

وبنتيجة ذلك فقد أمكن التعرف على نظرتها إلى لبنان الجديد الذي كانت تريده. وهي نظرة وجدانية وإنسانية، تمحورت حول النقاط التي غالباً ما أشارت فيها، إلى أن موضوع لبنان الجديد استهلك بحثاً ودرساً وتنظيراً، والمطلوب قبل كل شيء، الرغبة والاستعداد للتعبير والتطوير، بالنسبة لجميع الفرقاء[١٤٧].

لذلك طالبت بتوافر عدد من الثوابت، منها: أن يكون لبنان وطناً لبنانياً عربياً، ديموقراطياً، حراً، سيداً، مستقلاً، سائراً في طريق النمو والتطور والتقدم العالمي. وأن تكون عروبته عروبة الهوية والانتماء، لا عروبة النفط وأسواق المال والمتاجر والمصارف. فضلاً عن ذلك، على لبنان الجديد الذي طالبت بتحققه، أن يكون وطناً لجميع أبنائه، يقوم

على العدالة والمساواة في كل صعيد، سواء بالنسبة للأفراد والمناطق والمؤسسات العامة والخاصة. وأن تسود فيه وطنية المعرفة، التي تفرض توحيد مصادر المعرفة وتنميتها وتوحيد اتجاهاتها، من خلال نظام تربوي مدرسي أولاً، وجامعي ثانياً. وتوحيد وسائل الإعلام بما يفرض الأمن الثقافي، ويخلق مناخاً فكرياً واجتماعياً ووطنياً سليماً.

ومن أجل قيام لبنان الجديد، طالبت بسقوط شعار التعددية فيه، ومحو الكلمة من القواميس والمعاجم، لأن المجتمع اللبناني؛ مجتمع موحد في تراثه وعاداته وتقاليده، والفروقات الموجودة بين الجماعات والمناطق، تعود للتمايز في المعاملة وإعطاء الفرص للأزلام والمحاسيب، وهي على كل حال قابلة للتوازن؛ فيما لو تساوت الفرص والفروقات في حال وجودها، ويجب أن يكون « التنوع في إطار الوحدة» ، على أن تكون التعددية؛ تعددية التكامل لا الصراع والتنازع، لا تعددية طائفية مبنية على العصبية والتعصب.

كما طالبت بتوضيح العلاقة بين العروبة والإسلام، لأن العروبة في تاريخها وجذورها وواقعها وحقيقتها، هي الرابطة القومية ورابطة الانتماء المترفعة عن المذهبية والطائفية والإقليمية، وهي متسامية عن كل عصبية سلبية يتساوى من ضمنها الجميع. بينما الإسلام هو عقيدة دينية للمسلمين، وتراث حضاري للمسلمين والمسيحيين معاً. والعروبة التي طالبت بها، هي العروبة المتمثلة بانفتاح فكري وثقافي وسياسي، بين المسلمين والمسيحيين، بروح أخوية والاعتراف بالآخر، وبشراكته التاريخية، وبالمصير المشترك، وسيطرة القيم الإنسانية على العروبة الصافية والنقية التي تجمعهما.

غير أن زاهية قدوره المؤمنة إلى أقصى درجة، المتدينة بلا تعصب، طالبت باستبعاد فكرة العلمنة عن لبنان الجديد، فالعلمنة – كما كانت تعتقد - صيغة تعجيزية ووسيلة تهويل، يجب الاستعاضة عنها بإلغاء الطائفية السياسية، وبالعدالة والمساواة على أساس الكفاءة. ورأت أخيراً، أن على لبنان المرتجى أن يتعاطى مع المرأة اللبنانية بطريقة أكثر جدية، وأن يصار إلى إشراكها في موقع القرار، لا أن تكون على هامش الأحداث الهامة، فالمرأة المثقفة كالرجل المثقف، يجب أن تلعب دورها بجدية، والمرأة الغبية كالرجل الغبي؛ لا مانع من تغييبها وإسقاط دورها واستبعاد وجودها[١٤٨].

١٠ ـ موقف زاهية قدوره من تقسيم الجامعة اللبنانية عام ١٩٧٧

إختلطت طروحات زاهية قدوره السياسية بتطلعاتها التربوية وخططها التعليمية، التي حاولت تطبيقها على طلابها في الجامعتين اللبنانية وبيروت العربية. غير أن ما كان يقلقها ويؤرق فكرها، هو وضع الجامعة اللبنانية، التي كانت تخشى

عليها من العواصف السياسية والأنواء، التي كانت تذر بقرنها من حين لآخر. فكان لها في سبيلها، سلسلة مواقف ودعوات؛ لصيانة هذا الصرح العلمي من عبث السياسة، وسلبية الممارسات الطائفية والمذهبية.

كانت الجامعة اللبنانية بالنسبة إليها، واحدة من المؤسسات العلمية والتربوية التي أفقدتها حرب العام ١٩٧٥ طاقات كثيرة من حيويتها ونشاطاتها، عبر توقف دورتها التعليمية والأكاديمية والإدارية، بسبب تفاقم الأوضاع الحربية والتقاتل، الذي أدى إلى الحد من التواصل بين أجزاء الوطن وإلى صعوبة التواصل في المنطقة الواحدة، مما كان ينتج عنه قيام دعوات متعددة لفتح فروع ثانية، لكليات الجامعة اللبنانية؛ الذي كان مقدمة لتقسيمها.

رفضت هذا المشروع عندما طرحت فكرته الأولى، انطلاقاً من إيمانها القوي بأن الجامعة الوطنية الموحدة، هي التي ترسي دعائم السلام والمحبة بين المواطنين، وتعزز الروابط الوطنية بين الطلاب، وتلهم الشعب اللبناني على أن يكون قلباً واحداً تجاه الأزمات. كان هذا موقفها من تقسيم الجامعة اللبنانية. وقد عبرت عنه في البيان الذي أصدرته بعد توقف أحداث عام ١٩٧٦، وركزت فيه على أهمية الجامعة اللبنانية في بناء لبنان. فقالت: « كانت الجامعة اللبنانية ولا تزال، تسعى لأن تكون معلماً من معالم لبنان الحضارية، التي رسخت دوره الرائد في خدمة قضايا المجتمع والإنسان. ولعل استقراء التاريخ، يؤكد ما للجامعة اللبنانية؛ من أهمية بالغة في تنمية أواصر المحبة، وتعزيز الروابط الوطنية بين أبنائها، فلا طائفية تفرق ولا حزبية تبدد، بل علم يصون، وولاء للوطن وقيمه الحضارية؛ تشدهم بعضهم إلى بعض، بروح المسؤولية المجردة، والوعي الوطني السليم. إن اللبنانيين، رغم الكارثة الوطنية التي ألمت بهم، عليهم توجيه كل الإيرادات الخيرة إلى ميادين البناء، وتجاوز عوائق الخوف وهواجس المجهول، بكل ثبات وعناد، لئلا يأتي يوم نكون في ذمة التاريخ أناس هدم وتدمير، وقد كان الآباء والأجداد أباة خير وتعمير..»[١٤٩].

يلاحظ من كلامها، أنها لم توجه اللوم إلى أحد، بل حمّلت الجميع مسؤولية الأمر، وحثتهم على قيامهم بواجباتهم إزاء المحنة. من ذلك مثلاً، قولها: « ولعل الجامعة اللبنانية بكل فروعها، إدارة وأساتذة وطلاباً تتحمل مسؤولية كبرى في مسيرة البناء والسلام، وقد آن الأوان لأن نبدأ حياتنا العادية الطبيعية، أخوة متحابين ورفاق درب

ومصير، نأتلف بالخير، ونتوحد بالحب والولاء للبنان الواحد شعباً وتراباً»[١٥٠].

وفي تكريس دعوتها للمحبة، أطلقت ما يشبه الصرخة بأن الجامعة اللبنانية الوطنية؛ لن تتخلى عن أي واحد من أبنائها، بل هي تحث الطلاب والأساتذة للعودة إلى جامعتهم التي عاشوا فيها ردحاً من الزمن، فقالت: « إن الجامعة اللبنانية، الجامعة الوطنية الأم، هي لجميع اللبنانيين دون استثناء، يسعدها مجدداً أن تحتضن أبناءها الأبرار، بكل شوق وحنان .. إن العودة إلى رحاب العلم، وفاء وولاء، وفاء للجامعة وولاء للبنان، ولرسالته الحضارية الرائدة .. »[١٥١].

هذه لمحات من مواقفها السياسية التي تصدت فيها لتقسيم الجامعة اللبنانية، مما تسبب لها بمشاكل كثيرة، سواء أكان ذلك بطرق مباشرة أو غير مباشرة. وتحملت من أجل قناعاتها السياسية والتربوية، صعاباً كثيرة وضعت في طريق مسيرتها، بإيحاء من قبل بعض المسؤولين عن الجامعة اللبنانية آنذاك، أو من قبل بعض العناصر التي كلفت بالتصدي لطروحاتها ومبادئها. وقد نشأت هذه الممارسات السلبية بوجهها لإجبارها على التراجع عن دعاويها وشعاراتها.

غير أن الدكتورة التي عرفت بجرأتها وصلابتها تجاه القضايا المصيرية المتعلقة بوطنها وبجامعته الوطنية، لم تكن تقبل حيال مستقبلهما وتطورهما، أي مناقشة أو جدال. لذلك كانت صلبة في مواقفها، عنيدة في كلماتها وقلمها، شجاعة في طروحاتها المعادية لتقسيم لبنان وجامعته.

وكان لها في الفترة التالية من عمر الحرب، ما بين ١٩٧٥ – ١٩٨٢، مواقف سياسية كثيرة، سواء ما كان منها متعلقاً بمؤسسة الجامعة اللبنانية، التي أصرت رغم ظروف الحرب السيئة على بقائها جامعة واحدة للوطن الواحد، أو بالنسبة إلى وحدة اللبنانيين، التي كان يجب أن تبقى في رأيها فوق كل الحساسيات، ومنزهة عن العصبيات الطائفية. لذلك نددت بما كان يحصل في تلك الفترة، من صدامات ومعارك، وقامت بالتصدي لها مع جمهرة من المفكرين والمثقفين والسياسيين، عن طريق الكتب والبيانات والتقارير التي اصدروها ضد الحرب، وأعلنوا سخطهم عليها وعلى المشاركين فيها، إلى أي فريق انتموا.

١١ – أثر الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ في فكر زاهية قدوره السياسي

تميزت بصيرة زاهية قدوره بإستشراف المستقبل، والقدرة على توقع الأحداث قبل حصولها. وهو ما حصل معها عندما توقعت بعض نذر العواصف التي كانت تهب على لبنان من حين لآخر. ومنها الغيوم التي راحت تذر بقرنها من بعيد، وكانت تراقب أخطارها، نتيجة مواكبتها الدقيقة للأحداث وتحليل مجرياتها، لطغيان العوامل السلبية على تطورات الأحداث المحتملة يوماً بيوم.

فظهر في كتاباتها ومؤلفاتها في تلك الفترة، ما كان ينم عن تشاؤمها وخوفها من تلبد الأوضاع السياسية والأمنية في العام ١٩٨٢، التي كانت تلاحظ نذرها القادمة.

وقامت بالإشارة إلى هذه التوقعات في بعض المناسبات، عن طريق التلميح إليها من أجل إيقاظ الإنسان اللبناني وتنبيهه، إلى ما يتهدده من أخطار، من غير أن تثير في نفسه الخوف والرعب، وليكون يقظاً من الأحداث التي تدور من حوله. أرادت قول الحقيقة مرات عديدة، ولكنها كانت تصطدم بعامل الخوف والذعر عند الناس. لذلك لجأت إلى الكتابة للتعبير عن الخوف الذي كانت تشعر به من جراء تسارع الأحداث، خصوصاً وقد طُلب منها أن تكون تعبيراتها لمحات عابرة.

وعندما كانت تفتش عن وسيلة أخرى لتعبر بها عن مشاعرها، كانت تصطدم بعامل الخوف النفساني عند الناس، لذلك فضلت أن تطرح الصوت إلى الوحدة والتآلف والمحبة، علّ الناس تأخذ من دعوتها إلى المحبة؛ عنواناً للتضامن، ومن دعوتها للتآلف والوحدة؛ عنواناً لإيقاظ الضمير الوطني في نفوس اللبنانيين .

ووجدت متنفسها أخيراً، في مجلة الصياد التي طرحت عليها سؤالاً مزدوجاً: « أي جمهورية، وأي رئيس تريدين أن يحكم لبنان»؟

عرفت زاهية قدوره بصدقها مع نفسها ومع غيرها، فلم تجامل أو توارب؛ في الإجابة. وطلبت من المجلة أن تنقل صدق كلامها المعبر عن حقيقة تطلعاتها، وقالت بأنها تريد جمهورية: « تمثل لبنان الحقيقي بجميع فئات شعبه وإرادتهم. أريده جمهورية لا فوقية، لها اهتمام وطني، لأننا افتقدنا معنى الوطني في بلادنا، وهذه من أهم أسباب الثورة الوطنية، ومن أسبابها أيضاً عدم ارتباط المواطن ببلده وأرضه..»[١٥٢].

ظهر في كلامها مثالية موضوعية، فحملت المسؤولية بروح وطنية، ودعت

كل من ينهض لتحمل ذلك إلى التحلي بالضمير الوطني، فقالت له: « ... على كل مسؤول أن يشغل ضميره، ويحاسب نفسه، لكي يصل إلى تحديد ذاته، وراحة ضميره، وتحرير الذات صراع بين الضمير والنزوات، ولا بد للضمير في النهاية أن ينتصر. نريد الجمهورية اللبنانية المبنية على العدالة والمساواة، وعلى وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، جمهورية مبنية على الكفاءة، فالوطن حق يؤخذ وحق يعطى. والرئيس يجب أن يكون لكل لبنان، قوياً وشجاعاً لكي يحافظ على أصالة هذا الوطن وعلى انتمائه العربي»[١٥٣]. كانت هذه عينة من الشعارات التي رفعتها قدورة وأعلنتها منذ بدء مسيرتها، وكانت تعيد التذكير بها في كل مناسبة، كانت ترى فيها ضرورة الدعوة إلى المحبة والأخوة والوحدة الوطنية.

كانت دعوة لتنبيه العقول وإيقاظ النفوس، واستصراخ الضمائر، للمطالبة بجمهورية أقرب ما تكون إلى المثالية. قد تكون الجمهورية الكلاسيكية المطلوبة، لا ثورية ولا عقائدية، والجمهورية الحقيقية التي طالبت بها هي جمهورية الوطن لكل أبناء الوطن، جمهورية يجب المحافظة عليها؛ ببذل الغالي والنفيس. وكأنها أرادت القول، أيها اللبنانيون انتبهوا إلى جمهوريتكم مما يحاك لها وما يدبر ضدها. فلحوظت خشيتها عليها، التي كانت نابعة من الفوضى، التي تتسبب في ضياعها. ويمكن أن تكون زاهية قدوره قد بالغت في هذا الأمر، إلا أن خوفها على أبناء جمهوريتها كان كبيراً، ربما أكبر من العواصف القادمة .

لم تكن العواصف القادمة التي كانت تحذر منها، سوى إعصار الاجتياح الإسرائيلي الذي تم في حزيران/ يونيه عام ١٩٨٢، الذي شعرت بخطره القادم، من دون أن تتمكن من إدراك حجمه الحقيقي.

وقامت من أجل ذلك بخطوات عديدة للتحذير منه، إذ تم العثور في أرشيفها على إشارات مختلفة من تلك المحاولات سواء بالكتابة أو بإلقاء المحاضرات، فضلاً عن أحاديث ولقاءات كانت تحذر فيها من المخططات الصهيونية. كما عملت على تنبيه طلابها من المصاعب التي كانت تتربص بمستقبلهم، من دون أن ترعبهم. وقد ركزت خطواتها من خلال استثارة أحاسيسهم بوطنيتهم، وتحفيز مشاعرهم القومية؛ على التوحد لمواجهة الاحتمالات القادمة.

كان للاجتياح الإسرائيلي على المناطق اللبنانية، وخصوصاً العاصمة بيروت،

تأثيرات بالغة في نفسها معنوياً واجتماعياً؛ مما ترك فعله المباشر على أنشطتها المختلفة. وبالرغم من ذلك، فإن هذا الزلزال لم يفقدها إيمانها بقدرة بلدها، ولم يحد من اندفاعها وعملها الدؤوب في سبيله[١٥٤].

عثر في أرشيفها على بطاقة، دونت عليها بعض الوجدانيات التي شعرت بها، وعاشتها نتيجة معاناة بيروت، بسبب ما أصابها وما وقع فيها من أهوال وأحزان. وعنونت أعلى البطاقة بكلمتين هما: « بيروت حبيبتي». ثم قالت:

« أحيي البطولة الكامنة فيك، وفي مواطني بيروت العزل من السلاح،

« بيروت التي رفضت حمل السلاح، إلا باتجاه العدو الصهيوني،

« لم تنحنِ هامتك،

« عشت في قلب المعركة معك، ولم أتركك وحدك يوماً واحداً،

« إن الذين تركوك وهاجروا، ذاقوا مرارة الغربة والوحشة، ولم يجدوا عنك بديلاً، إنهم حيارى، ضياع في أصقاع الأرض،

« شاركتك هول كل قذيفة في كل شارع، وفي كل حي، وفي كل زاروب وقد ولد من رحمك، الناس الأبطال،

«دفعت الجزية والفدية والشهادة، من أجل كل العرب والعروبة،

«أحبك يا بيروت، أشتاق إليك،

«إنك في العقل والقلب والوجدان،

«إنك حملت همومنا وقضايانا، وقضايا العرب على كتفيك، وفي قلبك وقلمك وعقلك،

«شوارعك تتجول فيها المرتزقة والعملاء،

«أنا لا أرثيك يا بيروت، يا إشراقة الروح،

«إنك المدينة التي لا تمحى من الذاكرة،

« مدارسك، جامعاتك، نواديك، أهاليك.. ،

«لا تخبو الذكريات التي غرست في الضمير» [١٥٥].

إنها مناجاة نابعة من روح زاهية قدوره، التي عبرت بها عن نفسية تعبة في تلك اللحظات، نفسية معذبة من الجراح التي أثخنت بها بيروت. كان في كلماتها تعبير عن نفس قلقة، على مصير البلد، المهدد من قبل طاغية أرعن.

وسط هذه الأوضاع المأساوية التي عاشتها بيروت في تلك الظروف، فضلت

زاهية قدوره أن تبقى قريبة من الحدث، بل في قلب الحدث، وأقنعت جميع الذين كانوا يتصلون بها، أنه ليس باستطاعتها ترك بيروت والخروج منها، مهما تعقدت الأمور وأحدقت بها المخاطر.

لم يكن مستغرباً منها هذا الموقف، لأنها كانت تريد متابعة جميع الأحداث لحظة بلحظة، كما كانت تريد ملاحقة مواقع الإصابات، سواء المادية أو المعنوية، التي كانت تحل بالأشخاص أو بالممتلكات. كما شاركت بفعالية في الاجتماعات المكثفة؛ التي عقدت لتنظيم أعمال صمود العائلات والأشخاص الذين وقفوا معها، للدفاع عن بيروت. وأشرفت شخصياً على حسن تصريف، الكميات القليلة من المؤن والمواد الغذائية، بشكل عادل ومتوازن. والأهم من ذلك، قامت مع بعض الجمعيات، بإدخال كميات من الأدوية والمساعدات، التي كانت تحتاجها بيروت ومنعت عنها من قبل القوات الغازية. وكان منزلها مركز استقطاب، العديد من الاتصالات والاجتماعات.

كما أنها لم تتوان أمام المصائب والمصاعب التي كانت تواجهها، عن إجراء الاتصالات المكثفة، مع الشخصيات الوطنية، السياسية والاجتماعية والشعبية، بالدعوة لتشكيل نواة مؤتمر وطني، للتصدي للآثار السلبية الناتجة عن الاحتلال، ومواجهة عدوانيته البشعة والحقودة. وقد لبى الدعوة لعقد المؤتمر عدد كبير من السياسيين والمثقفين ورجال الدين، المسلمين والمسيحيين، الذين طالبوا بجلاء قوات الغزو الإسرائيلي عن لبنان، وفك الحصار العسكري عن بيروت وضاحيتها الجنوبية، كما طالبوا بعودة السيادة اللبنانية إلى جميع المناطق اللبنانية[١٥٦].

جاء في مذكراتها، أن الشخصيات التي اجتمعت تحت شعار « الجلاء العام لقوات الاحتلال الأسرائيلي عن لبنان، وفك الحصار الإسرائيلي فوراً عن بيروت والضاحية، وبسط السيادة اللبنانية على كامل التراب الوطني»، اجتهدوا في إظهار مساوئ وسلبيات الاجتياح، ومنها: «القضاء على صيغة الحياة المشتركة بين اللبنانيين، والهيمنة على لبنان، والقضاء على استقلاله، وجره إلى الصلح، واغتصاب مياهه، وتخريب اقتصاد لبنان القوي، وغزو البلد ثقافياً، وتفجير الأوضاع الداخلية»[١٥٧].

على ضوء ذلك، كانت زاهية قدوره مناضلة وطنية، وداعية سياسية لبنانية، من الناشطين بالدعوة للقومية العربية، وقفت حياتها للدفاع عن قضايا أمتها والحفاظ على مصالح قومها. تحدت الخطر الإسرائيلي، وتصدت للأطماع الصهيونية، سواء

تأثيرات بالغة في نفسها معنوياً واجتماعياً؛ مما ترك فعله المباشر على أنشطتها المختلفة. وبالرغم من ذلك، فإن هذا الزلزال لم يفقدها إيمانها بقدرة بلدها، ولم يحد من اندفاعها وعملها الدؤوب في سبيله[١٥٤].

عثر في أرشيفها على بطاقة، دونت عليها بعض الوجدانيات التي شعرت بها، وعاشتها نتيجة معاناة بيروت، بسبب ما أصابها وما وقع فيها من أهوال وأحزان. وعنونت أعلى البطاقة بكلمتين هما: « بيروت حبيبتي». ثم قالت:

« أحيي البطولة الكامنة فيك، وفي مواطني بيروت العزل من السلاح،

« بيروت التي رفضت حمل السلاح، إلا باتجاه العدو الصهيوني،

« لم تنحنِ هامتك،

« عشت في قلب المعركة معك، ولم أتركك وحدك يوماً واحداً،

« إن الذين تركوك وهاجروا، ذاقوا مرارة الغربة والوحشة، ولم يجدوا عنك بديلاً، إنهم حيارى، ضياع في أصقاع الأرض،

« شاركتك هول كل قذيفة في كل شارع، وفي كل حي، وفي كل زاروب وقد ولد من رحمك، الناس الأبطال،

«دفعت الجزية والفدية والشهادة، من أجل كل العرب والعروبة،

«أحبك يا بيروت، أشتاق إليك،

«إنك في العقل والقلب والوجدان،

«إنك حملت همومنا وقضايانا، وقضايا العرب على كتفيك، وفي قلبك وقلمك وعقلك،

«شوارعك تتجول فيها المرتزقة والعملاء،

«أنا لا أرثيك يا بيروت، يا إشراقة الروح،

«إنك المدينة التي لا تمحى من الذاكرة،

« مدارسك، جامعاتك، نواديك، أهاليك.. ،

«لا تخبو الذكريات التي غرست في الضمير» [١٥٥].

إنها مناجاة نابعة من روح زاهية قدوره، التي عبرت بها عن نفسية تعبة في تلك اللحظات، نفسية معذبة من الجراح التي أثخنت بها بيروت. كان في كلماتها تعبير عن نفس قلقة، على مصير البلد، المهدد من قبل طاغية أرعن.

وسط هذه الأوضاع المأساوية التي عاشتها بيروت في تلك الظروف، فضلت

زاهية قدوره أن تبقى قريبة من الحدث، بل في قلب الحدث، وأقنعت جميع الذين كانوا يتصلون بها، أنه ليس باستطاعتها ترك بيروت والخروج منها، مهما تعقدت الأمور وأحدقت بها المخاطر.

لم يكن مستغرباً منها هذا الموقف، لأنها كانت تريد متابعة جميع الأحداث لحظة بلحظة، كما كانت تريد ملاحقة مواقع الإصابات، سواء المادية أو المعنوية، التي كانت تحل بالأشخاص أو بالممتلكات. كما شاركت بفعالية في الاجتماعات المكثفة؛ التي عقدت لتنظيم أعمال صمود العائلات والأشخاص الذين وقفوا معها، للدفاع عن بيروت. وأشرفت شخصياً على حسن تصريف، الكميات القليلة من المؤن والمواد الغذائية، بشكل عادل ومتوازن. والأهم من ذلك، قامت مع بعض الجمعيات، بإدخال كميات من الأدوية والمساعدات، التي كانت تحتاجها بيروت ومنعت عنها من قبل القوات الغازية. وكان منزلها مركز استقطاب، العديد من الاتصالات والاجتماعات.

كما أنها لم تتوان أمام المصائب والمصاعب التي كانت تواجهها، عن إجراء الاتصالات المكثفة، مع الشخصيات الوطنية، السياسية والاجتماعية والشعبية، بالدعوة لتشكيل نواة مؤتمر وطني، للتصدي للآثار السلبية الناتجة عن الاحتلال، ومواجهة عدوانيته البشعة والحقودة. وقد لبى الدعوة لعقد المؤتمر عدد كبير من السياسيين والمثقفين ورجال الدين، المسلمين والمسيحيين، الذين طالبوا بجلاء قوات الغزو الإسرائيلي عن لبنان، وفك الحصار العسكري عن بيروت وضاحيتها الجنوبية، كما طالبوا بعودة السيادة اللبنانية إلى جميع المناطق اللبنانية[١٥٦].

جاء في مذكراتها، أن الشخصيات التي اجتمعت تحت شعار « الجلاء العام لقوات الاحتلال الأسرائيلي عن لبنان، وفك الحصار الإسرائيلي فوراً عن بيروت والضاحية، وبسط السيادة اللبنانية على كامل التراب الوطني»، اجتهدوا في إظهار مساوئ وسلبيات الاجتياح، ومنها: «القضاء على صيغة الحياة المشتركة بين اللبنانيين، والهيمنة على لبنان، والقضاء على استقلاله، وجره إلى الصلح، واغتصاب مياهه، وتخريب اقتصاد لبنان القوي، وغزو البلد ثقافياً، وتفجير الأوضاع الداخلية»[١٥٧].

على ضوء ذلك، كانت زاهية قدوره مناضلة وطنية، وداعية سياسية لبنانية، من الناشطين بالدعوة للقومية العربية، وقفت حياتها للدفاع عن قضايا أمتها والحفاظ على مصالح قومها. تحدت الخطر الإسرائيلي، وتصدت للأطماع الصهيونية، سواء

بالمقاومة أو بطريقتها الخاصة، طريقة القول والعمل، بواسطة القلم. وقامت بإرسال الصوت إلى مختلف أرجاء المعمورة، لعل العالم يسمع ويرى، المجازر التي ارتكبها العدو الإسرائيلي، وكذلك الممارسات التي حصلت، والاعتداءات. فإذا ما كان هذا العالم يملك ضميراً حياً، عليه أن يتحرك. وهو الأمر الذي كانت تريد الوصول إليه من مجمل التحركات التي كانت تقوم بها، أو الأنشطة الإنسانية والاجتماعية؛ لتجعل العالم كله يسمع ويرى، الممارسات الإسرائيلية الوحشية والهمجية، التي قامت بها تجاه الشعبين اللبناني والفلسطيني[١٥٨].

وكلما كان الغزو والاجتياح يزداد توغلاً في البلدات والمدن اللبنانية، وداخل القرى والدساكر، وأعمال القصف تشتد ضراوة، كانت زاهية قدوره والبيارتة الصامدون فيها ومعها، يزدادون إصراراً وعناداً وتشبثاً بالبقاء فيها. وقد تم العثور في أرشيفها على صور من أعمال الصمود، التي كان يبديها أهل بيروت، عن صمود شعب استعملت ضده مختلف أنواع الإرهاب والتنكيل والقصف، وأصابته آلة الدمار الإسرائيلية بوحشية كبيرة.

كما لوحظ في كتاباتها في تلك الآونة عبارات السخط والغضب التي سيطرت على أفكارها في أبحاثها ودراساتها، المتولدة من احتلال أول عاصمة عربية، وسقوط «بيروت النوارة» تحت ضربات المدافع والصواريخ، وتدنيسها بالمجنزرات الإسرائيلية، فضلاً عن الاعتداءات البربرية التي تعرضت لها؛ مما كاد يفقدها صوابها وذاكرتها، كما كانت قد صرحت في أحد الأيام[١٥٩].

وأظهرت في كتابات أخرى، الاشمئزاز والحقد على الأعمال البربرية والأساليب الوحشية، التي قامت بها القوات الإسرائيلية؛ مما زاد في غضبها وثورتها، لدرجة أنها كانت تصاب بحالات من الذهول، خصوصاً بعد أن اقتحمت القوات الإسرائيلية قلب بيروت وأحيائها، ودنست شوارعها وهتكت أمنها وخربت أجواءها، بعمليات القصف الوحشية.

غير أن المقاومة التي أبدتها بيروت والبطولات التي أظهرها أبناؤها من خلال تصديهم لقوات الاحتلال، وعمليات الإعدام التي نفذوها في عدد من الجنود الإسرائيليين[١٦٠]، أجبرت إسرائيل على الانسحاب السريع من بيروت. مما ولد في نفس زاهية قدوره الثورة من جديد، الثورة على الواقع والوضع معاً، الثورة على الحكام العرب وعلى المسؤولين الدوليين، الذين سمحوا لإسرائيل للقيام بعملية «سلامة الجليل» ، وارتكاب أبشع الجرائم، التي عرفها التاريخ الحديث .

خلّف العدوان آثاراً مهمة في بيروت، فبعد أن ترك صوراً مأساوية متعددة، تمثلت باليتامى والمشردين والمعوقين، إضافة إلى القتلى. فقد أوجد أيضاً، صوراً من ضروب المقاومة لا تنسى، وملاحم من الصمود لن تمحى من ذاكرة بيروت وأهاليها.

فالبطولة لم تكن في المقاومة وحمل السلاح، وشن الهجمات على قوات العدو الغاصبة؛ بل تمثلت في صور أخرى عديدة، كتنظيم تقديم المساعدات، والإشراف على حسن سير أمور الحياة في أثناء العدوان، وسرعة تقديم الإسعافات الأولية للمصابين، وتأمين الاحتياجات الضرورية للمواطنين، ومواساة المنكوبين، ورفع معنويات الصامدين. وتوجد في أرشيف زاهية قدوره دلائل حسية على تحمل مسؤولية معظم هذه الأعمال.

شاركت أيضاً، بالإشراف على أنشطة الجمعيات والمؤسسات، التي أنشئت آنذاك للقيام بالأعمال التي تطلبتها تلك المرحلة. وقالت: « أنها كانت تود لو استطاعت تسجيل الكثير من الخواطر والأحداث والوقائع التي حصلت في تلك الفترة، غير أن المهام العاجلة والسريعة التي كانت مطلوبة منها في ذلك الوقت، لم تدع لديها أي مجال للانفراد بنفسها لكتابة حتى ولو كلمات قليلة، لأن الثانية وعشرها كانت من الأهمية؛ بحيث أنهما كانتا تساويان أضعافاً مضاعفة من أي اهتمام آخر»[١٦١].

ومن الناحية التقنية التسجيلية، لا بد من الإشارة إلى أن زاهية قدوره، عانت بعد العام ١٩٨٢، مثلها كمثل بقية اللبنانيين، من الحروب والمعارك، التي كانت تعتبر بعضها إن لم تكن جميعها؛ من إفرازات الحرب الإسرائيلية التي شنت على لبنان. لم تكن أولاها المجازر المدنية التي قامت بها ضد المدنيين الأبرياء، ولم يكن آخرها حرب الجبل، وأعمال التهجير الجماعية التي نتجت عنها. ثم حرب الأخوة، في شوارع بيروت وأزقتها للحصول على زاروب هنا، أو لسيطرة قبلية وعصبية هناك، التي كانت ترى أنها نشأت عن انعدام المسؤولية الوطنية، وعن فقدان الإحساس لدى المتقاتلين آنذاك، بضرورة الانتماء إلى وطن.

وبالرغم من هذا وذاك، عاشت قدورة الفترة المتبقية من عمر الأزمة اللبنانية، ما بين الأعوام ١٩٨٢ إلى ١٩٩٠، كما عاشها وعايشها بقية اللبنانيين في قلق على الكيان والمصير، ولكنها كانت بالنسبة إليها، أنها تميزت بحركة دائمة، من خلال امتشاق القلم والتسلح بالورقة، بدلاً من البندقية والرصاصة، للتعبير عن مقاومتها ورفضها للأمر الواقع.

كما رفضت حرب الأزقة والشوارع والشعارات، وقالت مراراً وتكراراً،

إن المعركة الحقيقية هي مع العدو الإسرائيلي على الحدود. ونبذت كل الممارسات اللاإنسانية التي تسببت بأعمال التهجير من الجبل. وكانت من دعاة التعايش بين كافة أبناء الطوائف اللبنانية، ومن العاملين الناشطين على جمع اللبنانيين، مسلمين ومسيحيين، على مبادىء الوحدة الوطنية، التي دعت إلى قيامها طوال حياتها.

وعندما حصلت الكارثة، بذلت غاية جهدها لتضميد الجراح، ومواساة المصابين والمحزونين، ومساعدتهم على تحمل فاجعة ما نكبوا فيه. فكتبت وخطت ودبجت المقالات والأبحاث المختلفة، التي ضمنتها مبادئها وشعاراتها، ودعواتها إلى المحبة والأخوة، والحرية والعدالة والمساواة، وإلى تحقيق الوحدة بين اللبنانيين، واعتبار المسلمين والمسيحيين؛ أخوة في المسير والمصير، وأبناء أمة واحدة، وبناة قومية واحدة، وحماة عروبة واحدة[١٦٢].

يلاحظ من دراسة مندرجاتها الحديثة، أنها لم تُحِدْ عن خطها الوطني والعروبي والقومي، حتى في أحلك ظروف الحرب، أو في أثناء تواجد قوات الاحتلال الإسرائيلية على مرمى حجر من منزلها. والسبب في ذلك، يعود في أغلب الظن، إلى إيمانها القومي بضرورة انتمائها إلى وطن تسوده العدالة والحرية والمساواة، ويقينها الأكيد بحتمية تحقيق شعار العروبة في لبنان، التي كانت ترى فيها؛ خلاصاً للبنان من كل المشاكل السياسية والطائفية والمذهبية، التي يعاني منها.

ومن مندرجاتها السياسية، اعتناقها مبدأ تحقيق حلم القومية العربية، التي وعت مبادئها منذ يفاعة سنها، فانتسبت إليها في صباها، وعملت لها في زهوة شبابها، وفي قمة نشاطها ونضوجها الفكري والسياسي.

١٢ ـ القومية العربية في فكر زاهية قدوره السياسي

عاصرت زاهية قدوره فترة المد القومي العربي، منذ انطلاق مسيرتها على همة بعض الشباب العرب، قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية بقليل. وبالتحديد منذ أن كانت طالبة في الجامعة الأميركية في بيروت، عندما شاركت في اجتماعات عصبة العمل القومي، الذين كانت تزدحم بهم جنبات الجامعة آنذاك. وقد وصفت شعورها في ذلك اليوم، فقالت: «إنه منذ ذلك اليوم راحت اندفاعاتي القومية تتسارع أمامي لتفتح لي مسالك جديدة في حياتي وفي ممارستي السياسية والفكرية»[١٦٣].

سبقت هذه اللمحات إندفاعات قومية أخرى، وهي تلميذة في عداد طلاب

قسطنطين زريق، الذي كان يلقنهم الأصول الأساسية لفكرة القومية العربية، ويعرفهم على مبادئها، ضمن سياق المحاضرات التي كان يلقيها عليهم في الجامعة الأميركية في بيروت.

كما كانت قد شاركت في عدد من المناسبات السياسية الأخرى، كاللقاءات التي كانت تتم بالدعوة لتحقيق فكرة القومية العربية، وتنفيذ حلم الوحدة العربية. وهي من الشعارات التي أثرت بفكرها وشخصيتها الفتية؛ مما ساهم في صقل طروحاتها القومية والعربية. فالتصقت بعقلها، الذي كان يبحث عنها في مجمل تحركاتها السياسية الأولى. كما تهيأ أمامها السبيل ليكون مشروع القومية العربية، وحلم الوحدة، ركنين أساسيين في تفكيرها ونهجها وعملها فيما بعد. خصوصاً وقد كان لبيئتها وتربيتها أثر واضح في ترسيخ مجمل هذه التطلعات والأفكار، انطلاقاً مما يقال: إن حياة الفرد العملية تبدأ من البيت. فالدروس التي تلقنتها من والدتها؛ تركت فيها انطباعاً، مازج تضاعيف فطرتها وغريزتها الأولى، التي تجلى أثرها في كل تحركاتها وتصرفاتها فيما بعد.

وبناء على ذلك، يبدو أن زاهية قدوره كانت قد تعرفت على فكرة القومية العربية، من خلال الشعور الجامح الذي اقتحم عقلها وفكرها، بعد وقوفها على النصر الذي حققه سيف بن ذي يزن[١٦٤]، بواسطة جيشه العربي على الفرس، لأول مرة في موقعة ذي قار[١٦٥] المشهورة، الذي هزمهم فيها شر هزيمة، وشتت جمعهم.

ومما زاد في قناعاتها تلك، أنه لما جاء الإسلام، قام بمحاربة العصبية القبلية. فقضى على الحروب الأهلية التي كانت تفرق بين القبائل. ثم قام يدعوهم للتوحد؛ ليحض العرب على الخروج من الجزيرة. الذين تمكنوا بعد ما يقارب المائة عام، من اقامة أكبر دولة عرفها العالم في التاريخ القديم والوسيط.

وظل العرب بعد خروجهم من الجزيرة حريصين على عنصرهم العربي الصافي، وبذلوا جهودهم حتى لا يتفرقوا أو يذوبوا ضمن الشعوب التي فتحوا بلادها. فكانوا يقيمون في معسكرات خارج البلاد المفتوحة. وكان هدفهم من ذلك حفظ الروح العسكرية ودوام سيطرتهم على دولتهم. وقد نهجت الأسرة الأموية نهجاً قومياً واضحاً في حكم دولة الإسلام. فكان العرب هم العنصر الحاكم، وكانت لهم السيادة في تلك الدولة.

أشارت قدورة إلى أن الإسلام بروحه العالمية الجامعة، وبدعوته إلى المساواة، كان قد وحد المسلمين بالرابط الديني. فقد اعتنقت الإسلام مختلف الشعوب القديمة التي

تعرفت بواسطته على لغة العرب وثقافتهم. فأجادتها وانصهرت في بوتقته الحضارية والإنسانية. وأدى اختلاط الأجناس والزواج بينها إلى امتزاج الأعراق والدماء، وصار الإسلام يشكل قومية واحدة.

ولكن هذا لم يمنع من ظهور حركة القومية، التي كانت تمثل بعثاً للحركات القومية في الأقاليم المفتوحة. تلك الأقاليم التي ظهرت فيها دول عظيمة قبل ظهور الإسلام، ولم يكن من اليسير على أهلها أن ينسوا قوميتهم نسياناً تاماً.

وكانت قد أشارت من ناحية ثانية، إلى أنه ظهرت داخل دولة الإسلام، حركات إنفصالية أدت إلى إنشاء الدويلات المختلفة. ولكن حكام هذه الدويلات لم يرجعوا إلى دين آبائهم، وإنما بقوا على الإسلام وتعصبوا له. كما أنهم لم يبتعدوا عن الحضارة الإسلامية ولا عن ثقافة الإسلام، وبقيت اللغة العربية، لغة الثقافة الإسلامية.

وهكذا كان الإسلام في القرون الوسطى، يمثل قومية عامة بين الشعوب التي كانت تدين به، شأنه في ذلك شأن المسيحية في أوروبا.

حاول الأتراك العثمانيون في القرن التاسع عشر أن يستعينوا بفكرة الخلافة في جمع الشعوب الإسلامية حولهم، والاستقواء بهم في مواجهة هجمات الغرب على دولتهم. فكان هدف عبد الحميد الثاني أن يلقي في روع حكام أوروبا، أنه الحاكم السياسي والديني المطلق بالنسبة إلى المسلمين، كما هو البابا عند الكاثوليك. فراح ينشر دعوته للوحدة الإسلامية، والإلتفاف حول الخليفة في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

ولكن عصر الرابطة الدينية كان قد فات أوانه باعتقاد زاهية قدوره. لذلك بدأت حركة القومية بالظهور في العصر الحديث، وبالتحديد في أواخر القرن الثامن عشر. وبدأت الشعوب تستيقظ وتحاول أن تحقق كيانها على أساس جديد من القومية التي تمثل مصالحها المشتركة، وثقافتها وتاريخها الذي ورثته عن الأجيال الماضية. وانتشرت فكرة القومية في أوروبا وكان من آثارها القضاء على الإمبراطوريات الكبرى القائمة حينذاك. فظهرت فيها دول جديدة كانت ثمرة لحركة القومية التي كانت قد بدأت بالإنتشار.

وكان القرن التاسع عشر هو القرن الذي بدأ فيه العرب والعثمانيون يتصلون بأوروبا اتصالاً وثيقاً. وتأثر رعايا الدولة العثمانية من أتراك وعرب بفكرة القومية. فقد بدأ العرب أنفسهم يتنبهون إلى حقيقتهم واستيقظت في نفوسهم نزعة القومية العربية. وكان

من أولى ثمارها تعلقهم بلغتهم، مما جعلهم يندفعون لإحياء ثقافتهم وتلقي الوحي عنها.

نظر العرب حولهم يبحثون عن قائد يمضي بهم في تلك السبيل، وحدث أن وقعت الحرب العالمية الأولى، وأدرك الاستعمار أهمية القومية العربية، وما يستطيع تحقيقه إذا تمكن من كسب أنصارها إلى جانبه. وتلفت المستعمرون حولهم، فوجدوا حاكماً عربياً له سيطرته على الأراضي المقدسة، وأدركوا مدى الربح الذي يمكن أن يحققوه بالتحالف معه. ففاوضوه على أن يقفوا بجانبه لقاء وقوفه إلى جانبهم، ولكنهم خدعوه بالوعود الكاذبة[١٦٦].

وكان للمبادئ والأهداف التي قامت عليها ثورة الشريف حسين[١٦٧]، والتأييد الذي حظيت به من شباب الأمة العربية ورجالاتها، أكبر الأثر في ترسيخ فكرة القومية في فكر زاهية قدوره وعملها. غير أن فشل هذه الفكرة، وعدم قدرتها على تحقيق وحدة البلدان العربية واستقلالها عن سلطة الخليفة العثماني، أدى إلى تراجع ملحوظ في اندفاعة القومية العربية، فضلاً عن قيام نزاعات فردية حدثت بعدها، فبرزت القوميات المتعصبة[١٦٨].

ويمكن القول، أنه كان أمام الدعاة القوميين[١٦٩] مهام متعددة ومتنوعة، ليسهلوا وصول الفكرة القومية إلى عقول الشباب العرب. فقد فهمها بعضهم على أنها مرادفة للفكرة الإسلامية، بينما عرفها بعضهم الآخر وكأنها دعوة إلى الوثنية تناهض الأديان. غير أن الحقيقة التي لا جدال فيها، وأكدتها زاهية قدوره في عدد من دراساتها، كما شرحها سواها من الكتاب والمفكرين القوميين، هي أن القومية العربية لم تكن دعوة للوحدة السياسية الإسلامية، كما أنها - من حيث المبدأ - ليست مناهضة للفكرة الدينية. فقد شوه خصوم القومية العربية أهدافها، فوسموها بالعنصرية، والعنجهية والقبلية، ونعتوها بالعدوانية، والرجعية ومناصرة الإقطاع [١٧٠].

فالقومية العربية التي دعت إليها هي حركة تنمي الشعور بالواجب الوطني والقومي، وتلهب عواطف الإخاء والمحبة، وتغذي روح الإخلاص والتضحية، وتحكم أواصر الوفاق والوحدة، وتعمل على نبذ كل الفوارق الطارئة على حياة الأمة، سواء أكانت دينية أو إقليمية أو اجتماعية، وجمع شتات أبنائها وحشرهم في صعيد واحد. فتتألف من مجموعهم عائلة كبيرة شعارها: «الأخوة والعدل والمساواة»[١٧١].

ففكرة القومية العربية لم تكن بالنسبة إليها، مبدأ اجتماعياً، أو نظرية فلسفية كغيرها من النظريات والمبادئ، التي أنتجها دماغ فيلسوف وأوجدتها عواطف الشعراء

الخياليين، حتى يحتاج الإيمان بها إلى التكلف في البرهنة والتدليل [١٧٢].

هذا ولا بد من الإشارة، إلى أن القومية عرفت بشكلها المتعارف عليه، مع مطلع إنبعاث عصر القوميات في أوروبا في القرن التاسع عشر. واتضح مفهومها في الوقت الحاضر لدى معظم الأمم الغربية، كنتيجة طبيعية لتطورها الإيديولوجي والاقتصادي والمعنوي.

أما في الدول العربية، فلا يزال مفهومها يشوبه كثير من الغموض والإبهام، عند بعض الجماعات من الشعوب العربية، ويحيط به اللبس وتكثر حوله التفسيرات، بشكل يقترب أحياناً من حد التناقض، إذ أن كثيرين هم الكتاب الذين لا يميزون بين لفظ الأمة العربية والأمم العربية، وكثيرون الأدباء والساسة الذين يخلطون بين الغرب والشرق، كما بين الوحدة العربية والوحدة الإسلامية.

فالغموض في مفهوم القومية كان أمراً طبيعياً، ولكن من غير الطبيعي أن لا تنتهي هذه المرحلة، مرحلة الغموض والبلبلة. لأن الوقت قد حان ليستعيد العرب ذكراهم القومية، ويسترجعوا شعورهم القومي الأصيل، ويبنوا سياستهم ونهضتهم على أساس فلسفة قومية عميقة واضحة في حدودها، ظاهرة في معالمها وغاياتها. ومهما يكن من أمر فإن بعث فلسفة قومية للعرب قد أصبح أمراً ضرورياً جداً وأمراً حتمياً، خصوصاً بعد أن قوي التيار العربي واصطدم بعنف مع أساليب السياسة العالمية[١٧٣].

فإذا ما تم تجاوز كل هذه التعميمات، وتخطي الغموض الذي يحيط ببعضهم عن معنى فكرة القومية، لا بد من التساؤل: من هو الإنسان القومي؟ أو من هو الشخص القومي؟

يتبدى للمتابع الدقيق لفكر زاهية قدوره وخطواتها القومية، أنه ذاك العربي الذي يشعر بقيمة الأمة في فكره وداخل عقله ووجوده، إنه المؤمن بعبقرية أمته العربية، وبحقها الصريح في الحرية والوحدة والسيادة، وبغدِها الكريم الذي تؤدي فيه رسالتها السامية إلى العالم قاطبة.

القومي العربي في فكر زاهية قدوره، هو الذي يؤمن أن كل عربي في أي قطر وجد، من أي مصرٍ كان منبته، ومهما كانت عقيدته الدينية وكائنه الاجتماعي أخ له، يكمل ذاته، وجزء حي يتمم أمته ومعناه. إنه من يشعر شعوراً ذاتياً عميقاً بعضويته الحية في أن كل واحد هو أمته العربية، ويشعر بواجبه تجاه هذا الكل فيقدمه على أي واجب آخر، ويعتبر هذه الأمة في مشارقها ومغاربها، في أقصى شمالها، وفي شتى

أرجائها، في اختلاف مطارحها الجغرافية وتفاوت طبقاتها الاجتماعية، وحدة واحدة لا تقبل تجزئة وانقساماً.

القومي العربي كان بالنسبة لزاهية قدوره؟.. هو العربي الذي يحب أمته، يحبها أساءت إليه أم أحسنت، أذنبت أو أجرمت. إنها أمته التي يحبها في سوئها وشرورها، في خيرها وعزها، سادت أو خضعت، تفوقت أو تأخرت. إنها أمته في كل حالة وجدت فيها: في عز هي أم في مذلة، في إثراء أم في فقر، في فوضى أم في أمن، في بلبلة هي أم في استقرار[١٧٤].

فالقومية العربية كانت عندها وجوداً اجتماعياً، وواقعاً تاريخياً ناتجاً من تفاعل جميع الروابط التي تجمع بين أفراد الأمة تفاعلاً عميقاً، وهي الشخصية الجماعية التي ارتبطت بالأمة نتيجة هذا التفاعل.

وكان لها في نظرها أسس مميزة ومحددة لهويتها، وذات صيغة إنسانية، إلا أنه ومن الثابت، أن قوميتها العربية، لم تكن قومية عنصرية ولا استعلائية أو عدوانية، ولم تكن انعزالية منطوية على نفسها. إن القومية العربية عندها قومية إنسانية منفتحة، ثورية وتقدمية. تصفها بقولها: « إننا لسنا في حاجة لأن نورد الشواهد الكثيرة من تاريخنا العربي الإسلامي لنثبت أن العرب حققوا دوماً هذا الانفتاح على حضارات الأمم الأخرى، وخصوصاً من المعروف أنهم من أوائل من احتضن حضارات الأمم السابقة، وأضافوا إليها، حتى تم اللقاح بينها وبين حضارتهم، حيث عمدوا إلى تقديم تراث جديد للإنسانية جمعاء»[١٧٥].

لم يكن هذا الإيمان بلا أحاسيس ومضامين، بل كان وعياً متجسداً بنظم ومؤسسات اجتماعية وسياسية وفكرية ودستورية، على صعيد الأمة. كان وعياً للعلاقات والروابط الروحية والمعنوية والمادية، التي تربط فيما بين العرب على الصعد الحياتية المختلفة.

كما أن مفاهيمها للقومية العربية، كما عرفتها، واتخذتها شعاراً لها، ورمزاً لعلمها وعقلها ومبادئها، استقتها من المبادئ والقيم الأساسية للثورات العربية الكبرى. كما تعرفت على مبادئ القومية العربية وأخذت مشاربها القومية الأولى « من الحلقات الدراسية التي كان يعقدها قسطنطين زريق في الجامعة الأميركية في بيروت» [١٧٦].

القومية العربية التي أشارت إليها في مخطوطة مذكراتها، هي: «الإطار الوطني الذي ينصهر فيه أبناء الأمة بمختلف طوائفهم ومذاهبهم في بوتقة واحدة، فلا

يعود هناك من مجال للإقليمية ولا للعنصرية ولا للطائفية ولا للمذهبية السلبية..»[١٧٧].

وفي عنوان الوعي القومي، يلاحظ أنها عمدت فيه إلى الربط بين القومية والوطنية، وكانت ترى فيه وجود نزعات اجتماعية تربط الفرد البشري بالجماعات، التي تجعله يفخر بها ويعمل من أجلها، كما يمكن له أن يعاديها ويحاربها. ورأت أن الوطنية تعني حب الوطن والشعور بارتباط كبير نحوه. أما القومية فتعني حب الأمة والشعور بارتباط تجاهها.

وتوافقت بذلك مع عدد من رواد الحركة القومية وكتابها، كأبي خلدون ساطع الحصري، الذي حدد تسميات القومية، مثلها كمثل التي وردت في طروحاتها؛ بحيث أن الوطنية؛ هي ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن، والقومية ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم الأمة[١٧٨].

أما ما هي القومية في المفهوم المتداول وفي المصطلح العام ؟ فقالت بإجماع البحاثة القوميين؛ بوجود تعقيد وعدم وضوح لمعنى القومية ! وكذلك بعض الموسوعات الأوروبية، التي رأت أنه توجد مصطلحات كثيرة تدور في فلك القومية وتحديد معناها اللغوي والمجازي.

وذكر بعض الكتاب، أن كلمة القومية وردت في معظم اللغات العالمية مقرونة بكلمة قوم أو أمة NATION . وقال آخرون بأنها مجموعة الضوابط المتمثلة في الحياة العقلانية والوجدانية على حد سواء. بينما وردت كلمة أمة في بعض تحديدات أرسطو ARESTOTLEوابن خلدون، كما الصورة بالنسبة إلى المادة. أما رينان RENAN فرأى أن الأمة والقومية، مقولتان لحقيقة واحدة: " فالأمة هي مبدأ روحي يتألف في جوهره من أمرين: الأول حياة مشاعة لتركة ذاخرة من الذكريات، والثاني القبول الفعلي في العيش معاً، والتصميم الإرادي للعمل إلى أقصى حد، للانتفاع بما آل للأمة من تراث خفي وغير منظور" [١٧٩].

ورأت قدورة من جهتها أنه ليس من اختلاف بين مصطلحي الوطنية والقومية، واعتبرت أن حب الوطن يتضمن حب المواطنين الذين ينتمون إلى الوطن، كما أن حب الأمة يتضمن حب الأرض. أما وحدة الأصل والمنشأ أو الجنس، فقد أكد معظم الباحثين؛ بطلان هذه العناصر كعامل أساسي في نشوء القوميات. من هنا لاحظت كغيرها من المؤرخين، سيادة النظرية القائلة بعدم وجود أمة تنحدر من أصل واحد.

هذا التفكير القومي، أهّل زاهية قدوره لإحتلال مرتبة الناشطة القومية، واعتبارها أحد رواد نهضتها الحديثة. وليس من المبالغة في شيء، إذا ما تم النظر إلى الأنشطة التي قامت بها، والتحركات القومية التي سادت مسيرتها، بأنها كانت واحدة من الذين عملوا على توجيه الشباب القومي إلى النهج السليم الذي يجب اتباعه، لبلوغ الشعارات التي رفعها دعاة القومية العربية إلى غايتها الأساسية.

ولوحظ عليها في هذا المجال، أنها لم تكن تترك مناسبة قومية تمر، أو محاضرة أو ندوة تصب في هذا الاتجاه، إلا وتهب للمشاركة فيها باندفاعة بارزة وحماسة قوية، إنطلاقاً من مخزون رغبة عارمة لتحقيق هذه الآمال والأحلام، بالرغم من الحسرة والألم اللذين حاصرا تطلعاتها لفترة طويلة في حياتها، من جراء تداعيات الزمن الذي عاشته وإنعدم فيه وجود الشعارات، التي ناضلت من أجلها ردحاً من الزمن[١٨٠].

أ ـ قومية التاريخ

تجدر الإشارة في هذه المناسبة، إلى ما كتبته حول قومية التاريخ، وهو أن المرحلة الحاضرة بحاجة إلى التمحور حول قومية التاريخ. فبعد أن أدركت حجم المشاكل والحروب، التي تعرضت لها البلاد العربية، وجدت أن المرحلة هي مرحلة تحدي الذات العربية، والتحدي القومي والحضاري. ولذا طالبت الذين يكتبون التاريخ، أن ينظروا إلى الصراع الدائر بين الوطن العربي والصهيونية العالمية، على كل صعيد، لأنها اعتبرته صراع مصير وصراع وجود، وهو ما زاد من قناعتها بأن الصراع الحضاري، متجه نحو تفتيت معالم الشخصية القومية والحضارية للأمة العربية.

دافعها لهذه النظرة، أنها في مجمل كتاباتها وتأريخها، لم تتراجع عن ربط الحاضر بالماضي، لإعطاء المستقبل صورة جلية وواضحة. مما يرجح أنه لم يفتها الإشارة، إلى أن جميع الكتابات قديماً وحديثاً، إنما تمت في ظل أجواء سياسية واقتصادية واجتماعية، قام بها مؤرخون تأثروا بالحدث نفسه، وانفعلوا بواقعية الموضوع من نواحيه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية.

بمعنى آخر، لقد رأت أن معظم الكتابات التاريخية تأثرت بشكل أو بآخر، بمزاج مؤلفيها وسارت في فلك أصحابها، من دون تمحيص أو تنقيب أو حتى تحرٍّ عن الحقيقة المجردة؛ لذلك اتهمت بعضهم بأنهم استخدموا التاريخ «لأهداف سياسية واجتماعية». وسبب ذلك كما رأت: «لا يعود إلى اختلاف الوثائق المستخدمة بل إلى اختلاف المنهج

المستخدم والمصلحة السياسية للكاتب». مما أدى إلى قيام تيارين ذَوَيْ اتجاهين؛ تحزب لهما عدد من الأنصار والمؤيدين، وشكك بهما بعض المعارضين والمشككين[١٨١].

وقد دل هذا الأمر على وجود شكوك لديها حول مهمات المستشرقين. بعد أن ظهرت لها نواياهم السياسية، وغاياتهم الفكرية التي استخدموها في أعمالهم وكتاباتهم. فتوجست خيفة من أعمالهم وأفكارهم، لأنها لم تر فيهم أصحاب مصلحة واحدة. لذلك وصفت مهماتهم بقولها: « كانت مهمة المستشرقين الأوائل جمع أكبر قدر من المعلومات عن مواطن المصلحة في الشرق سعيا وراء تنمية هذه المصالح ورعايتها...». وتبلغ قمة سخطها من عمل بعض المستشرقين عندما قالت: « إن تصحيح العلاقة بين الشرق والغرب هو الشرط الضروري والأول لبروز استشراق أكثر موضوعية، وما لم يحدث ذلك فإن جهود بعض عمالقة الاستشراق الموضوعيين ستبقى فردية ومشوبة بالمخاطر »[١٨٢].

وفي مكان آخر، تم ملاحظة نقمتها على الاستشراق ورجاله، التي لم تجيء من العدم، بل كان لها أسبابها ومبرراتها. لأن هؤلاء صبوا كل جهودهم أو معظمها، على إظهار الأمور والحوادث التي وافقت أهواءهم ومصالحهم. «واضح ما لهذا الاتجاه التبشيري من سيئات في مجال كتابة التاريخ، ذلك أنه عندما يريد أحدنا أن يدلل على فكرة واضحة مسبقة في ذهنه. فالواقعة التاريخية لا تريحه بل تزعجه، إلا إذا دار حولها أو فسرها تفسيراً قسرياً بما يتفق وهدفه، حيث يُجمع عدد كبير من المفكرين والمؤرخين على أن من كان يحاول دراسة المشاكل التي تعاني منها معظم الدول العربية دراسة علمية وموضوعية لأمكنه ذلك، بكل بساطة وصدق وموضوعية، ولكن أين المستشرق المجرد والمتحلي بالإخلاص لعلمه ولعمله ؟»[١٨٣].

لذلك طالبت، بكتابة التاريخ العربي الفعلي والحقيقي، مجرداً من إشكالياته، متحللاً من أخطائه وسلبياته في نطاق دراسة علمية وموضوعية، لا غاية لها ولا هدف، سوى العمل على إظهار حقيقة التاريخ، والاتعاظ من عبره الماضية، والاستفادة من تجاربه السابقة، لقيام علاقة جيدة بين الماضي والحاضر. وقد كان لها في هذا المجال اقتراح، دار حول: «الانطلاق من موضوعية الحقيقة التاريخية والحدث التاريخي ومحاورة تاريخنا بالذات». كما اقترحت: «الانطلاق من عدم وجود انقطاع في حياة الأمة العربية الإسلامية من الناحية التاريخية. ومن دراسة التاريخ كوحدة متماسكة، بجوانبه المتعددة، سياسية وإدارية واجتماعية واقتصادية وفكرية، في آن واحد لكل فترة

من الفترات، على أن تكون هذه الدراسة، دراسة لجميع طبقات الشعب، ونمط حياتهم، ودورهم في المجتمع حينذاك»[١٨٤].

لذلك اقترحت على المؤتمرين والباحثين العرب، الاهتمام بدراسة التاريخ الحضاري في جميع مجالاته، وليس التركيز على ناحيته السياسية. و «أن تبرز المقومات والاتجاهات القومية، والوحدوية بالذات، فالموضوعية والنزاهة لا يتنافيان أبدا مع قومية التاريخ، لكن يحتاجان إلى عقول عربية تسهم بالعلم والتجرد والصبر والدقة وقلوب عربية تمتاز بالأمانة ورهافة الحس وصفاء الاتجاه، تتلمس جذور الحقيقة والنظر إلى أبعادها، ثم إبراز مقومات القومية العربية وعناصر الوحدة، لأن القومية والوحدة؛ هما الإطار الوطني الذي يصهر أبناء الأمة على مختلف طوائفهم ومذاهبهم في بوتقة واحدة، فلا يعود هناك من مجال فيه للعنصرية والطائفية»[١٨٥].

أملت زاهية قدوره أن يصار إلى العمل على درس وتحليل: « العوامل الاجتماعية والفكرية والنفسية والاقتصادية والسياسية التي دفعت إلى التجزئة وتمزيق كيان الأمة».

ولم تغفل الإشارة إلى ما كان للدول الأجنبية من أياد، تركت بصماتها على تمزيق كيان الأمة، بصور مختلفة، تجارية واقتصادية وثقافية ودينية. وفي الحملات والحروب التي تتالت على الشرق العربي؛ مما أدى إلى تفتيت كيان الأمة وتجزئتها، بدءاً من القبيلة إلى انتظامها في دول. وما يزال هذا المحرك يجهد لتحقيق إستيلائه على الوطن العربي. ولذلك كانت قد وجهت الدعوة لعقد مؤتمر حول موضوع: « الوطن العربي بين الوحدة والتجزئة» والإعلان عن إنشاء لجنة تعني بالتراث العربي، لإظهار أهميته السنية.

وكان من مفاهيمها، أن القومية العربية تعمل على تحقيق الإخاء بين أبناء الأمة العربية، الذين هم جزء من الإنسانية. والإنسانية في مفهومها العام، نظرة واسعة لا تتعارض والوطنية أو القومية. وكما نادت بالقومية العربية، فقد نادت بالوحدة العربية، التي عملت طوال سني حياتها على قيامها وتسيّدها، ولكنها لم تردْها وحدة ضد أحد، أو قائمة على حساب آخرين، ولا بديلة لأي فكرة. بل أرادتها وحدة تعمل على تحرير العرب من سيطرة الدول الأجنبية، وبأن يحكم العرب مصيرهم بأنفسهم، ويعملوا على التمتع بمقدراتهم وخيرات بلدانهم.

غير أن هذا الفكر القومي، الذي رفع شعارات واضحة وأثار الحماس القومي عند مجموعات من الشباب العربي، لم يتمكن من بلورة نظرية عربية ذات مضامين

اجتماعية أو اقتصادية عميقة. وقد أدركت زاهية قدوره هذه الحقيقة التي ظهرت أمامها بكل مرارتها، فاعترفت بقصور الفكر القومي عن تلمس الطرق الكفيلة بتحقيق شعاراته؛ وربطها بمجرى النضال القومي. ومن هنا، فقد وجدت في طروحات جمال عبد الناصر[١٨٦] وأفكاره القومية، تجسيداً حقيقياً لإحداث ثورة نوعية في حياة الأمة العربية، ومجرى نضالها القومي.

آمنت زاهية قدوره بشعارات جمال عبد الناصر ومنظوماته القومية والوحدوية، التي لاقت تأييد الجماهير العربية، بسبب حاجتها إلى التغيير، وشعورها بأن ما قام به جمال عبد الناصر من خلال الثورة التي قادها، كان نتيجة معاناة كبيرة، وصراع نفسي وعقلي طويل، ملك عليه أحاسيسه ومشاعره. فاستطاع اقتحام الطريق لمواجهة الاستبداد الخارجي والاستغلال الداخلي، كما تمكن من التصدي للعدو الصهيوني، والوقوف بوجه العالم الغربي الطامع بخيرات العرب وثرواتهم القومية، والسيطرة على مقدراتهم السياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية. لقد شن عبد الناصر حرباً لا هوادة فيها على الاستغلال الداخلي، المتمثل بالإقطاع والاحتكار ورأس المال المستقل، الذي عمل على استعباد الناس وتسخيرهم وتجهيلهم، ونهب خيرات البلاد والتعاون مع الغرب، للإبقاء على مصالحه ونفوذه .

وأضافت قدورة، أن ملامح الشخصية الأساسية التي تحلى بها عبد الناصر، والاستقطاب الجماهيري الذي حازه، مكنه من تجسيد ملامح حلمه العربي، الذي كان يأمل تحقيقه في دولة عربية كبيرة، تقوم على الحرية والعدالة وتكافؤ الفرص، تحفظ حدودها وخيراتها، وتتعامل مع الدول الأخرى معاملة متكافئة، وتلعب دورها في المحيطين الإسلامي والدولي في إطار الحياد الإيجابي. وكان من رأيها، أن من يملك القدرة على إقامة هذه الدولة، يتمتع بسمات مميزة توفر له، مكانة مميزة بين شعبه، وقيادة رائدة لأمته .

وكانت تعتقد أن ثورة عبد الناصر عمقت مفهوم القومية العربية في النفوس التواقة لحمل رايتها والسير في ركب شعاراتها. وهي لم تكن شعارات كلامية فقط، بل كانت خططاً سياسية واجتماعية واقتصادية ونضالاً وعملاً، وجهداً وحماساً، لا بد أن تترجم إلى تحول لائق، لكل العرب وإلى احترام الإنسان العربي لأمته العربية.

وكان من أفكارها أن القومية العربية يجب أن تكون ضد التمييز العنصري بمختلف أشكاله، وضد الأحلاف بجميع أنواعها. وقد أيدت جمال عبد الناصر عندما

قال في كتاب فلسفة الثورة: « إن القومية العربية يجب أن تكون قومية اجتماعية ولشعب بعيد الجذور في التاريخ – دنيا وحضارة – ليست نقلاً عن القوميات الأوروبية، كذلك فهي قومية شعبية وليست طبقية، تقدمية وليست رجعية، إنسانية وليست عدوانية، مؤمنة وليست ملحدة، موحدة وليست مفرقة، تنصر الصديق وترد كيد العدو»[١٨٧].

غير أن الأمور لم تكن على هذه الأحوال طيلة الوقت، فقد نتأت بعض الشوائب والسلبيات التي شابت حركة القومية العربية، فأصيبت بهنات وتعرضت لعثرات أعاقت تطورها. فبقيت حركة ضعيفة من ناحية التنظيم، ولم تتمكن من اكتساب طابع الحركة العربية العامة للوطن العربي كله. بل كان عملها في أجزاء متباعدة في كثير من الأحيان، إن لم تكن متنافرة في أوقات كثيرة، نتيجة نوازع متعددة.

فقدت الحركة بعضاً من صفتها الديناميكية، في مرحلة كفاحها الأولى من دون أن تتهيأ للوضع الجديد. كما بليت في عهود مختلفة - حسب رأي الباحثة - بزعامات عقيمة سارت مع التيار من دون توجيه أو حيازة أي إيمان عميق. فنشأت ضدها ردود فعل شديدة، فيما خلا زعامة جمال عبد الناصر وقيادته، بسبب شخصيته الفريدة والمتميزة التي دفعت بها مسافة كبيرة إلى الأمام، وحازت معه أبعادها القومية والإنسانية الرفيعة.

وأكدت من ناحية ثانية، أن الحركة عجزت عن صهر الترسبات التي توارثتها، والتي وجب أن تذوب في بوتقتها لتصفو النفوس. وينطبق هذا الأمر، بصورة خاصة على الإقليمية الطاغية والطائفية الهوجاء. كما أن الكثيرين ممن واكبوها، وانحرفوا بها عن وجهتها القومية، بالرغم من أنهم محسوبون عليها، فاستغلوا اسمها لأغراض لا تتصل بالحركة؛ مما أدى إلى تصدعها في بعض الحالات وتشويه مبادئها.

في المقلب الثاني من الموضوع، نظرت زاهية قدوره إلى الوحدة العربية، كما نظرت إلى القومية العربية، فكلا الطرحين كانا عندها وجهين لعملة واحدة. والعامود الفقري لهذه المقولة وسندها القوي، هو التلازم الذي سعت إليه الكاتبة؛ وعملت على تحقيقه بين العروبة والإسلام، حيث كان لها في ذلك إسهامات متعددة وأنشطة مختلفة.

تمكنت هذه التعاليم والمفاهيم من نفسية زاهية قدوره وفكرها وعملها، خصوصاً وقد لوحظ عندها الاستعداد المطلق لتقبلها. بحيث سارت على هدي معلميها القوميين في تقديمها للشباب القومي العربي، الذين حاضرت عليهم ما اكتسبته من تعاليم ومفاهيم قيمة، وما عرفته من منطلقات وشعارات لتحقيق قومية عربية صحيحة، بغية

قيام الوحدة القومية وتحقيق الاستقلال لجميع الشعوب العربية.

وأشارت في مناسبات متعددة، إلى أن القومية وإن كانت ذات أبعاد مختلفة، ومفاهيم وتطلعات إنسانية، إلا أنها ليست شيئاً ملموساً، بقدر ما هي مشاعر وأحاسيس وآمال مستقبلية، من السهل تحسسها ومن الصعب تعريفها(١٨٨).

وتأسيساً على ذلك، فقد أثنت على تعريف زين نور الدين زين للقومية العربية الذي قال عنها: « الواقع أن القومية الآن لا يمكن تحديدها تحديداً واضحاً، إذ ليس هناك من تحديد واحد يمكن أن يشمل جميع النواحي المتباينة، والمتناقضات البارزة، التي تتميز بها هذه القومية. فهي حركة سياسية، وهي نوع من الإحياء الديني، وهي في الوقت ذاته حركة علمانية وثيوقراطية، وقوة إيجابية هدفها وغايتها القصوى توحيد العرب» (١٨٩).

كان توحيد الأمة العربية هاجسها الكبير، الذي أرق خواطرها وشغل تفكيرها، انطلاقاً من الإيمان بعراقة هذه الأمة وأصالتها؛ بالرغم من السلبيات التي شابتها. فكانت من أشد المطالبين بتوحيد مشارق هذه الأمة ومغاربها، توكيداً للآية الكريمة: **{ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون }** (١٩٠).

ب – اللغة العربية والقومية

وكانت ترى في اللغة العربية؛ قدرة عقلية ولسانية تم بواسطتها صياغة أفضل التعابير وأجمل المشاعر، فكانت لغة عالمية، حضارية وإنسانية(١٩١) في آن، عذبة النطق، غنية التعابير، نقل بواسطتها تراث عالمي هام، تمثل بالحضارة العربية الإسلامية، التي أغنت الحضارات العالمية وأكسبتها بُعْدَيْهَا الثقافي والإنساني(١٩٢).

وبالرغم من أنها لم تكن تدري في قرارة نفسها، أن التعليم سيكون السبيل الذي سيمهد أمامها الطريق لممارسة رسالتها الدعائية والقومية، لذلك ما أن عرض عليها المساهمة في العملية التربوية لشريحة واسعة من اللبنانيين، حتى التحقت بالمهمة التي أفسحت لها المجال للقيام برسالة التربية والتعليم، وغرس مفاهيم القومية والعروبة والوطنية في عقول طلابها، التي سبق لها وتشبعت بقيمها ومفاهيمها على كبار الأساتذة، من المفكرين والموجهين القوميين.

وقامت في معهد المعلمين العالي، (الجامعة اللبنانية فيما بعد) بتنفيذ هذه الوصية، التي واجهت لتحقيقها مصاعب كثيرة ومشاكل عديدة، تمكنت من التغلب

عليها، ووضعت من أجلها مؤلفات تربوية وتاريخية وثقافية واجتماعية، ساهمت بخدمة القضايا العربية التربوية والتعليمية. فاشتهرت بأنها داعية ومبشرة بفكرة القومية العربية، ومن الداعين إلى قيام الوحدتين الوطنية والعربية.

وأمكن العمل على ربط تطلعاتها هذه بنظرياتها إلى التاريخ والقومية العربية، مما تبين معه حجم تفاعلاتها الفكرية والثقافية. فالحركات القومية الموماً إليها، ليست إلا ردات فعل قامت في الأساس كنتيجة لسلسلة من التحديات الخارجية، لمنع دوام واستمرار الهيمنة الأوروبية والأجنبية على البلاد العربية، وقطع دابر استغلال خيراتها ومواردها الاقتصادية ونهب ثرواتها. ومن هنا فقد كانت منطلقات حركة القومية العربية، وحتى منتصف القرن العشرين بحاجة إلى التمحور في الدول العربية الطامحة للحصول على الاستقلال السياسي عن الدول الأجنبية، وضرورة قيام الوحدة العربية بين أقطارها، وترسيخ مجد الأمة التليد، والتذكير برسالتها العظيمة، وما حققته من مكانة وأهمية للإسلام والعرب(١٩٣).

فالمفاهيم الإسلامية التي سادت في القرون الوسطى وفق منطق زاهية قدوره، اعتبرت تمثيلاً لقومية الشعوب التي تنضوي تحت لواء الدين الإسلامي، شأنه في ذلك شأن المسيحية في أوروبا. ومن هنا، فقد رأت فشل المحاولة التي قام بها العثمانيون في القرن التاسع عشر، لاستغلال مكانة الخلافة من خلال حشد الشعوب الإسلامية، للدفاع عن مركز الخلافة الإسلامية التي كانوا يتخفون وراءها، لمواجهة الهجمات الغربية على الدولة العثمانية. ولكن الأتراك فاتهم حينئذ أن عصر الرابطة الدينية قد انتهى عهده وبطل تأثيره، من جراء قيام حركة القوميات في العصر الحديث. فأحبطت آمالهم من جراء تيارات اليقظة، وحركات النهوض التي لامست الشعوب العربية لتحقيق كياناتها، على أسس الشعارات والمبادئ القومية الجديدة التي صارت تمثل مصالحها المشتركة وثقافتها وتاريخها، التي توارثتها عن الأجيال السابقة.

فبدأ نشوء الفكرة القومية في أوروبا، وكان من دلالاتها القضاء على الإمبراطوريات الكبرى، وظهور دول جديدة نتيجة للمفاهيم القومية التي انتشرت وعمت بين الأوروبيين.

ولكن ما هي نتيجة هذه المقاربة عند غيرها من الكتاب والمفكرين القوميين؟ هنالك رأي قال به عبد القادر زبادية الجزائري، حول وجود شوائب وأغلاط شائعة

لمفهوم القومية العربية الحضاري. وذلك عندما تم ربطها بالمدلول العرقي الخالص، مما لا يمكن برهنته بسبب اختلاط العنصر العربي بغيره من الأعراف. إلا أنني أرى أنه بالرغم من الأمثال الحية التي يزخر بها التاريخ، فمن الملاحظ أن القومية في نظر زبادية بمعناها الحضاري تتسع ولا تضيق، وتتلاءم مع الفترة التاريخية العربية في بعض عصورها، وتخلص في نهاية الأمر، إلى تحقيق آمال العرب مستقبلاً في الوحدة والحرية والعدالة الاجتماعية[١٩٤].

وعالج محمد عمارة هذا الموضوع، بعد أن قام بجولة مطولة درس فيها وضع الدولة العثمانية، من الناحيتين السياسية والاجتماعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فلاحظ ضعفاً في مكانتها، مما دفعه لأن ينتقد الحالة التي وصلت إليها، وتحولها من دولة منيعة وقوية؛ إلى دولة ضعيفة ومتراجعة. فبعد أن تمكنت من الوقوف بوجه أطماع الدول الأجنبية، ومنعتهم من الإستيلاء على الدول والمناطق التي كانت من ضمن ممتلكاتها. رأى أن سبب تراجعها وتحولها من قوة عظمى إلى إمبراطورية متهالكة، عائد إلى أطماع سلاطينها وجشع ولاتها لتقاسم أجزائها فيما بينهم؛ مما أدى لقيام التنافس للوصول إلى قمة السلطة.

ومما ساهم في ضعف الدولة العثمانية أيضاً، السياسة العنصرية التي كانت متبعة، والممارسات القمعية بحق الشعوب والأجناس، التي نهضت للمطالبة بالاستقلال والانفصال عن حكم السلطنة العثمانية. فاستغلت الدول الأوروبية هذه الأوضاع لتحقيق أطماعها، بالسيطرة على تركة « الرجل المريض» .

رأت قدوره في هذه العوامل مجتمعة، سبباً لقيام الدول الأوروبية باستغلالها من أجل بسط سيطرتها على الشعوب العربية. فأدت هذه التداعيات إلى قيام الانتفاضات والثورات الشعبية، العسكرية والمدنية، لتحقيق استقلال الشعوب وترجمة آمالها وأحلامها بالوحدة والحرية، من هنا قامت الأمة العربية تبحث عن طريقها لتحقيق ذاتها. فنشأت حركة تجدد ذاتية ويقظة تحررية لتجاوز الواقع، بما فيه من عوامل الضعف الداخلي والتخلف الحضاري.

ورأت زاهية قدوره أن العرب قد بدأوا منذ القرن الثامن عشر سعيهم على طريق اليقظة والنهضة؛ لتسلم زمام الأمور من العثمانيين، بعد أن بدأ ضعفهم وهوانهم؛ يصيب العرب بالخسارة والكوارث. فكانت يقظة العرب القومية، كرابط العروبة

والقومية العربية وحركتهما الرائدة، الطريق الصحيح الذي كان عليهم سلوكه لتحقيق كيانهم، وإثبات ذاتهم وتحدي ظروف الأطماع الأجنبية التي تحدق بهم. فكانت حركة تسابق مع الزمن، قام بها العرب لاستغلال الظروف قبل أن تقوم الدول الأوروبية بضربهم، والقضاء على شعارات العروبة وطروحاتها التي لا توافق مخططاتهم الإستيطانية في الوطن العربي، ومحو منظومات حركة القومية العربية، المعممة للطروحات العربية، التي كانت تعتبرها الدول الطامعة؛ أسلحة فكرية وثقافية وعقائدية، ضد أهدافها التوسعية،وأحلامها بالسيطرة على الدول الضعيفة[١٩٥].

جاء في كتاب يقظة العرب لجورج أنطونيوس، في الفصل الثالث منه، أن بداية اليقظة العربية، جاءت نتيجة للحركة الفكرية التي نجمت عن مجيء الإرساليات، وبعثاتها التبشيرية إلى الشرق، خصوصاً الإرساليات الإنجيلية الأميركية، التي قدمت في بداية القرن التاسع عشر.

فأسس اليقظة العربية إذاً، كانت ذات نشأة أدبية وثقافية، ارتبطت بها ارتباطاً وثيقاً؛ مما كان سبباً في تعزيز وحدة العرب الروحية وحمايتها من التشرذم والانهيار. ويظهر من ناحية ثانية، أن الشعوب العربية لم تفرق بين العروبة والإسلام. بل رأت أن القومية العربية؛ ظهرت كفكرة واضحة التكوين والمعالم، عند ظهور الإسلام.

حدد جورج أنطونيوس بداية نهوض فكرة القومية العربية الحديثة، مع انطلاق الجمعيات الأدبية والعلمية خلال الفترة بين ١٨٤٧ - ١٨٦٨. وقدرت زاهية قدوره له هذا الموقف وساندته في الأفكار والأحكام التي أطلقها في الكتاب. في حين انتقده آخرون، واعتبروه من الذين أثروا في تأخر عوامل انطلاق حركة القومية العربية في رحابها الواسعة [١٩٦].

أما الأمير مصطفى الشهابي فقد حدد نشأة حركة القومية العربية وانطلاقتها، مع بداية اليقظة العلمية والأدبية في القرن التاسع عشر. ولم تكن هذه الحركة حدثاً فريداً آنذاك، بالرغم من أن مفهوم القومية لم يتبلور في أوروبا إلا في القرن التاسع عشر[١٩٧]. في حين رأى سليمان موسى، أن عام ١٩٠٨ كان بداية انطلاق الأعمال الممهدة، التي أدت إلى قيام فكرة القومية العربية وإنبعاثها[١٩٨].

أما نجلاء أبو عز الدين، فقد ربطت قيامها مع انبثاق الثورة العربية التي انطلقت من الحجاز سنة ١٩١٦، لتحقيق حلم الدولة العربية، وإن هذه لم تكن محلية بقدر ما

كانت حركة عربية كبرى، أراد منها العرب التعبير عن ذاتهم وكيانهم؛ وتحديد مصيرهم، من خلال استقلالهم عن الحكم التركي، ورفض استعبادهم من قبل العثمانيين. حددت هذا المفهوم، بقولها: « الاتجاهات التي تكونت ببطء خلال السنوات المئة السابقة، أيقظت في العرب بالتدريج شعورهم بذاتيتهم وكونت القومية العربية شكلاً، وإن لم يكن هذا الشكل قد تبلور بعد» [١٩٩].

وبالمقابل فقد رأت زاهية قدوره أن قيام حركة القومية العربية جاء نتيجة لأسباب عديدة، منها حالة الضعف والتقهقر التي أصابت الدولة العثمانية وترديها في كثير من السلبيات، بعد حركة الانفصال التي حدثت في بعض دولها وأقطارها الأوروبية، مما كان له آثاره وعواقبه على وجود الإمبراطورية، التي كانت كبيرة.

وربطت تراجعها بسياسة الإرساليات التبشيرية التي أتت بكثافة إلى الشرق، بحجج واهية ثقافية حيناً، وتعليمية أحياناً أخرى. وقد توسلت هذه الجماعات نشر الأفكار التقدمية لتعليم الشباب والناشئة، على مبادىء القومية التحررية سبيلاً لتعزيز هذه المفاهيم في نفوسهم وللسيطرة بواسطتها على عقولهم. وكان في ظن القائمين عليها أن هذه المحاولات ستحمل الشباب العرب، على الانتساب للجمعيات والمنتديات القومية التي أنشأتها الإرساليات، مما يجعل الشباب العرب ينصرفون عن التفكير في الوحدة والقومية العربية.

كان هدف سياسة الإرساليات من إقامة الجمعيات والمنتديات الأدبية، تحويل عقول العرب عن فكرة الدولة العربية التي كانوا يحلمون بها، ورأوها مجسدة في الإمبراطورية العثمانية في بعض أطوار حياتها لفترة طويلة من الوقت. وأشارت قدوره، إلا أن هدف الإرساليات فشل في تحقيق غاياته حتى بات يخشى على وجود المبشرين وأهدافهم، بعد افتضاح مخططاتهم وغاياتهم، فلجأوا لدعم أطماعهم بفرض الاحتلال العسكري وتطبيق حالة الانتداب بالقوة والقهر، على عدد من الدول العربية[٢٠٠].

ت – التيارات العربية النهضوية

أدى النشاط الاجتماعي – الاقتصادي الذي ساهمت الدول الأجنبية بقيامه في بعض الأقطار العربية، إلى نشوء طبقات اجتماعية متعددة، عملت على طرح أفكار وآراء لم يسبق أن كانت موجودة من قبل في الشرق العربي. وشهدت الفترة التي واكبت التطورات السياسية التي نجمت عن حركة الإرساليات، قيام دولة محمد علي في مصر، ورفع شعارات وتطلعات مختلفة، والاهتمام بالأفكار القومية التي برزت

في بعض الدول الأوروبية. كما ظهرت أفكار أخرى؛ نهضوية وتقدمية، لمصلحين نهضويين مسلمين وعرب، كالسيد محمد رشيد رضا[٢٠١] وجمال الدين الأفغاني[٢٠٢] وعبد الرحمن الكواكبي[٢٠٣]، فضلاً عن طروحات الشيخ محمد عبده[٢٠٤] ورفاعة الطهطاوي[٢٠٥]. مما أدى إلى فرز تيارات متعددة وأفكار مختلفة، باتجاهات متشابكة وتطلعات سياسية متباينة، ومنظومات فكرية وعقائدية تقدمية وتحررية كثيرة.

من هذه التيارات تيار راديكالي علماني ليبرالي[٢٠٦]، تزعمه فرانسيس مرّاش ورزق الله حسون، وسار في ركبهما كل من شبلي شميّل[٢٠٧] وفرح أنطون[٢٠٨] وقد دعا فريق من هؤلاء إلى الديموقراطية والعلمانية، بينما دعا آخرون إلى اشتراكية إسلامية. كما ظهر تيار إسلامي إصلاحي آخر، عبر كتابات جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده اللذين بشرا في كتاباتهما بقيام نهضة إسلامية قريبة من النهضة الدينية الغربية.

قابل ذلك، تيار إسلامي رجعي قاده أبو الهدى الصيادي وعزة العابد اللذان قاما بالدعوة للخلافة العثمانية، والترابط على أساس إسلامي.

ويبقى من هذه التيارات اثنان، واحد مثله نجيب عازوري[٢٠٩] وبطرس البستاني[٢١٠] وجرجي زيدان[٢١١]، وعرف بالتيار العروبي، تزعم الدعوة لقيام استقلال الأقطار العربية عن الدولة العثمانية ووحدة الأمة العربية. وتيار نهضوي قاده عبد الرحمن الكواكبي، حث فيه على قيام الرابطة العربية بالدعوة لعودة الخلافة العربية. وظهر بعد ذلك تيار تزعمه جمال الدين القاسمي[٢١٢]، الذي طرح فيه الدعوة لقيام قومية عربية إسلامية[٢١٣].

ادعى كل فريق أن الاتجاه الذي يمثله هو الصحيح، وأن فكرته هي الأفضل. غير أنه لوحظ جملة من الآراء أفرزتها تلك الجلبة، وشكلت حركة فكرية ثقافية، وسياسية واجتماعية، أثرت بشكل أو بآخر على مجمل الحياة العربية المعاصرة، مهدت السبيل لقيام تيار قومي عربي آمن بقوة الأمة العربية، وقدرتها على الوحدة والتوحد، وهو ما قامت تبشر به وتدعو إليه زاهية قدوره، منذ أن اعلنت انتسابها إلى عصبة العمل القومي.

ث – ما بين العروبة والإسلام

إن الدعوة إلى القومية العربية كانت – بالنسبة لزاهية قدوره - عبارة عن مزج العروبة والإسلام والدمج بينهما. غير أنها وجدت أن هذا المفهوم مغاير للحقيقة وللتاريخ العربي وواقعه المعاش. إذ ساهمت بعض القوى الغربية في هذه المغالطة لأسباب لا تخفى على أحد. ثم تغير هذا المفهوم وأصبح جلياً وواضحاً، بعد أن تم

إجهاض مشروع الدمج المصطنع لأسباب مختلفة. خصوصاً وإن الإسلام دين يرتبط به الإنسان مع خالقه، أما العروبة فهوية وصفة عيش مشترك، فضلاً على كونها تمثل تفاعلاً حضارياً بين المسيحيين والمسلمين، لديها القدرة على صيانة وجودهم، ومحاربة أعدائهم، وتحصين مستقبلهم وازدهاره. لأنها تشكل الأداة الفاعلة التي تستطيع أن تصهر جميع العرب، ومن كل الطوائف والمذاهب في بوتقة واحدة.

ولما كانت زاهية قدوره قد عرفت بانفتاحها الفكري والعقلاني، فقد باتت لديها القدرة على رؤية علاقة قوية تجمع ما بين القومية العربية والإسلام. وأشارت في مرات عديدة إلى أنه يمكن للعربي أن يكون قومياً وعربياً مسلماً في آن واحد، كما يمكن أن يكون قومياً وعربياً مسيحياً في ذات الوقت، مستدلة بذلك على النظريات التي تؤكد، أن حركة القومية العربية قامت على أيدي وبهمة المسيحيين قبل المسلمين[٢١٤].

لم يمنع هذا الواقع أن يكون التركي أو الفارسي أو الأفغاني أو الصومالي أو السنغالي، قومياً ومسلماً في الوقت نفسه. فهذه الخاصية، ليست محصورة بالمسيحي العربي؛ ولا بالمسلم العربي، إنما هي حالة عامة في رأيها. وتوافقت بذلك مع الأمير مصطفى الشهابي الذي قال: «القومية العربية لا ترتكز على عامل العنصرية، وإن يكن معظم سكان البلاد العربية؛ يمتون إلى سلالة بشرية واحدة، هي السلالة العربية القديمة المسماة بالسلالة السامية؛ ولا ترتكز على الدين، وإن يكن معظم هؤلاء السكان مسلمين. ففي القومية العربية العربي من تكلم بالعربية وأراد أن يكون عربياً، مهما يكن دينه، ومهما تكن السلالة البشرية التي ينتمي إليها، وفي القومية العربية المسلمون والمسيحيون سواسية، على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم. وهي تجل العقيدة الدينية القويمة، والتحلي بالأخلاق الدينية الفاضلة»[٢١٥].

ج – الحاجة إلى قائد قومي عربي

رأت الباحثة قدوره أن مشروع القومية العربية ما زال بحاجة إلى النضال، وما زال بحاجة إلى قائد مسيرة، انطلاقاً من اعتقادها ورؤيتها بأن كل مشروع يحتاج إلى شخص يطلقه. فكما أن كل فكرة أو حركة، تحتاج إلى قائد يتولى قيادتها للسير بها إلى غايتها المرجوة، كذلك الأمر؛ كان وضع القومية العربية. وطالما أن الأمة العربية، حسب رأيها، تفتقر إلى قائد، فإن طريق العمل القومي الجاد ما زال مفتوحاً وممكناً، بل إنه أكثر واقعية من كل ما يدعون، رغم ما يحيط به من صعوبات وعراقيل،

تفرضها القوى المعارضة للأمة العربية، التي تقف حائلاً دون تحررها وتقدمها، وتعمل جاهدة على إعاقة مستقبلها الوحدوي. ثم جاءت التطورات العالمية والإقليمية والعربية المتسارعة منذ فترة طويلة وحتى الآن، لتؤكد مدى جدارة الحل القومي، وشرعيته ومصداقيته، لمواجهة مشكلات التخلف والتبعية والتجزئة، التي جهدت قوى الإمبريالية والصهيونية العالمية في ترسيخها[٢١٦].

وقال بضرورة تمحور الفترات التاريخية المتعاقبة حول قومية التاريخ. وقد نشأ ذلك من حركة الصراع الذي تعرضت له الذات العربية وما زالت، في بعديها القومي والحضاري. فلا بد إذاً عند كتابة التاريخ العربي، من أن يتم النظر إلى الصراع الدائر، الذي تقوده قوى الهيمنة والتسلط العالمية على كل صعيد، على أنه صراع على المصير والوجود.

فالصراع الحضاري الذي كانت ترى أنهم يحاولون فرضه على الدول العربية؛ غايته تفتيت معالم الشخصية القومية والحضارية، والانحراف بمفاهيمها المشتركة، وإزالة الخصوصية العربية، ووحدة التحرك والمصير. فالظاهرة الأساسية التي يجب تلمسها في بعض الكتابات، هي إظهار التناقض بين الواقع والرؤية. فالواقع الذي جزأه الاستعمار الأوروبي سياسياً وحدودياً، هو من أجل إيجاد «جسم غريب» في الوطن العربي، للعمل على تجزئته فكرياً وقومياً[٢١٧].

إن التيارات التي ناهضت حركة القومية العربية، وادعت أنها كانت مرحلة أثبتت فشلها؛ في مواجهة ما تعرضت وتتعرض له المنطقة من هجمات واعتداءات مضادة. وإذ تبين للبعض من هؤلاء، أن العامل الديني قادر على أن يكون بديلاً عن العامل القومي، فقد ظهر أنهم يحاولون أن يوجدوا صراعاً بين القومية العربية والدين الإسلامي، أو يسعون إلى إسقاط عامل القومية العربية وتهميشه؛ تحقيقاً لأغراض دينية.

وتساءلت عن السبب الذي يدفع بعض الآراء إلى التشكيك في متانة العلاقة القائمة بين الإسلام والقومية العربية. وجاء الرد في أبحاثها ومؤلفاتها، التي أكدت فيها على وجوب التلازم القوي بين القومية العربية والإسلام. فالقومية العربية تجد في الإسلام جزءاً لا يتجزأ من تراثها، وعوناً لها على تجذير ثورتها[٢١٨].

ح – حتمية القومية العربية

إن مجيء حركة القومية العربية حتمي، في ظل ضرورة تاريخية، وبتميز رابطة القومية العربية عن الرابطة الدينية العثمانية، بعدما مارس التعصب القومي

التركي؛ التسلط عليها بحجة الخوف على الإسلام والحرص على دولة الخلافة. إلا أنه ستظل القومية العربية حائلاً دون أي تسلط. ومن هنا، كانت الدكتورة من المؤمنين بتكون الأمة العربية، ودخولها التاريخ، وهي تصنع الإسلام، كما أن الإسلام نشأ وبلغ مداه وهو يصنع الأمة العربية، ولا يمكن بالتالي الفصل لا ماضياً ولا حاضراً ولا مستقبلاً بين الاثنين. لذلك فالإسلام الحقيقي بكل تراثه وقيمه، يشكل الجزء الأكبر من الثقافة القومية لأي عربي، مسلماً كان أو غير مسلم، وبالتالي فالجماهير العربية يجب أن تكون صادقة في إسلامها .

على ضوء ذلك، لم تر أي تناقض بينهما، بل أكدت أن القومية ليست نقيضاً للإسلام، وأن دوره الثوري التغييري هو في صلب الحركة القومية، الذي مارسته في أكثر من موقع من مواقع المواجهة على امتداد مساحة الوطن العربي. لذلك اعتبرت من الذين فضلوا الإسلام الديني، على الإسلام السياسي .

كانت من المؤمنين بأن القومية العربية من العوامل الدافعة للمجتمع العربي، لتغيير أوضاعه والقضاء على ما فيه من تجزئة وتفتيت، والسعي لممارسة أنشطته في كل جوانبها، على أساس من وحدة الأمة العربية. وأشارت إلى أن القومية هي تعبير عن وعي الإنسان بنفسه، وبالروابط التي ينتمي بها إلى جماعة كبيرة. وكانت تؤمن بان القومية العربية كما الوحدة العربية، ليستا من نسيج العواطف أو وليدتي الشعارات، بل هما ابنتا التاريخ والجغرافيا، وهذه الازدواجية نادرة؛ فهما حتميتان وجزء أساسي من التكوين العضوي للمنطقة العربية[٢١٩].

يستخلص من مجمل هذه الأفكار التي طرحتها عن القومية العربية، والآراء التي وضعتها لهذا المفهوم وعن ورؤيتها له، أنها لا بد من قيامها على أساس وحدة الوجود القومي للعرب، لذلك فهي تستلزم وحدة الأمة العربية في دولة واحدة. وإذ كانت قد رأت، أن الوطن العربي كلٌ لا يتجزأ، فالنضال القومي لتحريره وتوحيده وفق منطقها؛ وحدة لا تتجزأ.. فالعالم العربي كائن متحد لا سبيل إلى إنكاره.

فالقومية العربية تنبع من صميم الشعب العربي نفسه، وتنبثق من تراثه التاريخي والحضاري، وتعبر عن أمانيه وتطلعاته. وكأنها بذلك تمثلت بقول جمال عبد الناصر: «ليست القومية العربية التي يحاولون اليوم أن يطفئوها، فرداً أو أفراداً أو زعيماً أو زعامات، ولكنها شعب قوي آمن بنفسه وآمن باتحاده في سبيل قوته، حتى

يقضي على الطامعين، وحتى يقضي على المستعمرين»[٢٢٠].

فالقومية العربية وفق المفهوم الثوري العربي الذي قاده جمال عبد الناصر ليست شعارات فقط، ولكنها تخطيط سياسي واجتماعي واقتصادي ونضال وعمل، وجهد وحماس، ولا بد أن تترجم إلى تحول لائق، لكل العرب وإلى احترام الإنسان العربي لأمته العربية.

ومن الأفكار الأخرى، التي راحت تدعو لها أن القومية العربية ذات جذور تاريخية، ترجع إلى أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، منذ أن صار الوطن العربي، بمفهومه الحالي، وطناً للعروبة. فحينما خرج العرب من جزيرتهم إلى بلاد الشام والعراق ووادي النيل وشمال أفريقيا، وجدوا مجالاً لانتشارهم وامتزاجهم بالشعوب التي تسكنها..

فامتزج العرب لغة وفكراً وثقافة وعاطفة...فكانت اللغة العربية؛ لغة الشعب العربي كله... وكانت الثقافة والفكر والمثل العليا في الحياة العربية، واحدة في جميع أجزاء الوطن الكبير.. وجاءت المصالح والأهداف مشتركة في رأيها، وليدة الترابط التاريخي والجغرافي والاقتصادي. على هذه الأسس، قامت القومية العربية كحقيقة لها واقع في التاريخ، وواقع في كل مظهر من مظاهر الحياة العربية[٢٢١].

فالقومية العربية بالنسبة إليها، كانت قومية شعب انصهر في بوتقة واحدة، وقومية شعب لا يعرف الطائفية أو التعصب. وقومية شعب امتزجت دماؤه، واشتبكت مصالحه، واتحدت غاياته، واتجه إلى هدف واحد. تعززت هذه الطروحات نتيجة إنتمائها إلى التيار الناصري ودعمها له بكل قوة. بحيث اشتهرت بأنها من أشد المؤمنين بشعاراته وطروحاته، ومنها: «لقد انتصرت القومية العربية لأنها من وحي الشعب العربي، ولأنها تنبت من بين أرجاء الأمة العربية. ولأنها تتفاعل مع نفوس الأمة العربية، ولأنها تعبر عن المعارك الكبرى، المعارك التي كافح العرب دائماً في سبيل الانتصار فيها»[٢٢٢].

يعتقد كثرون من أبناء الأمة العربية، أن القومية التي تمثل أنفسهم وتمثل ضميرهم، وتمثل إيمانهم، وتمثل قلوبهم، سوف تنتصر لأنها حركة تاريخية، وتطور طبيعي لوضعهم العربي.

فالهدف السنيّ لها وفق منطق الكاتبة؛ كان تحقيق الوحدة، الوحدة التامة بين أجزاء الوطن العربي كله، فالوحدة سبيل للقوة وسبيل للرقي. وقد رأت فيها، الطريق الوحيد لصنع كيان عربي متماسك، لمجابهة محاولات السيطرة والتحكم، والوقوف بوجه

الأطماع الأجنبية الراغبة باستنزاف ثروات المنطقة العربية واستغلالها استغلالاً كاملاً.

وأكدت زاهية قدوره على ظاهرة مفادها أن كل من كان يقرأ تاريخ الأمة العربية، يراها تتعرض للهزيمة عندما كانت تنقسم على نفسها، فتتفرق وتسيطر عليها الحزازات والأطماع، مما كان يسهل إلتهام دولها واحدة إثر أخرى، فكانت تسقط جميعها تحت السيطرة الأجنبية، وجحافل الغزو التي توالت عليها. مما كان يسبب الهزيمة للعرب، الذين كانوا يغيبون في ظلام التجزئة لضعفهم. ومن هنا، سعت الباحثة للتركيز على سعي الطامعين لبث الفرقة بين النفوس، وتقسيم الأمة العربية إلى شيع ودويلات، وذر بذور الكراهية والأحقاد بين أفرادها وشعوبها، ليسهل الاستيلاء عليها : «ومن التاريخ الماضي نعرف أن سبب الهزيمة كان دائماً هو التفكك والانقسام والأحقاد، وأن المستعمر كان يعمل دائماً على أن نتفكك وعلى أن ننتكس»[٢٢٣].

وبينت في مؤلفاتها ودراساتها، أن المنطقة العربية عندما عاشت مرحلة الاتحاد والتضامن، استطاعت أن تهزم أعتى الجيوش وأقواها. وعندما كانت دولة واحدة، تمكنت من أن تهزم الروم، وحينما حاول الروم أن يعودوا مرة أخرى هزمتهم لأنها كانت متحدة[٢٢٤].

فالوحدة التي دعت إليها، هي الدرع الذي يجب أن تتكسر عليه موجات الغزاة، في حين كان التفكك والانقسام هما الوسيلة التي نفذ بها المستعمر لكي يخضع ويسيطر ويتحكم. فبالوحدة كان النصر حليف الأمة العربية، التي تمكنت بواسطتها من الانتصار على أعدائها خلال الحروب الطويلة التي تعرضت لها وما تزال. فالوحدة سبيل النصر، وسبيل العزة والقوة والمنعة، كما أثبت لها التاريخ ذلك[٢٢٥].

يمكن أن تنتصر القومية العربية بذلك، كما انتصرت بوحدة العرب وتضامنهم وتماسكهم – وفق ما أشارت إليه الدكتورة - لأنه بالوحدة والتضامن يكون للقومية العربية إرادة نافذة، ومشيئة قوية فعالة لا تستطيع أن تقف في وجهها المطامع الاجنبية، أو تعوق مسيرتها المؤامرات المختلفة[٢٢٦].

خ - التصدي لأنطون سعادة

بهذه المعاني عرَّفَتْ زاهية قدوره القومية العربية، التي عملت لها وبذلت في سبيلها وافر جهدها لتعميمها بين الجماهير العربية. وظلت لفترة طويلة من حياتها، وبالرغم من تقادم السنين عليها، تعمل لها بهمة الشباب وعزيمة الرجال، إندفاعاً من

الإيمان ببعث الوحدة الوطنية أولاً، والعربية ثانياً، للتمكن من تحقيق المشروع القومي العربي المنشود.

هذا المشروع الذي نهضت له من اتخذت من العمل الوطني، والنضال القومي شعاراً لها في الحياة ومنهجاً، حشد حولها الخصوم، وجند في وجهها المناوئين والمناهضين، ليس أقلهم الحزب السوري القومي الاجتماعي بطروحاته المعروفة، التي سببت لها الخلاف الفكري والعقائدي مع شقيقها أديب قدورة [٢٢٧] المعروف بأنه كان أحد قادة الحزب المبرزين، كما تجادلت قبل ذلك مع زعيم الحزب أنطون سعادة[٢٢٨].

ويعود منشأ الخلاف بينهما إلى أن زاهية قدوره، كان من صلب عقيدتها وإيمانها أنها ضد شعارات الحزب القومي السوري الاجتماعي الذي كان يعارض مفهوم الأمة العربية، وينشط لمفهوم الأمة السورية. تصدت زاهية قدوره لهذا الطرح، وأعلنت معارضتها له، بالرغم من الصداقة التي ربطت بينها وبين انطون سعادة، وقالت في أحد الأيام أنها لم تنتسب إلى الحزب مطلقاً، إنما أيدت بعض أفكاره، وليس الشعارات والمبادىء التي عارضت معظمها. وكررت القول: « لم أنتمِ في أي يوم إلى هذا الحزب... »[٢٢٩] .

عارضت قيام الهلال الخصيب، ولم تؤمن بالفكرة التي عمل لها الحزب طويلاً، ولم تساير شقيقها في هذه الناحية على حساب مبادئها وشعاراتها، بل كانت في خصام دائم معه، فكرياً وعقائدياً. كما اصطدمت في أحد الأيام بأنطون سعادة شخصياً، عندما تصدت له بينما كان يقوم بزيارة شقيقها في منزله، وقالت له: « بدلا من أن تقوم بالدعوة إلى وحدة وهمية أنت تعرف مسبقاً استحالة قيامها، لماذا لا تقوم بالدعوة إلى قيام مشروع الوحدة العربية التي تجمع الدول العربية أولاً، وتصبح الزعيم العربي القومي، بدلاً من أن تظل زعيماً لحزب واحد، يختلف معك الكثيرون حول طروحاته وهي من تعاليمك أنت؟»[٢٣٠].

وتجدر الإشارة، إلى أنه عثر في أرشيفها على أوراق، ضمت عدة أفكار عن مشروع سوريا الكبرى أو الهلال الخصيب، وهو مشروع الحزب السوري القومي الاجتماعي، جاء فيها ما مضمونه: أن الأمير عبد الإله[٢٣١] بدأ العمل جدياً لتحقيق مشروع سوريا الكبرى في أثناء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤١، وجاء في أوراق أخرى أن عبد الإله، تلقى دعماً من إنجلترا لتحقيق مشروعه العربي، خصوصاً بعد أن رأت حكومة صاحبة الجلالة البريطانية قرب انهيار فرنسا.

وبعد وفاته، انتقلت أمانة المشروع إلى نوري السعيد[٢٣٢]، الذي طرح تصوره عنه في اجتماع لجامعة الدول العربية عام ١٩٤٥، من دون أن يلقى تجاوبا يذكر من مندوبي الأردن ولبنان وسوريا وفلسطين. وبانتهاء دور الأمير عبد الإله من الترويج لفكرة الهلال الخصيب – كما أشارت - يبدأ دور نوري السعيد للقيام بتنفيذ فكرته وإيجاد المؤيدين والأنصار، وكل ذلك بدعم قوي ومباشر من البريطانيين.

الغاية من ذلك الإشارة، إلى أنه ليس بمستغرب أن تصطدم بانطون سعادة، الذي كان من شعاراته: «أن الوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الأمة السورية، وهي ذات حدود جغرافية تميزها عن سواها، تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي، وجبال البختياري في الشمال الشرقي، إلى قناة السويس والبحر الأحمر في الجنوب، شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة، ومن البحر السوري في الغرب، شاملة جزيرة قبرص، إلى قوس الصحراء العربية، وخليج العجم في الشرق. ويعبر عنها بلفظ عام: الهلال السوري الخصيب ونجمته جزيرة قبرص»[٢٣٣].

كما لم تمنعها عاطفتها الأخوية من التصدي لشقيقها أديب، والاختلاف معه في آرائه السياسية، وطروحاته العقائدية المؤيدة للمشروع، وكان يحتدم النقاش بينهما، ويتطور ويتشعب إلى تصور كل منهما لآراء سعادة ومنظوماته، حيث كان يظهر الخصام الفكري والعقائدي الموزون، ليصطدم بالمنطق الواعي السليم. ولما تم سؤالها عن سبب معارضتها لشعارات الحزب السوري القومي الاجتماعي وطروحاته ؟ قالت: «إنني لا أعادي الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي اتهمت في يوم من الأيام بأني إحدى عضواته، مما لم يحصل في المطلق، وبالرغم من أنني على علاقة وثيقة مع معظم أركانه، إلا أنني لا أؤيد هذا الحزب في معظم منطلقاته وطروحاته، وأهمها على الإطلاق، هدف تحقيق سوريا الكبرى. فبدلاً عن ذلك، وبالرغم مما سوف يسبب هذا من أوضاع، لماذا لا نعمل على تحقيق الوحدة العربية الكبرى، التي طالب بها جمال عبد الناصر؟ لماذا لا نقوم بتجميع موارد الأمة العربية العظيمة تحت راية القومية العربية، والوحدة العربية، بدلاً من تشتتها وتفرقها ؟» [٢٣٤].

د – حرب على المستوى الثقافي

حملت زاهية قدوره هذه التطلعات والرؤى، وجاهدت لأمة عربية حلمت بالعيش فيها بعزة وكرامة، وعملت لها وحاربت كثيراً من أجل تحقيقها، بالرغم من غياب

المستعمر الأجنبي عن بلادنا. إذ أن الاستعمار الحديث لم يعد عسكرياً، بل بات أشد وأدهى من تواجد العناصر والقوات. كأنني بها قصدت الإشارة، إلى أنه استعمار ثقافي واجتماعي وسياسي كالذي يعمل على فرضه علينا بالقوة أحياناً، وبالترهيب والترغيب أحيان كثيرة. هذا الاستعمار الجديد الذي يدخل إلى العقول والبيوت والمجتمعات وحتى المنتديات، من دون استئذان، هو الذي نهضت زاهية قدوره لمحاربته طوال مسيرة كفاحها، أكان في الجامعة اللبنانية أم في خارج الجامعة، في الشارع والحي والزاروب والمجتمع كله.

وعندما كانت تشير إلى استخدام الدول الكبيرة لإمكانياتها العسكرية والاقتصادية، فهي تعني بالعسكرية اللجوء إلى وسيلة الترغيب والترهيب المستعملة منذ أزمنة طويلة، ضد الدول والشعوب المقهورة والضعيفة. أما الإمكانات الاقتصادية فاللجوء إليها كإحدى الضغوطات تجاه الشعوب، لها مدلولات مختلفة. ذلك أن البحبوحة والترف الاقتصاديين يولدان الرفاهية والرخاء الاجتماعيين. أما القلة المادية والعوز الاقتصادي أو المعيشي، فإنهما غالباً ما يكونان مدخلاً إلى الاستغلال الإنساني بمختلف أشكاله.

من هذه المنطلقات يجب محاربة الاستعمار الجديد، الذي راح يغزونا بحلته الجديدة، الثقافية والاجتماعية، وهي نفس النقاط والعناوين التي قامت للتنبيه من مخاطرها، وضرورة التيقظ من مسالكها الاستعمارية الجديدة.

وقد رأت، إنتصاراً للأمةالعربية في حربها الجديدة، انطلاقاً من إيمانها بقدراتها، ومعرفة إمكانياتها التي حازتها منذ أيام صلاح الدين الأيوبي، وزادتها بالعلم والتنور زمن عبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده ورفاعة الطهطاوي. هذه هي الأمة العربية التي آمنت بها زاهية قدوره، واعتبرتها حائزة من المنعة والمجد والقوة، ما يجعلها قوة موحدة في مواجهة اعتى الدول. ولذلك قالت: « ستنهار الإمبراطوريات الاستعمارية من ذاتها، وستنهض أمتنا، لأنها تحمل في أعماقها بذور أعظم الحضارات التي أضاءت العالم كله لقرون عديدة»[٢٣٥].

تسللت هذه المعاني إلى داخلها، وسط معمعة الحروب الطويلة التي شنت على الأمة العربية، وعلى الأفكار التي تسربت من داخلها. فكانت تطلع عليها جمهرة المثقفين في المنتديات اللبنانية والعربية، لتكشف فيها بعض مخاوفها القومية والعربية، عندما شعرت بمدى الحاجة إلى قيام حملة سياسية وفكرية وثقافية، لفضح مجمل التحركات المشبوهة وكشف المخططات الخفية الموضوعة حولها.

عملت على تنظيم حملة جيدة لتوعية الجماهير العربية على جميع القضايا والأمور. وهذه مهمة جديدة كانت في رأيها، من المفترض أن يوازيها في الأهمية والضرورة، تحرك يشارك فيه عدد من المفكرين، للعمل على شرح كثير من عناوين توعية الجماهير على مفاهيم العلاقة الجدلية بين العروبة والإسلام، وموقف الواحد منهما من الآخر، سواء كان ذلك تناقضاً أم تواصلاً، ثم القيام ببحث آلية الصراع الذي يشن على العروبة والإسلام من قبل القوى الأجنبية.

فحذرت من الحروب التي تشن على التيارين القومي والإسلامي، بحجة أنها تيارات تعمل على تقويض دعائم السلام العالمي. ودعت باستمرار، إلى تعاون هذين التيارين وإندماجهما في خط واحد، على أساس من التكامل والتضامن، لفضح المؤامرات المذهبية، التي شنت تحت أستار طائفية، وكانت من سمات العصر في كثير من الدول العربية.

١٣ ـ مفهوم الناصرية السياسي في فكر زاهية قدوره وكتاباتها

قامت بينها وبين جمال عبد الناصر علاقة فكرية وسياسية، امتدت منذ اليوم الأول لقيام ثورة تموز/ يوليو عام ١٩٥٢، واستمرت حتى وفاته عام ١٩٧٠، وبقيت ترافقها طوال سني عمرها الطويلة، وكانت ممن حملوا الراية من بعده. فالكتابة عن طروحات المسيرة الناصرية، حتمية بالنسبة إليها، لأنها في كل يوم كانت تولد في ذهنها فكرة، وفي كل صباح كانت توجد لديها عبارة عن عبد الناصر. وبالرغم من أنها لم تخصص كتاباً أو بحثاً ما، إلا أن لها مقالات ومحاضرة عنه وعن ثورته ومبادئه. وتركت أوراقاً كثيرة كتبت فيها نقاطاً مختلفة عن العلاقة الفكرية والروحية التي نسجتها مع المبادئ الناصرية، وأيدت فيها الثورة التحررية التي أحدثتها.

وأشارت في إحدى اللقاءات إلى أن الدنيا كبيرة عندما يملؤها الكبار بحضورهم، وتصغر إذا ما انتشرت في جنباتها حشود الصغار. وكانت تعني بذلك، أن التاريخ العربي قبل عبد الناصر كان تاريخاً جميلاً، وهو الذي نعلمه في المدارس والجامعات، وأصبح هذا التاريخ مع عبد الناصر جهداً حياً تحركت به السواعد للعمل، وتفاعلت فيه الأفكار بالعطاء، ونبضت فيه القلوب بالمحبة[٢٣٦].

وخطت على أوراق أخرى، أفكاراً متفرقة عن الحركة الناصرية. ومنها: «في أواخر الأربعينات من القرن الماضي، عصر الألم قلب الأمة لما عانته من أسباب التفرقة، ولما شهدته من مظاهر الفساد، ولما قاسته من صنوف الاستغلال والسيطرة.

وبلغ الألم ذروته في قلوب العرب عندما شهدوا علم العروبة يهوي عن مشارف فلسطين، وعندما رأوا شعبها ينزح عن أرضه مثخناً بالجراح، وعندما رأوا دولة العدوان تسيطر على تراب الأباء والأجداد.

«وفي الزمن الذي أثقلت فيه النكبات كاهل الأمة العربية، كانت ولادة جمال عبد الناصر، الذي تجمعت فيه سمات المعلم القائد. والسبب أن ميلاد الأبطال لا يؤرخ بالسنين، وإنما بالأحداث الخطيرة، وبما يظهره أبطالها من قدرة على التأثير فيها»[٢٣٧].

حمل جمال عبد الناصر في هذه الفترة من التاريخ العربي إرادة التغيير لواقع الأمة العربية، فكان حرباً على التخلف في شتى صوره، التخلف المسيطر على كل ظاهرة من ظواهر الحياة العربية، في السياسة، كما في الاقتصاد، كما في المجتمع كما في الأخلاق. وكانت حركة التغيير صعبة لأنها ضرورة شاملة، ولكن القائد الكبير - كما أشارت - حملها ببسالة، وناضل في سبيلها بتجرد وحرص، حتى وكأنه قد وضع المسألة الخلقية في مقدمة المبادىء التي ناضل من أجلها الجميع[٢٣٨].

استطاع عبد الناصر من هذا المنظار، أن يشخص حال الأمة، ومساوئ التخلف والضياع التي كانت تعاني منها. فنظر من خلال الأخلاق إلى السياسة، فالتزم بالصدق والشجاعة. ومن خلال الأخلاق نظر إلى الاقتصاد، فالتزم بالعدالة، ومن خلال الأخلاق نظر إلى المجتمع، فالتزم بالحرية. ومن خلال الأخلاق نظر إلى أجزاء الوطن، فالتزم بالقومية والوحدة. ومن خلال الأخلاق نظر إلى العالم؛ فالتزم بالنزعة الإنسانية .. لم تكن المبادىء التي نادى بها جمال عبد الناصر، مجرد شعارات تقوم على الاستهواء، بل كانت وما زالت قيماً تنبع من معين الأخلاق، والسلوك العربي الأصيل[٢٣٩].

رنت زاهية قدوره إلى هذه المعاني وإلى القيمة المتأتية من ميلاد عبد الناصر. فرأت فيها فرصة كبيرة لإعادة إحياء الأخلاق العربية، التي تمثل جوهر السلوك العربي الأصيل لإرادة التغيير.. وهنا يطرح السؤال التالي: أو ليست الخيانة أولى المساوئ الخلقية التي ثار عليها جمال عبد الناصر؟ .. وكذلك: أو ليس الاستغلال من جملة الشرور الاجتماعية التي كان يرفضها عبد الناصر؟..

فرأت عنده إيماناً قوياً بدور الجامعة، التي اعتبرها من المبادىء الأساسية التي يقع على عاتقها مهام كبيرة، في نشر قيم الخير والعدالة التي حملتها الثورة. ووجد في الشباب الجامعي المثقف؛ خير نصير لقضايا الإنسان العربي، وللقضايا الإنسانية

جمعاء. فكان تكريمه للعلم والعلماء. كما عزز المرأة وحررها وقدر لها كفاءاتها، وأسند إليها أفضل المناصب وأحسنها، فضرب بذلك مثلاً رائداً في بناء الأوطان. لذلك قال في الميثاق:» إن المرأة لا بد أن تتساوى بالرجل، ولا بد أن تسقط بقايا الأغلال التي تعوق حركتها الحرة، لتستطيع أن تشارك بعمق وإيجابية في صنع الحياة«[٢٤٠].

ولعل أهم الثوابت التي أثارت إعجابها في فكره، موقفه من الإنسان؛ مصرياً وعربياً وسعيه إلى حقه وتقدمه. وكان طريقه إلى ذلك التنمية في جميع المجالات.

كانت ممن يرون أن النصر عمل، والعمل حركة، والحركة فكر، والفكر فهم وإيمان، وكل هذه العناوين تبدأ بالإنسان.. ولذلك أشارت، إلى أن الإنسان قد مثل في فكره روحاً وطاقة، فكراً وحركة، مشاعر وعقلاً، وذوقاً وثقافة. في الروح استلهم الحاجة إلى التغيير في مصر فتياً، ثم حول الحاجة إلى تفكير، ومنه إلى التخطيط، ووجد أن التنظيم هو طريقه إلي الإنسان الذي كان عماده دائماً.

إن خير ما يقدم في ذكرى ميلاد إنسان هدية يسر بها، وإن خير ما يقدم في ذكرى قائد كبير، هدية قوامها الحرص على تطبيق تعاليمه قبل الحرص على نشرها «إن جمال عبد الناصر لم يمت، إنه حي في قلب كل عربي متعشق للحرية والكرامة..»[٢٤١].

وأشارت إلى أن مواقفه الوطنية والقومية ظهرت في أثناء دراسته الثانوية ومن ثم في الكلية الحربية. ومن خلال اشتراكه في حرب فلسطين، التي خرج منها بضرورة العمل على تحرير المواطن العربي، والإنسان في كل مكان، من كل تسلط وكل هيمنة وتبعية، مهما كانت عاتية وجبارة . لذلك كانت الفترة الناصرية مرحلة جديدة في تاريخ العرب القومي والسياسي، لها منجزاتها القومية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، واعتبرتها سجلاً حافلاً في دعم الثورات العربية، والوقوف معها وإلى جانبها، ومساندة حركات التحرر في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

دافعها لذلك، الوضع الذي كان سائداً قبل الثورة، قبل أن يفجر عبد الناصر ثورته القومية. ومن خلال سيطرة حالة الإحباط، التي نتجت عن ضياع فلسطين وما تلاها من اخفاقات عربية متلاحقة، شرقاً وغرباً. فضلاً عن حالة الضياع العامة التي سادت تلك الحقبة، وإنصراف الأجيال العربية إلى البحث عن الذات المشتتة بين ظلمات الردة، وأنظمة التفتت، ورحلة البحث عن الهوية القومية. بحيث سيطر على الوطن العربي الوهن والتخبط، في وقت كانت حركة التحرر العربية تعاني من هزائم متتالية،

وسط ضغط الاحتلالات الغربية، والانتدابات العسكرية التي كانت ترخي بظلالها على أصقاع مختلفة من الأرض العربية.

في هذا الجو، ووسط حالة الترهل التي كانت تعاني منها بلاد العرب على مستوى الأنظمة، لمحت بوادر ثورة بدأت باجتياح جيل هزيمة فلسطين، الذي لم يكد يستطيع التعبير عن نفسه من خلال بعض الحركات الشعبية والطلابية.

لم يكن بمستغرب أن يشهد الوضع العربي في تلك الحقبة، غلياناً عارماً في ظل نكسة «انسلال فلسطين من بين ظهرانينا»، في ظل اختمار بذور دعوات التحرر القومية التي أشتد ساعدها في تلك الحقبة، كرد على الهزيمة، وكبديل عن شيوع دعوات الاتكاء إلى الاستعمارات والانتدابات الأجنبية؛ مما حتم انتظار الشرارة الأولى لبزوغ فجر ما، في بقعة ما، من الوطن العربي.

وأتت الشرارة الأولى من البعيد، من مصر، من شمال أفريقيا العربية عندما استيقظ الوطن العربي برمته على فجر جديد ليعلن ولادة حقبة جديدة في العصر العربي الحديث، كانت بلا شك، وبكل جدارة حقبة جمال عبد الناصر وعصره.

أسست حركة عبد الناصر - كما أشارت - لنهضة قومية شملت الوطن العربي برمته، وأسقطت عن حركة التحرر الوطني العربية ما علق بها من أدران الهزيمة، وأسهمت بشكل أساسي في تجاوز العرب لنكستهم النفسية التي بدت مستحيلة الحل أو التقدم.

وأكدت، أن الثورة قد شكلت مفصلاً حاسماً في تاريخ الأمة العربية، إذ أطلقت الوعي العربي ووضعت يدها على الداء. فكان القدر أسرع مما توقعه عبد الناصر ومما توقعته الأمة العربية، عندما انفجرت ثورة الضباط الأحرار، الذين ثاروا على التسلط والاستكبار، وجابهوا الاستعمار وأعوانه في كل مكان من الوطن العربي في معارك عدة، وأعادوا بناء المواطن المصري، خاصة والعربي عامة[٢٤٢].

لقد شكل عبد الناصر رمزاً تاريخياً في كيان الأمة العربية، هدفه الصدق والوعي والجرأة، وقوة الإنسان ليكون القائد في التعبير عن آماله. كما أوجد جيلاً من الشباب، الذي اعتبره قائداً منقذاً لكل جزء من الوطن العربي، وظهرت أبعاد ذلك بشكل خاص، بعد أن أحدث غيابه تراجعاً للحركة الوطنية والقومية، وفتح المجال لمزيد من الهجمات الشرسة التي قامت بها الدول الاستعمارية الحديثة وربيبتها الصهيونية[٢٤٣].

كان عبد الناصر أول زعيم عربي استقطب ولاء الجماهير، فقد وضع مفاهيم

ومقاييس سياسية حديثة في العلاقات الدولية، بين الدول الفقيرة والدول الغنية، وبين الدول الكبيرة والدول النامية والمستضعفة. فأعاد للكرامة العربية مكانتها السابقة، التي مكنت العرب مجدداً من التصدي للاستعمار والظلم الداخلي. كما نهض لترسيخ فكرة الوحدة العربية. فكان بذلك أول زعيم عربي يقف مع الشعب، ويلقى تأييد ومساندة الجماهير على امتداد الوطن العربي، لأن هدفه كان الشعب العربي ومؤسساته وحريته. كان برنامجه، إقامة المصانع والمؤسسات، وإحياء الأرض والموارد، وليس الخطابة والكلام، وقد حاول ترجمة ذلك في وقائع مختلفة، وبطرق تنفيذية وعملية[٢٤٤].

أما علاقته بفلسطين، فكانت كعلاقة الأب بأولاده وبمسؤولياته الكاملة تجاههم. فقد كانت فلسطين محور عمله وتفكيره ونضاله منذ معركة الفالوجة[٢٤٥]. وكانت فلسطين بالنسبة إليه قطباً عربياً مهماً، وكان يعتبرها ميزان وجود العرب. وكانت شغله الشاغل، أو ليس هو القائل: «لا صلح، لا تفاوض، لا اعتراف بإسرائيل... إن القدس عربية، يجب أن تكون عربية، وبغير ذلك لن يكون هناك سلام. لا يمكن أن نتوصل إلى سلام عادل طالما تتمسك إسرائيل بأراضينا التي تحتلها، وتحول أبناءنا إلى لاجئين.. إن ما نريده ليس سلام الاستسلام والخضوع لتوسع القوى الإسرائيلية، بل السلام القائم على الكرامة..»[٢٤٦].

لقد فتح عبد الناصر طريق الحرية والاشتراكية والوحدة، ورسخ شعارات الكرامة والعزة والثقة بالذات، بدءاً بالعامل والفلاح، وسائر طبقات الشعب.. أو ليس هو القائل: «أرفع رأسك يا أخي، فلا استعلاء ولا تكبر، ولا استكبار، أرفع رأسك يا أخي، فقد ولى زمن الاستعباد والاستعمار»[٢٤٧].

ولما كان للقومية العربية مكانة مهمة في فكر عبد الناصر الذي عمل لها وسعى لنشرها، فقد رأت زاهية قدوره: «أن عبد الناصر أعتنق القومية العربية بمحتوى ديموقراطي اشتراكي موحد منسجم مع الإيمان الديني، إذ لا تناقض بينهما، فالعروبة هي السبيل الوحيد لتحرير العرب، من التخلف والاستعمار، والانتصار على العصبية السلبية وعلى الطائفية والمذهبية، والمناطقية والقطرية، بهدف التوحيد والانصهار في بوتقة عربية صادقة»[٢٤٨].

وفسرت نظرته إلى العروبة، فوجدت أنها كانت عنده هي التي تجمع بين أمة العرب على اختلاف دياناتهم، وهي ليست الإسلام، على خصوصية علاقتها به. إنها انتماء وهوية، إنها علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، أرضاً وتاريخاً وتراثاً. والإسلام

ليس العروبة، فهو علاقة الإنسان مع ربه، ومع الإنسان احتراماً لإنسانيته وحقوقه الشرعية والبشرية. فالعروبة التي عرفتها في مفهومه، كانت الرابط الوطني والقومي بين العرب، كل العرب، مسلمين ومسيحيين.

أما عن علاقته بلبنان، فقد كان حريصاً على وضعه، لأنه كان يدرك أوجاعه وأمراضه، فأوصى بتلاحم أبنائه. فكان لمصر وللبنان ولكل العرب، دون تفريق أو تمييز. واستطاع وضع الأمة العربية في طريقها الصحيح، طريق الوحدة العربية.

كان عبد الناصر ظاهرة لا تتكرر، ورمزاً لا يجود الدهر بمثله. لذلك قالت في إحدى مناسبات الاحتفال بذكراه: «يا أبناء العروبة في كل مكان، يا من أحبكم جمال، وعمل من أجلكم، يا من أحببتموه، وخسرتموه، ويا من أحببتم البلد الذي أنجب جمالاً، هذا البلد الذي حمل ولا يزال عبء العروبة منذ أجيال طوال، بصبر وشجاعة وتضحيات، عليكم إذاً، واجب تجاه العروبة وجمال، واجب تجاه القيم والأخلاق الناصرية التي أصبحت أمانة في أعناقكم، عليكم أن تتعهدوها بالرعاية . وعليكم أن تلتزموا بها سلوكاً ومنهجاً للحياة، لأنها لا بد وأن تحمل لهذه الأمة ميلاد فجر جديد»[٢٤٩].

١٤ ـ العروبة والإسلام في فكر زاهية قدوره

وضعت زاهية قدوره نظرياتها عن العلاقة بين العروبة والإسلام، تحدثت في بدايته عن فكرة نشوء العروبة التي عزتها إلى ظهور الرابطة الدينية غداة قيام الدولة العثمانية، كردة فعل على ممارسات السلطان عبد الحميد الثاني[٢٥٠] بحق الإسلام والمسلمين، مما مهد الطريق حسب رأيها لمحمد علي باشا[٢٥١] لإعلان مشروعه العربي عام ١٨٤٨، الذي أعتبرته النواة الأولى لقيام حركة القومية العربية المناوئة للعنصرية التركية أو القومية التركية المعروفة بالطورانية[٢٥٢].

وأشارت إلى أن الدول الاستعمارية القديمة سخرت كل قوتها للقضاء على سيطرة الدولة العثمانية. فأيدت محمد علي للوقوف بوجه الدولة العثمانية؛ وشجعته في بداية الأمر في مشروعه القومي العربي. وعملت على إنشاء الجمعيات؛ بحجج وتسميات واهية لدعم سياستها. إلا أنها ما لبثت أن نقضت تعهداتها السابقة بدعم مشروعه للخروج على سلطة الدولة العثمانية، بعد أن رأت بوادر اليقظة العربية، تتفتح على بواعث ومشاعر مشتركة، قومية عربية، وعروبية إسلامية[٢٥٣].

ثم تطرقت في دراستها إلى الجذور الحقيقية للاتجاه العروبي، الذي تمثل

في عدة حركات إسلامية إصلاحية، نهضت بهمة علماء مسلمين، ورجال مشهود لهم بتقواهم وإيمانهم الإسلامي القوي، بوحدة العقيدة والشريعة.

من أولى الحركات التي أشارت إليها، الحركة الوهابية [٢٥٤] التي دعا إليها محمد بن عبد الوهاب فنسبت إليه وعرفت بالوهابية. وعمل على نشرها في منطقة نجد في المملكة العربية السعودية، على أرجحية قرشية الخلافة تأكيداً على عروبة الحكم والقادة. وعرفت الحركة الثانية بالسنوسية، نسبة إلى محمد بن علي السنوسي[٢٥٥] الجزائري، الذي انتقد تخاذل السلطة العثمانية عن صد الهجمات الأوروبية والغربية على الدول العربية، التي كانت تحت حمايتها. كما اندلعت ثورة المهدي ضد الأتراك لتأكيد حرصه على عروبة السودان.

وذكرت زهية قدوره أن هذه الحركات كانت من صلب عقل العربي المسلم، الذي راعته الحالة التي وصلت إليها أوضاعه السياسية والدينية، من جراء سياسة الظلم والتعصب، التي كانت تتبعها الدولة العثمانية ضد رعاياها من غير الأتراك. وعلى ذلك كانت ترى، أن وصول الأوضاع إلى هذه الدرجة من التردي، بين السلطنة ورعاياها؛ كان الباعث على نهوض العديد من الحركات، وأخصها بالذكر حركة التعصب العربي، وبمعنى آخر تيار العمل على بعث المد العروبي الإسلامي. هذا التوجه هو ما أشار إليه رفاعة الطهطاوي، وهو التيار الذي ضم جمهرة كبيرة تشكلت من عناصر عربية عديدة، غلبت على أبناء السواحل منهم ليونة الخلق، بينما اتصف سكان المناطق الجبلية بقوة المراس والشكيمة، إلا أن هؤلاء وأولئك عرفوا بلسانهم العربي الفصيح، وبمحافظتهم على أجناسهم وأنسابهم العربية الأصيلة[٢٥٦].

ومن التوجهات التي أشارت إليها، أن قيام رواد الإصلاح وتيار الجامعة الإسلامية بقيادة السيد جمال الدين الأفغاني، جاء كردة فعل للمد الاستعماري الغربي، الذي راح يبسط هيمنته ونفوذه على امتداد مساحة المشرق العربي الإسلامي. فقام هذا التيار، لينفي وجود أي تناقض بين العروبة والإسلام. لا بل على العكس من ذلك، لقد عمل هذا التيار على إقامة الوحدة الإسلامية. فالجامعة الإسلامية لم تكن في نظر الأفغاني وغيره من رجال الإصلاح، ترى تعارضاً بين التيارين الوطني والقومي.

وكان للشيخ محمد عبده رأيٌ آخر في الموضوع، بعيد عن رأي الأفغاني. فقد عاب الشيخ الإمام التأخر الذي أصيب به المسلمون إلى ضعف أفراد وجماعات من

المسلمين أنفسهم، وليس إلى ضعف الإسلام: « إن تأخر المسلمين لا يدل على تأخر الإسلام، فالإسلام شيء والمسلمون شيء آخر، حيث أن تعاليم الإسلام في العصر الحديث تختلف على ما هم عليه المسلمون في الوقت الحاضر...أي أنهم لا كما كان المسلمون الأوائل» [٢٥٧].

ورأت أن السيد رشيد رضا كان من أشد المدافعين عن استمرار الصلة العضوية بين العروبة والإسلام، وعبر عن نظراته تلك، برسالة بعث بها إلى الأمير شكيب أرسلان سنة ١٩٣٥، أكد فيها: « أن مجد الإسلام إنما يحفظ بمجد العرب، فلا بد من السعي لحفظه بالوحدة العربية، وعلى وجه لا يخل بسيادة الدولة العلية[٢٥٨].

ولم يشذ عبد الرحمن الكواكبي عن هذه الطروحات النهضوية الإصلاحية؛ بل غلب العلاقة الجدلية بين العروبة والإسلام، وتزعم تياراً دعا لتأسيس دولة عربية موحدة، تقوم على أنقاض التيار الطوراني. فالكواكبي رأى العرب «عماد الإسلام وبالعرب اقترن اسم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. مما جعل التواصل والترابط بين العروبة والإسلام وثيقاً، لا بل متلازماً منذ البدء، تجسدت وحدتهما في الخلافة التي وجدت في قريش»[٢٥٩]. فاعتبر بعضهم الكواكبي أنه ذهب في دعواه وأفكاره إلى نواح ومجالات أكثر تطوراً وتقدماً ممن سبقه من الإصلاحيين، مما جعله يتسم بالجرأة لتجاوزه للطروحات العثمانية. فعد لذلك رائداً في أسلوبه وتقدمياً في توصيل كلماته وفي تبليغ منظوماته، فكان من أوائل الدعاة العرب إلى الاتحاد الوطني وليس الديني[٢٦٠].

في الجزء الثاني من مبحثها عن العروبة والإسلام، تحدثت زاهية قدوره عن رجالات الإصلاح في العهد الحديث؛ كالأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي ومصطفى كامل، ورأت في كل واحد منهم مزايا ومساهمات؛ منفردة أو مكملة لمن سبقه بالفكر والتوجه.

ولكن لماذا تناست ذكر رفاعة الطهطاوي؟ الذي سبق بكتاباته كثيرين غيره، وكان له أثر ملحوظ على طروحاتهم فيما بعد. يحتمل أن يكون السبب، نتيجة تأثر الشيخ محمد عبده به تأثرا بيناً وظاهراً، خصوصاً بالنسبة لما ذكره الطهطاوي من أن تاريخ مصر لم يبتدئ مع الإسلام، بل - وكما أشارت وفقاً لما أورده الطهطاوي في نظريته التاريخية - إن تاريخ مصر القديم لم يكن كله وثنياً، حسبما جاء على لسان بعض الأزهريين، بل كان تاريخاً مليئاً بالتمدن والحضارة، وقامت بينه وبين الحضارة اليونانية، والحضارة

العربية الإسلامية، والحضارة الأوروبية، إشارات وتفاعلات بغاية الأهمية[٢٦١].

ولمزيد من الأضواء على العلاقة بين العروبة والإسلام، لا بد من فهم الجذور الطبيعية والتاريخية التي كونت أسس الحضارة العربية الإسلامية، وملاحقة دورها في بعث الحضارة العالمية. إن عدم الربط بينهما يعتبر مسحاً للحضارة العربية، وإسقاطاً لدورها في الحضارات العالمية. والسبب أن التاريخ ماضي الأمة وضميرها والحافز إلى مستقبلها. هكذا يجب أن يدرس التاريخ ويُدرّس بموضوعية وصدق ونزاهة. وهو موضوع يمكن أن يوصف باليسر كما بالعسر، إذا ما قر الرأي على الخوض في جنباته المختلفة. فوُصف بالبساطة من دون معاناة.

والملاحظ في العلاقة بين العروبة والإسلام، أنهما يشكلان مجالاً لحوارات مستفيضة، وإجراء الأبحاث الكثيرة، وإلقاء المحاضرات المتعددة. فضلاً عن عقد المؤتمرات التي يجب أن تتناول البحث حول العروبة ودورها في الدين الإسلامي، والإسلام ودوره في انتشار العروبة ونهوضها. وفي سبيل ذلك عقدت لقاءات كثيرة بحثت فيها هذه العلاقة الجدلية، بطرق وأساليب مختلفة. وظهرت طروحات نادت بتلازم العروبة والإسلام بالضرورة والوجوب؛ مما فرض على الباحثين عدم إغفال دور الإسلام في أثناء الحديث عن العروبة، أو تناسي الإشارة إلى مكانة العروبة ودورها في الإسلام، عندما يتركز الحديث عن سمات ومميزات الدين الحنيف. وظهرت آراء ترى في العروبة؛ جسماً روحه الإسلام[٢٦٢].

طالبت زاهية قدوره بتعزيز العلاقة بين العروبة والإسلام، وكانت تقول دائماً بالعمل على تلاقيهما الدائم. كانت تعتبرهما صرحين لا يفترقان. وفي إحدى تلميحاتها إلى الموضوع، كتبت تحث على تحصين الموقع الإسلامي بالعروبة، لم تخشَ على العروبة من الإسلام، بقدر اعتزازها من حماية الإسلام للعروبة، تجاه كل ما يصادفهما من صعوبات ومشاكل وترهات.

قالت: « العروبة هي الجامع بين فئة من الناس، وتعتبر الصيغة الوحيدة لربط العرب، من حيث اتجاهاتهم وتطلعاتهم ومصالحهم، وهي ليست إحياءً لصيغة عنصرية متعالية، ولكنها في واقعها صيغة تعايش بين المسلمين والمسيحيين، الذين يعودون إلى منبت واحد في الجزيرة العربية. وللعروبة مهمتان: وطنية وقومية، وهي الوحيدة القادرة على جمع وصهر الفئات، من خلال التنسيق والتكامل بين الفئات حتى الوصول

إلى الهدف المنشود في الوحدة الشاملة وإيجاد الرفاهية للشعوب»[٢٦٣].

ثم انتقلت بعد التعريف بالعروبة، إلى الكلام عن عقيدة الإسلام الدينية وعلاقته بالعروبة. فقالت: «أما الإسلام فهو عقيدة دينية ونظام حياة، ومن قدر البشرية أن العروبة والإسلام تواصلا وتكاملا، فكونا معا حضارة عربية إسلامية عالمية، كانت الحضارة الرائدة في العصور الوسطى، وكان لها الفضل في الحفاظ على الحضارة؛ إلى مطلع عصر النهضة»[٢٦٤].

ولكن، هل هناك من تناقض بين العروبة والإسلام؟ بعضهم يقول لا بد من ذلك، كقسطنطين زريق[٢٦٥]، في حين تنفي قدوره حدوث أي تناقض أو تعارض بينهما. ويؤكد ذلك كل من ساطع الحصري[٢٦٦] وعصمت سيف الدولة[٢٦٧].

ويرى آخرون أن العروبة الحقة، هي تلك المقولة التي تعني انفتاح العرب على العرب بروح الأخوة والاعتزاز بالذات وبالشراكة التاريخية. كما تعني أيضاً انفتاح العربي على العالم؛ بروح الترقي والتقدم والقيم الإنسانية العليا. وقد توافقت هذه النظرية مع إيمان زاهية قدوره واعتقادها، بأن العروبة المطلوبة ليست في اقتراب العربي من العربي فقط، بل هي في اقتراب الاثنين من كل الأقوام؛ مما يجعل الإنسان ابن عصره في احترام الحريات والحقوق، وفي التنور والإمكانات والإنجازات وبالتالي في القدرة[٢٦٨].

نظرت إلى العروبة على أنها صيغة توحيدية، وهي الوحيدة، التي يمكن أن تحول دون تفتيت الأديان إلى مذاهب، وتسخيرها لأهواء الساسة والسياسيين. التي يمكن أن تسقط كل التناقضات، التي تعيق تطور الشعب والأمة. ويعود ذلك لكون كل صيغة توحيدية؛ إنما هي صيغة علمية، وكل صيغة علمية؛ إنما هي صيغة حضارية، بقدر ما تسهم هذه الصيغة في تقدم الإنسان وإعلاء شأنه وصون كرامته.

إن الحديث عن دور كل من العروبة والإسلام في الآخر، لن يستوي الحديث فيه ولن يمضي في مساره الصحيح وفق رأيها، إلا بتناول الموضوع من وجهته التاريخية، للكشف عن مجالات الالتقاء. فقد أتفق بعض المؤرخين والكتاب، على أن الأمة العربية كانت قد سبقت الإسلام في الظهور في الجزيرة العربية. في حين رأت تبايناً حول اعتراف بعضهم، من أن العرب قبل الإسلام هم الذين هيأوا لظهور الإسلام. إلا أنها أشارت - استناداً إلى بعض المنظومات التاريخية - إن العرب كانوا قد تهيأوا واستعدوا لتقبل الإسلام، وحمل رسالته للنهوض بها في مختلف أرجاء العالم. ويغلب

الظن أن ذلك لم يكن ليحصل لولا استعداد فطري وآخر عقلاني عندهم.

وقد لاحظت أن الاستعداد الفطري حصل، لكون النبي محمد كان من صميم هذه الأمة، بينما الاستعداد العقلاني؛ نتج من جراء نهوض العرب لحمل رسالة الإسلام، وتمثيلها بذواتهم الإنسانية. فاستحوذ هذا الجانب على جملة من الأمم، التي استعربت وأمدت العروبة من بعد ما أسلمت بدماء جديدة، مما تمخض عنه ضخ دم جديد في جسد الأمة العربية.

كما رأت أن العروبة والإسلام، تعبيران متكاملان يشيران إلى ثورتين تاريخيتين حضاريتين، وهما بالرغم من اختلاف الظروف والمرحلة، ينبعان من منبع واحد، هو استعداد الأمة العربية المتجدد للمشاركة الإيجابية في المصير الإنساني. فضلاً عن كون هاتين المقولتين تجابهان مشكلات أساسية متشابهة في الجوهر. وأشارت إلى أن ثورة الإسلام هي ثورة على التجزئة والتخلف والجهل، أخذت شكل الثورة المطلقة، التي قادها نبي مرسل، مما جعل من العروبة بعد أربعة عشر قرناً، ثورة على التجزئة والتخلف والنفوذ الأجنبي، ضمن واقع العصر ومنطق الحضارة الحديثة [٢٦٩].

ذكرت زاهية قدوره في مقولة لها أن الإسلام دين التوحيد المطلق، والدعوة الأبدية من أجل تحرير الإنسان، من كل أشكال العبودية لبني البشر ما خلا التعبد للخالق وحده. يواجهها في الجانب الآخر الحركة القومية، التي هي حركة سياسية؛ غايتها تحرير الإنسان العربي، من كل أشكال التبعية للقوى الأجنبية والصهيونية كأمة، وتوحيد المجتمع العربي سياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً.

كانت هاتان الدعوتان تحرريتين وتوحيديتين، رغم الاختلاف الكبير بين طبيعة كل منهما. فالإسلام دين إلهي منزل، وحركة القومية العربية حركة سياسية إنسانية، قاعدتها وحدة الانتماء الحضاري إلى الأمة العربية. ورغم الاختلاف الكبير بين طبيعة كل منهما، إلا أن الوشائج وثيقة والعلاقات متينة. ومهما كانت الزاوية التي ينظر فيها المرء إلى العلاقة ما بين الإسلام من جهة، والعروبة كانتماء حضاري وقومي من جهة ثانية، فقد رأت زاهية قدوره تكاملاً وتداخلاً تامين فيما بينهما، ولا يوجد حسب رأيها، ما ينم عن تناقضهما أو قيام الخلاف بينهما.

وعلى هذا الأساس، دعت لدحض المزاعم القائلة بأن العلاقة بين العروبة والإسلام علاقة تناقض[٢٧٠]. وفي هذا الصدد، افتعلت صداماً فكرياً وثقافياً، مع بعض القوميين الذين صوروا العروبة على أنها منظومة منسلخة عن الإسلام، وبأنهم أرادوا

قيام حركة عربية قومية تبني المستقبل العربي، إن لم يكن بالتناقض مع الإسلام، فعلى الأقل بمعزل عنه. فتصدت لهذه المزاعم، ومثيلاتها، وعملت على فضح دعاتها ومروجيها. وبينت أن هؤلاء سخروا طاقاتهم الفكرية والثقافية للترويج لأطماعهم، التي استعانوا عليها ببعض الأفكار الغربية المناهضة.

لم تنظر زاهية قدوره للعروبة والإسلام على أنهما دائرتان إحداهما أكبر من الأخرى، تحتوي الكبرى الصغرى، وإن كلتاهما تقوم على أساس الأخرى. هذا التداخل لا يقاس بالعلة والمعلول كما اعتقدت، ولا بالمقدمة والنتيجة، وإنما بالسياق والمواءمة، أو بالتمايز والتكامل[٢٧١].

فالطرق التي سلكاها، سواء أكان في الدائرة العربية؛ أم في الدائرة الإسلامية، محفوفة بجملة من المفاهيم والممارسات الخاطئة. منها نزعات غريبة فرضت نفسها على مدى تاريخ العرب الطويل كالشعوبية، والعنصرية والطائفية، منذ ظهور الإسلام حتى اليوم. فهناك فئة لم تر في الإسلام إلا أنه عقيدة دينية ترسم للإنسان طريقه في الحياة. وأخرى تريد أن يكتفي من الإسلام بالجانب الحضاري العروبي. وثالثة حاولت أن تتخذ منه مطية إلى السلطان. والحقيقة أن الإسلام إذا كان قد حقق للعرب غاية ما كانوا يتطلعون إليه، فإنه بعالميته ودعوته الإنسانية، وضع الناس جميعاً من كل لون وجنس ولسان، سواسية كأسنان المشط[٢٧٢].

فالإنسانية في الإسلام أسرة واحدة كبيرة، تحكمها روح الأخوة مصداقاً لقوله تعالى:{ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً**}[٢٧٣]. وقال تعالى:{ **يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكرى وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير**}[٢٧٤]. **وكذلك**:{ **لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى** } و{ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** }. هذه هي المبادئ التي أنطلق بها الإسلام إلى أرجاء الدنيا المظلمة بالجهل والتخلف، ليحقق بها رسالة الأنوار السماوية من نور المصطفى، بلسان عربي مبين، نافياً عن الكتاب الكريم العجمة.

إن عروبة القرآن كما قيل، أوجبت على العرب تحمل أعباء تبليغ رسالة الإسلام ومضامينها السامية إلى العالم قاطبة. فكانوا بذلك رواد مشاعله الأول، الذين أوجبوا الانتماء إلى العروبة، بوجوب الانتساب إلى الإسلام. في الوقت الذي لا ينفي

فيه مثل هذا الانتماء أو ذاك الانتساب، ما يجب أن يحمله من روح الإسلام وعالميته وإخائه الإنساني. ولذلك صح كل ما يوصف بأنه عربي قولاً وفعلاً وانتماءً وانتساباً، فيما يتمخض عن وضعه الإنساني. هذا إذا كان هناك إخلاص حقيقي للعروبة. وإذا كان اليقين أن الإسلام دين، فالعروبة التي تمخضت عن الإسلام لا تقف منه على النقيض، وإنما يتسع بها الإسلام الذي يمدها بوفرة من القيم والآداب والعناصر، حتى ليصعب أن تجد أمة في مثل مركبات الأمة العربية[٢٧٥].

تلك بعض المعاني والقيم التي أتى بها الدين الإسلامي، فضلاً عن أن القرآن الكريم الذي نزل بلغة العرب، فقد حصنها ببلاغته وحصن اللغة العربية بقدسيته. فدان انتشارها من هذه الناحية للإسلام بالشيء الكثير. أما الفتوحات العربية فقد حررت العرب من تسلط الفرس والروم؛ وجعل المجموعات البشرية التي كانت موجودة آنذاك تنعم بقيم الإسلام، الذي عمل على صهرها في بوتقة إيمانية واعتقادية واحدة، مهدت السبيل لتآلفها في قومية واحدة، بدون عوائق أو سدود. فيكون الإسلام بذلك، قد وفر للأمة العربية عبر تعاليمه السماوية، قيمها ومفاهيمها التي استلهمتها لصياغة حياتها، وتنسيق أنماط معيشتها، وترتيب أوضاعها وممارساتها الاجتماعية[٢٧٦].

كما رأت، أن الإسلام والقرآن قد صانا عروبة كل العرب، في موارثيهم الثقافية والأدبية، لا فرق في ذلك بين مسلم ومسيحي لأنهم تبلوروا بقالب إنساني واحد، فأصبح الإسلام وكأنه عقيدة قومية إلى جانب كونه عقيدة دينية. فلا خوف من العروبة إذاً، فإذا كان الإسلام يُعرِّب، فمن المؤكد أن العروبة لا تُوَسلِم. هذا ما أكده التاريخ العربي الذي عاش في كنفه مفكرون ومترجمون عرب، من أديان شتى ظلوا محتفظين بدينهم في ظل الحضارة العربية الإسلامية، وفي ظل الدولة الإسلامية العربية[٢٧٧].

اتسمت هذه الأفكار الإسلامية بالعمق والرقي والفهم، فضلاً عن استيعابها لكل الأفكار الأخرى، لأنها رأت فيه نظاماً شاملاً للحياة الإنسانية، مبنياً على قواعد اعتقادية وفكرية وتنظيمية، جاء بها الأنبياء والرسل، ثم ختمها الإسلام وفصّلها في شعائر من الوحي، الذي أنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحفظها لكل الأجيال في القرآن والسُّنَّة. فإذا كان الإسلام يشتمل على هذه المعاني، فما هي العروبة التي عرفتها ودعت إليها زاهية قدوره؟ لقد كانت تتمثل في رابطة انتماء حضاري وقومي إلى أمة عربية تكونت تاريخياً، وتميزت عن غيرها من الأمم بسمات متعددة.

إن بناء أنماط الحياة العربية وفق تعاليم الإسلام وعلى هدي من مفاهيمه يستلزم كما أشارت زاهية قدوره، تفقهاً في اللغة والثقافة العربيتين ومعرفة بأسرارهما، وهو التفقه الذي تفرضه عروبة القرآن نفسه. فلا بد والحالة هذه من الإشارة، إلى أنه إذا كان ممكناً أن يتوفر في الأمم الإسلامية غير العربية، أفراد قادرون على التبحر في اللغة العربية وآدابها وأسرارها وثقافتها، وأن يكونوا أيضاً قادرين على استيعاب نصوص القرآن الكريم، واستنباط الأحكام اليومية من تعاليمه.

فإنه لا يمكن أن يتحقق هذا الأمر على نطاق شمولي إلا في الأمة العربية؛ لأن لغتها لغة القرآن، وثقافتها وتراثها هما العمود الفقري للتراث الإسلامي. الأمر الذي يجعل منهاج العرب في حياتهم القومية، وتوجهاتهم في كل المجالات، النموذج، والقدوة الذي يحتذي به العالم الإسلامي.

لعب الإسلام دوراً حاسماً في تكوين الأمة العربية، لأنه لم يكن هناك وجود لأمة عربية قبله. إنما يظن أنه كانت هناك قبائل عاشت على جزء من الأرض العربية، عربية اللسان متعددة اللهجات، متنافرة ومتناحرة، سيطر عليها التعصب القبلي وانعدم شعورها القومي. وعندما بعث النبي محمد، بدأت معه عملية التكون التاريخي للأمة العربية. فقد حدد الرسول المفهوم الحضاري للعروبة بقولـه: «أيها الناس، ليست العربية من أحدكم بأب أو بأم، وإنما العربية عربية اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي»[٢٧٨].

وعلى ذلك، فإن موقع الأمة العربية داخل العالم الإسلامي يفرض عليها أن تتحمل على مر الزمن، مسؤولية وأعباء الدور الريادي والقيادي في هذا العالم على كل الصعد، وهو دور يسلم لها به كل المسلمين ولا يسلمون به لغيرها، على الأقل تنفيذاً لما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: «أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي ولساني عربي ولسان أهل الجنة عربي»[٢٧٩].

وتعتقد قدوره، أن تاريخ العرب الإسلامي يدل بوضوح على أن قوة العرب وعزتهم، من عماد قوة الإسلام ونهضة المؤمنين به. وحينما زال سلطان العرب السياسي، وانتقل الأمر في دولة الخلافة إلى الفرس والأتراك، بدأت عوامل الضعف تسري في جسد الشعوب الإسلامية، حتى وصل بهم الأمر إلى الوهن والتخلف والفرقة. فكان ذلك دليلاً على صحة قول الرسول العربي، الذي ما كان ينطق عن الهوى، عندما أشار إلى أنه: «إذا عز العرب عز الإسلام، وإذا ذل العرب ذل الإسلام»[٢٨٠].

ويترتب على العلاقة الوثيقة بين العروبة والإسلام، نتائج عدة، تتمثل بنقاط منها:

١ - إن محاولة تفريغ العروبة من مضامينها الإيمانية الإسلامية، بطرح العلمانية أو الإلحاد أو الاثنين معاً، هي محاولة فاشلة سلفاً لإعادة الأمة العربية إلى جاهليتها الأولى. وهي محاولة لتمزيق نسيج المجتمع العربي الذي يشكل الإسلام لحمته.

٢ - إن العداء للعروبة باسم الإسلام، هو عداء للإسلام نفسه، والعمل لإضعاف العروبة، عمل يستهدف إضعاف الإسلام نفسه.

٣ - إن العداء للعروبة، ينطوي على عداء للغتها وتراثها الحضاري والثقافي، أي عداء للغة القرآن والعمود الفقري للتراث الحضاري والثقافي الإسلامي. وبالتالي فالعداء للعروبة يعني نظرة عدائية لتاريخ العرب، وتقييماً سلبياً لأعلامه ورموزه، وهذا بحد ذاته، ما قالت عنه قدوره: «إنه عداء صريح لتاريخ الإسلام وأبطاله وقادته»[٢٨١].

وكان العداء للعروبة من وجهة نظرها، ينطوي على عداء لآمالها، وهو بمثابة عمل لإجهاضها. وهذا نهج معاد للإسلام، لأنه يساهم في إضعاف العرب، وإضعاف الإسلام في العالم. ومن جهة أخرى، فإنه يضع من يعمل على تبنيه في نفس موضع القوى المعادية له، ولا يغير من هذه الحقيقة كثرة الشعارات الإسلامية التي يرفعها من يمارس العداء للعروبة. لأنه عداء للجنس العربي ولكل من ينتمي إليه، وهذا الموقف العنصري يدينه الإسلام ويشجبه، لأنه يدين العنصرية من جهة، ومن جهة ثانية فقد جعل حب العرب إيماناً وبغضهم نفاقاً، وفق ما ورد على لسان النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ويظهر من مطالبها باستشراف حقيقة العلاقة بين العروبة والإسلام ووعي أبعادها الإنسانية، ضرورة أن نعي في الوقت نفسه، حقيقة نهضة الأمة العربية ووحدتها، وبالتالي نهضة العالم الإسلامي وتضامنه مع بعضه. مما يطرح أمام العرب والمسلمين مهمتين، وهما: أن العرب مطالبون بتحرير أرضهم، وتحقيق استقلالهم القومي، وبناء دولتهم العربية الواحدة. ومن ثم الانطلاق في بناء حياتهم، استناداً إلى مفاهيم تراثهم الحضاري وقيمه العربية الإسلامية، وجمع شمله في إطار جامعة إسلامية تعبر عن تضامن الشعوب الإسلامية في كافة المجالات.

ولا بد من الإشارة في هذا المجال، إلى النظرية التي توافقت فيها زاهية قدوره مع القائلين، بأن كل من أتخذ الإسلام ديناً له والعروبة لساناً فصيحاً ينطق به، أصبح

عربياً، بالمعنى الجديد الذي جاء به الإسلام لمفهوم العروبة أو الجنسية العربية، وهو مفهوم قومي، اكسبه الإسلام هذه الميزة الإنسانية، التي لا ترتفع إلى مستوى إنسانيتها أي قومية أخرى[٢٨٢].

لذلك كانت تعتقد بأن المسلم هو العربي الجديد؛ لا بعقيدته الدينية فحسب، ولكن بعقيدته القومية أيضاً، وهذا هو سر الإسلام؛ من أنه رسالة ذات شقين: قومي وإنساني. ولكونه عقيدة دينية لفئة من الناس، لا يتعارض مع كونه عقيدة قومية لفئة أخرى. فالقومية والدين في الإسلام؛ يتساميان على العنصرية وعلى الطائفية والشعوبية، وهي الأدوار الثلاثة التي لحقت بتاريخنا في عصور الضعف. فالعنصرية سمة ضعيفة لا يعترف بها الإسلام، والشعوبية سمة حاقدة تظاهرت بالإسلام، وظلت تتربص به الدوائر في صور شتى من الأفكار والمذاهب. أما الطائفية فسمة متزمتة، لم تستطع أن تتعمق في روح الإسلام لتلتقي معه بروح التسامح والوفاق. وقد بينت زاهية قدوره في معظم كتاباتها، النواحي السلبية المتأتية عن هذه المواضيع.

العروبة والإسلام كل يعطي الواحد منهما الآخر من أسباب المنعة والقوة، مما يعود على العروبة بالوفرة والغنى. فالعرب هم قادة الإسلام الذين جاهدوا في سبيل انتشاره، ودافعوا طويلاً عن مقدراته، فمنحهم الإسلام عروبة خالدة، وأمة متميزة تستعصي على كل باغ أو ظالم يطمح إلى النيل من كينونتها واستمرار وجودها في التاريخ. وكذلك كان شأن الإسلام الذي أعز العرب وجعلهم الأغلبين بعد ضعف، ووحد شملهم حتى رفعوا أعلامه في مشارق الأرض ومغاربها. في وقت كانت فيه البلاد العربية تناضل ضد الصليبيين والتتر. فاستطاعت هذه الأمة الجديدة أن تقضي عليهم، وحضهم على الدخول في حوزة الإسلام، ليدافعوا عنه ويناضلوا في سبيل نشر راياته. وبذلك أصبحت كل دعوة عروبية لا تستوحي روح الإسلام، كأنها صرخة في خواء.

ونتيجة للدراسة المتمعنة والمتأنية لمختلف جوانب هذه العلاقة، وما اعترضها من سلبيات وما رافقها من إيجابيات، كانت لدى زاهية قدوره بعض الأفكار والآراء التي دلت فيها، أنه ساء لأصحابها أن تكون العلاقة بين العروبة والإسلام على الصورة التي سبق توضيحها.

كما توجد دراسات كشفت نوايا عدد من الكتاب، قصدوا منها الإيحاء بأن المنطقة العربية تحتوي ديانات ومذاهب وأجناساً عرقية، ليس بينها أي جامع أو صلة أو حتى علاقة

مشتركة. فتنبهت قدوره إلى هذه الأمور، وبينت أن الغرض منها إيجاد الفرقة والخصام بين العروبة والإسلام، توصلاً إلى ضربهما. فتصدت مع غيرها من المفكرين لهذه المقولات، لإيمانها الأكيد وإدراكها الواعي، بأن العلاقة القوية بينهما؛ كفيلة بتحقيق وحدة المنطقة العربية، التي توجد فيها مجموعة عربية مؤمنة بفكرها وعقيدتها. ورأت أنه بسبب وفرة عدد هذه العناصر، تستطيع العروبة أن توحد إيمانها وثقافتها وحضارتها مع العرب من غير المسلمين، لأن الإسلام يساعدها بعقيدة التوحيد على التفاهم بيسر وسهولة مع المسلمين من غير العرب[٢٨٣].

إزاء الطروحات التي عملت على تشويه حقيقة الإسلام وصورة العروبة، وصولاً إلى درء الأخطار التي تهدد كيان الأمة، وتقويض أركانها والقضاء على مبادئها. طالبت الكاتبة بضرورة بذل التضحيات الجسام، لحماية العلاقة العضوية بين العروبة كهوية وانتماء، والإسلام كعقيدة ورسالة وعمق تاريخي واستراتيجي، وبلورة مبادئ التكامل والترابط بينهما. انطلاقاً من مقومات العصر المترافقة مع طبيعة الحرية لكل إنسان في الاختيار، ومراعاة احترام الرأي الآخر[٢٨٤].

فالعروبة التي كانت تريدها ودعت إليها، والإسلام الذي آمنت به، هما في حقيقتهما الجوهرية والحضارية، عاملا دفع للنهضة والتقدم والتحرر، التي ما تزال تصطدم بعوامل الضياع في الواقع العربي، أي عوامل التجزئة والتخلف، نتيجة تأثرها بالمخططات المعادية للنهضة العربية، وبضغوطات العنصرية والعقد التاريخية والمصالح. وأخطرها المخططات الصهيونية، التي تركز عداؤها على العروبة والإسلام؛ لتعطيل مفعولهما كمحركين حضاريين بأساليب مختلفة.

فتمزيق المجتمع العربي، وتحريك الدوافع الطائفية وتعميق الخلافات والحساسيات، وخلق الفتن، واصطناع الأزمات والمشكلات، وزرع العراقيل في طريق النهضة، وإلحاق الهزائم بقوى النضال العربي. كلها عوامل داخلية وخارجية تأخذ شكل محنة قومية – وفق ما كانت تشير إليه زاهية قدورة - وهي في الوقت نفسه امتحان تاريخي لنهضة طبيعية لشعب عريق في الحضارة، أمام تحديات كبيرة تعمل في الاتجاه المعاكس لحركة التاريخ. فالمسافة بين حقيقة الأمة العربية وبين واقعها الراهن، سائرة رغم كل شيء نحو التقلص؛ لأن حقيقتها أقوى من واقعها. وهي تمر في مرحلة تحول تاريخي حتمي تأخذ فيها النكسات معنى الدروس العميقة، والدوافع المنبهة إلى الخلل،

فالوعي العربي ينمو مع نمو الشعور بعوامل الأزمة، ومع الإدراك المتزايد لخطورة التحديات الراهنة[٢٨٥].

نهضت في محاضراتها وكتاباتها وأبحاثها، للتأكيد على أن الحضارة العربية الإسلامية لم تقتصر على المسلمين العرب، بل جهدت للبرهان على دور العرب من غير المسلمين وتبيان آثارهم وبصماتهم الجلية فيها. ولها بهذه المناسبة إشارات واضحة على أن الإسلام من خلال العروبة كان الميدان الرحب للتفاعل بين الأديان والحضارة والخصوصيات، بحيث شكل نوعاً من العرف، بأن بات على كل عربي، ولو لم يكن مسلماً، صار لزاماً عليه أن يكون صاحب وعي قومي والتزام عروبي. فليس بمستغرب والحالة هذه، وبسبب هذا التلاقي وذاك الوعي أن يقبل المسلمون العرب من بين قادتهم، قادة ومقاتلين عرباً من غير المسلمين، بعد أن وجد هؤلاء في أنفسهم المقدرة والجرأة في الدفاع عن العروبة، فاعتبروا بذلك في مقدمة الحائضين عن الإسلام والمحاربين تحت رايته[٢٨٦].

ولما بات اليقين أن الإسلام دعوة للتوحد أنزلت من السماء، فإن العرب مدعوون كمسلمين لتنفيذ مقتضيات الوحدة على الأرض. وكما هو التوحيد، يجب أن نمارس الوحدة بقبولها فكرة لا تتجزأ.

استطاعت زاهية قدوره من خلال رسالتها التوجيهية والتربوية أن تعلم وترشد وتهدي، إلى التمسك بالإسلام كرسالة إنسانية وعالمية، يدفع إلى التعلق بالعروبة الإنسانية المتحررة من كل شبهة عنصرية. لأنه من ذلك التمسك وذاك التعلق، يمكن أن تتشكل رسالة السمو بإنسانية البشر، وعظمة الأمة التي تُكوّن هؤلاء البشر. إن العروبة والإسلام هما نحن كما تقول: «والمعركة التي تواجهنا اليوم هي معركتنا حين نفكر بهما، فنحن لا نمارس ترفاً فكرياً، ولكننا نبذل جهداً لاستبصار مستقبلنا وتصليب حاضرنا.. إنه التفكير بصميم وجودنا في الماضي والحاضر. إن العلاقة هي علاقة دينامية جدلية حية، متفاعلة ونامية، إن مصير أحدهما مرتبط بمصير الآخر.. إن العدو لا يفهمنا إلا على هذا النحو.. فعلينا نحن كذلك أن نتوحد في اللقاء والمواجهة»[٢٨٧].

إن العروبة والإسلام موضوع طرح وما يزال بقوة في كل حين، وقد ظهر للباحثين فيه أن الغاية منه متعددة الأوجه. كالعمل على إيجاد التناقض بينهما، كما تبين من قول أحدهما: إن العروبة هي الإسلام، وأن كل من هو غير مسلم ليس بعربي. وكقول آخرين أيضاً: إن العروبة تختلف عن الإسلام.

وإذا كانت القومية العربية وكما قيل، قد قامت من دمج العروبة بالإسلام، فقد نفت الكاتبة ذلك، وبينت أن هذا المفهوم مغاير للحقيقة وللتاريخ وللواقع العربي. فأوضحت مساهمة القوى الغربية في هذه المغالطة، لأسباب لا تخفى على أحد، وأشارت إلى تبدل هذا المفهوم، بعد إجهاض مشروع الدمج المصطنع لأسباب مختلفة، فالإسلام هو دين يرتبط به الإنسان مع خالقه، أما العروبة فهي هوية وصفة عيش مشترك، فضلاً عن كونها تفاعلاً حضارياً بين المسيحيين والمسلمين، وهي قادرة على صيانة وجودهم ومحاربة أعدائهم وتحصين مستقبلهم وازدهاره؛ لأنها تشكل أداة فاعلة تستطيع أن تصهر جميع العرب، من جميع الطوائف والمذاهب[٢٨٨].

ولذلك كانت من المجاهرين دائماً، بأن المسيحيين وجدوا في الجزيرة العربية قبل العرب والمسلمين، ومن هنا فهي لا تستغرب انتماءهم العربي وتعلقهم بالقومية العربية[٢٨٩].

كما نشطت الباحثة وبذلت جهداً ملحوظاً، لتثبت أن الإسلام صبغ العروبة وطبعها وصقلها وطورها وأغنى حضارتها، وبرهنت على أن الحضارة العربية الإسلامية، حضارة واحدة [٢٩٠].

كما درست مجمل العناوين والمواضيع التي أحاطت بهاتين الكلمتين، فرأت في العروبة والإسلام مفردتين استحوذتا على اهتمام وأبحاث عدد من المفكرين والباحثين. واستعرضت مختلف الآراء والأفكار التي دارت حولهما، انطلاقاً من تفكيرها الموضوعي ودراساتها المنهجية والعلمية. فاستنتجت أن هناك شيئاً ما في داخل كل من العروبة والإسلام، وأن واحدهما يحتضن الآخر، وإن كان لا يضمه ضمة عميقة تشبه الوحدة[٢٩١].

وأخيراً لا بد من الإشارة، إلى أن زاهية قدوره اعتبرت من أوائل العاملين والعاملات على تحقيق الوعي القومي في اتجاهه الصحيح، وهو الذي يفرض على كل عربي أن يدرك ويؤمن، بأن الأمة العربية أمة واحدة، وأن يشعر العربي أن هذه حقيقة واقعية لا شك فيها ولا لبس ولا إبهام، وما الحدود الجغرافية التي تفصل بين البلدان العربية إن هي إلا حدود وهمية مفتعلة، وإن نشدنا الوحدة او الاتحاد، لأن ذلك أحد حقوقنا الطبيعية في الحياة، الذي ينسجم مع الاتجاه العالمي الهادف إلى تكتل الأمم المجاورة، وإن لم تكن من أصل واحد[٢٩٢].

١٥ ـ الوحدة العربية طريق النصر

كانت الوحدة العربية مطلب زاهية قدوره وغايتها؛ منذ أن وعت السياسة ومارست الكتابة عنها في دراساتها وأبحاثها، ومنذ أن شقت طريقها في الحياة العامة، سبيلاً إلى الرشاد والنصح والتوجيه. فحملت مشعل الثقافة، طريقاً لتنوير العقول، وتوحيد النفوس. أرادتها فعل إيمان بقدرة الأمة العربية على الوحدة فيما بينها، والتوحد في بوتقة حضارية وإنسانية للوقوف بوجه أعدائها، والمتربصين بها، للانتصار عليهم والرد على مؤامراتهم ومخططاتهم.

كتبت عن قيم الوحدة العربية ومعانيها السامية، في أبحاثها ودراساتها، ونظرت إلى مضامينها، لمقارنة إرتباطها وإنعكاسها على الأوضاع السائدة في الزمن الحاضر.

فوضعت من أجل ذلك، دراسة بعنوان: الوحدة طريق النصر[٢٩٣]، للرد على ما يشهده الزمن الحاضر من ردة عربية من جراء الهجمة الصهيونية الشرسة، واستشراء التفرقة العنصرية والمذهبية والطائفية، للقضاء على مقومات البلاد العربية الاقتصادية والفكرية، ومعانيها التراثية والقومية.

وقد أخذت من معاني معركة حطين منهجاً للرد على معارضي قيام الوحدة العربية،[٢٩٤]، التي اعتبرتها قلبت جميع المقاييس، وبدلت حسابات الإفرنج لتحقيق النصر على العرب والمسلمين. الذين انتصروا عليهم بقوة إرادتهم، وشدة إيمانهم بعقيدتهم. فانجذبت الكاتبة إلى هذه العناوين، وأخذت منها الدروس والعبر، لتعيد التذكير بالمعاني التي أفرزتها، والمشاعر التي بثتها بين الشعوب العربية، للعودة إلى جذورهم ووحدتهم وإنصهارهم، في وطن واحد موحد.

فما هي الوحدة التي كانت تريدها زاهية قدوره، ودعت إليها منذ ريعان شبابها ؟

جاء في محاضرة الوحدة طريق النصر تعبير سياسي عن وجود أمة، وجوداً فعالاً وخلاقاً. وليست تجميعاً كمياً للكيانات القائمة، بل هي نتاج للتفاعل الموضوعي، اجتماعياً واقتصادياً داخل الأمة. فالوحدة لا تعني الضم والإلحاق، كما لا تعني التماثل أيضاً. وهي ليست ضم القطر الضعيف للقطر القوي، والأقل سكاناً للأكثر سكاناً، كما أن الوحدة ليست في أي حال من الأحوال إذابة للخصائص المحلية أو قفزاً على الفروقات الاجتماعية والثقافية.

الوحدة عندها، لم تكن قراراً إرادياً لا إكراه فيه، لأنه لا يمكن النظر إلى أي مسعى

إكراهي باعتباره سلوكاً وحدوياً، بل إن مثل هذا السلوك ينطوي على قيمة مضادة. فكما لا يجوز أن تكون قراراً إكراهياً، فلا يمكن أن تقوم من قرار فوري غير متدرج. ومتى حدث ذلك، تكون عرضة للانهيار الكلي أو للتفجرات الداخلية العنيفة.

لم تكن الوحدة المطلوبة في رأيها، فكرة حديثة، أو حلماً طارئاً على حياة العرب «إنما هي أصيلة ومتجذرة في تراثهم، من حيث عناصرها المتكاملة»[٢٩٥]. منذ أيام محمد علي باشا وابنه إبراهيم اللذين كادا يتمكنان من جعلها حقيقة قائمة، لولا تآلب الدول الأوروبية لمنعهما عن ذلك.

قد تلتقي في هذا الطرح، مع محمد جميل بيهم[٢٩٦] أو تعارضه؛ بأن الوحدة كانت قد نشأت منذ عصور قديمة، وربما منذ عهد الأمير فخر الدين، الذي كان من أوائل الأمراء اللبنانيين، الذين فكروا بإقامة نوع من الوحدة، في مقاطعتهم. وذكرت أن بيهم كان يعتبر لبنان الكيان والوطن، لا يقوم إلا بتحقيق العروبة، الذي كان يرى فيها جزءاً مكملاً له. فلبنان القوي كان في نظره لبنان العروبة، ولبنان الضعيف هو الذي لا تقوم العروبة في أرجائه[٢٩٧].

وإذا كان بيهم قد اتفق مع زاهية قدوره حول مكانة العروبة في لبنان، بالرغم من خصوصية وضعه الديموغرافي. إلا أنه اختلف معها حول مقولة أن العروبة غير الإسلام. وبمعنى أكثر دقة، كان يعتبر الإسلام غير العروبة، وكان أكثر اقتناعاً بأن: « الإسلام دين يجمع بالإيمان والشرع، بين شعوب كثيرة ذات قوميات مختلفة.. شعاره لا إكراه في الدين...»[٢٩٨]. في حين كانت زاهية قدوره ثابتة في موقفها؛ بأن العلاقة بين العروبة والإسلام، هي علاقة تواصل وترابط.

إلا أنهما لم يختلفا في المناداة بالوحدة العربية، أو في قيام أواصر التلاحم بين العروبة والدين الإسلامي. وبينت الكاتبة في البحث الذي وضعته عن بيهم ونظرته إلى العروبة، وتوافقه معها على أن العروبة سبقت الإسلام بمراحل.

إن الحديث عن الوحدة عند زاهية قدوره، له نكهة خاصة مميزة، لما تركته ذكرياتها في بالها من أفراح ومشاعر فياضة، وما رسبته في فكرها من شؤون وشجون عن واقع الأمة العربية، التي باتت اليوم بحاجة إلى وحدتها أكثر من أي وقت مضى. وكم كانت تأمل بالقضاء على واقع التشرذم والتفسخ، وحال التعصب والتمذهب، وقيام واقع عربي كانت ترى استحالة جمعه وتوحيده، طالما أن هذه الأمة تفتقد القائد الرائد والمنقذ.

هذا وكانت الدكتورة قد أصيبت بالخيبة والإحباط، عندما مني مشروع الوحدة الذي قام بين دولتين عربيتين، بضربة قوية بعد ثلاث سنوات من حصوله بسبب حداثة عهد الدول العربية بالتحرر من قيود الاستعمار. فالشعور بالوحدة مهما كان قوياً، وبالرغم من اقتناع القائمين عليها بصلابة موقفهم وقوة حجتهم، إلا أن هذا لا يكفي وحده، لتحقيق الأهداف المنطقية السامية للقومية، التي تتوجها الوحدة السياسية الشاملة، بل لا بد أن يكون هذا الشعور، مصحوباً بالوعي السليم، الذي يعتبر شرطاً أساسياً لتحقيق هذه الأهداف[٢٩٩].

وبما أن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحتى الثقافية المتباينة في البلاد العربية، لا تسمح بقيام أي وحدة عربية. غير أن بعض المراقبين؛ وقدوره كانت واحدة منهم، كانوا يرون دوراً للدول الأجنبية، في محاربة قيامها. ولكن، مهما تعددت التفسيرات وتباينت، على الوحدة العربية في جوهرها، وعمق أهدافها، لا بد من تجاوز الأسباب والتفسيرات التي نثرت حولها. لأنها تعبير شامل وجذري عن مقومات الوجود العربي، وهي مؤهلة للقيام بدور مختلف عما هو سائد حالياً، من اختلاف في التكوين النظامي، والبنيان الاقتصادي والاجتماعي، وكذلك الولاء القومي للإنسان العربي.

لذلك كان الصدام منذ البداية بينها وبين القوى الاستعمارية والحركة الصهيونية، الذين كانوا يخشون على فقدان أطماعهم في الوطن العربي وأحلامهم بنهب ثرواته؛ حيث مثل ذلك أحد التحديات التي واجهت حركة الوحدة. فضلاً عن أن الوجود العربي الوحدوي، إن قُدِّرَ له النهوض والتقدم، فسيكون له أثره الفعال على الإستراتيجيات الدولية.

ومن أسباب الصدام أيضاً، مناهضة الدول الأجنبية لأي تكتل عربي، قومي وحدوي. ولتفادي هذا الأمر جندت القوى الاستعمارية، عناصر متآمرة بعد أن ساءها قيام أي وحدة سياسية تجمع شمل دول الوطن العربي، وتعرقل الأطماع الغربية وتقضي على نفوذها في الشرق[٣٠٠].

فاستنفرت هذه الجماعات قواها، مدعومة من الغرب، للقضاء على مشاريع الوحدة، التي كانت تظهر بين الحين والآخر، من دون أن تبصر النور. بسبب فرض منطق الهيمنة والتسلط، للابقاء على حالات التشرذم والخصام والفرقة في العلاقات بين الدول العربية.

لذلك، نهضت الدكتورة لتنبيه طلابها، وترشيد تلامذتها، إلى مخاطر المخططات والمؤامرات التي كانت تحاك ضد مستقبلهم وحياتهم، كما عملت لتوعية

الأجيال على أهداف القوى الأجنبية العدوانية. وشرحت المزيد من هذه الأفكار في مؤلفاتها وكتبها، التي كذبت فيها شعاراتهم وأهدافهم المزيفة[٣٠١].

ما أشبه اليوم بالبارحة، وما أقرب الآن من الأمس، بالرغم من اختلاف الزمن، وتبدل الأوقات. غير أن عاديات الأيام تبقى متقاربة في سلبياتها ومتشابهة في تردياتها، والسبب في ذلك: « أن الحالة المتردية التي نعيشها اليوم تشبه إلى حد بعيد الحالة التي عاشها العرب قبيل معركة حطين وأوجه الشبه داخلية وخارجية. فمن الناحية الداخلية كانت بلاد العرب كما هي اليوم مسرحاً للمنازعات الاجتماعية والسياسية، والخلافات الطائفية والمذهبية والأخوية؛ مما أدى إلى إضعاف المجتمع العربي وتقسيمه وتسهيل تدخل الدول الأجنبية في مقدراته. فكانت الاحتلالات العسكرية، كالمغولية والتتارية والصليبية للأرض المقدسة، واقتطاع أجزاء من الأرض العربية» [٣٠٢].

أرادت من ربط الماضي بالحاضر، رسم صورة حقيقية للوضع الذي بليت فيه الأمة العربية بآفات سياسية رهيبة، سببت لها الهوان والخذلان، وجعلتها تبدو متنافرة ومتباغضة ومتقاتلة، مفسحة في المجال أمام القوى الأجنبية، وأهمها الصهيونية، للتدخل في تقرير مصيرها ومستقبلها. فرأت أنه لن يتم تغيير هذا الواقع إلا بالوحدة الكفيلة بتحقيق النصر والتكامل والتواصل[٣٠٣].

ففي عملها لاستقراء التاريخ الماضي ومقارنته بتطورات الحاضر، كانت تعتبر كالمؤرخ الذي يقوم بجردة حساب للتطورات التاريخية، يقوم باستخلاص نتائجها ومقاربتها مع مجريات الحاضر، بشكل علمي مدروس وبطريقة منظمة وواعية، لإعطاء تلك الحوادث ما تستحقه من أهمية. فكان للمفاهيم التي أفرزتها زاهية قدوره، أثر مساعد، وعامل جيد للاستفادة من مجريات التاريخ الماضي، واستخلاص الدروس والعبر لتطبيقها في الزمن الحاضر.

على ضوء ذلك، تعتبر منهجية الفكر السياسي عند زاهية قدوره، والأسلوب الذي اتبعته في كتاباتها التاريخية السياسية، واضحاً كما في معظم أعمالها. وجاء نهجها مستقيماً متقصداً الأشياء التي فتشت عنها بدون غلو أو مبالغة، وخالياً من التحكم والسيطرة الشخصية. كما تبين أن غايتها من دراسة موضوع الوحدة، كان للدلالة على أن الأمة العربية بحاجة إلى الوحدة، ولن تستطيع أن تقضي على عوامل التفرقة والتشرذم، إلا بتطبيق الوحدة وتحقيق النصر الذي تأمله، لتتكامل إنسانية العرب،

وإنسانية أقطارهم..

الحديث عن الوحدة وتحقيقها، حديث يطول يبلغ عمره سنين عديدة من الآمال والأحلام، وعمل متواصل يجب أن تتضافر فيه جهود شعوب وحكام، ليتفقوا ويتوحدوا على جعلها أمراً واقعاً وحقيقاً. أما بالنسبة إلى الكاتبة، فحديثها عن الوحدة، هو تاريخي وعلمي في آن. والكتابة عنه، يجب أن تكون متأنية دارسة ومتمعنة، ولا يمكن أن تكون عرضية وظرفية. فهناك أسباب وظروف وعوامل، إضافة إلى شروحات وتفسيرات وتعليلات، بحاجة إلى بحث وتحليل.

١٦ ـ تقييم للمنحى السياسي عند زاهية قدوره

مارست زاهية قدوره إذاً، السياسة بغير إرادة منها، كما مارست التدريس، وتدريس التاريخ من غير رغبة لديها؛ لأنها كانت تفضل العمل في المجالات العامة، وبالتحديد كانت متحمسة لشغل وظيفة مستشارة ثقافية في المفوضية اللبنانية بالقاهرة.

إلا انه في ختام هذ المنحى في حياة ومسيرة زاهية قدوره، لا بد من طرح علامات الاستفهام الآتية: هل يمكن اعتبارها سياسية من الطراز الأول؟ ومؤرخة من قماشة المؤرخين العرب؟ ومربية من رعيل التربويين الأصيلين؟.

مارست زاهية قدوره السياسة، من غير أن تكون عضواً في أي من الأندية السياسية اللبنانية والعربية، وولجت نادي المؤرخين العرب[٣٠٤] من بابه العريض من غير أن تصنف في خانة ابن خلدون وابن عساكر وغيرهما. أما مهمة التربية والتعليم التي انغمست فيها بفعل القضاء والقدر، فقد اعتبرت فيها مجلية ومبرزة من دون أن تضع من حولها النظريات وفيها الآراء والمنظومات.

وإذا كان قد مر سابقاً تقييم لمنحاها الثقافي، فإن تقييم منحاها السياسي، لا بد وأن يظهر بعد دراسة النقاط الخمس عشرة التي دارت عليها دراسة خطواتها وأعمالها السياسية الأولى، التي قامت بها في الجامعة الأميركية في بيروت، وانتسابها لعصبة العمل القومي، بالإضافة إلى العديد من الجمعيات والمنتديات السياسية والثقافية والاجتماعية، التي شاركت فيها طوال حياتها.

ومن الأمور السياسية المتعلقة بحياتها، التي ظهرت عليها في صباها ولازمتها حتى المرحلة المتأخرة من حياتها، النشاط السياسي المتدفق، وفن السياسة الرفيع الذي سلكته، الذي كان واضحاً في أبحاثها ودراساتها، وكذلك في مشاركتها الدائمة في مختلف

المناسبات السياسية، لفترة طويلة من مسيرتها. فضلاً عن تأثير القضية الفلسطينية في فكرها ومؤلفاتها. وما سببت لها من إنعكاسات، ظهرت في المؤلفات الموضوعة عنها، ولا سيما البحث الذي جالت فيه على دور كل من ميشال شيحا ونجيب عازوري حيالها. وقيامهما بالتحذير من الخطر الصهيوني على فلسطين والدول العربية، وبخاصة لبنان.

كما انصب تفكيرها السياسي أيضاً وفي فترة طويلة من حياتها، على نشر مبادىء حركة القومية العربية وأهدافها، وتعميم مشروع الوحدة العربية، وقد وضعت من أجلهما الدراسات، والأبحاث، درست فيها العلاقة بين العروبة والإسلام، التي اعتبرتها علاقة تواصل وتلاحم، بالرغم من طغيان ضجيج الحركات المتعددة التي تلتحف بالدين الإسلامي وهو منها براء.

ولوحظ في أثناء البحث والدراسة في ملفاتها وأوراقها، إشارات كثيرة على ذلك، وتم العثور على كتابات عديدة كانت تصب في اتجاهات توحيدية. منها ما فيه توضيح لموقفها من أحداث ثورة العام ١٩٥٨، التي دعت فيها إلى تآلف القلوب، وتجميع النفوس، وصفاء النوايا، ونبذ المنازعات التي قامت بين اللبنانيين آنذاك، التي كانت ذات دوافع خارجية مغلفة بأسباب داخلية، مثلها مثل معظم الحروب التي شهدها لبنان.

كما أمكن تبين مواقفها من الأحداث اللبنانية التي اندلعت شرارتها في العام ١٩٧٥، وما سبقها من أحداث عربية مؤثرة، وما لحقها من أعمال حربية مدمرة، استهدفت القضاء على الوطن اللبناني برمته، توجها الاجتياح الإسرائيلي للأراضي اللبنانية في حزيران من العام ١٩٨٢. وقبل هذا وذاك كان لها مواقف مهمة لجهة رفض تقسيم الجامعة اللبنانية، ونبهت إلى أن عملية تفريعها، سوف تؤدي بها إلى التشرذم والتفتيت. ولمقاومة هذا الأمر دعت إلى حشد طاقات الأساتذة، وتوحيد أفكار الطلاب وتحركاتهم للإبقاء على الجامعة اللبنانية، جامعة وطنية واحدة وموحدة. وقد كانت التقارير التي رفعتها، والمراسلات التي بعثت بها إلى مختلف المسؤولين، وخصوصاً رؤساء الجامعة اللبنانية، ووزراء التربية الوطنية، والتي بلغت أكثر من عشرين رسالة وتقرير، وتناولت فيها عرض المشاكل والمصاعب التي كانت تواجه مسيرتها، وبسط الأفكار والآراء الهادفة لتطويرها وتحديثها، والتي كانت كصرخة في واد، لم تجد صداها المستحب الذي كانت ترغب فيه، إلا بعد فوات الآوان.

وفي زمن الإعصار المدمر الذي طالت شظاياه جميع اللبنانيين، كانت تعيش

في قلق دائم، وفي خوف مستمر، على مقومات البلد الأساسية، وعلى وحدته الوطنية، وعلى كونه رمزاً للتعايش الفريد والمتميز عن أشقائه وجاراته العربيات. فكانت في تصد دائم لكل الأعمال الفئوية والطائفية والمذهبية والعنصرية والتقسيمية، تحذر من الانجرار وراء ردود الفعل السلبية، والتصرفات العشوائية.

ويغلب الاعتقاد أنها، في كل مواقفها التوفيقية، التي كانت تعممها في أبحاثها ومؤلفاتها ودراساتها السياسية، كانت غايتها بث الحكمة والموعظة الحسنة، بطريقة حضارية وإنسانية.

وبالنسبة إلى أسلوب الكتابة السياسية، فقد اتبعت فيه طريق الدراسات التاريخية الأكاديمية، ولم يكن مجرد سرد للأخبار والحوادث. وسارت فيه وفق منهجية علمية وموضوعية دقيقة، من حيث الأسلوب والاستشهاد والإسناد والتحليل، واعتمدت اعتماداً كلياً على المصادر والوثائق المثبتة، مبتعدة عن العصبية والمذهبية، وتبني القصص الشائعة.

ولما كانت زاهية قدوره قد سارت على المنهج الذي يرى أن التاريخ هو سجل الخبرات الماضية، فالذي يهمنا هنا من التاريخ ذلك الجانب الذي يصور خبرات الإنسان السياسية، ويستطيع عالم السياسة أن يجعل من التاريخ مصنعاً له، فيلجأ إلى الأحداث الماضية، عندما لا يجد في الواقع المعاصر ما يعاونه على استنتاج تعميماته. وهكذا يصبح التاريخ مصدراً مهماً من مصادر المعلومات السياسية، إذ بدون معرفة الماضي يتعذر فهم الحاضر، وهي القائلة: «إن الشعب الذي لا ماض له لا تاريخ له»[٣٠٦].

إن المقدرة التي حازتها زاهية قدوره في الكتابة السياسية انطلاقا من التاريخ، أو عندما دوّنت التاريخ مستعينة بحوادثه السياسية، قد مكنتها من تأمين هذه المعطيات، بفعل التطور الذي بلغته دراستها للظواهر السياسية، بعد أن توغلت في علم السياسة، غداة الاعتراف به رسمياً كعلم قائم بذاته، منذ نهاية القرن التاسع عشر. فدخل تدريجياً إلى حرم الجامعات بعد تجاوز صعوبات كثيرة، خصوصاً في أوروبا. إلى أن جاءت المرحلة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، حيث خطا علم السياسة، خطوات سريعة على طريق التقدم في كل أنحاء العالم.

هذا وقد بدأت العلوم الاجتماعية في نهاية القرن التاسع عشر، ومنها علم السياسة، بفرض وجودها إلى جانب العلوم الطبيعية بفضل عدة عوامل، ومنها أن التقدم الذي حدث في هذا القرن بالنسبة لمفهوم علم السياسة ومنهجية البحث السياسي، أدى إلى

تكوين فكرة واضحة، إلى حد ما، عن علم السياسة. كما أن الاهتمام العلمي انصب على دراسة الظواهر الاجتماعية. فأخذت الأبحاث التي تتناول هذه الظواهر، ومنها السياسية، تدخل في إطار البحث العلمي.

استفادت زاهية قدوره كثيراً من هذه المعارف والعلوم، وعملت بالتكاثف مع روحها النضالية التي سيطرت عليها، بالإضافة إلى ما تميز به نضالها من روح متوثبة، وعقل متوقد، وفكر نير، بوتيرة مندفعة نحو تصحيح مسيرة الأجيال وكانت تقوم بين الفينة والفينة، بالنظر من حواليها لترى نتيجة ما قامت من أجل تحقيقه طوال عمرها، وعما إذا كان يدعو إلى الفخر والزهو. إلا أن واقع حال الأمة الذي وصلت إليه، كان يصدمها بتردياته وتداعياته ويدعوها إلى العجب والأسف. فأين هي الأمة العربية التي ناضلت من أجل توحيدها ؟ أين هي الشعوب العربية التي كتبت تدعوها بأفكارها، وترشدها بطروحاتها إلى معاني القومية العربية السامية والعروبة الجامعة. إن فعل زاهية قدوره لم يكن ليتحقق، وليس بإمكانه أن يصبح حقيقة متجسدة، طالما أن عوامل نهوض الأمة دونها معوقات كثيرة.

هوامش الفصل الخامس

١- ابن منظور: المصدر نفسه . مج ٦. ص ١٠٨.

٢- المصدر نفسه.

٣- ديورانت، ول وايريل. قصة الحضارة. ج٢.مج٢. الفصل الرابع : أرِسطوطاليس – ٤- السياسي. ص ٥٠٩.

٤- محمد، محمد علي ومحمد، علي عبد المعطي: السياسة بين النظرية والتطبيق. ص٤٦.

٥- **مونتيسكيو (شارل) (Montesquieu, Charles) (١٦٨٩ – ١٧٥٥) :**
كاتب فرنسي ولد في قصر بريد قرب بوردو وتوفي في باريس، أشهر مؤلفاته روح الشرائع.
يراجع: قاموس لا روس الفرنسي. ج ٢. ص ١٥٣٠.

٦- **روسو (جان - جاك) (ROUSSEAU(Jean Jack) (١٧١٢ – ١٧٧٨):**
كاتب وفيلسوف فرنسي. ولد في جنيف وتوفي في إيرمينوفيل الفرنسية. أشهر مؤلفاته كتاب: إميل.
يراجع: قاموس لا روس الفرنسي. ج ٢. ص ١٦٤٣.

٧- **الثورة الفرنسية ١٧٨٩:**
تعتبر الثورة الفرنسية مع الثورتين الهولندية والإنجليزية في القرن السابع عشر، خاتمة تطور طويل اقتصادي واجتماعي جعل من البورجوازية سيدة العالم. وكانت فرنسا في ١٧٨٩ تعيش في إطار ما سمي منذ ذلك الحين « النظام القديم». وبقي المجتمع الفرنسي أرستقراطي الجوهر، أساسه

امتياز الولادة والثروة العقارية. وعمل تقدم المعرفة الوضعية وانطلاق فلسفة الأنوار، على هدم الأسس الإيديولوجية للنظام القائم. وكانت الطبقات الشعبية، وعلى الأخص القروية ترزح تحت ثقل النظام القديم وما كان باقياً من الإقطاعية. وكانت بورجوازية القرن الثامن عشر الفرنسية قد وضعت خطوط فلسفة تتفق مع ماضيها ومع دورها ومصالحها. وهكذا إلى جانب عوامل أخرى كثيرة، سياسية واقتصادية واجتماعية وطبقية وسكانية، راحت بذور الثورة تنمو وتتسع، إلى أن كان تحركها الأساسي عام ١٧٨٩. يراجع سوبول، ألبير: تاريخ الثورة الفرنسية. ص ١٣ – ١٧.

٨- هيكل، محمد حسنين: كلام في السياسة. ص١٩.

٩- **السومر** أو **السومريون**
سلالة من السلالات البشرية القديمة، لا يعرف شيء عن موطنهم الأساسي، وقيل أنهم جاؤوا من آسيا الوسطى أو من القفقاس أو من أرمينية.وقيل أنهم شعب إيراني الأصل استوطن جنوبي ما بين النهرين أوائل الألف ٤ ق.م.وقيل أيضاً أن السومريين ربما هم من السوس، التي يوجد بين آثارها رأس من الأسفلت فيه خواص جنس السومريين كلها. وربما كانوا من أصل مغولي بسبب لغتهم الشبيهة بلسان المغول. أما ألواح سومر، فهي السجلات المكونة من ألواح الطين التي كان الكهنة يحتفظون بها، والتي وجدت في خرائب أور يدونون عليها قيام ملوك المدائن وتتويجهم وانتصاراتهم، وجنائزهم في مدن أور ولكش وأرك وما إليها. يراجع عصفور، محمد أبو المحاسن: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم. ص ٣٤٦-٣٥٤، وديورانت، ول وايريل: المصدر نفسه. ج١. مج١. ص ١٤ – ١٥، و١٧.

١٠- **حمورابي (٢١٢٣ – ٢٠٨١ ق.م ، أو ١٧٩٢ – ١٧٥٠ ق.م.، أو ١٧١١ – ١٦٦٩ ق.م.):**
اشتهر بصفة الفاتح المشترع. دام حكمه ثلاثاً وأربعين سنة. صاحب شخصية قوية، كان شاباً يفيض حماسة وعبقرية. وحد الدويلات المتحاربة المنتشرة في الوادي الأدنى، ونشر لواء السلام على ربوعها،وأقام فيها منار الأمن والنظام؛ اشتهر بشرائعه الإدارية والاجتماعية. يراجع: المنجد في اللغة والأعلام. ص ١٩٠.

١١- **سولون Solômon (نحو ٦٤٠ – ٥٥٨ ق.م.) :**
مشترع أثيني. أحد حكماء اليونان السبعة. سن قوانين إصلاحية اجتماعية وسياسية مهدت الطريق لظهور ديموقراطية كليستنس. يراجع سعد، فاروق: الأمير. ص ٢١٢ – ٢١٣.

١٢- **الفيثاغوريون نسبة إلى فيثاغوراس Puthagoras (القرن ٦ ق.م.) :**
فيلسوف ورياضي يوناني. إليه يعزى تقويم الحساب المعروف بجدول فيثاغوراس في الضرب. قال إن الأرقام هي مبدأ كل الأشياء. تفرغ لدرس الحكمة وعاش مع أتباعه حياة زهد مشتركة. اعتقد بتناسخ الأرواح. ديورانت، ول وايريل. المصدر نفسه. ج٥.مج١.ص٢٩٣ – ٢٩٤.

١٣- **كونفوشيوس (٥٥١ ق.م.)**
ولد كونج- فو- دْزه في مدينة تشو- فو إحدى بلاد مملكة لو. تقول الأقاصيص الصينية أنه عندما ولد كان له ظهر تنين، وشفتا ثور، وفم في سعة البحر. ولد من أسرة هي أقدم الأسر الباقية على قيد الحياة حتى الآن، له أحفاد كثيرون، كان يعمل في أثناء دراسته لإعالة أمه، حذق في الرماية والموسيقى. لم يتفق مع نيتشه في أن هناك تناقضاً بين الفلسفة والزواج. في الثانية والعشرين من

عمره اشتغل بالتعليم، وكان تعليمه كتعليم سقراط شفهياً. ديورانت، ول وايريل. المصدر نفسه. ج٤.مج١.ص ٤٠ – ٤١.

١٤- **أفلاطون Platon (٤٢٧ – ٣٤٧) :**

من مشاهير فلاسفة اليونان. تلميذ سقراط ومعلم أرسطو. درس في بستان أكاديمس في أثينا. أساس فلسفته نظرية الأفكار، مثالها الأسمى فكرة الخير. من مؤلفاته: الجمهورية، السياسي، المحاورات، كريتون، فيدون، تيمه، الوليمة، الشرائع. يراجع كرانستون، موريس: أعلام الفكر السياسي. ص١٣ – ١٤.

١٥- للتوسع يراجع كرانستون، موريس: المرجع نفسه. ص١٣.

١٦- **أرسطو أو أرِسطوطاليس Aristotelès ٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م.):**

مربي الإسكندر. فيلسوف يوناني من كبار مفكري البشرية. تأثرت بوادر التفكير العربي بتآليفه التي نقلها إلى العربية النقلة السريان، وأهمهم: إسحق بن حنين. يعتبر أرسطو مؤسس مذهب فلسفة المشائين. أهم مؤلفاته: المقولات، الجدل، الخطابة، كتاب ما بعد الطبيعة، السياسة، النفس النفس. يراجع ديورانت،ول وايريل.المصدر نفسه.ج٢. مج٢. ص ٤٩٢ – ٥١٥، وكرانستون، موريس: المرجع نفسه. ص٢٢ – ٣١، والمنجد في اللغة والأعلام. ص ٣٧.

١٧- **إخـوان الصفا:**

من الفرق الإسلامية،تعاطوا في علمي الفقه والكلام. وغيرهما من العلوم الفلسفية. وقد وضعوا ذلك في كتاب اشتهر باسم: «رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا». وهنا يراجع مج٤. ص٢٥٠، وكرانستون، موريس المرجع نفسه. ص ٢٣.

١٨- **بيعة السقيفة**

سميت بالبيعة الخاصة، وهي التي بايع فيها المسلمون الذين حضروا السقيفة بالخلافة لأبي بكر الصديق بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي اليوم التالي جلس أبو بكر على المنبر في المسجد وبايعه الناس البيعة الكبرى أو العامة. يراجع حسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه. ج١. ٢٠٤ – ٢٠٥.

١٩- **الصديق (أبو بكر) (عبد الله) (٥٧٣ – ٦٣٤):**

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمي. سمي في الجاهلية بعبد الكعبة. سماه الرسول صلى الله عليه وسلم عبد الله ؛ ولقب عتيقاً. وعرف بالصديق لأنه بادر إلى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا سيما صبيحة الإسراء. ولد بمكة بعد علم الفيل بعامين. عرف بخصاله الكريمة، واشتهر بالعفة. كان من سراة مكة في الجاهلية، عالماً بأنساب العرب وأخبارهم. هو أول من أسلم من الرجال. ترك تجارته ليتفرغ لأمور الدعوة الإسلامية مع رسول الله، كان إيمانه قوياً. والد عائشة زوجة النبي. حارب أهل الرِدّة وقتل مسيلمة الكذاب. توفي في المدينة. يراجع حسن. حسن إبراهيم: المرجع نفسه. ص٢٠٣ – ٢٠٧.

٢٠- أبن قتيبة: عيون الأخبار. مج١. ص ١ وما بعدها.

٢١- الماوردي، أبو الحسن: الأحكام السلطانية والولايات الدينية. ص٥.

٢٢- الطرطوشي، أبو بكر: سراج الملوك. ص ١٧ وما بعدها.

٢٣- سعد، فاروق: الأمير. ص ٢٤٠.

٢٤- سليمان، عصام: علم السياسة. ص ٦٧.

٢٥- لمزيد من التوسع يراجع محمد، محمد علي وعلي عبد المعطي: المرجع نفسه. ص١٢.

٢٦- ليس بالمستغرب تجاه هذا الموقف أن يقال عنها: « حارسة التاريخ وشاعرته التي أعادت صوغه بلغة الناس، فصار لا يقبل التأويل المغلوط أو التفسير المدسوس لاغتيال ثقة العربي بنفسه وإضعاف ارتباطه بأرضه واعتزازه بهويته، وضرب شعوره بالقدرة والأهلية بتحقير أسلافه جميعاً، وموروثه الثقافي كله، أو بإظهار صغارته مرة بالقياس إلى أهله الأقدمين ومرة ثانية بمقارنته – تعسفاً – بمعاصريه المتقدمين عليه والسابقين إلى العلم والمعرفة... » يراجع سلمان، طلال: هوامش في الثقافة والأدب... والحب. ص ٨٩.

٢٧- **زريق (قسطنطين) (١٩٠٩ – ٢٠٠٠) :**

ولد في دمشق عام ١٩٠٩. تلقى دراسته الجامعية الأولى في الجامعة الأميركية في بيروت، تخرج منها بدرجة بكالوريوس في الآداب (بشرف) عام ١٩٢٨. حاز على درجة ماجستير في الآداب (اختصاص تاريخ) من جامعة شيكاغو، ودرجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة برنستن عام ١٩٣٠. أستاذ مساعد، فأستاذ مشارك في التاريخ، الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٣٠- ١٩٤٥. رئيس الجامعة السورية، دمشق ١٩٤٩- ١٩٥٢. نائب رئيس، وعميد الكليات، فرئيس بالوكالة للجامعة الأميركية في بيروت ١٩٥٢-١٩٥٧. رئيس جمعية أصدقاء الكتاب، لبنان١٩٦٠ - ١٩٦٥. عضو مجمع اللغة العربية في دمشق والمجمع العلمي العراقي، ومجلس اليونسكو التنفيذي. رئيس مجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٦٣ - ١٩٨٤ فرئيس فخري للمؤسسة ١٩٨٤ - ٢٠٠٠. عضو مجلس إدارة مؤسسة عبد الحميد شومان في عمان ١٩٨٠- ٢٠٠٠. له عدة مؤلفات حول رؤيته القومية، وفي القومية العربية. منها: الوعي القومي ومعنى النكبة وأي غد ونحن والتاريخ. يراجع: الأعمال الفكريـة الكاملة لقسطنطين زريق. (٣ مجلدات) . التعريف بالمؤلف.

٢٨- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٨ /٤/ ١٩٩٥ (أذن بالإشارة إليه).

٢٩- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٢٥ /٤/ ١٩٩٥ (أذن بالإشارة إليه).

٣٠- ذكرت فائزة سعد الدين رمضان أن أبرز موقف سياسي سجل للرائدة ابتهاج قدوره، كان وقوفها بوجه جمال باشا التركي في أثناء المقابلة التي جرت بينهما في بيروت، عندما سألها لماذا تجهل اللغة التركية ؟ فردت عليه: ولماذا وأنت الباشا المسلم والكبير؛ تجهل لغة الإسلام والقرآن الكريم. مما أوقع جمال باشا في حرج شديد، لم يتخلص منه إلا بعد أن تواعد مع الرائدة قدوره على اللقاء مرة ثانية ويكون كل واحد منهما يتقن لغة الآخر. يراجع مجلة تاريخ العرب والعالم. العدد ١٥ السنة الثانية. كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠م/ صفر ١٤٠٠ هـ. ص ١١-٢٣.

٣١- **الكيلاني (رشيد عالي) (١٨٩٢ – ١٩٦٥):**

ولد ونشأ وتعلم ببغداد، احترف المحاماة مدة عامين.زعيم ثورة اشتهرت باسمه في العراق. عين وزيراً للعدل سنة ١٩٢٤. تولى رئاسة الوزارة العراقية أربع سنوات. توفي في بيروت ونقل جثمانه إلى بغداد . له عدة كتب، منها: مسالك قانون العقوبات، ونظريات أصول المرافعات

الجزائية. يراجع الزركلي: الأعلام. مج ٣، ص ٢٣ – ٢٤.

٣٢- قدوره، زاهية: رحلة العمر. ص٥٨ – ٥٩.

٣٣- قدوره، زاهية: رحلة العمر. ص ٦٣ – ٦٩.

٣٤- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٩ /٥/ ١٩٩٥ (أذن بالإشارة إليه).

٣٥- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٢٥ /٧/ ١٩٩٥ (أذن بالإشارة إليه).

٣٦- قدوره، زاهية : مذكرات (مخطوطة) . ص ٤٦ .

٣٧- ناصر الدين (علي) (١٨٨٨ – ١٩٧٤) :

ولد في بمريم، والده محمود ناصر الدين من كبار وجهاء المتن، أنهى تحصيله العلمي، في المعاهد العثمانية العليا في بيروت، واتقن اللغة الفرنسية إلى جانب العربية. تخرج من الكلية العثمانية في سنة ١٩٠٩، انتسب إلى الثورة العربية عام ١٩١٦، والتحق بجيش الانقاذ، ثم انسحب منه بعد مؤامرة الحلفاء على العرب. اعتقل عدة مرات، أنشأ جريدة المنبر، وأسس عصبة تكريم الشهداء. شارك في مؤتمرات الساحل في كل من دمشق عام ١٩٢٨ وفي بيروت عامي ١٩٣٣ و١٩٣٦ وفي المؤتمر الإسلامي في القدس عام ١٩٣٣. تولى تحرير رئاسة الجامعة الإسلامية. من أبرز المؤسسين لعصبة العمل القومي. شارك في معارك عديدة ضد العدو الإسرائيلي في فلسطين ١٩٤٧- ١٩٤٨. يراجع بدران، أحمد: الاتجاه الوحدوي في فكر علي ناصر الدين. ص٣٧ - ٤٠.

٣٨- بدران، أحمد: المرجع نفسه. ص ٤٠.

٣٩- قدوره، زاهية: رحلة العمر . ص ٧٠- ٧١ .

٤٠- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٣ /٨/ ١٩٩٥ (أذن بالإشارة إليه).

٤١- كانت توجد هذه الكلمات والتعريفات مخطوطة في أرشيف زاهية قدوره.

٤٢- من أرشيف زاهية قدوره.

٤٣- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٢٩ /٨/ ١٩٩٥ (أذن بالإشارة إليه) .

٤٤- من شوارع بيروت القديمة المحاطة بالسور القديم.

٤٥- ذكريات زاهية قدوره. جريدة اللواء. بيروت. ٩ /٣/ ١٩٨٧ . ص ٦ .

٤٦- مجلة صوت المرأة. القاهرة. ٢١ /١١/ ١٩٤٧.

٤٧- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٤٨- مجلة صوت المرأة. القاهرة. ٢١ /١١/ ١٩٤٧.

٤٩- جريدة الأنباء. بيروت. ١٤ /٩/ ١٩٥١.

٥٠- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٥ /١٠/ ١٩٩٥ (أذن بالإشارة إليه) .

٥١- قدوره، زاهية: عائشة أم المؤمنين. ص ٩٤.

٥٢- الدخيل، سعيد فايز (الشيخ): موسوعة فقه عائشة أم المؤمنين. ص ٣٨ – ٤٦.

٥٣- ابن هشام: السيرة النبوية. ج٣. ص ٣٢٩ – ٣٣٠، وحسن، حسن ابراهيم: تاريخ الإسلام.ج١. ص١٢٤ – ١٢٧، وقدوره، زاهية: عائشة أم المؤمنين. ص٩٩.

٥٤- ابن أبي طالب (علي) (توفي ٤٠ هـ/ ٦٦١ م.) :

رابع الخلفاء الراشدين وأول الأئمة الشيعة. ربيب النبي وابن عمه وصهره على ابنته فاطمة.

من أبطال معارك بدر وأحد وخيبر والخندق وحُنين. بويع له بالخلافة بعد مقتل الخليفة عثمان ابن عفان. أنهى عصيان البصرة في معركة الجمل، رضي بالتحكيم بعد معركة صفين، فثار عليه الخوارج. اغتاله خارجي. يعتبر صاحب المدرسة الأولى في الإسلام، التي انبثق منها مجرى ثقافي عريض. جمعت كلماته بكتاب نهج البلاغة. يراجع السيوطي: المصدر نفسه. ص١٦٦، وحسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه. ج١ ص ٢٦٥ – ٢٧٤.

٥٥- أبن عفان (عثمان) (توفي ٣٥ هـ / ٦٥٦ م) :

ثالث الخلفاء الراشدين ٢٣ هـ / ٦٤٤ م. قرشي أموي. تزوج برقية، ثم بأم كلثوم ابنتي النبي ﷺ. جمع القرآن. قتل في داره إثر فتنة. يراجع السيوطي: المصدر نفسه. ص ١٤٧، وحسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه. ج١. ص ٢٥٢ – ٢٦٥.

٥٦- أبن عبيد الله (طلحة) (توفي ٣٦ هـ/ ٦٥٦ م.) :

صحابي قرشي. من العشرة المُبَشَّرة. قتل في موقعة الجمل، وهو بجانب عائشة. يراجع العسقلاني، أبن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة. ص ٩٥، وحسن، حسن ابراهيم: المرجع نفسه. ج ١. ص ٣٦٦.

٥٧- فاطمة الزهراء (توفيت ١١ هـ / ٦٣٢ م) :

بنت النبي صلى الله عليه وسلم. ولدت بمكة قبل الهجرة. لقبت بالزهراء لحسنها. زوجها الرسول من ابن عمه علي بن أبي طالب، فولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب. إليها ينتسب الفاطميون. يراجع العسقلاني، أبن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة.ص٧٨.

٥٨- قدوره، زاهية: عائشة أم المؤمنين. ص ١٧٨ – ١٨٠.

٥٩- قدوره، زاهية: المرجع نفسه. ص ١٨٠.

٦٠- قدوره، زاهية: المرجع السابق. ص ١٨٢.

٦١- ينظر الطبري ابن جرير:التاريخ. ج٣. ص٥٤٣، والدينوري ص١٤٤، ١٥١، ١٥٢، والمسعودي: ج٢. ص ٣٦٦، ٣٦٦،٣١٥،٣٠٥،٣٧٥، وابن الأثير: الكامل. ج٣. ص ٨٢، ٩٦، ١٠١، وأبو الفدا: ج١. ص ١٨٢.

٦٢- قدوره، زاهية: عائشة أم المؤمنين. ص ١٩٦

٦٣- المسعودي: ج٤. ص٣٣٥، وقدوره، زاهية : عائشة أم المؤمنين. ص١٩٧.

٦٤- قدوره، زاهية: عائشة أم المؤمنين. ص ١.

٦٥- قدوره، زاهية: المرجع نفسه. ص٢.

٦٦- سورة الحجرات. الآية ١٣.

٦٧- جريدة الأنباء. بيروت. ١٤ /٩/ ١٩٥١.

٦٨- قدوره، زاهية: الشعوبية وأثرها السياسي والاجتماعي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول. من المقدمة.

٦٩- قدوره، زاهية: الشعوبية وأثرها السياسي والاجتماعي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول. من دون تحديد لرقم الصفحة.

٧٠- جريدة الاثنين. القاهرة. ٥ /٩/ ١٩٤٩ (النسخة الأصلية كانت موجودة ضمن أرشيف زاهية قدوره).

٧١- للتوسع يراجع خالدي، مصطفى وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية. من دون تحديد لرقم الصفحة.

٧٢- للتوسع حول هذه الأفكار والعناوين، تراجع أوراق زاهية قدوره مخطوطة وغير منشورة، وهي موزعة في أرشيفها ومكتبتها، وقد خطت عليها بعض منظوماتها وطروحاتها حول الوعي القومي العربي.

٧٣- ورد التعريف عنها في مكان آخر . في المنحى الثقافي في فكر زاهية قدوره.

٧٤- جريدة الاثنين. القاهرة. ٢٢ /١٠/ ١٩٥١ (النسخة الموجودة في أرشيف زاهية قدوره).

٧٥- مقابلة مع زاهية قدوره . تاريخ ١٠ /١١/ ١٩٩٥ (أذن بالإشارة إليه) .

٧٦- قدوره، زاهية؛ بحث: نحن وأميركا والغرب. من كتاب: بحوث عربية وإسلامية. ص ١٨٢.

٧٧- زريق، فردريك: العرب في نظر الغرب. ص ٨ ـ ٩.

٧٨- كانت زاهية قدوره تقول، أنه كان عندها إعجاب بأميركا في بداية حياتها، عندما كانت تنظر إليها كأول بلد للحريات في العالم، انطلاقاً من مباديء رئيسها ويلسن. ولكن أميركا لم تعرف كيف تحافظ على هذه الميزة. عندما تركت الصهيونية تسيطر على مقدراتها العسكرية والسياسية والاقتصادية، حتى باتت مبغوضة من معظم دول العالم، وخصوصاً الدول العربية.

٧٩- إن أحداً لا ينكر أن إسرائيل وأصدقاءها في الولايات المتحدة يمارسون نفوذاً هائلاً في صناعة السياسة الأميركية تجاه المنطقة العربية. ومع ذلك، يظل من الحقيقي أن تكتيكات اللوبي الصهيوني تجد آذاناً صاغية في الولايات المتحدة نظراً إلى انسجامها مع الآراء الراسخة تاريخياً لدى الأميركيين حول العرب والمسلمين بشكل عام. لمزيد من التوسع يراجع جرجس، فواز: السياسة الأميركية تجاه العرب. كيف تصنع ؟ ومن يصنعها ؟. ص١٣ وما بعدها.

٨٠- ظهرت هذه الأفكار والمقومات في محاضرة للدكتورة زاهية وهي بعنوان: القيم والأعـراف الأخلاقية في الحضارة العربية الإسلامية، وقد سبق وتمت الإشارة إليها في مرحلة سابقة إضافة إلى غيرها من أفكارها وآراءها ونظرياتها التي وضعتها وبثتها بين طلابها وعممتها على مريديها.

٨١- قدوره، زاهية؛ بحث: نحن وأميركا والغرب. من كتاب: بحوث عربية وإسلامية. ص ٢١٥.

٨٢- يراجع قدوره، زاهية: المرجع نفسه . ص ٢١٦ .

٨٣- لمزيد من التوسع، يراجع أرشيف زاهية زاهية قدوره الذي يضم كمية وافرة من الأوراق المخطوطة التي تحتوي المزيد من هذه الأفكار والآراء.

٨٤- مجلة كل شيء. بيروت. ١٤ /١/ ١٩٤٩.

٨٥- المرجع نفسه.

٨٦- لمزيد من الاطلاع يراجع أبو ملحم، أحمد: يقظة العرب، لنجيب عازوري. من دون تحديد لرقم الصفحة.

٨٧- مجلة كل شيء. بيروت. ١٤ /١/ ١٩٤٩ .

٨٨- **الجزائري، عبد القادر (١٨٠٨ ـ ١٨٨٣) :**

أمير جزائري مجاهد. حارب الفرنسيين ١٨٣٢ ـ ١٨٤٧. أستسلم فنفي إلى فرنسا، ثم استقر في دمشق. دافع عن المسيحيين في فتنة ١٨٦٠. من آثاره « ديوان شعر» و «الصافنات الجياد» و

«المواقف» و «ذكرى الغافل وتنبيه الجاهل» . يراجع زيادة، خالد: « مئة سنة على وفاة الأمير عبد القادر الجزائري(١٨٠٨ ـ ١٨٨٣)» . مجلة المقاصد. بيروت. العدد١٣. السنة٢. أيار ١٩٨٣م./ شعبان ١٤٠٣هـ.ص ٥٢ ـ ٥٨.

٨٩- قدوره، زاهية: «مع الجرحى في مستشفى المزة». مجلة كل شيء. بيروت. ٢٥ /١/ ١٩٤٨.

٩٠- مجلة كل شيء. بيروت. ١٤ /٢/ ١٩٤٨ (النسخة الأصلية من أرشيف الدكتورة زاهية قدوره).

٩١- المرجع نفسه.

٩٢- وهو صدر بيت للإمام الشافعي، والبيت بتمامه :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

الشافعي: الديوان. تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي. ص ١٣١.

٩٣- قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة). الجزء الثالث.ص١٤ .

٩٤- الدكتورة قدوره عضو اللجنة التنفيذية في مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

٩٥- قدوره، زاهية: «تنبهوا واستفيقوا أيها العرب». جريدة السفير. بيروت في ١٩٩٤/٧/٢٩، ورحلة العمر. ص ٤٣٥.

٩٦- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٩٧- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٩٨- قدوره، زاهية؛ بحث: العروبة والإسلام. نشر في كتيّب: أبحاث في العروبة والإسلام عام ٢٠٠٠.

٩٩- قدوره، زاهية: أوراق خاصة (مخطوطة) موجودة في الأرشيف.

١٠٠- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

١٠١- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

١٠٢- قدوره، زاهية: « تهويد مدينة القدس» . جريدة السفير. بيروت. ١٥ /٤/ ١٩٩٧ .

١٠٣- **عازوري (نجيب) (؟ ـ ١٩١٦):**

ولد في عازور بجنوب لبنان. تابع دروسه الإبتدائية في مدرسة الفرير في بيروت، ودراساته العليا في العلوم السياسية في باريس. حاز في العشرين من عمره على دبلوم العلوم السياسية من مدرسة الدراسات العليا. عين عضواً في مجلس المبعوثان ومساعد حاكم مدينة القدس ما بين ١٨٩٨ـ١٩٠٤. أصدر في باريس مجلة «الاستقلال العربي». العازوري من الرواد الأوائل الذين آمنوا بالعروبة. دعا إلى تأسيس حزب قومي عربي، أطلق عليه اسم: «جامعة الوطن العربي». انتقل إلى مصر وعمل فيها بالصحافة لنشر الوعي القومي العربي. يراجع عازوري،نجيب:يقظة الأمة العربية. تعريب أحمد أبو ملحم. ص ٥ ـ ١٠ و ١٧ ـ ١٨.

١٠٤- **ميشال (شيحا) (١٨٩١ ـ ١٩٥٤) :**

أديب وسياسي وصحفي واقتصادي لبناني. ولد في بيروت. له مؤلفات شعرية ونثرية بالفرنسية. من كتبه: فلسطين، لبنان اليوم، محاولات. أصدر بالفرنسية جريدة لوجور عام ١٩٣٤. يراجع: المنجد في الأعلام واللغة. ص ٣٣٩.

١٠٥- قدوره، زاهية: بحوث عربية وإسلامية. ص ٢٤٠ ـ ٢٦٨. بحث: مفكران لبنانيان وقضية

فلسطين: نجيب عازوري وميشال شيحا. ويوجد مخطوط له بخط يدها، وهو مؤلف من تسع صفحات.

١٠٦- جبر، جورج: ميشال شيحا، خواطر. جزءان. دار النهار للنشر ومؤسسة شـيحا. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٧ . وبعد وفاة زاهية قدوره، صدر عن دار النهار للنشر ومؤسسة ميشال شيحا، كتاب: فلسطين، من تأليف ميشال شيحا.

١٠٧- أبو ملحم، احمد: يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. لاط. لا تا.

١٠٨- قدوره، زاهية: أوراق متعددة خطت عليها عنـاوين النقاط، والمحطات التي تطرقت إليها في بحث نجيب عازوري وميشال شيحا.

١٠٩- أنطونيوس، جورج: يقظة العرب. تاريخ حركة العرب القومية. ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس.

١١٠- قدوره، زاهية؛ بحث: مفكران لبنانيان وقضية فلسطين: نجيب عازوري وميشـال شـيحا. من كتاب: بحوث عربية وإسلامية. ص ٢٤٠ – ٢٦٨.

١١١- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

١١٢- أبو ملحم أحمد: يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري. ص ٩٥٨.

١١٣- رزوق، أسعد: "نجيب عازوري". مجلة المستقبل العربي. بيروت. العدد ٤ تشرين الأول/ أكتوبر١٩٧٨

١١٤- قدوره، زاهية: أوراق متعددة خطت عليها الدكتورة عناوين النقاط والمحطات التي تطرقت إليها في بحثها عن ميشال شيحا، وهي بدون تاريخ.

١١٥- شيحا، ميشال: فلسطين. ص ١٧ – ١٩.

١١٦- قدوره، زاهية؛ بحث: مفكران لبنانيان وقضية فلسطين: نجيب عازوري وميشال شيحا. من كتاب: بحوث عربية وإسلامية من دون تحديد لرقم الصفحة.

١١٧- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

١١٨- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

١١٩- قدوره، زاهية؛ المرجع نفسه، وأبو ملحم، أحمد: المرجع نفسه.

١٢٠- تقتضي الإشارة أن زاهية قدوره في بداية حياتها الدراسـية، وبعد الإنتهاء من المرحلة الثانوية، كانت عندها رغبـة لمتابعة الدراسات العليا، والتخصص باللغة الإنكليزية وقواعدها؛ بسبب النجابة التي ظهرت عليها في إتقان هذه اللغة منذ حداثة سـنها، وحدثت والدتها بهذا الأمر، وأبدت أمامها الرغبة متابعة الدراسة الجامعية في إحدى الجامعات الأميركية. ولم يكن لديها أي ميل لمتابعة الدراسة في التاريخ والتخصص فيه، إنما فعلت ذلك بناء على رغبة والدتها. وقد تمت الإشارة إلى ذلك، في مطلع هذا الكتاب، في التدوين لسيرة حياتها.

١٢١- يراجع حسين، عدنان السيد: النزاعات الأهلية – العربية، العوامل الداخلية والخارجية. ص ٨٣ - ١١٣.

١٢٢- همرشولد (داغ) Hammarskjôld (١٩٠٥- ١٩٦١) :

سياسي سويدي. أمين عام الأمم المتحدة ١٩٥٣. قتل في حادث طائرة. نال جائزة نوبل للسلام عام ١٩٦١. يراجع المنجد في اللغة والأعلام. ص ٥٩٧.

١٢٣- جرائد التلغراف والصحافة والسياسة. بيروت ٢٩ /١١/ ١٩٥٨.

١٢٤- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٥ /١٢/ ١٩٩٥(أذن بالإشارة إليه).

للاطلاع على معلومات مفصلة عن قيام الوحدة المصرية – السورية يراجع كتاب: يوميات ووثائق الوحدة المصرية السورية. (ستة مجلدات).

١٢٥- لمزيد من التوسع، يراجع جنبلاط، كمال: حقيقة الثورة اللبنانية. من دون تحديد لرقم الصفحة.

١٢٦- لدى التدقيق في أرشيف زاهية قدوره، تبين وجود بعض الوثائق والمستندات حول عمل اللجنة الأهلية لنصرة مصر. وجاء فيها ذكر للتبرعات التي جمعت، وأنواعها وقيمتها، وأسماء أعضاء الوفد الذي قام بتسليمها إلى السفير المصري في بيروت آنذاك.

١٢٧- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٦ /١٢/ ١٩٩٥ (أذن بالإشارة إليه).

١٢٨- قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة). الجزء الثالث. ص١٨.

١٢٩- لمزيد من التوسع يراجع: الصليبي، كمال: تاريخ لبنان الحديث. ص ٢٤٠.

١٣٠- قدوره، زاهية: " الوحدة الفكرية ". جريدة السياسة. بيروت ٩ /١١/ ١٩٥٨.

١٣١- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

١٣٢- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٣ /١/ ١٩٩٦ (أذن بالإشارة إليه).

١٣٣- قدوره، زاهية: المرجع السابق.

١٣٤- حلاق، حسان: التيارات السياسية في لبنان ١٩٤٣ – ١٩٥٢. ص٤١٤.

١٣٥- قدوره، زاهية: المرجع السابق.

١٣٦- قدوره، زاهية: المرجع السابق. ص ١٠.

١٣٧- قدوره، زاهية (مخطوطة) مذكرات٠ الجزء الرابع٠ ص ١٢.

١٣٨- قدوره، زاهية: المرجع نفسه٠ ص ١٣.

١٣٩- قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة). الجزء الخامس. ص ٣٩.

١٤٠- ضاهر، مسعود: الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧ – ١٨٦١.

١٤١- قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة) .ص٣٩.

١٤٢- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

١٤٣- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

١٤٤- للمزيد حول هذه الأفكار يراجع أرشيف زاهية قدوره وفيه كثير من الشعارات المخطوطة إضافة إلى بعض المؤلفات والأبحاث عن واقع الأحداث التي وقعت في لبنان. ونظرتها إليها.

١٤٥- جريدة الأنوار. بيروت ١٧ /٤/ ١٩٧٥.

١٤٦- قدوره، زاهية: المرجع السابق.

١٤٧- لدعم هذه النقاط والأفكار، قام ببحث وتفتيش في أرشيف زاهية قدوره، للعثور على دليل ملموس لها؛ فتم العثور على كلمة بعنوان: لبنان الجديد. التي تبين أنها كانت قد ألقتها في ندوة ميثاق لبنان الجديد، التي عقدت في الجامعة الأميركية في بيروت بتاريخ ١٩٨٨/٨/١٧.

١٤٨- وضعت زاهية قدوره بعض الكلمات ذات الاتجاه الأنثوي، كمقدمة لمجلة صوت المرأة في عددها الأول، الذي صدر في بيروت في شهر آب / أغسطس ١٩٨٨. وخطت كلمة شكر وجهتها إلى النائب السابق أحمد سويد، الذي كان قد شن حملة على وسائل الإعلام، التي كانت تقوم باستغلال جسد المرأة في الدعايات والإعلانات.

١٤٩- البيان الصادر عن عميدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية زاهية قدوره بتاريخ ١٤ /٢/ ١٩٧٦.

١٥٠- قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة) . ص ٣٩ .

١٥١- قدوره، زاهية: المرجع السابق.

١٥٢- قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة). ص ٣٠٥-٣٠٦ .

١٥٣- مجلة الصياد. بيروت ٢٢/ ٢/ ١٩٨٢.

١٥٤- إن أخبار الاجتياح الإسـرائيلي للأراضي اللبنانية، ودخولها إلى العاصمة بيروت، احتلت – ولفترة طويلة من الوقت – مكانة عريضة فـي مختلف - إن لم يكن في جميع – وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروؤة. لمزيد من التوسع حول هذا الموضوع تراجع الصحف والبيانات الصادرة في تلك الفترة .

١٥٥- قدوره، زاهية: الأوراق وبقايا البطاقات التي دونت عليها أفكارها وآراءها المختلفة المتنوعة.

١٥٦- قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة). ص ٣٠٧ .

١٥٧- قدوره، زاهية: رحلة العمر. ص ٣٤١ – ٣٤٢.

١٥٨- يعزز هذه الاعتقادات والفرضيات مجموعة الأبحاث والكتب والمؤلفات، بالإضافة إلى المحاضرات والأنشطة المتعددة التي زاولتها، ونشطت من خلالها لحث روح الحماس بالدفاع والمقاومة، عند الشباب من أبناء بيروت. ومن أعمالها محاضرة: « لتبقى بيروت سيدة العواصم العربية « و» محاضرة الوحدة طريق النصر» .

١٥٩- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٣٠ /٢/ ١٩٩٦ (أذن بالإشارة إليه) .

١٦٠- انطلقت أولى شرارات ثورة المقاومة الوطنية اللبنانية ضد العدو الإسرائيلي من بيروت، من شارع الحمراء في شهر أيلول / سبتمبر عام ١٩٨٢، عندما أقدم المقاوم الأول الشهيد خالد علوان، على إطلاق النار على ضابطين إسرائيليين في مقهى الويمبي (WIMBY) في شارع الحمراء في بيروت.

١٦١- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٣/٣/ ١٩٩٦ (أذن بالإشارة إليه).

١٦٢- قدوره، زاهية : "مؤتمر أهل الكتاب". جريدة السفير. بيروت. ٢١ /١٠/ ١٩٩٤.

١٦٣- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٢٧ /٥/ ١٩٩٧ (أذن بالإشارة إليه) .

١٦٤- **سيف بن ذي يزن:**

أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو الحميري. من ملوك العرب اليمانيين ودهاتهم. قيل اسمه معد يكرب. ولد ونشأ بصنعاء نحو ١١٠ ق.هـ. نحو ٥١٦ م. وكان الأحباش قد ملكوا اليمن في أوائل القرن السادس للميلاد، وقتلوا أكثر ملوكها من آل حمير، فنهض سيف إلى كسرى أنو شروان (ملك الفرس) فحدثه بأمره، فبعث معه كسـرى نحو ثماني ماية رجل؛ فقتلوا ملك الحبشة ودخلوا صنعاء، وكتبوا إلى كسـرى بالفتح، فألحقت اليمن ببلاد الفرس على أن يكون ملكها والمتصرف

في شـؤونها سيف بن ذي يزن. مكث في الملك نحو خمس وعشرين سنة، حتى ائتمر عليه بقايا الأحباش، فـقتلوه بصنعاء سنة ٥٠ ق.هـ. / ٥٧٤ م. وهو آخر من ملك اليمن من قحطان. يراجع؛ الزركلي: الأعلام. مج ٣. ص ١٤٩. والدينوري، أبو حنيفة: كتاب الأخبار الطوال. ص ٦٣.

١٦٥- **موقعة ذي قار:**

مكان قريب من الصرة، اشتهر بيوم لبني شيبان فيه. وكان أبرويز أغزاهم جيشاً، فظفرت بنو شيبان. وهو أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم. وفيه كانت الواقعة الشهيرة بين بكر بن وائل والفرس. وكانت وقعة ذي قار المشهورة في التاريخ، قد حصلت يوم ولادة رسول الله النبي محمد ابن عبد الله، صلى الله عليه وسلم. يراجع ياقوت الحموي: معجم البلدان. مج ٤. ص ٢٩٣ – ٢٩٥، والعسكري ، أبو هلال: الأوائل. ص ٢٨٩ – ٢٩١.

١٦٦- لم يتمكن زعماء تلك المرحلة بإمكانياتهم المحدودة من الوقوف في وجه القوى الاستعمارية، التي كانت في عز قوتها. وبدلاً من أن يقوم هؤلاء الزعماء باستنهاض شعوبهم لتحقيق الوحدة المنشودة فيما بينهم، إذا بهم ومن دون أن يدركوا مخاطر أفعالهم، يساهمون في تقسيم الوطن العربي وشرذمته إلى أجزاء متنافرة ومتناحرة، بشكل نافر ومستغرب، وهو الأمر الذي لم تصادفه على مدى تاريخها الطويل. وقد تسببت هذه الحالة للعرب في الصعف والتقهقر، مما أدى بهم إلى إثارة الشعور القومي بينهم. فما كان منهم إلا أن هبوا للدفاع عن كيانهم حتى تمكنوا من إخراج المستعمرين من بلادهم. وقد أصبح هذا الكفاح المشترك عاملاً جديداً من عوامل الوحدة التي يبتغيها العرب في هذا الوقت أكثر من أي وقت آخر. ولكنهم يقفون اليوم مثخنين بجراح الماضي، التي تزيدها أحداث اليوم وجعاً وألماً شديدين، معطوفة على الحواجز المصطنعة التي يقيمها المستعمرون الجدد، للقضاء على كفاحهم الطويل، الذي لم يعد من هم في الوقت الحلضر إلا العمل على مداواة الجراح اليومية، وتخطي الحواجـز الحواجز المتجددة في كل صباح. (المؤلف)

١٦٧- **أبن علي (الحسين) (١٨٥٦ – ١٩٣١) :**

شريف مكة والحجاز ١٩٠٨. نشأ في استانبول. أعلن الثورة العربية على الأتراك عام ١٩١٦، وأصبح ملكاً على الحجاز. هزمه الملك عبد العزيز بن سعود عام ١٩٢٤، فترك الحجاز وأقام في نيقوسيا. توفي في عمان ودفن في الحرم الشريف. خلفه ابنه عليّ ثم تنازل عن الخلافة عام ١٩٢٥. ملك ابنه الأمير عبد الإله في عمان، وفيصل في بغداد. يراجع قلعجي، قدري: الثورة العربية الكبرى ١٩١٦ – ١٩٢٥. من دون تحديد لرقم الصفحة.

١٦٨- لمزيد حول معرفة حقيقة الثورة العربية الكبرى التي قادها الشـريف حسين، شريف مكة. يراجع: أنطونيوس جورج : يقظة العرب. تاريخ حركة العرب القومية. من دون تحديد لرقم الصفحة.

١٦٩- وهم الذين كانت زاهية قدوره قد تأثرت بأفكارهم ومنطلقاتهم، من أمثال: قسطنطين زريق والأمير مصطفى الشهابي، اللذان عرفا في دعاويهما للقومية العربية. كما توافقت مع طروحات أبي خلدون ساطع الحصري وجورج أنطونيوس للقومية العربية ويقظة الأمة العربية.

١٧٠- لمزيد من التوسع يراجع الكبيسي، باسل: حركة القوميين العرب. من دون تحديد لرقم

الصفحة، وبرو، توفيق: القومية العربية في القرن التاسع عشر. من دون تحديد لرقم الصفحة.

١٧١- من الأوراق المتناثرة في أرشيف زاهية قدوره، التي كانت تحوي كثير من هذه الأفكار والآراء.

١٧٢- تم استخلاص لهذه الأفكار والطروحات من إحدى اللقاءات التي كانت تتم مع زاهية قدوره.

١٧٣- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

١٧٤- من الكلمات المخطوطة بخط يد زاهية قدوره، التي تساءلت فيها من يكون الشخص القومي؟

١٧٥- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

١٧٦- الكبيسي، باسل: المرجع نفسه . ص ١١٨ .

١٧٧- قدوره، زاهية: رحلة العمر. ص ٧٠ ـ ٧١.

١٧٨- تجدر الإشارة إلى ما كتبته زاهية قدوره حول قومية التاريخ، وهو: « إن المرحلة الحاضرة بحاجة إلى التمحور حول قومية التاريخ، إذ أننا نجابه مرحلة تحدي الذات العربية، التحدي القومي والحضاري. إذاً فلا بد ونحن نكتب تاريخنا، أن ننظر إلى الصراع الدائر بيننا وبين الاستعمار العالمي على كل صعيد، وفي هذه الفترة بالذات، فهو صراع مصير وصراع وجود، فالصراع الحضاري متجه نحو تفتيت معالم شخصيتنا القومية والحضارية» . من أرشيف زاهية قدوره (كلمة مخطوطة).

١٧٩- يازجي، حليم: جذور الفكر القومي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر(رينان: ما هي الأمة؟). كتاب بعنوان: « أبحاث في الفكر القومي». مجموعة من المؤلفين. بإشراف معن زيادة. ص٦٣- ٦٧.

١٨٠- أقام المنتدى القومي العربي بتاريخ ٢٧ /٧/ ١٩٩٨ حفل تكريم لعدد من المناضلين الأمناء على العهد القومي، وكانت زاهية قدوره واحدة منهم الذين قدمت إليهم دروع التقدير والوفاء لجهودهم النضالية والفكرية، في سبيل الحركة القومية العربية وتحقيق حلم الوحدة العربية.

١٨١- قدوره، زاهية: « كتابة التاريخ العربي. الواقع والبدائل. دراسة في مفاهيم التاريخ في المرحلة القومية المعاصرة «. مجلة الآداب. بيروت. السنة السابعة والعشرون. العددان٤- ٩ (عدد ممتاز) نيسان – أيار/أبريل- نوار ١٩٧٩.ص ٧٩-٨٣، و بحث: « مفاهيم التاريخ في المرحلة القومية المعاصرة» . من كتاب: بحوث عربية وإسلامية. ص ٩ ـ ٢٣.

١٨٢- قدوره، زاهية: المرجع نفسه. ص ١٣.

١٨٣- قدوره، زاهية: المرجع نفسه. ص ١٥.

١٨٤- قدوره، زاهية: المرجع نفسه. ص ٢٠.

١٨٥- قدوره، زاهية: المرجع نفسه. ص ٢١.

١٨٦- **عبد الناصر (جمال) (١٩١٨ ـ ١٩٧٠) :**

ولد في بني مر من أعمال أسيوط المصرية. رجل دولة مصري ورائد عربي. ألف حركة الضباط المصرية التي قلبت نظام الملك فاروق عام ١٩٥٢. أمم قناة السويس عام ١٩٥٦.
انتخب رئيساً للجمهورية المصرية عام ١٩٥٨، وبقي كذلك حتى تاريخ وفاته عام ١٩٧٠. من زعماء دول العالم الثالث ومؤسسي حركة عدم الانحياز مع نهرو وتيتو. له كتاب «فلسفة الثورة».

يراجع سيد أحمد، رفعت: ثورة الجنرال، جمال عبد الناصر. من دون تحديد لرقم الصفحة.

١٨٧- ستورد، ديزموند: تاريخ الشرق الأوسط الحديث. ص ٣٠٨- ٣١٤.

١٨٨- الحصري، أبو خلدون ساطع: حول القومية العربية. ص٦٣، وحمادي، سعدون: عن القومية والوحدة العربية. سألني سائل فأجبت. ص ٢٢٦.

١٨٩- زين، زين نور الدين: نشوء القومية العربية. ص١٤٣ـ١٤٤، وقدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة). ص ٩٥و١٤٧و٣١٠.

١٩٠- سورة آل عمران . الآية ١٠٩ .

١٩١- امتحنت العربية مرتين مرة زمن الإسلام والثانية في العصر العباسي. في الأولى استطاعت استيعاب المعاني الإسلامية، وفي الثانية اتسعت لحركة العلوم والفنون وأثبتت في كل حين جدارتها.ومن يدعي عجزها وقصورها، ينظر إليها بعين أحادية، وهو ممن يطلب وأدها والقضاء عليها. يشد الأزر قول حافظ إبراهيم :

رَجَعْتُ لنفسي فاتَّهمْتُ حَصَاتـــيونادَيْتُ قَوْمي فاحْتَسَبْتُ حَيَاتـي
رَمَوْنـي بِعُقْم في الشَّبَابِ ولَيْتَنـــيعَقِمْتُ فلمْ أَجْزَع لقولِ عُدَاتـي
وَسِعْتُ كتابَ اللهِ لفظاً وغايـــةً وما ضِقْتُ عن آيٍ به وعظـاتِ
فكيف أَضيقُ اليومَ عنْ وصفِ آلةٍ وتَنْسيقِ أسْمَاءٍ لمختر عـــات
أَنَا البَحْرُ في أَحْشَائِهِ الدُّرُّ كامِـنٌ فَهَلْ سَأَلُوا الغَوَّاصَ عن صَدَفَاتِي

إبراهيم، حافظ: الديوان. ضبطه وصححه وشرحه ورتبه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري ج١. ص٢٥٣.

١٩٢- ينظر حركة الترجمة والنقل من اللغات اليونانية والفارسية إلى اللســان العربي، أعلام المترجمين. النديم: الفهرست. ص٣٤٠- ٣٤٢. وقد تركت حركة الترجمة والنقل آثارها على اللغة والفكر العربيين. لتفصيل ذلك، يراجع مرحبا، محمد عبد الرحمن: الموجز في تاريخ العلوم عند العرب. ص ٨٤ وما بعدها.

١٩٣- قدوره، زاهية: محاضرة التاريخ والقومية العربيـة. ألقيت في نادي المعلمين المصريين في بيروت في تاريخ ٧ /٣/ ١٩٥٨.

١٩٤- ندوة القومية العربية والإسلام .ص ١١١ ـ ١١٤.

١٩٥- الصلح، رغيد: «القومية العربية في القرن الواحد والعشرين». مجلة المنابر. بيروت. السنة١٢. العدد ٨٩ ـ ٩٠. أب ـ أيلول / أغسطس ـ سبتمبر ١٩٩٨. ص ١٨- ٢٧ .

١٩٦- يراجع أنطونيوس، جورج : المرجع نفسه. ص ١٣-١٦. وللإفاضة في التوسع حول هذا الموضوع يراجع زين، زين نور الدين: المرجع نفسه. ص ٩ ـ ١٠.

١٩٧- الشهابي، مصطفى (الأمير): القومية العربية. تاريخها وقوامها ومراجعها (محاضرات) ص ٣٦.

١٩٨- موسى، سليمان: الحركة العربية. المرحلة الأولى للنهضة العربيـة الحديثـة ١٩٠٨ ـ ١٩٢٤. ص ٣٠ ـ ٣١.

١٩٩- أبو عز الدين ، نجلاء: العالم العربي. ص ١٣٣ ـ ٢٠٩.

٢٠٠- لمزيد من التوسع، تراجع أوراق زاهية قدوره المخطوطة والموزعة في أرشيفها ومكتبتها التي خطت عليها بعض منظوماتها وطروحاتها حول الوعي القومي العربي.

٢٠١- **رضا (محمد رشيد) (١٨٦٥ – ١٩٣٥) :**
ولد في القلمون (لبنان). من علماء الدين الإسلامي. صاحب مجلة المنار في القاهرة. وتلميذ الشيخ محمد عبده. أشهر آثاره مجلة المنار وتفسير القرآن الكريم، المعروف بتفسير المنار. يراجع الأبيض ، أنيس: رشيد رضا، تاريخ وسيرة. ص ١٢ - ٤٠.

٢٠٢- **الأفغاني (جمال الدين) (١٨٣٨ – ١٨٩٧) :**
فيلسوف الإسلام في عصره. نشأ في كابل، جال في الشرق والغرب. دعا إلى الوحدة الإسلامية. له إبطال مذهب الدهريين. أصدر ومحمد عبده مجلة «العروة الوثقى» في باريس ١٨٨٤.يراجع حوراني، ألبرت: الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨- ١٩٣٩. ص ١٣٦ – ١٦١، والحاج علي، مصطفى: « جمال الدين الأفغاني ومسألة الوحدة الإسلامية ». مجلة المنطلق. بيروت . العدد ٥٨. صفر ١٤١٠ هـ / أيلول ١٩٨٩ م. ص ٥٦ – ٥٨.

٢٠٣- **الكواكبي (عبد الرحمن) (١٨٤٩ – ١٩٠٢) :**
صحافي وأديب سوري. ولد في حلب وأنشأ فيها جريدة الشهباء ١٨٧٧. اشتهر بتحرره ودعوته إلى النهضة والإصلاح، فاضطهده الأتراك وهاجر إلى مصر.من كتبه أم القرى وطبائع الاستبداد. يراجع كباره، نزيه: عبد الرحمن الكواكبي. ص ٣٥ – ٤٤، ودايه، جان: الإمام الكواكبي. ص ٢٢ – ٢٥.

٢٠٤- **عبده (الشيخ محمد) (١٨٤٩ – ١٩٠٥) :**
سياسي مصري. من علماء المسلمين الداعين إلى التجديد والإصلاح. تلميذ الأزهر. حرر جريدة الوقائع المصرية. ناوأ الإنكليز، فنفوه إلى خارج مصر. أصدر في باريس مع جمال الدين الأفغاني مجلة العروة الوثقى، ثم عاد إلى بيروت فاشتغل بالتدريس والتأليف.
مفتي الديار المصرية عام ١٨٩٩. من مؤلفاته: رسالة التوحيد، وشرح مقامات البديع الهمذاني، وشرح نهج البلاغة، وتفسير القرآن ومجموعة مقالات أخرى. يراجع عبده، الإمام الشيخ محمد: رسالة التوحيد. ص ٧ – ٢٠.

٢٠٥- **الطهطاوي (رفاعة) (١٨٠١ – ١٨٧٣) :**
من أركان النهضة العلمية الحديثة في مصر.تعلم في الأزهر وفي فرنسا على كبار المستشرقين يعتبر من رواد الصحافة العربية الأوائل، حرر جريدة الوقائع المصرية. عرب كتباً علمية كثيرة في الجغرافيا والقانون والهندسة وغيرها.كمبادىء الهندسة، وجغرافية ملطبرونز وله خلاصة الإبريز في وصف رحلته إلى فرنسا،وأنوار توفيق الجليل في تاريخ مصر،وتعريب القانون المدني الفرنسي. يراجع النجار، حسين فوزي: رفاعة الطهطاوي. دون تحديد لرقم الصفحة.

٢٠٦- بنتيجة البحث حول التيار الراديكالي العلماني الليبرالي، يتبين أنه متشعب إلى ثلاثة مشاريع:
١ – مشروع علمي قام على همة جماعة المقتطف، أبرز قادته شبلي الشميل (١٨٥٠ – ١٩١٧) ويعقوب صروف (١٨٥٢ – ١٩٢٧) وفارس نمر (١٨٥٦ – ١٩٥٢).
٢ – مشروع اجتماعي أبرز من قام به: بطرس البستاني (١٨١٩ – ١٨٨٣) وقاسم أمين

(١٨٦٥ – ١٩٠٨) وولي الدين يكن (١٨٧٣ - ١٩٢١).
٣ – مشروع سوسيوسياسي وفي مقدمته فرح أنطون (١٨٧٤ – ١٩٢٢) وخليل سعادة (١٨٥٧ - ١٩٣٤). يراجع جحا، ميشال: فرح أنطون. ص ١٣-١٤.

٢٠٧- **الشميل (شبلي) (١٨٥٣ – ١٩١٧) :**
طبيب وفيلسوف لبناني، اجتماعي متحرر. ولد في كفرشيما، ودرس في بيروت وعاش في مصر. أصدر مجلة الشفاء ١٨٨٦- ١٨٩١. رائد نظرية التطور في العالم العربي، عرّف بمذهب داروين وشرحه. من كتبه فلسفة النشوء والإرتقاء ومجموعة مقالات، وشرح بخنر على مذهب داروين ورسالة الحقيقة، وشرح كتباً طبية قديمة ونشرها كفصول أبقراط، وأرجوزة ابن سينا، وله: الحب على الفطرة. اشتهر بنقده للظلم الاجتماعي. يراجع المنجد في اللغة والأعلام. ص٣٣٦.

٢٠٨- يعتبر فرح أنطون من خيرة من واجهوا الشؤون الاجتماعية وعالجوها، على كثير من التقدم والجرأة. والناظر في الكم التأليفي عنده يستنتج كيفاً نقدياً مميزاً في إطار قضايا الدين والتعليم والمرأة. بالإضافة إلى القضايا السياسية. كما أن فرح أنطون أحد أبرز عناصر الفئة المثقفة العربية التي برزت على المسرح السياسي والاجتماعي في الدولة العثمانية، وأحد المُعَبِّرين عن حركة التحرر الوطني وحركة التنوير. وأنه قد تأثر بأفكار روسو وفولتير ورينان ومونتسكيو وكان داعية للتسامح الديني والسياسي والاجتماعي بين المسيحيين والمسلمين. وأنه كان يكتب كإنسان لا كمسلم أو مسيحي باسم الإنسانية. كما تأثر بداروين ونيتشه وماركس وتولستوي وابن رشد الفيلسوف العربي الذي عاش في قرطبة في الأندلس وابن الطفيل والغزالي وعمر الخيام. يراجع جحا، ميشال: فرح أنطون. ص ١٤.

٢٠٩- **عازوري (نجيب) (٠٠٠ – ١٩١٦) :**
ولد في عازور، في جنوب لبنان. درس في كلية عينطورة والتحق بمدرسة الفرير في بيروت، وتابع دراساته العليا في باريس، وحاز منها على دبلوم في العلوم السياسية ولم يبلغ العشرين من عمره. عين عضواً في مجلس المبعوثان، وتقلد منصب مساعد حاكم القدس ما بين ١٨٩٨ – ١٩٠٤. اعتزل منصبه وتفرغ للعمل السياسي. أصدر في باريس مجلة الاستقلال العربي بالفرنسية. عاد إلى فلسطين لخوض الانتخابات النيابية فيها، فمنع من قبل الأتراك الذين حكموا عليه بالإعدام، فهرب إلى القاهرة، التي ترأس فيها تحرير جريدة مصر، وأسس محفلاً ماسونياً لتحرير الوطن. يراجع أبو ملحم، أحمد: المرجع نفسه. ص١٧ – ١٨.

٢١٠- **البستاني (بطرس) (١٨١٩ – ١٨٨٣) :**
أديب لبناني من أعاظم أركان النهضة. ولد في الدبية. تعلم في مدرسة عين ورقة. اشترك مع فانديك في ترجمة التوراة إلى العربية. أنشأ المدرسة الوطنية في بيروت عام ١٨٦٣، وكان أول من نادى بتعليم المرأة. من آثاره: قاموس محيط المحيط ودائرة المعارف، في أجزائها الستة الأولى. عرف بالمعلم. يعتبر من رواد الصحافة العربية الأولين، أنشأ أربع صحف شهيرة: نفير سورية ١٨٦٠ والجنان والجنة، والجنينة. عاونه في بعض أعماله ابنه سليم من الفترة ١٨٤٧ حتى ١٨٨٤. يراجع المنجد في الأعلام واللغة. ص ١٢٧.

٢١١- زيدان (جرجي) (١٨٦١ – ١٩١٤) :
أديب ومؤرخ لبناني.ولد وتعلم في بيروت وتوفي بالقاهرة.من رجال النهضة. أسس في القاهرة مجلة الهلال في سنة ١٨٩٢ ودار الهلال للنشر. له مقالات لغوية وتاريخية مشهورة.
من كتبه: تاريخ التمدن الإسلامي، وتاريخ آداب اللغة العربية، وروايات من تاريخ الإسلام. يراجع المنجد في اللغة والأعلام. ص ٢٨٢.

٢١٢- القاسمي (جمال الدين) (١٨٦٦ – ١٩١٤) :
إمام الشام في عصره. كان سلفي العقيدة. له مصنفات في التفسير والأدب، منها: دلائل التوحيد وقواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، ومحاسن التأويل، و١٢ مجلداً في التفسير. يراجع المنجد في الأعلام واللغة. ص ٤٣١.

٢١٣- يراجع سلطي، التل سهير: حركة القوميين العرب وإنعطافاتها الفكرية. ص ١٧ – ٢٥.

٢١٤- كانت زاهية قدوره من المؤرخين الذين جاهروا دائماً وعلناً،بأن المسيحية وجدت في الجزيرة العربية قبل العرب والمسلمين. ومن هنا فهي لا تستغرب نسبهم العربي؛ وانتماءهم للقومية العربية (المؤلف). يراجع قدوره، زاهية: مؤتمر أهل الكتاب. جريدة السفير. بيروت ٢١ /١٠/ ١٩٩٤.

٢١٥- الشهابي، مصطفى (الأمير) : القومية العربية؛ تاريخها وقوامها ومراميها. ص٣٥٩.

٢١٦- قدوره، زاهية: أوراق تحمل عنوان: الوعي القومي. كانت مخطوطة ومحفوظة في أرشيفها.

٢١٧- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٢١٨- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٢١٩- قدوره، زاهية: القومية العربية. عنوان حملته بعض الأوراق الموجودة في أرشيفها، والتي كتبت عليها بعض الأفكار عنها.

٢٢٠- المجموعة الكاملة لخطب وأحاديث وتصريحات جمال عبد الناصر (ثلاثة أجزاء).

٢٢١- قدوره، زاهية: المرجع السابق.

٢٢٢- المجموعة الكاملة لخطب وأحاديث وتصريحات جمال عبد الناصر (ثلاثة أجزاء) . من دون تحديد لرقم الصفحة.

٢٢٣- المرجع نفسه.

٢٢٤- قدوره، زاهية: الأوراق المخطوطة والمنثورة في أرشيفها، والمتضمنة هذه العناوين والأفكار.

٢٢٥- قدوره، زاهية: الوحدة طريق النصر (محاضرة).

٢٢٦- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٢٢٧- قدوره (النقيب أديب) (١٩١٧ – ١٩٩٨):
سياسي وقيادي بارز في الحزب السوري القومي الاجتماعي، ونقيب صيادلة لبنان، ومنشىء اتحاد الصيادلة العرب. مارس السياسة وهو شاب يافع،وانتسب إلى الحزب عام ١٩٣٤، وفي العام ١٩٤٧عين عميداً للدفاع، ثم عضو مجلس أعلى، فرئيس مجلس أعلى، وعميداً للخارجية . سجن أكثر من سبع مرات. خريج الجامعة الأميركية في بيروت يحمل منها شهادة في الصيدلة. في العام ١٩٣٨ استلم صيدلية والده. استقال من الحزب عام ١٩٥٨ لاشتراكه في الثورة إلى جانب كميل شمعون. يراجع قدوره، أديب: حقائق ومواقف. ص ٩ – ١١.

٢٢٨- سعادة (أنطون) (١٩٠٤ – ١٩٤٩) :
ولد في بلدة الشوير من أعمال المتن في جبل لبنان، أسس الحزب السوري غداة قيام الحرب العالمية الثانية بحدود العام ١٩٣١. آمن بفكرة إنشاء الهلال الخصيب أو مشروع سوريا الكبرى.كان خصماً عنيداً لعدد من السياسيين، ومناوئاً للحكام، حكم عليه بالإعدام بعد اكتشاف محاولة إنقلابية من تدبيره، ونفذ فيه الحكم عام١٩٤٩. له كتاب: نشوء الأمم. يراجع سعادة،نطون:التعاليم السورية القومية الاجتماعية.مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي. من دون تحديد رقم الصفحة.

٢٢٩- قدوره، زاهية: رحلة العمر. ص ٧٧.

٢٣٠- ورد في كتاب رحلة العمر لزاهية قدوره في الصفحة ٧٧: «يروي أخي أديب هذه الحادثة، فيقول تحت عنوان: بين سعادة وشقيقتي زاهية (ذات يوم ضم لقاء في منزلي، الزعيم سعادة وشقيقتي زاهية وكان بحث طويل، وحوار علمي رصين. حاول خلالهما إقناع شقيقتي بمبادىء الحزب الأساسية، وتحديد الأمة السورية التي هي إحدى الأمم العربية. بينما شقيقتي متمسكة بفكرة راسخة، بأن الأمة العربية واحدة، وليست قوميات عربية متعددة، كما تحددها مبادىء الحزب، وإنما اتفقنا على أن ثمة عروبة متنوعة تنوع البيئات الجغرافية في العالم العربي الواحد). يراجع قدوره، أديب: حقائق ومواقف. ص ٥٨.

٢٣١- ابن علي، عبد الإله (١٩١٣ – ١٩٥٨) :
أمير عراقي تولى الوصاية على فيصل الثاني خلال الفترة بين ١٩٣٩- ١٩٥٣. قتل في الإنقلاب العسكري الذي قاده العريف عبد السلام عارف في العراق عام ١٩٥٨. يراجع الشيخ علي، فائق: مذكرات وريثة العروش. ص ١١٩- ١٢٠.

٢٣٢- السعيد (نوري) (١٨٩٨ – ١٩٥٨) :
سياسي عراقي، ثار على الأتراك مع الملك فيصل. عين رئيساً لمجلس الوزراء العراقي عدة مرات. قتل في إنقلاب ١٤ تموز/ يوليو عام ١٩٥٨. يراجع الشيخ علي، فائق: المرجع نفسه. من دون تحديد لرقم الصفحة.

٢٣٣- سعادة، انطون: التعاليم السورية القومية الاجتماعية. مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي وغايته

٢٣٤- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٢٦ /٥/ ١٩٩٦ (أذن بالإشارة إليه).

٢٣٥- قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة). ص ٤٠٤ .

٢٣٦- قدوره، زاهية: الأرشيف . كلمات مخطوطة ومتفرقة عن جمال عبد الناصر.

٢٣٧- قدوره، زاهية: المرجع السابق.

٢٣٨- صباغ، سمير: «ثورة الماضي والحاضر».جريدة السفير.بيروت في٢٣ /٧/ ١٩٩٩. ص٢٣.

٢٣٩- ليست الناصرية تيمناً باسم عبد الناصر، أو رفع صور وترداد شعار. إنما هي الانتماء لمشروع مستقبلي نهضوي عربي يتحلى بروح ثورية وعناد وتصميم على تحقيق أهداف الأمة ورفض إخضاع إرادتها لإرادات الغير. كما أنها ليست سلعة يتاجر بها هذا التنظيم أو تلك الحركة أو ذاك الحزب ، ليتم وضع إرث هذه الثورة وتاريخها بتصرف بعض الأنظمة المعادية لها، التي تنهل منها لتكبيل أيدي الجماهير العربية وفرض المشاريع المشبوهة عليها. (المؤلف).

٢٤٠- عبد الناصر، جمال : فلسفة الثورة. من دون تحديد لرقم الصفحة.

٢٤١- قدوره، زاهية : الأرشيف . كلمات مخطوطة ومتفرقة عن جمال عبد الناصر.

٢٤٢- مجلة الشراع. بيروت. السنة الثانية عشرة. العدد٥٨٦. ٢٦ /٧/ ١٩٩٣.ص٢٢.

٢٤٣- قدوره، زاهية: الأرشيف . كلمات مخطوطة ومتفرقة عن جمال عبد الناصر.

٢٤٤- مجلة الشراع. بيروت. السنة الثانية عشرة. العدد٥٨٦. ٢٦ /٧/ ١٩٩٣. ص ٢٢-٢٣.

٢٤٥- اسم منطقة على الحدود المصرية الفلسطينية، حصلت فيها معركة شهيرة بين قوات من الجيش المصري والقوات الإسرائيلية عام ١٩٤٨، وعرفت بمعركة الأسلحة الفاسدة في زمن الملك فاروق، المصري، وأدت إلى إصابات كثيرة في صفوف المصريين (المؤلف).

٢٤٦- لمزيد من التوسع عن كلام جمال عبد الناصر وفلسطين والقدس، يراجع: المجموعة الكاملة لخطب وأحاديث وتصريحات جمال عبد الناصر. جزءان. ١٩٥٢- ١٩٥٧.

٢٤٧- المرجع نفسه.

٢٤٨- قدوره، زاهية: الأرشيف. كلمات مخطوطة ومتفرقة عن جمال عبد الناصر.

٢٤٩- قدوره، زاهية: محاضرة عن جمال عبد الناصر في صيدا، بدعوة من السيدة زهرة البساط. من مجموعة أرشيف زاهية قدوره. مجهولة التاريخ. و كتاب: قضايا عربية. إشراف أنيس صايغ: عبد الناصر وما بعد.

٢٥٠- **عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ – ١٩١٨):**

سلطان عثماني استلم الحكم عام١٨٧٦عرف باستبداده وسفك الدماء. خلع في العام ١٩٠٩.

٢٥١- **محمد علي (١٧٦٩ – ١٨٤٩) :**

مؤسس السلالة الخديوية في مصر. ولد في قوله باليونان. أصبح والياً على مصر عام ١٨٠٥. قضى على المماليك في مذبحة القلعة بالقاهرة عام ١٨١١. وخلال الفترة بين١٨١١- ١٨١٩ وجه حملة إلى الجزيرة العربية، من بعدها فتح السودان في سنة ١٨٢١. وخلال الفترة ١٨٣١ - ١٨٣٣ أوكل إلى ابنه إبراهيم باشا قيادة الحملة على سورية، فهزم العثمانيين في قونية، وقع معاهدة كوتاهية، وانتصر في معركة نصيبين عام ١٨٣٩، فتدخلت الدول ووضعت حداً لفتوحاته عن طريق اعترافها بأن يكون لسلالته حكم مصر، فوقع مع الدول الأوروبية معاهدة لندن عام ١٨٤٠. حقق لمصر نهضة علمية وثقافية وزراعية. يراجع الزركلي: الأعلام. مج ٦. ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

٢٥٢- قدوره، زاهية، بحث: العلاقة بين العروبة والإسلام. ولمزيد من التوسع ينظر سيف الدولة، عصمت: عن العروبة والإسلام.

٢٥٣- لمزيد من الإطلاع حول هذا الموضوع، يراجع الحصري، ساطع: العروبة بين دعاتها ومعارضيها. معظم فصول الكتاب. وسويد، محمود: العروبة وفلسطين. حوار شامل مع قسطنطين زريق. من دون تحديد لرقم الصفحة.

٢٥٤- **الوهابية:**

مذهب إسلامي ذو نزعة سلفية يرمي إلى تخليص الشريعة من الشوائب. دعا إليه محمد بن عبد الوهاب(١١١٥- ١٢٠٦هـ/ ١٧٠٣ – ١٧٩١م.) وهو يستند إلى تعاليم ابن حنبل وابن

تيمية. ساعد محمد بن سعود على انتشار حكمه في الجزيرة العربية. يراجع أمين، أحمد: زعماء الإصلاح. ص١٠.

٢٥٥- **السنوسي (أبو عبد الله محمد بن علي) (١٧٨٧ – ١٨٥٩) :**

صوفي جزائري. ولد في مستغانم ودرس بفاس. مؤسس الطريقة السنوسية. بنى «الزاوية البيضاء» في الجبل الأخضر بليبيا، وانتقل إلى زاوية الجغبوب وفيها قبره. من كتبه: الدار السمية في أخبار السلالة الإدريسية و«بغية القاصد» و«شفاء الصدر». يراجع المنجد في الأعلام واللغة. ص ٣١١.

٢٥٦- لمزيد من التوسع، يراجع أبو عز الدين، المرجع نفسه. ص ٩٥ وما بعدها.

٢٥٧- قدوره، زاهية؛ بحث: العروبة والإسلام. وقد ورد فيه القول المنسوب إلى الشيخ محمد عبده.

٢٥٨- لمزيد من التوسع، يراجع الأبيض، أنيس: رشيد رضا، تاريخ وسيرة.ص ٥٣ – ٥٤.

٢٥٩- الأبيض، أنيس: المرجع نفسه.

٢٦٠- كباره، نزيه: عبد الرحمن الكواكبي، حياته عصره وآراؤه. ص ٨٨ – ٩٤، وداية، جان: الإمام الكواكبي، فصل الدين عن الدولة.ص ٨٠ – ٩٠.

٢٦١- أبو عز الدين، نجلاء: المرجع نفسه. ص ١٠٥

٢٦٢- بشور، معن: محاضرة العروبة والإسلام. ألقيت في مدينة حلب (سورية) بدعوة من ندوة الشهباء في ٨ /٤/ ١٩٩٤.

٢٦٣- قدوره، زاهية: المرجع السابق. ص ٤٠٥.

٢٦٤- قدوره، زاهية: المرجع نفسه. ص٤٠٧.

٢٦٥- سويد، محمود : العروبة وفلسطين. حوار شامل مع قسطنطين زريق. ص ٣٧ وما بعدها.

٢٦٦- الحصري، أبو خلدون ساطع : العروبة أولاً . ص ٧٩ وما بعدها.

٢٦٧- سيف الدولة، عصمت: عن العروبة والإسلام. ص ١٦ وما بعدها.

٢٦٨- الصلح، منح : « تحية إلى نهضوي بارز» . جريدة النهار. بيروت. ٧ /٣/ ٢٠٠١ .

٢٦٩- قدوره، زاهية: المرجع السابق.

٢٧٠- يعزز هذه الافتراضات والاستنتاجات والتحليلات الطروحات التي وردت عند زاهية قدوره في البحث المطول عن: العلاقة بين العروبة والإسلام، الذي نشر في كتيب صدر لها عن دار النهضة العربية في بيروت عام ٢٠٠٠(المؤلف).

٢٧١- قدوره، زاهية: « الإسلام ومحاورة أهل الكتاب «. جريدة السفير. بيروت ٥ /٨/ ١٩٩٤، ولمزيد من التوسع تنظر مجلة الفكر الإسلامي. بيروت. العدد الثاني. شباط / فبراير ١٩٨٥. ص ٨.

٢٧٢- سيف الدولة، عصمت: المرجع نفسه. ص٢٣- ٢٤، والحصري، أبو خلدون ساطع: العروبة أولاً . ص ٧٩ وما بعدها.

٢٧٣- سورة النساء، آية ١.

٢٧٤- سورة الحجرات. آية ١٣ .

٢٧٥- قدوره، زاهية: العلاقة بين العروبة والإسلام.

٢٧٦- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٢٧٧- حديث شريف.

٢٧٨- قدوره، زاهية: مرجع سابق.

٢٧٩- حديث شريف .

٢٨٠- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ٣٠ /٥/ ١٩٩٧ (أذن بالإشارة إليه).

٢٨١- من أرشيف زاهية قدوره.

٢٨٢- لمزيد من التوسع تنظر مجلة الفكر الإسلامي. بيروت. العدد الثاني. شباط/فبراير ١٩٨٥.ص٦- ١٧.

٢٨٣- لمزيد من التوسع يراجع شمس الدين، الشيخ الإمام محمد مهدي: «الإسلام والعروبة: تكامل لا تعاضد» مجلة الغدير. بيروت. العدد ٢٧. ربيع العام ١٩٩٥ .ص ٢٣٩ _ ٢٤٨ .

٢٨٤- الصلح، منح: إن العروبة هي من قيم الإسلام زائد العصر. أما الإسلام فهو روح العروبة ووعاؤها الحضاري والثقافي والتراثي، وعمقها الاستراتيجي ودرعها الواقي. جريدة السفير. بيروت١٤ /٥/ ١٩٩٥.

٢٨٥- من أرشيف زاهية قدوره.

٢٨٦- قدوره، زاهية: « مؤتمر أهل الكتاب «. جريدة السفير. بيروت٢١ /١٠/ ١٩٩٤ .

٢٨٧- حول هذه الأفكار جميعها، تراجع الأوراق المنثورة في أرشيف زاهية قدوره التي خطت عليها بعض النقاط المشار إليها.

٢٨٨- قدوره، زاهية: أوراق مختلفة ومتعددة خطت عليها أفكارها ونظراتها حول القومية العربية والعروبة.

٢٨٩- قدوره، زاهية: « مؤتمر أهل الكتاب «. جريدة السفير. بيروت ٢١ /١٠/ ١٩٩٤.

٢٩٠- لمزيد من التوسع تراجع: حضارتنا العربية الإسلامية ودورها في الثقافة العالمية (محاضرة مخطوطة).

٢٩١- قدوره، زاهية: بحث العلاقة بين العروبة والإسلام. نشر في كتيب: أبحاث في العروبة والإسلام ٢٠٠٠. ص ٢٩.

٢٩٢- يعزز هذه الآرء والأفكار والتوجيهات، مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٩٩٧/٦/٢ (أذن بالإشارة إليه)

٢٩٣- الوحدة طريق النصر عنوان دراسة وبحث، وضعته زاهية قدوره بمناسبة الندوة التي عقدت في ذكرى معركة حطين التي أقامها النادي الثقافي العربي في بيروت، في شهر تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٧.

٢٩٤- **معركة حطين (٥٨٣ هـ – ١١٨٧ م.) :**

تقع حطين بالقرب من طبرية وقعت في الثالث والرابع من تموز ١١٨٧. قدر عسكر الإفرنج بنحو عشرين ألفاً أنهكهم العطش والحر، فوقع أكثرهم في أيدي صلاح الدين، وفي مقدمتهم ملك أورشليم غي دي لوسينيان (Guy de Lusignan) ورجنلد الماكر(of Chatillon Reginald). وكان النصر حاسماً في حطين، وهو الذي قرر مصير المملكة اللاتينية، وعودة بيت المقدس إلى كنف

صلاح الدين (٢ تشرين الأول ١١٨٧). يراجع حتي، فيليب: المرجع نفسه. ص ٧٣٧ - ٧٣٨.

٢٩٥- دوره، زاهية: الوحدة طريق النصر. مخطوطة البحث الأساسية من أرشيف الدكتورة نفسها.

٢٩٦- **بيهم (محمد جميل) (١٨٨٧ – ١٩٧٨) :**

اسمه جميل، وسمي بمحمد جميل تبركا وتقرباً من النبي محمد صلى الله عليه وسلم. هو ابن محمد بن مصطفى بن حسين بيهم أبن ناصر العيتاني.ولد في بيروت وتلقى علومه الأولى في الكلية العثمانية التي عرفت بالكلية الإسلامية للشيخ أحمد عباس الأزهري. ثم تعلم في مدرسة أوليفيا الفرنسية، مدرسة الليسيه الفرنسية فيما بعد. اتقن محمد جميل اللغات: العربية والفرنسية والتركية. حصل في العام ١٩٢٨ على درجة الدكتوراه الفرنسية. اشتهر بيهم برحلاته الكثيرة حول العالم.تقلد الكثير من المناصب، السياسية والاجتماعية، وكان عضواً في الكثير منها. وضع عدداً كبيراً من المؤلفات حول مواضيع مختلفة، في السياسة والتاريخ، وتاريخ الإسلام، والاجتماع، ولا سيما مؤلفاته عن لمرأة. يراجع بيهم، محمد جميل: فلسفة تاريخ محمد. تقديم: حلاق، حسان. ص ١١ - ١٨.

٢٩٧- قدوره، زاهية: محمد جميل بيهم وعروبة لبنان (بحث مخطوط). ص ١٦، ومحمد جميل بيهم ١٨٨٧ _ ١٩٧٨. مجلة المؤرخون العرب. بغداد ١٩٩٧. ص ٣٩١.

٢٩٨- قدوره، زاهية، بحث: محمد جميل بيهم وعروبة لبنان. ص ٢٠.

٢٩٩- قدوره، زاهية: أوراق من الأرشيف مختلفة ومتعددة، خطت عليها أفكار ونظريات عن القومية العربية والعروبة، جمعتها في بحث حمل هذا العنوان، وصدر في كتيب العروبة والإسلام ٢٠٠٠ .

٣٠٠- للإفاضة والتوسع يراجع بيهم، محمد جميل: الوحدة العربية بين المد والجزر ١٨٦٨-١٩٧٢.

٣٠١- في أرشيف زاهية قدوره عدد من الأوراق كتبت عليها أفكار الطروحات، التي كانت تقوم بالتعريف بها في بعض المناسبات والاحتفالات والمهرجانات.

٣٠٢- قدوره، زاهية: « الوحدة طريق النصر «. مجلة المنابر. بيروت. كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٧. ص٧٩ .

٣٠٣- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

٣٠٤- سبق أن تمت الإشارة إلى أن زاهية قدوره قد تم تكريمها مع عدد من المؤرخين اللبنانيين من قبل اتحاد المؤرخين العرب، ومنحت مع كل واحد منهم، وسام المؤرخ العربي، وذلك في شهر أيار عام ١٩٩٣.

٣٠٥- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٧ /٦/ ١٩٩٧ (أذن بالإشارة إليه).

الفصل السادس

الفكر الأنثوي في أبحاث

زاهية قدوره ودراساتها

المقدمة

لما كانت قد غلبت على أنشطتها في مصر، تقديم الخدمات الحياتية والدراسية للزملاء من الطلاب اللبنانيين والعرب. وارتبطت نتيجة ذلك بعلاقات اجتماعية مع الأسر المصرية، ومع سيدات الحركة النسائية في مصر، وفي مقدمتهن هدى شعراوي زعيمة الحركة النسائية في مصر آنذاك، التي حضنتها ورعتها، وكانت تحرص على دعوتها لحضور مختلف المناسبات النسائية التي كانت تقام في مصر في ذلك الوقت.

وقد تبلور نشاطها النسائي، بصورته الفعلية عندما عادت إلى بيروت في العام ١٩٥١، وبدأت التحضير لاطلاق اتحاد الجامعيات اللبنانيات، التي تركزت أنشطته على حياة المرأة الجامعية، وما يحيط بها من أمور ومواضيع مختلفة، ومنها مساعدة الفتاة الجامعية المتفوقة وتقديم الدعم المادي لها، لمتابعة دراستها الجامعية والتخصص العالي[1].

بمقارنة الأنشطة الاجتماعية، مع ما سبقها يلاحظ اختلافاً بيِّناً في ذلك. فعملها في الحقل النسائي لم يحفل بالشعارات النسائية المهمة، كتلك التي أثرّت في مسيرتها التربوية والأكاديمية والسياسية، وأطلقت فيهما شعارات تربوية - ثقافية وسياسية.

اشتهرت زاهية قدوره بنشاطها الأنثوي، ذات الأوجه المتعددة فيه، كرعاية اتحاد الجامعيات اللبنانيات، أو القيام بالكتابة والتأليف، حيث تم العثور في أرشيفها على الأبحاث التي تناولت فيها دراسة عدد من النواحي المتعلقة بالمرأة.

وكان أول عمل قامت بالكتابة فيه عن المرأة، عندما كانت طالبة في الجامعة الأميركية في بيروت، وضعت بحثاً بعنوان: «المرأة الإسلامية في العصر العباسي الأول»، كان موضوع رسالتها للحصول على درجة الإجازة في التاريخ عام ١٩٤٢[2].

وبعد تخرجها من جامعة فؤاد الأول، وضعت عدداً غير قليل من الأبحاث

والمؤلفات التي تناولت فيها دراسة وضع المرأة العربية والإسلامية بصورة خاصة. ومنها: «حقوق المرأة في الإسلام»، و«المرأة في حياة الرسول»، و«الجامعية في المجتمع العربي المعاصر»، وغيرها. كما يوجد لها مخطوط بعنوان: «الحرائر والجواري في العصر العباسي الأول»، الذي يتميز بدراسته العلمية والتاريخية والثقافية والبحثية، تطرقت فيه إلى استعراض دروب متعددة من حياة فئة من النساء، اللواتي كان لهن شأن يذكر ومهم؛ في الحياة العربية الإسلامية[3].

وكتبت أيضاً عن: المرأة والحقوق السياسية، وبحثت حول: المرأة العربية قبل الإسلام، والمرأة العربية في الحياة العامة، ودور المرأة في بناء الأسرة، وحقوق المرأة، والمرأة وحقوقها العامة، والعباسة أخت الرشيد، والمرأة بين الماضي والحاضر. فضلاً عن كلمات عامة وضعتها عن المرأة، توزعت وتفرقت في الأرشيف المشار إليه. كما وضعت عن المرأة بحثين باللغة الإنجليزية، بعنوان: The Arab Women و Women In Islam.

ويجب أن لا يغيب عن البال الدراسة عن حياة السيدة عائشة أم المؤمنين، التي نالت على أساسها درجة الماجستير في التاريخ.

وبالرغم مما قيل عن هذه الدراسة وما كتب عنها بعد تحويلها إلى كتاب، فقد اعتبرت في الوقت نفسه، عملاً إنسانياً وثقافياً مميزاً. ظهر فيه جهد صاحبته، من خلال الحقائق التي اطلعت عليها وفتشت عنها، بالإضافة إلى الاستنتاجات التي توصلت إليها، والخلاصات التي صاغتها؛ مما شكل للموضوع قيمة تاريخية، علمية وأدبية.

١ ـ المرأة في أبحاث زاهية قدوره ودراساتها

أرادت من العمل في الحقل الاجتماعي والنسوي، سد الفراغ الذي شاب الحركة النسائية اللبنانية حول عدم وجود منتدى نسائي أو تجمع أكاديمي، يعمل على لم شمل الفتيات الجامعيات. وبالرغم من إنشغالها بأمور سياسية وثقافية وتربوية متعددة، فإن فكرة إنشاء اتحاد للجامعيات لم تصرف تفكيرها عن العناية بالشأن الاجتماعي بصورة عامة، والعمل النسائي بصورة خاصة.

وبالنسبة إلى الكتابة عن المرأة، فإذا كان البعض يعتبرها كائناً ضعيفاً لا حول له ولا قوة، فقد اختلفت زاهية قدورة في تلك النظرة إلى المرأة، التي كانت تراها مقصرة في كثير من المجالات عن القيام بواجباتها، ومترددة عن الاطلاع بالدور

المنوط منها القيام به.

لم تلق في ذلك اللوم على الرجل المستبد في تصرفاته مع المرأة، ومعاملتها بقسوة، ودفعها إلى هذا الوضع. إلا أنها كانت ترى أنه لا ذنب للرجل في تراجعها عن القيام بدورها؛ لأنها هي المقصرة تجاه نفسها ومجتمعها[٤].

وللاطلاع على الفكر الأنثوي لزاهية قدوره، لا بد من التوقف عند المؤلفات التي وضعتها عنها، وعلى المخطوطات التي درست فيها وضع المرأة العربية الإسلامية، التي لم تنظر إليها كمخلوق ضعيف، كما أشيع عنها في بعض الكتب والمراجع. بل كان يهمها منها تكوينها الأنثوي وطبيعتها الإنسانية، وميلها لمنح الحب والحنان لأولادها ولمن حولها، وتقديم الرعاية للرجل ودفعه للشعور بالأمان معها، والاطمئنان إليها. وقد رأت الكاتبة في هذا الأمر، عامل قوة، وليس عامل ضعف. ومن هنا أطلقت شعاراً، قالت فيه: « إذا كان الرجال قوامين على النساء، فالنساء سباقات» [٥].

ولمعرفة المزيد من الأفكار في هذا المجال، لا بد من الإطلاع على مجمل ما كتبته عن المرأة، التي كانت تعتبرها مخلوقاً أنثوياً يتمتع بمكانة سنيّة بين المخلوقات. وكائناً أسهم بتطور المدنية، في عصورها القديمة والحديثة.

فالمرأة في العصور القديمة لم تكن في نظرها، أقل تأثيراً من مثيلاتها في العصور المتأخرة. فالقبائل البدائية التي اعتادت الترحال في حياتها، أو تلك التي كانت تقتات بالصيد، وسواها من العشائر والتجمعات التي اتخذت من القوة عنواناً لبقائها وسطوتها. لم تعترف للمرأة بمكانة مميزة بينها بل أنكرت فضلها على تربية الأجيال المتعاقبة. حتى أن بعضها نفى وجود أي كيان لها بين عناصرها وأفرادها[٦].

وأشارت إلى أن امرأة العصور القديمة؛ سهلت أعمال رجلها، وكانت عنصراً مساعداً في إنتشار الجماعات الإنسانية بشكل واسع في أرجاء متعددة من الأرض. وأقرت الكاتبة بمكانتها وبأدوارها التي قامت بتأديتها إلى جانب الرجل، مما سهل له اكتشاف أماكن جديدة لسكنه ولعائلته، وتوفير موارد حياتية يعتاش من ورائها.

وعلى هذا فالمرأة من أمضى الأسلحة التي أمتلكها الرجل على مر العهود، شكلت درعاً قوياً له يحمي به نفسه، مما يحفزه على الهمة والنشاط.

فوجود المرأة في حياة الرجل، له فضل مهم في انتشار فلاحة الأرض، بالرغم من أنه لم يُصر إلى البرهان على المساعدة التي قدمتها له المرأة، التي تمكن بواسطتها

من اكتشاف نبت الحبة من نبت حبة قبلها، بطريقة دورية وفق حساب زمني معين. إلا أنه كان السبب الذي ساعد على قيام حضارة زراعية في العالم القديم، ما لبثت مفاهيمها وقوانينها، أن عمت العالم فيما بعد. كما أن اكتشاف النار، ووضع أصول الزراعة، كانا السببين اللذين ساعدا على نشأة المدنيات التي استقرت على شواطىء الأنهار العظمى.

ونسبت إلى المرأة الفضل بقيام جماعات البشرية الأولى، بسبب قوة تحمل النساء، وقيامهن بالأعمال التي أنصرف عنها الرجال، لانشغالهم بأعمال الصيد والمدافعة عن قومهم.

ويعود لها الفضل في متابعة خطى التطور، الذي لازم الرجل في جهاده الشاق نحو الكمال والمدنية. فإذا كان الرجل قد ضحى بجهده العضلي والعقلي، في بناء دعائم الحضارة وتوثيق روابط المجتمع، والكشف عن أسرار المجهول. فقد ضحت المرأة بجهد نفسي، وأسرفت في الإنفاق من روحها وعواطفها وانفعالاتها، ما قد يتضاءل أمامه جهد الرجل وعمله وإنتاجه. وإذا كان التاريخ، كما يشاع، ليس سوى الأطمار الخلقية التي خلفتها الروح الإنسانية على مر العصور، ففي ثنايا تلك الأطمار من روح المرأة، قدراً يساوي ما فيها من روح الرجل، إن لم يكن أكثر [٧].

وبالرغم من هذه التضحية، فقد أجمع كل من تعاطى بموضوع المرأة وكتب عنها، بأنها عانت من عسف الرجل وظلمه وجوره، ما لا يمكن إحصاؤه واحتسابه، ولو أمكن لأحدهم تقديره، لتعدى جهوده وإمكانياته التي بذلها في إقامة دعائم المدنية، وإرساء أسس حضارته على مر العهود والأزمان. على ضوء ذلك، لو لم تهب الطبيعة للمرأة ما وهبتها إياه من خواص تفردت بها، كالإدراك الذي تمايزت به لفهم مختلف نزعات الرجل، أو القدرة العجيبة التي مكنتها من اختيار مواقف الكر حيث تنفع، والفر حيث تفيد، والإقدام حيث يكون ذلك نصراً، والدفاع حيث يكون الإقدام هزيمة. لو لم تخص الطبيعة المرأة، بهذه المقومات والخصال، لظلت كائناً بدائياً يعيش في حجور مظلمة، وكهوف رطبة، وغابات موحشة، كالحيوان لا تختلف عنه سوى بانتصاب القامة.

ويقال في هذا الصدد، أن الطبيعة وجهت غريزة الرجل، إلى العمل للحاضر وحده. ولكنها خصت المرأة بغريزة العمل للمستقبل. تحمل وتلد وترضع وتربي وتعلم، وتحارب نزوات الرجل بالضعف إذا صلح، وبالقوة إذا لزم الأمر، موجهة كل ذلك الجهد إلى الاحتفاظ بشيئين: الأسرة والولد. الأسرة للحاضر، والولد للمستقبل. وليس لها

من كل ذلك غنم ولا ربح.

إن الكلام عن المرأة مشرّع الأهواء، من أي باب دخلته يتلقفك سرداب طويل يأخذك إلى ظلمة رمادية كمسارات الخريف الناعمة. من أي باب تدخله يلزمك أن تحمل وسيلة لتوضيح الرؤية، فإن كنت رجلاً حملت أثقالاً من أساطير وأوهام ومخاوف، وإن كنت امرأة حملت تاريخاً من الانهزام والصبر وأغاني الأمهات الحزينة.

إلا أن لموضوع المرأة سحراً وفرادة ما كانا لغيره بسبب ذلك الحضور الخفي، المحبب، الذي مارسته النساء طويلاً، تقبع خلف الأشياء كلها. ومن هنا فقد كانت في طليعة القائلين بأن الدنيا أم خلف الوجود، وخلف الإبداع وخلف التحقيق، وراء الرجال (أصحاب السلطة كما يدعون) ووراء الأطفال (مشاريع المستقبل كما يظن) فتحمل السلطة والمستقبل على كتفيها دون أن تنوء. وقد يتفق الجميع على الاعتراف بهذا الأمر، فمن أين تأتي المشكلة إذاً؟ ولماذا ترى النساء أنهن مهضومات الحقوق، وهن من مات الرجال في سبيلهن ومن جعلت الجنة تحت أقدامهن ؟ من أين يأتي شعورهن بالغبن ؟ تتساءل المؤلفة، وهو غبن على أي حال متفاوت الأثر. هو أقوى عند الشابات المتعلمات، وأقل عند السيدات الجميلات، وأقل أيضاً عند الجدات اللواتي يحكن كنزات أحفادهن في دفء منازل أبنائهن الرجال.

بمثل هذه العناوين نظرت الدكتورة إلى المرأة، التي اتخذت منها مجالاً للكتابة والتأليف. بالرغم من اتهامها بالتقصير، ولكنها نفت هذا الأمر في مجالسها، بدليل أنها وضعت عنها رسالتين مطولتين. درست واقعها وركزت الإضاءة على مكانة المرأة العربية الإسلامية[٨].

وعلى ذلك، يمكن الإشارة إلى أن مساهمة المؤلفة في الحقل النسائي، لم تكن قليلة كما قيل، إذا ما قيست ببقية أنشطتها ومؤلفاتها. وكان هدفها أن تظهر ناحية مهمة تتعلق بالمرأة، فعملت على توضيح آراء المؤلفين المختلفة عنها، والإسهامات التي أثرت فيها على مر العصور التي سبقت الإسلام. ورأت أن بعضهم، قد ربط جهلها وظلمها وانحطاطها بالأوضاع التي سيطرت في تلك العصور، ودعيت ظلماً وجوراً بالجاهلية، وهي لم تكن كذلك بالمطلق. وأشارت من ناحية ثانية إلى أن منهم من أطلق عليها صفة الجهل والتخلف، بسبب جهل العرب للأعراف السائدة قبل الإسلام.

حاولت الدكتورة المطابقة بين هذه الآراء جميعها وبين قضية المرأة، واستنتجت

أن هناك فريقاً عمل على الرفع من منزلتها، وفريقاً آخر أنكر ذلك وأظهرها في مظهر المستهين المسلوب الحقوق.

لم تقبل الكاتبة الركون إلى أي من هذين الرأيين؛ والحقيقة وسط بينهما، إذ لم تتعرض كل النساء للإجحاف والشدة في المعاملة. بل كان بينهن من نالت مكانة محترمة ومنزلة سامية، كخديجة بنت خويلد، وهند زوج أبي سفيان.. وعائشة أم المؤمنين وغيرهن، إلا أنه وجد من أحتقر المرأة وعمل على وأدها[٩].

غير أنه وبصورة إجمالية كان للمرأة العربية الأثر الحساس في قلب الرجل العربي، فهي سر إلهامه ووحيه، ومطلع قصيدته وسبب غضبه وسخطه. وما تمجيد الشعراء لها مفاخرين بحمايتها، ذائدين عنها، غاضبين لغضبها، إلا مظهراً يدل على أن مكانتها لم تكن بالشكل الممتهن الذي صورها به بعض المؤلفين. وكثيراً ما ذكرها المحاربون وهم يقاتلون ليزيدهم ذكرها حماسة وبسالة وشجاعة. فالمعلقات التي تعد روائع الشعر الجاهلي لا تخلو من الإشادة بالمرأة والتغزل بها والمدح والفخر لإرضائها.

فالمرأة العربية هي موضع شرف العربي وفخره، فكان حريصاً على كرامتها ولم يتلكأ يوماً عن شن الحروب من أجلها، والأمثلة كثيرة. فضلاً على ذلك، إن المرأة العربية أشرفت على الحياة العربية، في مختلف مرافقها العامة والخاصة.. كما لوحظ أنها دخلت المعركة مشاركة ومراقبة، فألهبت صدور الرجال، وأغرتهم إلى التفوق البطولي ودفعتهم إلى الانتصار في ساحات الوغى. كما أن تدخلها في الحياة الأدبية ألهم أفكار الرجال على الخلق الفني. فيتضح إذاً من هذه اللوحة البانورامية، أن العربي كان مزيجاً من حب وحرب. كما كانت المرأة ينبوعاً آثراً في تاريخ العرب لأدب الحب وأدب الحرب.

أما قسطها في الحياة الأدبية؛ فقد كان كبيراً. فحسن منطقها وروعة كلامها، كما سلامة تعابيرها، كان يزيدها جمالاً وسحراً ويجعلها تأخذ بقلوب سامعيها ومحدثيها. فكانت تتردد على مجالس الرجال، وتخطب في محافلهم، وتقف على منابر سوق عكاظ، تأتي إليه من كل حدب وصوب، حيث كانت تزاحم الرجال وتنشد الشعر وتنقد الشعراء الآخرين. فامتازت بدقة ملاحظاتها وسرعة بديهتها،وكان للمبرزات منهن الكلام الأخير في بعض الأحيان.

وقامت بأعمال البيت من رعاية ونظافة، والمحافظة على نظام الأسرة وتربية الأطفال، والطهي ومساندة زوجها وتقديم المشورة إليه عندما كان يتطلب منها الموقف

ذلك. وانصرفت بعض النساء إلى ممارسة عدد من الأعمال والصناعات طلباً للتسلية أو للارتزاق، بسبب تعدد الحاجات. ويتبين وفق منطق زاهية قدوره أن المرأة العربية الفقيرة لم تكن دائماً عالة على ولي أمرها. بل اعتبرت صنواً للرجل في تكوين الأسرة، وتربية الأولاد والعناية بهم، فضلاً عن مساندته في مختلف مناحي المجتمع العربي الإسلامي.

بمثل هذه النظرات والأفكار، رنت زاهية قدوره إلى المرأة العربية الإسلامية بصورة خاصة، وإلى المرأة في كل المجتمعات بصورة عامة. عايشتها كحرة، ودافعت عنها كجارية وسبيّة. في هذه وتلك، رأت فيها إنسانة أولاً وأخيراً. يجب أن تتمتع بكل الحقوق، لتقوم بكل الواجبات التي فرضت عليها.

وفي سبيل ذلك، كانت زاهية قدوره مناضلة اجتماعية بدرجة جيدة، صرفت قسطاً كبيراً من حياتها من أجل المرأة، لدفعها إلى الكفاح والتقدم والتطور، ومحو الصورة التي علقت في الأذهان عنها. فأحلتها في مرتبة متقدمة من مؤلفاتها وطروحاتها. وكأنها بذلك، أرادت الإشارة إلى أنها لم تقصر من اهتمامها بها، بل على العكس، إن الأبحاث التي وضعتها عنها، تظهر مدى العناية والرعاية اللتين أولتهما إياها، لنصحها وترشيدها.

٢ـ المرأة ودورها في الأسرة الإسلامية

من هي الأسرة الإسلامية في مفهوم زاهية قدوره ؟ وما هو دورها في هذه الخلية الإسلامية ؟

الأسرة الإسلامية هي كتلة بشرية، مؤلفة من الأب والأم وما يلحق بهما من بنين وبنات، وهي ذات طبيعة ونظام معينين، تسود عناصرها عوائد وتقاليد خاصة، وتتحكم في مسيرتها الدينية والاجتماعية والعلمية والسياسية والاقتصادية. وقد حددت ذلك بالقول: « إن الإسلام كرس اهتماماً خاصاً لفكرة الأسرة، ووضع تشريعات واضحة تحدد العلاقة من حيث الحقوق والواجبات بين أفراد هذه الخلية. وتوعية العناصر التي تؤلف الأسرة الإسلامية، إلى مسؤولياتهم الأدبية والمادية، جاعلاً من فكرة الزواج والإنجاب تتجاوز كونها مجرد متعة، بل إن مهمتها الأساسية إعداد جيل سليم قادر على مواجهة مشاكل الحياة وتأدية الدور الصحيح في المجتمع الإسلامي» [١٠].

احتلت المرأة مكانة هامة في الإسلام، ومنحت الحقوق؛ وشرعت لها واجبات، وأفردت لها منزلة سنيّة في ربوعه. فقد أعلى الإسلام من مكانتها، وساواها بالرجل في كثير من الحقوق والواجبات، ولا سيما في منظومة الزواج الذي سن لها فيه قواعد

وامتيازات، قل أن أعطيت لامرأة مثلها في بعض الديانات الأخرى. بحيث أن رأيها في الزواج وموافقتها عليه باتت واجبة وملزمة. وتعتبر هذه النظرة الرفيعة، أحد القواعد الأساسية التي طبقها الرسول صلى الله عليه وسلم على الأسرة الإسلامية، فقد «حافظ الرسول على قدسية الأسرة، ومارس بنفسه إكرام المرأة واحترامها، فكان يحسن معاملة زوجاته، ويحترم آراءهن ويقبل أن يراجعنه فيما لا يرضين به حتى أصبحت هذه المعاملة الحسنة قدوة لغيره» [١١].

تركز منطق زاهية قدوره بالنسبة لهذا الموضوع، على الأهمية التي أعطاها الإسلام للأسرة الإسلامية، ومدى ارتباطها بتعزيز مكانة المرأة، أكانت أماً أم زوجاً أو بنتاً أو أختاً. فوجدت مقومات حضارية إنسانية تفرد بها الإسلام، من خلال الامتيازات التي منحها للأسرة واعتباره إياها وحدة من وحدات المجتمع الإسلامي، فيها صلاحه وسعادته « فالإسلام قد ربط بين جهود الفرد كلبنة في بناء الأسرة، وبين الأسرة كلبنة في بناء المجتمع، على أساس من التكافؤ والتفاهم والمودة والانسجام. وكانت نظرة الإسلام بهذا الصدد من العمق، بحيث تشدد منذ البدء في سلامة تكوّن الأسرة، ولم يهمل الظروف التي تساعد على بناء أسرة قوية سليمة، تهيأ لها الظروف الاجتماعية والاقتصادية، لتعيش حياة سعيدة منتجة خيرّة لنفسها ولمجتمعها. وجعل الإسلام لكل من الزوجين حقوقاً على الآخر، كما سوى بين جهود المرأة والرجل في تدعيم الأسرة وبالتالي بناء وتدعيم المجتمع»[١٢]. وتجب الإشارة إلى دور الأبناء في نشأة الأسرة الإسلامية، وواجباتهم تجاه آبائهم وأمهاتهم، وواجبات هؤلاء تجاه أولادهم.

وبالنسبة إلى عملية الإنجاب في حياة المرأة، فإن الدين الإسلامي بقواعده وتشريعاته، قد راعى هذه الناحية باختيار الأم الصالحة، السليمة الجسم والعقل، لينعكس ذلك إيجابياً على نشأة أولادها. ومن هنا، فقد حرص الإسلام على أن يوفر للطفل أفضل الأجواء داخل الأسرة الإسلامية، وتأمين البيئة الصالحة له، لينمو ويربى على الصلاح والتقوى. ورأت زاهية قدوره أن التعاليم الإسلامية شددت؛ على تحقيق الرعاية الجيدة للأولاد، والإحسان في معاملتهم، وتنشئتهم نشأة دينية جيدة عمادها الإيمان الصحيح والخلق القويم. فالتربية الصحيحة فريضة دينية مقدسة، وواجب شرعي على الوالدين تأديته نحو أولادهم. وقد بينت قدوره هذه المقومات في أبحاثها ودراساتها الإسلامية، وركزت كذلك، على توجيه العناية لتربية الأطفال، ومداراة أحاسيسهم ومشاعرهم،

وتأثير ذلك على شخصياتهم، وأفاضت في ذكر توصية الرسول صلى الله عليه وسلم بإكرامهم.

ورأت قدوره أيضاً، أن الإسلام أقام نواهي ونوازع قيد بها عمل المرأة خارج بيتها، بحيث أن الإسلام لم يمانع في عملها، إلا خشية من عدم قيامها بواجبها تجاه عائلتها وأسرتها، لأنها محط آمال الأسرة. وفي غالب الظن، أن المرأة المتسلحة بالوعي والعلم؛ قادرة على العمل والعطاء في مجالات كثيرة، بحيث تنافس فيها الرجل وتتفوق عليه في عدد من المراكز.

ولما كان الإسلام قد منح المرأة المسلمة المكانة التي تليق بها، فقد أشارت زاهية قدوره في أكثر من مناسبة حول هذا الموضوع، إلى أنه يجب أن يكون عماد هذه العلاقة، الصلاح والتقوى، والدفاع عن الدين بالتربية السليمة والموعظة الحسنة. بدأ هذا التكريم، بإعطائها الحرية في الزواج، وفي تحريم وأدها. ومنحها حق التربية والتعليم[13]، وأجاز حصولها على الميراث، وحرية التصرف بأموالها وجواز الملكية، بعكس بعض الأديان الأخرى التي منعت عليها ذلك. والأهم من ذلك، فقد شدد الإسلام على التوصية بتنمية أواصر المودة بين المرأة والرجل، وقيام المحبة والوئام بينهما من خلال علاقة إنسانية، محاطة بالعدل والمساواة في الحقوق والواجبات، فيكون في عشرتهما الجيدة تعاوناً على بناء أسرة سليمة متعافية. كما حصلت المرأة المسلمة، على حق طلب الطلاق، وفرض دفع نفقة الوصاية والعصمة لها.

لم يكن ذلك ليحصل، لو لم يكن الإسلام ديناً عالمياً شمولياً في رأي قدوره، وقد تمكن بعقيدة التوحيد أن يجمع تحت رايته مختلف الشعوب والأجناس، لا فرق بين عنصر وعرق وجنس. وأثبت اتجاهه العالمي بأن يكون إطاراً لحضارة عالمية، حضنت النشاطات المختلفة التي مارسها الإنسان. فكرم هذا الدين إنسانية الإنسان وجعله سيداً حقيقياً للأرض، انطلاقاً من قدرته التي اتصف بها بإقباله على العلم واستيعابه إلى أبعد الحدود[14].

لم يقتصر هذا التكريم لإنسانية الإنسان، على الرجل وحده، بل شمل المرأة أيضاً، نصف المجتمع، فجعلها تشاركه «مشاركة كاملة في مظاهر الكرامة الإنسانية». لفت هذا التكريم والإعزاز نظر الباحثين، وقدوره واحدة منهم، فرأت أن الإسلام هو: « ثورة إنسانية دينية اجتماعية، فكرية، منذ البداية. جاء بثورة اجتماعية، برزت فيها مظالم الحياة عامة، وأحسن تنظيم المجتمع، وأتاح للمرأة مكانا مرضيا، فدافع عنها ورفع

من شأنها، وجاء بثورة اقتصادية... وجاء بثورة سياسية خلقت من العرب المبعثرين الضعفاء بمجموعهم قوة ضخمة مهيبة..»[15].

يسند ذلك ما ورد في سور القرآن الكريم وآياته، التي تعتبر دليلاً مرشداً وهادياً، كُذبت بواسطتها الأضاليل، وأُسندت عليها كثير من البراهين. فجاءت صورها جلية وواضحة، فيها من الأدب مثلما فيها من التاريخ، وفيها من الثقافة مثلما فيها من التفكير النيرّ والقول الصادق والأسلوب الصحيح، مما جعلها تحتل سدة بارزة بين المثقفين المسلمين والعرب، ومكانة قيمة في ميادين الأدب والتاريخ والتربية والسياسة والاجتماع.

ومن المواقع الأخرى التي رفلت بها المرأة العربية، وعادت عليها بالفائدة. كان الغناء الذي تفوقت فيه، وصناعة الرماح التي اتقنتها بمهارة، والتجارة التي برعت فيها بعض نساء المسلمين مثل خديجة[16] زوج الرسول صلى الله عليه وسلم وهند بنت عتبة[17] زوج أبي سفيان. أما فقيرات نساء المسلمين فقد قمن بأعمال دبغ الجلود، وارتياد أماكن تجمع التمر والعسل والسمن، لبيعها أو شرائها أو استبدالها بسلع مماثلة.

كما امتهنت المرأة العربية الإسلامية، حرفة الكشف عن المستقبل بواسطة التنجيم والتبصير، وزجر الطير، والكهانة والعرافة، فضلاً عن قيامها برضاعة أطفال المسلمين التي شاعت كثيراً آنذاك، خاصة وأن بعض القبائل العربية النافذة والميسورة، كانت تسلم أولادها إلى نساء القبائل الأخرى ليكونوا أنجب وأفصح. وقد استمرت هذه العادة إلى ما بعد الإسلام، واعتز بها الرسول صلى الله عليه وسلم كثيراً، وقال: «أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت من بني سعد بن بكر»[18]. كما عرف عن المرأة العربية أنها مارست مهنة النوح والندب، التي تمكنت بواسطتها من دفع الفقر والعوز[19].

يمكن القول إن الأسرة الإسلامية منحت تحت ظلال الدين الحنيف، مزايا وخصالاً فريدة ومتميزة. وقد خص هذا التكريم جميع أفراد الأسرة بالمحبة والمودة، كل من موقعه. وكانت المرأة عمادها، والرجل أساسها، والأولاد بُنات مستقبلها.

ركزت التعاليم الإسلامية على حتمية قيام الأسرة بواجباتها على أكمل وجه، سواء بالنسبة للرجل والمرأة والأولاد. ففي حسن أخلاقها وتربيتها يرتقي المجتمع الإسلامي، وإذا كانت غير صالحة لا سمح الله، فإن ضرر ذلك، لا بد أن ينعكس بسلبياته على أفراد المجتمع.

ولما كان الإسلام، دين التقوى والصلاح، كما أنه دين الرشاد والهداية، فلا بد أن تكون الأسرة الإسلامية؛ إحدى ركائزه الاجتماعية الصالحة.

٣ – حقوق المرأة في الإسلام

يعتبر الحديث عن حقوق المرأة في الإسلام، من الطروحات التي ما يزال التطرق إليها ضرورة حتمية وواجبة في كل وقت، وكل حين، لدراسة حالة المرأة المسلمة، من خلال المنظومات التي جاء بها الدين الإسلامي وشرعها لها. للاطلاع على المنزلة التي اختصها بها، والتي نتجت ربما عن الظلم والاستبداد اللذين لحقاها، عندما كانت ترفل في غياهب الجهل، وما سبب لها ذلك من مهانة. فكانت ذليلة مستعبدة، ينظر إليها على أنها من متاع الحياة، وأداة جنسية مسخرة لرغبات الرجل. فجاء الإسلام برسالته السامية، وبدل مجمل هذه الأوضاع السيئة التي كانت قبله، وعمل على الرفق بها ورفع من منزلتها ومرتبتها، وباتت تتمتع بموجب التعاليم الجديدة بمكانة مميزة بين أترابها من النساء. وكان أفضل تكريم لها بقوله تعالى: { **ولقد كرمنا بني آدم** }[٢٠]. ففسر هذا الإحاء بأنه تكريم لبني آدم أجمعين، ولم يقتصر على الرجل وحده، بل شمل تكريم المرأة أيضاً.

على ضوء ذلك، نظر إلى الإسلام على أنه ثورة إنسانية، دينية، ثقافية وفكرية، لم تقتصر رسالته على هدم عقائد الجاهلية وأصنامها فحسب، بل جاء بثورة اجتماعية، بدد فيها مظالم الحياة عامة، وأحسن تنظيم المجتمع، وأتاح للمرأة مكاناً مرضياً، فدافع عنها ورفع من شأنها. كما حرم وأدها ومنع سبيها، ووهبها حقوقاً اجتماعية وشرعية[٢١].

كما جاء الإسلام بثورتين، واحدة اقتصادية شملت حياة العرب جميعاً، فلم تعد المرأة في ظله متاعاً أو محرومة مما ينعم به الرجل من إرث ومال. كما جاء بثورة سياسية، خلقت من العرب المبعثرين الضعفاء، قوة مهيبة شعرت بكيانها. فنظمت دولتها على خير ما عرف من أنظمة الدول، ورتبت شؤونها لئلا تبقى إلى الأبد، عالة على خصومها من الفرس والروم.

أما الزواج، فهو نظام اجتماعي دعا إليه الإسلام وحث عليه الكتاب والسنّة، بوصفه أساساً للمجتمع. وهو عبارة عن ارتباط تعاقدي بين الرجل والمرأة، لا يحده زمان. إنما الأصل الدوام والاستقرار. ولم يحرم الإسلام أي فئة من الناس أن تعيش حياة زوجية هانئة، إذ لا رهبانية في الإسلام. ولما جاء الدين الجديد، كانت عادة الاشتراك في المرأة وتعدد الزوجات شائعة، ولم يكن للزواج قيود وحدود، فوضعت له قوانين ثابتة، واضحة المعالم، من حيث واجبات الرجل وحقوقه من جهة، وحقوق المرأة وواجباتها من جهة أخرى.

من أهم ما جاء به الإسلام إعطاء المرأة الحرية في اختيار الزوج، وليس لأحد أن يغصبها عليه، حتى ولو كان أحد أبويها، كما كان لها حق فسخ عقد الزواج إذا أتضح أنها أكرهت عليه، وخدعت فيه. وأتى الإسلام أيضا بثورة ثقافية، ألزمت المرأة والرجل بالإقبال على العلم والتفقه في مختلف ضروبه. ومن الأمور التي طلب منهما التقيد بها، إلتزام الجهاد في سبيل الدين الجديد، لنشر العقيدة وبسط المعاني السامية التي حفل بها الإسلام، كل في الحقل الذي يستطيع العمل فيه.

الغاية من ذلك، أن يجعل منهما المثل الأعلى والقدوة المفضلة في إفرادهم ومجموعهم. أما بالنسبة إلى نظرة الرجل إلى المرأة بصورة عامة، فإذا ما اعتبرت في السابق، على أنها حمل ثقيل، فقد بات يعتبرها في الوقت الحاضر من أولى واجباته الإنسانية التي عليه الاهتمام بها. ومن الشهامة أن يحتملها بكل مسؤولية وجدارة؛ مما جعله يعتاد على ما لم يألفه في الجاهلية، حتى أصبحت حقوق المرأة طبيعية في نظره[٢٢].

ومن أهم المميزات التي أمنها الإسلام للمرأة، تحريم وأدها، وقد حصل ذلك من خلال آليات متعددة، فطمأن الفقراء أولاً والخائفين من إنجاب البنات، بأن بيّن لهم أن نعمة خلق البنت في الأسرة، هي هبة من الله سيحل خيرها ورزقها على عائلتها، وأن قتلها بعد ولادتها خطأ كبير. وقد ورد ذلك أكثر من مرة في سور مختلفة من القرآن الكريم. لأن الدين الإسلامي لم ير مبرراً لوأد البنات، حتى لو كان سببه الغلو في العفة والفضيلة.

ومن ناحية ثانية، لم يكتف الإسلام بتحريم هذه العادة أو سبي البنات، بل عمد إلى أكثر من ذلك، إذ حث على التوصية بالمرأة خيراً، ودعا إلى تكريمها أكانت أماً أو أختاً أو زوجة. ويعزو البعض هذا الأمر ليعزز الإسلام بواسطته الدعوة إلى تكريمها، ونفي ما علق في أفكار المسلمين من ممارسات، أصابتها بالظلم على مدى العصور السابقة للإسلام. هذا ولم يتوقف الأمر عند هذا الإيحاء، بل أشارت كتب التاريخ والأحاديث النبوية إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم، أوصى بالنساء خيراً، وحث على الرفعة من شأنهن، والاستئناس بهن، بقوله: «**أوصيكم بالنساء فإنهن عندكم عوان**». كما نقل عنه قوله أيضاً: «**من أبتلى من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار**» وكذلك: «**إنما المرأة خلقت من ضلع عوجاء، فإن تحرص على أقامتها تكسرها، فدارها تعش بها**»[٢٣].

ومن العادات القبيحة الأخرى التي قضى عليها الإسلام منع توريث النساء مع

المتاع وتحريم هذا الأمر. فقد كان الولد يرث زوجة أبيه ويتصرف بها كما يشاء، ولم يكن يعترف بأن لها عقلاً أو شعوراً أو كينونة مستقلة، تمثلها إرادة قائمة بذاتها. فأزال الإسلام كل ذلك بشرائعه الإنسانية.

فصل آخر من الحقوق التي منحها الإسلام للمرأة، والتي اعتبرت حقاً من حقوقها المشروعة، وذلك بمنع النساء من الحداد والحزن المبالغ فيهما، لأنها من الأمور المستهجنة. فوضع القوانين التي تحدد ذلك وتشدد في محاربتها. كما نهى عنها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، عندما قال: « **لا يحل لامرأة مؤمنة بالله أن تحد فوق ثلاثة أيام إلا على زوجها**» (٢٤) .

ومنع صلى الله عليه وسلم نساء المسلمين من رش التراب على رؤوسهن، والغلو في البكاء بقوله صلى الله عليه وسلم: «**إن الميت ليعذب ببكاء الحي**»(٢٥).

ونتابع مع زاهية قدوره التعرف على هذه المنظومات الإسلامية، حيث أشارت أيضاً، إلى أن الإسلام جعل من الرجل والمرأة نفساً واحدة، وذلك من خلال قوله تعالى: { **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء** } (٢٦) . وقال تعالى: {**والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً، وجعل بكم من أزواجكم بنين وحفدة**}(٢٧). وقال أيضاً: { **فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا** } (٢٨).

أراد الإسلام من رابطة الزواج أن يجعل منها رابطة سكن واطمئنان مصداقاً لقوله تعالى: { **وهو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها** } (٢٩). وجعل الإسلام المودة والرحمة أساساً للعلاقة الزوجية، وحث على ذلك بقوله تعالى: {**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** } (٣٠).

هذا ولم يضع الإسلام، قيوداً على الزواج بسبب اختلاف العرق أو اللون أو الفئة الاجتماعية، ولكنه حذر من زواج الأقارب، حتى لا يتسبب ذلك بآثار سلبية على النسل، والذي لا تظهر آثاره إلا بعد مرور الزمن، مما ينتج عنه عاهات جسدية وفكرية ونفسية. وقد أظهرت أبحاث الطب الحديث مساوئ الزواج بين الأقارب الذين تربطهم قرابة عائلية وأسرية .

ويظهر مما تقدم، أن الإسلام أكد على مجموعة من الحقوق والواجبات، التي

يفترض أن تتحقق بين الزوجين. فالزواج ليس هدفه إشباع الغريزة الجنسية فقط، وإنما الاستقرار والاستمرار وإنجاب الأجيال الصالحة، فقد أمر الله؛ أن يعاشر المسلم زوجته بالمعروف، وهدف الإسلام من عقد الزواج، هو إنشاء كيان عائلي، عماده الأسرة التي تتميز بالهناء والاستقرار، والتماسك والتفاهم والاحترام. وفي حال اختلاف الزوجين، أشار القرآن الكريم إلى حقوق للزوجة والأولاد على الرجل، أي الزوج والأب، الذي يجب عليه تأديتها عن طيبة خاطر. من شروط نجاح الأسرة في الإسلام أن يتم الزواج وفق ما حددته العقيدة الإسلامية، وأن تكون العلاقة الزوجية قائمة على التوافق والتراضي، واحترام الحقوق والواجبات(٣١).

وإذا حصل خلاف بين الزوجين، ووقع الخصام والشقاق بينهما، وبات الطلاق أمراً لا مفر منه، فقد وضع لمعالجة هذا الأمر قيود، حصن بها الزوجة والأولاد من التعرض لمشاكل ما بعد الطلاق. فوضعت شروط وأحكام وفرضت واجبات. ومن هنا، أشارت الباحثة إلى وجوب إحاطة الزواج بكل مقومات النجاح، كضرورة اجتماعية نص عليها الشرع. فإذا بطلت هذه المقومات، أو تطرق إليها الخلل الذي لا يمكن إصلاحه، هنالك العلاج المر الذي وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم، بأنه أبغض الحلال إلى الله. إلا أن الطلاق لم يكن بلا قيود أو حدود، بل وضعت له القوانين لصيانة حقوق الزوجة ورعاية مصلحة طفلها في تنظيم أمور الحضانة ومراعاة مصلحة الأولاد.

كما أن الطلاق لم يكن من حق الرجل وحده فحسب، فقد أقر للمرأة بحق المطالبة به إذا اشترطته في عقد الزواج، وإن لم يحصل ذلك يكون من حق الزوج. ولا يكتب للطلاق التحقق إلا بعد تدخل الأهل والمحكمين لإزالة الخلاف وإحلال الوئام. وإذا ما وقع فإنه يفرض على الزوج القيام بنفقة زوجته .

هذا وتمتعت المرأة العربية المسلمة، بحقوق أخرى متعددة لم تنلها المرأة في بعض ديانات الشعوب الأخرى، ومنها حقوقها المالية. فقد ساواها الإسلام مع الرجل في أمور الولاية على المال، والقيام بالعقود. كما منحت حق البيع والشراء بنفسها إذا ما بلغت سن الرشد. وقامت بالإجارة والشركة والرهن، وأعطيت حق الولاية والوصاية، ومنحت حق الميراث، سواء كانت أماً أو زوجة أو بنتاً أو أختاً(٣٢).

أما فيما يتعلق بموضوع قوامة الرجل على المرأة، فقد تأتت من جراء إقرار الإسلام بحق الرجال في الإشراف على النساء، بسبب ما يتمتع به الرجل من مزايا

خاصة، وما ينفقه من أموال. إلا أن الإسلام نوه بالمرأة الصالحة، المطيعة لما أمر الله به، الحافظة لحقوق زوجها في حضوره وفي غيبته. أما تلك التي تقوم بالعصيان والانحراف والنشوز، فعلى الرجل أن يعظها ويردعها بالكلام أولاً، فإذا لم تتعظ وترتدع؛ فبالهجر في المضاجع، فإن لم يجد لذلك حلاً فبالضرب.

يتبين من ذلك، أن الإسلام لم يسمح للرجل أن يعامل زوجته معاملة خشنة، ولم يجعل له في ذلك حقاً مشروعاً، من دون عدل أو ضرورة أدبية وأخلاقية ومسلكية. وقد تهذب هذا الأمر، بقوله تعالى: **{الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم}** [٣٣] .

احتل موضوع الزواج والطلاق في الإسلام، درجة متقدمة من الدراسات الإسلامية والاجتماعية، لتوضيح الممارسات الإلهية التي يجب أن تطبق بحقه. إذ أن الإسلام حقق من خلال تشريعاته تجاه هذا الأمر، أهم الثورات الاجتماعية والإنسانية، وصحح كثيراً من الممارسات المتفلتة من أي قيود دينية واجتماعية كانت تمارس ضد المرأة. فقوانين الجاهلية وأنظمتها الجائرة، كانت تهب المرأة للزوج الذي يدفع فيها أعلى سعر ممكن، كما ساد فيها مبدأ الجمع بين أكثر من زوجة أو امرأة، مما كان يسبب مشاكل اجتماعية وإنسانية ونفسية، عائلية وأسرية، كانت السطوة فيها لجبروت الرجل المتمسك بقوته وبتفوقه على المرأة في كل شيء.

جاء الإسلام وحد من هذه الأمور جميعها، ووضع أسساً محددة للزواج، وأرسى مبادئ اجتماعية وأسرية، وشجع على الزواج ضمن شروط وقيود إنسانية واجتماعية، أفاد منها الرجل والمرأة على حد سواء. وطلب من المسلمين الامتناع عن تعدد الزوجات وحفظ حقوقهن. ليتمكن الإسلام بذلك، من إعطاء المرأة أهم بند من حقوقها، وهو حرية اختيار زوجها، ولم يجبرها على الزواج من شخص لا تريده.

لقد حقق الدين الإسلامي بهذا، نقلة نوعية مهمة في حياة المسلمين، عندما حثهم على تفهم أمور دينهم ودنياهم، وخاصة عندما فرض عليهم الجهاد للدفاع عن عقيدتهم الجديدة. ولم يجعل تعاليمه وقوانينه وقفاً على الرجل فقط، بل كان للمرأة نصيب وافر منها، حتى أصبحت مشاركة له في المسؤوليات والواجبات، بحيث لم تعد تشكل عبئاً ثقيلاً عليه، بل أصبح يألف مشاركتها له مما دفعه لأن يعطيها كثيراً من حقوقها التي أقرها لها الإسلام، فنتج عن ذلك تبدل نوعي كبير في نظرة المسلم إلى الفتاة المسلمة.

احتل موضوع حقوق المرأة في الإسلام، حيزاً بارزاً من أعمال البحاثة والمفكرين، ورجال التاريخ وعلماء النفس والاجتماع. نظراً للتبدلات الكثيرة التي أحدثها في المفاهيم التي كانت سائدة قبله، وتغييراً في الأعراف والمعاملات المتزمتة التي حاربها الدين الجديد. فقد طلب من المسلم العمل بالوصايا التي وضعت من أجل المرأة، واحترام مكانتها وإعلاء منزلتها عند جمهرة المسلمين بعد التوصية بها عند الخلفاء والصحابة والأعوان، لتنتشر هذه التعاليم وتعم بين عموم المسلمين. فتعززت مكانتها وتبدلت النظرة السلبية إليها من الرفض إلى القبول، ومن الوأد إلى الحرص عليها، ومن البيع إلى الرغبة في الاحتفاظ بها شريكة مصير.

وقد دلت هذه المتغيرات والتحولات، على أن الدور الهام والمميز الذي أفرده الدين الإسلامي للمرأة في رحابه، في وقت كانت فيه الجهالة هي المسيطرة، على مختلف مرافق حياة العربي في صحرائه، وشظف عيشه. فكان أن بدل ذلك بداوته إلى حضارة، وغير قسوة حياته ومعيشته إلى دعة ولين. وحول تحجر فكره إلى تقبل لكل التعاليم والمبادئ التي جاء بها الإسلام. هناك الكثير من الكتب والمؤلفات التي تناولت توضيح هذه المعالم والأسس والمبادئ والمقومات التي عمل على ترسيخها الدين الإسلامي الجديد في حياة المسلم العربي، وحتى في حياة المسلمين جميعاً من غير الشعوب العربية، الذين دانوا لعظمة هذا الدين وتعاليمه السمحة[٣٤].

يلاحظ التبدل الذي طرأ على حياة المرأة العربية والتحولات التي شملت مختلف جنباتها. فبعد أن كان ينظر إليها على أنها مخلوق ذليل وضعيف، لا حقوق له ولا احترام، مع فرض كثير من الواجبات التي كان عليها تأديتها لسيدها الرجل وإطاعة أوامره. فقد ساعد الدين الجديد على تغيير هذه النظرة من قبل العربي المسلم لامرأته، فعمل على تكريمها وإعزازها واحترام مكانتها، وبات يألف وقوفها إلى جانبه، ومشاركتها إياه في أفراحه وأتراحه، وهمومه وأفكاره. وصارت سيدة بيته وأم أولاده، وركناً أساسياً في قيام أسرته وسلامة مجتمعه.

هذه بعض الإضاءات على الطروحات الإنسانية التي منحها الإسلام للمرأة، التي أعتبرت من الحقوق التي فرضت لها فرضاً، فأوجب العمل على احترامها وتنفيذها، لنشلها من عصر الجاهلية والتزمت والتخلف، إلى عصر الديموقراطية والحرية والتطور. غير أن ذلك لم يكن كافياً برأي دعاة تحرر المرأة، لأنه كانت لها

حقوق أخرى ما زالت حبيسة العقول المتحجرة، ويعود للإسلام الفضل في إلغاء كثير منها[٣٥].

وفي ذلك إثبات للديموقراطية التي أتى بها، ولم يقصد بها فئة دون أخرى، أو جنساً دون آخر، أو عرقاً أو مذهباً. فديموقراطيته حق وواجب على جميع المسلمين، سواء كانوا في الشرق أم في الغرب. بعكس ما لوحظ من سير التاريخ، من أن ديموقراطية أثينا كانت ديموقراطية شكلية ومشروطة على قلة معينة، وسط مجموعة كبيرة من العبيد. هذه الديموقراطية الآثينية، التي حكمت على سقراط بالموت بسبب آرائه وأقواله. بينما كانت ديموقراطية أفلاطون موجهة نحو النخبة المختارة من شعبه، في حين أن الديموقراطية كانت معدومة في المجتمع الروماني، بينما طبقت المسيحية مبادئ وشعارات الديموقراطية بالتساوي بين الناس.

جاء الدين الإسلامي، فاستفاد من جميع التجارب، وأطّلع على ممارسات الشعوب للعملية الديموقراطية، فرأى فيها شوائب وعيوباً، فضلاً عن وجود جماعات بشرية لم تكن آثينية ولا رومانية، كما لم تكن مسيحية. نزل الإسلام إذاً على أرض بها خليط من البشر، وبالرغم من سيطرة العنصر العربي، فقد نزل على هذه الشعوب وافتتح دولاً وأمصاراً، فيها أجناس وأقوام لا تعد ولا تحصى. فجاء إليهم بديموقراطية استوحى أسسها من النصوص القرآنية، ونقلها أتباعه إلى حيز التنفيذ وفق وصايا النبي وتعاليمه. ومنذ ذلك الحين أخذت الديموقراطية تسري في المجتمعات البشرية جميعها.

جعل الإسلام الحكم شورى بين المسلمين، كما أصبح أمرهم شورى فيما بينهم، تطبيقاً للآية الكريمة التي نزلت في هذا الشأن. وساوى الإسلام بين الناس، ولم تقتصر مساواته على الأجناس والأقوام والعناصر، بل ساوى بين المرأة والرجل لجهة الحقوق والواجبات. وقال تعالى: **{ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله خبير عليم }**[٣٦]

فكان من نتيجة ذلك أن اتضحت عالمية الدين الإسلامي، من أنه دين التقوى والعبادة والعقيدة والفرائض، كما هو دين العدل والإخاء والمساواة، ونشر المحبة والثقافة والعلم بين أبنائه.

إن الوثيقة الإسلامية لحقوق الإنسان عامة، والمرأة خاصة، قد ظهرت قبل صدور الوثيقة العالمية لحقوق الإنسان عن الأمم المتحدة بمئات السنين. هذه الوثيقة الإسلامية التي

هي بمثابة شرعة إلاهية، وشريعة ملزمة للحاكم والمحكوم وحق لكل مواطن، أياً كانت ديانته أو جنسه أو لونه أو طبقته. أي أنها حق للمجتمع بكل أفراده. ومن هذه الشريعة وتلك الوثيقة، كان التكريم الإلهي للإنسان، حيث اتخذه خليفة له على الأرض، لينشر عدله وبركته بفيء من تعاليمه ورحمته[٣٧].

٤ ـ المرأة ودورها في حياة الرسول

عندما نهضت زاهية قدوره لدراسة وضع المرأة في الإسلام، لفت نظرها، الدور الذي مارسته في حياة الرسول، والتأثير الذي تركته في نفسه. فانصرفت لدراسة هذه المعاني الإنسانية والحضارية التي نظر فيها النبي إلى المرأة، سواء أكانت أختاً أو بنتاً أو زوجة، وفوق هذا وذاك؛ إلى دورها ورسالتها كأم، خصوصاً وأنه قد عانى هو شخصياً من هذا الإحساس، نتيجة لوفاة أمه، وهو صغير السن[٣٨].

ويلاحظ أنها عادت في هذا البحث، إلى بعض الأفكار التي سبق وعرضت قسماً منها، عندما درست حقوق المرأة في الإسلام، وخصوصاً بالنسبة للمكانة التي أفردها الدين الإسلامي للمرأة. أما في هذا العرض، فقد ركزت الباحثة عملها حول التعاليم التي جاء بها الإسلام وأوصى الرسول باتباعها. ومنها التوصية بالمرأة، جاء فيها: « **استوصوا بالنساء خيراً**»[٣٩]. ويشاع أنها كانت الوصية الأخيرة في حياته، وفق ما تم ملاحظته. ويقال أيضاً إنها وردت على لسانه في خطبة الوداع، وأثارت كثيراً من النقاش والجدل بعد وفاته.

رأت الكاتبة، أن هذه الوصية كانت من الوصايا الهامة التي وردت عن لسان النبي، حيث أراد منها زيادة دعمه لمكانة المرأة. والملاحظ من كتاباتها حول هذا الأمر، أنه نشأ لديها اعتقاد أكيد؛ بأنه فضل أن تكون هذه الوصية آخر كلماته إلى المسلمين، ليفهموا منها حرصه بالمحافظة على كيان المرأة المسلمة واحترامها، وأن يقوموا بالاهتمام بها كما كان يفعل هو، ويبالغوا في العناية بها ومداراتها.

لم يشأ من كلمته التوصية بالنساء فقط، بل رغب في أن يقوم المسلمون من بعده، بتحريرها من قيودها واحترامها، وإحلالها بالمكانة التي تليق بها.

رأت أن غايته من ذلك؛ ناتج عن الوضع الذي كان لها في حياته، المتأتي عن فقد الأم وهو لما يزل حديث السن، فكان من الطبيعي عليه أن لا يعرف عطف الأخت وحدبها، بالرغم من الحب والحنان الذي حظي به على يد نسائه، بدءاً من خديجة

وصولاً إلى الحميراء أم المؤمنين، التي قيل إنها حاولت أن تعوضه حنان الأم وحدب الأخت وإخلاص الزوجة.

هذه العوامل والظروف التي أحاطت بنشأته، واستمرت ملتصقة به في مختلف مراحل حياته، وفي أثناء تأديته لرسالته السماوية، وجدت فيها الكاتبة دوراً هاماً ومميزاً للمرأة، كونها من أوائل من أيده وسانده، وهيأ له الظروف والأجواء النفسية والمعنوية للانطلاق في تأدية رسالته، وترسيخ أسس دولته، وإحلال العدل والأخوة والمساواة بين أبناء الشعوب والأجناس التي دانت له بالطاعة والولاء.

وأضافت أنه كان لخديجة وأسماء ومريم وعائشة وغيرهن، الفضل في دفعه للتوصية بنساء المسلمين ومساواتهن بأزواجه وأولاده منهن. كما رأت الباحثة، أنه كان لدور المرأة في حياته وفي عونها له على القيام بتأدية رسالته، دور أساسي ومركزي في حثه على التوصية بالمرأة خيراً، حتى يعم عطفها وحنانها على أرجاء المعمورة قاطبة. فبسعادتها يفرح الكون، وبشقائها وتعاستها يصاب باليأس والقنوط. وقد لخصت مجمل هذه الآثار في حياته بقولها: « من كنف الأم إلى كنف المرضعات اللواتي أسبغن عليه الحنان والرعاية ما تسبغه الأمومة، ثم إلى الزوجة الكريمة التي رعته في شبابه، وكانت له أول سند في كفاحه من أجل رسالته، ثم إلى تلك الفتاة الشجاعة الحكيمة، التي حفظت سر هجرته وخاطرت بنفسها من أجل مواصلة هذه الهجرة الشاقة والخطيرة» (٤٠).

في متابعة لهذا التأثير الذي كان للمرأة في حياته، نجد أنه عائد إلى الظروف التي رافقت مولده، ونشأته وكفاحه. إذ كان يوجد في حياته، أكثر من إشارة دفعته لتقدير دور المرأة وتقييم مركزها في حياة الأمم والشعوب بصورة إيجابية. ومنها مثلاً، أنه شعر أكثر من غيره بالخصائص التي ميزتها بها الطبيعة، كالحنان والتضحية والإخلاص. من هنا أحب معاملة النساء بالرأفة والحنان، خصوصاً نساء أهل بيته، اللواتي كان يحترم آراءهن ويحاورهن ويقبل مراجعاتهن له فيما لا يرضين به، حتى اقتدى بهن كثيرات من نساء المسلمين. وفي حديث لعمر بن الخطاب (٤١) قال فيه: «فصحت عليَّ امرأتي، فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت ولِمَ تنكر أن أراجعك، فوا الله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يراجعنه» (٤٢).

ومن آثارها غير المحببة في حياته، أنه نشأ يتيماً، إذ توفي أبوه وهو جنين في بطن أمه، التي توفيت أيضاً، وهو لما يزل يحبو. وبالرغم من ذلك، ومنذ أن بات يعي ما

حوله، كان حنان الأم ورعايتها أكثر شيء اطمأنت إليه نفسه وفاء إليه بيتمه. فكانت خير داعم ومعين ومساند له، فهيأته وهو في مقتبل العمر لحمل رسالته وتأديتها بكل أمانة وصدق وإخلاص، فكانت سنداً له وكافلاً على خير ما تكون الأم الشجاعة الصابرة، حتى قبضها الله إليه والنبي لا يزال في السادسة من عمره .

إلا أن أثرها في هذه الفترة، لم يكن قاصراً على والدته آمنة من دون نساء القوم، اللواتي كن يرغبن أن يكون لكل منهن نصيب في تربيته والعناية به. فقد لاقت آمنة؛ خلال هذه السنوات عوناً كثيراً في مهمتها المباركة، إذ شاركتها الحدب والحنان على اليتيم الصغير، نساء أخريات أولهن أم أيمن التي حضنته وهو طفل، وكانت رفيقته الوحيدة في رحلته الحزينة من الأبواء إلى مكة.

وصحبته أمه إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بني النجار ومعهما أم أيمن، ولعل هذه الرحلة كانت من أشجى ما وقع في نفس الطفل اليتيم، إذ مرت به أمه على قبر أبيه تستثيرها الذكريات والأشجان. ثم لم يلبث في أوبته من زيارة أخواله أن أدركته فاجعة أخرى، إذ مرضت أمه وماتت في الأبواء. وفي تلك الساعة من وحدته وغربته ويتمه وحزنه، كانت أم أيمن هي وحدها الحانية عليه والمؤاسية والمعزية، فعادت به إلى مكة وهو يشعر في تلك الرحلة القاسية أن لا ملاذ له، بعد الله، إلا ظلها الرفيق.

ومن النساء الأخريات اللواتي كان لهن شأن في حياته، ثويبة جارية عمه أبي طالب، التي أرضعته مدة من الزمن. وبالرغم من قصر المدة التي جمعته بها، فقد تركت مكانة خاصة في نفسه، إذ كثيراً ما كان يتذكرها ولم ينس الاعتراف بفضلها؛ مما جعله يهتم بابنها ويسأل عنه دائماً، حتى وهو في هجرته إلى المدينة، ثم عمد بعد ذلك على احتضانه ورعايته ليرد جميل أمه بحقه.

وكان لحليمة السعدية أثر كبير في حياته، فهي التي أرضعته ومكث في رعايتها مدة سنتين، ثم ردته إلى أمه، ولم يلبث لديها إلا قليلاً من الوقت، ثم أعادته أمه إلى حليمة، التي مكث عندها سنتين أخريين. يغتذى بلبنها ويعيش في كنفها أربع سنوات أخرى، حيث كانت له أم ثانية بعد أمه آمنة بنت وهب.

انطبع أثر حليمة في نفسه مدى حياته، فكان يكرمها كلما وفدت عليه، ويجلسها إلى جانبه ماداً لها فضل ردائه تجلس عليه، مبالغة منه في إكرامها والبر بها. وظل يصلها حتى ماتت، وقد أستمر في إقامة الصلاة عليها مع أولادها بعد مماتها، وخصوصاً مع ابنتها الشيماء.

أما أثر زوجه خديجة بنت خويلد، فكان مختلفاً عمن سبقها ومن لحقها من اللواتي تركن ذلك الأثير في حياته. فكانت أول من آمن برسالته، وأول من أخذ بيده، وأول من وقف بجانبه، وأول من قدم له العون المادي لمساعدته في أمور رسالته. وليس من المغالاة في شيء، اعتبار زواجه منها أهم حدث في حياته، وهو كذلك بالفعل، كما أجمع المؤرخون. فاطمأن بهذا الزواج إلى زوجة ورفيقة كانت تؤثره على نفسها، وتهيئ له كل ما في وسعها، من أسباب الاستقرار والاطمئنان بمحبتها وإخلاصها، وحكمتها ورجاحة عقلها، وبذل مالها. فكان هذا المنزل الناعم الهانئ، خير مساعد له على التفرغ لأداء الرسالة السماوية، حتى بلغ من ثقتها به، أن ملك عليها إخلاصها، فرنت له ببعد نظرها ورجاحة عقلها، وظلت رابطة الجأش، واعية اللب، في تلك الساعة التي قدر لها أن تكون، مبدأ الانقلاب الديني والإنساني، الذي غير وجه العالم فيما بعد[43].

كان وقع الحدث شديداً في نفس النبي صلى الله عليه وسلم مما يدفع للتساؤل: «كيف لا يكون كذلك، والله يبلغه أنه أختاره ليكون رسوله إلى العالمين ؟ «. وفي غمرة الإحساس الذي أستغرق عليه كيانه، والرهبة التي داخلت نفسه من جلال الموقف. لم يجد من يشد من عضده ويؤازره غير خديجة، فإذا هي كفء لأن تشاركه ثقل الموقف غير مضعضعة ولا شاكة، بل رابطة الجأش مؤمنة مشجعة، من خلال قول مشهور نسب إليها: « أبشر يا أبن العم وأثبت فوالذي نفس خديجة بيده، أني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة» [44].

هذه بعض الآثار الأنثوية التي نهضت الكاتبة وجهدت، لتبين فيها العلاقة المتينة التي جمعت بينه وبين المرأة، في مختلف دروب حياتها، وعلى تعدد درجاتها الاجتماعية. فأظهرت حماستها وإندفاعها، غير المحدود في تأييد رسالته ومناصرتها له، وإيمانها به، وتبنيها لدعوته؛ منذ ابتداء رسالته، التي ما زادتها الأيام ولا الصعوبات؛ إلا تشجيعاً له وتثبيتاً. يستشيرها ويشكو إليها، فتواسيه وتؤازره بما يخفف عنه ويقر نفسه .

وهناك نساء أخريات ساهمن في مسيرة الإسلام دفاعا عن النبي وذوداً عن رسالته. منهن أسماء بنت أبي بكر الصديق، التي هبت لحمايته وافتدائه بنفسها عندما تعرض وصاحبه الصديق لعملية تطويق من قبل الكفار. حيث كانت قريش[45] قد بذلت كل ما في وسعها من حيلة وقوة، وجندت فرسانها وشبابها، وشرعت سيوفها ورماحها، للقبض عليهما أو منعهما من الهجرة على الأقل. وهما يرومان اقتحام هذا الطوق، بلا

معين ولا نصير، سوى الله، ولا سلاح غير الإيمان. فما كان من أسماء تلك الفتاة الشجاعة، إلا أن خاطرت بنفسها غير عابئة بما تألب على المهاجرين من قوى وأحابيل، فعزمت على نصرتهما وتسهيل هجرتهما. فكانت تحمل إليهما الطعام، وهما في مخبئهما، وفي نفس الوقت تنقل إليهما أخبار قريش وما تبيته، بعد أن تكون قد تنسمتها وتكشفتها. وكادت هذه الفتاة أن تقع في الخطر المحقق حين أشتبه القوم بأمرها، وجاءها صناديد قريش يهددونها ويضربونها على أن تقر لهم بمكان النبي وصاحبه. فثبتت على موقفها، لأنها كانت مثال البطولة ورباطة الجأش في مجابهة الموقف، فكتمت السر وتحملت الضغط والإرهاب، حتى استطاع المهاجران اختراق الطوق والوصول إلى المدينة.

ومن الوقائع التي عملت الكاتبة على تبيانها، أنه كان من طبعه الرصين وتواضعه، أن أدرك القيمة السنية التي يجب أن تحتلها المرأة في حياة الأمم والشعوب. فكان أن عكس من طباعه ومن تواضعه عليها، ما جعل مكانتها عنده لا تعادلها مكانة في الأديان الأخرى، وعند شعوبها المختلفة. وقد ولجت الباحثة، إلى هذه العلاقة الجدلية، إذ جاز تسميتها كذلك، وتعمقت في دراسة أوضاعها، وخلفياتها، وظروف نشأتها، ومدى تأثيرها في المجتمع الإسلامي عامة، وفي حياة نبيه خاصة.

درست مجمل الأسباب التي دفعته لأن يخصص لها هذه المكانة السنيّة في حياته. وأشارت الكاتبة إلى أنه لم يكتف بذلك، بل دفع المسلمين وحثهم على الاقتداء به في تقديرها واحترامها، تأسيساً على المعاملة التي كان يمارسها مع أهل بيته خاصة، ونساء المسلمين بعامة. فذكرت رفقه بهن وعطفه عليهن وتوصيته بهن خيراً. وكانت خطته في معاملتهن جديرة بأن تكشف عن كفاءاتهن وتحلهن المكان اللائق بهن في مختلف الميادين. ومن هنا يلاحظ الأثر الذي كان له في حياة النساء اللواتي رافقنه في جهاده، أو كانت له بهن صلة قرابة أو زواج[46].

أما تأثير ابنته فاطمة الزهراء في حياته، فقد كان نابعاً من حنانه عليها، الذي كان يفوق أي وصف كما لاحظه المؤرخون؛ إذ كان قد أفرد لها مكانة خاصة في عقله وقلبه. وكانت محبته لها ولأبنائها كبيرة جداً في نفسه، حتى أنه قال فيها: «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها فقد أغضبني، ومن أغضبني أغضب الله» . وكذلك كانت محبتها له كبيرة جداً، حتى أنها ظلت بعد أن قبض لا ترى إلا باكية حزينة، ثم لم تلبث إلا قليلاً حتى لحقت به في دنياه العلوية. ورأت الباحثة أنه بسبب هذه العلاقة؛ كانت مكانة فاطمة

سامية جداً بين جمهرة المسلمين، بالإضافة إلى علمها وروايتها للحديث، ولأنها كانت زوجة الإمام علي وأم الحسن والحسين.

أما تأثير زوجته عائشة أم المؤمنين في حياته، فقد وضعت حول سيرتها وعلاقتها به، مؤلفات مختلفة وكتباً متعددة، زخرت بها المكتبة العربية. وكانت علاقتها به مجالاً رحباً حسدها عليها الأنصار من المسلمين قبل الأعداء من قريش، الذين حاكوا لها المؤامرات، ودبروا ضدها المكائد لينالوا من مكانتها عنده. إلا أن قوة شخصيتها وحكمتها التي اشتهرت بها في حضرة نبي المسلمين، لم تمكن هؤلاء من النيل أو التأثير على هذه العلاقة في حياته، بالرغم من حديث الإفك الذي حاكوه زوراً وبهتاناً، ثم أتتها البراءة من الله. وصفت عائشة بأنها كانت صاحبة شخصية قوية، وذكاء وقاد، وجمال رائع. استطاعت بنباهتها ومكانتها الأثيرة عند الرسول، أن تحفظ الحديث، لا بل أن تكون من أكثر نساء المسلمين رواية له [٤٧].

وذكّرت الكاتبة، بالمؤرخين الذين أشاروا إلى أن حبه لها، يعود لأسباب متعددة، منها صغر سنها عندما دخلت إلى بيته، فكانت موضع عنايته وتنشئته بسبب قربها الدائم منه، بالإضافة إلى شخصيتها، التي مكنتها من الإلمام بمعظم المشاكل والأحوال التي كانت تعرض أمامها وهي في حضرته. فكانت المرجع الأول في كل ما كان له علاقة بالدعوة الإسلامية، لا في المدينة فقط، بل في سائر الأمصار الإسلامية. فكانت تصحح الحديث والأحكام لأكابر الرواة والمحدثين، وتروي ما خفي عن الصحابة، خصوصاً ما يتعلق بشؤون الرسول البيتية. وكان ابن الزبير إذا حدث عنها قال: «والله لا تكذب عائشة على رسول الله أبداً». وكان مسروق يقول في نقل الأحاديث عنها: « حدثتني الصادقة - أو الصديقة البريئة المبرأة» [٤٨].

وتعتبر عائشة من الصحابة الستة، الأكثر علماً، إذ ذكر أن مبلغ ما روي عنها بحدود الألفين ومائتين وعشرة أحاديث.

بالعودة إلى حقوق المرأة في الإسلام، يجب النظر إلى أنه لم يكن بالإمكان إظهار أهمية الحقوق التي حصلت عليها المرأة العربية في الإسلام، إلا من خلال موقعها في هذا الدين الحنيف. ولولا التكريم الذي أنعم الله به عليها، منحها الامتيازات التي ميزتها عن سواها من النساء. لذلك فالحديث عن حقوقها، هو حديث عن المكانة التي وصلت إليها المرأة بعد ذلك بصورة عامة.

إن رأيها بالمرأة لم يخرج عن حدود المعقول والمقبول. لم تنظر إليها على أنها مخلوق فوق الطبيعة، بل كانت تعتبر مكانتها عادية جداً. فرأتها مخلوقاً كباقي المخلوقات الإنسانية. أما ما قامت تطالب به بعضهن بالنسبة إلى مساواتها مع الرجل، فقد رفضت المؤلفة هذه الفكرة رفضاً مطلقاً. وعللت ذلك بنقطتين اثنتين: الأولى أن فكرة المساواة لا يقررها الرجل، كما لا تقررها المرأة. المساواة بالنسبة إلى الباحثة، كانت تعني مستوى الكفاءة والجهد وأهمية العمل المبذول، والفكر النير والتصرف الجيد. فكم من النساء حسب رأيها، تمتعن بكفاءة ضاهين بها كفاءة الرجل وتفوقن عليه[٤٩].

أما النقطة الثانية، التي رفضت فيها فكرة المساواة، فلأنها كانت ترى فيها إلغاء لحكم الطبيعة، وإنتفاء للحكمة الإنسانية. لأن الله سبحانه وتعالى لو أراد لهذه المساواة أن تتحقق لكان أقام ذلك بالفعل، ولما ترك الأمور بينهما، على ما هي عليه من تمايز وتفاوت في الدرجات.

من هنا رأت زاهية قدوره، أن الإسلام حدد سلوك المرأة وواجباتها في ضوء العقيدة الإسلامية، بما يضمن حقوق الرجل والمرأة. ودور الذكر في هذه الخلية الإنسانية والاجتماعية، بالرغم من أنها لم تحبذ أي تفضيل لأحدهما على الآخر. وإذا كان من تباين بين الذكر والأنثى، فترده إلى التمايز بين الجنسين على المستوى البيولوجي والنفسي والفسيولوجي. مما جعل الإسلام يحفظ الخصائص المميزة للأنثى، والدور الأساسي الذي خص به الرجل. فالتمايز بين الجنسين من حيث الاختلاف في طبيعة التكوين العضوي والنفسي والفكري. ولذلك دعا الإسلام إلى تخصيص المرأة ببعض الحقوق والواجبات، وحث الرجل على تنفيذ كل متطلباتها الإنسانية والاجتماعية المشروعة.

دعمت هذه الطروحات بقول ورد في مخطوطة مذكراتها، قالت فيه: «لقد كنت مؤمنة على الدوام بدور المرأة، وأهمية هذا الدور في تقدم الأمة العربية وتطورها، غير إنني لم أفهم هذا الدور كإطار بديل عن دور الرجل، أو محاولة نظرية لمجاراته في كل شيء»[٥٠].

وأضافت إلى كلامها حول المساواة بين المرأة والرجل، الذي اعتبرته أنه يدور في إطار الصراع بين نفوذ وحقوق كل منهما، وتسميته بالصراع الخالد بين المرأة والرجل. فقالت: «وحينما كنت أسأل عن الصراع الخالد بين الرجل والمرأة، كنت أرفض هذا المنطق الذي يصور الرجال والنساء معسكرين منفصلين تمام الانفصال.

إنني أستسيغ كلمة التنافس، وهو تنافس موجود بين المرأة والرجل على الخدمة العامة، وهذا تنافس مستحب، وهو موجود بين الرجال أنفسهم وبين النساء أنفسهن، ومن المستحسن أن يظل هذا التنافس قائماً حتى بعد أن تنال المرأة كامل حقوقها، فالأحق بالعمل من يجيده، سواءً أكان رجلاً أم امرأة، وقد وصلت المرأة إلى تحقيق كافة حقوقها، ودخلت في ذلك طور الإنسانية الكاملة، لتقف على قدم المساواة مع الرجل في ميدان الخدمة العامة»(٥١).

بعد هذا العرض لدور المرأة في حياة الرسول وتأثيرها الذي لازمه طوال حياته. تتبين مكانتها المميزة. فاحترمها وعززها ورفع من شأنها، إنطلاقاً من معاملاته الإنسانية لبني البشر جميعاً. فكيف الأمر بالنسبة إلى المرأة التي كانت أثيرته في طفولته وشبابه وكهولته.

٥ – وضع المرأة في العصر الحديث

شغلت قضايا المرأة العديد من المؤلفين والكُتّاب، بالإضافة إلى علماء النفس وغيرهم من المؤرخين وكذلك التربويين، على حد سواء. وتبين لهم، أنها مرت بأكثر المراحل حراجة في مجابهة الرجل، لتنتزع منه بعض المكتسبات، وتنافسه على احتلال المراكز والمناصب المعتبرة من نصيبه؛ مما أثار الجدال في المجتمع الذكوري، حول الإمكانيات التي تتمتع بها المرأة، والمسؤوليات التي يمكنها تحمل أعبائها، وقدرتها في المحافظة على النجاح الذي يمكن أن تحوزه في حياتها. فوقفت بعض الكاتبات يشرعن أقلامهن وأفكارهن، كما نشطت مجموعة من الرائدات موجهات وناصحات للمرأة، وراعيات لمسيرتها في العصر الحديث، بالرغم من شعور بعضهن أنهن أقرب إلى تأييد مواقف الرجل الإنسانية والاجتماعية في بعض الأحيان، من سلوك دروب التحرك لدعم مطالب المرأة للحصول على امتيازاتها وتفردها عنه (٥٢).

وهكذا صار البحث عن مكانة المرأة وتقصي أحوالها في العصر الحديث، من الأعمال التي استحوذت على دراسات الباحثين واهتمامات المؤلفين. المرأة هذا المخلوق الأنثوي الجميل أبداً والمخيف دائماً، التي خصها الله بعنايته الإلهية ومحبته للبشرية، وخصتها الإنسانية بمكانة سامية بسبب دورها في التضحية والعطاء.

المرأة الإنسان والمرأة الكيان والوجدان. قيل عنها الكثير ووضعت عنها المجلدات، وذكرت في كتب الأديان الثلاثة على قدر كبير من القداسة والأهمية، كيف

لا ومن أرحام ثلاث نساء طاهرات خرج رسل الأديان الثلاثة وأنبياء الله إلى البشرية، فكان لها في حياة كل منهم التقديس والهالة والتعظيم، فكانت الجنة تحت أقدامهن وأقدام كل أم عرفتها البشرية جمعاء.

سيطرت هذه العناوين عن هذا الكائن، الذي قيل عنه أنه أضعف مخلوقات الله، وهو يملك من القوة والعزيمة والإرادة، ما يمكنه من لعب أهم وأفضل الأدوار في تاريخ الإنسانية، منذ أن كانت الحياة على وجه الأرض.

عبرت بعض الكاتبات في أعمالهن عن المفاضلة بين المرأة والرجل، وزاهية قدوره من بينهن، فقالت: «إن نجاح الإنسان لا يستطيع أن يقدره هو – الرجل - بل إن الأعمال التي يصنعها هي التي تدل على النجاح أم الفشل.. فالنجاح والفشل ليسا امرأة ولا رجلاً، إنما هناك إمكانات وكفاءات ورسالة. ومن هنا لا يجب التفريق بين الرجل والمرأة من حيث تسلم المسؤوليات، فإن كانت المرأة فذة وكفوءة نجحت، وكذلك الرجل، وإلا فالاثنان فاشلان»(٥٣).

وكأنها أرادت الإشارة إلى أن المدنية الإنسانية، قائمة على التعاون بين الرجل والمرأة منذ الأزل، وهما من صناع التاريخ وبناة المستقبل، الجميع يصلح بصلاحهما، ويفسد بفسادهما. فالمرأة والرجل صنوان؛ وإن كان لكل منهما خصائص مميزة تعبر عن شخصيته، إنما يظل هذا التعاون والتكامل الأساس في قيام المجتمع وتحديد مساره . فإذا كان البيت بالنسبة للمرأة هو المجال الذي تتحقق فيه شخصيتها، والمكان الذي تلعب فيه دورها في تنظيم حياة أفراد الأسرة، فعلى الرجل أيضاً أن يتعاون في هذا المجال، لتنتج هذه الأسرة وتصبح وحدة ناضجة في مجتمع ناضج. فالعلم المقرون بالنظرة الشمولية والتوجيه القويم، هو سر النجاح.

إن دور المرأة في المجتمع كدور الرجل تماماً، فالمرأة الواعية المتمكنة من ثقافتها وتعاليمها، هي كالرجل الواعي والمدرك لثقافته وتعاليمه، مدعوة أكثر من غيرها لأن تلعب دورها في تنمية وتطوير المجتمع، والشعور بالمسؤولية العامة، وعدم التخلي عنها والنظر بعين الجد إلى دورها فيه، الذي هو بأمس الحاجة إلى جهود مواطنيه. فالجامعية لم تعد عضواً عادياً في مجتمعها، تعيش على هامش الحياة، بل أصبحت مع التبدلات الاجتماعية والتعليمية، وكذلك التحولات السياسية والاقتصادية التي وصلت إليها المجتمعات المتحضرة، عاملاً فعالاً لها أثر كبير. وقد دخلت ميادين العمل كلها،

وهي كالرجل تماماً، منها من نجح ومنها من فشل.

وكانت زاهية قدوره، من اللواتي أولين للمرأة أهمية ظاهرة؛ سواء في كتاباتهن أو في العمل من أجلها. إذ سعين لتأمين حقوقها وتجسيد مساواتها بالرجل، وتحقق ذلك من خلال ما هو حاصل اليوم من وئام وعشرة وتفاهم، وحياة رغيدة سعيدة؛ ينعمان فيها بظروف اقتصادية وتربوية - ثقافية واجتماعية وسياسية متشابهة، حتى بات من الصعب التمييز بينهما.

وقد عملت هؤلاء الناشطات، على توضيح المقولة، التي تؤكد أن وعي الرجل للمسألة التربوية - الثقافية والاجتماعية والسياسية، لم يكن أكثر من وعي المرأة لها. وقدمن براهين متعددة ونماذج مختلفة، حول تفوق المرأة على الرجل في سعة النظرة، ودقة الفكر، وعمق الوعي، ووضوح الرؤية، وذلك من خلال ملاحظة بعض العناصر الداخلية أو الخارجية المميزة لها بشكل خاص.

وقمن بتقديم ملخص عام للوضع المعقد الذي تقبع المرأة في زواياه، وتحليل الآراء والأفكار المتعلقة بها، لاستنتاج العبر والأمثال المتعلقة بوضعها في العصر الحديث، من خلال النصوص والأحكام القرآنية، والتعاليم والشعائر والمعتقدات الإسلامية، التي تم التوصل من ورائها، إلى العبر والأمثولات التي دلت على تحررها من القيود التي تكبلها، وخصوصاً الجهل والأمية وتسلط الرجل.

غير أن بعض المتعاطيات في الشأن النسوي، وبدافع من حرصهن؛ على أن يعطين الموضوع ما يستحق من الصدق والموضوعية. لم يتوقفن عند المظاهر التي أشادت بمكانة المرأة، بل أشرن إلى أخطاء لها، كما أظهرن جوانب من المواقف السلبية التي عادت عليها إلى سلوك دروب التخاذل. فأنحين عليها باللائمة، لأن الرجال الذين وصلوا إلى مراكز عالية، سواء في حياتهم الاجتماعية أو الاقتصادية، لا يتميزون عنها كثيراً بالوعي والعلم والثقافة. بل رأوا سبب ذلك، ربما عائد إلى حريتها ومكانتها الاجتماعية، والمركز والدور الذي تلعبه؛ من خلال المظاهر والشكليات، وأساليب السلوك التي يغلب عليها طابع الحداثة والحياة العصرية (ملابس، سيارة، سباحة بالمايوه..حفلات الرقص..الماكياج، تسريحة الشعر) كأن تطور المرأة أصبح شيئاً يضاف إليها من الخارج، من دون الاهتمام بالجوهر الداخلي وما يتضمنه من وعي وإدراك، وإيمان وثقافة، وفهم لدورها الطبيعي في المجتمع.

ورأت كاتبات أخريات، أن تحرير المرأة يعني الارتقاء بقدراتها واستعداداتها الفطرية والطبيعية، في ضوء المعتقدات الدينية والأخلاقية، ونظام القيم والمعايير والتقاليد الإيجابية.

إن التفاعل بين الارتقاء بقدراتها واستعداداتها الفطرية والطبيعية، وتغيير المجتمع بجوانبه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية؛ بما يتلاءم مع هذا الارتقاء، يؤدي كما يعتقد، إلى تحرير المرأة من القيود التي تكبلها، ويسمح لها بالتالي بممارسة دورها الطبيعي.

هذا ولا بد من الإشارة إلى بعض المكتسبات التي تمكنت المرأة من تحقيقها حتى الآن، بالرغم من أن صورتها ما زالت مهزوزة إلى حد ما، ومعالمها في كثير من الأحيان غير واضحة، واتجاهاتها متضاربة، وتناقضاتها كثيرة. ومرد ذلك لا شك، يعود إلى عامل لا يمكن تجاهله في مجال الحديث عن التحديات التي تواجه حركة النهوض بالمرأة في بلادنا، وهي التغييرات التي طرأت على المجتمعات طوال القرن العشرين بكامله. ففي بحر المائة سنة الأخيرة، تقدمت حضارة العالم بدرجة هائلة، وانتقلت البشرية من عصر الثورة الصناعية، إلى عصر الثورة التكنولوجية وعصر المعلومات .

وصاحب هذا التغيير في العالم، انقلاب شامل في مكانة المرأة، نقلها من مراتب التبعية والهامشية إلى مستويات المواطنية الكاملة. وتدرجت هذه العملية في البلاد التي سبقتنا في الحضارة، وتم التحول على مراحل متتابعة خلال نصف قرن، وهي مدة كافية لهضم التقدم النسائي. أما عندنا فقد رأت زاهية قدوره أن التحول جاء متأخراً جداً، ولم تبدأ المرأة يقظتها إلا مع ثورات التحرر العربية. كما أكدت أن هذه الثورات لم تكن سياسية فحسب، إنما اجتماعية أيضاً، حيث نشأ بجانب الرغبة في أن يحرر العرب أنفسهم بأنفسهم من سطوة المستعمر وجبروته، أن يرتقوا بأحوالهم إلى المستوى الحضاري الذي يجعلهم أهلاً للحرية التي ينشدون الاحتفاظ بها[٥٤].

هبت المرأة لنهضتها بفعل هذه الثورات، واستيقظت في نفوس القادة الرغبة في الاستفادة منها، وهو ما لاحظته الكاتبة وتأثرت به من خلال تحركات والدتها وعمتها ابتهاج قدوره، ونخبة سيدات الحركة النسائية في بيروت في مطلع القرن الماضي، أمثال لور تابت وجوليا طعمة دمشقية وسلمى صائغ وعادلة بيهم الجزائري ونجلاء كفوري، وغيرهن. ورأت أنه إذا كان حصول المرأة العربية على حقوقها السياسية، هو البداية الصحيحة لمرحلة النهوض النسائي، فالمرأة حديثاً ملزمة أن تطور نفسها، لتتمكن من

مماشاة الثورات المستجدة التي عليها مواكبتها.

فدعت في طروحاتها النسائية ودراساتها، إلى تسلح المرأة بالعلم لتطور وعيها السياسي والاجتماعي، وأن تنمي كفاءاتها وقدراتها. كما شددت على تمسكها بالأخلاق الحميدة والقيم العالية. وصرحت في أحد الأيام: «إنه يوم تغيب المرأة عن معادلات البناء والتنمية، يتفاقم الخلل في شتى الميادين، كما في المجتمعات المتقدمة والنامية والمتخلفة، كل بحسب وضعه وظروفه»[٥٥].

وأشيع عن زاهية قدوره، أنها كانت من العاملات للقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة؛ ولذا فقد وجدت أن التنمية التامة والكاملة لبلد ما ورفاهية العالم، وقضية السلم تتطلب جميعاً، أقصى مشاركة ممكنة من جانبها، على قدم المساواة مع الرجل في جميع الميادين. كما رأت أن التمييز ضدها يشكل انتهاكاً لمبدأ المساواة في الحقوق واحترام كرامة الإنسان، وعقبة أمام مشاركتها للرجل في حياة بلدهما السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية ـ الثقافية. كما أن التمييز يعيق نمو المجتمع والأسرة، ويزيد من صعوبة التنمية الكاملة لإمكاناتها التي يجب أن تسخرها لخدمة بلدها والبشرية.

هذا ولا يظننّ أحد أنه كان بالإمكان التجاوز عن أفكار زاهية قدوره وآرائها حول المرأة، خصوصاً وأن هذه المعطيات ليست موضوعة في بحوث محددة أو محاضرات معينة، بل هي موزعة في أوراق متفرقة في أرشيفها؛ مما تطلب فترة من الوقت لفرزها ودراستها وتحليلها، لاستخلاص الأفكار والعبر التي توختها منها. وقد لوحظ من بعضها، أن دأبها في كل حين، كان دعوة المرأة في أي موقع كانت لأن تجد نفسها. لذلك كان لا بد من التوقف عند رغبتها حول دعوة المرأة في كل الأوقات، للتفاعل مع مجتمعها وتطويره، وتوجيهها إلى أنه يوجد أمامها على المدى القريب والبعيد، أعمال ينبغي أن تعي مسؤولياتها، وتتحمل أعباءها برحابة صدر وعمل مستمر ومتواصل، لتسير متكافئة مع أختها وشقيقتها[٥٦].

من الأمور التي حثت المرأة على النهوض بها، موضوع المساواة مع الرجل. وقالت عنه إنه موضوع مساواة في الحقوق والواجبات. وهنا وجهت النصيحة إلى الدولة والمسؤولين، لأن يتحملوا مسؤولياتهم، ويتصرفوا مع موضوع المرأة بكل صدق وواقعية. فدعتهم للتعالي عن الأهواء والمصالح الشخصية بالنسبة للمرأة والرجل، بحيث يطبقون على كل منهما نفس الضوابط والمحظورات.

وكانت المرأة في نظرها قد اقتحمت جميع الميادين، وأثبتت نجاحها وكفاءتها، وشاركت وناضلت في الحركات الوطنية. إلا أنها كانت بمجرد التعبير عن رغبتها بالوصول إلى المراكز القيادية، كانت تنشأ أمامها الصعوبات، وتوضع في وجهها الخطوط الحمر التي كان يمنع عليها تجاوزها وتخطيها، مما كان يحول دون تحقيق أمانيها ورغباتها وتطلعاتها. فيفرض عليها الالتزام بمسؤولية معينة، على مستوى الكفاءة والخلق في العمل وفي التعاطي مع الآخرين، كما تجبر على القيام بعمل إنتاجي مرهق، للوصول إلى المراكز المتقدمة. من دون أن تتمكن من تحقيقه في بعض الأحيان، لصعوبته ولأنه فوق طاقتها[٥٧].

إتهم بعض المفكرين والباحثين المرأة، وأنحوا عليها باللائمة، لأنها المسؤولة عن المواقف السلبية، التي انجرفت إليها.

ورأت زاهية قدوره أن المرأة هي المسؤولة عن تخاذلها، لأنها تركت المجال لمن هم أدنى منها مركزاً، وأقل منها علماً ووعياً وثقافة، ليرمقوها بالسخرية وعدم المبالاة، ولا يعطوا أي قيمة لحياتها الاجتماعية والاقتصادية، وللدور الذي تلعبه في الحياة العامة. لأنها متمسكة بمظاهرها وشكلياتها وسلوكها الذي تفضله أن يتماشى مع طابع الحداثة والعصرنة

على ضوء ذلك، ولتوضيح مجمل هذه النقاط والعناوين، لا بد من استعراض تطور الحركة النسائية وفق الدراسة التي وضعتها زاهية قدوره، لتبيان المساهمات المختلفة التي خاضتها المرأة، ابتداء من مطلع القرن العشرين. وهي الحجر الأساس الذي بنيت عليه معظم مشاريع ومواقف الحركة النسائية، وأنشطتها المستقبلية. مما شكل مناسبة لإبراز فضل الرائدات الأوائل على أوضاع المرأة اليوم، والإشادة بما وصلت إليه من منعة ومكانة واحترام.

لم تستكن المرأة إلى مصيرها الذي أريد له أن يكون هامشياً، لأن الأعراف والتقاليد الحديثة أهلتها للمساهمة بحركة النهضة الحديثة، الثقافية والسياسية، مما دعاها للمساهمة بحياة مجتمعها، بحيث بات لها في المجتمع تأثير واضح، ولم تعد في الهامش منه.

وكان للمرأة في القرن السابع عشر تأثير مهم في حياة الأمراء المعنيين في لبنان، وفي تحديد مصائرهم السياسية. وذكرت المرويات؛ أن السيدة نسب والدة الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير[٥٨]، تمكنت بدرايتها السياسية التي اشتهرت بها، من

إقصاء والي دمشق حافظ باشا[٥٩] وإبعاده عن ديار المعنيين[٦٠]، وإعادة الاعتبار إلى أمراء الجبل في أثناء غياب الأمير فخر الدين في توسكانا[٦١].

ونقلت زاهية قدوره عن تلك المرويات، أن الأميرة حبوس أرسلان امتازت بالتماعة سياسية وبتألق نجمها في عهد أحمد باشا الجزار[٦٢]، وكانت ذات شخصية قوية وطموحة، لدرجة أنها طغت على شخصية والدها الأمير بشير الشهابي[٦٣] في بعض الأحيان، من دون أن تعطي قدوره دليلاً على ذلك، التي أضافت بأنها اشتهرت أكثر من شخصية زوجها الأمير عباس أرسلان. مما جعل والدها يعينها على إمارة الغرب بعد وفاة زوجها. فكانت لها السيادة والرئاسة على إمارة الشويفات، فضلاً عن مناطق عين عنوب وعرمون وبشامون وعين كسور، وغيرها من المزارع والقرى. وتولت الإمارة لمدة ثلاثين عاماً، إلى أن غضب عليها الأمير بشير بسبب انحيازها إلى خصمه الشيخ بشير جنبلاط[٦٤]، فولى الإمارة لولدها الأمير أحمد، فتخلت حبوس عن ممارسة السياسة وأقامت بقية عمرها في بشامون [٦٥].

وذكرت زاهية قدوره نقلاً عن بعض المصادر والمدونات التاريخية التي كانت تعود إليها، قيام بعض اللبنانيات بتولي مسؤولية عدد من الإقطاعيات ومشاركة أزواجهن في إدارتها. ومنهن زوجة الشيخ جفال الخازن، وأخته بدوانية، التي استلمت أمور منطقة الفروق في عين طوره. وكذلك أم منصور زوجة فضل الخازن التي وليت منطقة كسروان في عهد الأمير بشير الثاني، التي كان من حنكتها السياسية ودرايتها الجيدة للأمور، أن حالت دون دخول الجيش المصري إلى منطقة كسروان. ومنهن أيضاً جلول المرعب زوجة محمد المرعب التي استلمت حكم عكار، من قبل إبراهيم باشا المصري. ثم فاطمة الخليل الأسعد التي ساعدت زوجها علي الأسعد في حكم جبل عامل، وجعلت من قصره ملتقى العلماء والفقهاء وأهل الأدب. وقد أجمع هؤلاء على اختيارها قاضية لتفصل بين الناس، فكانت أول امرأة في ذلك الوقت تتولى إمرة القضاء.

ومع بداية حرب عام ١٨٦٠، برزت على مسرح الحركة النسائية، شخصيات أنثوية لعبت أدواراً مهمة على مسرح الحياة السياسية اللبنانية. منهن نايفة بشير جنبلاط زوجة الشيخ خليل شمس، التي نافست بقوة شخصيتها أمراء وادي التيم من آل شهاب، وجعلت من منزلها ملاذاً لحماية الخائفين من جور المتنفذين المستبدين.

وعندما توفي فؤاد جنبلاط سنة ١٩٢٢ عن عمر صغير [٦٦] عاشت منطقة

المختارة[٦٧] فترة من الوقت بدون شخص يدير أمورها. تولت السيدة نظيرة جنبلاط زعامة الأسرة الجنبلاطية [٦٨] طوال ما يزيد على العشرين عاماً، تمكنت في خلالها من درء أخطار كثيرة عن المنطقة. فقد تمكنت من منع الصدام بين الدروز والفرنسيين، عندما وصل لهيب الثورة السورية من حوران[٦٩] إلى الشوف عام ١٩٢٥. وأقنعت بحكمتها وقوة منطقها القائد الفرنسي بعدم التدخل في حياة شعبها، وتعهدت له بأخذ الأمور على عاتقها، وسعيها لإعادة الأمن إلى طبيعته. ولم تقف مهمتها عند النواحي السياسية، فقد عملت على معالجة مختلف الشؤون الاجتماعية، وحل جميع المنازعات الفردية والمحلية[٧٠].

كتبت زاهية قدوره كل هذه الوقائع متسلحة بالوعي الموضوعي للكتابة التاريخية عن النساء، اللواتي شاركن في صنع فترة مهمة من تاريخ لبنان. فرأت أن هذه المشاركة السياسية من قبل بعضهن، لم تعرف شكلها التنظيمي بصورة عامة، إلا في بيروت في حوالي الربع الأول من القرن العشرين، حين انطلقت المرأة معلنة أن الوعي السياسي بصورة خاصة؛ ليس وقفاً على الرجل دون المرأة، بل عليهما أن يتعاونا معاً في التخطيط للمستقبل عن علم ومعرفة.

مع اندلاع شرارة الحرب العالمية الأولى قامت في العهد التركي، مجموعة من السيدات بتأليف جمعية يقظة الفتاة العربية عام ١٩١٤، التي عرفت بغاياتها الثقافية، وكذلك السياسية، وفي طليعتها التخلص من استبداد الأتراك وظلمهم، إضافة إلى التحرر من أي سلطة أجنبية أخرى. وذكرت الكاتبة أنه بفضل هذا الوعي السياسي والشعور القومي، تمكنت المرأة اللبنانية من إعلان رأيها أمام لجنة كينغ – كراين[٧١] الأميركية التي وصلت إلى بيروت في سنة ١٩١٩، للإطلاع على أوضاع البلاد العربية عن كثب، والاستماع إلى مطالب زعمائها السياسيين. وذكرت أن السيدة إبتهاج قدوره قامت مع زمرة من زميلاتها والعاملات معها، ومنهم أمينة حمزة وليلى وعادلة بيهم وعنبرة سلام، بالسعي للقاء اللجنة الأميركية؛ حيث رفعن إلى اللجنة؛ مذكرة تتضمن المطالبة بتحقيق الاستقلال التام، وفيها احتجاج من سيدات لبنان على مشروع وعد بلفور[٧٢] والإستنكار الشديد لإنشاء دولة يهودية في فلسطين[٧٣].

بنتيجة الأحداث السياسية المتتابعة، والصدى الذي أحدثته مجيء لجنة كينغ – كراين إلى بيروت وبعض المدن اللبنانية الأخرى. أنشأت سيدات الحركة النسائية آنذاك، تجمعات ومنتديات نسائية، للقيام بأنشطة مختلفة، الغاية منها تحسين وضع المرأة. إلا

أن هذا الأمر، لم يحجب الصورة الحقيقية التي ظهرت فيما بعد، ومنها أن تحرير المرأة في مسيرة لبنان الحديث، لم يكن نتيجة ممارسات نسائية صرفة، رغم الجهود الكثيرة التي بذلتها بعض رائدات الحركة النسائية الأوائل. إنما يعود سببه الأساسي إلى تضافر جهود الرائدات مع عناصر أخرى، كالكتاب النهضويين والرواد منهم بخاصة، أمثال قاسم أمين[٧٤]، ومحمد جميل بيهم، والمعلم بطرس البستاني، وجرجي باز[٧٥]، وغيرهم. لم يكن ليحصل ذلك، لولا قابلية البلاد العربية المتلهفة على الأخذ بأسباب الحضارة المختلفة[٧٦].

وفي هذا المجال، اعتبرت إبتهاج قدوره[٧٧]، من العاملات النشيطات في الحركة الوطنية والنسائية في بيروت، منذ مطلع القرن العشرين. ركزت عملها على تطوير المرأة البيروتية ليعم على كل لبنان. وأسست في سنة ١٩٢٤ جمعية النهضة النسائية، التي قامت ببعض الأنشطة السياسية والاجتماعية، وساندها في ذلك، عدد من السيدات أمثال: نجلاء كفوري، وسلمى صائغ، وجوليا طعمة دمشقية، اللواتي دعون لتكاتف اليد العاملة على دعم اقتصاديات البلاد، وتشجيع المرأة والفتاة اللبنانية للإقبال على تعلم اللغة العربية، وإعتمادها ركناً أساسياً من مواد الدراسة، بصورة عامة. كما دعت إبتهاج قدوره، وجمعية النهضة النسائية لتدريس طلاب المدارس الحكومية والخاصة، مادة تاريخ العرب. إلا أن هذه الأنشطة لم تمنعها من إعطاء عنايتها للمطالب المتعلقة بحقوق المرأة السياسية، التي رفعتها إلى المسؤولين والمراجع الحكومية للعمل على تحقيقها[٧٨].

وكانت معاهدة ١٩٣٦ بين لبنان وفرنسا فرصة مناسبة للمرأة، تمكنت فيها من الحصول على اعتراف الحكومة اللبنانية، بضمانة حقوقها المدنية والسياسية، مثلها كمثل جميع اللبنانيين من دون أي تمييز بينهم. ولأن الواقع كان على غير ذلك، فقد قامت إبتهاج قدوره رئيسة الاتحاد النسائي اللبناني العربي بسؤال رئيس الجمهورية أميل اده عن الجهة الضامنة لتطبيق هذه الحقوق والأعراف، ومقدار استفادة المرأة اللبنانية منها، وحجم الإعتراف الذي يساوي بينها وبين الرجل في التطبيق الكامل للحقوق المدنية والسياسية؟. فكان جوابه: إن الحكومة اللبنانية تولي عنايتها لمستقبل المرأة، وتكفل ضمانة الدستور اللبناني لهذا الحق، غير أن قانون الانتخاب، حصر الحقوق السياسية بالذكور من دون الإناث، في ذلك الوقت.

كانت معركة الاستقلال فرصة مناسبة أثبتت فيها المرأة اللبنانية جدارتها في

المواقف الوطنية، من خلال مشاركتها في التظاهرات التي كانت تقوم للمطالبة بالإفراج عن الزعماء السياسيين الذين اعتقلوا في بشامون. وشارك فيها كل من السيدات: افلين بسترس، وإبتهاج قدوره، ولور ثابت، ونجلاء صعب، ونجلا كفوري، ونازك بيهم، وهناء نجار، وآنا ثابت، ورينيه تقلا ووالدتها، وغيرهن الكثيرات[٧٩].

لم يقتصر هذا النشاط للمرأة اللبنانية على القضايا الداخلية، بل تعداه إلى القضايا العربية، وقد استحوذت قضية فلسطين على حيز كبير من اهتمامها، وأقامت لها أنشطة متعددة ومارست ضغوطاً مختلفة لدعمها، وشاركت في المؤتمرات والتحركات التي قامت لدعم هذه القضية.

وذكرت زاهية قدوره، أن إبتهاج قدوره رئيسة الاتحاد النسائي اللبناني العربي بعثت بتاريخ ٢٦ أيار/مايو سنة ١٩٣٨، احتجاجاً شديد اللهجة، إلى المندوب السامي البريطاني في فلسطين بواسطة القنصل الإنجليزي في بيروت، للتعبير عن سخط المرأة اللبنانية، على المظالم التي ارتكبتها القوات الإنجليزية ضد الشعب الفلسطيني. وطلبت من هدى شعراوي زعيمة الحركة النسائية المصرية، ورئيسة الاتحاد النسائي العربي المصري، الدفاع عن قضية فلسطين، باسم الاتحادين.

وقالت: إنه بناء على ذلك دعت هدى شعراوي، لعقد أول مؤتمر عربي لنساء الشرق، في مصر خلال شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٣٨، تم التداول فيه بموضوع القضية الفلسطينية. تكلمت في المؤتمر عضوات من الاتحاد النسائي اللبناني العربي، كنازك العابد بيهم، وافلين بسترس، ونجلاء كفوري، اللواتي طالبن بتأسيس فروع مركزية للاتحاد النسائي في كل قطر عربي، وطرحت فكرة تشكيل اتحاد نسائي عربي عام، يكون مدعماً لكل الحركات الذكورية من أجل فلسطين. وقد قام في القدس ودمشق وبيروت وبغداد والقاهرة، جمعيات عملت على تحقيق توجهات الاتحادين، وترجمة توصيات مؤتمر القاهرة[٨٠].

وفي عام ١٩٤٤ عقد مؤتمر ثان في القاهرة للبحث في القضية الفلسطينية، شاركت فيه رئيسة الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني وديعة قدوره خرطبيل، إلى جانب روز شحفة التي ترأست الوفد اللبناني، المؤلف من: حنينة طرشا، نجلاء صعب، إقبال ذوق، شفيقة سلام، نجلاء كفوري، حبيبة يكن، زاهية سلمان، وجمال كرم حرفوش، فضلاً عن زاهية قدوره، التي كانت تتابع دراستها في مصر. وألقت رئيسة الاتحاد

الفلسطيني وديعة قدوره خرطبيل كلمة، نبهت فيها المجتمع العربي إلى ضرورة الحذر واليقظة من ضياع الأرض[٨١] .

إلا أن هذا النشاط لم يستمر على ذات الوتيرة من الحماسة والنشاط، بسبب انقسام الاتحاد النسائي العربي اللبناني على نفسه، وانفصال بعض الجمعيات عنه لأسباب مختلفة، ما لبثت أن تكتلت في مجمع التضامن النسائي اللبناني وترأسته لور تابت.

وأشيع أن تفكك الاتحاد النسائي العربي اللبناني كان بسبب الوضع السياسي، ونتيجة للتباعد بين تيارات سياسية، سيطرت عليها انقسامات موسومة بطابع طائفي، لم تفلح معها الاجتماعات التي عقدت لتقريب وجهات النظر، وتوحيد الرؤية إلى لبنان المرتجى[٨٢].

في مقابل هذا النشاط السياسي، كان للمرأة نشاطات أخرى. فقد دعت إبتهاج قدوره رئيسة الاتحاد النسائي اللبناني العربي بمناسبة عيد الاستقلال عام ١٩٤٧ إلى توحيد الأهداف لصيانة لبنان. وكررت تصميم المرأة بالحصول على حق الانتخاب. معيدة إلى الأذهان، المطالب التي سبق وتقدمت بها إلى المجلس النيابي[٨٣]. وظهر فيما بعد، أنه كان لتحرك المرأة؛ والنضال الذي قامت به للحصول على حقوقها المشروعة، أن اعتبر لبنان في مقدمة الدول التي أقدمت على منح المرأة كامل حقوقها.

ومن نشاطات الحركة النسائية في تلك الفترة أيضاً، وأشارت إليها زاهية قدوره في معرض تأريخها لنشاط المرأة اللبنانية في مطلع القرن العشرين، الاجتماعات التي عقدتها سيدات الأنشطة النسائية في بيروت، ومنها اجتماع في شهر نيسان / أبريل عام ١٩٥٠ لتوحيد جهود المرأة، حيث نشأت اللجنة التنفيذية للهيئات النسائية في لبنان، تألفت من: إبتهاج قدوره، ولور تابت، وألين ريحان، ونجلاء صعب، ولور مغيزل، وإميلي فارس إبراهيم، ونجلاء كفوري، وأنيسة نجار، وحنينة طرشا، وجمال حرفوش، وسلوى نصار[٨٤].

واتفقت هذه النخبة من السيدات، مع عدد من الشخصيات بالدعوة لعقد اجتماع نسائي للمطالبة بتعديل قانون الانتخابات، والاعتراف بحق المرأة في ممارسة حقوقها السياسية. وأشارت زاهية قدوره إلى تعدد هذه المواقف المؤيدة لإعطاء المرأة كامل حقوقها السياسية والاجتماعية، وتواصل الأنشطة في هذا الاتجاه التي تم الاتفاق خلالها على أن يوكل إلى زوجة رئيس الجمهورية، زلفا شمعون ترؤس جلسة الاجتماع النسائي الموسع، لمتابعة السعي للحصول على حقوق المرأة كاملة.

وفي أول حكومة تشكلت بعد هذه الأحداث، وكانت برئاسة عبد الله إليافي[٨٥]،

تضمن البيان الوزاري وعداً بحصول المرأة على حقوقها السياسية كاملة، وحقها في التصويت والترشيح للانتخابات النيابية.

وتم الاعتراف بحق المرأة بالانتخاب، في انتخابات عام ١٩٥٣، وانتخبت إبتهاج قدوره، ولور تابت، وألين ريحان عضوات في المجلس البلدي آنذاك.

وفي عام ١٩٥٧ ترشحت للانتخابات، كل من لور تابت عن بيروت، وجمال كرم حرفوش عن جزين، وماغي الأشقر عن المتن، وأميلي فارس إبراهيم عن البقاع، لم يكتب النجاح فيها لأي واحدة منهن. وفي الانتخابات النيابية التي تلت، في أوائل الستينات، ترشحت فيها فريدة الصلح عن بيروت، من دون أن يحالفها النجاح في ثلاث دورات متتالية. وترشحت لعضوية المجلس النيابي في انتخابات عام ١٩٦٣ نهاد سعيد، مرشحة الكتلة الدستورية في منطقة جبيل، ولم تفز فيها أيضاً.

بينما كان حظ بعض النساء أفضل ممن سبقهن، في الانتخابات البلدية والمختارية التي حصلت بعد عام ١٩٦٣ بوقت قصير، وتبوأت بعضهن عدداً من المراكز، كرئيسة بلدية أو مختارة. إلا أنه كان على المرأة، أن تنظر حتى العام ١٩٩٢ عندما فازت بعضهن بمناصب دائمة وبكراسٍ ثابتة في مجلس نواب ذلك العام، وفي عضوية المجالس التي أتت بعده.

إن رغبة المرأة في المساواة مع الرجل، ومنافسته في معظم المناصب الذكورية، ذو دلالة على أهمية الدور الذي تسهم به في المجتمع.

٦ ـ آثار أنثوية للحركة النسائية في بيروت

كانت الحكومة اللبنانية قد رشحت عام ١٩٥٩ زاهية قدوره، لتولي منصب مستشار ثقافي في جامعة الدول العربية، إلا أن هذا الأمر لم يحصل، لرفض ممثل المملكة العربية السعودية ودولة اليمن، إسناد هذا المنصب إلى امرأة[٨٦].

الغاية من ذلك، الإشارة إلى أنه ليس من المستغرب أن ترشح الحكومة اللبنانية إمرأة لهذا المنصب، وتسعى لدعمها ووصولها إلى تبوء هذه الوظيفة، التي كادت أن تبلغها لولا بعض الأفكار المتمسكة بإبقاء المرأة وراء حجبها وأستارها المتخلفة. لا عجب في ذلك، وزاهية قدوره ربيبة خلفية تربوية - ثقافية وسياسية واجتماعية، استقتها من والدها ووالدتها وعمتها، التي لم تكن بالنسبة إليها مجرد شقيقة والد تحبها لمجرد النسب والقرابة، وتشدها إليها نوازع العاطفة وطاعة الولاء العائلي. فالعلاقة بينهما

تخطت العلاقات التقليدية العائلية، كانت شبيهة بالعلاقة بين الأستاذ وتلميذه، يأخذ عنه ويدرس عليه ويتعلم منه علماً وفيراً وأدباً وثقافة جمة، فضلاً عما يكون قد اكتسبه من ذوق ولياقة، وتحلٍّ بالآداب العامة. وهو ما كان عليه حالها عندما اكتسبت من عمتها أشياء كثيرة، كانت من السمات التي برزت في ممارساتها الإنسانية والاجتماعية.

جمعت الظروف بينهما من خلال نشاطهما المشترك سواء في عملهما للحركة النسائية أو في الناحية الاجتماعية اللبنانية. ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه لبنان يفتقر إلى وجود زعيمة نسائية، تملك القدرة والعزيمة على قيادة المرأة، وتوجيهها لتحقيق ذاتها وترشيد وجودها وكيانها. نهضت إبتهاج قدوره لتسلم زمام الزعامة التي راحت تتسلقها بحكمة وموضوعية، ومراعاة دقيقة لظروف المجتمع الشرقي في ذلك الوقت، مع الإشارة إلى أن دور ابنة شقيقها، لم يكن قد حان أوانه بعد في حياتها.

إلا أنه لم يمض وقت طويل، حتى انطلقت زاهية قدوره لمواكبة تحركات عمتها والانخراط في صفوف مؤيديها التي سرعان ما احتضنتها، عندما شعرت بصدق توجهاتها، وحسن إدراكها لوقائع الأمور. وبعد أن لمست لديها وعياً لرسالتها الاجتماعية والنسائية، واستعدادها للمساعدة على قيام حركة نهضوية نسائية في الشرق، تكون غايتها تعليم الفتاة بصورة عامة، ومشاركة المرأة في الحياة العامة بصورة خاصة، وفي جانبها الاجتماعي على وجه الاجمال.

ولما كانت زاهية قدوره قد شعرت بأن عمتها نهضت للقيام بأعباء رسالة هامة من أجل المرأة، وبدعوتها، للتكاتف والانخراط في الجمعيات النسائية التي أقامتها في بيروت، والمساهمة في تعليم الفتيات ومساعدة اللواتي لم ينلن نصيباً منه[٨٧].

وكان الدافع لذلك، بسبب تخلف المرأة وجهلها، بالأفكار والتيارات التي نادت بمنع تعليمها، وتجهيلها لأمور دينها، وعدم توعيتها على الأوضاع الاجتماعية السيئة التي تحيط بها. وبسبب مرافقة عمتها في معظم تحركاتها. فقد صارت على معرفة بمعظم أهدافها، كالعمل النسائي الذي كان غاية ابتهاج قدوره منه؛ دعم الآراء المطالبة بتعليم المرأة وتثقيفها وتربيتها، على أمور دينها ودنياها، والعمل على تطويرها وتحريرها وتوعيتها[٨٨]. مما جعلها تقوم بتحركات مكثفة لتحقيق هذه النقاط. كما قامت بالسعي الدؤوب لرؤية بنات جنسها يبلغن أقصى درجات العلم والثقافة. وكان لها في بنات شقيقها مصطفى القدوة، بعد أن بلغن من العلم درجات متقدمة[٨٩].

وفي الأبحاث والدراسات، التي دعت فيها زاهية قدوره إلى إقبال المرأة على التعلم، والأخذ بنواصي التطور والتقدم في مختلف المرافق الحياتية، سواء الاجتماعية والثقافية أو التربوية، وهي ذات المنطلقات التي عملت لها ابتهاج قدوره. وحملت المشعل من بعدها كثيرات من نخب الحركات النسائية اللبنانية، اللواتي تقدمن لإكمال المسيرة، كل واحدة في مجالها.

ذكرت زاهية قدوره، أن الدعوة التي وجهتها عمتها لطلب العلم، أرادت تعميمها على كل الفتيات المتعلمات وغيرهن، لتصل المعرفة إلى كل امرأة وفتاة من مختلف طبقات المجتمع. وعثر في أرشيف زاهية قدوره على كتب عدة متبادلة بينها وبين عمتها. ومنها واحداً طلبت فيه ابتهاج قدوره من ابنة شقيقها، وضع كتيب صغير يخصص لتعريف الأولاد على أهم الوصايا والتوجهات التي وضعها النبي للمسلمين، ومنها وصيته بتعليم الأولاد. ويلاحظ من رسالة ابتهاج قدوره، رغبة ملحة في الطلب بضرورة وضع الكتيب، ومما جاء فيها: « إن كتاباً كهذا ينقصنا كثيراً ومن الضروري جداً أن يتعرف الطفل في دروسه إلى النبي طفلاً، قبل أن يتعرف إليه كبيراً، فيشب على فهمه ومعرفته وتقديره ومحبته وتعظيمه» [٩٠].

اعطت زاهية قدوره للقضية الدينية في تعليم المرأة على أمور دينها بعدها الموضوعي في المجتمعات الإنسانية المتحضرة. وشددت في توجيهاتها على نهوض المتعلمة منها، بدورها في تربية أطفالها وأولادها دينياً وتربوياً.

ورأت في تسلم ابتهاج قدوره لقيادة مسيرة الحركة النسائية، عملاً إنسانياً ابتغت منه خدمة المجتمع اللبناني والعربي والإسلامي على حد سواء. ولم يقتصر هذا الدور على المرأة وحدها، إنما تعداه إلى الرجال والشيوخ، لأنها أرادت تعميمه على مختلف طبقات المجتمع. فكان نجاح إبتهاج قدوره في عملها عائداً إلى أنها جعلت من القضية الاجتماعية محور اهتمامها. ويقال أنها لم تكتف بذلك، بل قامت بمراقبة تصرفات السياسيين، وخصوصاً في أثناء عضويتهم في المجلس النيابي، حيث لم تكن تتوانى عن توجيه الملاحظات إليهم عندما يقصرون في ناحية من النواحي[٩١].

لاقت دعوة ابتهاج قدوره لتعليم المرأة، والعمل على تطوير شخصيتها وتنمية إنسانيتها، الصدى الجيد بين الذكور كما بين النساء، مما أكسبها بعداً اجتماعياً. كما لقيت كل الدعم والمساندة من النخب الثقافية والتربوية. يعزز هذه المزاعم ما قالته في إحدى

أوراقها: « منذ طفولتي وأنا أحب المعرفة، وأتحسس أهمية العلم الذي بدونه لا تكون المعرفة الصحيحة. وعندما يبقى الطموح نصب عين الإنسان يبقى في سباق مع الزمن لكسب المزيد من العلم والثقافة. وأرى أن الإنسان عندما يكون إنساناً طبيعياً ويوجه التوجيه السليم، لا بد أن يختار طريقاً للوصول إلى غايته في حياته. وعندما يختار الطريق ويقرر السير عليه، ومهما كان طويلاً وشاقاً لا بد أن يصل يوماً» [٩٢].

ومن الأعمال الاجتماعية الأخرى التي سعت ابتهاج قدوره لتحقيقها، قيام العلاقات الأسرية المتينة، وتوثيق أواصر المحبة والصداقة بين أفراد العائلة الواحدة. فقد دفعت الأعمال الاجتماعية والخيرية التي تمكنت من تحقيقها، بابنة شقيقها لانتهاج نفس الطريق في تقديم الخدمات الاجتماعية والقيام بالأعمال الخيرية المختلفة. وقد ظهرت سمات ذلك بالأعمال التي تميزت بها زاهية قدوره وسيطرت على حركتها العامة فيما بعد، وواكبت مسيرتها الفكرية والتربوية - الثقافية والاجتماعية، لفترة طويلة من الوقت. وجاء تعيينها رئيسة للجنة النسائية لصندوق الزكاة التابع لدار الفتوى، خير مثال على تحقيق جزء بسيط من الأعمال الخيرية التي كانت تحب تأديتها[٩٣].

من نافلة القول الحديث عن الثقة المتبادلة بين ابتهاج وزاهية قدوره، التي دلت عليها مجموعة الرسائل المتبادلة بينهما، التي كانت تطلعها فيها على كل الأعمال التي كانت تقوم بها. فمن الثقة التي محضتها إبتهاج لزاهية قدوره؛ أن انتدبتها لتمثيلها في عدد من المهرجانات والمؤتمرات النسائية اللبنانية والعربية، عندما كانت أعمال إبتهاج أو حالتها الصحية، تحول دون تمكنها من حضور تلك المناسبات. كما كانت تكلفها ببعض المهام الشخصية وإجراء بعض الأعمال والاتصالات نيابة عنها[٩٤].

تميزت علاقتها بعمتها عن باقي أولاد أشقائها، الذين كانت تجهد في أن تكون علاقتها بهم على درجة متساوية، وعلى قدر كل منهم وعلى مستوى قربهم منها. فلم تكن تفرق في عاطفتها معهم ومحبتها تجاههم، أو تقيم أي تفاوت بينهم. إلا أن العلاقة العملانية التي ربطتها بزاهية، أفسحت لها في المجال أن تكون قريبة منها ومن نهجها، ومن مسيرة حياتها، لدرجة أنها أخذت عنها طرقاً عديدة في الأسلوب والممارسة النسوية والاجتماعية. فاكتسبت منها شجاعتها وجرأتها؛ مما مكنها من مواجهة المعضلات السياسية والاجتماعية التي اعترضتها، في بعض محطات مسيرتها، وخصوصاً في الجامعة اللبنانية[٩٥].

ويبدو أن العلاقة مع عمتها عرفت بتمايزها نتيجة لعوامل وأسباب مختلفة.
أشارت زاهية قدوره إلى بعضها، فقالت: « الحديث عن إبتهاج قدوره يحتاجني إلى مجلدات، لأن إبتهاج قدوره كانت مؤسسة قائمة بذاتها، أما إذا أردتني أن ألخص مآثرها وأعمالها البيضاء في هذا اللقاء الصحافي العجول، فإنني أقول أن ابتهاج رحمها الله، كانت زعيمة النهضة النسائية في لبنان والعالم العربي، لقد حملت هذه الرائدة علم العالم ونادت بوجوب تعليم الأنثى وتوعيتها.. ومن هذه النقطة شدتني إبتهاج قدوره إليها بكل قوة، متحررة من نوازع العاطفة والعائلة. كما أن وضع ثقتها الكبيرة في شخصي، أعطاني قوة معنوية، جعلتني لا أرضى أن أكون في هامش الحركة النسائية، بل في قلبها وفي محركها»[٩٦].

كما وصفت نضالها وكفاحها الطويل في سبيل المرأة، والذي ظهر تأثرها به واضحاً في مسيرتها النسائية والاجتماعية، فقالت: «ناضلت إبتهاج في سبيل نيل المرأة اللبنانية حقوقها السياسية والمدنية؛ إيماناً منها بقدرتها في المساهمة إلى جانب الرجل، في النضال القومي. كما رأت في الجمهورية الديموقراطية اسماً فقط، ما لم يتمتع به الجنسان على قدم المساواة في الحقوق السياسية. ومن نشاطاتها تلك الوثيقة التاريخية التي قدمتها إلى رئيس الجمهورية عام ١٩٣٦ بوصفها رئيسة للاتحاد النسائي في لبنان، والتي فاقت في مضمونها كل الوثائق الأخرى التي قدمت بصدد الحقوق السياسية للمرأة. وواصلت النضال، وأقامت الاجتماعات، وقادت إحدى التظاهرات إلى المجلس النيابي، كل ذلك في سبيل حقوق المرأة الانتخابية والتمثيلية».

٧ - أنشطة زاهية قدوره الأنثوية

يعتبر تحرك زاهية قدوره النسوي، أقل نسبياً عن أنشطتها التربوية - الثقافية والسياسية والاجتماعية، إلا أنها وبالرغم من صفة القلة التي وسمت بها في عملها تجاه المرأة، لم تكن قليلة الحركة والنشاط كما كان يظن، لأنها وصفت في إحدى المناسبات، بأنها لم تكن لولب الحركة النسائية فقط، بل كانت لولب الحركة الرجالية أيضاً[٩٧].

ويغلب الاعتقاد أن جزءاً كبيراً من نشاطها الاجتماعي، تمحور حول وحدة الحركة النسائية، حتى نجحت بإرساء القواعد الصحيحة لمساهمة المرأة في خدمة النهضة القومية، وقد اتخذت من منزلها مركزاً لاستقبال زميلاتها الناشطات للعمل سوية في هذا الحقل.

ومن تلك القواعد، تشجيع المرأة وترشيدها على القيام بدورها الذي أعدها له الإسلام، إنطلاقاً من المكانة التي أعطاها لها، وأهمية الدعوة لتعليمها. وكان يصعب الوصول إلى هذه القيم من دون التربية السليمة الصادقة والواعية، المترافقة مع الخطط الموضوعية لعملية السير بالفتاة نحو مستقبلها الجيد. ولكن التربية وحدها لا تكفي، ما لم يرافقها العلم والجرأة والنضوج، وتفهم المرأة لنفسية الرجل الذي ارتضته شريكاً لها في حياتها، للوصول إلى أفضل المراكز والمناصب التي تليق بهما[٩٨].

وكانت زاهية قدوره ترى في المرأة اللبنانية كثيراً من عناصر الذكاء، والتجمل بالثقافة، من دون الإلمام بكل مقوماتها وركائزها القوية والسليمة. وكانت تعتقد أن «هذه اللبنانية كانت الأولى في العالم من حيث العلم ومواكبة الحضارات».

طلبت من المرأة أن تتحسس مسؤولياتها الاجتماعية، ليس عن طريق الزيارات والواجبات العائلية، أو تأدية وظيفتها والعودة إلى منزلها بعد انتهاء عملها. المسؤولية الاجتماعية هي غير ذلك؛ لأن المرأة مسؤولة كالرجل تماماً، مسؤولة عن عطائها في أي ميدان كان، ابتداء من عطاء الأمومة إلى الوظيفة التي تشغلها مهما كانت متواضعة. وعليها أن تتفانى في ما تعطيه، وتثبت جدارتها في الحقل الذي تعمل فيه. ولذلك يستحب أن لا تمارس أي عمل لا تجد في نفسها القدرة والكفاءة على العطاء فيه؛ لأن العطاء مهما كان نوعه، يجب أن يمنح بإخلاص وقناعة وكفاءة[٩٩].

تلك كانت نظرة زاهية قدوره إلى المرأة، التي اعتبرتها امتداداً لامرأة الأمس ومتواصلة مع امرأة المستقبل. فالمرأة التي كتبت عنها، تمثل بذرة العطاء، لأن عطاءها يختلف عن غيرها من المخلوقات. فأي دور أجمل من قيام المرأة بإعطاء كل ما عندها من علم وفكر وأدب، وحس وذوق وفن وإخلاص وجهاد ونضال، وفوق هذا وذاك. إن أجمل عطاء لديها هو عطاء الأمومة.

هذا وتجدر ملاحظة الدور التي كان على الحركة النسائية اللبنانية القيام به، من خلال الدعوة لتحرر المرأة وتحرير الوطن. وأشيع أن هذه المبادئ، تصلح لهذا الزمان ولكل زمان، يعتمد الفكر النير والمبادئ الإنسانية المحقة.

كانت زاهية قدوره من الأشخاص الذين تآلفوا مع فكر عصر النهضة، وانسجموا مع انفتاحه على الحداثة والاستقلال الوطني وحقوق الإنسان. فكانت مترجمة جريئة لطروحات عصر النهضة وفكر رواده، على استقلالية ذاتية تعبر عن قوة الفكر الثقافي

الذي اعتنقت، واستعداد فطري للقيام بدور الشخصية المتساوية في كل ما كانت تقوم به من أعمال، وفي كل ما كانت تقدم من طروحات[١٠٠].

قيل عنها إنها كانت مجموعة نساء في امرأة واحدة، عاشت حياتها وأعطت الكثير من أجل بناء لبنان والمرأة فيه. فكان عطاؤها امتداداً لعطاء عائلتها صاحبة التاريخ الحافل بالتقديمات والمساعدات الاجتماعية، إضافة إلى المواقف الإنسانية والأدبية والوطنية والسياسية.

ولكن أين المرأة اليوم من ذلك كله؟

عملت بعض المجتمعات على تهديم شخصية المرأة وكيانها، للقضاء على وجودها، سواء بالأعمال أو الممارسات الخاطئة التي ارتكبتها بحقها أو باسمها، عن طريق استغلالها واستهلاكها كسلعة رخيصة القيمة والجودة والسعر. حافظ الإسلام بنظمه وتعاليمه على مكانة المرأة، ومنحها ما كانت تطمح إليه من حقوق. إلا أنها لم تعرف كيف تحافظ على هذه المكتسبات، فالإسلام امتاز بالريادة في هذه الناحية، إلا أن التخلف جاء عن طريق العقل البشري[١٠١].

رمت زاهية قدوره باللائمة على المرأة واتهمتها بالتقصير، وذلك بقولها: «إنها لا تتمسك بحقوقها، فيأكلها أصحاب السلطة والنفوذ من الرجال، وعليها أن تكون مثالية ومحافظة على المثل الأخلاقية، ويكون لها قرار وشخصية، وأن تعرف حقوقها وتتمسك بها، ولا ترضى عنها بديلاً أو حتى المناقشة فيها»[١٠٢].

ثم ردت على ذلك، بأن المرأة ليست هي التي عملت على تقييد نفسها وتكبيل حياتها بالقيود والأغلال. إن المسؤول عن ذلك هو الرجل، الذي استحوذ على جميع مسببات حركة النهضة، حتى تمكن من إقامة هوة سحيقة ومسافة شاسعة بينه وبين المرأة، ليستفيد من حجم الحرية التي أباحها لنفسه ومنعها عن المرأة؛ مما جعله يستأثر بالسيطرة على أغلب مقدرات العالم ويحتكرها لنفسه، مع حرصه على منعها من الحصول على حريتها الكاملة، وإبقائها مقيدة في أغلالها، أسيرة في سجونها وداخل أسوارها، بحيث يعتبر هو المساهم الأول والأخير في دفع المرأة إلى دياجير الجهل والتخلف.

عند قراءة هذه الأفكار يلاحظ أنها كانت تختزن في ثنايا جملها، وبين قوافي تعبيراتها، كثيراً من معاني النضال التي خاضتها المرأة اللبنانية لتحقيق الشعارات

والعناوين التي قامت من أجلها الحركة النسائية اللبنانية والعربية. ثم انصرفت الدكتورة بعد ذلك، لدعم قضايا التحرر والتحرير، وفي طليعتها تحرر المرأة التي كانت مدانة في النظام الأبوي، ومعزولة فيما سمي بعصر الحريم، فضلاً عن تحرير الوطن من عقده الاجتماعية، ونظمه البالية، وتراجعه إلى دياجير الجهل والتخلف؛ ولذلك هبت مع غيرها وبدافع من إحساسها الأنثوي وشعورها الإنساني، لبذل المستحيل لإنقاذ المرأة مما دُفعت إليه دفعاً عن نية مبيتة وقصد أكيد، تدعوها إلى الثورة على قيودها التي كبلتها بها التقاليد الموروثة والممارسات الخاطئة. كما راحت تحثها على التزود من حياض العلم والمعرفة، حتى تتمكن من معالجة أمورها على بصيرة من العلم والفهم والوعي التام.

ثابرت زاهية قدوره على دعواتها حتى تنبهت المرأة من غفوتها، ودب الوعي في نفسها، وعرفت منزلتها، فتطلعت إلى مصادر الثقافة في بلادها وفي الخارج. برزت أمامها مجموعة من النساء المجليات، اللواتي كانت لهن مساهمات فضلى في حركة تحررها، فأسماء مي زيادة وسلمى صائغ وهدى شعراوي وماري عجمي من سوريا، وزينب فواز وابتهاج قدوره وزاهية أيوب وزاهية سلمان وأميلي فارس إبراهيم، وغيرهن الكثيرات، كنّ جميعهن مراجع صادقة عن نشاط المرأة في مختلف المراحل والعهود[١٠٣].

وتدين المرأة بصورة عامة لزاهية قدوره، في إسهاماتها المتواصلة بالعمل على تآلف الحركة النسائية العربية المستقلة في مناخ وطني ديموقراطي وحدوي، إذ تمكنت مع غيرها من بلورة المطالب النسائية في مؤتمرات عقدت بين بيروت ودمشق والقاهرة وبغداد والأردن وتونس، وتميزت المطالب التي رفعت فيها، بطابعها النسائي والوطني.

طرحت مثلاً، مسألة التعاون والتنسيق العربيين، ومسألة تعديل قانون الأحوال الشخصية بما يتلاءم مع عدالة أحكام الشرع الإسلامي. واستحوذت فكرة إشراك المرأة في الحياة العامة، على حيز مهم من تفكير المصلحين الاجتماعيين، والمشرعين السياسيين والقانونيين، فضلاً عن نيلها الحقوق السياسية، والإشتراك في المجالس الحكومية والنقابية والبلدية والثقافية والبعثات الدبلوماسية[١٠٤].

ولا بد أن يتساءل المرء أخيراً، في خضم العمل الذي قامت به زاهية قدوره،

مع رفيقاتها في الحركة النسائية اللبنانية والعربية، أين تقف الحركة النسائية العربية اليوم؟

إن ذلك يحتاج إلى شروحات وتفسيرات طويلة للاطلاع على المناخ الوطني الذي يسود دنيا العرب في هذه المرحلة، وما يحيط بها من غيوم وأوهام. وبالرغم من هذا، فإن حركة تحرر المرأة، كما وصفتها الرائدات الأوائل؛ يجب أن تبقى في تواصل دائم، لمواجهة التحديات، التي تفرضها الأوضاع المستجدة، ومواصلة النضال على مختلف المستويات.

وأكدت في هذا المجال، أن المدنية الإنسانية قائمة على التعاون بين المرأة والرجل منذ الأزل، وهما صانعا التاريخ وبناة المستقبل، والجميع يصلح بصلاحهما، ويفسد بفسادهما. فالمرأة والرجل صنوان، لكل منهما خصائص مميزة تعبر عن شخصيته الخاصة، إنما يظل هذا التعاون والتكامل الأساس في قيام المجتمع وتحديد مساره[١٠٥].

وتقتضي الإشارة إلى أن زاهية قدوره، شددت في طروحاتها المتعلقة بالمرأة؛ على أنه إذا كان البيت هو المجال الذي تلعب فيه المرأة دورها في تنظيم حياة أفراد الأسرة، وتتحقق فيه شخصيتها؛ فإن الرجل من هذه الناحية مدعو إلى بذل أقصى طاقات التعاون مع المرأة، لبناء أسرة واعية وناضجة وموحدة، يكون لها فيه كامل وجودها وكيانها، في مجتمع متكامل ومنفتح ومتطور[١٠٦].

وذكرت، أن دور المرأة في المجتمع كدور الرجل تماماً. المرأة الواعية والمدركة المتمكنة من ثقافتها وتعليمها، هي كالرجل الواعي والمدرك لثقافته وتعليمه. مدعوة أكثر من غيرها بأن تلعب دورها في تنمية وتطوير المجتمع، والشعور بالمسؤولية العامة، وعدم التخلي عنها والنظر بعين الجد إلى دورها فيه، الذي هو بأمس الحاجة إلى جهود مواطنيه. فالجامعية لم تعد عضواً عادياً في مجتمعها، تعيش على هامش الحياة، بل أصبحت مع التبدلات الاجتماعية والتعليمية، والتحولات السياسية والاقتصادية التي وصلت إليها المجتمعات المتحضرة، عاملاً فعالاً لها أثر كبير، دخلت ميادين العمل كلها، وهي كالرجل تماماً، منها من نجح ومنها من فشل[١٠٧].

وطرحت قدوره في الدراسات التي وضعتها، تساؤلات كثيرة ومختلفة. منها على سبيل المثال: هل السبيل إلى اكتشاف شخصية المرأة وعقلها وإيمانها يتمثل في

النصوص الدينية أو في دراسة عناصرها الشخصية والذاتية، من خلال حركة وجودها في الواقع الحي، وفي مستوى انفتاحها على الآفاق العلمية، من حيث عمق الفكر وسعته؟ أو من خلال رؤيتها لطبيعة الأشياء التي تحصل من حولها؟ مما يعني ضرورة تمتعها بسلامة الرأي وصدق النظرة إلى وقائع الأمور؟ أو من خلال قدرتها على مواجهة التحديات في الصراعات الفكرية الدائرة من حولها؟ أو في تمكنها من مواجهة المشاكل الواقعية التي تعترضها، والناتجة عن تطور البشرية وتقدمها؟

وقد نهضت لمعالجة هذه الأمور لتظهر مدى تأثيرها في حياة المرأة. وكانت قد استقت مجمل الأسئلة المطروحة، من تجاربها وممارساتها، ومن العلاقات الفكرية والاجتماعية التي نسجتها، والانطباعات التي كونتها عن الأنثى، وصرفت في سبيلها ردحاً طويلاً من حياتها تعمل لها، وتبحث حولها، وتمهد أمامها مختلف السبل الناجعة للتطور. حددت لها الطريق القويم والسليم الذي يجب سلوكه. فكانت في ما كتبت، المرشدة والموجهة، الناصحة والهادية، للوصول بالمرأة إلى حياتها الحرة السليمة، المحاطة بالكرامة. وقد استمدت مجمل ما كتبت وطرحت عن حياة المرأة الإسلامية بصورة خاصة، والمرأة بصورة عامة، من ثقافتها ودراساتها المطولة والمتنوعة، التي كونت لها مساحة فكرية وثقافية، مكنتها من الإحاطة بمجمل المواضيع الإنسانية والاجتماعية.

كان هدف زاهية قدوره من الكتابة عن المرأة العمل على تأمين حقوقها وتجسيد مساواتها بالرجل. ويمكن أن يكون قد تحقق شيء من ذلك، من خلال حصول العشرة والتفاهم، والاتفاق على حياة رغيدة وسعيدة ينعمان فيها بظروف ثقافية واجتماعية وسياسية متشابهة.

٨ – المرأة كائن اجتماعي

لما كان المجتمع، أي مجتمع، في رأي زاهية قدوره لا تستقيم أحواله ولا يصيبه التطور والارتقاء، إلا إذا كان للمرأة فيه دور مؤثر وإيجابي على اعتبار أنها نصف المجتمع، فقد تم ملاحظة الجهد الذي بذلته، للإضاءة على الحركة النسائية اللبنانية منذ مطالع القرن العشرين.

ركزت المؤلفة كتاباتها عن بيروت في عدد من الأبحاث والدراسات، بسبب المكانة التي كانت تشعر بها تجاهها. بيروت لم تكن عندها، كأي مدينة من المدن المنثورة على شاطئ البحر المتوسط. لأن العلاقة بينهما كانت علاقة جدلية ووجدانية

وروحية. فبقدر ما أعطت بيروت من مجدها ومكانتها عبر التاريخ إلى من دعيت بقيثارة بيروت، فقد نفخت فيها هذه القيثارة من روحها وعقلها ووجدانها، ما عجز الكثيرون عن إعطائه لها[١٠٨].

فاق التلازم المصيري الذي نشأ بينهما، حدود العلاقة التي تنشأ بين شخص معنوي وآخر روحي. بمعنى أوضح، ظهرت العلاقة بأفضل صورها من خلال مسيرتها الطويلة، وترسخت في قلبها ووجدانها في أثناء العدوان الإسرائيلي الذي تعرضت له بيروت عام ١٩٨٢، بسبب الوحشية التي تعرضت لها، والهجمة الشرسة التي شنت عليها من القوات الغازية، مما تسبب لها بألم كبير، هز كيانها، مما جعلها تصر على رفض مغادرتها وتركها محاصرة بجحيم من النار والبارود، لتواجه مصيرها منفردة، بل فضلت البقاء فيها ومواجهة قدرهما المشترك.

بالإضافة إلى علامات أخرى متعددة؛ ظهر فيها حبها لبيروت، وتعلقها بها. فقد كتبت في أحد الأيام تعبر عن ذلك، بالقول: « لا تزال ذكريات بيروت ملتصقة في الذهن والقلب، تتمثل في الناس والأخوان الذين طبعوها بطابعهم»، كونها كانت: «بيتاً كبيراً، تعيش فيه أسرة كبيرة ...تعيش مع أناسها يتشاركون الأفراح والأتراح، يفرحون معاً ويحزنون معاً..». كما كانت: «... ساحة للغفران والتسامح وداراً رحبة للتعايش... لها مواصفاتها وخصوصيتها». هذه ناحية من المشاعر الفياضة العديدة، التي كان فيها أكثر من إشارة وأكثر من تعبير عن الحب الذي كانت تكنه لبيروت[١٠٩].

إن الحديث عن بيروت في حياة زاهية قدوره يكاد لا ينتهي، حتى يخيل للباحث فيه، أنه بحاجة إلى المزيد. فالعلاقة بينهما، كانت علاقة قديمة جداً، متميزة ومميزة، وهي لم تكن كعلاقة أي كاتب أو باحث أو حتى مؤرخ مع مدينته وبلدته. بل كانت علاقة انغماس الواحد في الآخر، وعلاقة وجود وحياة ربط بينهما رباط شديد محكم الوثاق، وتعود قوة علاقتهما إلى الجذور الأساسية لآل قدوره في بيروت. وظهرت مقوماتها في أفضل صورها، من خلال مجموعة الأبحاث والدراسات التراثية التي وضعتها عنها، وتناولت فيها ناحية أنثوية مهمة من عمر هذه المدينة، تركزت في معظمها على نشاطات ونضالات المرأة البيروتية، ومواقفها والأدوار التي لعبتها دفاعا عن بيروت.

تطرقت فيها إلى تأريخ وسرد واقع من تحركات المرأة البيروتية اجتماعياً وتربوياً وسياسياً وأدبياً، مع مقدمة مبسطة عن تاريخ الحركة التعليمية في لبنان، ابتداء

من القرن التاسع عشر، عندما بدأت سيطرة المؤسسات التبشيرية الأجنبية عليها؛ مما استدعى استنفاراً للمسلمين الذين أسسوا جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، لتكون على قدم المساواة مع تلك المؤسسات، وسداً منيعاً أمام سياسة الغزو الثقافي والفكري، ومنع تفرد المؤسسات التبشيرية بالسياسة التربوية في لبنان بصورة عامة.

شهدت بيروت وبعض المناطق الأخرى إنشاء بعض المؤسسات الأجنبية لا سيما في القرن التاسع عشر ويأتي في مقدمتها: الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية فيما بعد) وجامعة القديس يوسف (اليسوعية) وبعض مدارس الفرير والليسيه، والمدارس الإنجيلية، وشهدت منطقة زقاق البلاط حشداً من المدارس الأجنبية والوطنية. وقامت جمعيات إسلامية أخرى على همة بعض شيوخ الطائفة بتأسيس عدد من المدارس الخاصة. منها: المدرسة الإسلامية الحديثة، مدرسة الشيخ عبد الباسط الإنسي، المدرسة الرشيدية، مدرسة زاوية الشهداء، مدرسة الشيخ علي الملا ، مدرسة الشيخ محمد المجذوب، وفيما بعد مدرسة الشيخ أحمد عباس الأزهري. غير أن المدارس التي أحدثت تغييراً أساسياً في بنية المجتمع الإسلامي في بيروت، هي مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، وفي المناطق اللبنانية الأخرى. فما هي الظروف التي أدت إلى إنشاء هذه المدارس، وكيف تأسست ؟ لقد شعر المسلمون في بيروت في القرن التاسع عشر، أن الغزو الثقافي الأوروبي بدأ يجتاح مدينتهم ويغزو بيوتهم، فرأوا ضرورة إقامة مدارس خاصة بهم تحميهم من البعثات التبشيرية التي لم يقتصرنشاطها على جبل لبنان فحسب، وإنما امتد إلى قلب بيروت. إذ رأت مجموعة من المسلمين الأغيار ضرورة إنشاء جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، للاهتمام بالشؤون الثقافية والتربوية والتعليمية والدينية لأبناء المسلمين(١١٠).

من الإيجابيات التي شكلت علامات فارقة في مسيرة المرأة البيروتية، العلاقة التي أقامتها بعض الرائدات مع بيروت، المدينة الرائدة، اللواتي قمن بتشجيع الفتاة اللبنانية بصورة خاصة، والمرأة العربية بصورة عامة، بالإقبال على دخول مراكز التعليم في بلاد الشام. على أن يقتدين بذلك بمجموعة من الفتيات والرائدات اللواتي نهلن الدراسة في بداية الأمر خارج بلادهن. لأن الحكومات العربية المحلية؛ كانت مقصرةً عن توفير المدارس اللائقة لدخول الفتيات إليها. مما دفع الأسر العربية بعامة، والبيروتية بخاصة، إلى الإحجام عن دفع بناتها وفتياتها، إلى التعلم والدراسة لندرة

وجود المدارس العامة.

إلا أن ابتهاج قدوره، التي عرفت ببعد نظرها وبإدراكها المبكر لوقائع الأمور كما سبقت الإشارة إلى ذلك، أدركت أن عليها كسر هذه القاعدة المتبعة آنذاك. فكانت من أوائل الفتيات المسلمات، اللواتي تغلبن على هذه المعضلة، عندما انتسبت إلى مدرسة البنات الأميركية، الأمر الذي وجد صدى غير مستحب في أوساط العائلات الإسلامية في بيروت. وعندما أرخت زاهية قدوره لهذه الواقعة، ذكرت أنه لم تمض فترة طويلة من سيطرة العقلية المتشددة بحق الفتاة ومنعها من مغادرة بيتها إلى المدرسة، حتى اقتدت أسر بيروت وعائلاتها بابتهاج قدوره، التي قامت بحملة كبيرة ومنظمة، لدفع تلك العائلات، على توجيه بناتها إلى الدراسة، سواء في مدارس الإرساليات، أو في بعض المدارس الخاصة التي بدأت بالظهور في تلك الفترة. وقد أسفر ذلك، عن اقبال فتيات البيارتة على الدخول إلى مدرسة البنات الأميركية.

وقد ذكرت أسماء معظم الفتيات، إن لم يكن جميعهن، اللواتي تخرجن إما من جامعات ومعاهد ذات صلات أوروبية، أو من الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٣١، ومن جامعة القديس يوسف بعد ذلك، بفترة قليلة، ثم من الأكاديمية اللبنانية وكلية بيروت الأميركية. هذا ومن دون أن تغفل ذكر خريجات الجامعات المصرية، كجامعة فؤاد الأول، وغيرها(١١١).

ثم ما لبث الوضع أن تغير كلياً، مع إنشاء الجامعة اللبنانية عام ١٩٥١ التي ضمت أعداداً لا بأس بها من الخريجين والخريجات، ثم مع قيام جامعة بيروت العربية بعد ذلك بعشر سنوات .

هذه النهضة الجامعية، إذا جاز القول، واكبتها مجموعة كبيرة جداً من أسماء الخريجات المتفوقات في مختلف مناحي العلم والتخصص ومجالاتهما، اللواتي أتت زاهية قدوره على إحصائهن. ثم تطرقت بعد ذلك إلى تعداد الجمعيات التي واكب إنشاؤها حركة علمية ونهضوية، وكانت إبتهاج قدوره من أوائل العاملات على تأليف الجمعيات النسائية والمنتديات الأنثوية، لمواكبة نشاط المرأة الثقافي والاجتماعي وتقدمها الحضاري.

أرخت زاهية قدوره لهذه المحطات النسوية في تاريخ بيروت، ووصفتها بأنها:

« مختصر لتاريخ المرأة البيروتية بإيجاز كلي، والتاريخ يتكامل، فهو يتكامل فينا. لا شك في أن ظروف التحدي التي تعيشها بيروت تدفعها إلى مراجعة ماضيها والنظر

إليه من الناحية التي يتطلبها الوضع الحاضر. وهذا لا يتحقق إلا بالتعاون والتعاضد، وبالعمل المدروس المبرمج والمخطط»(١١٢).

هذه بعض اللمحات التي رمقت بها زاهية قدوره واقع المرأة البيروتية، التي أخذت من عنفوان هذه المدينة، ما جعل قيمتها وقدرتها مساوية للإمكانات التي يتمتع بها العنصر الذكري، فباتت تقف معه على قدم المساواة، لا بل صارت منافساً قوياً في كثير من المواقع والساحات. عايشت الكاتبة هذه المواقف والمواقع، لأسباب كثيرة. فمن مساحة الحرية التي عاشت في رحابها بيروت، أخذت منها الحركة النسائية أبعاد تحركاتها العديدة، التي أبدعت المرأة من خلالها انجازات أنثوية، حضارية وإنسانية، انعكست على مجمل تحركاتها النضالية. ومن ثقافة بيروت التي انعكست بأنوارها وإشعاعات علمائها ومفكريها على أبنائها المتنورين، ما جعلها تحتل مركزاً ثقافياً مهماً استقطب مجموعة لا بأس بها من المثقفين العرب والأجانب، الذين كانوا يجدون في رحابها الثقافية، كل ما كان يساعدهم على إغناء ثقافاتهم وتنميتها وتطويرها، بكل حديث وجديد في عالم الكتب والنشر والثقافة.

وهكذا تكون بيروت من خلال منابرها المتعددة وساحاتها، وتياراتها السياسية والتربوية - الثقافية والاجتماعية، قد شرعت أبوابها ومنافذها، وأفردت ساحاتها وميادينها، لتضم تحت أجنحتها مجمل التحركات النسائية والأنشطة المختلفة، التي لم تتأخر المرأة البيروتية عن مواكبة أي منها. فكانت بنات العائلات الغنية والميسورة، المثقفات والمتعلمات سباقات إلى تسلق منابر بيروت لمخاطبة أبنائها؛ فظهرت المنافسة بينهن وبين أبناء الطبقات المتوسطة، اللواتي لم يكن من خلاف ثقافي وفكري بينهن، بل كانت المنافسة في سبيل تقديم الأفضل من المواقف والأنشطة.

ابتدأت هذه النهضة أو هذه الحركة النسوية إذا جاز، منذ مطلع القرن التاسع عشر، وكان من أسبابها إنشاء المدارس المختلفة من ناحية، وذيوع الكثير من آراء المصلحين الاجتماعيين؛ وانتشار أفكارهم، التي عرفوا بواسطتها باسم أنصار المرأة، من ناحية ثانية.

فإذا ما توقفنا بعض الشيء، أمام عملية تدوين تاريخ التعليم في لبنان بصورة عامة، وفي بيروت بصورة خاصة. يبدو لنا أن من أولى أسبابها المباشرة؛ انطلاق حركة التبشير والإرساليات الأجنبية، التي وفدت إلى بلاد الشام، في تواريخ مختلفة وأزمان متفرقة، إبتداء من مطلع القرن السابع عشر. حيث بدأ منذ ذلك الوقت إنشاء

بعض المدارس والمعاهد، في عدد من المدن والقرى والدساكر.

تركز عمل الإرساليات في ذلك الحين، على نشر كتب العبادات. ولما كانت هذه البعثات ذات صفة دينية، فقد اهتمت بأبناء الطوائف التابعة لها. بينما انفرد المبشرون الأميركان عن هؤلاء، بأنهم أولوا اللغة العربية مكانة بارزة في جهودهم التي وفدوا من أجلها إلى الشرق. فامتازوا بالريادة في هذا المجال، وكان لهم نشاط بارز في حركة النهضة العربية الأولى.

تجاه هذا الواقع التعليمي الطائفي والأوروبي، بات من الصعب على الفتاة المسلمة الوثوق بنوايا القائمين على مدارس الإرساليات والمبشرين التابعين لها. فعاشت الفتاة المسلمة في بيروت؛ فترة من الوقت تعاني من التردد بالإنتساب إلى هذه المدارس، التي اتبعت سياسة التفرقة الدينية. وظل الوضع على هذه الحال؛ إلى أن تم افتتاح مدارس تابعة لرجالات المسلمين، التي كان في طليعتها مدرسة جمعية المقاصد في صيدا سنة ١٨٦٦، التي كان الانتساب إليها مقتصراً على البنين فقط.

واستمر الأمر كذلك، حتى قامت الجمعية بافتتاح مدارس للجنسين في بيروت. كما أنشأت في العام ١٨٩٧ الكلية العثمانية، بهمة نخبة بارزة من الأدباء، يتقدمهم الشيخ أحمد عباس الأزهري. وفي العام ١٩٠٦ تم افتتاح المدرسة الوطنية ومن بعدها الكلية العلمية.

ولما كانت هذه المدارس الوطنية والعثمانية، قد اتسمت بطابع طائفي، فقد انحصر التعليم فيها، على فئات قليلة من اللبنانيين. ولم يسجل إقبال ظاهر على الدخول إليها من قبل فتيات البيارتة، إلا بعد انتساب الفتاة البيروتية إبتهاج قدوره إلى مدرسة البنات الأميركية. فقد رأت أنها إذا إنتسبت إلى مدرسة مسلمة، فسوف تلحق بها، معظم فتيات البيارتة ويدخلن إلى المدارس الإسلامية، مما قد يتسبب بإنشقاق تربوي وثقافي حاد.

أما إذا دخلت إبتهاج قدوره إلى مدرسة أجنبية من تلك التي أنشأها المبشرون، فإنها بذلك تترك للفتاة المسلمة أو لعائلتها؛ حرية اختيار المدرسة التي تنتسب إليها، وفق إمكانياتها ووضعها الاقتصادي. فتكون بهذه الخطوة قد ساهمت بتطور حركة التعليم في هذه المدارس، عن طريق قيام المنافسة بينها، لتقديم الخدمات التعليمية الحديثة والمتطورة، مما يجلب إليها أكبر عدد من الطالبات.

٩ ـ السمات الخلقية والحضارية للشخصية العربية عند زاهية قدوره

لما كانت زاهية قدوره قد قامت بدراسة مفاصل متعددة من التاريخ العربي وجالت على مراحله المختلفة، فقد تمكنت بذلك من وضع دراسة عن السمات الأساسية

التي طبعت الفترات المتعاقبة لهذا التاريخ. وقامت كذلك بدراسة القيم والأعراف الأخلاقية لهذه الحضارة، وللعلاقات الإنسانية التي سادت بين المجموعات البشرية، التي تألف منها المجتمع العربي الإسلامي، أو تلك التي انضوت تحت لواء الدعوة الإنسانية للإسلام[١١٣].

اعتمدت في هذه الدراسة، على مفاصل رئيسة ثلاث استعرضت فيها أخلاق الإنسان العربي وصفات خلقه وتعامله. وتطرقت إلى المعاني السامية، التوحيدية والإيمانية التي اعتنقها، مستندة بذلك إلى شخصية النبي العربي ومكانته وقدرته، التي استطاع بواسطتهما أن يوحد تحت لواء رسالته مختلف الشعوب والأجناس. وتطرقت في المفصل الثاني إلى مجموعة القيم والأعراف التي أرسى قواعدها الإسلام، وجعل منها نواميس وشرائع للمسلمين، تنظم حياتهم وتهذب طرائق عيشهم.

أما النقطة الثالثة، فقد تحدثت فيها عن محطتين مهمتين، سردت في الأولى واقع المرأة المسلمة بشيء من التبسيط، وفسرت النظرة السلبية التي كانت تقبع في شركها المرأة منذ الجاهلية حتى العصور الإسلامية المتقدمة. وكيف تمكنت من تبديل النظرة إليها وإلى مكانتها. ثم قامت بالتعريف بالمكانة التي أفردها الإسلام للمرأة، وحثها على العلم، والسعي فيه وخوض غماره، حتى باتت هذه الدعوة من الأمور المرغوب فيها عند المسلمين لتأكيد دعوة النبي لتكريمها، وتربيتها على التعاليم الصالحة، وتوجيهها إلى العلم والرغبة فيه.

وقد حفلت هذه المفاصل بالمعاني الإنسانية السامية، التي زود بها المجتمع الإسلامي، مما يعني أنه صار ذات شمولية عالمية، مكنته من التوسع في المساحة الجغرافية الجديدة التي بسط تعاليمه عليها، المعروفة بسهولها ووديانها، وبجبالها وشواطئها، التي تأثر قاطنوها بالعقيدة الإسلامية التوحيدية، مما كان برهاناً على أن هذا الدين الجديد؛ قادر أن يجعل جميع الشعوب والأجناس، تدين له بالطاعة والولاء، بغض النظر عن اختلاف سلالاتها وأعراقها ولغاتها « إذ لا مكان للعنصرية ولا للعرقية في رحابه، ولا مجال للإقليمية في إطاره. وهو ثورة مستمرة متجددة، متفاعلة مع الإنسان، في زمانه ومكانه ...»[١١٤].

نظرت زاهية قدوره إلى هذه المعاني، فرأت أنها جاءت إلى الإنسان العربي والمسلم[١١٥] للعمل على تهذيب نفسه، وتحصين روحه وبلورة فكره وعقله، ومساعدته

على التحلي بالفضيلة والأخلاق النبيلة، النابعة من ثنايا دينه، وصيانة أفراده وأبنائه، والمحافظة عليهم من الاغراءات المادية، وصونهم من المفاسد الاجتماعية المستشرية. وأشارت إلى أنه « استطاع الإسلام باتجاهه العالمي، أن يكون إطاراً لحضارة عالمية مستوعبة، لكافة النشاطات التي يمارسها الإنسان أو يطمح إليها. وأن الحضارة العربية الإسلامية تمثل تراث الشعوب العريقة، التي دخلت حظيرة الإسلام، من فرس، وهنود، وأتراك، ويونانيين ورومانيين، ومغربيين، وبرابرة، وعرب وغيرهم»[١١٦].

بمثل هذه النظرة عرّفت الدين الإسلامي الذي رأت فيه المستوعب الذي أخذت منه الحضارة الإنسانية أبرز مقوماتها، ومنه تكونت القواعد التي ربطت فيما بين الشعوب المختلفة، برباط من الدين والعلم والثقافة، لغايات إنسانية سامية .

ثم تدرجت في تحليلاتها، لتصل إلى التلميح بأن الإسلام حوى في نظامه أول ديموقراطية إنسانية عادلة في تاريخ البشرية. وفصّلت كيفية تطور الديموقراطيات في العالم القديم وصولاً إلى قيام الديموقراطية الإسلامية الصحيحة، انطلاقاً من ديموقراطية أثينا المشروطة، وديموقراطية الرومان الاسمية، والديموقراطية المسيحية، التي تركزت في الكنيسة وحولها، وصولاً إلى أشكال من الديموقراطية المختلفة في أوروبا القرن السادس عشر. وأخيراً ديموقراطية الثورة الفرنسية، بأشكالها المختلفة.

وتوصلت للبرهان على أن الدين الإسلامي، قام باحترام الأسس الديموقراطية الصحيحة، المأخوذة من القرآن والسُنّة النبوية وسيرة الصحابة؛ مما بات يشكل تراثاً مميزاً للمسلمين تجاه الدول والديموقراطيات الأخرى. ثم قالت تأكيداً على ذلك: « أن الإسلام دين هداية، وإيمان بالله الواحد، ورسوله واليوم الآخر، وهو شريعة ونظام حياة أفضل في الدنيا والآخرة»[١١٧].

تألفت هذه القيم كما ظهر من مبحثها، من مجموعة من المبادئ الأساسية، تمثلت في الأخلاق الفاضلة كعنوان عريض لها، واعتبرت رادعاً للعربي المسلم لنهيه عن الرذائل، وحثه على مكارم الأخلاق، والصدق في مسالك حياته وعلاقاته مع معارفه. واعتبرت الأمانة صنعة ملازمة للصدق والاستقامة، والرجوع عن الخطأ، وإصلاح النفس وترويضها بالتغلب على الأحاسيس الخاصة، والصبر والعفو والإيثار والتعاون والإصلاح بين الناس وبين الزوجين. هذا ودون أن تغفل المؤلفة ذكر آداب السلوك الاجتماعي والخلقي والأخلاقي، وهي من القواعد الأخلاقية التي التزم بها العربي،

وعدم الإساءة إلى الآخرين. وكذلك وجوب معاملة الوالدين والإحسان إليهما، والتحلي بدماثة الأخلاق، والاستئذان قبل الدخول على مجالس الناس في منازلهم ومساكنهم وأماكن إقامتهم، وإلقاء التحية عليهم.

ولما كان الدين الإسلامي يعتبر دين نور وهداية، عرف بغناه المعنوي بالقواعد المنظمة للحياة الإسلامية والإنسانية على حد سواء، فكان فيه أيضاً توصيات خيّرة وتنبيهات جيدة، ونواة سليمة تُحذِّر النفس الأثامة من الجنوح والتهور، والبعد عن الرذائل.

وذكّرت الباحثة بدعوة الإسلام النفس، إلى عدم الاستسلام للأهواء والأضاليل، والبعد عن التكبر واحتقار الإنسان لأخيه الإنسان، والابتعاد عن الكذب ورذائله، وترك النفس في الاستمتاع بالنميمة أو المشاركة فيها، أو المساهمة مع الغير في عمل الزور والخيانة، التي تعتبر خطأً كبيراً. وكذلك الحسد المرذول من قبل كل الأديان. كما حث على التسامح والبعد عن الغضب. وعلى أساس من هذه القواعد والروادع، رأت قدوره: «أن هذه الصفات والتعاليم العامة المتعلقة بشخصية الإنسان وسلوكه، قد عكست آثارها في المجتمع العربي الإسلامي، وحددت السلوك والصلة الاجتماعية والخلقية بين الإنسان وأخيه الإنسان» [١١٨].

ثم تطرقت الكاتبة بعد ذلك، إلى الفضائل السامية والصفات الحميدة التي يتمتع بها الدين الإسلامي، الذي أضاء بظلال أنواره وهدايته على الإنسانية جمعاء، ما أنتج منهجاً شاملاً ومتكاملاً للحياة، وكان عاملاً على قيام «مجتمع إسلامي له خصوصيته المتميزة».

فنرى في كتابتها أن الإسلام أسس لمبادئ العدالة المطلقة، انطلاقاً من دعوته إلى الرحمة، وتوكيداً على دعواه لمعاملة جميع بني البشر بالتساوي والعدل « فالعدل والمساواة في الإسلام توءمان متلازمان والناس كلهم متساوون في رحاب الإسلام في الحقوق.. والعدالة في الحضارة العربية الإسلامية مطلقة وهي عدالة بين كل الناس ..»[١١٩] ومن هذه المساواة و تلك العدالة كانت مطالبته بالمساواة بين أهل الديانات جميعا، الذين استظلوا رحمة الدولة الإسلامية وهم المعروفون بأهل الذمة الذين أعطاهم الرسول صلى الله عليه وسلم ذمته وأمانته.

أما بالنسبة إلى إلى الرق والرقيق في هذه المعادلة الاجتماعية، فقد اعتبرت

من النظريات الاجتماعية المتقدمة في ذلك الوقت. ذلك أن هذه القضية وفق مفهوم الباحثة من الناحية الاجتماعية، كانت ملازمة لمنظومة الاستغلال والتسلط والعبودية بكل مآسيها. وكان من رأيها أن الإسلام حارب كل الأنظمة والأعراف والتقاليد وحتى القوانين، التي تجعل فئة قوية تهيمن على فئة قليلة وبسيطة من البشر، فكانت نظرة الإسلام إلى هذه العناصر، نظرة إنسانية كريمة.

كما رفض الإسلام احتجاز حرية أي إنسان مهما كان نوعه وجنسه ودينه، فاعتبر بذلك، متقدماً على جميع الأديان التي تطرقت إلى هذه الناحية، وعلى الشعوب والأجناس، التي اختلف معها حول ممارساتها الدينية والإنسانية. وكان موضوع الرقيق بالنسة له مرحلة إنسانية قاسية، يجب أن تزول وتمحى من الوجود طالما زالت الأسباب والدوافع، التي فرضت استعباد الفرد والتحكم في حياته ومصيره، بمجيء دين الإنصاف والعدالة والمساواة[١٢٠].

أما بالنسبة إلى دراستها عن نظرة الإسلام إلى العلم والحث عليه والسعي وراءه، فإن المجال عن ذلك يضيق أمام هذه المعالجة، وهو يحتاج إلى دراسة مطولة ومتمعنة. إذ كان لها مساهمة جلية بتوجيه غيرها، والحث على الأخذ بهذه النظريات الحضارية الداعية إلى المعاملة الإنسانية بين بني البشر، وإلى التزود من العلم الذي حث عليه النبي محمد صلى الله عليه وسلم ودعا إلى طلبه، وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة[١٢١].

اعتبر هذا البحث، من ضمن سلسلة الأبحاث التاريخية والثقافية المتناثرة بين ثنايا أرشيفها، وهو من تلك المجموعة التي أبدعتها ثقافتها المتميزة بأسلوبها الجيد وغناها المعرفي. وقد اكتسب أهميته بسبب محتواه العلمي والمعرفي، وغناه بثقافة إنسانية عالية، لأن المؤلفة؛ استعانت على وضعه ببعض الآيات القرآنية، التي دلت معانيها على أهمية المبادئ والأعراف، التي تجلت فيها الحضارة العربية الإسلامية.

ورأى بعض المحللين أن هذه المعاني التي وردت في البحث، أتت من معين ثقافي لا ينضب. بأسلوب منهجي تحليلي، لقي قبولاً من العامة والخاصة على حد سواء. من الرجل العادي كما المثقف ورجل الفكر[١٢٢].

هوامش الفصل السادس

١- لمزيد من التوسع حول هذا الموضوع يراجع الكراس الذي في طور التحضير للتعريف بأعمال الاتحاد وأنشطته المختلفة.

٢- يوجد في أرشيف زاهية قدوره كراس (دفتر) خطت عليه عدة نقاط حول هذا الموضوع.

٣- ذكرت هذه الأبحاث والمؤلفات، وتم استعراض أهم الأفكارالتي وردت فيها، عند استعراض مراحل مسيرتها الثقافية والسياسية.

٤- الأفكار الواردة نتيجة عدد من المقابلات مع زاهية قدوره (المؤلف).

٥- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٥ /٧/ ١٩٩٧ (أذن بالإشارة إليه).

٦- للتوسع حول الموضوع يراجع قدوره، زاهية: المرأة العربية قبل الإسلام. (بحث مخطوط)

٧- للتوسع يراجع جمال الدين، نجيب والخوري، شحادة: حول المرأة (مرجع سبق ذكره).

٨- قدوره، زاهية: "المرأة الإسلامية في العصر العباسي الأول"، بحث وضعته عام ١٩٤٢ ليكون عنوان الرسالة للحصول على درجة الإجازة في التاريخ B.A. (الليسانس)، وكذلك عائشة أم المؤمنين الذي وضعته عام ١٩٤٧ ليكون أيضاً عنوان الرسالة للحصول على درجة الماجستير في التاريخ العربي الإسلامي من جامعة فؤاد الأول في مصر.

٩- لمزيد من التوسع يراجع قدوره، زاهية : "المرأة العربية قبل الإسلام" (مرجع سبق ذكره).

١٠- قدوره، زاهية: "مكانة المرأة في الأسرة الإسلامية". قدم إلى ندوة مكانة المرأة في الأسرة الإسلامية، التي عقدت في جامعة الأزهر بالقاهرة في شهر كانون الثاني / ديسمبر عام ١٩٧٥.

١١- قدوره، زاهية: مكانة المرأة في الأسرة الإسلامية. ص ٧ .

١٢- قدوره، زاهية: المرجع السابق. ص ٩.

١٣- جاء في الحديث الشريف أنه: إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية وولد صالح يدعو له، وعلم ينتفع به. كما شاع قول عن الرسول صلى الله عليه وسلم مفاده:
اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد، للتدليل على أهمية التربية والتعليم في الإسلام.

١٤- قدوره، زاهية: مجموعة أوراق متفرقة خطت عليها بعضاً. من أفكارها.

١٥- قدوره، زاهية: أوراق غير رسمية مبعثرة، تضمنت كلاماً حول هذه العناوين.

١٦- **ابنت خويلد (خديجة) (ت ١٠ هـ):**
أولى زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم، وأول من آمن برسالته، بعد أن أمنته على تجارتها وأموالها. فعرفت بوزيرة صدق للإسلام. يراجع حسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه. ص ١٨٢ ــ ١٨٣.

١٧- **ابنت عتبة (هند) (ت ١٤ هـ/ ٦٣٥ م.):**
صحابية. زوجة أبي سفيان وأم معاوية وأم أخيه عتبة، وأم يزيد بن أبي سفيان ومحمد بن أبي سفيان وحنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان، يراجع حسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه. ص٢٧٦.

١٨- حديث شريف.

١٩- من الأبحاث الموجودة في مؤلفات زاهية قدوره حول هذه العناوين والطروحات ، إضافة

إلى أوراق أخرى موزعة في أرشيفها، خطت عليها شذرات من هذه الأفكار والآراء.

٢٠- سورة النساء، الآية ٧٠.

٢١- فايد، عبد الحميد: المرأة العربية وأثرها في الحياة العربية. ص ٤٢ ــ ٤٩.

٢٢- مظهر، إسماعيل: المرأة في عصر الديموقراطية. بحث حر في تأييد حقوق المرأة. ص ١٠٢، وحيدر، فؤاد: المرأة في الإسلام وفي الفكر العربي. من دون تحديد لرقم الصفحة.

٢٣- يراجع، المسند ج٦. ص٨٨، وابن قتيبة: عيون الأخبار ج٤. ص٧٧، والبخاري: الصحيح ج٣. ص ١٤١٨، وج٥ ص ٢٠٤٣، وج٦ ص ٤٤٧، والقفاعي: مسند الشهاب. ج١. ص ١٠٢، والحديث رقم١١٩، وابن عبد البر: التمهيد ج١٧.ص٢٧٥، والمناوي: فيض القدير. ج٢.ص٣٩٧.

٢٤- المسند. ج٦. ص١٨٧٤.

٢٥- مسلم، الإمام: صحيح مسلم. ج٣. ص٤١.

٢٦- سورة النساء، الآية الأولى.

٢٧- سورة النحل، الآية ٧٢.

٢٨- سورة الشورى، الآية ١١.

٢٩- سورة الأعراف، الآية ١٨٩.

٣٠- سورة الروم، الآية ٢١.

٣١- قدوره، زاهية: الإسلام كرم المرأة وساوى بينها وبين الرجل، دون تمايز أو تفاضل. جريدة اللواء. بيروت في ١٢/١٢/١٩٨٦.

٣٢- قدوره، زاهية: « الإسلام منح المرأة حقوقاً اجتماعية وشرعية» . مجلة الإسعاف الشعبي. بيروت. العدد ٢٦. تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩١.

٣٣- سورة النساء، الآية ٣٤.

٣٤- تراجع الكتب والمؤلفات التي وضحت هذه الأسس والمقومات،التي عمل الدين الاسلامي على ترسيخها في حياة المسلم العربي، وفي حياة عامة المسلمين من غير الشعوب العربية، الذين دانوا لعظمة هذا الدين ولتعاليمه السمحة. للمزيد حول هذا الموضوع يراجع، أبو عز الدين، نجلاء، فصل: المرأة العربية. ص ٤١٣ ــ ٤٣١، ويراجع بيهم، محمد جميل: فتاة الشرق في حضارة الغرب. ص ٨١ ــ ٨٢، والدواليبي، محمد معروف: المرأة في الإسلام. ص٢٦ــ٢٩، وسحمراني، أسعد: المرأة في التاريخ والشريعة. ص١١١-١٢٨.

٣٥- القفاعي: مسند الشهاب. ج١. ص١٠٢ (الحديث ١١٩)، وقدوره، زاهية: المرأة في الإسلام (محاضرة). من دون تحديد لرقم الصفحة.

٣٦- سورة الحجرات، الآية ١٣.

٣٧- للمقارنة بين شرعة حقوق الإنسان التي جاء بها الإسلام، وبين وثيقة حقوق الإنسان التي جاء بها الإنسان، تراجع جريدة السفير، في بيروت بتاريخ ٢١و٢٢ /٦/ ١٩٩٩. وفيها دراسة عن حقوق الإنسان والتنمية،لكل من:محمد فائق الأمين العام للمنظمة العربية لحقوق الإنسان وصلاح الدين حافظ، الأمين العام لاتحاد الصحافيين العرب. كما تنظر محاضرة: عبد الله إسماعيل البستاني، حول: الإعلان الدولي لحقوق الإنسان، وذلك بتاريخ ٢٢/٢/١٩٥١.

٣٨- قدورة، زاهية: «المرأة في حياة الرسول». المجلة العربية. المملكة العربية السعودية. العدد ١. السنة ٢. تموز / يوليو ١٩٧٧.

٣٩- حديث شريف، المسند. ج٦. ص٨٨، وابن قتيبة: عيون الأخبار. ج٤. ص٧٧.

٤٠- قدوره، زاهية؛ «المرأة في حياة الرسول». وأوراق أخرى متناثرة (مخطوطة) تحمل بعض الأفكار التي تطرقت فيها إلى العناوين والنقاط التي درسـت فيها مكانـة المرأة في حياة الرسول .

٤١- **ابن الخطاب، عمر (١٣ – ٢٣ هـ / ٦٣٤ – ٦٤٤ م.):**

روى الطبري أن عمر ولد بمكة قبل حرب الفجار بنحو أربع سنين. نشأ نشأة عالية، فكان فصيحاً، بليغاً وصريحاً في الحق. احترف التجارة. أسلم عمر في السنة الخامسة للإسلام مما كان له أثر كبير. وروى ابن الأثير عن عبد الله بن مسعود قال: كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة. يراجع السيوطي: المصدر نفسه. ص١٠٨، وحسن، حسن إبراهيم: المرجع نفسه. ص ٢٠٨.

٤٢- نقلاً عما أوردته زاهية قدوره في بحثها عن المرأة في حياة الرسول.

٤٣- قدوره، زاهية: «مواقف المرأة العربية» (بحث مخطوط)، وأبو عز الدين، نجلاء: ص٤١٥

٤٤- ابن هشام:السيرة النبوية. ص ٢٧٤.

٤٥- **قريش:**

قبيلة عربية عظيمة من كنانة من العدنانية. أسياد مكة وكبار تجار القوافل. من فروعها الكثيرة: أُمية ونَوفل وزُهرة ومخزوم وأسد وجُمح وسهم وهاشم وتيم وعدي. يراجع حسن حسن إبراهيم: المرجع نفسه. ص٨١ – ٨٧.

٤٦- لمزيد من التوسع، تراجع المؤلفات التي تعرضت للسيرة النبوية الشريفة، وتاريخ حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في سلسلة طويلة من الكتابات والمؤلفات. منها على سبيل المثال لا الحصر، موسوعة حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام.

٤٧- يراجع قدوره، زاهية: عائشة أم المؤمنين. ص١٤١.

٤٨- يراجع قدوره، زاهية: المرجع نفسه. ص١٤٢.

٤٩- أوراق متناثرة في أرشيف زاهية قدوره، ومقابلة بتاريخ ٢ /١٠/ ١٩٩٧ (أذن بالإشارة إليه).

٥٠- قدوره، زاهية: مذكرات (مخطوطة). ص ١٢٧.

٥١- مجلة الحوادث. بيروت. ٨ /١١/ ١٩٦٤(نسخة موجودة في أرشيف زاهية قدوره).

٥٢- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٥ /١٠/ ١٩٩٧ (أذن بالإشارة إليه) .

٥٣- قدوره، زاهية: (مخطوطة) مذكرات. ص ٢٨٥.

٥٤- السعيد، أمينة: « المرأة العربية وتحدي المجتمع « . مجلة محاضرات الندوة اللبنانية. بيروت. النشرة ١١ و ١٢ عام ١٩٦٧. وسحمراني، أسعد : المرأة في التاريخ والشريعة. من دون تحديد لرقم الصفحة.

٥٥- لمزيد من التوسع، يراجع أبحاث زاهية قدوره حول المرأة ، من الأرشيف الخاص بها، التي خطتت الكثير كم هذه الأفكار.

٥٦- قدوره، زاهية: كلمة في إحدى المناسبات لاتحاد الجامعيات اللبنانيات بتاريخ٢٤/ ١٠/ ١٩٥٩ وبحث: «الجامعية في بناء المجتمع العربي المعاصر». من دون تحديد لرقم الصفحة.

٥٧- جريدة اللواء. بيروت. ١٢ /١١/ ١٩٨٩ .

٥٨- **فخر الدين الثاني (١٥٧٢ – ١٦٣٥) :**

ولد في بعقلين. أمير لبناني معني. خلف أباه قرقماز سنة ١٥٨٥. أنشأ جيشاً قوياً وفرض سلطته بعد انتصار القيسيين على اليمنيين سنة ١٥٩١. تحالف مع علي جانبولاد وقضى على ابن سيفا. أقره مراد باشا والي دمشق على بيروت وكسروان. نظم الجيش والضرائب وسعى إلى توحيد بلاده. تحالف مع توسكانا ولجأ إليها منفياً. عاد من المنفى سنة ١٦١٨.

انتصر على مصطفى باشا والي الشام في عنجر سنة ١٦٢٣، ومد نفوذه على صيدا وصفد ونابلس وعجلون.عمل على تنمية الزراعة فاستقدم مزارعين من إيطاليا.نزع إلى الاستقلال نفي مرة ثانية إلى الأستانة وقتل هناك. يراجع حتي، فيليب: المرجع نفسه. ص٨٢٦–٨٢٨.

٥٩- **حافظ أحمد باشا:**

سياسي عثماني. صدر أعظم. حارب فخر الدين المعني. قتل في فتنة السباهية سنة ١٦٣٢ .

يراجع رستم، أسد: بشير بين السلطان والعزيز١٨٠٤–١٨٤١ . ج٢. ص١٥٨ – ١٥٩.

٦٠- **المعنيون:**

سلالة أمراء لبنانيين. حكموا الشوف من سنة ١٥١٦ إلى سنة ١٦٩٧، ثم مدوا نفوذهم على سائر المناطق اللبنانية وأجزاء من سورية وفلسطين. نال الأمير فخر الدين الأول حظوة لدى السلطان العثماني سليم الأول في أعقاب معركة مرج دابق التي انتهت بهزيمة المماليك سنة ١٥١٦ اشتهر بين أمرائها: قرقماز وفخر الدين الثاني وأحمد. وبه انقرضت السلالة، فانتقل الحكم إلى الشهابيين بعد مؤتمر السمقانية سنة ١٦٩٧. يراجع حتي، فيليب: المرجع نفسه. ص ٨٢٧ – ٨٢٨.

٦١- **توسكانا Toscana :**

منطقة في إيطاليا الوسطى، مساحتها ٢٣,٠٠٠ كلم٢، عدد سكانها ٣,٥٧٧,٠٠٠ نسمة. عاصمتها فلورنسة، تشمل مقاطعات: أرتسو، فلورنسة، غروسيتو، ليفورنو، لوكا، ماسا، وكارارا، بيزا، بيستويا، سيانا. حكمتها أسرة مديتشي في الفترة ١٥٩٦ – ١٧٣٧، ثم خضعت للنمسا وضمت للدولة الإيطالية سنة ١٨٦٠. أقام معها الأمير اللبناني فخر الدين الثاني علاقات سياسية واقتصادية، وخاصة مع أميريها قزما الأول وفرديناندو الثاني. يراجع المنجد في الأعلام واللغة. ص١٨٣.

٦٢- **الجزار (أحمد باشا) (نحو ١٧٢٠ – ١٨٠٤):**

والي صيدا والشام. استقر في عكا. لقب بالجزار لفتكه بالبدو في مجزرة بلغ ضحاياها نحو ٧٠ ألفاً. حصّن عكا وقاوم حصار بونابرت بمساعدة الأسطول الإنجليزي سنة ١٧٩٩. قتل الأمير يوسف الشهابي وولّى الأمير بشير الثاني. يراجع: الشدياق، الشيخ طنوس: أخبار الأعيان في جبل لبنان. ص ١٦٠ – ٢٢٠.

٦٣- **بشير الثاني الشهابي (١٧٦٧ – ١٨٥٠):**

أمير لبناني شهابي. ابن قاسم عمر. ولد في غزير وتوفي في استنبول. تولى الحكم على يد الجزار سنة ١٧٨٩. ضرب رجال الإقطاع لا سيما الشيخ بشير جنبلاط. سهر على الأمن والعدل. حالف محمد

علي باشا ضد الأتراك سنة١٨٣١. نفاه الإنجليز إلى مالطا سنة١٨٤٠، ثم إلى تركيا. اهتم بالمشاريع العمرانية وبنى في بيت الدين قصراً فخماً جمع إليه طائفة من الأدباء والإداريين. يراجع الشدياق: الشيخ طنوس: المصدر نفسه. ص ١٤٠ ـ ١٤٥ وما بعدها، وحتي، فيليب: تاريخ لبنان. ص ٨٣٠ - ٨٣١.

٦٤- **جنبلاط:**

أسرة لبنانية درزية.كردية الأصل.تنتسب إلى جانبُلاط (جان بولاد) بن قاسم. حالفت الأمير فخر الدين المعني الثاني.استوطنت لبنان منذ سنة ١٦٣٠ ، وأصبح مشايخها من زعماء الإقطاع في الشوف. اشتهر منها جنبلاط بن سعيد (ت١٦٣٠)، مؤسس الأسرة في لبنان - بشير بن قاسم: بنى قصر المختارة، اختلف مع الأمير بشير الثاني الشهابي، فأعدمه عبد الله باشا والي عكا سنة ١٨٢٥.من شهيرات الأسرة الجنبلاطية الست نظيرة (ت ١٩٥١) أرملة فؤاد جنبلاط التي خلفته في سنة ١٩٢٢، وبعد وفاتها خلفها بالزعامة ابنها كمال جنبلاط (١٩١٧ ـ ١٩٧٧) إلى أن أغتيل في مطلع الأحداث اللبنانية في١٩٧٧/٣/١٦. يراجع الشدياق، الشيخ طنوس: المصدر نفسه. ج١. ص ١٥٦ ـ ١٥٨.

٦٥- الشدياق، الشيخ طنوس: المصدر نفسه. ج٢. ص ٣٨٨ وما بعدها.

٦٦- الشدياق، الشيخ طنوس: المصدر نفسه. ج١. ص ١٥٦ ـ ١٥٨.

٦٧- **المختارة:**

قرية في لبنان في قضاء الشوف، فيها قصور أثرية تعود ملكيتها لآل جنبلاط. يراجع المنجد في الأعلام واللغة. ص٥٢٥.

٦٨- الشدياق، الشيخ طنوس: المصدر نفسه. ج١. ص ١٥٦ ـ ١٥٨.

٦٩- **حوران:**

هضبة بركانية في سورية جنوبي دمشق. توجد فيها تربة خصبة، اشتهرت بزراعة القمح منذ العصور القديمة. سكنها الغساسنة قبل الإسلام. حكمها اليمنيون الدروز بنو حمدان وآل الأطرش. ومحافظة حوران لها قضاءان: إزرع وفيق. يراجع المنجد في الأعلام واللغة. ص ٢٢٦.

٧٠- الشدياق، الشيخ طنوس: المصدر نفسه. ج٢. ص ٣٨٨ وما بعدها.

٧١- عندما فشل مؤتمر فرساي بالإتفاق على مصير البلاد العربية، قر الرأي على إرسال لجنة دولية لتقصي الحقائق في البلاد السورية، وهي مؤلفة من شخصين هنري كينغ (H.King.) وتشارلز كراين (Ch. Cran) فوصلت إلى فلسطين أولاً، ثم إلى سورية، وتلقت فور وصولهاعدداً من المطالب لتحقيق استقلال وسيادة البلاد العربية عن فرنسا، ورفض إنشاء وطن قومي صهيوني في فلسطين. بعد بيروت زارت اللجنة طرابلس وصيدا وصور وبكركي، والتقت بالشخصيات الإسلامية والمسيحية، كما اجتمعت مع مجموعة من السيدات اللبنانيات، برئاسة ابتهاج قدورة، اللواتي رفعن للجنة مذكرة تضمنت المطالبة بالحرية والوحدة. يراجع حلاق، حسان: دراسات في تاريخ لبنان المعاصر. ص ٧٥ ـ ٧.

٧٢- **وعد بلفور:**

وهو الوعد الذي عمل زعماء الصهيونية على انتزاعه من انجلترا، ولم تكن مهمتهم سهلة في أول الأمر، خصوصاً بعد أن فشلوا في اقناع تركية بمنح اليهود مزيداً من حق الاستيطان في فلسطين. فتطلع زعماء الصهيونية ناحية أنجلترا، وعلى رأسهم حاييم وايزمان، الذين لاقوا معارضة شديدة من

غالبية اليهود الإنجليز ذوي النفوذ، الذين كانوا يقاومون الصهيونية ويعارضون الفكرة القومية التي هي قوام الصهيونية السياسية. إلا أنه بفضل المؤيد القوي وهو المحرر الإنجليزي في صحيفة المانشستر جارديان المدعو و أ. ج. بلفور، قام رئيس الوزراء الإنجليزي لويد جورج وبضغط قوي أيضاً من وايزمان، وتأييد من وزير خرجية بريطانيا بلفور نفسه، بمنح وعد بلفور القاضي بإقامة وطن قومي صهيوني في فلسطين. يراجع أنطونيوس، جورج: المرجع نفسه. ص٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

٧٣- سلام، الخالدي عنبرة: جولة في معالم الذكريات بين لبنان وفلسطين . ص ١٢٥ ـ ١٢٦ . وقدوره، زاهية: كلمة ألقيت في احتفال اليوبيل الذهبي لجمعية هدى شعراوي عام ١٩٦٩ في مصر.

٧٤- **أمين (قاسم)(١٨٦٥ ـ ١٩٠٨):**

أديب مصري، اشتهر بالدعوة إلى تحرير المرأة. يراجع المنجد في الأعلام واللغة. ص ٧١.

٧٥- **باز (جرجي نقولا) (١٨٨٢ ـ ١٩٥٩):**

أديب لبناني من دعاة تعليم المرأة. أنشأ مجلة الحسناء سنة ١٩٠٩. يراجع المنجد ي الأعلام واللغة. ص ١٠٥.

٧٦- أبو عز الدين، نجلاء: المرجع نفسه. ص ٤١٣ - ٤٣١.

٧٧- **قدوره (ابتهاج) (١٨٩٣ ـ ١٩٦٧) :**

رائدة نسائية لبنانية وعربية. من أوائل فتيات الأسر البيروتية الإسلامية اللواتي دخلن إلى مدارس الإرساليات الأجنبية في مطلع القرن الماضي.اتقنت من اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية. من أعلام المناضلات في معركة تقدم المرأة وتحريرها. مؤسسة لعدد كبير من الجمعيات النسائية منذ مطلع عام الاستقلال وحتى وفاتها. مؤسسة جامعة نساء لبنان. قامت مع هدى شعراوي المصرية بتأسيس الاتحاد النسائي العربي، وانتخبت لرئاسته في سنوات ١٩٤٩ ـ ١٩٥٧ و١٩٦٢ ـ ١٩٦٧. ساهمت في الدفاع عن قضايا القومية والوحدة العربية والاستقلال والتحرر وتحرير فلسطين. يراجع قدوره، زاهية: رحلة العمر. ص ٢٨ ـ ٣٠.

٧٨- سعد الدين، فائزة: « السيدة ابتهاج قدوره رائدة الحركة النسائية في القرن العشرين» . مجلة تاريخ العرب والعالم. بيروت. العدد ٥١. كانون الثاني/ يناير ١٩٨٠. ص ١١ ـ ٢٤.

٧٩- الخطيب، حنيفة: تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان ١٨٠٠ ـ ١٩٧٥ . ص ٤٨ .

٨٠- لمزيد من التوسع، يراجع بيهم، العلامة محمد جميل: فتاة الشرق في حضارة الغرب. ص٦٨.

٨١- خرطبيل ، وديعة قدوره : بحثاً عن الأمل والوطن . ص ٨٤ ـ ٨٥.

٨٢- مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٩٩٧/١٠/٢٥ (أذن بالإشارة إليه) .

٨٣- قدوره، ابتهاج: كلمة ألقيت بمناسبة عيد الاستقلال في بيروت بتاريخ ٢٥ /١١/ ٩٤٧ وهي بعنوان: هل من سبيل إلى حرية الرأي وصراحة القول ورحابة الصدر!.. (أخذت نسختها الأساسية من أرشيف زاهية قدوره).

٨٤- قدوره، زاهية: «المرأة البروتية ، تاريخ ومواقف». (محاضرة مخطوطة).

٨٥- **اليافي (عبد الله) (١٩٠١ ـ ١٩٨٦) :**

ولد في بيروت، وتلقى علومه في جامعة القديس يوسف للأباء اليسوعيين، ثم في جامعة السوربون في باريس، التي تخرج منها بإجازة في الحقوق، ثم دكتوراه في الحقوق. مارس المحاماة

ابتداء من العام ١٩٢٦. انتخب نائباً عن بيروت للمرة الأولى عام ١٩٣٢. وأعيد انتخابه بين الأعوام ١٩٣٧ و١٩٦٨. تولى رئاسة الوزارة بين الأعوام ١٩٣٨- ١٩٦٩. كان عضواً في الوفد اللبناني إلى المؤتمر التأسيسي لجامعة الدول العربية (١٩٤٤) وإلى مؤتمر سان فرنسيسكو لإقرار ميثاق هيئة الأمم المتحدة (١٩٤٥) يراجع جريدة النهار. بيروت. ٥ /١١/ ١٩٨٦.

٨٦- قدوره، زاهية: رحلة العمر. ص١٥٥ – ١٥٦.والخطيب، حنيفة: المرجع نفسه. ص١٤٦.

٨٧- خرطبيل، وديعة قدورة: المرجع نفسه. ص ٢٤.

٨٨- عبد الدايم، عبد الله: التربية عبر التاريخ. ص ٢٢٣ ، وشعراني، آمان؛ بحث: التربية والمرأة والعمل. ص ٤.

٥٩- خرطبيل، وديعة قدورة: المرجع نفسه. ص ٣٢ – ٣٣.

٩٠- الرسالة التي وجهتها إبتهاج قدوره إلى زاهية قدوره بتاريخ ١٣ /١/ ١٩٤٤ .

٩١- رسالة إبتهاج قدوره إلى زاهية قدوره بتاريخ ٢/٢ /١٩٤٤.

٩٢- قدوره، زاهية: رحلة العمر. ص١٨٧ - ١٨٨.

٩٣- يؤيد ذلك دعم زاهية قدوره لعقد ندوة بعنوان: «مكانة المرأة في الأسرة الإسلامية» بتاريخ ٢٠ – ١٩٧٥/١٢/٢٢ في جامعة الأزهر في مصر. وذلك في سبيل تدعيم الفكرة القائلة بأن المرأة العربية مرتبطة بالعائلة التي تهيئ لها في جميع مراحل حياتها واجبات جوهرية، تجعلها تشعر بالطمأنينة الناجمة عن قيامها بواجباتها، وتعطيها أهمية مستمدة من واجباتها الواسعة ومن الوظائف الأساسية التي تؤديها وتقوم بها.. ولمزيد من التوسع تراجع أيضاً الدكتورة أبو عز الدين، نجلاء : المرجع نفسه. ص ٤٣٠ – ٤٣١.

٩٤- رسالة ابتهاج قدوره إلى زاهية قدوره بتاريخ ١٩٤٥/١٢/٣ .

٩٥- لمزيد من الإطلاع، يراجع خرطبيل، وديعة قدورة: المرجع نفسه . ص ٢١ – ٣٠.

٩٦- برهومي، خليل: «رائدة نهضة وحاملة مشعل في المسيرة النسائية اسمها ابتهاج قدوره». مجلة الأفكار. بيروت السنة ٦. العدد ٢٥٠. بتاريخ ١٩٨٧/٤/٦.

٩٧- حلاق، حسان: كلمة في تكريم زاهية قدوره ونقولا زيادة، في النادي الثقافي العربي، بمناسبة مرور خمسين سنة على استقلال لبنان، وذلك في تشرين الثاني عام ١٩٩٤.

٩٨- عكاوي، أندريه: «اللبنانية المثقفة قادرة على أن تكون الأولى في العالم». مجلة الحسناء. بيروت في ١٩٧٣/٦/٢٣ (مقابلة صحافية مع زاهية قدوره).

٩٩- مجلة الدليل اللبناني. بيروت. نيسان – أيار/أبريل – مايو ١٩٦٥، ومجلة فيروز. بيروت. تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨١ . ص ٤٠ – ٤١، والخوري، مراد: نساء من لبنان. الجزء ٢. ص ٤٥ – ٤٦

١٠٠- تراجع النقاط التي تأثرت فيها زاهية قدوره بألبرت حوراني صاحب كتاب: الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ – ١٩٣٩، وتأثير رواد عصر النهضة، كالكواكبي والأفغاني ومحمد عبده والطهطاوي، على فكرها ونهجها العروبي والقومي. حيث ظهر بعض من ذلك في كتاباتها، وبخاصة فيما يتعلق بالمرأة، وفي طروحاتهم الإسلامية التي أظهروا فيها مكانة الدين الإسلامي وانفتاحه على الحضارة الإنسانية والثقافية.

١٠١- للتوسع، يراجع جريدة اللواء (الملحق). بيروت. ١٩٩١/٧/٥ .

١٠٢ ـ قدوره، زاهية: أوراق متناثرة في أرشيفها، خطت عليها بعض أفكارها وآرائها حول هذه العناوين.

١٠٣- كلاس، جورج: الحركة الفكرية النسوية في عصر النهضة. ص ١٧٠ .

١٠٤- تجدر الإشارة إلا أن هذه الدراسة قد اعتمدت في وضع عناوينها وبسط كافة نقاطها، على مصادر ومراجع زاهية قدوره الفكرية والثقافية والأدبية، إضافة إلى مجموعة خطبها ومحاضراتها وأبحاثها ومؤلفاتها المتعددة (المؤلف).

١٠٥- قدوره، زاهية: أوراق متعددة خططت عليها بعضاً من هذه الأفكار والتطلعات وجدت في أرشيفها. والمرأة من زاوية مؤرخة (زاهية قدوره: لا ندرس ونعمل لنتحدى الرجل). مجلة فيروز. بيروت. تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١. ص ٤٠-٤١ .

١٠٦- السيد فضل الله، محمد حسين: تأملات إسلامية حول المرأة. المقدمة .

١٠٧- قدوره، زاهية: لعبت المرأة دوراً كبيراً في تطور الحياة العربية.. التيار الانفلاتي الخطير يهدد الأسرة اللبنانية. الدليل اللبناني. مجلة الاقتصاد والعلم والاجتماع. بيروت. عدد خاص. نيسان – أيار ١٩٦٥ .ص٤٣- ٤٥.

١٠٨- كمثال على ذلك تراجع بعض أبحاث زاهية قدوره، منها: " بيروت ساحل الشام وقصبته". مجلة دراسات إسلامية. بيروت. العدد٤. بيروت ١٩٩١، والبحث الموسوم بعنوان: سيرة ذاتية لسيدة عظيمة اسمها بيروت (مخطوط).

١٠٩- قدوره، زاهية: " المرأة البيروتية، تاريخ ومواقف ". مجلة تاريخ العرب والعالم. بيروت. العدد ١٣٥. كانون الثاني – شباط / يناير – فبراير ١٩٩٢ .

١١٠- يراجع حلاق، حسان: بيروت المحروسة في العهد العثماني . ص ١٢٩ – ١٣٠.

١١١- الخطيب، حنيفة: المرجع نفسه. ص ٢٠.

١١٢- قدوره، زاهية: " المرأة البيروتية، تاريخ ومواقف ". مرجع سابق.

١١٣- في العام ١٩٨١ وفي الفترة من ٢٠ إلى٢٦ نيسان/أبريل شاركت زاهية قدوره، في أعمال المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الإسلامية، بدعوة من رئيس جامعة دمشق، حيث تقدمت ببحث عنوانه: "القيم والأعراف الأخلاقية في الحضارة العربية الإسلامية". نشر في كتاب المؤتمر. ثم ألقته محاضرة في المركز الثقافي الإسلامي في بيروت، في ٣١ /٣ / ١٩٨٨.

١١٤- قدوره، زاهية بحث : القيم والأعراف الأخلاقية في الحضارة العربية الإسلامية. ص٥.

١١٥- لابد من الإشارة، إلى أن زاهية قدوره، عندما بحثت عن القيم والأعراف الأخلاقية، أنها لم تخصص الكتابة عن تلك المعطيات عند الإنسان المسلم والإنسان العربي. وأنها كانت مقتصرة فقط على المسلمين، لا بل على العكس من ذلك، لقد كانت زاهية قدوره تنبذ هذه العريفات، وفي كل مجاري حياتها لم تكن تستثن الإنسان المسيحي عن مثل هذه الأعراف والقيم. وفي مجمل اللقاءات التي عقدت معها لمناقشتها في بعض الآراء والأفكار، المتعلقة بطروحاتها، لم يكن يبدر منها ذكر لأي تعبير كمثل: (هذا مسلم وهذا مسيحي). لقد كانت زاهية قدوره تكره هذه التسميات، والدليل على ذلك بعض المقالات والأبحاث التي وضعتها عن أهل الذمة في الإسلام. وكانت قد أطلقت مقولة شهيرة، وهي أن

الوحدة العربية نهض بها المسيحيون قبل أن يعاضدهم المسلمون. وكانت من القائلين بأن الحياة العربية ليست وقفاً على المسلمين وحدهم أو على المسيحيين وحدهم، وخصوصاً في لبنان، بل هي قائمة ولا بد أن تقوم على تعاون الاثنين معاً. مقابلة مع زاهية قدوره بتاريخ ١٩٩٧/١٢/١٥. (أذن بالإشارة إليه).

١١٦- قدوره، زاهية: المرجع نفسه.

١١٧- رودنســون، مكسيم: الإسلام سياسة وعقيدة. من دون تحديد لرقم الصفحة، وغارودي روجيه: الإسلام الحي. ص ١٤٧ – ١٥٠.

١١٨- هوفمان، مراد (سفير ألمانيا بالرباط – المغرب): « الإسلام كبديل «. مجلة النور. الكويت. ١٩٩٣.

١١٩- قدوره، زاهية: المرجع السابق.

١٢٠- لمزيد من التوسع حول هذا الموضوع، هناك بحث كانت قد وضعته زاهية قدوره، وكان بعنوان: الحرائر والجواري في العصر العباسي الأول (مخطوط).

١٢١- عندما حث النبي صلى الله عليه وسلم على طلب العلم، وكان قصده كما قيل أن يلم المسلم بمختلف ما أنتجته قرائح البشر، وأن لا تمنعه عن ذلك أي عقبة. وطالبه بأكثر من ذلك، عندما طلب إليه أن لا تقعده الصعاب عن تحصيل العلم. وذهب النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من ذلك، عندما طلب من المسلمين باتباع العلماء والاقتداء بهم، فقال: «اتبعوا العلماء فإنهم سراج الدنيا ومصابيح الآخرة» . السيوطي: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير. ج١. ص٣٨ و٤٣.

١٢٢- قدوره، زاهية: القيم والأعراف الأخلاقية في الحضارة العربية الإسلامية. محاضرة ألقيت في المركز الثقافي الإسلامي في بيروت، وقدّمها فيها السفير صلاح عبوشي.

الخـاتمـة

في دراسة حياة الباحثين والمؤلفين، واستطلاع آفاق أفكارهم ودراساتهم الممتدة على موضوعات مختلفة، وفروع المعرفة المتعددة وفنونها، تصعب الإحاطة بمجمل آثارهم، وتبدو دراسة ذلك؛ محاولة ناقصة، إن لم تكن عاجزة ومقصرة عن الغاية التي تنهض من أجلها أي دراسة مهما كانت. من هنا يكون منشأ الهيبة التي تصيب كل من يحاول التصدي لحياة أعلام الفكر والأدب، أو أحد رواد العلوم التربوية والعلوم الإنسانية والاجتماعية، بالبحث والتقميش والتحليل لأطر طروحاتهم وأفكار منظوماتهم، التي قضوا ردحاً طويلاً من حياتهم يعملون على ترجمتها بين مريديهم، أو نشرها بين طبقات المجتمع الذي نشأوا فيه.

الكلام عن تراث زاهية قدوره، وأبحاثها ودراساتها الموزعة على مناح متعددة، تربوية - وأكاديمية وثقافية وسياسية واجتماعية وغيرها، لا تحتاج إلى دارسٍ واحد، بل لعدة بحاثة يجولون بين أفكارها ومنظوماتها وطروحاتها، التي استهلكت منها جهوداً كبيرة على مدار السنوات الثمانين من عمرها. والكلام على ذلك، يقود إلى البحث حول دورها كناشطة تربوية وأكاديمية ومترجمة وحدوية، بالدعوة إلى القومية العربية، التي طرحت حولها شعار: « العدالة والحرية والمساواة وتكافؤ الفرص».

نشأت الغاية من هذا المؤلف للإضاءة على المكانة التي وصلت إليها منذ صغرها. فقامت الدراسة أولاً على التعريف باتجاهاتها السياسية منذ يفاعة سنها. وانصب الجهد على توضيح الإندفاعة التي كانت عليها، وهي في العشرين ربيعاً، بعد أن باتت تدرك أي مسؤوليات ستواجهها في الفترة التالية من حياتها، وإن لم تدرك كنه حقيقتها بعد في تلك الفترة.

وانتقلنا بعد ذلك إلى محطة بارزة في حياتها، وهي فترة الدراسة الجامعية في مصر. فقد توقفنا فيها عند كل تجلياتها، للإشارة إلى أن مداركها العقلية في هذه المرحلة، قد وصلت إلى درجة تؤهلها لتولي المسؤوليات، وتحمل تبعات ثقة أهلها والآخرين بها.

هذه الثقة بشخصها، كانت الدافع عند جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، التي أوفدتها إلى مصر على رأس بعثة طلاب الجمعية، لتكون أول فتاة عربية وغير مصرية تدخل إلى جامعة فؤاد الأول (القاهرة فيما بعد)، وتنتسب إلى قسم الماجستير للحصول على الدرجات العلمية التي كانت تسعى إليها.

وبعد دراسة الفترة التي قضتها في مصر وتظهير الصورة التي كانت عليها في أثناء الدراسة في القاهرة. تبين لنا أنه من خلال تسلحها بالثقة الزائدة بالنفس، ومن كونها بنت عائلة بيروتية عريقة، فقد تمكنت من اختراق أسوار العائلات المصرية، طبقياً واجتماعياً، وأقامت معهم علاقات وثيقة وربطتها بهم صداقات متينة، ما جعلها تتحمل بشخصها، تبعات ومسؤوليات مئتي طالب لبناني وعربي، يتابعون دراساتهم في الجامعات المصرية. فتولت تسهيل معاملاتهم وتأمين طلباتهم المختلفة، فضلاً عن

تسيير أمورهم الأخرى مع المسؤولين عن شؤون التربية والتعليم في مصر.

أما المرحلة الثانية من العمل، فقد اتسمت بالصعاب وأحيطت بالمشاكل من مختلف الاتجاهات. وقد تبدى ذلك غداة عودتها إلى بيروت تحمل درجة الدكتوراه، حيث كانت تعتقد أن أبواب العمل مشرعة أمامها في كل الاتجاهات والأنحاء، وقد خاب أملها وأحبط فألها، عندما وجدت أن دون ذلك عقبات كأداء.

وتم الوقوف بعض الشيء، عند آمالها وتطلعاتها المختلفة، التي وجدت صداها الواسع وقيمتها الحقيقية عندما عادت إلى بيروت، لتبدأ منها رحلة الألف ميل التربوية. وكذلك مسيرة توجيه عشرات الشباب الذين عملت على تعليمهم وترشيدهم، بالتوجيه العلمي الصحيح؛ الحضاري والإنساني.

وتم العمل على توضيح نقطتين أثرتا بحياتها، وتأثرت بهما لدرجة معينة. تمثلت الأولى بقيام ثورة تموز/ يوليو عام ١٩٥٢، والطريقة التي تعاملت بها مع الثورة، وتبدت من خلال المقالات والمؤلفات التي وضعتها عن الحركة الناصرية، وحضت فيها على تبني قائد الثورة لفكرة القومية العربية، التي رأت أنها كانت من الحركات المضيئة والمشرقة في حياة الأمة العربية الحديث. والنقطة الثانية كانت حول تأسيس اتحاد الجامعيات اللبنانيات، وظروف نشأته، والعوامل التي أحاطت بأنشطته وأهدافه.

وتعتبر الفترة من عام ١٩٧١ إلى ١٩٧٧، من الفترات المهمة في مسيرة حياة زاهية قدوره، بالرغم مما شابها من عوامل سلبية وإيجابية، وممارسات خاطئة ارتكبت بحقها، واتهامات ألصقت بها، فضلاً عن المشاكسات والحروب، التي شنت على نهجها وخطتها التربويين.

فظهر أن تعيينها عميدة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية، في عام ١٩٧١ أحدث ثورة اجتماعية وإنسانية وتربوية لم ترض العنصر الذكري، وأغضبت أيضاً بعض أطراف الحركة النسائية في ذلك الوقت، لا لشيء إلا لخوفهن من أن وصول إمرأة إلى هذا المنصب التربوي المهم والحساس في الآن، سوف ينعكس سلباً على شريحة واسعة من أبناء المجتمع اللبناني، الذين يعتقدون أن هذا المنصب حكراً عليهم وحدهم، وليس لأحد أن ينافسهم عليه أو أن ينتزعه منهم، مهما كان جنسه وعنصره ونزعته. فخشي هؤلاء من وصول شخصية تحمل في فكرها نوراً، وفي عقلها تحرراً، وفي علمها أبعاداً نهضوية، بالإضافة إلى ميولها الوطنية والعربية والقومية. فلم يملك هؤلاء حيال ذلك، إلا معارضة خططها وتوجهاتها؛ ليظهر ذلك وكأن المرأة تعارض وصولها إلى هذا المنصب.

واجهت زاهية قدوره في عمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ثلاث حروب شنت عليها. الأولى هي كثرة الاعتراضات على عملها، ومنعها من تطوير كلية الآداب وانطلاقتها، لمواكبة حركات التقدم التي كانت تشهدها أرقى الجامعات في العالم. ثم المشاكسات الطلابية التي تمكنت بحكمتها ودرايتها وبُعد نظرتها للأمور، من التعامل معها ومحاورة القائمين والمسؤولين عن تحركاتها، بالطرق العلمية

والموضوعية التي اعتمدتها.

أما الحرب الثالثة التي اضطرت إلى خوضها مكرهة، فهي حرب الدفاع عن وحدة الجامعة اللبنانية، وعدم التساهل والسكوت عن تمزقها وتفتتها وتشتتها؛ نتيجة ظروف عديدة وعوامل مختلفة. وكانت تعتقد بأن الحرب اللبنانية ليست هي السبب الرئيس في تفتت الجامعة اللبنانية، وشرذمتها إلى فروع وكليات، بقدر ما كانت تؤمن أن سبب ذلك عوامل وعناصر ما زالت تحول حتى الآن دون توحدها. وكانت من ابرز المطالبين بإقامة البناء الجامعي الموحد منذ ما يزيد على ربع قرن واكثر .

كان فكر زاهية قدوره وتنورها الثقافي، يتعامل مع جميع التطورات التربوية والعلمية والسياسية بكل وضوح وصدق وواقعية. ومن ذلك أن مسيرة حياتها، لم تتوقف عند السلبيات العديدة التي واجهتها، والمعارك المختلفة التي شنت عليها، بل عرفت على الدوام بحكمة واسعة مكنتها من معالجة كل ما واجهها من مشاكل، واختيار الوسائل المناسبة للتصدي لمعالجتها.

وأدركت في الوقت نفسه، أن عليها مواصلة تقدمها في معارج الفكر والثقافة، وهو الأمر الذي حققته بزواجها، من الدكتور محمد عبد السلام كفافي، حيث ساهم هذا الزواج في تألق وهجها الثقافي، مع فكر الدكتور كفافي، المنطلق من رحاب الحضارة العالمية، الذي ساعدها لتنهل من ثقافته أشياء كثيرة أضافتها إلى شخصيتها، فأشاعت ذلك على طلابها في الجامعتين اللبنانية وبيروت العربية. كما أن إيمانها بوطنها الذي أحبت، وبعروبتها التي آمنت، كان له أفضل الآثار الإيجابية التي انعكست على نهجها وسلوكها العلمي والأكاديمي؛ مما مكنها من التربع على مساحة واسعة وسنية من الصروح العلمية والتربوية.

وهو الأمر الذي حفز جامعة بيروت العربية على طلب انضمامها إلى أعضاء هيئة التدريس فيها، لتكون أحد أعلام أساتذة الحضارة العربية والإسلامية، التي أعطتها من خلال شروحاتها ومحاضراتها فيها، أبعادها الإنسانية ومقوماتها الحضارية، وعناصرها الأساسية التي قامت عليها.

لم يكن لطموحات زاهية قدوره الأكاديمية حدود معينة، فقد كانت تتطلع إلى قيام جامعة لبنانية تتعدى حدود الوطن. أرادتها جامعة الطموحات الوطنية، لتعمل من خلالها على توحيد أبناء الوطن جميعاً، ليسموا بهذه الجامعة وتسمو بهم، ولينطلقوا من جامعتهم مزودين بتعاليمها، متسلحين بقيمها، متجملين بشعاراتها، إلى رحاب الحضارة والثقافة الإنسانية كما فعل أجدادهم من قبلهم.

وتجدر الإشارة، إلى أن العديد من مشاريع الجامعة اللبنانية في الوقت الحاضر، فيها الكثير من بصمات زاهية قدوره. وأن معظم المقترحات التي وضعتها منذ ما يزيد على ربع قرن وأكثر، باتت اليوم من الموضوعات التي تأخذ مساحات واسعة من مشاريع تطويرها.

ومن ضمن الأفكار التي أتينا عليها وتوضيحها الاعتقاد الذي ترسخ عند زاهية

قدوره، بأن الكتابة التاريخية، هي مسؤولية وطنية وقومية، يقع عبؤها على كاهل المؤرخ الصادق، الملتزم بالوعي والمتجمل بالكفاءة العلمية. وهذا الأمر كان الدافع وراء انتقادها المستمر، للطريقة التي تمر بها عملية تدوين التاريخ في المرحلة اللبنانية المعاصرة.

وقد أفردنا حيزاً مهماً لمعظم، إن لم يكن لجميع بحوثها ومحاضراتها والكلمات العديدة التي وضعتها في مناسبات مختلفة، وضمنتها طروحاتها المتنوعة، وكذلك دراسة كتبها ومؤلفاتها، لإنارة الجوانب الفكرية والثقافية والعلمية التي تضمنتها هذه المؤلفات والدراسات، وتم عرضها بشكل موجز وأفكار مختصرة، لإظهار أهميتها ومعانيها، بأسلوب جهد بالابتعاد عن الإطالة والشروحات الواسعة خشية التكرار، لأن التقصير لا يجب أن يعتبر نقيصة، كما أن الإفاضة ليست فضيلة.

إن المواضيع التي اشتغلت عليها زاهية قدوره كثيرة ومتشعبة، حفلت بها ثمانون سنة من العطاء والتأليف والكتابة. تشابكت فيها السياسة مع الفكر، والتاريخ مع التحليل العلمي والموضوعي لمجرياته ووقائعه، بالإضافة إلى التربية المنفتحة والمتنوعة بقالب أدبي وبصور حضارية وإنسانية غلفت مجلد هذا التراث الواسع والشامل. فكان من الواجب تفحص أوراقه جميعها ودراستها، بروح العلم المنطلق من رحاب المعرفة؛ لاثبات أهميته وفائدته وتبيان مكانته وفرادة صاحبته في الحياة التربوية والتاريخية والأدبية والعلمية.

بعد الفراغ من البحث، في محطات زاهية قدوره وكتبها ودراساتها التربوية والسياسية والثقافية والاجتماعية، يقف القَلَمُ في محطة عِلم تسمى الخاتمة، لا لتختم العِلْم؛ لأنه لا أخير في عِلْم، ولا نهاية في تمحيص وبحث وفَهْم.. فباب العِلْم مشرع، يصدقه قوله جلَّ وعلا: { وفوق كلّ ذي عِلْم عليم } ...بل لتحط الرحال وتلقي عصا الترحال مفرّغة ما حصلت عليه في ميناء يسمى: « الخاتمة» فرضه المنهج القويم والفكر المستقيم.

لم يكن هذا العمل المتواضع بمثابة تأريخ لسيرة ومسيرة زاهية قدوره فقط، بقدر ما كان للإضاءة اللماعة على المكانة التي تمكنت من تحقيق مساحتها الكبيرة في قلوب الأشخاص الذين تعرفت إليهم وكانت تتعامل معهم، سواء في بيروت أو القاهرة. والاحترام الذي فرضته في نفوس الذين كانت تختلف معهم عقائدياً وفكرياً، من دون أن يخل ذلك بالود المطلوب في ساعات المحنة والشدة.

تعلمت زاهية قدوره من الكبار الذين صادفتهم الترفع والتواضع، وأخذت عنهم رغبة التزود بمختلف أنواع المعارف والعلوم، والتجلبب بالثقافة الوافرة.

وقد تم العمل على إبراز مجمل هذه النقاط وتلك العناوين التي كان لها أثر كبير في صقل شخصيتها بالعلم والمعرفة والخبرة في الحياة، التي عرفت كيف تستفيد منها جميعها في مختلف ميادينها التي ولجتها. وبخاصة في مسيرتها التعليمية والأكاديمية، وكذلك الفكرية والثقافية، طوال سنوات نضالها وجهادها.

هذه المسيرة التي أجمع المراقبون والمؤرخون على غناها الفكري، وثرائها

الثقافي، وتطورها الحضاري من خلال لولبية صاحبتها التي لم تعمل على منحى واحد، مكتفية منه بتحقيق بعض المكتسبات والإنجازات، بل تعددت مناحيها وتشعبت. فإذا ما حاولنا البحث في التربوي والثقافي، نكون نغبط السياسي حقه، وإذا ما تعمقنا في الاجتماعي، يجب أن لا نهمل نقطة واحدة من منحاها النسائي .

أما إيمانها الإسلامي والقومي، فهما اللذان سببا لها المشاكل وأوجدا من حولها الأعداء والخصوم. لأن الحروب التي شنت عليها والمعارك التي اضطرت لخوضها، لم تكن بسبب تعصبها الإسلامي، بقدر ما كان من تمسكها بقوميتها ونزعتها العربية التي غرستها في عقول الطلاب، فضلاً عن تزعم تيار عريض من الشباب الوطني العربي، لتعريفه إلى معانيه القومية، ودفعه للأيمان، والعمل لتحقيق الشعارات التي رفعتها[٢].

وكانت زاهية قدوره أيضاً مصلحة ومربية ومؤرخة وقائدة مسيرة، وأي واحدة من هذه المعاني والقيم لا تقل أهمية عن الأخرى، وكل تيار أو فكرة آمنت بها وعملت من أجلها بحاجة لأكثر من دراسة وبحث معمّق، لإظهار حقيقة أفكارها، واثبات صحة نظرياتها، والتأكيد على حسن توجهاتها.

وأشير أخيراً، إلى أنه يمكن أن يكون قد حصل تقصير غير مقصود في نواح وصارت إفاضة في أخرى، أو أن تكون نقطة من النقاط قد أخذت حقها في هذا الكتاب، وحصل عجز في نقاط من هنا، أو فكرة من هنالك. وهذا الأمر على كل حال ليس من أبواب الخطأ والنقيصة، ولا عذر فيه. إنما تراث كالذي تم التعرف إليه واستقصاء معظم إن لم يكن أغلب مفاصله، تصعب الإحاطة به كاملاً مكتملاً، بهذا الكم، من اللقيات الفكرية والتربوية - الثقافية والأدبية والسياسية والاجتماعية، الموزعة في أرشيف زاهية قدوره. بالإضافة إلى الأوراق والمجلدات الكبيرة التي ضمت عشرات الدراسات والأبحاث، فضلاً عن المغلفات الكبيرة التي كانت تحتوي على مئات الأوراق المخطوطة في مواضيع متنوعة.

هوامش الخاتمة

١ - قالت زاهية قدوره في هذه المناسبة: «إن ما تعرضت له في فترة حاسمة ومهمة من تاريخ عمادتي، لم يكن سهلاً عليَّ، وإذا كنت على الصعيد الشخصي، أستطيع تقبله مع الأخطاء التي اقترفت بحقي، فإنني لا أستطيع على الصعيد الوطني، أن أقبل بهذا اللون من التعصب الحزبي، الذي يقوّم الأشياء، ليس من خلال قيمتها في إطارها الموضوعي، ولكن من خلال المصلحة، والعصبية الفئوية. لقد واجهت المارونية السياسية بجميع أشكالها، ورفضت فيها ما كانت تمثله من فئوية وانحياز، وتعال، ولن أقبل أن تحل محلها، فئوية مقنعة باللباس الوطني والتقدمي.. كما أرفض وبشدة التعصب الطائفي السلبي ضد العروبة. إني لم أتخل، ولن أتخلى عن مبادئي وعقيدتي، وسأظل أكافح في سبيلها إلى آخر لحظة من عمري.. ولذلك لم أكن مستعدة لقبول دروس في الوطنية، ممن أعمتهم – ولو لفترة – أغراضهم الحزبية».يراجع قدوره، زاهية: رحلة العمر. ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

قدوره، بأن الكتابة التاريخية، هي مسؤولية وطنية وقومية، يقع عبؤها على كاهل المؤرخ الصادق، الملتزم بالوعي والمتجمل بالكفاءة العلمية. وهذا الأمر كان الدافع وراء انتقادها المستمر، للطريقة التي تمر بها عملية تدوين التاريخ في المرحلة اللبنانية المعاصرة.

وقد أفردنا حيزاً مهماً لمعظم، إن لم يكن لجميع بحوثها ومحاضراتها والكلمات العديدة التي وضعتها في مناسبات مختلفة، وضمنتها طروحاتها المتنوعة، وكذلك دراسة كتبها ومؤلفاتها، لإنارة الجوانب الفكرية والثقافية والعلمية التي تضمنتها هذه المؤلفات والدراسات، وتم عرضها بشكل موجز وأفكار مختصرة، لإظهار أهميتها ومعانيها، بأسلوب جهد بالابتعاد عن الإطالة والشروحات الواسعة خشية التكرار، لأن التقصير لا يجب أن يعتبر نقيصة، كما أن الإفاضة ليست فضيلة.

إن المواضيع التي اشتغلت عليها زاهية قدوره كثيرة ومتشعبة، حفلت بها ثمانون سنة من العطاء والتأليف والكتابة. تشابكت فيها السياسة مع الفكر، والتاريخ مع التحليل العلمي والموضوعي لمجرياته ووقائعه، بالإضافة إلى التربية المنفتحة والمتنوعة بقالب أدبي وبصور حضارية وإنسانية غلفت مجلد هذا التراث الواسع والشامل. فكان من الواجب تفحص أوراقه جميعها ودراستها، بروح العلم المنطلق من رحاب المعرفة؛ لاثبات أهميته وفائدته وتبيان مكانته وفرادة صاحبته في الحياة التربوية والتاريخية والأدبية والعلمية.

بعد الفراغ من البحث، في محطات زاهية قدوره وكتبها ودراساتها التربوية والسياسية والثقافية والاجتماعية، يقف القَلَمُ في محطة عِلم تسمى الخاتمة، لا لتختم العِلْم؛ لأنه لا أخير في عِلْم، ولا نهاية في تمحيص وبحث وفَهْم.. فباب العِلْم مشرع، يصدقه قوله جلّ وعلا: { وفوق كلّ ذي عِلْم عليم }...بل لتحط الرحال وتلقي عصا الترحال مفرّغة ما حصلت عليه في ميناء يسمىّ: « الخاتمة» فرضه المنهج القويم والفكر المستقيم.

لم يكن هذا العمل المتواضع بمثابة تأريخ لسيرة ومسيرة زاهية قدوره فقط، بقدر ما كان للإضاءة اللماعة على المكانة التي تمكنت من تحقيق مساحتها الكبيرة في قلوب الأشخاص الذين تعرفت إليهم وكانت تتعامل معهم، سواء في بيروت أو القاهرة. والاحترام الذي فرضته في نفوس الذين كانت تختلف معهم عقائدياً وفكرياً، من دون أن يخل ذلك بالود المطلوب في ساعات المحنة والشدة.

تعلمت زاهية قدوره من الكبار الذين صادفتهم الترفع والتواضع، وأخذت عنهم رغبة التزود بمختلف أنواع المعارف والعلوم، والتجلبب بالثقافة الوافرة.

وقد تم العمل على إبراز مجمل هذه النقاط وتلك العناوين التي كان لها أثر كبير في صقل شخصيتها بالعلم والمعرفة والخبرة في الحياة، التي عرفت كيف تستفيد منها جميعها في مختلف ميادينها التي ولجتها. وبخاصة في مسيرتها التعليمية والأكاديمية، وكذلك الفكرية والثقافية، طوال سنوات نضالها وجهادها.

هذه المسيرة التي أجمع المراقبون والمؤرخون على غناها الفكري، وثرائها

الثقافي، وتطورها الحضاري من خلال لولبية صاحبتها التي لم تعمل على منحى واحد، مكتفية منه بتحقيق بعض المكتسبات والإنجازات، بل تعددت مناحيها وتشعبت. فإذا ما حاولنا البحث في التربوي والثقافي، نكون نغبط السياسي حقه، وإذا ما تعمقنا في الاجتماعي، يجب أن لا نهمل نقطة واحدة من منحاها النسائي.

أما إيمانها الإسلامي والقومي، فهما اللذان سببا لها المشاكل وأوجدا من حولها الأعداء والخصوم. لأن الحروب التي شنت عليها والمعارك التي اضطرت لخوضها، لم تكن بسبب تعصبها الإسلامي، بقدر ما كان من تمسكها بقوميتها ونزعتها العربية التي غرستها في عقول الطلاب، فضلاً عن تزعم تيار عريض من الشباب الوطني العربي، لتعريفه إلى معانيه القومية، ودفعه للأيمان، والعمل لتحقيق الشعارات التي رفعتها(٢).

وكانت زاهية قدوره أيضاً مصلحة ومربية ومؤرخة وقائدة مسيرة، وأي واحدة من هذه المعاني والقيم لا تقل أهمية عن الأخرى، وكل تيار أو فكرة آمنت بها وعملت من أجلها بحاجة لأكثر من دراسة وبحث معمّق، لإظهار حقيقة أفكارها، واثبات صحة نظرياتها، والتأكيد على حسن توجهاتها.

وأشير أخيراً، إلى أنه يمكن أن يكون قد حصل تقصير غير مقصود في نواح، وصارت إفاضة في أخرى، أو أن تكون نقطة من النقاط قد أخذت حقها في هذا الكتاب، وحصل عجز في نقاط من هنا، أو فكرة من هنالك. وهذا الأمر على كل حال ليس من أبواب الخطأ والنقيصة، ولا عذر فيه. إنما تراث كالذي تم التعرف إليه واستقصاء معظم إن لم يكن أغلب مفاصله، تصعب الإحاطة به كاملاً مكتملاً، بهذا الكم، من اللقيات الفكرية والتربوية - الثقافية والأدبية والسياسية والاجتماعية، الموزعة في أرشيف زاهية قدوره. بالإضافة إلى الأوراق والمجلدات الكبيرة التي ضمت عشرات الدراسات والأبحاث، فضلاً عن المغلفات الكبيرة التي كانت تحتوي على مئات الأوراق المخطوطة في مواضيع متنوعة.

هوامش الخاتمة

١ - قالت زاهية قدوره في هذه المناسبة: «إن ما تعرضت له في فترة حاسمة ومهمة من تاريخ عمادتي، لم يكن سهلاً عليَّ، وإذا كنت على الصعيد الشخصي، أستطيع تقبله مع الأخطاء التي اقترفت بحقي، فإنني لا أستطيع على الصعيد الوطني، أن أقبل بهذا اللون من التعصب الحزبي، الذي يقوِّم الأشياء، ليس من خلال قيمتها في إطارها الموضوعي، ولكن من خلال المصلحة، والعصبية الفئوية. لقد واجهت المارونية السياسية بجميع أشكالها، ورفضت فيها ما كانت تمثله من فئوية وانحياز، وتعال، ولن أقبل أن تحل محلها، فئوية مقنعة باللباس الوطني والتقدمي.. كما أرفض وبشدة التعصب الطائفي السلبي ضد العروبة. إني لم أتخل، ولن أتخلى عن مبادئي وعقيدتي، وسأظل أكافح في سبيلها إلى آخر لحظة من عمري.. ولذلك لم أكن مستعدة لقبول دروس في الوطنية، ممن أعمتهم – ولو لفترة – أغراضهم الحزبية».يراجع قدوره، زاهية: رحلة العمر. ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

مصادر الكتاب، ومراجعه

أولاً : وثائق ومخطوطات غير منشورة

١ - **وثائق وتقارير ومراسلات زاهية قدوره ١٩٧١ - ١٩٧٧**

تم تصنيفها على خمس مجموعات، توزعت على النحو التالي:

أ - **التقارير السنوية** التي تضمنت سير أعمال كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية، والأعمال التي تم إنجازها، والمشاريع المستقبلية، التي كان يتم اقتراحها.

ب – **المراسلات مع رؤساء الجمهورية** التي كانت تتضمن شرحاً للمشاكل والصعوبات، التي كانت تعترض سير العمل الأكاديمي، والعراقيل التي كانت تنشأ.

ج – **المراسلات مع رؤساء الوزارات اللبنانية** الذين كان يتم إطلاعهم على المشاكل التي كانت تفتعل، وشرح السبل التي كانت تراها كفيلة لانطلاق عملية الإصلاح في الجامعة اللبنانية.

د – **المراسلات مع وزراء التربية**، المؤتمنين على الجامعة اللبنانية، والحريصين على الاهتمام والنهوض بعملية التربية في لبنان.

هـ – **المراسلات مع رؤساء الجامعة اللبنانية** للاستئناس بأفكارهم وتوجيهاتهم، وإقامة العلاقات الجيدة معهم، كالدكتور إدمون نعيم والدكتور بطرس ديب والدكتور جورج طعمه. وقد شهدت الجامعة في عهودهم كثيراً من الأعمال الجيدة.

٢ - **محاضر جلسات مجلس كلية الآداب والعلوم الإنسانية ما بين الفترة ١٩٧١-١٩٧٧** تي كانت الغاية منها توضيح الجوانب التي كانت تسير عليها الأعمال. وللإطلاع على تفاصيل العلاقات التي كانـت تحكم طبيعة العمل بين الأساتذة أعضاء مجلس الكلية، وأفراد الهيئة التعليمية والموظفين. وقد تضمنت هذه المحاضر عدداً من المشاكل والمناقشات التي كانت تدور في اجتماعات مجلس الكلية نتيجـة ظروف متعددة، كانت تحكم طبيعة العلاقات التي سـادت آنذاك. وقد تم التطرق إلى هذه المراسلات، للتعرف إلى شخصية زاهية قدوره الإدارية، التي كانت لا تختلف عن شخصيتها الثقافية والسياسية والاجتماعية. ومن المفيد الإشارة، أن التعرض لهذه الوثائق والمخطوطات، وإن لم تتم دراستها وبحثها ومناقشتها في سياق دراسة مكونات شخصيتها المتنوعة، إلا أن الإطلاع عليها، كانت حاجة ضرورية للتعرف على المنهجية العملية الأكاديمية والاجتماعية التي كانت عليها تصرفاتها وسـادت ممارساتها المختلفة.

٣ - **الرسائل والكتب التي تم توجيهها إلى الشخصيات المختلفة**، الأنثوية والذكرية بخاصة، السياسية والثقافية والفكريـة والتاريخية والاجتماعية، ومع الوزراء والنواب ورجال التربية والتعليم في العالمين العربي والدولي، فضلاً عن الأشخاص الذين تعرفت إليهم وارتبطت بصداقات وبأعمال وعلائق متعددة معهم، سواء في القاهرة أو في بيروت، أو في العالمين العربي والدولي.

٤ - **أرشيف اتحاد الجامعيات اللبنانيات** التي عملت الدكتورة على ضم جميع الكتب والتقارير والبيانات المتلقة المتعلقة به ضمن مجلدات خاصة.

٥ - **قصاصات الأوراق** التي كانت متوافرة بكثرة في مكتبة الدكتورة، وتم العـمل على فرزها وتعريبها،لدراستها وتحليلها. وكانت تحوي العديد من أفكارها وطروحاتها، والمواضيع التي

دارت عليها معظم دراساتها وأبحاثها.

٦ - **مسودة مخطوطة مذكرات زاهية قدوره** التي شكلت مع أعداد جريدة اللواء التي نشرت فصولاً قصيرة من حياتها خلال العام ١٩٨٧، كانت معيناً وسـنداً، تم الاعتماد عليه لتكوين صورة أولية لدراسة مسيرة حياتها الذي ظهرت كاملة في كتاب : رحلة العمر.

٧ - **مذكرات زاهية قدوره الموسومة بكتاب: رحلة العمر** وقد صدر في طبعته الأولى في شهر تشرين الأول عام ١٩٩٩ عن دار اللواء للصحافة والنشر.

٨ - **مكتبة زاهية قدوره** الغنية بالكتب والمؤلفات التاريخية والعلمية والتربوية الثمينة، والتي ساعدت في سبر غور شخصيتها العلمية والأدبية والفكرية والثقافية. وقد تم الملاحظة منها، أن الدكتورة كانت تقرأ بكثرة وبتمعن وتبحر، ولم تكن قراءاتها عابرة أو هامشية. والدليل على ذلك أنها كانت في أثناء قيامها بذلك، تدون الملاحظات الكثيرة على الكتاب الذي كانت تقوم بقراءته.

٩ - **مجموعة كبيرة من المجلدات**، والتي ضمت بيانات ومراسلات وتقارير متبادلة بينها وبين مجموعات من الشخصيات والفعاليات والهيئات المحلية والعربية والدولية، بالإضافة إلى الأبحاث والمحاضرات والندوات والكلمات المختلفة، التي وضعتها منذ بدء أنشطتها وتعاطيها بالحياة العامة.

ثانياً : مؤلفات زاهية قدوره

أ - الكتب المنشورة

١ - عائشة أم المؤمنين. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٨٨.

٢ - الشعوبية وأثرها السياسي والاجتماعي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول. دار الكتاب اللبناني. بيروت ١٩٧٢.

٣ - تاريخ العرب الحديث. دار النهضة العربية. بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤ - شبه الجزيرة العربية: كياناتها السياسية. دار النهضة العربية، من دون تاريخ.

٥ - محاضرات تاريخ الدولة العربية. مطبوعات كريدية إخوان. بيروت ١٩٦٨.

٦ - بحوث عربية وإسلامية. معهد الإنماء العربي. بيروت ١٩٨٤.

٧ - رحلة العمر. دار اللواء للصحافة والنشر. بيروت ١٩٨٤

٨ - أبحاث في العروبة والإسلام ٢٠٠٠. دار النهضة العربية. بيروت ٢٠٠٠.

ب – **مخطوطات باللغة العربية***(1)

١ - العرب منذ الجاهلية إلى آخر صدر الإسلام.

٢ - الدولة العربية – الأمويون .

٣ - الدولة العباسية، الدويلات الإسلامية.

٤ - قضايا حضارية عربية وإسلامية.

٥ - المرأة في العصر العباسي.

٦ - تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

* 1 بذلت محاولات كثيرة للبحث عن هذه المخطوطات في مكتبة زاهية قدوره وبين أرشيفها، ولكن من دون أن نوفق بالعثور على أي منها سـوى مخطوط الحرائر والجواري.

٦ - الحرائر والجواري في العصر العباسي.

ت - أبحاث غير منشورة باللغة العربية

١ - المواطن أمام مسؤولياته ١٩٦٤

ث - أبحاث غير منشورة باللغة الانكليزية

١-The Arab Women

٢- Women In Islam

٣- Arab Civilisation

ج - الأبحاث المنشورة

١- الزواج والطلاق، تعدد الزوجات ١٩٥٣.
٢- العصبية في المجتمع العربي ١٩٥٤.
٣- بين التربية والتاريخ ١٩٦١.
٤- مساهمة الجامعية في التطوير العلمي للمجتمع ١٩٦٧.
٥- مهمة الجامعة ١٩٧١.
٦- النظام التربوي في لبنان ١٩٧٢.
٧- تعاون الجامعات العربية في خدمة المجتمع العربي ١٩٧٣.
٨- التنسيق والتعاون بين كليات الآداب في الجامعات العربية ١٩٧٣.
٩- حقوق المرأة في الإسلام ١٩٧٣.
١٠- العلاقات بين مصر ولبنان في العصر الحديث ١٩٧٤.
١١- الجامعية في بناء المجتمع العربي المعاصر ١٩٧٥.
١٢- الحقيقة التاريخية عند ابن خلدون ١٩٧٥.
١٣- المرأة في الأسرة الإسلامية ١٩٧٥.
١٤- جولة في معالم التاريخ الإسلامي ١٩٧٦.
١٥- المرأة في حياة الرسول ١٩٧٧.
١٦- الجامعة ودورها في المجتمع ١٩٧٧.
١٧- بيروت من خلال ابن عساكر ١٩٧٩.
١٨- مفاهيم التاريخ في المرحلة القومية المعاصرة ١٩٧٩.
١٩- مفكران لبنانيان وقضية فلسطين: نجيب عازوري وميشال شيحا ١٩٨٠.
٢٠- نجيب عازوري من خلال زمانه ومكانه ١٩٨٠.
٢١- القيم والأعراف الأخلاقية في الحضارة العربية الإسلامية ١٩٨١.
٢٢- الاستقلال الذي نريد ١٩٨٢.
٢٣- الغزو الثقافي الإمبريالي للأمة العربية ١٩٨٢.
٢٤- الإسلام ومحاورة أهل الكتاب ١٩٨٣.
٢٥- المسلمون في لبنان ١٩٨٤.
٢٦- مالية الدولة الإسلامية في خلافة معاوية بن أبي سفيان ١٩٨٥.

٢٧- الجوانب الاجتماعية للزكاة ١٩٨٦.
٢٨- إسهام الفكر الخلدوني في إدراك التاريخ وعلم الاجتماع ١٩٨٦.
٢٩- الأولوية لصندوق الزكاة ١٩٨٧.
٣٠- الوحدة طريق النصر ١٩٨٧.
٣١- العلاقة بين العروبة والإسلام أعمق من أسباب النزاعات ١٩٨٩.
٣٢- بيروت ساحل الشام وقصبته ١٩٩٠.
٣٣- المرأة في التعليم الجامعي ١٩٩١.
٣٤- المرأة البيروتية تاريخ ومواقف ١٩٩٢.
٣٥- العلامة محمد جميل بيهم ١٩٩٤.
٣٦- العروبة والإسلام ١٩٩٥.
٣٧- ثقافتنا العربية الإسلامية ودورها في الثقافة العالمية ١٩٩٦.
٣٨- الاقتصاد الإسلامي وقائع وآفاق ١٩٩٨.

ح - المحاضرات

١- المرأة في صدر الإسلام ١٩٥٢.
٢- القومية وأثرها الاجتماعي والسياسي في العصر العباسي الأول ١٩٥٢.
٣- العصبية في المجتمع العربي ١٩٥٤.
٤- الناجحون يتحدثون عن أسباب نجاحهم ١٩٥٥.
٥- بين السُنَّة والشيعة ١٩٥٦.
٦- التاريخ والقومية العربية ١٩٥٨.
٧- لبنان والقضية العربية ١٩٥٩.
٨- بين التربية والتاريخ ١٩٥٩و١٩٦١.
٩- جولة في معالم التاريخ الإسلامي ١٩٧٨.
١٠- نحن وأميركا والغرب ١٩٧٩.
١١- تاريخنا وكيف نكتبه ١٩٧٩.
١٢- القيم والأعراف الأخلاقية في الحضارة العربية الإسلامية ١٩٨١.
١٣- الاستقلال ١٩٨٢.
١٤- لتبقى بيروت سيدة العواصم العربية ١٩٨٤.
١٥- الوحدة العربية بين الواقع والمرتجى السياسي ١٩٨٥.
١٦- الأزمة اللبنانية ١٩٨٧.
١٧- ذكريات تعلو فنعلو بها ١٩٩٠.
١٨- المرأة في الإسلام ١٩٩١.
١٩- الواقع التربوي ١٩٩٢.
٢٠- المؤرخ العلامة محمد جميل بيهم ١٩٩٥.

ثالثاً :المصادر العربية

القرآن الكريم.

١- **الأثير – ابن - علي بن أحمد بن أبي الكرم:** الكامل في التاريخ. دار صادر ودار بيروت. لاط. ١٩٦٥

٢- **أحمد (الإمام) :** المسند. الطبعة الميمنية.

٣- **الأنباري، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار:** الإنصاف في مسائل الخلاف. ج ٢. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. دار الفكر. بيروت. لاط. لاتا.

٤- **البخاري، عبد الله بن محمد بن إسماعيل:** صحيح البخاري (٤أجزاء)، طبعة بالأوفسيت عن طبعة دار الطباعة العامرة بإستامبول. دار الفكر. بيروت. لا ط. لا. تا. وطبعة دار الكتب العلمية. بيروت. لاط. لاتا.

٥- **البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحي بن جابر البغدادي:** فتوح البلدان. تحقيق صلاح الدين المنجد. لا د. ن. لا ط. القاهرة ١٩٥٧م.

٦- **حجر – ابن - العسقلاني، أحمد بن علي:** الإصابة في تمييز الصحابة. ج٢. مطبعة السعادة. القاهرة. ط١. ١٣٢٨هـ. وطبعة ثانية صادرة عن دار صادر. بيروت. لا، تا.

٧- **خلدون – ابن - عبد الرحمن:** مقدمة ابن خلدون. وهي مقدمة للكتاب المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في- أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

٨- **خلكان – ابن - ،شمس الدين أحمد:** وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق الدكتور إحسان عباس.دار صادر ودار بيروت. لا ط. بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٩- **الدينوري، أحمد بن داود أبو حنيفة:** الأخبار الطوال. تحقيق عبد المعم عامر. مراجعة الدكتور جمال الدين الشيال. مكتبة المثنى ببغداد. لا ط. لا تا.

١٠- **الزركلي، محي الدين:** الإعلام. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة السابعة ١٩٨٦.

١١- **السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال:** تاريخ الخلفاء. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. دار المعرفة. لا ط. لاتا. والجامع الصغير في أحاديث البشير النذير. جزءان. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. ١٩٩٠.

١٢- **الشهرستاني، أبو الفتح محمد أحمد:** الملل والنحل. تحقيق محمد سيد كيلاني. دار المعرفة. بيروت .لاط ١٤٠٢هـ - ١٩٨٤م.

١٣- **الطرطوسي – أبو - بكر:** سراج الملوك. دار صادر. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

١٤ – **عبد البر – ابن:** التمهيد. طبعة المغرب ١٣٨٧هـ.

١٥- **عساكر – ابن - علي بن الحسن:** تهذيب تاريخ دمشق الكبير. هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران. دار المسيرة. بروت. الطبعة الثانية. ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٦- **الفداء – أبو - إسماعيل بن محمود:** المختصر في أخبار البشر. ج١. المطبعة الحسينية المصرية. مصر. الطبعة الأولى. لا تا.

١٧- **الفقاعي:** مسند الشهاب. ج١. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٦.

١٨- **قتيبة – ابن – عبد الله بن مسلم:** عيون الأخبار. ج١و٤. طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية. ١٣٤٣هـ ١٩٢٥ م.

١٩- **كثير – ابن – عماد الدين أبو الفداء:** البداية والنهاية. وثقه وقابل مخطوطاته الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود. وضع حواشيه الدكتور أحمد أبو ملحم وآخرون. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٢٠- **الماوردي – أبو – الحسن، علي بن محمد بن حبيب:** الأحكام السلطانية والولايات الدينية. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢١- **المسعودي، علي بن الحسين أبو الحسن:** مروج الذهب ومعادن الجوهر. ج٣. طبعه بربيه دي مينار وبافيه دي كرتاي. عني بتنقيحها وتصحيحها: شارل بلا. منشورات الجامعة اللبنانية. قسم الدراسات التاريخية – ١١ – بيروت ١٩٧٠م. والجزء الثاني. من طبعة أخرى، عني بتحقيقها: محمد محي الدين عبد الحميد. دار الفكر. بيروت. الطبعة الخامسة. ١٩٧٣.

٢٢- **مسلم، الإمام:** صحيح مسلم. دار الجيل ودار الآفاق الجديدة. بيروت. ج٣. لا. تا.

٢٣- **المناوي:** فيض القدير. تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي. طبعة المكتبة التجارية الكبرى. الطبعة الأولى. القاهرة ١٣٥٦هـ .

٢٤- **منظور – ابن - محمد بن مكرم :** لسان العرب . دار صادر. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٩٠م.

٢٥- **هشام – ابن - عبد الملك:** السيرة النبوية. حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي. دار إحياء التراث العربي- بيروت ومكتبة الإيمان – طرابلس. الطبعة الثالثة. ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٢٦- **ياقوت، عبد الله الحموي:** معجم البلدان. ج ٤. دار صادر . بيروت ١٩٨٤.

٢٧- **يحي – ابن - صالح:** تاريخ بيروت. أشرف على تحقيقه فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي بالاشتراك مع أنطوان كوتان، بيار روكالف، أنطوان مدور ويوسف وهبة. دار المشرق. بيروت. لا ط . ١٩٦٩.

رابعاً: المراجع العربية

١ – **الأبيض، أنيس:** رشيد رضا، تاريخ وسيرة. جروس برس. طرابلس – لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩٣.

٢ – **إبراهيم، حافظ:** الديوان. ضبطه وصححه وشرحه ورتبه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري. دار العودة للطباعة والنشر. بيروت . لا تا.

٣ - **أبو ملحم، أحمد:** يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري. المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت. لا ط. لا تا.

٤- **أمين،أحمد:** ضحى الإسلام. ج ١. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة العاشرة. لا .تا.

٥- **أمين، أحمد:** زعماء الإصلاح. دار الكتاب العربي. بيروت. لا ط. ١٩٧٩.

٦- **أنطونيوس، جورج:** يقظة الأمة العربية. تاريخ حركة العرب القومية. ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة السادسة ١٩٨٢.

٧- **أوسينوبوس، لانجلو، بول ماس وإمانويل كنت:** النقد التاريخي. ترجمه عن الفرنسية والألمانية

الدكتور عبد الرحمن بدوي. وكالة المطبوعات. الكويت. الطبعة الرابعة ١٩٨١.

٨- **بدران، أحمد (رائد):** الاتجاه الوحدوي في فكر علي ناصر الدين (صاحب قضية العرب). تقديم المؤرخ الدكتور حسان حلاق. المركز العربي للأبحاث والتوثيق. بيروت. لا ط. لا تا.

٩- **بروكلمان، كارل:** تاريخ الشعوب الإسلامية. نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة العاشرة ١٩٨٤.

١٠ - **البستاني، عبد الله إسماعيل:** الإعلان الدولي لحقوق الإنسان (محاضرة). بيروت في ١٩٥١/٢/٢٢.

١١ - **بشور، معن:** العروبة والإسلام (محاضرة). ندوة الشهباء. حلب في ١٩٩٤/٤/٨.

١٢ - **بيسون، إيف:** ابن سعود ملك الصحراء، تأسيس المملكة العربية السعودية. ترجمة وتعليق عبد الله بن حمد الدليمي وعبد الله بن عبد الرحمن الربيعي. مكتبة الملك عبد العزيز العامة. الرياض. لا ط. ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

١٣ - **بيهم، محمد جميل:** الوحدة العربية بين المد والجزر، والعرب بين التقارب والتباعد ١٨٦٨ – ١٩٧٢. الدار الجامعية. بيروت. لا ط. ١٩٧٣.

١٤ - **بيهم، محمد جميل:** فتاة الشرق في حضارة الغرب. مطبعة قلفاط. لا ط. بيروت ١٩٥٢.

١٥ - **بيهم، محمد جميل:** فلسفة تاريخ محمد. تقديم الدكتور حسان حلاق. الدار الجامعية. بيروت. لاط. لاتا.

١٦ - **بيهم، محمد جميل:** الوحدة العربية بين المد والجزر، والعرب بين التقارب والتباعد ١٨٦٨- ١٩٧٢. الدار الجامعية. لا ط. بيروت ١٩٧٣.

١٧ - **تقي الدين، منير:** ولادة الاستقلال. مراجع الاستقلال (٢): تقديم الدكتور أحمد بيضون. دار النهار للنشر. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٩٧.

١٨ - **جبر، جورج:** ميشال شيحا، خواطر. جزءان. دار النهار للنشر. بيروت. الطبعة الأولى١٩٩٧.

١٩ – **جحا، ميشال:** فرح أنطون. رياض الريس للكتب والنشر. بيروت. الطبعة الأولى. أيلول/سبتمبر ١٩٩٨.

٢٠ – **جغلول، عبد القادر:** الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون. دار الحداثة. بيروت. الطبعة الرابعة ١٩٨٧.

٢١ - **جفّال، خليل:** الشعوبية والأدب ، أبعاد ومضمونات من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري. دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. الطبعة الأولى١٩٨٦.

٢٢ - **جمال الدين، نجيب وشحادة الخوري:** حول المرأة (دراسة علمية، اجتماعية تاريخية). آراء ونظريات حديثة. المكتبة الكبرى . دمشق. لا ط. لا. تا.

٢٣ - **جنبلاط، كمال:** حقيقة الثورة اللبنانية. الدوافع الحقيقية للنتفاضة اللبنانية الأخيرة.. (انتفاضة ١٩٥٨) لجنة تراث القائد الشهيد كمال جنبلاط. ١٦ آذار ١٩٧٦. لا ط. لا تا.

٢٤ – **الجندي، أنور:** الثقافة العربية إسلامية أصولها وانتماؤها. الموسوعة الإسلامية العربية – ٩ – دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٢.

٢٥ - **الحارثي، ساعد العرابي:** الملك عبد العزيز، رؤية عالمية. دار القمم للإعلام. المملكة العربية السعودية. الطبعة الثانية. ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٢٦ - **حتي، فيليب وإدوارد جرجي وجبرائيل جبور:** تاريخ العرب. دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت الطبعة السادسة١٩٧٤.

٢٧ - **حسن، إبراهيم حسن:** تاريخ الإسلام. أربعة أجزاء. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. الطبعة السابعة ١٩٦٤

٢٨ - **حسين، طه ونقولا زيادة وفؤاد أفرام البستاني وكامل عياد:** مهمة الجامعة في العالم العربي. أشرف على إخراجه هيئة الدراسات في الجامعة الأميركية في بيروت. عن مجلة الأبحاث . العدد الثاني. السنة الثانية. حزيران ١٩٥٥.

٢٩ – **حسين، عدنان السيد:** النزاعات الأهلية – العربية، العوامل الداخلية والخارجية. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٧.

٣٠ - **الحصري، أبو خلدون ساطع:** العروبة بين دعاتها ومعارضيها. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الأولى١٩٥٢.

٣١ - **الحصري، أبو خلدون ساطع:** دراسات عن مقدمة ابن خلدون. طبعة موسعة. مكتبة الخانجي القاهرة ودار إحياء الكتاب العربي بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٦٧.

٣٢ - **الحصري، أبو خلدون ساطع:** العروبة أولاً. سلسلة التراث القومي. الأعمال الكاملة لساطع الحصري (٩). مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٥.

٣٣ - **الحصري، أبو خلدون ساطع:** ما هي القومية ؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات. سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري (١٣). مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٥.

٣٤ – **الحصري، أبو خلدون ساطع:** حول القومية العربية. سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري (١٤). مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٧.

٣٥ – **الحكيم، يوسف:** بيروت ولبنان في عهد آل عثمان. ذكريات ١١. دار النهار للنشر. بيروت. الطبعة الثانية.١٩٨٠.

٣٦ – **حمادي، سعدون:** حول القومية العربية، سألني سائل فأجبت. سلسلة الثقافة القومية (٢٣) مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. الطبعة الأولى. حزيران/يوليو ١٩٩٤.

٣٧ – **حلاق، حسان:** المؤرخ العلامة محمد جميل بيهم ١٨٨٧-١٩٧٨. من رواد النهضة السياسية والاجتماعية والفكرية في لبنان والعالم العربي. تقديم الدكتور عمر فروخ. لجنة تكريم العلامة محمد جميل بيهم. بيروت ١٩٨٠.

٣٨ - **حلاق، حسان:** بيروت المحروسة في العهد العثماني. الدار الجامعية. بيروت. الطبعة الأولى١٩٨٧.

٣٩ - **حلاق، حسان:** التيارات السياسية في لبنان ١٩٤٣ – ١٩٥٢. الدراسات التاريخية. معهد الإنماء العربي. بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٤، والطبعة الثانية، الدار الجامعية. بيروت ١٩٨٨.

٤٠ - **حلاق، حسان:** ملامح من تاريخ بيروت التراثي والاجتماعي (محاضرة) بيروت في ١٩٩٣/١٢/١٤.

٤١ – **حلاق، حسان:** مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة ١٩٦٣. الدار الجامعية. بيروت. لاط. لاتا.

٤٢ - **حلاق، حسان:** التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية في القرن التاسع عشر. ج١. سجلات المحكمة الشرعية في بيروت. الدار الجامعية. بيروت. لاط. ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٤٣ – **حلاق، حسان:** صفحات مشرقة من تاريخ بيروت المحروسة (محاضرة) ١٩٩٣/١/١٥.

٤٤ – **حلاق، حسان:** دراسات في تاريخ لبنان المعاصر ١٩٨٥. دار النهضة العربية. بيروت. لاط. ١٤٠٧هـ /١٩٨٥.

٤٥ - **حيدر، فؤاد:** المرأة في الإسلام وفي الفكر الغربي. دار الفكر العربي. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٢.

٤٦ – **حوراني، ألبرت:** الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ – ١٩٣٩. ترجمه إلى العربية: كريم عزقول. دارالنهار للنشر. بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٧٧.

٤٧ - **خالدي، مصطفى وعمر فروخ:** التبشير والاستعمار في البلاد العربية. عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي. منشورات المكتبة العصرية. بيروت١٩٨٢.

٤٨ - **خرطبيل، وديعة قدوره:** بحثاً عن الأمل والوطن. ذكريات ومذكرات. ستون عاماً من كفاح امرأة في سبيل قضية فلسطين ١٩٣٦ - ١٩٩٠. بيسان للنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩٥.

٤٩ – **الخطيب، حنيفة:** تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان وارتباطها بالعالم العربي ١٨٠٠-١٩٧٥. دار الحداثة. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٤.

٥٠ - **خفاجي، محمد عبد المنعم:** تحقيق الديوان للشافعي. عالم الكتب ومكتبة الكليات الأزهرية. بيروت والقاهرة. الطبعة الأولى ١٩٩٠.

٥١ – **الخوري، مراد:** نساء من لبنان. (الكتاب الذهبي) ج ٢. منشورات تعاونية النشر والإعلام ومجلة أزياء. بيروت. لاط. لا تا.

٥٢ - **داية، جان:** الإمام الكواكبي، فصل الدين عن الدولة. دار سوراقيا للنشر. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٨.

٥٣ - **الدباغ، مصطفى مراد:** الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام. ج ٢. دار الطليعة. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٦٣.

٥٤ - **الدخيل، الشيخ سعيد فايز:** موسوعة فقه عائشة أم المؤمنين، حياتها وفقهها. تقديم ومراجعة الأستاذ الدكتور محمد رواس قلعهجي. دار النفائس. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٩.

٥٥ – **الدواليبي، محمد معروف:** المرأة في الإسلام. دار النفائس. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٩.

٥٦ - **الدوري، عبد العزيز:** إعادة كتابة التاريخ العربي (محاضرة). دار الندوة. بيروت. تموز ١٩٩٢.

٥٧ – **ديورانت، ول وأيريل: قصة الحضارة.** مج ١و٣و٥. ج١. ومج ١١-١٢/ ٤٢. ج ٣. من المجلد

الثالث: الحضارة الرومانية، عصر الإيمان. ترجمة: محمد بدران. دار الجيل. بيروت. لا ط. لا تا.

٥٨ – **رستم، أسد:** البشير بين السلطان والعزيز (١٨٠٤ – ١٨٤١). القسم الثاني. قسم الدراسات التاريخية – ٣ - منشورات الجامعة اللبنانية. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٦٦.

٥٩ – **زريق، فردريك:** العرب في نظر الغرب. نسخة قديمة). لا ط. لا تا.

٦٠ – **زريق، قسطنطين:** الأعمال الفكرية الكاملة (٣ مجلدات). دار الوحدة العربية، ومؤسسة عبد الحميد شومان بيروت. لا ط. تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩٤.

٦١ – **زيادة، خالد:** مئة سنة على وفاة الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٠٨ – ١٨٨٣). مجلة المقاصد. العدد ١٣. السنة الثانية. شعبان ١٤٠٣هـ - أيار ١٩٨٣م.

٦٢ – **زيدان، جرجي:** العرب قبل الإسلام. دار مكتبة الحياة. بيروت. لا ط. ١٩٦٦.

٦٣ - **زين، زين نور الدين:** نشوء القومية العربية، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية . دار النهار للنشر. بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٧٩.

٦٤ - **سبيتي، حسين محمد:** أعلام فلسفة التاريخ. تقديم الدكتور ساسين عساف. المكتب العالمي للطباعة والنشروالتوزيع. بيروت ١٩٩٦.

٦٥ – **ستيوارت، ديزموند:** تاريخ الشرق الأوسط الحديث. معبد جانوس. نقله إلى العربية: زهدي جاد الله. دارالنهار للنشر. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨١.

٦٦ - **السحمراني، أسعد:** المرأة في التاريخ والشريعة. دار النفائس. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٩.

٦٧ - **سعادة، أنطون:** التعاليم السورية القومية الاجتماعية. مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي وغايته. دارالركن للطباعة والنشر. بيروت. لا ط. لا تا.

٦٨ – **سعد، فاروق:** نيقولو مكيافيللي/ الأمير، تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده. تعليق: بنيتو موسوليني. مقدمة: كريستيان غاوس. تعريب: خيري حماد. تعقيب: الدكتور فاروق سعد. منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت. الطبعة الثالثة والعشرون ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٦٩ - **السعيد، أمينة:** المرأة العربية وتحدي المجتمع (محاضرة) نشرة الندوة اللبنانية. بيروت. النشرة رقم ١١و١٢ للعام ١٩٦٧.

٧٠ – **سلطي، التل سهير:** حركة القومية العربية وإنعطافاتها الفكرية. سلسلة الثقافة القومية (٣) مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٦.

٧١ – **سلمان، طلال:** هوامش في الثقافة والأدب.. والحب . ج ٢. دار الفارابي. بيروت. الطبعة الأولى٢٠٠١.

٧٢ – **سليمان، عصام:** مدخل إلى علم السياسة. لا دار نشر. الطبعة الرابعة ١٩٩٨.

٧٣– **سليمان، همذان:** سليم حيدر، حياته وشعره. دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٧٤ – **سوبول، ألبير:** تاريخ الثورة الفرنسية. ترجمة جورج كوس. منشورات بحر المتوسط. بيروت – باريس، ومنشورات عويدات. بيروت – باريس. الطبعة الثالثة ١٩٨٢.

٧٥ – **السودا، يوسف:** تاريخ لبنان الحضاري. دار النهار للنشر. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٧٩.

٧٦ - **سويد، محمود:** العروبة وفلسطين. حوار شامل مع قسطنطين زريق. مؤسسة الدراسات

الفلسطينية. مرجعيات ٢. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٩٦ .

٧٧ – **سيد أحمد، رفعت:** ثورة الجنرال، جمال عبد الناصر. دار الجيل، بيروت ودار الهدى، القاهـرة. الطبعـة الأولى ١٩٩٣.

٧٨ - **سيف الدولة، عصمت:** عن العروبة والإسلام. سلسلة الثقافة القومية(٢). مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٦.

٧٩ - **شبارو، عصام:** سور بيروت وأبراجها (محاضرة). بيروت في ١٩٩٣/٨/١٧.

٨٠ – **شبارو، عصام:** تاريخ بيروت. دار مصباح الفكر. بيروت. لا ط. ١٩٨٦.

٨١ – **الشدياق، الشيخ طنوس:** أخبار الأعيان في جبل لبنان. جزءان. وقف عليه وناظر طبعـه: المعلم بطرس البستاني. إشراف: نظير عبود. حققه: دكتور مارون رعد. فهرسه: إلياس حنا. دار نظير عبود. لاط. ١٩٩٧.

٨٢ – **شرابي، هشـام:** المثقفون العرب والغرب • عصر النهضة ١٨٧٥ - ١٩١٤. دار النهار للنشر. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٧٨.

٨٣ - **شهاب الدين، أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي:** شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل. قدم لـه وصححه ووثق نصوصه وشرح غريبه الدكتور محمد كشاش. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٩٨.

٨٤ - **الأمير الشهابي، مصطفى:** القومية العربية، تاريخها وقوامهـا ومراجعهـا (محاضرات). جامعة الدول العربية/ معهد الدراسات العربية العالية. الطبعة الثانية. ١٩٦١.

٨٥ – **الشيخ علي، فائق:** مذكرات وريثة العروش. دار الحكمة. لندن. الطبعة الأولى ٢٠٠٢.

٨٦ - **صانغ، سلمى:** وجه أمي، وجه أمتي (محاضرة) الندوة اللبنانية. بيروت. النشرة رقم ٧. في ١٩٤٨/٧/٢٩.

٨٧ - **الصليبي، كمال:** تاريخ لبنان الحديث. دار النهار للنشر. بيروت. الطبعة الرابعة ١٩٧٨.

٨٨ - **صايغ، أنيس:** عبد الناصر وما بعد. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٠.

٨٩ - **ضاهر، مسعود:** الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٧١ – ١٨٦١. معهد الإنماء العربي. بيروت. لاط. ١٩٨٦.

٩٠ – **عبد الدايم، عبد الله:** التربية عبر التاريخ. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٧٣.

٩١ – **عبد الناصر، جمال:** فلسفة الثورة. لاط. لا تا.

٩٢ – **عبده، محمد (الشيخ الإمام):** رسالة التوحيد. تقديم وشرح وتعليق: الشيخ يوسف الغزال. دار إحياء العلوم. بيروت. الطبعة السابعة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

٩٣ – **عثمان، حسن:** منهج البحث التاريخي. دار المعارف. مصر. الطبعة الثالثة ١٩٧٠.

٩٤ – **العريس، محمد:** المنحى السياسي والثقافي والاجتماعي في فكر زاهية من خلال أبحاثها ودراساتها. أطروحة دكتوراه. الجامعة اللبنانية. بيروت ٢٠٠٢. غير منشورة.

٩٥ - **عساف، ساسين:** ثقافة المواجهة. شرق أوسط جديد، أم صهيونية جديدة. دار النفائس. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٦.

٩٦ – **عصفور، أبو المحاسن:** معالم تاريخ الشـرق الأدنى القديم من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر. دار النهضة العربية. بيروت. لا ط. ١٩٨١.

٩٧- **العظمة، عزيز:** ابن خلدون وتاريخيته. ترجمة عبد الكريم ناصيف. دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت . الطبعة الأولى ١٩٨١.

٩٨ - **العقاد، صلاح:** جزيرة العرب في العصر الحديث. السعودية، اليمن، جمهورية اليمن الشعبية. معهد البحوث والدراسات العربية. جامعة الدول العربية. القاهرة ١٩٦٩.

٩٩ - **العيتاني، محمد زكريا:** بني العيتاني، الأصول والفروع. دار المسـيرة. مؤسسة عيتاني للطباعة والنشر. بيروت. الطبعة الأولى١٩٨٢.

١٠٠ - **غارودي، روجيه:** الإسـلام الحي. ترجمة دلال بواب ضاهر والدكتور محمد كامل ضاهر. دار البيروني للطباعة والنشر. بيروت – لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩٥. توزيع دار النفائس. بيروت.

١٠١ – **الفاخوري، حنا:** تاريخ الأدب العرب. المطبعة البوليسية. لاط. لاتا.

١٠٢ – **فايد، عبد الحميد:** المرأة وأثرها في الحياة العربية. دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسـة. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٣.

١٠٣- **فضل الله، السيد محمد حسين:** تأملات إسلامية حول المرأة. دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. الطبعة الخامسة١٩٩٤.

١٠٤- **قاموس المنجد في الأعلام واللغة.** طبعة جديدة منقحة. دار الشرق. بيروت. الطبعة ٣٧. ١٩٩٨.

١٠٥- **قدوره، أديب (النقيب):** حقائق ومواقف. دار مؤسسة فكر. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٨.

١٠٦- **قلعجي، قدري:** الثورة العربية الكبرى ١٩١٦ – ١٩٢٥. جيل الفداء يوماً بيوم مع كامل الأسـماء والوثائق والأدوار. شركة المطبوعات للتوزيع والنشر. بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٩٨.

١٠٧ - **كار، إدوار:** ما هو التاريخ ؟ ترجمة ماهر الكيالي وبيار عقل. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٨٦.

١٠٨ - **كبارة، شعراني أمان:** التربية والمرأة والعمل (بحث غير منشور).

١٠٩ – **كبارة، نزيه:** عبد الرحمن الكواكبي. حياتـه وعصره وآراؤه. جروس برس. طرابلس. الطبعة الأولى. ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

١١٠ - **الكبيسي، باسل:** حركة القوميين العرب. تعريب نادرة الخضيري الكبيسي. مؤسسـة الأبحاث العربيـة. بيروت. الطبعة الرابعة ١٩٨٥.

١١١ - **كتابة تاريخ لبنان إلى أين ؟** بحوث ومناقشـات الندوة الدراسـية التي نظمتها جمعية متخرجي المقاصد الإسلامية في بيروت. بيروت ١٩٩٣.

١١٢ - **كتيب كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية. بيروت ١٩٨٣.**

١١٣ - **كتيب المركز الإسلامي. بيروت ١٩٩٢.**

١١٤ – **كرانستون، موريس:** أعلام الفكر الفلسفي. دار النهار للنشر. بيروت. لا ط ١٩٧٠ وهو معرب

عن اللغة الإنكليزية على الشكل التالي: Western Political Philosophers. Maurice Cranston ١٩٦٤. first Published In English ١٩٦٤.

١١٥ - **كفافي، محمد عبد السلام وسعفان، حسن شحاته والعريني، السيد الباز وسعودي، عبد الغني وصبحي، حسن:** المجتمع العربي. دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت ١٩٦٧.

١١٦ - **كفافي، محمد عبد السلام:** الحضارة العربية طابعها ومقوماتها العامة. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧٠.

١١٧ - **كلاس، جورج:** الحركة الفكرية النسوية في عصر النهضة. أطروحة دكتوراه غير منشورة. جامعة القديس يوسف. بيروت ١٩٨٤.

١١٨ – **لواساني، أحمد:** نظرات جديدة في الأدب العربي. منشورات لواسان. بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

١١٩ - **محمد، محمد علي وعلي عبد المعطي محمد** : السياسة بين النظرية والتطبيق. دار النهضة العربية. بيروت.لا ط. ١٩٨٥.

١٢٠ - **مرحبا، محمد عبد الرحمن:** الموجز في تاريخ العلوم عند العرب. تقديم الدكتور جميل صليبا. دار الكتاب اللبناني. بيروت ١٩٧٠.

١٢١- **مظهر، إسماعيل:** المرأة في عصر الديموقراطية. مكتبة النهضة المصرية . بيروت لا ط. لا تا.

١٢٢ - **موسى، سليمان:** الحركة العربية. المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة١٩٠٨ – ١٩٢٤. دار النهار للنشربيروت. الطبعة الثانية ١٩٧٧.

١٢٣– **ناتنج، أنتوني:** ناصر. ترجمة: شاكر ابراهيم سعيد. مكتبة مدبولي. القاهرة. الطبعة الثانية١٩٩٣.

١٢٤– **النجار، حسين فوزي:** رفاعة الطهطاوي، رائد فكر وإمام نهضة. أعلام العرب (٥٣). الدار المصرية للتأليف والترجمة. القاهرة. لا ط. لا تا.

١٢٥- **ندوة جزر الخليج العربي، أسباب النزاع ومتطلبات الحل.** مركز الدراسات العربي– الأوروبي. باريس١٩٩٤

١٢٦- **ندوة القومية العربية والإسلام.** مجموعة باحثين.مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. الطبعة الثالثة١٩٩٨

١٢٧- **نظرية الثقافة.** مجموعة من الكتاب. سلسلة عالم المعرفة. الكويت. عدد ٥ تموز/ يوليو ١٩٩٧.

١٢٨ – **نويهض، عادل:** معجم أعلام الجزائر، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر. مؤسسة نويهض. بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٢٩- **هوفمان، مراد:** الإسلام كبديل (دراسة). ترجمة: محمد غريب. مجلة النور. الكويت ١٩٩٣.

١٣٠– **هيكل، محمد حسنين:** كلام في السياسة. المصرية للنشر العربي والدولي. القاهرة. الطبعة الخامسة. كانون الثاني/يناير ٢٠٠١.

١٣١- **ويدجري، إليان جريجوري:** التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد. الجزء الأول. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. الطبعة الثانية ١٩٩٦.

١٣٢- **الولي، طه:** بيروت في التاريخ والحضارة والعمران. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الأولى

١٩٩٣.

١٣١- **ويلينكسون، جون س.:** حدود الجزيرة العربية. قصة الدور البريطاني في رسم الحدود عبر الصحراء. ترجمة مجدي عبد الكريم. مكتبة مدبولي. القاهرة. الطبعة الأولى ١٩٩٣

١٣٢- **يازجي، حليم:** جذور الفكر القومي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أبحاث في الفكر القومي. المجلد الأول. مجموعة من المؤلفين. سلسلة دراسات أعدت بإشراف الدكتور معن زيادة. معهد الإنماء العربي. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٣

١٣٣- **يفريموفا، نتاليا وسلوم، توفيق:** معجم العلوم الاجتماعية.

خامساً: مراجع عربية خاصة

١ – كتاب محادثات الوحدة المصرية – السورية

٢ – برنامج صدى السنين (روايات من سيرة حياة الدكتورة زاهية قدوره) إذاعة صوت الوطن. بيروت ١٩٩٢.

٣ – برنامج علامات فارقة في حياتي (محطات من ذكريات الدكتورة زاهية قدوره) إذاعة صوت لبنان. بيروت.١٩٩٢.

سادساً: مراجع باللغة الأجنبية

H.H. Schaeder : Das Individium in Islam; in : (Btologie der Person IV , S. – ١٩٢٩)

سابعاً: الدوريات والجرائد اللبنانية والعربية

١ – أوراق لبنانية. السنة الأولى. الجزء الأول. تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٥٥.

٢ – الاتحاد النسائي العراقي ١٩٥٠

٣ - الاثنين (مصر) ١٩٤٩، ١٩٥١،١٩٥٩.

٤ - الأحد (بيروت) ١٩٥١، ١٩٥٥،١٩٥٨، ١٩٦١.

٥ - الآداب (بيروت) ١٩٧٤، ١٩٧٥، ١٩٧٧، ١٩٧٩.

٦ - الأساس (مصر) ١٩٤٧.

٧ - الأسبوع العربي (بيروت) ١٩٥٩.

٨- الإسعاف الشعبي (بيروت) ١٩٩١.

٩- الأفكار (بيروت) ١٩٨٧،١٩٩٢.

١٠- الأنباء (بيروت) ١٩٥١.

١١- الأنوار (بيروت) ١٩٥٩، ١٩٧١، ١٩٧٣، ١٩٧٥.

١٢- الأهرام (مصر) ١٩٦٠.

١٣ – البناء (بيروت) ١٩٧٠

١٤- البيرق (بيروت) ١٩٧١، ١٩٧٤.

١٥- بيروت (بيروت) ١٩٤٧، ١٩٥٣، ١٩٦٣، ١٩٧١،

١٦- بيروت المساء (بيروت) ١٩٤٧، ١٩٥٣، ١٩٥٥، ١٩٥٩.

١٧- تاريخ العرب والعالم (بيروت) ١٩٨٠، ١٩٩٢، ١٩٩٧.

١٨- التلغراف (بيروت) ١٩٥٨، ١٩٥٩، ١٩٧١.
١٩- ثمرات الفنون. السنة ١٥. العدد ٧٣٥. ١٨٨٩/٥/٢٧ والعدد ١٤٥٧. ١٩٠٢/١/٢٣.
٢٠- الجريدة (بيروت) ١٩٥٦، ١٩٥٩، ١٩٧٥.
٢١- الجمهور (بيروت) ١٩٦١.
٢٢- الجمهورية (بيروت) ١٩٧١.
٢٣- الحديث ١٩٧٠
٢٤- الحسناء (بيروت) ١٩٧٣.
٢٥- الحوادث (بيروت) ١٩٥٨، ١٩٦١، ١٩٦٣، ١٩٦٤.
٢٦- الحياة (بيروت) ١٩٥٣، ١٩٥٨، ١٩٥٩، ١٩٦٣، ١٩٦٦، ١٩٦٥، ١٩٧١، ١٩٧٤، ١٩٧٥.
٢٧- الدليل اللبناني (بيروت) ١٩٦٥.
٢٨- الدنيا (بيروت) ١٩٥٩.
٢٩- الرواد (بيروت) ١٩٥٩.
٣٠- السفير (بيروت) ١٩٧٥، ١٩٩٣، ١٩٩٤، ١٩٩٧، ١٩٩٩.
٣١- السياسة (بيروت) ١٩٤٨، ١٩٥٨، ١٩٥٩، ١٩٦١، ١٩٦٣.
٣٢- الشراع (بيروت) ١٩٩٣.
٣٣- الشرق (بيروت) ١٩٦١، ١٩٧٤.
٣٤- الشعب (بيروت) ١٩٧٤.
٣٥- الشمس (بيروت) ١٩٧١.
٣٦- صباح الخير (بيروت) ١٩٩٠.
٣٧- الصحافة (بيروت) ١٩٥٩.
٣٨- صوت العروبة (بيروت) ١٩٦١، ١٩٦٣، ١٩٧٥.
٣٩- صوت الفيحاء (لبنان) ١٩٧٠.
٤٠- صوت المرأة (بيروت) ١٩٤٧، ١٩٥٥، ١٩٨٨.
٤١- الصياد (بيروت) ١٩٥٨، ١٩٥٩، ١٩٦٣، ١٩٧١.
٤٢- العمل (بيروت) ١٩٧١.
٤٣- الغدير (بيروت) ١٩٩٥.
٤٤- الفكر العربي (بيروت) ١٩٧٨.
٤٥- الفكر الإسلامي (بيروت) ١٩٧٥، ١٩٨٥.
٤٦- فيروز (بيروت) ١٩٨١، ١٩٩١.
٤٧- قضايا عربية (بيروت) ١٩٨٠
٤٨- كراس لجنة النشاطات الاجتماعية. كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الجامعة اللبنانية (بيروت) ١٩٧٠.
٤٩- الكفاح (بيروت) ١٩٥٩، ١٩٧١.
٥٠- الكفاح العربي (بيروت) ١٩٥٩، ١٩٧٤.

٥١- كل شيء (بيروت) ١٩٤٧، ١٩٤٨، ١٩٤٩، ١٩٥٥، ١٩٥٦، ١٩٥٨.
٥٢- لسان الحال (بيروت) ١٩٧٤.
٥٣- اللواء (بيروت) ١٩٧٠، ١٩٧١، ١٩٧٣، ١٩٨٦، ١٩٨٧، ١٩٨٩، ١٩٩١، ١٩٩٥.
٥٤- المجالس (لبنان) ١٩٧٠.
٥٥- المجلة العربية (السعودية) ١٩٧٧.
٥٦- المحرر (بيروت) ١٩٧١، ١٩٧٣، ١٩٧٤، ١٩٧٦.
٥٧- المرأة (مصر) ١٩٤٧.
٥٨- المستقبل العربي (بيروت) ١٩٧٨.
٥٩- المعلم الجديد (العراق) ١٩٥٨.
٦٠- المنابر (بيروت) ١٩٧٩، ١٩٨٩، ١٩٩٠، ١٩٩٨.
٦١- المنطلق (بيروت) ١٩٨٩.
٦٢- الموقف (بيروت) ١٩٨٣.
٦٢- النداء (بيروت) ١٩٧٥.
٦٣- نداء الوطن (بيروت) ١٩٥٩، ١٩٧٣.
٦٤- الندوة اللبنانية (بيروت) ١٩٤٨، ١٩٦٧.
٦٥- النهار (بيروت) ١٩٥٩، ١٩٦٠، ١٩٦٣، ١٩٧١، ١٩٧٤، ١٩٧٦، ١٩٩٤، ١٩٩٧(ملحق)، ٢٠٠١
٦٦- الوطن العربي (لندن) ١٩٩١.
٦٧- اليوم (بيروت) ١٩٦٣، ١٩٧١.

ثامناً: الدوريات والجرائد باللغة الأجنبية

١- La Revue Du Liban (beyrouth) ١٩٥٦,١٩٦٤.
٢- Le jour ١٩٧٠.
٣- L'Orient(beyrouth) ١٩٥٩,١٩٧٤.
٤- The Daily Star (beyrouth)١٩٧١.

تاسعاً: المقابلات الشخصية

١- الدكتور حليم أبو عز الدين (سفير سابق) بتاريخ ١٩٩٢/١١/١١.
٢- هنري فرعون (محادثة هاتفية قبل وفاته) في ١٩٩٣/٥/٥.
٣- الأديبة المصرية الراحلة أمينة السعيد في ١٩٩٣/٥/٢٣.
٤- المؤرخ الراحل الشيخ طه الولي في ١٩٩٣/٧/١٠
٥- الرئيس رشيد الصلح في ١٩٩٤/١/١٣.
٦- المفكر الأستاذ منح الصلح ١٩٩٤/١/١٣.
٧- السيد رياض القاوقجي في ١٩٩٧/١/٢٧.
٨- الأستاذ بشارة مرهج في ١٩٩٤/١/١٣.
٩- نقيب الصحافة اللبنانية الأستاذ محمد البعلبكي في ١٩٩٤/١/١٤.

١٠ـ المحامية الراحلة لور مغيزل في ١٩٩٤/١/١٣ .

١١ـ نقيب الصيادلة الراحل أديب قدوره في ١٩٩٤/١/٣١.

١٢ـ السيدة أميلي فارس إبراهيم في ٩/٢٦ و١٠/٣ /١٩٩٧.

١٣ـ أحد أعضاء الاتحاد الوطني لطلاب الجامعة اللبنانية(سابقاً) في ١٩٩٥/١١/٢٦.

١٤ـ رئيسة اللجنة الثقافية في اتحاد الجامعيات اللبنانيات الراحلة الدكتورة فائزة سعد الدين رمضان في ١٩٩٦/٨/٢٠و ١٩٩٨/٦/١٣.

١٥ـ رئيسة الجمعية اللبنانية للجامعيات الصحافية السيدة أنجيل خوند الزعني ١٩٩٧/٦/١٤.

١٦ـ السيد وليد عدره في ١٩٩٩/٨/٢٥.

عاشراً : مقابلات شخصية مع زاهية قدوره

إن جميع المقابلات التي جرت مع زاهية تمت في منزلها وقد بدأت منذ العام ١٩٩٢. وبقيت قائمة حتى آخر يوم من حياتها. ولن يتم ذكر تواريخها نظراً لتعددها.

فهرس الموضوعات


A.
Antoine.
LETTRES - SCIENCES HUMAINES
زاهية قدورة الرائدة في فكرها
DEPARTEMENT LIVRES ARABES
9 786144 024799
21000 L.L. TTC